



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِكَ يَا
مُؤْتَمِنُ فَاسْتَبِغْ بِرُوحِكَ الْغُيُوبَ
وَهُوَ الذِّكْرُ إِلَى الْبَيْتِ سَبْعِينَ مِائَةً

كَالْبَيْتِ
أَنْتَهُمَا الْمُؤْتَمِنُ أَبَدًا لِلَّهِ
الْبَيْتُ بِحُجَّتِهِ السَّبْعِينَ مِائَةً



بِسْمِكَ يَا مُؤْتَمِنُ فَاسْتَبِغْ بِرُوحِكَ الْغُيُوبَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رسائل و مقالات: تبحت فى مواضع فقهيه، اصوليه، كلاميه، تراجم، و مكاتبات و حورات مع بعض الاعلام

كاتب:

آيت الله العظمى جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

موسسه الامام الصادق (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٦	رسائل و مقالات: تبحث فى مواضع فقهيه، اصوليه، كلاميه، تراجم، و مكاتبات و حورات مع بعض الاعلام المجلد ٥
٢٦	اشاره
٢٦	اشاره
٣٢	مقدمه المؤلف
٤٠	الفصل الأول: تاريخ علم الكلام و كيفيه نشوئه و تكامله و مدارس
٤٠	١ ما هو سبب تسميه علم الكلام بهذا الاسم؟
٤٠	اشاره
٤٢	نظرنا فى وجه التسميه
٤٣	٢
٤٤	٣
٤٤	اشاره
٤٧	إيضاح و تفصيل
٤٨	استظهار موضوع العلم من خلال غايته
٥١	٤
٥١	اشاره
٥٧	مضاعفات تعطيل العقول عن التفكير
٦١	٥
٦١	اشاره
٦٨	محاوره المفضل مع ابن أبى العوجاء
٦٩	خروج المفضل من المسجد
٧١	القول الحاسم فى المقام
٧٥	الدعوه إلى العلوم الحسنيه
٧٨	٦

- ٧٨ اشاره
- ٧٨ ١. الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ) -
- ٧٨ اشاره
- ٨٢ ١. حدوث العالم زماناً و ذاتاً -
- ٨٤ ٢. علم الباري بالجزئيات -
- ٨٥ ٣. حشر الأجساد يوم القيامة -
- ٨٧ ٢. ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ) -
- ٨٧ ٣. الشهرستاني (٤٦٧ - ٥٤٨هـ) -
- ٩١ ٤. ابن تيميه و آراؤه الفلسفيه -
- ٩١ اشاره
- ٩١ ١. قدم العالم نوعاً -
- ٩٣ ٢. قيام الحوادث بذات الله سبحانه -
- ٩٤ ٣. قوله بالتجسيم -
- ٩٦ ٤. الله سبحانه محدود بالحدّ -
- ٩٧ ٥. نسبه الجهه و المكان لله تعالى -
- ٩٩ ٦. جلوسه سبحانه على العرش -
- ١٠١ ٧. فناء النار و انتهاء عذاب الكفّار -
- ١٠٣ ٧
- ١٠٣ اشاره
- ١٠٣ العوامل الداخليه لنشوء علم الكلام -
- ١٠٣ ١. القرآن هو المنطلق الأوّل -
- ١٠٣ اشاره
- ١٠٤ ١. حوار إبراهيم عليه السلام مع مدعى الربوبيه -
- ١٠٤ ٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع عبده الأصنام -
- ١٠٥ ٣. حوار موسى عليه السلام مع فرعون -
- ١٠٧ ٤. حوار مؤمن آل فرعون مع قومه -

- ١٠٨ ١٢. السّنه هي المنطلق الثاني
- ١٠٨ اشاره
- ١٠٩ احتجاج النبي مع اليهود في تبديل القبلة
- ١١٠ ٣. خطب الإمام على عليه السلام هي المنطلق الثالث
- ١١١ ٤. أئمة أهل البيت عليهم السلام و دورهم في نشوء علم الكلام
- ١١٢ نموذج من مناظرات الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية
- ١١٣ احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع اليهود و النصارى و المجتسمه
- ١١٤ العوامل الخارجيه لنشوء علم الكلام
- ١١٤ ١. معطله العرب
- ١١٦ ٢. اليهود و عقائدهم في التجسيم و القدر
- ١١٧ ٣. النصارى و التثليث
- ١١٨ ٤. الفتوحات الإسلاميه و الاحتكاك الثقافى
- ١٢٣ رساله الإمام الأشعري في استحسان الخوض في علم الكلام
- ١٣٤ ٨
- ١٣٤ اشاره
- ١٣٤ المقام الأوّل: في بدايات الخلاف في عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم
- ١٣٤ اشاره
- ١٣٧ ١. تجهيز جيش أسامه
- ١٣٨ ٢. الأمر بإحضار القلم و الدواه
- ١٣٨ اشاره
- ١٣٨ الخلافات بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم
- ١٤٢ المقام الثاني: بدايات المسائل الكلاميه
- ١٤٢ اشاره
- ١٤٢ ١. الإمامه تنصيبه أو انتخابيه؟
- ١٤٣ ٢. مسأله التحكيم
- ١٤٣ ٣. حكم مرتكب الكبيره

١٤٤	٤. تحديد مفهوم الإيمان	٩
١٤٤	١٥. الإرجاء والمرجئه	٩
١٤٥	٦. القضاء والقدر	٩
١٤٦	٧. مسأله التشبيه والتنزيه	٩
١٤٦	٨. النسخ فى الشريعه	٩
١٤٧	٩. عصمه الأنبياء	٩
١٤٧	١٠. حدوث القرآن وقدمه	٩
١٤٧	١١. التحسين والتقيح العقليان	٩
١٥٠	٩	٩
١٥٠	اشاره	٩
١٥٠	١. الصفات الذاتيه	٩
١٥١	٢. الصفات الخبريه	٩
١٥٢	٣. الصفات الفعليه	٩
١٥٢	٤. العدل	٩
١٥٣	٥. التحسين والتقيح العقليان	٩
١٥٤	٦. القضاء والقدر	٩
١٥٦	١٠. المدارس الكلاميه المهمه	٩
١٥٦	اشاره	٩
١٥٧	١	٩
١٥٩	٢	٩
١٦٠	٣	٩
١٦٠	اشاره	٩
١٦١	الأصول الخمسه عند المعتزله	٩
١٦١	أتمتهم	٩
١٦٣	٤	٩
١٦٤	٥	٩

١٦٥	٦
١٦٦	٧
١٦٦	اشاره
١٦٨	نفي السببيه عن الأسباب
١٧١	أعيان الأشاعره
١٧٣	٨
١٧٣	اشاره
١٧٥	أعيان الماتريديته
١٧٧	٩
١٨٠	الإسماعيليه
١٨٠	اشاره
١٨٠	الخطوط العريضة للمذهب الإسماعيلي
١٨٢	١١ الوهايتيه
١٨٢	اشاره
١٨٣	مميزاتهم عن سائر المسلمين
١٨٤	١٢ الشيعه الإماميه
١٨٤	اشاره
١٨٦	الفوارق بين الشيعه و المعتزله:
١٨٨	الفوارق بين الإماميه و الأشاعره:
١٨٨	الفوارق الرئيسييه بين الشيعه و سائر الفرق:
١٩٠	١١ علم الكلام الجديد أو المسائل الجديده في علم الكلام
١٩٠	اشاره
١٩١	نماذج من هذه المسائل التي عرقلت حُطى بعض
١٩١	اشاره
١٩٢	١. ما هو السبب لنشأه الدين؟
١٩٣	٢. ما هي الحاجه إلى التدين؟

٣. نطاق شمول الدين ١٩٦
٤. هل النبوه موهبه إلهيه أو نبوغ اجتماعي؟ ١٩٧
٥. خلود الشريعه و بقاؤها ١٩٨
٦. الوحده أو التعدديه الدينيه ١٩٩
٧. تعارض الدين و العلم ٢٠٢
٨. صلته الدين بالأخلاق ٢٠٣
٩. حريته الإنسان في سلوكه الفردى و الاجتماعى ٢٠٤
١٠. الهرمنوتيك أو تفسير النصوص ٢٠٦
- مخطط الغربيين لضرب الثقافه الإسلاميه ٢٠٩
- اشاره ٢٠٩
١. فصل السياسه عن الدين ٢١٠
٢. تعدد القراءات ٢١١
٣. حصر الشريعه بفتريه خاصه ٢١٢
- ١٢ الكلام الشيعى الإمامى فى قصص الآتهام ٢١٣
- اشاره ٢١٣
١. آتهام الشيعه بالتجسيم ٢١٥
- اشاره ٢١٥
- آتهام هشام بن الحكم بالتجسيم ٢٢١
٢. الشيعه ورثه المعتزله ٢٢٦
- ١٣ المراحل الأربع التى مز بها الكلام الإمامى ٢٣٢
- اشاره ٢٣٢
- المرحلتان المتواكبتان ٢٣٢
- اشاره ٢٣٢
- أعلام المنهج الأول ٢٣٣
- أعلام المنهج الثانى ٢٣٥
- اشاره ٢٣٥

- ٢٣٩ ١. معنى كشف الساق
- ٢٤٠ ٢. تأويل اليد
- ٢٤٠ ٣. نفخ الأرواح
- ٢٤١ ٤. الخدعه و المكر و النسيان
- ٢٤١ ٥. خلق أفعال العباد
- ٢٤١ ٦. الجبر و التفويض
- ٢٤٢ ٧. المشيئه و الإراده
- ٢٤٢ ٨. الكلام فى القضاء و القدر
- ٢٤٢ ٩. معنى فطره الله
- ٢٤٣ ١٠. الجدال فى الله
- ٢٤٤ المرحله الثالثه: تجديد المنهج الحديثى
- ٢٤٤ المرحله الرابعه: إحياء المنهج العقلى
- ٢٤٧ خاتمه المطاف دور أئمه أهل البيت عليهم السلام فى تبين العقيدہ الإسلاميه
- ٢٤٧ اشاره
- ٢٥٠ ١. مكافحه الجبر و التفويض
- ٢٥٤ ٢. مكافحه التجسيم و التشبيه
- ٢٥٥ ٣. مكافحه فكره رؤيه الله
- ٢٥٧ ٤. مكافحه قدم غيره سبحانه
- ٢٥٩ ٥. مكافحه الغلو و النصب
- ٢٦٠ ٦. عصمه الأنبياء
- ٢٦٠ اشاره
- ٢٦٢ الأولى: تفسير القضاء و القدر
- ٢٦٤ الثانيه: عدم احتجابه سبحانه بالسموات السبع
- ٢٦٤ الثالثه: اتحاد الصفات مع الذات
- ٢٦٥ الرابعه: البرهنه على أن الحسنين من أبناء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم
- ٢٦٧ الخامسه: النظام الهادف آيه وجود الخالق

- ٢٤٨ السادس: قياس الخالق بالمخلوق
- ٢٤٩ السابع: إبطال القياس
- ٢٧٠ الثامن: إبطال الرؤية يوم القيامة
- ٢٧٠ التاسع: تصحيح فهم الحديث النبوي
- ٢٧١ العاشر: مكافحه الغلو
- ٢٧٢ الحادي عشر: استنطاق القرآن في مورد إسلام الدقي
- ٢٧٢ الثاني عشر: اعتراف الزنادقة بعجزهم عن نقض القرآن
- ٢٧٥ ختامه مسك
- ٢٧٦ الفصل الثاني: الخبر الواحد في الشؤون الدينيه بين الرفض و القبول
- ٢٧٦ اشاره
- ٢٨٣ معطيات الخبر الواحد في العقائد
- ٢٨٣ لا تُملأ النار حتى يضع الرب رِجْلَه فيها
- ٢٨٥ نزول الرب كلَّ ليله إلى السماء الدنيا
- ٢٨٧ نحن و مؤلف «موقف المتكلمين»
- ٢٨٧ اشاره
- ٢٩٠ الأمر الأول: تفويض المراد من الصفات خبريه إلى الله سبحانه
- ٢٩٢ الأمر الثاني: التأويل
- ٢٩٢ اشاره
- ٢٩٢ ١. حمل الآيات على خلاف ظاهرها
- ٢٩٣ ٢. الأخذ بالظهور الجملي لا الإفرادي
- ٢٩٥ طريقه المحققين في تفسير الصفات خبريه
- ٢٩٨ تقدير لا تصويب
- ٣٠٠ السلف و تفسير الصفات خبريه
- ٣٠١ السلفيه و نفى المجاز
- ٣٠١ اشاره
- ٣٠٨ الأولى: الاستواء على العرش

٣١٦	٢.خلق سبحانه آدم بيديه
٣١٩	بين التجسيم والتعقيد
٣٢١	كلمه شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري حول الصفات الخبريه
٣٢١	اشاره
٣٢٢	نص الجواب
٣٢٤	اقتراح
٣٢٧	دور أئمه أهل البيت عليهم السلام في مكافحه البدع
٣٣١	الفصل الثالث:الإيمان و الكفر بين التساهل و التطرف
٣٣١	اشاره
٣٣٣	تمهيد
٣٣٣	اشاره
٣٣٤	نجاح الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في دعوته
٣٣٨	١
٣٣٨	اشاره
٣٣٨	١.التساهل السلوكي
٣٤١	٢.التساهل العملي
٣٤٣	٢
٣٤٣	اشاره
٣٤٣	١.إنكار دعائم الإيمان
٣٤٤	٢.مسلسل التكفير بلا ملاك
٣٤٤	اشاره
٣٤٧	مبدأ التطرف في التكفير
٣٥٠	يقول محمد صالح العثيمين:
٣٥١	موقف النبي من تكفير المسلم
٣٥٢	إجابه عن شبهه
٣٥٥	موقف علماء الإسلام من تكفير المسلم

٣٥٨	٣
٣٥٨	اشاره
٣٥٨	١. رؤيه الله في الآخره
٣٦٠	١.٢ الاعتقاد بعلم الغيب للأنبياء و الأولياء
٣٦١	١.٣ الاعتقاد بالقدره الخارقه للعاده
٣٦٢	١.٤ الصفات الخبريه
٣٦٣	١.٥ خلق القرآن و حدوثه
٣٦٦	٤
٣٦٦	اشاره
٣٦٨	١. زياره القبور
٣٦٨	٢. شدّ الرحال إلى زياره القبور
٣٦٩	٣. البناء على القبور
٣٧١	٤. بناء المسجد على القبر و الصلاه فيه
٣٧٢	١.٥ الاحتفال بميلاد النبي
٣٧٣	١.٦ البكاء على الميت
٣٧٣	١.٧ التوسل بالأنبياء و الصالحين
٣٧٣	اشاره
٣٧٤	الف. التوسل بدعاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في حال حياته
٣٧٥	ب. التوسل بدعاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بعد رحيله
٣٧٦	ج. طلب الشفاعه من النبي صلى الله عليه و آله و سلم
٣٧٧	د. التوسل بذات النبي و قدسيته
٣٨٠	١.٨ التبرك بآثار الأنبياء و الصالحين
٣٨٠	اشاره
٣٨٢	تبرك بنى إسرائيل بصندوق العهد
٣٨٢	٩. صيانه الآثار الإسلاميه
٣٨٢	اشاره

- ٣٨٤ ----- محافظه الخلفاء على خاتم النبي صلى الله عليه و آله و سلم
- ٣٨٥ ----- عبد الله بن عمر و الاعتناء بآثار النبي صلى الله عليه و آله و سلم
- ٣٨٥ ----- ١٠. الاستعانة بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم
- ٣٨٥ ----- اشاره
- ٣٨٥ ----- الف. الاستعانة المختصه بالله، غير الاستعانة بالمخلوق
- ٣٨٧ ----- ب. الاستعانة بالأولياء ليست عباده لهم
- ٣٨٨ ----- ج. هل للصالحين قدره على الإعانه؟
- ٣٩١ ----- ٥
- ٣٩١ ----- اشاره
- ٣٩٤ ----- يا أمة اتكليه
- ٣٩٥ ----- غزوات ياذن محمد بن عبد الوهاب
- ٣٩٧ ----- بيان هيئه كبار العلماء فى الأراضى المقدسه
- ٣٩٩ ----- ٦
- ٣٩٩ ----- اشاره
- ٤٠٠ ----- ١. عدم الاعتراف بخلافه الخلفاء
- ٤٠٢ ----- ٢. نظره الشيعة إلى أصحاب الرسول نظره سيئه
- ٤٠٧ ----- ٣. الشيعة لا تعمل بصحيحى البخارى و مسلم
- ٤٠٧ ----- ٤. عصمه الأئمه الاثنى عشر
- ٤١٠ ----- ٥. التقيه من المسلم المخالف
- ٤١٣ ----- ٦. قولهم بالبداء لله
- ٤١٥ ----- ٧. اعتقادهم بالمهدى الموعود
- ٤١٦ ----- ٨. حليه المتعه
- ٤١٦ ----- اشاره
- ٤١٧ ----- أكاذيب و مفتريات
- ٤١٨ ----- نصيحه للمتطرفين
- ٤٢١ ----- الفصل الرابع: البدعه و آثارها الموبقه

٤٢١	اشاره
٤٢٣	١
٤٢٣	اشاره
٤٢٣	البدعه فى اللغه
٤٢٩	٢
٤٢٩	اشاره
٤٣٠	القرآن و بدع المشركين
٤٣٧	٣
٤٣٧	اشاره
٤٣٨	١. بدعه التثليث
٤٣٩	٢. بدعه اتخاذ الرهبان ارباباً
٤٤١	٤
٤٤٤	٥
٤٤٤	اشاره
٤٤٧	أثر البدعه فى مصير المبدع
٤٤٨	واجب المسلمين تجاه المبدعين
٤٥٠	٦
٤٥٠	اشاره
٤٥٢	مقومات البدعه
٤٥٢	اشاره
٤٥٢	الأول: التدخّل فى الدين بزياده أو نقيصه
٤٥٢	اشاره
٤٥٣	تفسير قوله صلى الله عليه و آله و سلم: شرّ الأمور محدثاتها
٤٥٧	المقوم الثانى: أن لا يكون لها رصيد فى الشريعه
٤٥٧	اشاره
٤٥٩	١. السفر لمشاهده الآثار الإسلاميه

- ٤٦٠ الاحتفال بالمولد النبوي ١٢
- ٤٦٥ كلمتان قيمتان في المقام
- ٤٦٧ حفظ الآثار الإسلامية ٣
- ٤٦٩ المقوم الثالث: الإنشاعه و الدعوه
- ٤٧١ ٧
- ٤٧٦ ٨
- ٤٧٦ اشاره
- ٤٧٨ نظره في مضمون الحديث
- ٤٨٠ خير القرون: ما ساد فيها الصلح و الصفاء
- ٤٨١ خير القرون لأجل تمسك أهلها بالدين
- ٤٨٣ ٩
- ٤٨٣ اشاره
- ٤٨٦ هل القول بالقدر بدعه؟
- ٤٨٨ هل الدفاع عن العقيدة بدعه؟
- ٤٩١ كلمه قاسيه في حق الإمام القفال الشاشي
- ٤٩٢ وثيقه اعتقادييه لحفظ النفس!!!
- ٤٩٢ التاريخ يعيد نفسه
- ٤٩٤ ١٠ نقشه مصدور
- ٤٩٤ اشاره
- ٤٩٦ ١. توسل الضير و دعاءه النبي
- ٤٩٧ ٢. توسل و دعاء ثان
- ٤٩٨ ٣. بلال بن الحارث و دعاء النبي
- ٤٩٩ ٤. دعاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم بحضور الصحابه
- ٥٠٣ ١١ يقظه بعد سبات
- ٥٠٥ ١٢ فتنه التكفير و خطرهما على مستقبل الأمة الإسلامية
- ٥٠٥ اشاره

٥٠٨	بيان من هيئته كبار العلماء
٥١٦	الفصل الخامس: في المسائل الفقيهيه و الأصوليه
٥١٦	اشاره
٥١٨	١
٥١٨	اشاره
٥١٨	الأول: الإحرام في معاجم اللغة
٥١٩	الثاني: ما هي حقيقه الإحرام؟
٥١٩	اشاره
٥٢٠	١. الإحرام أمر مركب من أمور ثلاثه
٥٢٢	٢. توطين النفس على ترك المنهيات
٥٢٤	٣. إدخال نفسه في حرمة الله بسبب التلبيه
٥٢٧	٤. الإحرام أمر إنشائي يوجد بتحريم المحرمات
٥٢٨	٥. الإحرام حاله تمنع عن فعل شيء من المحظورات
٥٢٩	٦. الإحرام هو الدخول في العمره أو الحج لا غير
٥٣٢	٢
٥٣٢	اشاره
٥٣٣	دراسه فتوى السيد الخوئي قدس سره
٥٣٦	٣
٥٣٦	اشاره
٥٣٨	المسأله الأولى: في تحديد المطاف في الجوانب الثلاثه
٥٣٨	اشاره
٥٣٨	القول الأول: المطاف هو الحدّ الفاصل بين الحدّين
٥٤٣	قولان آخران في المطاف
٥٤٦	المسأله الثانيه: حدّ المطاف خلف حجر إسماعيل
٥٥٢	٤
٥٥٢	اشاره

- الأول:التقدّم في التأسيس أو التدوين ٥٥٥
- الثاني:أدلّه الأحكام عند الإماميه ٥٦١
- اشاره ٥٦١
- تقسيم الأدلّه إلى اجتهاديه و أصول عمليه ٥٦٢
- تقسيم الأصول إلى محرزه و غير محرزه ٥٦٤
- اشاره ٥٦٤
- ١.مسلك الشيعة مسلك الغزالي ٥٦٥
- ٢.تقييم تعريفه للأدلّه الاجتهاديه و الأصول العمليه ٥٦٦
- الثالث هل هناك سنّه وراء سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم ؟ ٥٦٩
- اشاره ٥٦٩
- أئمه أهل البيت عليهم السلام حفظه سنن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ٥٧١
- سنّه الصحابه في مقابل سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم ٥٧٤
- طُرق علم الأئمه بالسنّه ٥٧٥
- اشاره ٥٧٥
- الأول:السماع عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ٥٧٥
- الثاني:كتاب على عليه السلام ٥٧٦
- الثالث:أنهم محدّثون ٥٧٧
- الرابع:الاستنباط من الكتاب و السنّه ٥٨٠
- الرابع تقييم الإجماع عند الإماميه ٥٨٣
- اشاره ٥٨٣
- قراءه صاحب المقال للإجماع عند الشيعة ٥٨٥
- نقد الإجماع الدخولي ٥٨٦
- الخامس خبر الواحد و القياس ظنّيان ٥٨٩
- اشاره ٥٨٩
- التفريق بين الظنّيين لما ذا؟ ٥٩٢
- استدلّاه على حجّيه القياس عن طريق العقل ٥٩٦

٥٩٧	الخط بين المماثل و المشابه	٥
٦٠٠	السادس الدليل العقلي و حجيه المصلحه	
٦٠٦		
٦٠٦	اشاره	
٦٠٨	التقيه من المفاهيم الإسلاميه الساميه	
٦١١	١	
٦١٢	٢	
٦١٤	٣	
٦١٤	اشاره	
٦١٤	١.التقيه فى عصر الكليم	
٦١٥	٢.التقيه فى عصر الرسول	
٦١٦	٣.التقيه بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم	
٦٢٠	٤	
٦٢٠	اشاره	
٦٢١	محنه الشيعه فى العصر الأموى	
٦٢٤	محنه الشيعه فى العصر العباسى	
٦٢٧	محنه الشيعه فى العصرين:الأيوبي و العثمانى	
٦٣٢	٥	
٦٣٥	٦	
٦٤٢	٧	
٦٤٢	اشاره	
٦٤٣	التقيه فى كلمات العلماء	
٦٤٥	مجال التقيه هو الأمور الشخصيه	
٦٤٧	٨	
٦٥١	٩	
٦٥١	اشاره	

- ٦٥١ الشبهه الأولى:التقيه من شعب النفاق
- ٦٥٣ الشبهه الثانيه:لما ذا غَدَّت التقيه من أصول الدين؟
- ٦٥٤ الشبهه الثالثه:التقيه تؤدى إلى محق الدين
- ٦٥٥ الشبهه الرابعه:التقيه تؤدى إلى تعطيل الأمر بالمعروف
- ٦٥٥ الشبهه الخامسه:التقيه من المسلم من البدع
- ٦٥٩ ١٠ الآثار البتاءه للتقيه
- ٦٥٩ اشاره
- ٦٥٩ ١. حفظ النفس و النفيس
- ٦٦١ ٢. حفظ وحده الأممه
- ٦٦١ ٣. الحفاظ على القوى من الاستنزاف
- ٦٦٤ الفصل السادس:فى الحديث و التراجم
- ٦٦٤ اشاره
- ٦٦٦ ١
- ٦٦٦ اشاره
- ٦٦٧ النموذج الأول
- ٦٦٧ اشاره
- ٦٦٨ ١. النبي صلى الله عليه و آله و سلم تزوج بعائشه فى مكّه
- ٦٦٨ ٢. النبي صلى الله عليه و آله و سلم آخى بين المسلمين فى المدينه
- ٦٧٢ النموذج الثانى
- ٦٧٦ ٢
- ٦٧٦ اشاره
- ٦٨٠ ١. كان رجلاً عالمياً
- ٦٨٢ ٢. الاهتمام بتوعيه الشيعه
- ٦٨٣ ٣. فتح باب الحوار بين الطائفتين
- ٦٨٥ ٤. اهتمامه بالفقه الأكبر
- ٦٨٦ ٥. تبیین المسائل الخلافیه

٦٨٩	٦. تأسيس منهج لتمييز الصحيح من الأحاديث
٦٩٢	٧. مواجهه المستعمرين
٦٩٣	٨. كلمات الأعظم في حق السيد
٦٩٣	اشاره
٦٩٤	كلمه المحقق الخراساني في حقه
٦٩٤	كلمه الحجّه الطهراني
٦٩٥	٩. مؤلفاته و آثاره
٦٩٧	١٠. السيد البروجردى و كتاب المراجعات
٦٩٧	١١. الإمام الخمينى و السيد شرف الدين
٦٩٩	ختامه مسك السيد شرف الدين و التقريب بين المسلمين
٧٠١	٣
٧٠١	اشاره
٧٠٤	المحقق الطوسى و «تجريد الكلام»
٧٠٥	تجريد الكلام فى تحرير عقائد الإسلام
٧٠٧	شروح التجريد
٧١٥	الحواشى على التجريد و شروحه
٧١٥	ترجمه الشارح
٧١٦	مكانته فى الفلسفه و الكلام
٧١٧	خصائصه الفكرية
٧١٧	اشاره
٧١٧	١. الاستقلال فى التفكير
٧١٨	٢. الاستشهاد بالكتاب و السنّه
٧١٨	٣. الاهتمام بكلتا اللغتين
٧١٨	آثاره العلميه
٧١٩	التعليق على الشوارق
٧٢٠	بعض آرائه و أفكاره

٧٢٠	اشاره
٧٢٠	أ.الجمع بين الرأيين:أصالة الماهيه و الوجود
٧٢٢	ب.ملاك التحسين و التقبيح العقليين
٧٢٤	نبوغ الشارح فى الأدب الفارسى
٧٢٨	٤
٧٢٨	اشاره
٧٣٠	١.١ التركيز على التفكير
٧٣١	١.٢ الاستقامه فى تحليل المواضيع
٧٣٢	٣.تلبيه الحاجات الثقافيه
٧٣٤	٤.٤ كان ملجأً للجامعيين
٧٣٤	٥.انفتاحه على آراء الآخرين
٧٣٧	٦.الغيره على الدين
٧٣٩	٧.العارف بزمانه
٧٤٠	٨.المثابره فى العمل
٧٤٢	٩.منهجيته التحقيق
٧٤٣	١٠.موسوعيته فى العلوم
٧٤٥	الفصل السابع:رسائل و مكاتبات
٧٤٥	اشاره
٧٤٧	١
٧٤٧	اشاره
٧٤٨	إلى الأستاذ الفاضل المحقق الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان دامت معاليه
٧٥٢	٢
٧٥٢	اشاره
٧٥٣	الأستاذ الفاضل الشيخ يوسف القرضاوى المحترم
٧٥٩	سماحه العلامة الشيخ جعفر السبحانى حفظه الله
٧٦٢	سماحه الأستاذ الفذ الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله

٧٦٦	٣
٧٦٦	اشاره
٧٦٧	سماحه العلامة النحرير الفقيه المحقق الشيخ جعفر السبحاني
٧٦٨	٤
٧٦٨	اشاره
٧٦٨	الفاضل الفقيه صاحب الموسوعه الفقيهيه حفظه الله
٧٧٠	رساله الأخ الفاضل الفقيه صاحب الموسوعه الفقيهيه-حفظه الله
٧٧٢	٥
٧٧٢	اشاره
٧٧٢	سماحه العالم الجليل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله
٧٧٣	إلى أسره العلم و الشرف بيت السيد محمد بن علوى المالكي
٧٧٥	٦
٧٧٥	اشاره
٧٧٥	الإخوان الأعزاء فى دائره معارف الفقه الإسلامى
٧٧٨	٧
٧٧٨	اشاره
٧٧٨	سماحه العلامة الحججه.....دام ظلّه الوارف
٧٨٢	٨
٧٨٥	٩
٧٨٥	اشاره
٧٩٠	صاحب الفضيله العلامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله
٧٩٢	١٠ مقال حول:القواعد الفقيهيه للشيخ مرتضى الترابى
٧٩٢	اشاره
٧٩٣	إلى الأخ فى الله الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان المحترم
٧٩٨	١١ ملاحظات الدكتور عبد الوهاب حول موسوعه طبقات الفقهاء و جوابنا
٨٠٥	الفصل الثامن:رسائل و حوارات

٨٠٥	اشاره
٨٠٨	١
٨١٠	٢
٨١٤	٣
٨١٤	اشاره
٨١٨	حول انعدام النصوص التي تتفق عليها الشيعة
٨٢٣	التشكيك في نسبه نهج البلاغه إلى الإمام على عليه السلام
٨٢٧	٤
٨٣٨	٥
٨٤٥	٦
٨٥٥	٧
٨٥٩	تعريف مركز

اشاره

سرشناسه : سبجانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

عنوان و نام پدیدآور : رسائل و مقالات: تبحر فی مواضع فقهیه، اصولیه، کلامیه، تراجم، و مکاتبات و حورات مع بعض الاعلام / تالیف جعفر السبجانی.

مشخصات نشر : قم: موسسه الامام الصادق (ع)، ۱۴۱۴ق. = ۱۳ -

مشخصات ظاهری : ۱۰ ج.

یادداشت : عربی.

یادداشت : فهرست نویسی بر اساس جلد ششم: ۱۴۲۸ق. = ۱۳۸۶.

یادداشت : کتابنامه.

موضوع : اسلام -- بررسی و شناخت

شناسه افزوده : موسسه امام صادق (ع)

رده بندی کنگره : BP۱۱ / س ۵۲ ر ۵۱۳۰۰

رده بندی دیویی : ۲۹۷

شماره کتابشناسی ملی : ۱۰۵۳۰۷۶

ص : ۱

اشاره

مقدمه المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم العقيدة الإسلامية واحده

رغم تعدد المذاهب

الحمد لله الملك العالم، خالق النفوس و الأجسام، الذى حارت عن إدراك كنهه، العقول، و ضلّت الأوهام، و الصلاة و السلام على المبعوث حجّه على الأنام، أقدس السفراء الفخام محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و على الأطائب من ذريته، الحجج الغرّ الكرام.

أما بعد: فإنّ العقيدة الإسلامية التى نزل بها القرآن الكريم و دعت إليها السنّه الشريفه و دعمها العقل الحصيف، عقيدة واحده على مر الحقب و القرون، ذلك لأنّ العقيدة تحكى عن حقيقه ثابتة لا- تتبدّل و لا- تتغيّر، شأن كل أمر كونى معتمداً على واقعيات خارجه عن تصوّرات الإنسان و تفكيره.

فالمعادلات الرياضيه، و القوانين الميكانيكيه، و الأحكام العقليه القطعيه، كلّها من الأمور الثابته لا يززعها تصور الإنسان الخاطى، و لا يؤثر عليها التفكير الإنسانى مهما بلغ من القوه مبلغاً لا يُشقّ شأوه.

و لَمّا كانت العقيدة الإسلامية ممّا يجب اقتناصه من المصادر الصحيحه،

اختلف العلماء و في مقدّماتهم أساتذة العقائد و الكلام في كيفية الاقتناص و الاقتباس، و هذا هو الذي أعقب مذاهب عقائديه و مدارس كلاميه لكل شأنه و دليله، و قيمته.

و لكن لما كان بين هذه المسائل، مسائل خاصه أوجبت تعميق الهوّه بين المسلمين فقد أحببتُ أن أطرحها على طاوله البحث و الدراسه ليتجلى الحق لطلابيه و أكون ممّن شارك في التقريب بين المذاهب و توحيد الخطى بينها، و هذه المسائل عباره عن:

المسأله الأولى: التفكير فريضه إسلاميه و أنّه لا غنى للمسلم عن التفكير في ما يرجع إلى العقائد حتى يصدر عن دليل يقيني مفيد للعلم به، و أنّ الذين يحزّمون الخوض في المعارف العقليه هم الذين وقعوا في مصيده التجسيم و التشبيه، فلمّا رأوا أنّ البراهين القاطعه تعارض تفكيرهم و تُزعزع بنيان ما ورثوه من آباءهم، اضطروا إلى تحريم التفكير العقائدي لسدّ هذا الباب.

فصاروا يدعمون عقيدتهم البسيطة بالبرهان قائلين «لو كان المنطق (الاستدلال) طريقاً محصّلاً لم يقع الاختلاف بين أهل الاستدلال».

ترى أنّهم كيف يستدلّون على بطلان الاستدلال، بالبرهنه و الدليل.

هؤلاء الذين أقفلوا باب التفكير في صفاته سبحانه و أفعاله و شطبوا على البحوث العقليه بقلم عريض، فقد أنكروا في الحقيقه كثيراً من الآيات و الروايات التي تبرهن على العقائد، و هذا هو الذي عالجناه في مقاله الأولى أو الفصل الأوّل من فصول الكتاب.

المسأله الثانيه: و هي أنّ كثيراً من العقائد المنسوبه إلى السلف -و السلف الصالح برىء منها، براءه يوسف من الذنب الملتصق به- مستقى من الخبر الواحد

الَّذِي لَا يَفِيدُ عِلْمًا فِي بَابِ الْعُقَائِدِ.

فقد طرحنا هناك هذا النوع من المسائل وقلنا بأنّ الخبر الواحد في الشئون الدينيه بين الرفض و القبول؛فقول الثقة حجه في مجال الأحكام و ما يرجع إلى سلوك الإنسان من فعل و ترك، و لكنّه-قول الثقة-ليس بحجه في مجال العقائد فإنّ المطلوب في هذا الحقل هو تحصيل اليقين، و خبر الواحد أقلّ شأنًا من أن يفيد اليقين.

و بعبارة أخرى:الأصول و المعارف من الأمور التي يطلب منها عقد القلب و الإذعان بالقضيه على نحو يطرد الطرف النقيض، و قول الثقة بما أنّه غير معصوم لا يورث إلاّ الظنّ و هو لا يغنى في مجال العقيدة عن الحق شيئاً، و هذه المسأله طرحناها في مقاله الثانيه من تلك المقالات أو الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب.

المسأله الثالثه:و هي مسأله التساهل أو التطرف، و هي من الأمور الهامه حيث نرى أنّ طائفه من المفكرين يدعون إلى التساهل و التسامح و يصفون الإسلام بثقافه التساهل، و على النقيض من ذلك توجد جماعه يهتمون و يشددون على التكفير و يدعون إلى ثقافته: و كلّ يدعى وصلًا بليلى و ليلي لا تقرّ لهم بذاكا

و قد عالجتنا هذه المسأله بالتفريق بين التساهل السلوكي و التساهل في العقيدة و الإيمان.

فليس للمسلم أن يتنازل عن عقيدته و الأصول التي بُنى عليها الإسلام قيد شعره، و لكنّه لا يمنع من التساهل في علاقته مع الفرق الأخرى على نحو الهدوء و الهدنه.

وقد ذكرنا عدداً من المسائل التي صارت سبباً للتطرف و طرد الآخرين من بين الطوائف الإسلامية.

و في هذا الصدد نرى أنّ الشيخ الأشعري-والذي تاب عن الاعتزال و لجأ إلى مذهب أحمد بن حنبل- يؤلف كتاباً في الفرق الإسلامية يسميه «مقالات الإسلاميين، و اختلاف المصلين» و هو يسمّى أصحاب المذاهب كلّهم أهل القبلة و الصلاة، و مع ذلك اختلفوا في كثير من المسائل الكلامية و التي لا تمت إلى الإيمان الواجب بصله.

فيا ليت كان منهج الأشعري سائداً على هؤلاء المتطرفين اللذين يتعاملون على الفرق الإسلامية الأخرى.

و قد تطرقنا إلى هذه المواضيع في مقاله الثالث أو الفصل الثالث.

المسألة الرابعة: فتنه التكفير فتنه عمّت أكثر ربوع العالم الإسلامي دون أن يكون لهذا الاتّساع و الانتشار حدّ و توقف، و من يقوم بهذه الفتنه يتمسّك بعنوانين يصفونها بالبدعه دون أن يقوموا مفهوم البدعه و خصوصياتها، فصار الترامى بالابتداع أمراً شائعاً تسمعه حيث ما كنت في الديار المقدسه.

و قد نتج من إشاعه التكفير و رمى الآخرين بالابتداع الإرهاب الذي غطّى البلاد الإسلامية، فإنّ كثيراً ممّن اغترب بتكفير المسلمين و وصفهم بالابتداع، استقوا مواقفهم المتطرفه تلك، من هذه الفكره، إلى أن استغلّ الأعداء ذلك فجعلوا الإسلام مساوياً للإرهاب و إراقه الدماء و قتل الأبرياء، دون أن يميّزوا بين الإرهابيين الذين هم نتاج أعمال الأجانب و تضيقهم على المواطنين و بين الإسلام الواقعي الذي تعلوه الرحمه الإلهيه و الأخوه الإسلاميه و التعاون البشرى. و هذا هو محور مقاله الرابعه و التي كانت بعنوان: فتنه التكفير و خطرهما على مستقبل الأمم

الإسلاميه.

و مع هذا فهذا الجزء يضم بين دفتيه مقالات أخرى فى الفقه و أصوله و الرجال و التراجم و الرسائل الإخوانيه التى دارت بيننا و بين عدد من المفكرين و العلماء الأعزاء.

فترجو من الله سبحانه أن يكون هذا الجزء كسوابقه مفيداً للقراء و منيراً لدرابهم.

نسأل الله سبحانه أن يصوننا من التقصير فى التفكير و الزلل فى البيان و العمل إنه خير مسئول و مجيب.

جعفر السبحانى

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسه

٢٨ ربيع الأول ١٤٢٦هـ

ص: ١١

١ ما هو سبب تسميه علم الكلام بهذا الاسم؟

اشاره

اختلفت كلمات أعلام المتكلمين في وجه تسميه علم الكلام، وها نحن نذكر كلماتهم في المقام:

١. قال العلامة الحلّي (المتوفّي ٧٢٦هـ) في موسوعته «نهايه المرام في علم الكلام»: «خُصَّصَ هذا العلم باسم الكلام لوجوه:

- العاده قاضيه بتسميه البحث في دلائل وجود الصانع تعالى و صفاته و أفعاله، بالكلام في الله تعالى و صفاته، فسُمّي هذا العلم بذلك. و لا استبعاد في تخصيص بعض الأسماء ببعض المسمّيات دون بعض.

- أنكر جماعه البحث في العلوم العقليه و البراهين القطعيه، فإذا سئلوا عن مسأله تتعلق بالله تعالى و صفاته و أفعاله و النبوه و المعاد، قالوا: نُهينا عن الكلام في هذا العلم، فاشتهر هذا العلم بهذا الاسم.

- هذا العلم أسبق من غيره في المرتبه، فالكلام فيه أسبق من الكلام في غيره، فكان أحقّ بهذا الاسم.

- هذا العلم أدق من غيره من العلوم، و القوه المميزه للإنسان - و هي النطق - إنما تظهر بالوقوف على أسرار هذا العلم، فكان المتكلم فيه أكمل الأشخاص البشريه، فسُمّي هذا بالكلام لظهور قوه التعقل فيه.

- هذا العلم يُوقف منه على مبادئ سائر العلوم، فالباحث عنه كالتكلم في غيره، فكان اسمه بعلم الكلام أولى.

- إنّ العارفين بالله تعالى يتميزون عن غيرهم من بين نوعهم، لما شاهدوه من

ملكوت الله تعالى، و أحاطوا بما عرفوه من صفاته، فطالت ألسنتهم على غيرهم فكان علمهم أولى باسم الكلام. (١)

٢. وقال التفتازاني (المتوفى عام ٥٧٩١هـ): سُمِّي علم الكلام كلاماً، لأنّ مباحثه كانت مصدره بقولهم: كلام في كذا و كذا، ولأنّ أشهر الاختلافات فيه كانت مسأله كلام الله تعالى أنّه قديم أو حادث، ولأنّه يُورث قدره على الكلام في تحقيق الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات، ولأنّه كثر فيه من الكلام مع المخالفين و الردّ عليهم ما لم يكثر في غيره، ولأنّه لقوه أدلته صار كأنّه هو الكلام دون ما عداه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام. (٢)

و قد ذكر التفتازاني أيضاً في «شرح العقائد النسفيه» أسباب تسميه علم الكلام بهذا الاسم فقال: و سَمُّوا معرفه العقائد عن أدلتها بالكلام:

- لأنّ عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا و كذا.

- ولأنّ مسأله الكلام (في حدوث القرآن و قدمه) كانت أشهر مباحثه و أكثر نزاعاً و جدالاً.

- ولأنّه يورث قدره على الكلام في تحقيق الشرعيات و إلزام الخصوم كالمنطق للفلسفه.

- ولأنّه أول ما يجب من العلوم التي تُعلم و تُتعلّم بالكلام، فأطلق عليه هذا الاسم لذلك ثمّ خُصّ به و لم يطلق على غيره تميزاً له.

- ولأنّه إنّما يتحقّق بالمباحثه و إداره الكلام بين الجانبيين، و غيره قد يتحقّق بالتأمّل و مطالعه الكتب.

- ولأنّه أكثر العلوم خلافاً و نزاعاً فيشدد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين و الردّ عليهم.

ص: ١٦

١- ١. نهايه المرام في علم الكلام: ٨/١-٩. [١]

٢- ٢. شرح المقاصد: ١/١٦٤، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميره. [٢]

- ولأنه لقوه أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم، كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام.

- ولأنه لابتنائه على الأدله القطعيه المؤيد أكثرها بالأدله السمعيه، أشد العلوم تأثيراً في القلب و تغلغلاً فيه، فسُمي بالكلام، المشتق من الكلم و هو الجرح. (١)

و على كل تقدير فقد يطلق على هذا العلم، علم أصول الدين، كما يسمي أيضاً بعلم التوحيد، أو علم التوحيد و الصفات، أو الفقه الأكبر، أو علم النظر و الاستدلال. (٢)

هذا خلاصه ما ذكره غير أن كثيراً منها إبداعى لا يعتد على دليل، خصوصاً ما اشتهر بين الناس من أن وجه التسميه بالكلام لأجل أن البحث فى الكلام الإلهى من حيث الحدوث و القدم كان هو السبب وراء تسميه هذا العلم بعلم الكلام. و ذلك لأن البحث فى الكلام الإلهى من حيث القدم و الحدوث نجم فى عصر المأمون عام ٢١٢هـ، مع أن هذا المصطلح كان دارجاً بين المسلمين قبل هذا العصر.

نظرنا فى وجه التسميه

و الظاهر أن خطب الإمام و كلماته، كانت هى الأساس فى التسميه و تدوين علم الكلام، فالمتكلمون كانوا يستدلون بكلام على عليه السلام فى كذا و كذا حتى سمي مجموع المسائل بعلم الكلام.

و سيوافيك أن المؤسس الأول لهذا العلم هو الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، فإنه أول من تكلم بين الصحابه حول أسمائه سبحانه و صفاته و أفعاله بوجه بديع، و خطبه و كلماته أفضل شاهد على ذلك.

ص: ١٧

١- ١). شرح العقائد النسفيّه: ١٥، ط آستانه- [١] ١٣٢٦هـ.

٢- ٢). كشف اصطلاحات العلوم: ٣٠؛ و علم الكلام و مدارسه: ٥٣.

تعريف علم الكلام

و قد عُرِّف علم الكلام بتعاريف مختلفه:

١. علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيه بإيراد الحجج و دفع الشبه. (١)

٢. هو العلم بالعقائد الدينيه عن الأدله اليقنيه. (٢)

٣. هو ملكه يقتدر بها الإنسان على نصره الآراء و الأفعال المحموده التي صرّح بها واضع المله و تزييف كل ما خالفها بالأقاويل.

(٣)

٤. علم يتضمّن الحجاج على العقائد الإيمانيه بالأدله العقليه و الرد على المبتدعه المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف و أهل

السنة. (٤)

و يلاحظ على التعريف الأخير بأن المتكلم -على ضوء هذا التعريف- هو من يدافع عن أصول الدين لا -عن فروعها- و اختلاف السنّه مع غيرهم اختلاف في

ص: ١٨

١- ١. المواقف: ٣٣٣/١؛ [١] كشف اصطلاحات العلوم: ٣٠.

٢- ٢. شرح المقاصد: ١٦٣/١. [٢]

٣- ٣. موسوعه مصطلحات العلوم عند العرب: ١٠٦١/٢.

٤- ٤. مقدمه ابن خلدون: ص ٤٥٨، الفصل العاشر في علم الكلام. [٣]

الفروع لا- فى الأصول بما فىه الاختلاف فى الإمامه، لأنها عند أهل السنّه من الفروع و جزء من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فلا معنى لتخصيص علم الكلام بالدفاع عن عقيدة السلف و السنّه، بل المتكلم يدافع عن العقيدة الإسلاميه المشتركه بين السنّه و الشيعه.

و على ضوء هذه التعاريف يكون علم الكلام علماً آلياً يستخدم فى إثبات العقائد الدينيه، إمّا بإيراد الحجج أو دفع الشبهه، و يكون موضوعه العقائد الدينيه من حيث إقامه الحجج العقليه عليها أو دفع الشبهه عنها.

و هذا النوع من التعاريف ينطبق على الكتب المؤلفه فى العصور الإسلاميه الأولى التى اقتصر البحث فيها على المسائل العقائديه.

و لكن هذا الوضع لم يدم، ففى العصور المتأخره شرع المتكلمون فى البحث عن أوسع الموضوعات و هو البحث عن الموجود بما هو موجود؛ فقسّموا المباحث الكلاميه إلى: الأمور العامه أولاً، و الطبيعيات ثانياً، و الإلهيات ثالثاً.

و على ضوء ذلك سار نصير الدين الطوسى (المتوفى ٦٧٢هـ) فى كتابه «تجريد الاعتقاد»؛ و تبعه غير واحد من المتكلمين، منهم: العلامة الحلّى فى غير واحد من كتبه الكلاميه لا سيّما كتاب «نهايه المرام فى علم الكلام»، و القاضى الإيجى (المتوفى ٧٥٦هـ) فى «المواقف»، و التفتازانى (المتوفى ٧٩١هـ) فى «مقاصده» و «شرحه»، و الجرجانى (المتوفى ٨١٦هـ) فى «شرح المواقف»، و الفاضل المقداد (المتوفى ٨٢٦هـ) فى «اللوامع الإلهيه»، إلى غير ذلك من الكتب.

و هذه المسائل لا تمت إلى العقائد الدينيه بصله. نعم حاول محمد على الفاروقى التهانوى من علماء القرن الثانى عشر إرجاع هذه المسائل إليها بالبيان

التالى:

و موضوعه هو المعلوم من حيث إنه يتعلّق به إثبات العقائد الدينيه تعلّقاً قريباً أو بعيداً، وذلك لأنّ مسائل هذا العلم إمّا عقائد دينيه كإثبات القدم و الوحده للصانع، و إمّا قضايا تتوقف عليها تلك العقائد كتركب الأجسام من الجواهر الفرده و جواز الخلاء و انتفاء الحال و عدم تمايز المعدومات المحتاج إليها فى المعاد، و كون صفاته تعالى متعدده موجوده فى ذاته، و الشامل لموضوعات هذه المسائل هو المعلوم المتناول للموجود و المعدوم و الحال، فإن حكم على المعلوم بما هو من العقائد تعلّق به إثباتها تعلّقاً قريباً، و إن حكم عليه بما هو وسيله إليها تعلّق به إثباتها تعلّقاً بعيداً، و للبعد مراتب متفاوتة. (١)

يلاحظ عليه: أنه لا- صله بين إثبات الأحوال البهشميه المطروحه فى الأمور العامه و نفيها و العقائد الدينيه، و هكذا كثير من المسائل المطروحه فى علم الطبيعيات.

و سيوافيك الرأى الحاسم فى الفصل القادم.

ص: ٢٠

موضوع علم الكلام

إنّ تحديد موضوع علم الكلام رهن كيفية تعريفه، فلو قلنا في تعريف علم الكلام بأنّه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيه بإيراد الحجج و دفع الشبهه، يكون موضوعه العقائد الدينيه التى أذعن المتكلم بصحتها بدلائل إجماليه، و تكون عوارضها إقامه الحجج التفصيليه عليها أو بدفع السهام المرشوقه إليها.

و أمّا لو قلنا في تعريف علم الكلام بأنّه الباحث عن أحوال الموجود بما هو موجود كما يدلّ عليه مباحثه، فالموضوع هو الموجود بما هو موجود الذى ثبوتّه من البديهيّات و مسائله من النظريات، فعندئذ يتحد موضوع علم الكلام مع موضوع الفلسفه، و غايه ما يمكن أن يقال فى الفرق هو أنّ البحث فى علم الكلام على نهج قانون الإسلام بمعنى أنّ المتكلم ملتزم بأن لا يخرج بنتيجته يخالف فيها الإسلام و لكن الفيلسوف غير ملتزم بذلك.

ينقل الإيجي فى «المواقف» و يقول: و قيل الموضوع هو الموجود بما هو موجود و يمتاز عن الإلهى باعتبار، و هو أنّ البحث هاهنا على قانون الإسلام. (١)

ص: ٢١

و على ضوء ذلك فالفلسفه و الكلام اسمان لعلم واحد، مشتركان فى عامه المسائل، غير أنّ همّ المتكلم فى النهايه إيراد الحجج على العقائد أو دفع الشبه بخلاف الفيلسوف.

و بذلك ظهر أنّ الموضوع أحد أمرين:

أ.العقائد الدينيه المبرهنه إجمالاً- فى غير علم الكلام.فيبحث عن العوارض الذاتيه لها و هى-كما مرّ-إمّا إقامه الدليل أو دفع الشبهه.

ب.الموجود بما هو موجود الذى يؤمن به كلّ إنسان موضوعى و يبحث عن عوارضه الذاتيه،و هى تقسيم الموجود إلى واجب و ممكن،و الممكن إلى مجرّد و مادى و هكذا.

و قد تقدّم أنّ التهانوى جعل الموضوع «المعلوم» من حيث إنّّه يتعلّق به إثبات العقائد الدينيه و كأنّه حاول الجمع بين الأمرين.

هذا هو المستفاد من كلمات القوم.

إيضاح و تفصيل

و الحقّ أن يقال:أنّه لو قلنا بأنّ علم الكلام يتضمّن الاحتجاج على العقائد الإيمانيه بالأدله العقليه و الردّ على المبتدعه فموضوع علم الكلام«هو العقائد الإيمانيه بعد فرضها صحيحه من الشرع من حيث الاستدلال عليها بالأدله العقليه فترفع البدع و تزول الشكوك و الشبه عن تلك العقائد».

و قد كان علم الكلام فى أوائل الأمر لا يتجاوز هذا الحدّ،و كان الغرض منه هو الذبّ عن العقائد الصحيحه،فالعقائد الإيمانيه و البرهنه عليها بالأدله العقليه و رفع البدع و إزالة الشكوك من عوارضها موضوع له.

و لكن علم الكلام-بمرور الزمن-تجاوز هذا الحد فصار يواكب الفلسفه فى حقولها الثلاثة:الأمر العامه،الطبيعيات و الفلكيات،و الإلهيات بالمعنى الأخص.

فعند ذلك لا محيص من القول من أنّ موضوع علم الكلام هو نفس موضوع الفلسفه،لكن الغرض الأقصى للمتكلّم هو البرهنه على ما ثبت فى الشرع فى الحقول الثلاثه،و بالأخص ما يمت إلى العقائد بصله؛و هذا بخلاف الحكيم،فإنّ الغايه هو فهم حدود الوجود و تعيناته من الواجب إلى الممكن و من الجوهر إلى العرض و من المادّه إلى المجرد.

و بذلك يتيسّر لنا أن نقول:إنّ علم الكلام تطوّر عبر القرون،ففى القرون الأولى كان الهدف هو الدفاع عن العقائد الإيمانيه فقط،و لم يكن هناك أىّ غرض سوى ذلك،و لكن بمرور الزمن و احتكاك الثقافات و ازدهار الفلسفه لم يجد المتكلّمون بدءاً من التوسع فى المعارف الكونيه من الطبيعيات و الفلكيات و البحث عن القواعد العامه فى الأمور العامه و غير ذلك.

و بذلك اختلفت كلمتهم فى بيان موضوع العلم.

استظهار موضوع العلم من خلال غايته

إنّ الوقوف على موضوع العلم يحصل من خلال الوقوف على غايته،فإنّ غايه العلم تُحدّد موضوع العلم و بالتالى تعريفه.

فالغايه القصوى للمتكلّم هى معرفه الله سبحانه و صفاته و أفعاله،و يدخل فى أفعاله معرفه المعاد و الأنبياء و الأئمّه و ما يمت لهم بصله،فإذا كانت هذه هى الغايه فلا معنى لاتخاذ الموجود بما هو موجود موضوعاً لعلم الكلام،فإنّ البحث

عن مطلق الموجود و إن لم يكن له صلته بالله و أسمائه و صفاته و أفعاله خارج عن الغايه المتوخاه للمتكلّم، و بذلك تخرج كثير من المباحث المطروحه فى الفلسفه عن علم الكلام، نظير:

١. الأمور العامه، كالبحث عن الوجود و الماهيه، و البحث عن العدم و أحواله إلى غير ذلك من المسائل.

٢. الطبيعيات، كالبحث عن تركيب الجسم من الهيولى و الصوره، أو الفلكيات إلى غير ذلك.

و قد مرّ أنّ المتكلمين فى العصور الأولى لم يكن لهم همّ إلاّ طرح المسائل التى لها مساس بالعقائد الدينيه، و لكن لما اتسعت العلوم و دام التنازع بينهم و بين غيرهم اتسعت دائره علم الكلام إلى مسائل لا تمت إليها بصله، و كانت الغايه من إدخال هذه المسائل هى مجاراه الفلاسفه فيها حتّى لا يُتَّهَمُوا بقله الاطلاع و ضآله الفضل و العرفان، و لو لا هذا لما شمل علم الكلام هذه المباحث.

و لذلك نرى أنّ العلامه الحلّى يذكر فى غايه علم الكلام ما هذا نصّه:

إنّ الإنسان هو مدنى بالطبع يفتقر فى معاشه إلى غذاء و لباس و مسكن، و هذه الأمور لا يمكن صدورها عن صانع واحد و إنّما تحصل باجتماع خلق يتعاونون عليه و يتشاركون فى تحصيله.

ثمّ إنّ الاجتماع على التعاون إنّما يتم إذا كان بين بنى النوع معامله و عدل، إذ كلّ منهم يشتهى ما يحتاج إليه و يغضب على مزاحمته فيه، و بحسب هاتين يحصل الجور فيقع الهرج و المرج فمسّت الحاجه إلى وضع قوانين إلى كيفيه العدل.

و تلك القوانين لو وضعها الناس لحصل الاختلاف، فوجب فى عنايه الله

تعالى إرسال الأنبياء بشرائع تقتضى نظام الوجود و مجازاه الممثل لها يا حسان و مقابله المخالف بالعذاب الأخرى، فوجب معرفه المجازى. (١)

ترى أنه يبين غايه علم الكلام بحاجه الإنسان إلى القوانين العاديه، و لا يحصل ذلك إلا بتشريع الله سبحانه، و معرفه القوانين تتوقف على معرفه الله سبحانه و أسمائه و صفاته و أنبيائه، و ما وعد به المطيع، أو أوعده به المجرم.

فإذا كانت الغايه هي هذه، فالبحث عن الماهيه و الوجود و الأحوال البهشميه أو عن أصاله الوجود و الماهيه أو المسائل الطبيعيه بأجمعها يكون أمراً زائداً، و لذلك نرى أنّ العلامه الحلّى بعد ما يذكر الغايه يعرّف علم الكلام بالشكل التالى:

علم الكلام هو المتكفّل بمعرفه المجازى، و كيفيه آثاره و أفعاله و تكاليفه على الإجمال. و ذلك هو سبب السعاده الأبدية و الخلاص عن الشقاء الأبدى، و لا غايه أهمّ من هذه الغايه. (٢)

فإذا كانت هذه غايه علم الكلام حسب ما قرره العلامه الحلّى اتّضحت الأمور الثلاثه:

١. تعريف علم الكلام.

٢. موضوعه.

٣. غايته.

ص: ٢٥

١-١. نهايه المرام: ١٢/١. [١]

٢-٢. نهايه المرام: ١٣/١. [٢]

التفكير فريضة إسلاميه

إِنَّ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ يَعِدُّ التَّفَكِيرَ فَرِيضَةً دِينِيَّةً، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا». ١

و قد تكرر قوله سبحانه في الذكر الحكيم: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». ٢

فلو كانت الفريضة هي الجمود على ما ذكره السلف فيما يرجع إلى المبدأ و المعاد، فلما ذا حثَّ سبحانه على التفكير في آياته و خلقه؟! أليس في ذلك دعوه لمعرفة المبدئ و أسمائه و صفاته و أفعاله حسب الطاقه البشريه من خلال التدبّر في آثاره و آياته الكونيه؟.

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ عِنْدَ مَا يَنْدُدُ بِالْمُلْحِدِينَ وَ الْمُشْرِكِينَ يَخَاطِبُهُمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ»، و يقول سبحانه: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا

ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ». ١

و على ضوء ذلك فالبرهان هو مدار الإيمان و الصلاح و النجاح، فمن طلب البرهان أو أبطل الوهم به، فقد عمل بالقرآن؛ و أما من أقفل على قلبه و عقله و قلّد السلف دون تفكير، فقد عطل عقله و تفكيره.

ثمّ ما الدليل على أنّ السلف أفضل من الخلف، و كأنّ السلف قد أحاطتهم هاله من العصمه لا يخطئون و لا يشتبهون. و سيوافيك أنّ خير السلف هو الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام و أهل بيته الطاهرين، قد فتحوا باب المعارف الإلهيه بوجه الأُمَّه على ضوء الكتاب و السنّه الصحيحه و العقل الحصيف الذي به عرفنا ربّنا سبحانه، لا عن طريق المشاغبات و المجادلات.

إنّ القرآن الكريم يحثُّ على التعقل في آياته سبحانه و يقول: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». ٢

و يقول سبحانه: «أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» ٣، و يبيّن أنّ الغايه من ضرب الأمثال هو التعقل و يقول: «وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» ٤.

و يبيّن أنّ شر الدّواب هو الإنسان الذي أغلق عقله و أعدم تفكيره، يقول تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ». ٥ إلى غير ذلك من الآيات الحاثه على التعقل.

أفهل يصح تخصيص هذه الآيات بالتعقل في أمور الدنيا و معاش الإنسان و ما حوله من العلوم الطبيعيه و الفلكيه فقط؟ أو أن مقتضى إطلاقها، هو التفكير في الطبيعه و ما بعدها؟

فلو صح ما يقوله علماء السلف: «إِنَّمَا أُعْطِينَا الْعَقْلَ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَةِ لِأَدْرَاكِ الرَّبُّوبِيَّةِ، فَمَنْ شَغِلَ مَا أُعْطِيَ لِإِقَامَةِ الْعِبَادَةِ بِإِدْرَاكِ الرَّبُّوبِيَّةِ فَاتَتْهُ الْعِبَادَةُ وَ لَمْ يَدْرِكِ الرَّبُّوبِيَّةَ». (١)

فلو صححت هذه الجملة فمن المخاطب إذن بهذه الآيات التي تحتوى على براهين مشرقه؟!

«أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ». ٢

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ». ٣

«مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». ٤

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت فيها أصول المعارف الإلهيه التي تقع وراء الحس و الطبيعه.

ثم إنه سبحانه يأمر بالشكر بعد ما يذكر ببعض مواهبه من السمع و الأبصار و الأفتده و يقول سبحانه: «وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». ٥

ص: ٢٨

(١- ١). الإثبات و التفويض لرضا نعتان معطى، نقلاً عن الحجه في بيان المحجه: ٣٣.

و المراد من الشكر فى ذيل الآيه صرف النعمه فى مواضعها، فشكر السمع و البصر هو إدراك المسموعات و المبصرات بهما، و شكر الفؤاد هو درك المعقولات و غير المشهودات به، فالآيه تحرّض على استعمال الفؤاد و القلب و العقل فى ما هو خارج عن إطار الحس و غير واقع فى تناول أدواته.

و لأجل ذلك يتخذ القرآن لنفسه فى هذه المجالات موقف المعلم فيعلم المجتمع البشرى كيفية إقامه البرهنه العقليه على توحيده سبحانه فى أمر الخلقه و التدبّر.

بالله عليك أيها القارئ اقرأ الآيات التاليه، ثم احكم بنفسك، هل يمكن لإنسان أن يقف على مغزاها بلا تفكير و تعقل مبنى على أصول متعارفه أو موضوعه؟ فلو أعطينا العقل لإقامه العبوديه لا لإدراك (مشاهد) الربوبيه فما ذا تهدف هذه الآيات التى أمرنا بالتدبّر فيها؟!

«نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تَصِدُّقُونَ * أَمْ أَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَمْ أَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ * أَمْ أَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ». ١

رغم أنّ علم الكلام الذى هو من أفضل مظاهر التفكير، كان ضروره زمنيه دعت المخلصين الغيارى من علماء الإسلام إلى تدوينه و نشره حتّى يقوم الجيل

الحاضر بالدفاع عن حياض الشريعة بقوه و حماس، ترى أنّ أكثر التابعين و حتّى أئمة الفقه يعارضون علم الكلام بل يحرّمونه، فهذا هو مالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و سفيان الثوري ذهبوا إلى رفض علم الكلام و مهاجمه المتكلمين.

فقد نقلوا عن الشافعي قوله في أثناء موته: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد.

و أمّا أحمد بن حنبل فقد استخدم في حقهم لفظ الزنادقة.

و أمّا مالك فقد رفض الكلام و المتكلمين بحجه أنّهم قوم على استعداد أن يغيروا دينهم وفقاً للبراهين التي تعرض لهم أو تعرض عليهم، فقال: رأيت إن جاء عالم الكلام من هو أجدل منه أيدع دينه كلّ يوم، لدين جديد. (١) إلى غير ذلك من الكلمات المرويه عن التابعين و تابعي التابعين.

و هذا هو الإمام الأشعري لما عدل عن منهج الاعتزال و التحق بمذهب الإمام أحمد لم يحتفل به أصحاب الإمام أحمد.

قال عبد الله الحمراني: لمّا دخل الأشعري بغداد جاء إلى البريهاري فجعل يقول: رددت على الجبائي و على أبي هاشم، و نقضت عليهم و على اليهود و النصارى و المجوس و قلت و قالوا: و أكثر الكلام، فلما سكت قال البريهاري:

و ما أدري ما قلت لا- قليلاً- و لا- كثيراً، و لا- نعرف إلا- ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل. قال: فخرج من عنده و صنف كتاب «الإبانه» فلم يقبله منه، و لم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها. (٢)

و قد اشتهر ذمُّ علم الكلام على لسان الذين عطلوا تفكيرهم و كرسوا

ص: ٣٠

١- ١). علم الكلام و مدارسه: ٥١-٥٢.

٢- ٢). تبين كذب المفتري: ٣٩١.

جهودهم بنقل الحديث دون وعيه و درايته، وقد نُقلت في هذا المقام كلمات عن السلف نظير ما نقلناه. ولا بأس بذكر بعضها:

نقل ابن الجوزى بسنده عن الوليد بن أبان الكرابيسى أنه قال لبنيه لما حضرته الوفاة: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: أفتهمونني؟ قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم.

و نقل أيضاً عن إمام الحرمين أنه كان يقول: لقد جُلت أهل الإسلام جوله و علومهم و ركبُ البحرِ الأعظم، و غصت في الذين نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق و هرباً من التقليد، و الآن فقد رجعت عن الكلّ إلى كلمه الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف برّه فأموت على دين العجائز و يختم عاقبه أمرى عند الرحيل بكلمه الإخلاص فالويل لابن الجويني.

و كان يقول لأصحابه: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغل به.

و قال أبو الوفاء ابن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أن أصحابه ماتوا و ما عرفوا الجوهر و العرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، و إن رأيت أن طريقه المتكلمين أولى من طريقه أبي بكر و عمر فبئس ما رأيت، و قد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك و كثير منهم إلى الإلحاد، تشم روائح الإلحاد من فلتات المتكلمين، و أصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع و طلبوا الحقائق و ليس في قوه العقل إدراك ما عند الله من الحكمة التي انفرد بها و لا أخرج الباري من علمه لخلقه ما علمه هو من حقائق الأمور.

(١)

ص: ٣١

١- (١). انظر للوقوف على مصادر هذه الكلمات تلييس إبليس: ٨٢-٨٣، ط دار القلم، بيروت.

هذه كلماتهم فى ذم التعقّل و التفكّر و كم لها من نظير، و على القارئ الكريم أن يعرض كلماتهم على الذكر الحكيم حتى يتبين الحقّ من الباطل، و أن يكون رائده إلى الحق كلامه سبحانه لا كلمات القوم.

مضاعفات تعطيل العقول عن التفكير

إنّ تعطيل العقول عن المعارف الإلهيه بين أهل الحديث أو صنف منهم جرّهم إلى القول بالتشبيه و التجسيم باطناً و إن أنكروه ظاهراً، يقول ابن تيميه محيى الدعوه السلفيه فى القرن الثامن: أهل السنّه و الجماعه يؤمنون بما أخبر الله به فى كتابه من غير تحريف و لا- تعطيل، و من غير تكييف و لا تمثيل، بل هم الوسط فى فرق الأُمّه كما أنّ الأُمّه هى الوسط فى الأُمم، فهم وسط كما فى باب صفات الله سبحانه و تعالى بين أهل التعطيل الجهميه و أهل التمثيل (المشبهه). (١)

و القارئ الكريم يتصوّر أنّه مشى على هذا الأصل إلى آخر كتابه، و لكنّه يقف على أنّه سرعان ما انقلب على وجهه و ارتد على أدباره و غرق فى التشبيه و التجسيم و نادى به و قال:

«و ممّا وصف الرسول به ربّه فى الأحاديث الصحاح التى تلقاها أهل المعرفه بالقبول و وجب الإيمان به قوله صلى الله عليه و آله و سلم: ينزل ربّنا إلى سماء الدنيا كلّ ليله حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فاستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ و من يستغفرنى فأغفر له؟ و قوله: يضحك الله إلى رجلين، أحدهما يقتل

ص: ٣٢

الآخر كلاهما يدخل الجنة. وقوله: لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزه فيها قدمه ينزوي بعضها إلى بعضه، و تقول: قط قط. و هذه الأحاديث متفق عليها. (1)

نحن نسأل «ابن تيمية» و من لفّ لقه: هل هو يأخذ بظواهر هذه الأحاديث التي لو وردت في حق غيره سبحانه لقطعنا بكونه جسماً، كالإنسان له أعضاؤه، أو يترك ظواهرها و يحملها على غيرها؟ فعلى الأول يقع في مغبه التشبيه، و على الثاني يقع في عداد المؤولين و هو يتبرأ منهم.

و أمّا الأخذ بظواهرها لكن بقيد «بلا تكيف» و «لا تشبيه» - فمضافاً إلى أنه لم يرد في النصوص - يوجب صيروره الصفات مجمله غير مفهومه، فإنّ واقعته النزول و الضحك و وضع القدم، إنّما هي بكيفيتها الخارجيه، فحذفها يعادل عدمها. فما معنى الاعتقاد بشيء يصير في نهايه المطاف أمراً مجملاً و لغزاً غير مفهوم؟ فهل يجتمع هذا مع بساطه العقيده و سهوله التكليف التي تتبناها السلفيه في كتبهم؟!

فلو صحّ تصحيح هذه الأحاديث و الصفات الجسمانيه بإضافه قولهم «بلا تمثيل» فليصحّ حمل كلّ وصف جسماني عليه بإضافه هذا القيد بأن يقال: الله سبحانه جسم لا كهذه الأجسام، له صدر و قلب لا كمثل هذه الصدور و القلوب، إلى غير ذلك مما ينتهي الاعتقاد به إلى نفى الإله الواجب الجامع لصفات الجمال و الجلال.

إنّ إقصاء العقل عن ساحه العقائد و تفسير القرآن و الحديث، لا يُنتج إلا إجلاسه سبحانه على عرشه فوق السماوات، يقول «ابن قتيبه» - المدافع عن

ص: ٣٣

الحشويه و أهل الحديث-فى تفسير قوله: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيًا أو سريراً و يجعلون العرش شيئاً آخر، و العرب لا- تعرف العرش إلا- السرير، و ما عُرش من السقوف و الآبار. يقول الله «وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ» أى على السرير.

و أمية بن أبى الصلت يقول: مَجْدُوا اللَّهَ وَ هُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ

ترى أنه يصور الله سبحانه ملكاً جباراً جالساً على عرشه، و الخدم دونه ينظرون إليه بأعناق مائله، و هو يتبجح بذلك تبجح المتكبر باستصغار الناس و ذلتهم.

و يقول أيضاً:

«كيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه بكلّ مكان على الحلول مع قوله:

«الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» أى استقر، كما قال: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ

ص: ٣٤

أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ» أى استقررت.

و مع قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ».

كيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرفع إليه عمل و هو عنده. (١)

ثم إنه يستشهد بكونه سبحانه فى السماء بما ورد فى الحديث:

«إِنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ بِأَمْرٍ أَعْجَمِيَّةٍ، لِلْعَتَقِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَيْنَ اللَّهُ تَعَالَى؟

فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: فَمَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): هِيَ مُؤْمِنَةٌ، وَ أَمْرٌ بَعَثْتُهَا. (٢) فقد غاب عن «ابن قتيبه» إنَّ المراد من كونه سبحانه بكلِّ مكان ليس هو حلوله فيه، بل المراد أنَّ العالم بكلِّ أجزائه و ذرَّاته قائم به قيام المعنى الحرفى بالمعنى الاسمى و انَّ وجوده سبحانه وجود فوق الزمان و الزمانيَّات و المكان و المكانيَّات، غنى عنهما، لا يحتاج إليهما، بل هو الخالق لهما.

و أمَّا الحديث الذى استدلَّ به فليس فيه دلالة على تصديق رسول الله بكلِّ ما تعتقده الأمة، بل أنَّه صلى الله عليه و آله و سلم اكتفى بما أظهرت من الاعتقاد الساذج بوجوده سبحانه و نبوّه نبيّه و إنَّ أخطأت فى الحكم بأنَّه فى السماء و لم تكن الظروف-إذ ذاك- تساعد، لتفهمها إنَّه سبحانه منزّه عن المكان و الزمان و الجهه، و إنَّه ليس جسمًا و لا جسمانيًّا حتى يحلَّ فى السماء.

على أنَّ الروايه، نقلت بصور مختلفه أوضحنا حالها فى رساله خاصه.

ص: ٣٥

١-١. نفس المصدر: ٢٧١.

٢-٢. المصدر نفسه: ٢٧٢.

شبهات منكرى علم الكلام

قد عرفت أنّ التفكير فريضة إسلاميه و أنّ الإنسان بطبعه يفكر و ينقض و يبرم و يتطلع إلى موضوعات قابله للتفكير فيطلب إجابته حاسمه لها، و مع ذلك نرى أنّ أناساً يعدّون من طبقه المحدثين ينكرون علم الكلام و ينددون به تحت غطاء شبهات نذكرها تباعاً: (١)

١. لو كان المنطق طريقاً موصلاً، لم يقع الاختلاف بين أهل المنطق، لكننا نجدهم مختلفين في آرائهم.

يلاحظ عليه: أنّ القائل استخدم المنطق في إبطال المنطق، فإنّ ما ذكره قياس استثنائي حيث قال: لكننا نجدهم مختلفين فاستنتج بأن المنطق ليس طريقاً موصلاً.

أضف إلى ذلك أنّ معنى كون المنطق آله للاعتصام، هو أنّه لو استعمل استعمالاً صحيحاً يعصم من الخطأ، و أمّا أنّ كلّ مستعمل له، يستعمله صحيحاً

ص: ٣٦

١ - ١). نقل قسمًا من هذه الشبهات، السيد الطباطبائي في الجزء الخامس من كتاب الميزان، [١] فلاحظ ص ٢٥٦ - ٢٧١، طبعه بيروت.

فلا يدّعيه أحد، و هذا نظير ما يقال: إنَّ السيف آله القطع، و لكن ليس كلّ مستعمل يستعمله، يترتب عليه القطع.

٢. إنَّ هذه الأصول إنّما روّجت بين الناس لصرف الناس عن اتباع الكتاب و السنّه أو لصدّهم عن باب أهل البيت، فيجب علينا الاجتناب.

يلاحظ عليه: أنّ المتكلّم لا يدّعي الاستغناء عن الكتاب و السنّه، بل الكتاب و السنّه الصحيحه أحد الطرق إلى معرفه الحقائق، و إنّما يستعان بالعقل أيضاً إمّا لدعم ما يستفاد منهما، أو لدفع الإشكال عنهما، أو لإثبات ما لا يستفاد منهما حسب فهمنا. كيف و أنّهم أهل البيت هم الذين فتحوا باب التفكير بوجه الأُمَّه؟!

٣. لا حاجة إلى آثار الكفّار و الملاحده مع وجود الكتاب و السنّه.

يلاحظ عليه: أنّ ما نُقل عن الحكماء يشتمل على الصحيح و الخطأ، و الحسن و السيئ، و القرآن يدعو إلى أخذ الحسن دون السيئ، لا إلى رفض الجميع، يقول سبحانه: «فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ». ١

و ثمّه آيات و روايات كثيره تؤكّد هذا المعنى، و لا ريب في أنّ القرآن هو الداعى إلى تعلم العلوم و الأخذ بأحسنها و ردّ سيئها.

و بعبارة أخرى: إنّ الكتاب و السنّه يحثّان الإنسان على التوسع في استعمال الطرق العقلية الصحيحه، أعنى: المقدمات البديهيه أو المنتهيه إليها لتمييز الفكره الصحيحه عن السقيمه، سواء كانت الفكره شرقيه أم غريبه.

٤. إنّ طريق السلف الصالح كان مبيناً لطريق الكلام و الفلسفه و العرفان،

و كانوا يستغنون بالكتاب و السنّه عن استعمال الأصول المنطقيه و العقليه.

يلاحظ عليه: أنّ السلف الصالح لم يكونوا على وتيره واحده، فعلى عليه السلام و أهل بيته و شيعتهم و لفيف من أهل السنّه يرون التفكير فريضه إسلاميه، و كانوا يخوضون فى بحار المعارف و يستدلّون بالأقيسه الصحيحه على النتائج.

و أصحّ دليل على ذلك خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و احتجاجات تلاميذه و تابعيه.

و الحاصل: أنّ رائدنا فى الخوض فى المباحث العقليه، هو قوله سبحانه: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ١ فما هو المراد من الحكمه؟ فهل هى كلّ كلام أو فكر مقرون بالبرهان أو الدليل كما أنّ المراد من الجدل هو الاحتجاج على الخصم بأقواله؟

٥. و قال أبو الوفاء ابن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أنّ الصحابه ماتوا و ما عرفوا الجوهر و العرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، و إن رأيت أنّ طريقه المتكلمين أولى من طريقه أبى بكر و عمر فبئس ما رأيت. (١)

يلاحظ عليه: أنّ معنى ذلك إيقاف ركب العلم عن التقدّم، فلا شكّ أنّ العلوم الكونيه قد تقدّمت و كشفت عن مكامن و قوانين لم تكن معروفه للصحابه، أ فيصحّ فى منطق العقل -رفض هذه العلوم بحجّه أنّ الصحابه كانوا يجهلونّها؟! لا أدرى متى أصبحت طريقه الصحابه محوراً للحقّ و معياراً لتمييز الصحيح عن الفاسد... و القرآن يدعو إلى التفكير فى السماوات و الأرض و يقول: «أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ٣، و يقول: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

ص: ٣٨

(١-٢). تلييس إبليس: ٨٣، مرّ نقل ذلك أيضاً فى ص ٢٣.

بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا» ١ إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على التفكير في عالم المادة.

٦. إنّ العقول بريئه أصحّ البراءة و أوضحها عمّا ادّعوا عليها من معرفه وجوب ما لم يرد به كتاب من الله تعالى، و من معرفه صحّته ما يناقض الآيات القرآنيه، فأنّه قد وضح للمحقّقين من نظار العقلاء و أذكيائهم أنّه لا تعارض بين صحيح السمع و صحيح العقل، و إنّ أصل البدع كلّها يوهّم التعارض بينهما. (١)

و حاصل الشبهه يرجع إلى أمرين:

أ. عدم وجوب معرفه ما لم يرد به كتاب من الله تعالى.

ب. إنّ العقول بريئه من معرفه صحّته ما يناقض الآيات القرآنيه.

يلاحظ على الأوّل: بأنّ المتكلّم- في مجال العقائد- لا يهّمه إلّا معرفه ما جاء في الكتاب و السنّه معرفه علميه لا تقليديه، فهو عند ما يتلو قوله سبحانه: «وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» ٣ يريد أن يفهم مغزى هذه الآيه بتحليل عقليه، فلا هدف للمتكلّم إلّا معرفه ما ورد في كتاب الله و سنّه نيّيه، لكن معرفه رعايه لا معرفه روايه.

و أمّا في غير مجال العقائد فالقرآن ليس كتاباً في العلوم الطبيعيه أو الرياضيه أو الفلكيه لكي تغنينا دراسته عن دراسه سائر العلوم، و لو قلنا بمقاله القائل لوجب إغلاق كافه المراكز العلميه.

و أنّى لنا نسبه هذه الفكره إلى الإسلام و هذا كتابه المجيد يتحدّث فيما يرجع إلى العلم قرابه ٨٠٠ مره، أ فيصحّ أن نرمى الإسلام بأنّه يصدّد أبناءه عن دراسه ما ليس في كتابه؟!

ص: ٣٩

و يلاحظ على الثانى: أنه يمتنع التعارض بين القطعيين، وقد حَقَّقنا فى محلّه أنه لا- بدّ فى تعارض العلم مع القرآن الكريم من ملاحظه أمرين: إمّا القول بأنّ ما أثبتته العلم ليس علماً بل تخيّل، أو أنّ ما نفهمه من القرآن ليس فهماً صحيحاً، وإلاّ- فيمتنع التعارض بين القطعيين.

٧. أنّ علم الخلائق فى (علم الله) مثل لا شىء فى جنب ما لا نهايه له، و القصد، أنّ من عُرف منه الخطأ فى الجليات فكيف يكون حاله متى خاض فى هذه الخفيات، و تَرَكَ عبارات الحق الذى نصّ على أنّها لا تُبدل كلماته، و أنّه لا معقّب لحكمه، و أنّ كتابه لو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، و أنّه نور و شفاء و هدى لا ريب فيه، فكيف تترك عبارات هذا المعجز الباهر و تبدل بعبارات من لا عصمه له عن الخطأ بل عن القبائح و الكفر». (١)

يلاحظ عليه: أنّ المتكلم لا- يدعى أنّ علمه يساوى علم الله سبحانه، إذ لا يتكلم بذلك إلاّ المجنون، كيف و هو يقرأ فى كتابه العزيز: «و ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً». ٢

ثمّ إنّ المتكلم فى العقائد الدينيه لا- يهدف إلى إثارة عبارات الآخريين على عبارات المعجز الباهر (فأين التراب من رب الأرباب؟!) و إنّما يريد أن يستثمر العقل الذى وهبه الله سبحانه لهذا الموجود فيسلط الضوء على آفاق و آفاق، ليتعرف على أحكامها من الإمكان و الوجوب و الامتناع، و أين ذلك من ترك كتاب الله!؟

و حصيله الكلام: أنّ ما كتبه ابن الجوزى فى «تلييس إبليس» و ابن الوزير

ص: ٤٠

فى «إشار الحق على الخلق» و ما جمعه مؤلف «علاقه الإثبات و التفويض» (1) من كلمات المنتمين إلى السلف، كلها مشاغبات و مناظرات فى غير محلها، تكشف عن أنّ هؤلاء لم يمسّوا كتاباً كلامياً، و لم يناظروا متكلماً إسلامياً.

إنّ الإسلام دين عالمى تكلم فى الكون و التشريع بأبسط الوجوه، و من المعلوم أنّ خصومه يتربصون به الدوائر فيثرون عجاجه الشبهات على أصوله و فروعه بين حين و آخر، و طبيعه الحال تقتضى أن يكون هناك علماء أفذاذ محيطون بمنطق الخصم و حقيقه الإسلام، ليردّوا عنه سهام الأعداء، و يصونوا المسلمين من الوقوع فى مصائد هؤلاء، و المتكلم هو ذلك الإنسان الرسالى المدافع بمنطقه و أسلوبه عن كيان الإسلام و عقيدته المسلمين بأساليب مختلفه و فى كلّ زمان.

فلو ترك الإسلام دون أن يناظر فى أصوله و فروعه لاعتراه الوهن و حَمَد نوره، و انطلاقاً من ذلك صار علم الكلام ضروره زمنيه ملحه.

نعم إنّ العقيدته الإسلاميه التى هى عصاره الكتاب العزيز، و السنّه النبويه، ببيان مرصوص لا تتزعزع بالترهات و الشبهات، فهى كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف.

نعم العقيدته الإسلاميه - كما وصفت - لها رصيدها الغيبى، و هى مستقاه من الوحي الذى لا يتطرق إليه الخطأ.

لكن الذى يُحفّز المفكر الإسلامى على مزاوله علم الكلام و مدارسته، و التطلّع إلى سائر المدارس البشريه أو الإلحاديه، هى أمور نشير إليها إجمالاً:

١. أنّ المجتمع البشرى صار - اليوم - كقرية واحده، و المسلمون يعيشون فى أجواء و ثنايا التيارات المتضاده و هم ليسوا ببعيدين عن أصحاب

ص: ٤١

العقائد المختلفه، و من الواضح ان التعايش على سعيد واحد، يستلزم احتكاكات ثقافيه، و تبادل أفكار و معلومات، الأمر الذى يُفضى إلى اختلاط الآراء الحقه بالدعاوى الباطله التى تناقض العقيده الإسلاميه، ففى مجال تمحيص الحق، و استخلاصه من دنيا الباطل، لا محييص عن علماء و عاين يفرزون الأفكار الإسلاميه الصحيحه، عن غيرها من الأفكار السقيمه، و الأصول الصحيحه عن الأصول الباطله بطرق علميه.

٢. لم يزل أصحاب الديانات الباطله- بعد أن قبض النبى صلى الله عليه و آله و سلم- يسعون إلى طرح شبهات و إثارة تشكيكات فيما نزل به القرآن الكريم و دعا إليه النبى الأكرم، بُغيه إزاله الإيمان عن قلوب المؤمنين، كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الإسلام، و مكافحه علمائه مع الملحدين فى الأدوار المختلفه، خصوصاً فى أواخر العصر الأموى و أوائل العصر العباسى حيث تمتعت اليهود و النصرارى و الأسرى بحرّيه تامه فى بيان العقائد و نشر الآراء و المعتقدات و بثّ الشكوك و الشبهات بأمان و حرّيه كامله.

و هذا هو مفضل بن عمر الجعفى الكوفى الذى عاصر الأئمه الأربعة من الباقر إلى الرضا عليهم السلام يشرح لنا مدى الحرّيه التى نالها أصحاب المدارس الإلحاديه فى ذلك العصر و يقول:

كنت ذات يوم بعد العصر جالساً فى الروضه بين القبر و المنبر و أنا مفكّر فيما خصّ الله تعالى به سيدنا محمّداً صلى الله عليه و آله و سلم، من الشرف و الفضائل، و ما منحه و أعطاه و شرفه و حباه، ممّا لا يعرفه الجمهور من الأئمه و ما جهلوه من فضله و عظيم منزلته، و خطير مرتبته، فأتى لكذلك إذ أقبل «ابن أبى العوجاء» فجلس بحيث أسمع كلامه، فلما استقرّ به المجلس إذا رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه،

فتكلم «ابن أبي العوجاء» فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، و حاز الشرف بجميع خصاله، و نال الحظوه في كلّ أحواله؛ فقال له صاحبه: إنّه كان فيلسوفاً ادعى المرتبه العظمى، و المنزله الكبرى، و أتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، و ضلّت فيها الأحلام، و غاصت الأبواب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات و هي حُسْر، فلمّا استجاب لدعوته العقلاء و الفصحاء و الخطباء، دخل الناس في دينه أفواجا، فقرن اسمه باسم ناموسه فصار يهتف به على رءوس الصوامع، في جميع البلدان و المواضع التي انتهت إليها دعوته، و علتها كلمته، و ظهرت فيها حجته براً و بحراً، سهلاً و جبلاً، في كلّ يوم و ليله خمس مرّات مردداً في الأذان و الإقامة، ليتجدد في كلّ ساعه ذكره، و لئلا يخمل أمره.

فقال «ابن أبي العوجاء»: دع ذكر محمد صلى الله عليه و آله و سلم فقد تحيّر فيه عقلي، و ضلّ في أمره فكري، و حدثنا في ذكر الأصل الذي يمشى به... ثم ذكر ابتداء الأشياء، و زعم أنّ ذلك بإهمال لا صنعه فيه و لا تقدير، و لا صانع و لا مدبّر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبّر، و على هذا كانت الدنيا لم تزل و لا تزال!

محاورة المفضل مع ابن أبي العوجاء

(قال المفضل): فلم أملك نفسي غضباً و غيظاً و حنقاً، فقلت: يا عدو الله أحدث في دين الله، و أنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، و صوّرك في أتم صورته، و نقلك في أحوالك حتّى بلغ إلى حيث انتهيت.

فلو تفكّرت في نفسك و صدقك لطيف حسّك، لو وجدت دلائل الربوبيه و آثار الصنعه فيك قائمه، و شواهد جلّ و تقدّس في خلقك واضحه، و براهينه لك لائح.

فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كَلِمناك، فإن ثبت لك حجّة تبعنّاك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا وأنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا، ويصغى إلينا، ويتعرف حجّتنا، حتّى إذا استفرغنا ما عندنا، وظنّنا إنّنا قطعناه، دحض حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

خروج المفضل من المسجد

قال المفضل: فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما بلى به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة و تعطيلها، فدخلت على مولاي عليه السلام فرآني منكسراً، فقال: مالك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريين وما رددت عليهما. فقال: يا مفضل لألقين عليك من حكمه الباري جلّ و علا و تقدّس اسمه في خلق العالم، والسباع، والبهائم، والطيور، والهوام، وكلّ ذى روح من الأنعام والنبات والشجره المثمره، وغير ذات الثمر و الحبوب، و البقول، المأكول من ذلك و غير المأكول، ما يعتبر به المعتبرون، و يسكن إلى معرفته المؤمنون، و يتحير فيه الملحدون، فبكر على غداً. (١)

ثم إن الإمام أملى عليه دروساً في مجالس أربعه، شرح فيها برهان النظم التوأم مع وجود الهاديه في عالم الكون المنظم، و قد طبعت باسم توحيد المفضل

ص: ٤٤

١- ١). توحيد المفضل: ٣٩-٤٣، ط النجف [١] الأشرف مع تقديم كاظم المظفر؛ بحار الأنوار: ٥٧/٣. [٢]

غير مرّه، و ترجمت إلى عدّه لغات.

فلولا هذه الشموس المضيئه و الأقمار المنيره لغطت ظلمه الباطل الأقطار كلّها، و أصبحت كلمه التوحيد كحديث أمس الدابر لا ترى منها أثراً.

و قد أخبر الرسول عن هؤلاء الرجال الغيارى على الإسلام الذابيين عن أصوله و فروعهم فى حديثه الذى رواه الكشى فى رجاله قال:

يحمل هذا الدين فى كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين و تحريف الغالين و انتحال الجاهلين كما ينفى الكير خبث الحديد. (١)

ففى هذا الجوّ الذى يتدرّع فيه الخصم-اليوم-بسلاح العلم، و يشن الهجوم على عقائدنا و مقدّساتنا، لا محيص من التدرّع بنفس السلاح حتّى يُردّ الحجر من حيث جاء.

و نعم ما قاله المصلح السيد شرف الدين العاملى: «لا يأتى الهدى إلا من حيث أتت الضلاله».

و قد دخل الإمام الصادق من حيث دخل ابن أبى العوجاء و حلّ شبهته، على الأصول التى اعتمد عليها ضمن مجالس أربعه.

٣. و لو شكّ باحث فى لزوم دراسه المذاهب و المدارس العقائديه فى الحقب الغابره، فلا يرتاب فى لزومه فى العصر الراهن الذى تطورت فيه أجهزه الإعلام و الاتصالات اللاسلكيه، و توفر فيه البث المباشر عبر الأقمار الصناعيه، فتُحاك الشبهه فى الغرب فى ساعه و تُبثّ بعد دقيقه فى الشرق و تعمّ العالم كلّه.

و من هنا تفرض المسئوليه على المسلم الغيور أن يلتمّ بعلم الكلام و قواعده

ص: ٤٥

ليشكل سداً منيعاً أمام التيارات الهدّامة للدين.

و يطيب لى ذكر ما أبرق به شيخ إسلام العثمانيين -قبل غلبه العلمانيّة- إلى المرجع الأعلى فى النجف الأشرف الشيخ محمد كاظم الخراسانى (١٢٥٥-١٣٢٩هـ) و حاصل البرقيه أنّ هذا السيل الجارف باسم الحضاره الحديثه انطلق من الغرب إلى الشرق إذا لم يكن أمامه سدّ منيع، سيطيح بالدين الإسلامى و الحضاره الإسلاميه.

و هذا ما أبرق به عام ١٣٢٧هـ، فما هو هذا السد الذى سيقف أمام هذا التيار الزاحف؟ إنّه ليس إلاّ دعم العقيدته الإسلاميه و مكافحه الأُمّيه بالاسلوب العلمى، و هو ما نعتبر عنه بعلم الكلام و التفكير المنطقى.

القول الحاسم فى المقام

إنّ هؤلاء-أى الذين يحزّمون الخوض فى المعارف العقلية، و يقولون: إنّ واجبنا هو الإيمان و الإقرار أو التلاوه و السكوت-خلطوا مرحله الإيمان القلبي المطلوب من جميع الناس، بمرحله الفهم و النظر العقلى الذى لا يقوم به إلاّ الأمثال من الناس، و أصحاب المواهب و المؤهلات الفكرية الخاصه، و ما ذكروه راجع إلى المرحله الأولى، فإنّ الإيمان المنقذ من الضلال و العذاب، هو الاعتقاد بصحّه ما جاء فى الكتاب العزيز حول أسمائه و صفاته و أفعاله، حتى فى مجالات الصفات الخبرية من اليد و الوجه و العين و الاستواء على العرش، و بما أنّ الأكثرية الساحقه لا يستطيعون فهم ما فيها من الدقائق و المعارف و ربما يكون الخوض فيها منتهياً إلى ما لا يحمد، فإنّه يكفى لهم الإيمان و الإقرار و الإمرار و السكوت، و ما نقل عن الإمام مالك (المتوفى ١٧٩هـ): إياكم و البدع، قيل: يا أبا عبد الله ما

البدع؟ قال: أصحاب البدع هم الذين يتكلمون في أسمائه و صفاته و كلامه و علمه و قدرته، و لا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابه و التابعون لهم يا حسان. (١) لعلّه ناظر إلى هذه الطائفة الذين لو خاضوا فيها، فسدوا و أفسدوا، و لم يأتوا بشيء.

و أمّا إذا انتقل إلى المرحله الثانيه، أى مرحله الفهم و الدرايه و البحث و النظر و صياغه العقائد فى ضوء الكتاب و السنّه و العقل، فلا يصحّ له الاكتفاء بالإقرار و الإمرار، فإنّ الاستطلاع أمر طبيعىّ للبشر، و هو أحد الأبعاد الأربعة الروحيه له، فلا يمكن كبح جماح فهمه و نظره بحجّه أنّ الصحابه و التابعين سكتوا عنه، و كأنّ السلف هم القدوه دون الذكر الحكيم، و دون النبي صلى الله عليه و آله و سلم و عترته الذين تكلموا فيها، و أضاءوا الطريق لسالكيه، و كأنّ قوه التفكير و النظر و المواهب العقليه المودعه فى الإنسان خلقت سدّى و بلا غايه.

و هل يمكن أن يفرض على عمالقه الفكر و أصحاب المواهب العقليه أن يقفوا دون هذه المعارف و يُطفئوا أنوار عقولهم ليصبحوا كأجلاف البيداء لا همّ لهم سوى الأكل و الشرب و السير طلباً للماء و العشب؟!!

و على هذا فيجب تصنيف الناس إلى صنفين: قابل و غير قابل، مستعدّ و غير مستعدّ، فلو صحّ الحرمان فإنّما للسوقه من الناس دون من أوتى تفكيراً قوياً و استعداداً وقّاداً.

ثمّ إنّه كما يجب تصنيف الناس، يجب تصنيف المسائل بين ما يمكن للإنسان الخوض فيه و الرجوع عنها بفكره صحيحه، و ما لا يمكن للإنسان دركه

ص: ٤٧

١ - ١). الدكتور أحمد محمود صبحى: فى علم الكلام: ٢١/١ نقلاً عن تمهيد لتاريخ الفلسفه الإسلاميه، لمصطفى عبد الرازق: ١٥٥، طبعه ١٩٤٤م.

و فهمه، فإنَّ البحث عن ذاته سبحانه أمر غير ممكن، إذ ليس كمثله شيء حتى يعرف الذات به، ولأجل ذلك ورد النهي الأكيد عن البحث و الجدال في ذاته، و مثله البحث عن حقيقه الوحى و النبوه، أو عن حقيقه الجنه و النار، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية التي لا- يلمسها و لا- يدركها إلا نبي يوحى إليه أو إنسان خرج من الدنيا و دخل الآخرة، و الواجب فيها الإيمان فقط، قال سبحانه:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» ١. فإنَّ الإنسان المحبوس في سجن المادة، لا يمكن له درك حقيقتها، وإن كان له حقَّ البحث عن آثار الوحى و النبوه و خصائصهما.

أضف إلى ذلك أنه لا مفرَّ للمانعين عن الخوض في المعارف القرآنية بل العقليه على الإطلاق، من سلوك أحد طريقتين:

١. التلاوه و السكوت و الإمرار و الإقرار و تفويض معانيها إلى مُنزلِّها.

٢. الأخذ بظواهر الآيات الحرفيه و تفسيرها بظواهرها الحرفيه.

أمَّا الأوَّل فينتهى إلى تعطيل العقول عن المعارف و بالتالى يتنزَّل الإنسان إلى حدِّ الحيوان، و تكون وظيفه الحكيم العارف المقتدر على درك دقائق التوحيد و رقائقتها، هى نفس وظيفه الجاهل البائل على عقبه، فى مجال العقيد و التفكير، و هو كما ترى.

و أمَّا الثانى فهو ينتهى إلى التشبيه و التجسيم، و أقصى ما عند هؤلاء الذين يأخذون بالظواهر الحرفيه هو ضمَّ كلمه «بلا كيف و لا تمثيل» إلى مفاد هذه الآيات، فيقولون: إنَّ لله يداً و رجلاً و عيناً و استواءً على العرش بنفس المعنى اللغوى، و لكن بلا كيف و لا تمثيل.

يلاحظ عليه أولاً: أنه لم ترد تلك الجملة (بلا كيف) في نص قرآني ولا سننه نبويه، فمن أين لهم هذه الجملة و تفسير الآيات على ضوءها؟!

و ثانياً: أن اليد و أضرابها موضوعه حسب اللغة للأعضاء المحسوسة، التي لها هيئات و مواصفات و هي مقوماتها، فإجراؤها على الله سبحانه مع حفظ المقومات، يستلزم التشبيه و التمثيل، و مع عدمها، يستلزم التأويل، فاليد في «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» ١ إما مستعمله في اليد المحسوسة فهو مثار التشبيه، و إما في غيرها فهو مثار التأويل الذي يفرون منه فرار المزكوم من المسك.

و هذه المضاعفات ناشئة عن الجمود على الظواهر الحرفية و الأخذ بالظهور التصوري، دون الظهور التصديقي الذي لا يخالف العقل قيد شعره في آيه من الآيات.

إن الدعوه السلفيه التي أحدثت ضجه في القرن الرابع عشر قد طرحت الصفات الخبريه على صعيد البحث في الآونه الأخيره، و تصرّ على الأخذ بمعانيها الحرفيه، و قد عرفت أنها تنتهي إلى التجسيم أو التأويل.

و من المؤسف جداً إن المتقدمين من السلف كانوا يصرون على الأخذ بحرفيه الصفات، و إليك بعض نصوصهم:

١. قيل لعبد الله بن مبارك: كيف يعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة و على العرش بائن من خلقه.

٢. و قال الأوزاعي: إن الله على عرشه، و نؤمن بما وردت به السنه من صفاته.

٣. وقال الدارمي في مقدمه كتابه «الرد على الجهميه»: استوى على عرشه فبان من خلقه.

٤. وقال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» ١، و قد كان السلف لا- يقولون بنفى الجهمه و لا- ينطقون بذلك، بل نطقوا هم، و الكافه بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه و أخبرت رسله و لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقه. (١) «ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى» ٣.

الدعوه إلى العلوم الحسيه

قد عرفت أدله المتقدمين على منع الخوض في المعارف الإلهيه، و هناك من يؤيد تلك الفكره لكن بثوب جديد و هو أنّ العلم المفيد هو العلم المعتمد على الحس و تجربه، فالخارج عن ذينك الحكمين لا يفيد شيئاً. و في ذلك يقول فريد و جدى في بعض كتبه:

بما أنّ خصومنا يعتمدون على الفلسفه الحسيه و العلم الطبيعى في الدعوه إلى مذهبهم، فنجعلهما عمدتنا في هذه المباحث، بل لا مناص لنا من الاعتماد عليهما، لأنهما اللذان أو صلا الإنسان إلى هذه المنصه من العهد الروحاني. (٢)

ص: ٥٠

١-٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الأقوال كتاب «علاقه الإثبات و التفويض»: ١١٥، ٦٨، ٤٨، ٤١.

٢-٤. على أطلال المذهب المادى: ١٦/١.

وقال أبو الحسن الندوى:

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله و صفاته و أفعاله و عن بدايه هذا العالم و مصيره و ما يهجم على الناس بعد موتهم، آتاهم الله علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بلا- تعب، و كفاهم مئونه البحث و الفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها و لا- مقدّماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول، لأنّ هذه العلوم وراء الحس و الطبيعه لا- تعمل فيها حواسهم، و لا يؤدى إليها نظرهم، و ليست عندهم معلوماتها الأوّليه.

إنّ الذين خاضوا فى الإلهيات من غير بصيره و على غير هدى جاءوا فى هذا العلم بآراء فجّه، و معلومات ناقصه، و خواطر سانحه، و نظريات مستعجله فضلّوا و أضلّوا. (١)

و يلاحظ على كلا التقريرين:

أولاً: إنّ الاعتماد على الفلسفه الحسيّيه و التركيز على الحسّ من بين أدوات المعرفه، مقتبس من الفلسفه الماديه التى ترفض الاعتماد على العقل و أدواته و لا تعترف إلا بالحسّ و تحسبه أداه منحصره للمعرفه، و العجب أن يلتهج بهذا الأصل من يدعى الصلّه بالإسلام و يعدّ من المناضلين ضد الفلسفه الماديّه، فى القول بهذا، إبطال للشرائع السماويه، المبنيه على النبوه و الوحي و نزول الملك و سائر الأمور الخارجه عن إطار الحسّ، و التى لا تدرك إلا بالعقل و البرهنه، فمن العجيب أن يلعب فريد و جدى و مقلّد الدعوه السلفيه «أبو الحسن الندوى» بحبال الماديه من غير شعور و لا استشعار.

ص: ٥١

(١- ١). ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٩٧.

و ثانياً:إنّه لو صحّ قول «الندوى» إنّ:«هذه العلوم وراء الحسّ و الطبيعه لا- تعمل فيها حواسّهم، و لا يؤدّي إليها نظرهم، و ليست عندهم معلوماتها الأولى»، فلما ذا يطرح الذكر الحكيم لفيماً من المعارف، و يحرض على التدبّر فيها و هي ممّا يقع وراء الحسّ و الطبيعه، و ليست الغايه من طرحها هو التلاوه و السكوت حتى تصبح الآيات لقلقه لسان لا تخرج عن تراقى القارئ بدل أن تتسلّل إلى صميم الذهن و أعماق الروح؟!!

إشارة

المصير المأساوى للفلسفه

لقد مُنيت الفلسفه بنفس ما مُنى به علم الكلام، والمراد من الفلسفه هو التفكير العقلى فى صفحه الكون و الوجود، وقد انتقلت الفلسفه إلى أوساط المسلمين عن طريق المترجمين فى عصر العباسيين، ولما كان فيها من الآراء ما لا يوافق الأصول المسلمه عند المسلمين، قام المتطرفون بتحريم الكلّ و تكفير المتعاطى لها خلافاً لقوله سبحانه: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» ، لكن المنصفين من علماء الإسلام حافظوا على الاعتدال، فأخذوا الصحيح منها و نقدوا الباطل و تلقّوها ثروه فكرية بشرية لا تختص بفته دون فته، لكنّها بحكم أنّها حصيلة الفكر البشرى لا تخلو عمّا يخالف الحقّ، و ها نحن -على وجه الإيجاز- نذكر كلمات بعض المنكرين لها بتاتاً:

١. الغزالي (٤٥٠-٥٥٥هـ)

إشارة

ألّف الغزالي كتابه المعروف «تهافت الفلاسفه» و هو يضمّ عشرين مسأله عالجه الفلاسفه القدماء و رأى تناقضهم فيها، فكفرهم فى ثلاث منها، دون غيرها من المسائل التى رأى أنّها قريبه من عقائد المعتزله و غيرهم، وقد ذكر الغزالي

ص: ٥٣

المسائل العشرين فى دىواجه الكتاب و نحن نذكرها حسب ما ذكره،قال:

التي أظهرنا تناقض مذهبهم فيها فى هذا الكتاب و هى عشرون مسأله:

المسأله الأولى:إبطال مذهبهم فى أزليه العالم.

المسأله الثانيه:إبطال مذهبهم فى أبدية العالم.

المسأله الثالثه:بيان تليسههم فى قولهم:إنّ الله صانع العالم،و إنّ العالم صنعه.

المسأله الرابعه:فى تعجيزهم عن إثبات الصانع.

المسأله الخامسه:فى تعجيزهم عن إقامه الدليل على استحاله إلهين.

المسأله السادسه:فى إبطال مذاهبهم فى نفى الصفات.

المسأله السابعه:فى إبطال قولهم:إنّ ذات الأوّل لا تنقسم بالجنس و الفصل.

المسأله الثامنه:فى إبطال قولهم:إنّ الأوّل موجود بسيط بلا ماهيه.

المسأله التاسعه:فى تعجيزهم عن بيان أنّ الأوّل ليس بجسم.

المسأله العاشره:فى بيان أنّ القول بالدهر و نفى الصانع لازم لهم.

المسأله الحاديه عشره:فى تعجيزهم عن القول بأنّ الأوّل يعلم غيره.

المسأله الثانيه عشره:فى تعجيزهم عن القول بأنّه يعلم ذاته.

المسأله الثالثه عشره:فى إبطال قولهم:إنّ الأوّل لا يعلم الجزئيات.

المسأله الرابعه عشره:فى قولهم:إنّ السماء حيوان متحرك بالإراده.

المسأله الخامسه عشره:فى إبطال ما ذكره من الغرض المحرّك للسماء.

المسأله السادسه عشره:فى إبطال قولهم:إنّ نفوس السماوات تعلم جميع الجزئيات.

المسأله السابعه عشره:فى إبطال قولهم باستحاله خرق العادات.

المسأله الثامنه عشره:فى قولهم:إنّ نفس الإنسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا عرض.

المسأله التاسعه عشره:فى قولهم باستحاله الفناء على النفوس البشريه.

المسأله العشرون:فى إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، مع التلذذ و التألم فى الجنه و النار باللذات و الآلام الجسمانيه.

فهذا ما أردنا أن نذكر تناقضهم فيه من جمله علومهم الإلهيه و الطبيعيه، و أمّا الرياضيات فلا- معنى لإنكارها و لا- للمخالفه فيها، فإنّها ترجع إلى الحساب و الهندسه.

و أمّا المنطقيات فهى نظر فى آله الفكر فى المعقولات، و لا يتفق فيه خلاف به مبالاه، و سنورد فى كتاب «معيار العلم» من جملته ما يحتاج إليه لفهم مضمون هذا الكتاب إن شاء الله. (1)

أقول:و قبل الكلام فى المسائل الثلاث التى كُفّر بها الفلاسفه نلفت نظر القارئ إلى نكته و هى أنّ قسماً من هذه المسائل مبنيّ على أصول الهيئه البطليموسيه، أعنى:المسائل الرابعه عشره-الثامنه عشره، فليس فى الكون سماء حسب التفكير البطليموسى، حتّى نتكلّم فى خصوصياتها، نعم لا شكّ أنّ القول بقدم العالم الملازم لاستغنائاه عن الخلق و الإيجاد كفر لا يتفوّه به الموحد فضلاً عن المسلم، و هكذا إنكار علمه سبحانه بالجزئيات، إذ صريح الآيات المتضافره على أنّه لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء. كما هو مقتضى البراهين الفلسفيه التى غفل عنها الغزالي.

ص: ٥٥

و يقرب من ذلك إنكار حشر الأجساد، فإنَّ المعاد الجسماني من ضروريات الدين، يقول سبحانه: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ١، و أمّا ما سوى ذلك فإنّما هي آراء فلسفيّة أو كلاميه و ليست من أسباب الإيمان و الكفر.

لكن الكلام في ثبوت الصغريات، فهل الفلاسفة المسلمون كانوا ينكرون حدوث العالم و يعتقدون بقدمه؟ و هل الفلاسفة الإسلاميون كلّهم على النحو الذي يصفهم هو بقوله: قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب و النظراء بمزيد الفطنة و الذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، و استحققوا شعائر الدين: من وظائف الصلوات، و التوقى عن المحظورات، و استهانوا بتعيّيدات الشرع و حدوده و لم يقفوا عند توقيفاته و قيوده، بل خلعوا بالكلية ربه الدين بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً و هم بالآخرة هم كافرون، و لا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلفي كتقليد اليهود و النصارى، إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم و أولادهم؟ و عليه درج آباؤهم و أجدادهم، و غير بحث نظري، صادر عن التعرّ بأذيال الشبه، الصارفة عن صوب الصواب، و الانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب، كما أنّفق لطوائف من النظّار في البحث عن العقائد و الآراء، من أهل البدع و الأهواء. (١)

و نحن لا يمكن لنا إنكار ما ذكره أو تصديقه و لكن نجلّ أكثر الفلاسفة الإسلاميين عن هذه الآراء الساقطة خصوصاً من تقدّم عليه، نظراء: الفارابي، و الشيخ الرئيس، و من تأخر عنه كالمحقّق نصير الدين محمد بن محمد بن حسن

ص: ٥٦

الطوسي (٥٩٧-٥٦٧هـ) و من تربى على يديه، كالكاتب القزويني، و العلامه الحلبي، و من أتى بعدهم كالمحقق الداماد و مشايخه و تلاميذه.

و على كل تقدير نرجع إلى ما نسب إلى الفلاسفه المسلمين من المسائل الثلاث التي بها كفرهم الغزالي، أعنى:

١. حدوث العالم زماناً و ذاتاً

أوجدت مسأله حدوث العالم حدوثاً زمانياً ضجّه كبرى بين أهل المنقول، فالمتكلمون-تبعاً لما ورد في الروايات-على أن العالم حادث زماناً، و يقولون: كان زمان لم يكن للعالم فيه أى أثر.

غير أنهم عجزوا عن البرهنه و الاستدلال على معتقدهم هذا، إذ أن الحدوث الزمانى عباره عن «سبق عدم العالم فى زمان خاص و أنه كان زمان لم يكن للعالم فيه خبر و لا أثر».

و هذا الرأى أوقعهم فى مشكله، لأنه ينقل الكلام إلى نفس «الزمان» فهل لهذا الزمان حدوث زمانى أو لا؟

فإن اختاروا الأول لزم أن يكون للزمان زمان، أى أن يكون ثمه زمان لم يكن فيه من الزمان اللاحق أثر و لا خبر، و هذا باطل جدّاً، لأنه ينقل الكلام إلى الزمان السابق و هكذا يتسلسل.

و إن اختاروا الثانى استلزم ذلك قدم الزمان و هم يفرون من كلّ قديم زمانى.

هذا و قد طال البحث و الجدل حول هذه المسأله التي هى خارجه عن إطار هذا البحث و لو أنهم فرقوا بين الحدوث الذاتى المتفق عليه بين الإلهيين و الحدوث الزمانى الذى يستلزم القول به التسلسل، لكان أفضل و أقطع للنزاع.

على أنّ نظريه «الحركه الجوهرية» قد حلت العقده و أثبتت الحدوث الزمانى للماده بأوضح الوجوه لا بنحو يستلزم التسلسل، لأنّه إذا كان الزمان منبعثاً من تجددّ الماده و تدرّجها، فكّل قطعه من الماده السيّاله ترسم عدم القطعه اللاحقه، فتصير كلّ قطعه من الماده موصوفه بأنّها لم تكن مع القطعه السابقه، و بالنتيجه لم تكن القطعه اللاحقه فى الزمان السابق عليها.

و بتعبير آخر: إذا كان كلّ قطعه من الماده السيّاله و كلّ درجه منها متعانقاً مع الزمان، و لم يكن من القطعه اللاحقه فيها عين و لا أثر، صحّ توصيف القطعه اللاحقه بالحدوث الزمانى، و هو أنّه لم تكن القطعه اللاحقه فى ظرف القطعه السابقه، و هكذا الحال إذا وضعنا البنان على كلّ جزء جزء من تلك الماده السيّاله.

و بهذا يثبت الحدوث الزمانى للطبيعه من دون أى إشكال.

و فى هذا الصدد يقول الحكيم صدر الدين الشيرازى:

«لقد تبين أنّ الأجسام كلّها متجدّده الوجود فى ذاتها، و أنّ صورتها صورته التغيّر، و كلّ منها حادث الوجود مسبق بالعدم الزمانى كائن فاسد لا استمرار لهوياتها الوجوديه، و لا لطبائعها المرسله، و الطبيعه المرسله وجودها عين شخصياتها و هى متكثره، و كلّ منها حادث و لا جمعيه لها فى الخارج حتّى يوصف بأنّها حادث أو قديم». (١)

و قال: «إنّ الطبائع الماديه كلّها متحركه فى ذاتها و جوهرها مسبقه بالعدم الزمانى، فلها بحسب كلّ وجود معين مسبقه بعدم زمانى غير منقطع فى الأزل». (٢)

ص: ٥٨

١- ١). الأسفار: ٢٩٧/٧ و ٢٨٥ و [١] أيضاً راجع المصدر نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣.

٢- ٢). الأسفار: ٢٩٧/٧ و ٢٨٥ و [٢] أيضاً راجع المصدر نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣.

إنّ نفى علمه سبحانه بالجزئيات فكره غير صحيحه لا يليق أن تنسب إلى الفلاسفه الإلهيين الذين اتفق أكثرهم على علمه بها، وإنّما اختلفوا في الكيفية، وقد ذكر صدر المتألّهين أقوال المتقدّمين و المتأخرين منهم في الفصل الرابع من الموقف الثالث في الأسفار، وها نحن نذكر آراءهم في الموضوع، و التي تحكى اتّفاقهم أو اتّفاق أكثرهم على العلم بالجزئيات، و الاختلاف بينهم إنّما هو اختلاف في الطريقة.

الأوّل: مذهب توابع «المشائين» منهم الشيخان «أبو نصر» و «أبو علي» و «بهمنيار» و «أبو العباس اللوكري»، و كثير من المتأخرين، و هو القول بارتسام صور الممكنات في ذاته تعالى و حصوله فيها حصولاً ذهنياً على الوجه الكلّي.

الثاني: القول بوجود صور الأشياء في الخارج، و هو مذهب المحقّق الطوسي و ابن كمونه و العلامه الشيرازي و محمد الشهرزوري.

الثالث: القول باتحاده تعالى مع الصور المعقوله، و هو المنسوب إلى فرفور يوس.

الرابع: ما ذهب إليه أفلاطون الإلهي من إثبات الصور المفارقة و المثل العقليه و أنّها علوم إلهيه.

الخامس: مذهب القائلين بثبوت المعدومات الممكنه قبل وجودها، و هم المعتزله.

السادس: مذهب القائلين بأنّ ذاته تعالى علم بجميع الممكنات.

السابع: القول بأنّ ذاته علم تفصيلي بالمعلول الأوّل و إجمالي بما سواه و ذات

المعلول الأول علم تفصيلي بالمعلول الثاني و إجمالي بما سواه، و هكذا إلى أواخر الموجودات، فهذا تفصيل المذاهب المشهوره بين الناس. (١)

و قد أنهى الحكيم السبزواری فی شرح المنظومه عدد الأقوال فی كیفیه العلم بالجزئیات إلى أحد عشر قولاً- آخرها لصدر المتألهين الذى استنبطه من القاعده الفلسفيه، و هى أنّ بسيط الحقيقه كلّ الأشياء و أنّ ذاته سبحانه حاوٍ لكلّ الكمالات، فما يوجد فى عالم الإمكان من الجزئیات، فالله سبحانه جامع لكمالاته على نحو أبسط و أتمّ، كملكه علم النحو التى تجمع كمالات الأجوبه التفصيليه النحويه، و عندئذٍ يكون العلم بالذات نفس العلم بما سواه.

نحن لا نريد أن نحوم حول هذه الآراء لنميز الصحيح عن الزائف، بل المقصود هو بيان اتّفاقهم (إلا من شدّ) على علمه سبحانه بالجزئیات و إنّما اختلفوا فى طريقته.

٣. حشر الأجساد يوم القيامة

المسأله الثالثه التى كُفّر بها الفلاسفه هى إنكار حشر الأجساد و هى ليست على ما نقل، نعم ينسب إلى النصارى بأنّ المعاد روحانى و ليس بجسمانى، و أمّا الفلاسفه الإسلاميون، فأقصى ما عندهم أنّ المعاد الروحانى مبرهن عليه دون المعاد الجسمانى فلا برهان عليه، غير أنّ النصوص متضافره على حشر الأجساد.

يقول الشيخ الرئيس: يجب أن يعلم: أنّ المعاد منه ما هو منقول فى الشرع و لا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة و تصديق خبر النبى و هو الذى للبدن

ص: ٦٠

عند البعث، و خيرات البدن و شروره معلومه لا يحتاج إلى تعلم.

و قد بسطت الشريعة الحقّه التي أتانا بها نبينا و سيدنا و مولانا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم حال السعاده و الشقاوه التي بحسب البدن، و منه ما هو مدرّك بالعقل و القياس. (١)

هذا نصّ كلامه، و أمّا من تأخّر عنه كصدر المتألّهين، فقد قال في شرح الهدايه الأثيريه: اعلم أنّ إعادته النفس إلى بدن مثل بدنها الذي كان لها في الدنيا، مخلوق من سنخ هذا البدن بعد مفارقتها عنه في القيامة، كما نطقت به الشريعة من نصوص التنزيل و روايات كثيره متضافره عن أصحاب العصمه و الهدايه غير قابله للتأويل، كقوله تعالى: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». ٢

«فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ». ٣

«أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ». ٤

و هذا أمر ممكن غير مستحيل فوجب التصديق به، لكونه من ضروريات الدين و إنكاره كفر مبين. (٢)

و لعلّ هذا المقدار حول المسائل الثلاث كاف.

و أمّا سائر المسائل من المسائل العشرين فهي على أقسام:

١. ما لا موضوع لها في صفحه الكون حتّى يبحث فيها، فهي أشبه

ص: ٤١

١- ١. الشفاء: ٢/٥٤٤، فصل في المعاد. [١]

٢- ٥. شرح الهدايه الأثيريه: ٣٨١، ط ١٣١٣هـ.

بإساليه بانتفاء الموضوع، كالمسائل المبنيه على الهيئه البظلميسيه.

٢. ما هو صحيح و مبرهن، أءعمه الءكر الءكيم كءءرء النفس و بقائها بإذن الله سبحانه و كون الواءب سبحانه صرف الوجود لا ماهيه له.

٣. ما يعد مسائل فلسفيه أو كلاميه لا يناط بها الإيمان و الكفر كسائر المسائل.

٢. ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٥٤٥٦)

إنّ علي بن أحمد بن علي بن سعيد بن حزم الأموي بالولاء، أبو محمد الأندلسي القرطبي مروء المذهب الظاهري و منقحه قام بنقء الفلسفه في رسائله و في كتابه «الفصل في الملل و الأهواء و النحل»، أمّا في رسائله فقء ألف رساله في الرد على «رساله الكندي إلى المعتصم بالله» في الفلسفه الأولى و قء أسماء كتاب «الفلسفه الأولى فيما ءون الطبيعيات و التوحيد»، كما ناقش في «الفصل» بعض المسائل الفلسفيه. (١)

٣. الشهرستاني (٤٦٧ - ٥٤٨)

لقء ألف أبو الفءح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الشافعي الأشعري كتاب «مصارعه الفلاسفه» و رء فيه علي سبعة من المسائل الفلسفيه المهمه، يقول:

«هءه المصارعه في سبع مسائل من الإلهيات، من جملة ئيف و سبعين مسأله في المنطق و الطبيعيات و الإلهيات خنقته فيها بوتءه، و رشقته بمشاقصه، و رءءته في

ص: ٦٢

(١ - ١). اءرأ ترجمته في الأءلام: ٢٥٤/٤، و [١] معجم المؤلفين: ١٦/٧، و [٢] غيرهما.

مهوى حُفرتَه، و أركسته لأَم رأسه فى زُبَيْتِه (١)، ذلك من فضل الله علينا و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون.

المسأله الأولى: فى حصر أقسام الوجود.

المسأله الثانیه: فى وجود واجب الوجود.

المسأله الثالثه: فى توحيد واجب الوجود.

المسأله الرابعه: فى علم واجب الوجود.

المسأله الخامسه: فى حدوث العالم.

المسأله السادسه: فى حصر المبادئ.

المسأله السابعه.... (٢)

و قد كان الركب سائراً فى نقد الفلاسفه عصرأ بعد عصر، فهذا هو أبو البركات البغدادي ينقد آراء الفلاسفه فى إرادته سبحانه فى كتابه المعتبر (ج ٣، ص ١٧٦). كما أنّ الإمام الرازى قام بنقد الإشارات للشيخ الرئيس، و لم يقتصر على كتابه هذا، بل له فى غير واحد من كتبه (كالمباحث المشرقيه و البراهين و غير ذلك) ردود و تشكيكات، و مع ذلك كله فالقوم بدل أن يستهدفوا فى كتاباتهم تمييز الصحيح عن الزائف و الاستماع إلى الأحسن، شطبوا على الجميع و رموهم بسهم واحد خلافاً لما دعا إليه الذكر الحكيم.

غير أنّ المحققين لم يلزموا جانب الصمت إزاء هذا الهجوم، بل تصدّوا للردّ على تلك الشبهات منهم: علمان جليلان و كوكبان مضيئان فى سماء العلم

ص: ٦٣

١-١). هذه العبارة تكشف عن روحيات الرجل و نزعاته، و أنّ الرد لم يكن بدافع نزيه بل كان لمجرد إظهار الفضل و الأنانيه.

٢-٢). مصارعه الفلاسفه: ١٨-١٩. [١]

أ. أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (٥٢٠ - ٥٩٥هـ) ألف كتاب «تهافت التهافت» سنة (٥٧٥هـ) ردّاً على كتاب «تهافت الفلاسفه» لأبي حامد الغزالي، وقد أحدث هذا الكتاب منذ ظهوره دويّاً في الأوساط الدينيه و الفلسفيه، يبدأ كتابه بقوله:

و بعد حمد الله الواجب و الصلاه على جميع رسله و أنبيائه، فإنّ الغرض من هذا القول أن نبين مراتب الأقاويل المثبتة في كتاب التهافت في التصديق و الإقناع و قصور أكثرها عن مرتبه اليقين و البرهان.

ب. نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢هـ)، ألف كتاباً باسم «مصارع المصارع» ردّ فيه على كتاب «مصارعه الفلاسفه» للشهرستاني الذي ألفه للرد على الشيخ الرئيس في مسائل سبع. يقول المحقّق الطوسي في مقدّمه الكتاب:

عثرت في أثناء طلبى على كتاب يعرف بالمصارعات للشيخ تاج الدين أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ادّعى فيه مصارعه مع الشيخ الرئيس أبي على حسين بن عبد الله بن سينا في عدّه من المسائل و الردّ عليه فيما ذكره في كتبه.

فدعتنى دعواه إلى النظر فيه، و اشتد حرصى من استماع اسمه على التأمل في معانيه.

فلما طالعتّه وجدته مشتتلاً على قول سخيّف، و نظر ضعيف، و مقدّمات واهيه، و مباحث غير شافيه، و تخليط في الجدال، و تمويه في المثال، قد مازج به سفهاً يحترزُ عنه العلماء، و رثماً من القول لا يستعمله الأدباء، إلاّ المنتسبين بالانتقام، و المتسوقين عند العوام، قد انصرع في أكثر مصارعاته، و انهزم في معظم

فرايت أن أكشف عن تمويهاته، وأميز بين تخليطاته، غير ناصر لابن سينا في مذاهبه، لكن مشيراً إلى مزال أقدام صاحبه، و متبهاً على مغالطات مشاغبه، و إن كلته في بعض المواضع بصاعه، أو سقيته بكأسه، فالله يعلم منى أن ذلك ليس ممّا يقتضيه دأبى، و لا يتعوده خلقى، بل الحرب يعدى، و الكلام يجر الكلام.

و نقلت فيه متن كلامه، و نص مرامه، من صدره إلى ختامه، لئلا يحتاج من يقع إليه هذه النسخه إلى طلب أصل الكتاب، و سمّيته ب«مُصارعُ المصارع»، فإن وقعت لى فيه زله أو هفوه، فليصلح من اطلع عليه من إخوانى، طلباً بذلك اقتناء الخير، و إحراز الأجر، و ها أنا مفتتح الكتاب، و الله ملهم الصواب.

و لم يزل النقد و الرد قائماً على قدم و ساق بين المتخاصمين، و قد عرفت أن القول الحاسم هو دراسه الأقوال و الآراء و الاستماع إلى أحسنها، هذا من جانب و من جانب آخر أن دراسه الفلسفه و مذاكرتها رهن قابليه و صلاحيه خاصه، و هى ليست شرعه لكلّ وارد و شارده، و إنما يردّها وارد بعد وارد، فهى رهن ذهن وقاد و صلاحيه ممتازه كما يقول الشيخ الرئيس:

أيها الأخ إننى قد مخضت لك فى هذه الإشارات عن زبده الحقّ، و ألقيتكم فى لطف الكلم، فضنه عن الجاهلين و المبتدلين و من لم يرزق الفطنه الوقاده و الدرجه و العاده، و كان صغاه من الغاغه، أو كان من ملحد هؤلاء الفلاسفه و من همجهم، فإن وجدت من تثق ببقاء سريره و استقامه سيرته و بتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس و بنظره إلى الحقّ بعين الرضا و الصدق فآته ما يسألك منه مدرجاً مجزاً مفرقاً، تستفرس ممّا تسلفه لما تستقبله، و عاهدّه بالله و بأيمان لا مخارج لها ليجرى فيما يأتيه مجراك متأسياً بك، فإن أذعت هذا العلم أو

أضعته فالله بيني وبينك، وكفى بالله وكياً. (١)

٤.١ ابن تيميه و آراؤه الفلسفيه

إشاره

ألف ابن تيميه كتاباً أسماه «درء تعارض العقل والنقل» أو «موافقه صحيح المنقول لصريح المعقول» حاول فيه رفع التناقض بين العقل والنقل، و لكنّه في الحقيقه يريد العقل الذى يوافق النقل الموجود فى الصحيحين وغيرهما، دون العقل المخالف، وإن دعمته البراهين الناصعه التى بها عرفنا ربنا سبحانه، فالأصل عنده النقل، لا العقل، والسلفيه اليوم يكيلون له بكييل كبير و يصفون عليه ألقاباً فخمه، نظير شيخ الإسلام، علم الأعلام، مفتى الأنام، الإمام المجاهد، الصادق الصابر، سيف السنّه المسلول على المبتدعين، و القاطع البتار لألسنه المارقين الملحدين و....

هلّم معى لنقف على عطاءاته الفكرية فى هذا المجال، و هل هو عارض المبتدعين أو هو أحد المبتدعه؟ و نحن نستعرض فى ذلك شيئاً من آرائه ليكون كنموذج لما لم نذكره:

١. قدم العالم نوعاً

قد تقدّم أنّ الغزالي كّفّر الفلاسفه لقولهم بقديم العالم و عدم حدوثه زماناً، و قد أحيا ابن تيميه تلك الفكره، و قال بقديم العالم نوعاً، و حدوثه شخصاً، ذكره فى غير واحد من كتبه، مثل «موافقه صحيح المنقول لصريح المعقول» و «منهاج السنه» و غيرهما.

و هذا نصّ عبارته فى الموافقه:

ص: ٦٦

و أمّا أكثر أهل الحديث و من وافقهم فإنهم لا يجعلون النوع حادثاً بل قديماً، و يفرقون بين حدوث النوع و حدوث الفرد من أفرادها، كما يفرق جمهور العقلاء بين دوام النوع و دوام الواحد من أعيانه. (١)

و العجب أنّه نسبه إلى أكثر أهل الحديث، و أين هم من هذه البحوث الفلسفيه؟! و متى أدلوا بهذا الرأي؟! فإنّ مذهبهم هو السكوت عمّا سكت عنه الكتاب و السنّه، و هل هناك آيه أو روايه تدلّ على أنّ كلّ ما فى العالم من الأنواع، قديم بنوعه، حادث بشخصه.

و يقول فى منهاجه: و حينئذٍ يمتنع كون شىء من العالم أزلياً، و إن جاز أن يكون نوع الحوادث دائماً لم يزل، فإنّ الأزلى ليس هو عبارته عن شىء محدد، بل ما من وقت يقدر إلّا و قبله وقت آخر، فلا يلزم من دوام النوع، قدم شىء بعينه. (٢)

و يقول أيضاً: و أين فى القرآن امتناع حوادث لا أول لها. (٣)

أقول: إنّ صريح ذلك أنّ الزمان بجنسه قديم، دون مصاديقه، و هكذا سائر الأنواع من إنسان و فرس، و بقر، فهل هذا ما نطق به الذكر الكريم أو السنّه النبويه؟!

ثمّ إنّ الذى دعاه إلى اختيار هذا الرأي، هو قوله بجلوس الرب على العرش، فعند ما يثار بوجهه هذا السؤال إنّ العرش مخلوق لله سبحانه، فأين كان سبحانه قبل خلق العرش؟ فإنه يحاول الخروج من هذا المأزق بما نقله عنه المحقّق الدوانى فى كتاب شرح العضديه، قال: و قد رأيت فى بعض تصانيف ابن تيميه القول بالقدم الجنسى فى العرش. (٤) و معناه أنّه كان يعتقد أنّ جنس العرش أزلى أى

ص: ٦٧

١-١. الموافقه: ٧٥/٢، دار الكتب العلميه، بيروت.

٢-٢. منهاج السنه: ١٠٩/١.

٣-٣. الموافقه: ٦٤/٢.

٤-٤. شرح العضديه: ١٣. [١]

ما من عرش إلا وقبله شيء إلى ما لا نهاية و أنه يوجد و ينعدم ثم يوجد و ينعدم، وهكذا فالعرش عنده قديم جنساً و لكن شخصه حادث.

هذا جزاء من أعدم العقل، و أكبَّ على النقل دون تمحيص.

و أعجب منه أنه يستدلّ على الجواز، بأنه ليس في القرآن امتناع حوادث لا أوّل لها، فيكون سكوت القرآن عن امتناعه، دليلاً على إمكانه بل وقوعه.

فكأن القرآن كتاب فلسفي جاء لبيان ما هو الممكن و المستحيل، فإذا سكت عن استحاله شيء يكون دليلاً على إمكانه «ما هكذا تورد يا سعد الإبل»!!

٢. قيام الحوادث بذات الله سبحانه

و من مبتدعاته التي خرق بها إجماع المتألهين على أنه سبحانه منزّه عن قيام الحوادث به، قوله: فمن أين في القرآن ما يدلّ دلاله واضحه على أنّ كلّ متحرك محدث أو ممكن؟ و أنّ الحركة لا- تقوم إلا- بحادث أو ممكن، أو ما قامت به الحوادث لم يخلُ منها، و أنّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؟

و يقول في مكان آخر: فإننا نقول: إنّه يتحرك و تقوم به الحوادث و الأعراض، فما الدليل على بطلان قولنا؟ (١)

أقول: لو كان الكاتب درس الفلسفه و الكلام عند أساتذتهما دون أن يكون له رأى مسبق في الموضوع لوقف على أنّ الذات القائم به الحوادث كالحركة و السكون حادث، لأنّ الحركة في العرض نابعه من الحركة في الجوهر، و الحركة في الجوهر عباره عن تغيير ذات الشيء و تحوّل من جوهر إلى جوهر، و أيّ

ص: ٦٨

حادث أظهر من ذلك؟

و هو بهذا القول أحيا نظريه الكراميه-أعنى: أتباع محمد بن كزّام-حيث زعموا أنّ الحوادث تطرأ، أى تتجدد على ذات الله.

يقول الاسفرائينى فى التبصير: ومما ابتدعه-أى الكراميه-من الضلالات ممّا لم يتجاسر على إطلاقه قبلهم واحد من الأمم لعلمهم بافتضاحه هو قولهم: بأن معبودهم محلّ الحوادث تحدث فى ذاته أقواله و إرادته و إدراكه للمسموعات و المبصرات، و سيّموا ذلك سمعاً و تبصراً، و كذلك قالوا:

تحدث فى ذاته ملاقاته للصفحة العليا من العرش، زعموا أنّ هذه أعراض تحدث فى ذاته، تعالى الله عن قولهم». (١)

٣. قوله بالتجسيم

إنّ ابن تيميه و إن كان لا يصرح بكونه سبحانه جسماً لكنّه يصرّح بأنّه لم يرد عن الصحابه و التابعين أنّ الله ليس بجسم، يقول: و أمّا الشرع فمعلوم أنّه لم ينقل عن أحد من الأنبياء و لا الصحابه و لا التابعين و لا سلف الأئمه أنّ الله جسم أو أنّ الله ليس بجسم، بل النفى و الإثبات بدعه فى الشرع. (٢)

و يقول أيضاً: و أمّا ذكر التجسيم و ذمّ المجسمه فهذا لا يعرف فى كلام أحد من السلف و الأئمه، كما لا يعرف فى كلامهم أيضاً القول بأنّ الله جسم أو ليس بجسم، بل ذكروا فى كلامهم الذى أنكروه على الجهميه نفى الجسم، كما ذكره أحمد فى كتاب الردّ على الجهميه.

ص: ٦٩

١-١. التبصير فى الدين: ٦٦-٦٧. [١]

٢-٢. شرح حديث النزول: ٨٠.

و قال فى موضع ثالث: أمّا ما ذكره من لفظ الجسم و ما يتبع ذلك فإنّ هذا اللفظ لم ينطق به فى صفات الله لا كتاب و لا سنّه لا نفيّاً و لا إثباتاً، و لا تكلم به أحد من الصحابه و التابعين و تابعيهم و لا أهل البيت و لا غيرهم. (١)

إنّ فكره التجسيم من مستوردات اليهود، و كتبهم مشحونه به و بالجهد و بالنزول و الحركه. و هذا أمر ظاهر لمن راجع كتبهم، و ابن تيميه تبعاً لما أدخله مستسلمه اليهود بين أصحاب الحديث، جوّز أن يكون سبحانه جسماً. و من المعلوم أنّ الجسم ذو أبعاد يحتاج فى تحقّقه إلى أبعاد، و المحتاج ممكن، و الممكن ليس بواجب.

و العجب أنّه زعم أنّه لم ترد عن أهل البيت كلمه فى نفى الجسميّة، و هذه خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و كلمات أبنائه الطاهرين عليهم السلام صريحه فى ذلك لا يسعنا نقل معشار منها. إلاّ أن يكون «أهل البيت» عنده، غيرهم.

ثمّ إنّ أبناء التجسيم يصحّحون قولهم بالجسميّة بأنّه سبحانه جسم لا كسائر الأجسام، و فى ذلك يقول أبو الثناء فى كتابه «التمهيد لقواعد التوحيد» ما هذا نصّه:

ثمّ إنهم ناقضوا فى ما قالوا، لأنّ الجسم اسم للمتركّب لما مرّ، فإثبات الجسم إثبات التركيب و نفى التركيب نفى الجسم، فصار قولهم جسم لا- كالأجسام كقولهم: متركب و ليس بمتركب، و هذا تناقض بين بخلاف قولنا: شىء لا كالأشياء، لأنّ الشىء ليس باسم للمتركّب و ليس ينبئ عن ذلك و إنّما ينبئ عن مطلق الوجود، فلم يكن قولنا: «كالأشياء نفيّاً لمطلق الوجود، بل يكون نفيّاً لما وراء الوجود من التركيب و غيره من أمارات الحدث، فلم يكن

ص: ٧٠

ذلك متناقضاً و لله الحمد و المنه».

و إذا ثبت أنّ الله تعالى لا يوصف بالجسم، فلا يوصف بالصوره أيضاً، لأنّ الصوره لا وجود لها بدون التركيب. (1)

١.٤. الله سبحانه محدود بالحدّ

ذهب ابن تيميه إلى صحّه نسبة الحدّ إلى ذاته تعالى، و قد نقله في كتابه «الموافق» عن أبي سعيد الدارمي المجسّم موافقاً له، فقال ما نصّه:

و قد اتّفقت الكلمه من المسلمين و الكافرين أنّ الله في السماء و حدّوه بذلك إلا المريسى الضالّ و أصحابه، حتّى الصبيان الذين لم يبلغوا الحنث قد عرفوا ذلك إذا أحسن الصبى يثنى. يرفع يده إلى ربّه و يدعوه في السماء دون ما سواها و كلّ أحد بالله و بمكانه أعلم من الجهميّه. (2)

و قال في كتابه «تلبيس الجهميّه»: لقد دلّ الكتاب و السنّه على معنى ذلك، كما تقدّم احتجاج الإمام أحمد لذلك بما في القرآن ممّا يدلّ على أنّ الله تعالى له حدّ يميّز به عن المخلوقات. (3)

إلى غير ذلك من كلماته الصريحه في إثبات الحدّ و إخلاء العالم بأرضه و سمائه عن وجوده سبحانه.

لقد أثبت المفكّرون الواعون من المسلمين تنزيهه سبحانه عن الحدّ و ذكروا

ص: ٧١

١-١. التمهيد لقواعد التوحيد: ٦٠. [١]

٢-٢. موافقه صحيح المنقول لصريح المعقول: ٢٩/٢.

٣-٣. بيان تلبيس الجهميّه: ١/٤٤٥. و خفي عليه أنّ رفع اليد في الثناء و السؤال إنّما هو تمثيل لرفعه شأنه و ترسيم لعلوّ مقامه، لا كونه في السماء.

براهينه بما لسنا فى مقام بيانها، و لكن إذا دار الأمر بين أخذ المعارف و العقائد من ابن تيميه أو تلميذه ابن القيم أو من لفّ لفهما و بين أخذها من ريب بيت النبوه و عيبه علم النبى الإمام على عليه السلام، فلا شك أنّ الثانى أولى و أفضل، بل هو المتعين، و لقد صدع بذلك الرازى فى مسأله الجهر بالبسمله و قال:

و من اقتدى فى دينه بعلّى فقد اهتدى، قال و الدليل عليه قول رسول الله:

«اللهم أدر الحقّ مع علىّ حيث دار». (١)

و هذا هو الإمام يصف الله سبحانه بقوله: «و من وصفه سبحانه-أى جعل صفاته غير ذاته-فقد قرنه، و من قرنه فقد ثناه، و من ثناه فقد جزّاه، و من جزّاه فقد جهله، و من جهله فقد أشار إليه، و من أشار إليه فقد حدّه، و من حدّه فقد عدّه، و من قال: فيم فقد ضمّنه، و من قال علام فقد أخلى منه».

و فى (٢) كلام له: «الحمد لله اللابس الكبرياء بلا- تجسّد، و المرتدى بالجلال بلا- تمثّل، و المستوى على العرش بلا زوال، و المتعالى عن الخلق بلا تباعد منهم، القريب منهم بلا ملامسه منه لهم، ليس له حدّ ينتهى إلى حدّه، و لا له مثل فيعرف بمثله». (٣) إلى غير ذلك من خطبه و خطب أبنائه و كلماتهم عليهم السلام.

٥. نسبه الجهه و المكان لله تعالى

لقد تکرّر إثبات الجهه و المكان لله سبحانه فى كلمات ابن تيميه فى «منهاج السنّه»، و يكفى فى ذلك العبارتان التاليتان:

ص: ٧٢

١-١. التفسير الكبير: ١/٢٠٤. [١]

٢-٢. نهج البلاغه، الخطبه الأولى. [٢]

٣-٣. الصدوق، التوحيد: ٣٣.

١. إذا قيل إنه في جهه كان معنى الكلام أنه هناك فوق العالم حيث انتهت المخلوقات، فهو فوق الجميع عالٍ عليه. (١)

٢. وجمهور الخلف على أنّ الله فوق العالم و إن كان أحدهم لا يلفظ بلفظ الجهه، فهم يعتقدون بقلوبهم و يقولون بألسنتهم ربهم فوق. (٢)

أقول: فمن أين لابن تيميه هذا العلم؟! فهل هو يعلم ما تخفى الصدور؟! لا أدري!!

و أسوأ من ذلك أنه استدللّ على ثبوت الجهه لله بطلب فرعون أن يصنع له مصعداً ليطلع إلى إله موسى، قال: و الله قد أخبر عن فرعون أنه طلب أن يصعد ليطلع إلى إله موسى، فلو لم يكن موسى أخبره أنّ الله فوق، لم يقصد ذلك، فإنه لو لم يكن مقرراً به فإذا لم يخبره موسى به لم يكن إثبات العلوّ لا منه و لا من موسى عليه الصلاه و السلام، ثم قال: فموسى صدق محمّداً في أنّ ربّه فوق و فرعون كذب موسى في أنّ ربّه فوق، فالمقرّون بذلك متبعون لموسى و لمحمد و المكذبون بذلك موافقون لفرعون. (٣)

ما الدليل على أنّ موسى أخبر فرعون بأنّ ربّه فوق السماوات، و أىّ دليل على أنّه لم يأخذه من مجسّمه عصره؟!!

و أين هذا من كلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث يقول: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو، ليس كمثله شيء، و هو السميع البصير، لا يحدد و لا يحسّ و لا يُجسّ و لا يُمسّ و لا تدركه الحواسّ، و لا يحيط به شيء و لا جسم و لا

ص: ٧٣

١-١. منهاج السنّه: ٢١٧/١.

٢-٢. نفس المصدر: ٢٤٢/١.

٣-٣. المصدر نفسه: ٥٢٦/١.

صوره و لا تخطيط و لا تحديد». (١)

و قد تضافر هذا التعبير عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في غير مكان.

و هذا هو الإمام أبو الحسن الهادي عليه السلام يقول: «سبحان من لا يحدّ، و لا يوصف، و لا يشبهه شيء، و ليس كمثله شيء، و هو السميع البصير». (٢)

و إثبات الجبه لله سبحانه إثبات مكان و إثبات تحديد، و أين هذا من الواجب الغنى عن المكان و الجبه و الحدّ؟!

٦. جلوسه سبحانه على العرش

و من عجائب أفكاره في باب التوحيد، إثبات جلوسه سبحانه على العرش، يقول: ثم إن جمهور أهل السنّه يقولون: إنّه ينزل و لا يخلو منه العرش، كما نقل ذلك عن إسحاق بن راهويه و حماد بن زيد و غيرهما، و نقلوه عن أحمد بن حنبل في رسالته. (٣)

و قال في شرح حديث النزول: و القول الثابت هو الصواب، و هو المأثور عن سلف الأئمة و أئمتها أنّه لا يزال فوق العرش و لا يخلو العرش منه مع دنوّه و نزوله إلى السماء و لا يكون العرش فوقه.

و يقول أيضاً في فتاواه: و قال أهل السنّه في قوله: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» ٤، الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقه لا على المجاز. (٤)

ص: ٧٤

١-١. الصدوق: التوحيد: ٩٨، باب أنّ الله عزّ و جلّ ليس بجسم و لا صورته، الحديث ٤.

٢-٢. المصدر نفسه، نفس الباب، الحديث ١٣، ص ١٠١.

٣-٣. منهاج السنه: ٢٦٢/١.

٤-٥. مجموع الفتاوى: ٥١٩/٥.

وقال أيضاً فى كتاب «تلبس الجهميه»: الوجه الخامس: إنّ العرش فى اللغه السرير بالنسبه إلى ما فوقه كالسقف إلى ما تحته، فإذا كان القرآن قد جعل لله عرشاً و ليس هو بالنسبه إليه كالسقف، علم أنه بالنسبه إليه كالسرير بالنسبه إلى غيره، و ذلك يقتضى أنه فوق العرش. (١)

و قال فى تفسير سوره العلق: إنّ عرشه أو كرسيه وسع السماوات و الأرض و إنه يجلس عليه فما يفضل منه إلا قدر أربعة أصابع، و إنه ليئط أطيط الرحل الجديد براكبه. (٢)

هذا هو الإله الذى يعبده ابن تيميه و مقلدو منهجه، فهو إله ينتقل و يتحرك و ينزل، محدود بحدود، له جهه و مكان، و أنه يجلس على العرش، و عرشه يزيد عليه بأربعة أصابع، فإذا كان هذا إله العالم و خالق البرايا، فرفض هذا الإله أفضل من إثباته، و الرجل بعد قد تأثر بأخبار الآحاد المستورده من مستسلمه أهل الكتاب، و تصوّر أنّها حقائق راهنه و أنّ بها تناط سعادته الأُمّه و أنّ عرش إله العالم يئط أطيط الرحل الجديد!

فإذا كان هذا هو الإله المعبود «فيا موت زر إن الحياه ذميمه»!!

هذا جزاء من أعدم العقل و أكبّ على النقل بلا وعى، و تلقى روايات الصحيحين كأوثق ما يكون، دون إخضاعها للنقد و التمحيص.

فإذا كان هذا شيخ الإسلام و حجه الدين فعلى الإسلام السلام!

و لا يتصوّر القارئ بأنّ شذوذه و انحرافه عن الرأى العام بين المسلمين

ص: ٧٥

١- ١. تلبس الجهميه: ١/٥٧٦.

٢- ٢. مجموعه التفسير: ٣٥٤-٣٥٥.

يختصّ بما ذكرنا، ولكن خطأ الرجل لا يختصّ بباب دون باب، وإليك قوله بفناء النار و انتهاء العذاب.

٧. فناء النار و انتهاء عذاب الكفار

أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على خلود المنافقين و الكفار في نار جهنم و عدم خروجهم من النار. قال تعالى: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُّقِيمٌ». ١

و قال في آية أخرى: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ». ٢

إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في خلود الكفار في نار جهنم.

و لكن هلمّ معي نقف على رأى ابن تيمية في المقام، يقول: و في المسند للطبراني: أنه ينبت فيها-النار-الجرجير». (١)

فيحتج ابن تيمية بهذا الحديث على فناء النار مضيئاً أنّ القائلين ببقائها ليس معهم كتاب و لا سنّه و لا أقوال الصحابه.

و أضاف أيضاً: أنّ من قال بدوام النار محتجاً بالإجماع، فالإجماع غير معلوم، إلى أن زعم أنّ القول بفنائها فيه قولان معروفان عن الخلف و السلف. (٢)

أقول: قد عرفت أنّ الآيات صريحة في بقاء النار و خلود الكفار فيها، و مع ذلك لا تصل النوبة إلى المرويّات التي لا تتجاوز أخبار الأحاد.

ص: ٧٦

١-٣. الرد على من قال بفناء الجنة و النار: ٦٧.

٢-٤. لاحظ للوقوف على نصّ ابن تيمية كتاب «فناء الجنة و النار»: ص ٦٧-٧١ و غيره.

و كم لابن تيميه من زلّات في باب التوحيد و فيما يرجع إلى النبوه و النبي و غيرهما، بيد أنّنا نقتصر على ذلك، لأنّ الإطناب ربما يكون مملاً.

إنّ دراسه العقائد الإسلاميه بحاجة إلى الإلمام بالكتاب و السنّه الصحيحه المعتبره (غير المأخوذه من مستسلمه أهل الكتاب)، و الاستناد إلى العقل الصريح الذي يصون الإنسان من الوقوع في هذه المهالك. و الله هو المسدّد.

ص: ٧٧

إشارة

علم الكلام و عوامل نشوئه

إن علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية، ظاهره علميه نشأت بين المسلمين في ظل أسباب سيوافيك بيانها، و انبثقت عنها مدارس مختلفة، كما كانت للأمم السابقة مذاهب كلاميه و مدارس دينيه يبحث فيها عن اللاهوت و الناسوت، و قد أُلّف غير واحد من علماء اليهود (١) و النصرى كتباً كلاميه يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس و السادس، و أمّا عوامل نشأته بين المسلمين فتتلخص في عوامل داخلية و خارجيه، إليك بيان الأولى منهما:

العوامل الداخليه لنشوء علم الكلام

١. القرآن هو المنطلق الأوّل

إشارة

إنّ الذكر الحكيم هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام بين المسلمين،

ص: ٧٨

١ - ١). كدلاله الحائرين لابن ميمون و غيرها. هذا ما يرجع إلى سالف الأيام، و أمّا اليوم فما من شهر إلا و لهم كتاب أو رساله حول ديانتهم.

و هو المصدر الأول عند المتكلمين في دعم ما وافق و ردّ ما خالف.

إنّ الآيات المتضمّنه للحوار بين الرسل و من أرسل إليهم هي أحد أسباب التفكير الكلامي عند المسلمين، فلنذكر نماذج من تلك الحوارات:

١. حوار إبراهيم عليه السلام مع مدّعي الربوبية

هذا هو إبراهيم عليه السلام يحتجّ على من أنكر ربوبية الله سبحانه و تعالى، و ينقل سبحانه احتجاجه بقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» و هذا المقطع من الآية يكشف عن أنّ ملك زمانه كان مشركاً في الربوبية و يزعم أنّ ربوبية العالم و تدبيره مفوضه إليه، فاحتجّ إبراهيم عليه بقوله: «رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ»، فأجاب الملك و قال: «أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ». ١

قال إبراهيم: «فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ».

فعند ذلك بهت الملك و لم يدر بما ذا يجب، فيحكى سبحانه تحييره و خذلانه أمام البرهان القاطع للخليل بقوله: «فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ». ٢

٢. حوار إبراهيم عليه السلام مع عبده الأصنام

إنّ لبطل التوحيد إبراهيم الخليل حواراً آخر مع المشركين بشأن أصنامهم

ص: ٧٩

التي أقدم على كسرها و جعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم ليكون عبره لهم، فلما فوجئ المشركون بهذه الكارثة، تساءلوا عمن قام بهذا الفعل الشنيع؟ فانتهى الأمر بهم إلى اتهام إبراهيم عليه السلام بذلك، فأحضره للكشف عن جليته الحال، و دار بينه و بينهم حوار ينقله سبحانه بقوله:

- المشركون: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ».

- إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

- المشركون: «لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ».

- إبراهيم: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

و لما أحسَّ المشركون بالعجز عن إفحامه، تمسكوا بمنطق القوه، فقالوا:

«حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ».

ثم إنَّه سبحانه نصر رسوله في هذه اللحظة الرهيبة بجعل النار برداً و سلاماً على إبراهيم كما يقول:

«قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ». ١

٣. حوار موسى عليه السلام مع فرعون

إنَّ الحوار الدائر بين موسى الكليم عليه السلام و فرعون مدعى الربوبية يُرينا بوضوح قوة منطق الكليم مع أحد جبابره عصره الذي ذبح لحفظ عرشه مئات من الأطفال الرضع للحيلولة دون ولاده موسى عليه السلام و الذي تتبأ كهنه مصر بزوال عرشه

على يد موسى عليه السلام، وقد نقل القرآن ذلك الحوار مبسطاً في سورة الشعراء من الآية ١٦ إلى ٥١، ونحن نقتطف منه ما يلي:

- موسى: «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

- فرعون: «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَ لَبَّيْتَنَا فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ * وَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

- موسى: «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

- فرعون: «وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ».

- موسى: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

- فرعون: «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ».

- موسى: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ».

- فرعون: «إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

- موسى: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

- فرعون: «لَئِنِ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

- موسى: «أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ».

- فرعون: «فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

- موسى: «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَاتَأْمُرُونَ».

إلى آخر الحوار.

ترى أنّ موسى يستدلّ بالدليل و البرهان و يعرف الربّ سبحانه بقوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» و بقوله: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ».

و لكن فرعون يتّهمه أولاً بالجنون و يقول: «إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

و من المعلوم أنّ المصلحين فى العالم يتّهمون دائماً بالجنون، لأنهم يريدون التغيير الجذرى فى المجتمع و الذى يعدّه البسطاء أمراً محالاً، و يصفون الساعين إليه بالجنون، و لكن موسى لم يُعر أهميه لهذه التهمه و أعاد برهانه بقوله: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

فعند ذلك واجهه فرعون بمنطق القوه و قال: «لَيْسَ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

و لما أثبت صلته بعالم الغيب بالإتيان بالمعجزه الباهره و أثبت بوضوح أنّه رسول ربّ العالمين، قابله فرعون بادّعاء أنّ ما أتى به سحر و لا نصيب له من الواقع.

٤. حوار مؤمن آل فرعون مع قومه

إنّ الحوار الدائر بين مؤمن آل فرعون و بين فرعون و رهطه حوار صدر فى ظروف عصيبه، قام به أحد الممتنين إلى فرعون (كان يُظهر كفره و يكتّم إيمانه)، على مرأى و مسمع من فرعون و ملئه، و فى جوّ مشحون بالتّأمير على موسى عليه السلام و استئصال دعوته، و قد نقل الذكر الحكيم هذا الحوار على طوله فى سورة غافر من الآية ٢٦ إلى ٤٥، نقتطف منه ما يلى:

- فرعون: «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ».

- موسى: «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ».

- مؤمن آل فرعون: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ».

- فرعون: «يا هامانُ ابنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا».

- مؤمن آل فرعون: «يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ».

و كم فى القرآن الكريم من نظائر لهذا الحوار دار رحاها بين رجال صالحين و أناس طالحين و كان الظفر فيها حليف أصحاب المنطق و التفكير.

و بذلك يظهر أنّ القرآن الكريم بما فيه من الأدله الساطعه و البراهين المحكمه على توحيده ذاتاً و فعلاً، و ما نقل من الحوارات، كان هو المنطق الأول لعلم الكلام.

٢. السنه هى المنطق الثانى

اشاره

إذا كان الكتاب هو المنطق الأول، فإنَّ حُطِبَ النّبى و كلماته و مناظراته مع المشركين و اليهود و النصارى، كانت هى المنطق الثانى للتفكير الكلامى.

إنّ النّبى صلى الله عليه و آله و سلم ناظر المشركين و أهل الكتاب بمرأى و مسمع من المسلمين، و هذه احتجاجاته مع نصارى نجران فى العام العاشر من الهجره، حتّى أنّه صلى الله عليه و آله و سلم بعد ما أفحمهم، دعاهم إلى المباهله، و قد حفل التاريخ و كتب السير و التفسير بما

دار بين الرسول و بطارقه نجران و قساوستهم، و قد استدلّوا على ألوهيه المسيح بقولهم: هل رأيت ولدًا من غير ذكر؟ فأفحمهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بإيحاء من الله: وقال: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». ١ أى أنّ مثل عيسى فى عالم الخلقه كمثل آدم، و قد خُلِقَ من غير أب و لا أم، فليس هو أبداع و لا أعجب منه.

و إليك نموذجاً من مناظراته صلى الله عليه و آله و سلم:

احتجاج النبى مع اليهود فى تبديل القبلة

لَمَّا أمر الله جلّ شأنه نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، جاء قوم من اليهود و قالوا: يا محمد هذه القبلة (بيت المقدس) قد صليت إليها أربع عشره سنه ثم تركتها الآن. أ فحقاً كان ما كنت عليه؟ فقد تركته إلى باطل، فإنّ ما يخالف الحقّ فهو باطل؛ أو باطلاً كان ذلك، و قد كنت عليه طول هذه المده فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟!!

و أساس الشبهه التى أشار إليها اليهود هو أنّه لا يمكن أن يكون التوجه صوب القبلتين صحيحاً، فأحدهما باطل، إمّا السابق و إمّا اللاحق، و من المحتمل أن يكون الباطل هو اللاحق فكيف نؤمن به؟

و قد غفل المجادل عن أنّ الأحكام تتغير حسب تغير المصالح و المفاسد، فلا مانع من أن يكون كلاً من التوجهين حقاً فى ظرفه، و على ذلك تدور رحى النسخ فى الأحكام الشرعيه.

فأجاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «بل ذلك كان حقّاً، و هذا حقّ، يقول الله: «قُلْ

لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ١ إذا عرف صلاحكم يا أيها العبادُ في استقبال المشرق أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله تعالى في عباده وقصده إلى مصالحكم.

ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تركتم العمل يوم السبت ثم عملتم بعده في سائر الأيام ثم تركتموه في السبت ثم عملتم بعده، أفر كنتم الحق إلى باطل أو الباطل إلى حق؟! والباطل إلى باطل أو الحق إلى حق؟! قولوا كيف شئتم فهو قول محمد و جوابه لكم». قالوا: ترك العمل في السبت حق والعمل بعده حق.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فكذلك قبله بيت المقدس في وقته حق، ثم قبله الكعبة في وقته حق». (١)

٣. خطب الإمام على عليه السلام هي المنطلق الثالث

إن خطب الإمام و رسائله و كلمه القصار، التي حفظها التاريخ من الضياع لأوضح دليل على أن الإمام كان هو المؤسس للأصول الكلامية خصوصاً فيما يرجع إلى التوحيد و العدل، و بين يديك «نهج البلاغه» الذي جمعه الشريف الرضى ممّا وصل إليه من خطبه، تجد فيه من الأصول الكلامية ما لا تجده في غيره، و إلى ذلك يشير السيد المرتضى في أماليه، فيقول:

اعلم أن أصول التوحيد و العدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام و خطبه، فإنها تتضمن من ذلك ما لا زياده عليه و لا غايه وراءه، و من تأمل المأثور في ذلك من كلامه، علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في

ص: ٨٥

تصنيعه و جمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل و شرح لتلك الأصول، و روى عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام فى ذلك ما لا يكاد يحاط به كثره، و من أحب الوقوف عليه و طلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذى فى بعضه شفاء للصدور الشقيه و لقاح للعقول العقيمة. (١)

و جاء فى «الفهرست» للنديم: أنّ أبا الهذيل العلاف، محمد بن الهذيل، قال:

أخذت هذا الذى أنا عليه من العدل و التوحيد، عن عثمان الطويل، و كان معلم أبى الهذيل.

قال أبو الهذيل: و أخبرنى عثمان أنّه أخذه عن واصل بن عطاء، و أنّ واصلاً أخذه عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، و أنّ عبد الله أخذه من أبىه محمد بن الحنفية، و أنّ محمداً أخبره أنّه أخذه عن أبىه على عليه السلام، و أنّ أباه أخذه عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و أنّ رسول الله أخبره أنّ جبرئيل نزل به عن الله تعالى. (٢)

و بما أنّ خطب الإمام عليه السلام و رسائله تعجّ بالتوحيد و العدل، و التنزيه و غيرها من المعارف، فنحن فى غنى عن نقل نتف منها.

٤. أئمة أهل البيت عليهم السلام و دورهم فى نشوء علم الكلام

إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام و إن أقصوا عن منصّه الحكم و لكنّهم كلّما أتحت لهم الفرصه فى عصر الأمويين أو العباسيين قاموا بمهمه بيان المعارف و الأصول التى كان القوم يتنازعون فيها، و ها نحن نذكر مقتطفات من مناظراتهم

ص: ٨٤

١- ١). الشريف المرتضى، الأمالى: ١/١٤٨. و لاحظ شرح ابن أبى الحديد فى هذا الصد: ١/١٧١.

٢- ٢). الفهرست: ٢٠٢. [١]

و نبتدئ بمناظره أم الأئمة النجباء مع خليفه زمانها.

روى المؤرخون أنّ فاطمه الزهراء عليها السلام لما مُنعت من إرثها، لاثت خمارها على رأسها و اشتملت بجلبابها، و أقبلت فى لُثمه من حفدتها، و نساء قومها حتّى دخلت على أبى بكر و هو فى حشد من المهاجرين و الأنصار، فقالت مخاطبه إياهم بخطبه بليغه نقتصر منها على موضع الحاجه:

يا ابن أبى قحافه، أ فى كتاب الله أن ترث أباك و لا أرث أبى؟ لقد جئت شيئاً فرياً على الله و رسوله، أ فعلى عمد تركتم كتاب الله و نبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: «و وَرَثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ» ١، و قال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ قال: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» ٢، و قال أيضاً:

«و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» ٣، و قال: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْأُنثِيَيْنِ» ٤ و قال: «إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ...» ٥، و زعمتم أن لا حظوه لى و لا إرث من أبى و لا رحم بيننا، أ فخصكم بأيه من القرآن أخرج أبى محمداً صلى الله عليه و آله و سلم منها؟ أم هل تقولون: إن أهل الملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا و أبى من أهل مله واحده؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبى و ابن عمى؟ (١)

نموذج من مناظرات الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية

لقد راجت فكره استغناء الممكن فى فعله «لا فى ذاته» عن الله سبحانه فى

ص: ٨٧

عصر عبد الملك بن مروان (٦٤٥-٥٨٦هـ) و كان لهذه الفكره دوى فى عصره، و قد طلب عبد الملك بن مروان من عامله فى المدينه أن يوجه إليه الإمام الباقر عليه السلام حتى يناظر رجلاً يتبنى تلك الفكره و قد أعايا الجميع.

فبعث الإمام الباقر ولده مكانه، فقدم الشام، و تسامع الناس بقدمه لمخاصمه الرجل، فقال عبد الملك لأبى عبد الله: إنّه قد أعيانا أمر هذا القدرى، فقال الإمام: «إنّ الله يكفيناه»، فلما اجتمعوا، قال القدرى لأبى عبد الله عليه السلام: سل عمّا شئت؟ فقال له: «اقرأ سورة الحمد»، قال: فقرأها، فلما بلغ إلى قول الله تبارك و تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فقال جعفر: «قف من تستعين؟ و ما حاجتك إلى المئونه، إن الأمر إليك»، فبهت الرجل. (١)

احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع اليهود و النصارى و المجسمه

إنّ للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام احتجاجات و مناظرات مع أصحاب الديانات المختلفه و على رأسهم اليهود و النصارى و المجسمه و غيرهم، نقلها الشيخ أحمد بن على بن أبى طالب الطبرسى (المتوفى حوالى ٥٥٥هـ) فى كتاب «الاحتجاج» بصوره مفصله، و نحن لا يسعنا نقل القليل منها فضلاً عن الكثير، و كان الخليفه المأمون يشارك فى مجالس المناظره مع الأخبار و القساوسه و أصحاب الحديث و التى كان يتجلّى فيها قوه منطق الإمام بالاستدلال عليهم بنصوص التوراه و الإنجيل باللغه العبريانيه و السريانيه، و ها نحن نذكر احتجاجه مع أبى قُرّه الذى كان يدعى رؤيه النبىّ لله سبحانه فى هذه الدنيا.

ص: ٨٨

[١- ١]. راجع البحار: ٥/٥٥-٥٦، الحديث ٩٨. [١]

- قال أبو قره: إِنَّا رُوِينَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَسَمَ الرَّؤْيَةَ وَ الْكَلَامَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَقَسَمَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكَلَامَ، وَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الرَّؤْيَةَ.

- قال الإمام: فَمَنْ الْمَبْلُغُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» ١، وَ «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» ٢، وَ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ٣، أَلَيْسَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ؟!!

- قال أبو قره: بلى.

- قال الإمام عليه السلام: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» وَ «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» وَ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ثم يقول: أنا رأيتته بعيني و أحطت به علماً، و هو على صورته البشر؟! أما تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي عن الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر. (١)

هذه هي العوامل الداخليه لنشوء علم الكلام بين المسلمين، و هناك عوامل خارجيه لنشوئه، نذكر المهم منها:

العوامل الخارجيه لنشوء علم الكلام

١. معطله العرب

إنَّ الطَّابِعَ الْعَامَ لِلْعَرَبِ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ هُوَ التَّوْحِيدُ فِي الذَّاتِ وَ التَّوْحِيدُ فِي الْخَالِقِيَّةِ، وَ لَكِنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي أَمْرِ الرَّبُوبِيَّةِ وَ الْعِبَادَةِ، فَكَانُوا مُعْتَقِدِينَ بِرَبُوبِيَّةِ غَيْرِهِ سَبْحَانَهُ كَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ كَالْأَصْنَامِ وَ الْأَوْثَانِ.

ص: ٨٩

نعم كان عندهم صنف ينكر الخالق، و يشارك مع الطائفة الأولى فى إنكار البعث و الإعادة.

يقول الشهرستاني: فنصف منهم أنكروا الخالق و البعث و الإعادة، و قالوا بالطبع المحيى و الدهر المبنى و هم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا» ١ إشاره إلى الطوائف المحسوسه فى العالم السفلى و قصرأ للحياه و الموت على تركبها و تحللها، فالجامع هو الطبع و المهلك هو الدهر «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ». ٢

و صنف منهم أقرّوا بالخالق و ابتداء الخلق و الإبداع و أنكروا البعث و الإعادة، و هم الذين أخبر عنهم القرآن: «وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ». ٣

و صنف منهم أقرّوا بالخالق و ابتداء الخلق و نوع من الإعادة و أنكروا الرسل و عبدوا الأصنام و زعموا أنّهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة، و حجّوا إليها، و نحروا لها الهدايا و قرّبوا القرابين، و تقرّبوا إليها بالمناسك و المشاعر، و أحلّوا و حرّموا؛ و هم الدهماء من العرب إلا شردمه منهم.

و من العرب من يعتقد بالتناسخ فيقول: إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ و أجزاء بنيته، فانتصب طيراً «هامه» فيرجع إلى رأس القبر كلّ مائه سنه، و عن هذا: أنكر عليهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «لا هامه و لا عدوى و لا صفر». (١)

ص: ٩٠

١-٤). الملل و النحل للشهرستاني: ٢١٦/٢-٢١٧، [١]المكتبة العصريه، بيروت. و الحديث رواه أبو داود فى سننه برقم (٣٩٢١)، و أحمد فى مسنده: ١٧٤/١.

إنَّ العرب و إن اعتنقوا الإسلام و لكن جذور هذه الأفكار كانت موجوده فى أذهانهم خلفاً بعد سلف، إذ لا تقلع الأفكار الراسخه بمضى يوم أو سنه أو سنين، و كان خصماء الإسلام يطرحون تلك الأفكار حيناً بعد حين فى مناسبات خاصه، فصار هذا سبباً مناسباً لنشوء علم الكلام و الدفاع عن العقائد الإسلاميه بدليل و برهان، كما أن القرآن الكريم طرح شبهاتهم فى التوحيد و المعاد و ردّها بقوّه، مثلاً: إنَّهم كانوا يستبعدون إحياء العظام و هى رميم، فاستدلَّ لهم بالنشأه الأولى، إذ اعترفوا بالخلق الأوّل، فقال عزّ و جلّ: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» ١، و قال سبحانه: «أَفَعَيَّبْنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ». ٢

٢. اليهود و عقائدهم فى التجسيم و القدر

يقول الشهرستاني: اليهود تدعى أنّ الشريعة لا- تكون إلا- واحده، و هى ابتدأت بموسى عليه السلام و تمت به، فلم تكن قبله شريعه، إلا حدود عقليه و أحكام مصلحيه.

و لم يجيزوا النسخ أصلاً، قالوا: فلا- يكون بعده «شريعة» أصلاً، لأنّ النسخ فى الأوامر «بداء»، و لا يجوز البداء على الله تعالى، و مسائلهم تدور على جواز النسخ و منعه، و على التشبيه و نفيه، و القول بالقدر و الجبر و تجويز الرجعه و استحالتها.

أمّا النسخ فكما ذكرنا، و أمّا التشبيه فلاّتهم وجدوا التوراه ملئت من المتشابهات، مثل: الصورة و المشافهه و التكلم جهراً و النزول على طور سيناء انتقالاً و الاستواء على العرش استقراراً، و جواز الرؤيه فوقاً و غير ذلك.

و أمّا القول «بالقدر» فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين فى الإسلام، فالربانيون منهم كالمعتزله فينا، و القراءون كالمجبره و المشبهه. (١)

٣.٣. النصرى و التثليث

لمّا رفع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام إلى السماء، اختلف الحواريون و غيرهم فيه اختلافاً شديداً مع أنّه كان رسول التوحيد، فأثبت أتباعه لله أقانيم ثلاثة و سمّوها: الأب، و الابن، و روح القدس. (٢)

و قد افرقت النصرى إلى: «ملكانيه»، و «نسطوريه»، و «يعقوبيه»؛ و قد كان قسم منهم منتشراً فى الجزيره العربيه.

إنّ وجود هذه التيارات الدينيه مضافاً إلى غيرها ممّا لم نذكره كالصابئين و المجوس و كلّ من له شبهه كتاب فى الجزيره العربيه، أو وجد أرضيه صالحه لنشوء علم الكلام فى مختلف المسائل حيث كان المسلمون على مقربه منهم.

و قد أدى الاحتكاك بينهم إلى تغلغل أفكارهم فى أوساط المسلمين، ممّا حدا بالعلماء المسلمين إلى إجراء الحوارات و المناظرات معهم، الأمر الذى ساهم فى نشوء مباحث جديده لعلم الكلام فى الشرق الإسلامى.

ص: ٩٢

١- ١. الملل و النحل للشهرستانى: ١/١٧٨. و [١] القراءون: الذين يعودون فى فهم دينهم إلى التوراه مباشره.

٢- ٢. الملل و النحل للشهرستانى: ١/١٨٦. [٢]

قام المسلمون بواجبهم ففتحوا البلاد و نشروا الثقافه الإسلاميه بين الأمم المتحضّره، التى كانت تتمتع -وراء الآداب و الفنون و العلوم و الصناعات - بمناهج فلسفيه و آراء كلاميه لا يدعن بها الإسلام.

و قد كان لذلك الاحتكاك الثقافى و اللقاء الحضارى تأثير بالغ، عاد على الإسلام و المسلمین بالخیر الكثير، إلا أنّ هذا الاحتكاك لم يكن يخلو من مضاعفات، منها انتقال تلك الآراء و الأفكار إلى الأوساط الإسلاميه فى وقت لم تكن فيه متدرّعه تجاه تلك الشبهات و المشاكل.

و أعان على ذلك أمر ثان و هو انتقال عدّه من الأسرى إلى العواصم الإسلاميه بآرائهم و أفكارهم و عقائدهم المضادّه للإسلام و أسسه، و كان بين المسلمین من لم يتورّع عن أخذ هاتيك العقائد الفاسده، نظراء: عبد الكريم بن أبى العوجاء، و حمّاد بن عجرد، و يحيى بن زياد، و مطيع بن أياس، و عبد الله بن المقفّع، إلى غير ذلك بين غير متدرّع أو غير متورّع، فأوجد ذلك بلبله فى الأفكار و العقائد بين المسلمین.

و ثَمّه أمر ثالث كان له التأثير الحاسم فى بسط الإلحاد و الزندقه، و هو نقل الكتب الرومانيه و اليونانيه و الفارسيه إلى اللغه العربيه من دون نظاره و رقابه و جعلها فى متناول أيدي الناس، و قد ذكر النديم تاريخ ترجمه تلك الكتب فقال:

«كان خالد بن يزيد بن معاويه مجباً للعلوم، فأمر بإحضار جماعه من فلاسفه اليونان ممّن كان ينزل مدينه مصر، و أمرهم بنقل الكتب فى الصنعه من اللسان اليونانى و القبطى إلى العربى، و هذا أوّل نقل كان فى الإسلام من لغه إلى لغه، ثمّ نقل الديوان و كان باللغه الفارسيه إلى العربيه فى أيام الحجاج، و كان أمر

الترجمه يتقدم ببطء، إلى أن ظهر المأمون في ساحه الخلافه، فراسل ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمه المخزونه، المدخره في بلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فبعث المأمون جماعه، منهم:

الحجاج بن مطر، و ابن بطريق، و محمد و أحمد و الحسن بنو شاكر المنجم، فجاءوا بطرائف الكتب، و غرائب المصنّفات في الفلسفه و الهندسه و غيرهما، ثم ذكر النديم أسماء النقله من اللغات المختلفه إلى اللغه العربيه، و جاء بأسماء كمّيّه هائله (١) فأخذوا يصبون ما وجدوه من غث و سمين في كتب الوثنيين و المسيحيين على رءوس المسلمين، و هم غير متدرّعين و غير واقفين على جذور هذه الشبه، مع أنّها كانت تززع أركان الإسلام.

و نقل المسعودي في وصف المنصور أنّه أوّل خليفه قرّب المنجمين فعمل بأحكام النجوم، و كان معه نوبخت المجوسى المنجم و أسلم على يديه و هو أبو هؤلاء النوبختيه، و إبراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيده في النجوم، و غير ذلك من علوم النجوم و هيئه الفلك، و على بن عيسى الاسطرلابى المنجم. و هو أوّل خليفه ترجمت له الكتب من اللغات العجميّة إلى العربيه، منها: كتاب «كليله و دمنه»، و كتاب «السند هند»، و ترجمت له كتب ارسطاطاليس، من المنطقيات و غيرها، و ترجم له كتاب «المجسطى» لبطليموس و كتاب «الارتماطيقى» و كتاب «أقليدس» و سائر الكتب القديمه من اليونانيه و الروميه و الفهلويه و الفارسيه و السريانيه و أخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، و تعلقوا إلى علمها. (٢)

و ذكر في وصف المهدي العباسى: و أمعن في قتل الملحدين و الذاهيين عن

ص: ٩٤

١-١. النديم: الفهرست: ٣٥٦، ٣٥٢. [١]

٢-٢. مروج الذهب: ٢٢٣/٤، ط دار [٢] الأندلس.

الدين لظهوره في أيامه و اعلانهم باعتقاداتهم في خلافته، ذلك لما انتشر من كتب «مانى» و «ابن ديسان» و «مرجئون» مما نقله «عبد الله بن المقفع» وغيره و ترجمت من الفارسيه و الفهلويه إلى العربية، و ما صنفه في ذلك ابن أبى العوجاء و حماد بن عجرد و يحيى بن زياد و مطيع بن أياس من تأييد المذاهب المانيه و الديقانيه و المرقيونيه، فكثرت بذلك الزنادقه و ظهرت آراؤهم في الناس، و كان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين و غيرهم، و أقاموا البراهين على المعاندين و أزالوا شبه الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين.... (١)

و في ظل انتشار الكتب المترجمه بين أهل العلم من المسلمين، استفحلت المناظره في عصر المأمون، و كان أهل الفرق و المذاهب و النحل و أصحاب المقالات يتناظرون فيما بينهم على مرأى و مسمع من الخليفه، و هذا هو المسعودى ينقل عن يحيى بن أكرم أنه قال: كان المأمون يجلس للمناظره في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء و من يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجره مفروشه، و قيل لهم: انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد، و قيل لهم: أصيبوا من الطعام و الشراب و جددوا الوضوء، و من خففه ضيق فليزرعه، و من ثقلت عليه قلنسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا و طيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه و يناظرهم أحسن مناظره، و أنصفها و أبعدها من مناظره المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تنصب الموائد ثانيه فيطعمون و ينصرفون. (٢)

و يذكر في حياه الواثق بالله أنه كان له مجلس في الفلسفه و الطب و كان الواثق بالله محباً للنظر، مكرماً لأهله، مبغضاً للتقليد و أهله محباً للإشراف على علوم

ص: ٩٥

١-١. مروج الذهب: ٢٢٣/٤-٢٢٤. [١]

٢-٢. مروج الذهب: ٤٣٢/٣. [٢]

الناس و آرائهم، ممّين تقدّم و تأخّر من الفلاسفه و غيرهم من الشرعيّين، فحضرهم ذات يوم جماعه من الفلاسفه و المتطبيين، فجرى بحضرته أنواع من علومهم فى الطبيعيات و ما بعد ذلك من الإلهيات. (١)

لقد أثار انتقال هذه الشبه و العقائد و الآراء إلى أوساط المسلمين ضجّه كبرى بينهم، و افترقوا إلى فرقتين:

فرقه اقتصرت على الذب عن حياض الإسلام بتضليلهم و تكفيرهم و توصيفهم بالزندقه و تحذير المسلمين من الالتقاء بهم و قراءه كتبهم و الاستماع إلى كلامهم، إلى غير ذلك مما كان يعدّ مكافحه سلبيه، لا تصمد أمام ذلك السيل الجارف.

و فرقه قد أحسّوا بخطوره الموقف و أنّ المكافحه السلبيه لها أثرها المؤقت، و إنّ ذلك الداء لو لم يعالج بالدواء الناجع سوف يعمّ المجتمع كلّه أو أكثره، فقاموا بمكافحه إيجابيه، أى الدعوه بالحكمه و الموعظه الحسنه و الجدل الذى يستحسنه الإسلام، فأزالوا شبهاتهم، و نقدوا أفكارهم فى ضوء العقل و البرهان، و قد نجحوا فى ذلك نجاحاً باهراً، و هؤلاء هم الشيعه خرّيجو مدرسه أهل البيت أولاً، و المعتزله أتباع واصل بن عطاء ثانياً الذين أخذوا أصول مذهبهم عن على عليه السلام بواسطتين:

١. أبى هاشم ابن محمد بن الحنفيه.

٢. محمّد ابن الحنفيه ابن على بن أبى طالب.

فى تلك الأجواء المشحونه بالبحث و الجدل استفحل أمر الكلام، أى العلم الباحث عن المبدأ و أسمائه و صفاته و أفعاله لغايه الذب عن الإسلام، فكان

ص: ٩٦

علم الكلام وليد الحاجه، ونتاج الصراع الفكرى مع التيارات الإلحاديه المتحديه للإسلام و المسلمين، و فى هذه الظروف العصبية قام أهل البيت عليهم السلام بتربيته جموع غفيرة من أصحاب المواهب للذب عن الإسلام و أصوله أولاً، و حريم الولاية ثانياً، فى ضوء العقل و البرهان، فصاروا يناظرون كل فرقه و نحله بأتقن البراهين و أسلمها، و قد حفظ التاريخ أسماء لفيف من الرافلين فى حلل الفضائل و المعارف، و سوف توافيك أسماؤهم فى هذه الموسوعه.

يقول الدكتور فيصل بدر عون أستاذ جامعه عين شمس: على ضوء هذه الثقافات المتباينه أنه كانت توجد فى الجزيره العربيه، و فى البلاد التى امتدت إليها الفتوحات الإسلاميه فلسفات و علوم و ديانات متباينه، و كان لكل دين أو فلسفه أنصاره و مؤيدوه، و هؤلاء الأنصار أيضاً انقسموا فيما بينهم إلى شيع و أحزاب، و مع أنّ هذه الطوائف قد احتفظت بكثير من عناصرها و خصائصها الأصلية، فإنّ امتزاجها قد أدى فيما بعد إلى صعوبه التمييز بينها و بين معالم الدين الجديد، إلا أنّ ذلك لم يمنع من القول بأنّ معظم هذه الثقافات قد احتفظت بسماته العامه التى تميزه عن غيره، و هكذا أيضاً تجد أنّ المسلمين قد ورثوا تراثاً إنسانياً ضخماً، كان عليهم أن يدرسه و يمحّصوه و يضيفوا إليه و يقتبسوا منه ما يتفق و دينهم و يردّوا على الآراء التى لا تتفق و الروح الإسلاميه الجديده. (١)

أقول: إنّ ما اقترحه الأستاذ الفاضل من أنّه كان من واجب المسلمين دراسه التراث و تمحيصه، لم يعر له المشايخ أهمّيه فقد حرّموا علم الكلام و دراسته و أدانوا الممارسين له، و استمرت فكره التحريم إلى عصر أبى الحسن على بن إسماعيل إمام الأشاعره (٢٦٠-٣٢٤هـ) الذى كتب رساله فى استحسان الخوض فى علم

ص: ٩٧

الكلام، و حاول بذلك القضاء على فكره أهل الحديث المحرّمين لعلم الكلام و البحوث العقلية.

فمع أنّ الإمام تاب عن الاعتزال و التحق بركب الحنابلة، فمع ذلك استحسّن الخوض في علم الكلام.

و لما كانت رسالته تحتوي على نكات بديعه تعرب عن رسوخ الرجعيّه بين أهل الحديث و تعالج ذلك الداء العضال، فقد ارتأينا الإتيان بنصّها. قال بعد التسميه و الحمد و التسليم:

رساله الإمام الأشعري في استحسان الخوض في علم الكلام

(١)

أمّا بعد فإنّ طائفه من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم، و ثقل عليهم النظر و البحث عن الدين، و مالوا إلى التخفيف و التقليد، و طعنوا على من فتنّ عن أصول الدين و نسبوه إلى الضلال، و زعموا أنّ الكلام في الحركة و السكون و الجسم و العرض و الألوان و الأكوان و الجزء و الطفره و صفات الباري عز و جلّ بدعه و ضلاله، و قالوا: لو كان هدى و رشاداً لتكلم فيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و خلفاؤه و أصحابه! قالوا: و لأنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يمت حتّى تكلم في كلّ ما يحتاج إليه من أمور الدين، و بيّنه بياناً شافياً، و لم يترك بعده لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه حاجه من أمور دينهم، و ما يقربهم إلى الله عزّ و جلّ و يباعدهم عن سخطه؛ فلما لم يرووا عنه الكلام في شيء ممّا ذكرناه، علمنا أنّ الكلام فيه بدعه، و البحث عنه ضلاله، لأنّه لو كان خيراً لما فات النبي صلى الله عليه و آله و سلم و لتكلّموا فيه، قالوا: و لأنّه ليس يخلو ذلك من وجهين: إمّا أن يكونوا علموه فسكتوا عنه، أو لم يعلموه بل جهلوه، فإن كانوا

ص: ٩٨

١ - ١). رسالته طبعت للمرّه الثالثه في حيدرآباد الدكن (الهند) عام ١٩٧٩م/١٤٠٠هـ، كما طبعت في ذيل كتاب اللمع للأشعري أيضاً.

علموه و لم يتكلموا فيه وسعنا أيضاً نحن السكوت عنه، كما وسعهم السكوت عنه، ووسعنا ترك الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه، ولأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه، وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله، لأنه لو كان من الدين لم يجهلوه، فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعه، و الخوض فيه ضلاله، فهذه جملة ما احتجوا به في ترك النظر في الأصول.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: قلب السؤال عليهم بأن يقال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل أيضاً إنه من بحث عن ذلك و تكلم فيه فاجعلوه مبتدعاً ضالاً، فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعه ضالاً، إذ قد تكلمتم في شيء لم يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و ضللتكم من لم يضلله النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الجواب الثانى: أن يقال لهم: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يجهل شيئاً مما ذكرتموه من الكلام فى الجسم و العرض، و الحركة و السكون، و الجزء و الطفرة، و إن لم يتكلم فى كل واحد من ذلك معيناً، و كذلك الفقهاء و العلماء من الصحابة، غير أن هذه الأشياء التى ذكرتموها معينه، أصولها موجوده فى القرآن و السنه جملة غير منفصله.

فأما الحركة و السكون و الكلام فىهما فأصلهما موجود فى القرآن، و هما يدلان على التوحيد، و كذلك الاجتماع و الافتراق، قال الله تعالى مخبراً عن خليفه إبراهيم صلوات الله عليه و سلامه فى قصه أفرول الكوكب و الشمس و القمر (1) و تحريكها من مكان إلى مكان، ما دل على أن ربه عز و جل لا يجوز عليه شيء من ذلك، و أن من جاز عليه الأفرول و الانتقال من مكان إلى مكان فليس ياله.

و أما الكلام فى أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من الكتاب، قال الله

ص: ٩٩

تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» ١، وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له، وكلام المتكلمين فى الحجاج فى التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآيه، وقوله عز وجل: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَمَذْهَبٌ كَمَا كَانَ إِلَهُهُمَا خَلَقَ وَمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» ٢، إلى قوله عز وجل: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» ٣.

و كلام المتكلمين فى الحجاج فى توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات التى ذكرناها، وكذلك سائر الكلام فى تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن، فكذلك الكلام فى جواز البعث واستحالة الذى قد اختلف عقلاء العرب و من قبلهم من غيرهم فيه حتى تعجبوا من جواز ذلك فقالوا: «أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» ٤، وقولهم: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ» ٥، وقولهم: «مِنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» ٦، وقوله تعالى: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ» ٧، و فى نحو هذا الكلام منهم إنما ورد بالحجاج فى جواز البعث بعد الموت فى القرآن تأكيداً لجواز ذلك فى العقول، و علم نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، ولقنه الحجاج عليهم فى إنكارهم البعث من وجهين على طائفتين:

منه طائفة أقرت بالخلق الأول و أنكرت الثانى، و طائفة جحدت ذلك بقديم العالم فاحتج على المقر منها بالخلق الأول بقوله: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» ٨، و بقوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» ٩ و بقوله: «كَمَا

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» ١، فتبهمهم بهذه الآيات على أن من قدر أن يفعل فعلاً على غير مثال سابق فهو أقدر أن يفعل فعلاً محدثاً، فهو أهون عليه فيما بينكم و تعارفكم، و أما الباري جلّ ثناؤه و تقدست أسماؤه فليس خَلَقَ شَيْءَ بأهون عليه من الآخر، و قد قيل: إِنَّ الهاء في «عليه» إنما هي كناية للخلق بقدرته، إِنَّ البعث و الإعادة أهون على أحدكم و أخفّ عليه من ابتداء خلقه، لأنّ ابتداء خلقه إنّما يكون بالولادة و التريه و قطع السره و القمط و خروج الأسنان، و غير ذلك من الآيات الموجهة المؤلمه، و إعادته إنّما تكون دفعه واحده ليس فيها من ذلك شيء، فهي أهون عليه من ابتدائه، فهذا ما احتجّ به على الطائفه المقره بالخلق.

و أما الطائفه التي أنكرت الخلق الأول و الثاني، و قالت بقدم العالم فإنّما دخلت عليهم شبهه بأن قالوا: وجدنا الحياه رطبه حاره، و الموت بارداً يابساً، و هو من طبع التراب، فكيف يجوز أن يجمع بين الحياه و التراب و العظام النخره فيصير خلقاً سوياً، و الضدّان لا يجتمعان، فأنكروا البعث من هذه الجبهه.

و لعمرى إنّ الضدّين لا- يجتمعان في محلّ واحد، و لا في جهه واحده، و لا في الموجود في المحل، و لكنّه يصحّ وجودهما في محلّين على سبيل المجاوره، فاحتجّ الله تعالى عليهم بأن قال: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ» ٢، فردّهم الله عزّ و جلّ في ذلك إلى ما يعرفونه و يشاهدونه من خروج النار على حرها و يبسها من الشجر الأخضر على برده و رطوبته، فجعل جواز النشأه الأولى دليلاً- على جواز النشأه الآخره، لأنّها دليل على جواز مجاوره الحياه التراب و العظام النخره، فجعلها خلقاً سوياً و قال: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

و أمّا ما يتكلّم به المتكلّمون من أنّ الحوادث أولاً (١) وردد هم على الدهريه أنّه لا- حركة إلا- و قبلها حركة، و لا يوم إلا و قبله يوم، و الكلام على من قال: ما من جزء إلا و له نصف لا إلى غايه، فقد وجدنا أصل ذلك في سنّه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حين قال: «لا عدوى و لا طيره» فقال أعرابي: فما بال الإبل كأنّها الظباء تدخل في الإبل الجربى فتجرب؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: فمن أعدى الأول؟ فسكت الأعرابي لما أفحمه بالحجه المعقوله.

و كذلك نقول لمن زعم أنّه لا حركة إلا و قبلها حركة: لو كان الأمر هكذا لم تحدث منها واحده، لأنّ ما لا نهايه له لا حدث له، و كذلك لما قال الرجل: يا نبيّ الله! إنّ امرأتى ولدت غلاماً أسود و عرض بنفيه، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: هل لك من إبل؟ فقال: نعم! قال: فما ألوانها، قال: حمر، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

هل فيها من أورك؟ قال: نعم! إنّ فيها أورك، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزع، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: و لعل ولدك نزع عرق. فهذا ما علّم الله نبيّه من ردّ الشئ إلى شكله و نظيره، و هو أصل لنا في سائر ما نحكم به من الشبيه و النظير.

و بذلك نحتج على من قال: إنّ الله تعالى و تقدّس يشبه المخلوقات، و هو جسم، بأن نقول له: لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كلّ جهاته، أو يشبهه من بعض جهاته، فإن كان يشبهه من كلّ جهاته و جب أن يكون محدثاً من كلّ جهاته، و إن كان يشبهه من بعض جهات و جب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه، لأنّ كلّ مشتبهين حكمهما واحد فيما اشتبها له،

ص: ١٠٢

و يستحيل أن يكون المحدث قديماً و القديم محدثاً، و قد قال تعالى و تقدّس:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ١، و قال تعالى و تقدّس: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» ٢.

و أما الأصل بأنّ للجسم نهايه و أنّ الجزء لا ينقسم فقوله عزّ و جلّ اسمه: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» ٣ و محال إحصاء ما لا نهايه له، و محال أن يكون الشىء الواحد ينقسم (١) لأنّ هذا يوجب أن يكونا شيئين، و قد أخبر أنّ العدد وقع عليهما. و أما الأصل في أنّ المحدث للعالم يجب أن يتأتى له الفعل نحو قصده و اختياره و تنتفى عنه كراهيته، فقوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ» ٥، فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجّه أنّهم يخلقون مع تمنّيهم الولد، فلا يكون مع كراهيته له، فتبّتهم أنّ الخالق هو من يتأتى منه المخلوقات على قصده.

و أما أصلنا في المناقضة على الخصم في النظر فمأخوذ من سنّه سيّدنا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، و ذلك تعليم الله عزّ و جلّ إيّاه حين لقي الحبر السمين، فقال له: نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراه أنّ الله تعالى يبغض الحبر السمين؟ فغضب الحبر حين عيّره بذلك، فقال: «ما أنزل الله على بشر من شىء»، فقال الله تعالى: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا» ٦ فناقضه عن قرب، لأنّ التوراه شىء، و موسى بشر، و قد كان الحبر مقراً بأنّ الله تعالى أنزل التوراه على موسى.

ص: ١٠٣

١-٤). بياض في الأصل.

و كذلك ناقض الذين زعموا أنّ الله تعالى عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، فقال تعالى: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ١ فناقضهم بذلك و حاجهم.

و أمّا أصلنا في استدراكنا مغالطه الخصوم فمأخوذ من قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ» -إلى قوله:- «لَا يَسْمَعُونَ» ٢، فإنها لما نزلت هذه الآية بلغ ذلك عبد الله بن الزبيرى-و كان جدلاً خصماً-فقال:

خصمت محمداً و ربّ الكعبة، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فقال: يا محمد! أ لست تزعم أن عيسى و عزيزاً و الملائكة عبدوا؟ فسكت النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا سكوت عى و لا منقطع، تعجباً من جهله، لأنه ليس فى الآية ما يوجب دخول عيسى و عزيز و الملائكة فيها، لأنه قال: «وَ مَا تَعْبُدُونَ» و لم يقل و كل ما تعبدون من دون الله، وإنما أراد ابن الزبيرى مغالطه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليوهم قومه أنه قد حاجه، فأنزل الله عزّ و جلّ: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى» يعنى من المعبودين «أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» ٣ فقرأ النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذلك، فضجوا عند ذلك لثلاثين انقطاعهم و غلطهم، فقالوا: «آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» يعنون عيسى، فأنزل الله تعالى: «وَ لَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» إلى قوله: «حَصِيمُونَ» ٤، و كل ما ذكرناه من الآى أو لم نذكره أصل، و حجه لنا فى الكلام

فيما نذكره من تفصيل، وإن لم تكن مسأله معينه في الكتاب و السنه، لأن ما حدث تعيينها من المسائل العقلية في أيام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الصحابه قد تكلموا فيه على نحو ما ذكرناه.

و الجواب الثالث: إن هذه المسائل التي سألوها عنها قد علمها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لم يجهل منها شيئاً مفصلاً، غير أنها لم تحدث في أيام معينه فيتكلم فيها، أو لا يتكلم فيها، و إن كانت أصولها موجوده في القرآن و السنه، و ما حدث من شيء فيما له تعلق بالدين من جهه الشريعه فقد تكلموا فيه و بحثوا عنه و ناظروا فيه و جادلوا و حاجوا، كمسائل العول و الجدات من مسائل الفرائض، و غير ذلك من الأحكام، و كالحرام و البائن و البته و حبلك على غاربك.

و كالمسائل في الحدود و الطلاق ممّا يكثر ذكرها، ممّا قد حدثت في أيامهم، و لم يجئ في كلّ واحده منها نصّ عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، لأنه لو نصّ على جميع ذلك ما اختلفوا فيها، و ما بقى الخلاف إلى الآن.

و هذه المسائل - وإن لم يكن في كلّ واحده منها نصّ عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم - فإنّهم ردّوها و قاسوها على ما فيه نصّ من كتاب الله تعالى و السنه و اجتهادهم، فهذه أحكام حوادث الفروع، ردّوها إلى أحكام الشريعه التي هي فروع لا تستدرّك أحكامها إلاّ من جهه السمع و الرسل، فأما حوادث تحدث في الأصول في تعيين مسائل فينبغي لكلّ عاقل مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل و الحس و البديهه و غير ذلك، لأنّ حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردوده إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع، و حكم مسائل العقلية و المحسوسات أن يرد كلّ شيء من ذلك إلى بابه، و لا يخلط العقلية بالسمعية و لا السمعية بالعقلية، فلو حدث في أيام النبي صلى الله عليه و آله و سلم الكلام في خلق القرآن

و فى الجزء و الطفره بهذه الألفاظ لتكلم فيه و بينه، كما بين سائر ما حدث فى أيامه من تعيين المسائل، و تكلم فيها.

ثم يقال: النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يصح عنه حديث فى أن القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق، فلم قلت: إنه غير مخلوق؟

فإن قالوا: قد قاله بعض الصحابه و بعض التابعين، قيل لهم: يلزم الصحابى و التابعى مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً إذ قال ما لم يقله الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

فإن قال قائل: فأنا أتوقف فى ذلك فلا أقول: مخلوق و لا غير مخلوق، قيل له:

فأنت فى توقفك فى ذلك مبتدع ضال، لأن النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يقل: إن حدثت هذه الحادثة بعدى توقفوا فيها و لا تقولوا فيها شيئاً، و لا قال: ضللوا و كفروا من قال بخلقه أو من قال بنفى خلقه.

و خبرونا، لو قال قائل: إن علم الله مخلوق، أكنتم تتوقفون فيه أم لا؟

فإن قالوا: لا، قيل لهم: لم يقل النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لا أصحابه فى ذلك شيئاً، و كذلك لو قال قائل: هذا ربكم شعبان أو ريان، أو مكتس أو عريان، أو مقرر أو صفراوى أو مرطوب، أو جسم أو عرض، أو يشم الريح أو لا يشمها، أو هل له أنف و قلب و كبده و طحال، و هل يحج فى كل سنه، و هل يركب الخيل أو لا يركبها، و هل يغتم أم لا؟ و نحو ذلك من المسائل، لكان ينبغى أن تسكت عنه، لأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يتكلم فى شىء من ذلك و لا أصحابه، أو كنت لا تسكت، فكننت تبين بكلامك أن شيئاً من ذلك لا يجوز على الله عز و جل، و تقدس كذا و كذا بحججه كذا و كذا.

فإن قال قائل: أسكت عنه و لا أجيبه بشىء، أو أهجره، أو أقوم عنه، أو لا

أسلم عليه، أو لا أعوده إذا مرض، أو لا أشهد جنازته إذا مات.

قيل له: فيلزمك أن تكون في جميع هذه الصيغ التي ذكرتها مبتدعاً ضالاً، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقل: من سأل عن شيء من ذلك فاسكتوا عنه، ولا قال:

لا تسلموا عليه، ولا قوموا عنه، ولا قال شيئاً من ذلك، فأنتم مبتدعه إذا فعلتم ذلك، ولم لم تسكتوا عمّن قال بخلق القرآن، ولم كفرتموه، ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله و سلم حديث صحيح في نفي خلقه، وتكفير من قال بخلقه.

فإن قالوا: إن أحمد بن حنبل، قال بنفي خلقه، وتكفير من قال بخلقه، قيل لهم: ولم لم يسكت أحمد عن ذلك بل تكلم فيه؟

فإن قالوا: لأنّ العباس العنبري و وكيعاً و عبد الرحمن بن مهدي و فلاناً و فلاناً قالوا إنه غير مخلوق، و من قال بأنه مخلوق فهو كافر.

قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عمّا سكت عنه صلى الله عليه وآله و سلم ؟

فإن قالوا: لأنّ عمرو بن دينار و سفيان بن عيينه و جعفر بن محمد رضى الله عنهم و فلاناً و فلاناً قالوا: ليس بخالق و لا مخلوق.

قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عن هذه المقالة، و لم يقلها رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم ؟

فإن أحوالوا ذلك على الصحابه أو جماعه منهم كان ذلك مكابره. فإنه يقال لهم: فلم لم يسكتوا عن ذلك، و لم يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وآله و سلم. و لا قال: كفروا قائله، و إن قالوا: لا بدّ للعلماء من الكلام في الحادثه ليعلم الجاهل حكمها، قيل لهم: هذا الذى أردناه منكم، فلم منعتم الكلام، فأنتم إن شئتم تكلمتم، حتى إذا انقطعتم قلمت: نهينا عن الكلام؛ و إن شئتم قلتم من كان قبلكم بلا حجّه و لا بيان، و هذه شهوه و تحكّم.

ثمّ يقال لهم: فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يتكلّم فى النذور والوصايا، ولا فى العتق، ولا فى حساب المناسخات، ولا صنف فيها كتاباً كما صنعه مالك والثورى والشافعى وأبو حنيفة، فيلزمكم أن يكونوا مبتدعه ضلالاً إذ فعلوا ما لم يفعله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا ما لم يقله نصّاً بعينه، وصنّفوا ما لم يصنّفه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا بتكفير القائلين بخلق القرآن ولم يقله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وفيما ذكرنا كفايه لكلّ عاقل غير معاند.

نجز والحمد لله، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

اشاره

بدايات الخلاف فى عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و بعد رحيله

ذكر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ) بدايات الخلاف بين المسلمين فى عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و بعده، و لكنّها بدايات خلاف و ليست بدايات خلاف فى مسائل كلاميّه، و كان عليه عقد فصل لبدايات الخلاف و فصل آخر لبدايات الخلاف فى المسائل الكلاميّه. و ها نحن نذكر كلتا البدايات فى مقامين:

المقام الأوّل: فى بدايات الخلاف فى عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

اشاره

إنّ الرسول الأعمّ صلى الله عليه وآله وسلم -بما أنّه لا ينطق عن الهوى و أنّ ما يقوله و يفعله إنّما هو وحي يُوحى إليه- كان سداً منيعاً لنشوء الخلاف، و لو حصل هناك خلاف بين الصحابه فإنّما هو خلاف سطحى، يرتفع غالباً بإرشاداته و توجيهاته، و نحن نذكر نموذجين من ذلك:

١. قسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أموال بيت المال بين المسلمين فى غزوه الطائف،

ووزع الخمس (الذى هو حقه الخاص به) بين أشرف قريش الحديثى عهد بالإسلام بغيره تأليف قلوبهم، فأعطى من هذا المال لأبى سفيان بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويط بن عبد العزى، والعلاء بن جارية، وصفوان بن أمية، وغيرهم ممن كانوا يعادونه إلى الأمس القريب، فأعطى لكل واحد منهم مائه بعير. (١)

لقد شق هذا الأسلوب فى تقسيم الغنائم على الأنصار لجهلهم بالمصالح التى كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يراعيها ويتبناها فى هذا التقسيم وكانوا يتصورون أن التعصب القبلى هو الذى دفع بالرسول إلى تقسيم خمس الغنيمه بين أبناء قبيلته، فجاء ذو الخويصره التميمى فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكل وقاحه: يا محمّد قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم لم أرك عدلت، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كلامه، فقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟ فطلب عمر بن الخطاب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن له بقتله، فلم يأذن له، ثم أخبر صلى الله عليه وآله وسلم عن مصيره السيئ، وقال:

دعه فإنه سيكون له شيعه يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّه. (٢)

٢. رفع سعد بن عباده شكوى الأنصار حول كيفية تقسيم الخمس، فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: اجتمع من كان هاهنا من الأنصار، فتكلم النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد حمد الله وثنائه وقال:

«يا معشر الأنصار ما مقالّه بلغتنى عنكم وجدّة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم

ص: ١١٠

١- ١). السيره النبويه: ٣/٤٤٣؛ [١] إمتاع الأسماع: ٤٢٣. [٢]

٢- ٢). السيره النبويه: ٢/٤٩٦؛ [٣] السيره الحلبيه: ٣/١٢٣. [٤]

آتكم ضللاً فهداكم الله، وعاله فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟!]

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنٌ وأفضل!

قال:

«ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟»

قالوا: وما ذا نجيبك يا رسول الله؟ لرسول الله المنُّ والفضل.

قال:

«أما والله لو شئتم قتلتم فصدقتهم، أتينا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك! ووجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا، تألفت به قوماً ليسلموا وكنتم إلى إسلامكم، أ فلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟»

والذي نفس محمد بيده لو لا الهجره لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شجراً و سلك الأنصار شجراً لسلكت شجراً. (الأنصار).

ثم ترحم على الأنصار وعلى أبنائهم وعلى أبناء أبنائهم فقال:

«اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار».

وقد كانت كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه من القوه والعافه بحيث أثارت مشاعر الأنصار، فبكوا بعد سماعها بكاء شديداً حتى اخضلت لحاهم بالدموع وقالوا: رضىنا يا رسول الله حظاً وقسماً!!!

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفرقوا. (1)

ص: 111

نعم قد وقع في عصر الرسول خلاف بينه وبين بعض أصحابه لم يحسم في حياته بل بقي الخلاف إلى أن قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإليك شيئاً من هذا القسم.

١. تجهيز جيش أسامه

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مهتماً بالزوم ويرى أنهم يشكّلون خطراً كبيراً على الدولة الفتيّة الإسلاميّة، ولأجل ذلك سار في العام التاسع من هجرته إلى تبوك مع ثلاثين ألفاً من أصحابه، وجاء فلم ير هناك أثراً للعدوّ وعقد موثيق مع رؤساء القبائل في المنطقه ورجع إلى المدينة و جهّز في أخريات عمره، وقبل أن يطرأ عليه المرض جيشاً أمر عليه أسامه بن زيد الذي كان أبوه أيضاً أميراً على الجيش، وغزا في أرض مؤتة و كان الناس على استعداد للنفر و قد اجتمع كثير منهم في معسكر «جُرف».

عقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللواء لأسامه، ثم مرض بشده و أصابه صداع شديد ألزمه الفراش و استمرّ المرض عدّه أيام حتى قضى عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وعند ما شاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو طريح الفراش استثقال صحابته في النفر و الحركة إلى تبوك، خرج من البيت و قال: جهّزوا جيش أسامه، لعن الله من تخلف عنه، فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره، و أسامه قد برز من المدينة.

و قال قوم: قد اشتدّ مرض النبي فلا تسع قلوبنا مفارقتة، و الحال هذه، نصبر حتى نُبصر أيّ شيء يكون من أمره.

و على كلّ تقدير لم يتحقّق أحد آمال النبي في أيام حياته، بسبب فقدان الانضباط بين الصحابه و الذي أباده فريق من شيوخ القوم و أعيان الجيش.

لَمَّا اشْتَدَّ مَرَضُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحَضَرَ عِنْدَهُ أَعْيَانُ صَحَابَتِهِ، أَمَرَ بِإِحْضَارِ الْقَلَمِ وَالدَّوَاهِ وَالْقُرطاس لِيَكْتُبَ لَهُمْ شَيْئاً حَتَّى لَا يَضِلُّوا بَعْدَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي عَدَّةِ مَوَاطِنَ، وَنَحْنُ نَذَكُرُ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

لَمَّا حُضِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَلُمَّ، أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضِلُّونَ بَعْدَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ فَاخْتَصَمُوا... فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالْإِخْتِلَافَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: قَوْمُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنْ يُكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ إِخْتِلَافِهِمْ وَلِغَطِّهِمْ. (١)

الخلافات بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كَانَ وَجُودُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، يُمَثِّلُ -غَالِباً- سَدّاً مَنِعاً أَمَامَ نَشُوبِ الْإِخْلَافِ وَالشَّقَاقِ بَيْنَهُمْ، وَبَعْدَ رَحِيلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَدَأَ النِّزَاعُ بَيْنَهُمْ فِي الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْعُقَائِدِيَّةِ... وَأَخَذَ يَتَّسَعُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ بَلَغَ دَرَجَةً، تَفَرَّقُوا مَعَهَا إِلَى فِرْقٍ وَمَذَاهِبٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَ الْإِخْلَافَاتُ بَعْدَ رَحِيلِهِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ:

ص: ١١٣

١- (١). صحيح مسلم: ٧٦/٥، باب ترك الوصيه لمن ليس له شيء يوصى فيه من كتاب الوصيه.

١. الخلافات الفرعية كالخلاف في موضع دفنه، فقد اتفقوا بعد الخلاف على دفنه في بيته لما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الأنبياء يُدفنون حيث يموتون». ونظيره الخلاف في أمر فدك وأن النبي يورث أو لا، فادعى أبو بكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، وخالفه على عليه السلام و بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم و جميع أهل البيت عليهم السلام في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يورث كما يورث الآخرون، وأن ما رواه أبو بكر خبر واحد مخالف للقرآن الكريم حيث ورث أبناء الأنبياء آباءهم.

و لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كسائر الأنبياء لا يورث، كان عليه أن يبين ذلك لأولاده حتى لا يدعوا بعده ما ليس لهم، كما عمل بذلك في باب الزكاة وقال: إن الصدقة حرام على آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. الخلافات الأصولية أهمها مسأله الإمامه بعد رحيل الرسول، وقد عدّ الشهرستاني ذلك الخلاف أعظم خلاف بين الأمم و قال: «ما سلّ سيف في الإسلام على قاعده دينيه مثل ما سلّ على الإمامه في كلّ زمان».

إنّ الخلافه في العقيدته الشيعيه منصب إلهي كالنبوه يعطى لأفضل أفراد الأمة و أصلحهم و أعلمهم، و الفرق الواضح بين الإمام و النبي، هو أنّ النبي مؤسس الشريعه، و يوحى إليه، و يتلقّى الكتاب من لدن الله تعالى، و الإمام و إن كان لا يتمتع بواحد من هذه الشئون، إلاّ أنّه يقوم بوظائف النبيّ كلّها - عدا ما استثني - كنشر الإسلام، و تفسير الكتاب، و تبين الأحكام، و قياده المسلمين، و....

نعم الإمامه عند أهل السنّه مسأله فرعيه من مسائل الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

و على كلّ تقدير فإنّ هذا الخلاف هو الأساس لعامه الخلافات، و لو كانت الصحابه عملت بوصيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهل بيته حيث قال في غير موضع:

«إني

تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا...» لذابت سائر الخلافات بين المسلمين، و ذلك لأن أهل البيت (كما في حديث الثقلين)، هم المرجع العلمي للأئمة، و الخلافات تُردّ إليهم، فيكون رأيهم و قضاؤهم هو الرأي الحاسم و القاطع و لكن القوم-عفا الله عنّا و عنهم- أقصوا أئمة أهل البيت و طمعوا في الخلافه و رغبوا عن الإمامه، فلو كانوا مقدّمين من قديم الله و مؤخّرين من آخر الله، لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم، و كان المسلمون يداً واحده دون أيه فرقه و شقاق.

هذا و قد تفاقم الأمر بعد رحيل الرسول في مسائل كثيره، لعدول الأكثر عن الخط الذي رسمه لهم الرسول، و هو التمسك بأئمة أهل البيت بعد رحيله فيما يرجع إلى دينهم و دنياهم، و نوّد أن نشير إلى هذه الأمور بإيجاز:

١. تولّى أبو بكر الخلافه قرابه ثلاث سنين و أوصى بها بعد وفاته إلى عمر بن الخطاب خلافاً للأصل الذي كانوا يتبنونه في السقيفه من اختيار الخليفه عبر البيعه، فلما ولّاه الخلافه واجه رفض بعض الأصحاب و اعتراضهم، و قالوا له:

قد وليت علينا فظاً غليظاً.

٢. تسنّم عثمان عرش الخلافه بشورى سداسيه، عين أعضاءها عمر بن الخطاب، الذي تناسى الأصل في تعيين الخليفه من حديث البيعه و لما استتبّ لعثمان الأمر ارتكب أموراً كثيره نقموا بها عليه:

منها: ردّه الحكم بن أميّه إلى المدينه بعد أن طرده رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (و كان يسمّى طريد رسول الله) و بعد أن تشفّع إلى أبي بكر و عمر أيام خلافتهم فما أجابا إلى ذلك، و نفاه عمر من مقامه باليمن أربعين فرسخاً.

و منها: نفيه أبا ذر إلى الربذه.

و منها: تزويجه مروان بن الحكم بنته و إعطاؤه خمس غنائم إفريقيه و قد بلغ

مائتى ألف دينار.

و منها: إيواؤه عبد الله بن سعد بن أبي سرح (و كان رضيعه) بعد أن هدر النبي صلى الله عليه وآله و سلم دمه و توليته إياه مصر بأعمالها.

و لما عاد الحقّ إلى نصابه و أخذ الإمام على عليه السلام زمام الخلافة نكث طائفه كالزبير و طلحه، و قسّط طائفه أُخرى كمعاويه و أتباعه، و مرقت طائفه ثلثه و هم الخوارج، و الحديث ذو شجون، و التاريخ متكفّل لبيانها.

ص: ١١٤

اشاره

إنّ ما ذكر كان إماماً عابراً بالخلافات التى سببت شقاق المسلمين و اختلافهم، و حان الكلام فى المقام الثانى و هو المسائل الكلاميه التى أوجدت الفرق الكلاميه، و إليك جذور هذه المسائل.

١. الإمامه تنصيبه أو انتخابه؟

إنّ الاختلاف فى الإمامه الذى نشب فى السقيفه و حتى بعد زمن، كان اختلافاً سياسياً لا كلامياً، و لم يكن مبتتاً على قاعده دينيه و جدال كلامى، يظهر ذلك من المحادثات التى جرت فى السقيفه و بعدها، و كان الأنصار يرون أنفسهم أولى بإداره الأمور لأنهم آووا النبى و نصره، و كان المهاجرون يرون أنفسهم أولى بها لأنهم أصل النبى و عشيرته، إلى أن غلب منطق المهاجرين منطق الأنصار، فخرج أبو بكر من السقيفه ظافراً بعد ما بايعته قبيله الأوس و خمسه أشخاص من المهاجرين.

و أمّا فى أواسط القرن الأوّل، فقد أصبحت مسأله الإمامه مسأله كلاميه، و أنّ الإمامه منصب تنصيبى أو منصب انتخابى.

٢.مسأله التحكيم

لما قِيلَ على عليه السلام التحكيم تحت ضغط طائفه من أصحابه (الذين أصبحوا فيما بعد من الخوارج) ندم الذين فرضوا التحكيم على على، وقالوا: إنَّ تحكيم الرجال على خلاف القرآن الكريم لقوله سبحانه: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ...». ١

و الفارق بين خلاف الناكثين و القاسطين و بين خلاف المارقين هو أنَّ خلاف الطائفتين الأوليين لم يكن قائماً على أساس ديني أو قاعده دينيه، بخلاف الخوارج فإنَّ اختلافهم كان مبدئياً حيث كانوا يرددون كلمه «لا حكم إلا لله» و كان على عليه السلام و ابن عباس يحتجان عليهم بالقرآن و السنه.

٣.حكم مرتكب الكبيره

لمّا ظهر التطرف في خلافة عثمان و دبّ الفساد في أجهزه الحكم و أنصارهم نجمت مسأله كلاميه، تدور حول حكم مرتكب الكبيره، و قد استفحل أمرها فيما بعد أيام محاربه الخوارج للأمويين الذين كانوا معروفين بالفسق و الفجور، و سفك الدماء و غضب الأموال، فكان الخوارج يحاربونهم بحجّه أنّهم كفروه لا حرمة لدمائهم و لا لأعراضهم لاقترافهم الكبائر.

فاختلفوا إلى أقوال:

أ.مرتكب الكبيره كافر.

ب.مرتكب الكبيره فاسق منافق.

ص: ١١٨

ج. مرتكب الكبيره مؤمن فاسق.

د. مرتكب الكبيره لا مؤمن ولا فاسق بل منزله بين المنزلتين.

فالأوّل خيره الخوارج، والثاني مختار الحسن البصرى، والثالث مختار الإماميه وأهل الحديث و تبعهم الأشاعره، والرابع نظريه المعتزله.

٤. تحديد مفهوم الإيمان

و قد انبثق من النزاع السابق نزاع آخر يتعلّق بتحديد مفهوم الإيمان، و هل أنّ العمل داخل في حقيقه الإيمان أو لا؟

فالخوارج و المعتزله على الأوّل، فمن لا عمل له فلا إيمان له.

و الشيعة و من وافقهم على الثاني، و أنّ العمل و إن كان من أركان الإيمان إلا أنّ الإيمان يزيد و ينقص، فالعمل شرط النجاه لا شرط تحقّق الإيمان.

٥. الإرجاء و المرجئه

كان الخوارج يشنون الغاره على كلّ من ارتكب معصيه كبيره- و لو مرّه واحده- و يرونه كافراً فاقداً للإيمان، فكان لتلك الفكره ردّ فعل سيّئ و هو إيلاء الاهتمام بالإيمان القلبي و إقصاء العمل، فظهرت طائفه اشتهرت بالمرجئه و كانوا يهدفون إلى تقديم الإيمان و تأخير العمل، و يقولون «لا يضرب مع الإيمان معصيه كما لا ينفع مع الكفر طاعه».

و هذه الفكره مع سداجتها يوم نشوئها تحوّلت إلى الإباحيه، و فتحت أبواب المعاصي أمام المسلمين بلا اكرثا.

قد ثبت في محله أنّ اليهود كانوا يولون اهتماماً واسعاً بالتقدير، وقد رسخت الفكره في الأوساط العربيه في عصر الجاهليّه حتّى أن عمر بن الخطاب نسب انهزام المسلمين في يوم حنين إلى تقدير الله سبحانه. (١) مع أنّ القرآن يشهد على خذلان الصحابه للنبي، و توليهم في ميدان الحرب.

قد كان (٢) فكره القدر راسخه في أذهان الصحابه، القدر الذي كان يُفسّر بسلب الاختيار عن الإنسان و تفويض مصير الإنسان إلى عالم التقدير فكأنّ الإنسان ريشه في مهبّ الريح العاصف، روى عبد الله بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أ رأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم. قال: الله قدره عليّ ثمّ يعدّ بني؟! قال: نعم، يا ابن اللخناء، أما والله لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ (٣) أنفك.

لا شكّ أنّ القضاء و القدر من المعارف القرآنيه التي لا يمكن لأحد إنكارها و لا تأويلها غير أنّ الكلام في موضعين:

١. هل القضاء و القدر يسلبان الاختيار عن الإنسان في الأعمال التي يُجازى بها الإنسان و يتاب عليها؟

٢. هل يحقّ للحكّام تبرير أعمالهم الجنائيه بالقضاء و القدر، مثلما كان الأمويون يفعلون ذلك؟

يقول أبو هلال العسكري: إنّ معاويه أوّل من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها. (٤)

ص: ١٢٠

١-١. الواقدي، المغازي: ٩٠٤/٣.

٢-٢. التوبه: ٢٥.

٣-٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٩٥. [١]

٤-٤. الأوائل: ١٣٥/٢. [٢]

٧. مسألة التشبيه والتنزيه

قد تقدّم أنّ التوراه ملئت بالمتشابهات مثل الصوره و المشابهه و التكليم جهراً، و النزول على طور سيناء انتقالاً، و الاستواء على العرش استقراراً، و جواز الرؤيه، و غير ذلك.

فصار التشبيه و التجسيم شعاراً لليهود أو لصنوف منهم، و يكفيك أنّ التوراه تصف الله بصوره إنسان و له صورته، و تقول: خلق الله آدم على صورته و تقول: فرغ الله في اليوم السادس من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع، و أنّه يمشى بين رياض الجنّه و له نداء، إلى غير ذلك ممّا ورد في العهد القديم من التشبيه و التجسيم و التمثيل. (١)

و قد دسّ الأحبار كثيراً من البدع بين الأحاديث لاعتماد الرواه على أناس؛ نظراء: كعب الأحبار، و وهب بن منبه، و تميم الدارى، و غيرهم؛ و أصبحت مسأله التشبيه و الصفات الخبريه ذات أهميه بين المسلمين، و قد أخذت طريقها إلى الصحاح و المسانيد و كتب التفسير.

٨. النسخ في الشريعه

قد سبق (٢) أنّ اليهود تبنت امتناع النسخ في الشريعه، فقالوا: لا يكون بعد شريعه موسى أيّه شريعه، لأنّ النسخ بقاء، و البقاء لا يجوز على الله، و بذلك صارت مسأله النسخ مسأله كلاميه.

ص: ١٢١

١-١. التوراه، سفر التكوين: نشأه العالم و البشريه، ص ٧٠، ط دار المشرق، بيروت.

٢-٢. راجع ص ٩١. [١]

إنَّ أبرز ما يفترق فيه القرآن عن العهدين هو مسأله صيانه رجال الوحي و الهدايه عن الذنب و العصيان، خلافاً للتوراه و بعض ما ورد فى الإنجيل، فقد جاء فيهما أساطير خياليه تمس كرامه الله أولاً، ثم كرامه الأنبياء ثانياً، فالأنبياء يشربون الخمر و يمكرون و يقتربون الزنا!!

١٠. حدوث القرآن و قدمه

إنَّ مسأله حدوث القرآن و قدمه أو خلق القرآن و عدم خلقه طرحت فى أيام المأمون و شقَّت عصا المسلمين و وحدتهم النسبيه إلى طرفين، و كانت يد يوحنا الدمشقى تلعب بهذا الأمر من وراء الستار، و كان يحاول أن يثبت قدم عيسى -بما أنه كلمه الله- بالقول بقدم القرآن.

١١. التحسين و التقيح العقليان

شغلت قاعده التحسين و التقيح العقليين بال كثيرين من أقدم العصور إلى يومنا هذا، إذ قلما يتفق لباحث أن يخوض فى الكلام و الأخلاق دون أن يشير إليها.

و قد صارت القاعده أساساً لعدّه مسائل كلاميه، نأتى براءوسها:

١. وجوب معرفه الله عقلاً.

٢. وصفه بالعدل و الحكمه.

٣. لزوم اللطف على الله.

٤. بعثه الأنبياء.

٥. حسن التكليف.

٦. لزوم تزويد الأنبياء بالبينات و المعاجز.

٧. لزوم النظر في برهان مدعى النبوه.

٨. العلم بصدق دعوى الأنبياء.

٩. الخاتيمه و استمرار أحكام الإسلام.

١٠. الله عادل لا يجور.

١١. ثبات الأخلاق و القيم.

هذه بدايات علم الكلام فى القرنين الأولين، و توالى البحث حول مسائل أُخرى إلى أن أصبح علماً متكامل الجوانب يواكب علم الفلسفه فى بحوثه الثلاثه:

١. الأُمور العامه.

٢. الطبيعيات و الفلكيات.

٣. الإلهيات بالمعنى الأخصّ.

لا شكَّ أنّ أكثر ما احتفلت به الكتب الكلاميه فى حقل الطبيعيات و الكليات و ما يرجع إلى الجوهر و العرض كان اقتباساً ممّا نقله المترجمون عن الإغريقين و غيرهم من الهنود و الفرس، و أمّا ما يرجع إلى الإلهيات فلإسلاميين فيها دور فعال لا ينكر، خصوصاً الفلاسفه منهم، فقد أسسوا قواعد، و كشفوا أصولاً فلسفيه لم يسبقهم إليها أحد.

هذا و قد نقل سيّد مشايخنا العلّامه الطباطبائى فى مقال له ألقى فى الذكرى المئويه لميلاد صدر المتألهين: «إنّ المسائل الفلسفيه الموروته عن اليونانيين و غيرهم

ص: ١٢٣

لم تكن تتجاوز مائتي مسأله، وقد تكاملت بأيدي فلاسفه الإسلام و متكلميهم إلى أن بلغت سبعمائه مسأله»، لكنه قدس سره لم يشر إلى عناوين المسائل المنقوله، والمسائل المؤسسه، و يالته كان يشير إلى عناوين هذه المسائل ليريح الآخرين من القيام بالعبء الثقيل في طريق تمييز هذين النوعين من المسائل.

قال الدكتور شبلي شميل: إن الفلسفه الإلهيه بلغت بين المسلمين شأواً و لكن البيئات النصرانيه لم تستطع أن تحتفظ بها، و صارت الفلسفه بعد الانتشار بينهم محكومَه بالفناء و الاندثار، حتى قام رجال الكنائس يكافحونها بكل قوه غير ما يرجع إلى لاهوتيه المسيح. (١)

لو كانت تلك الفلسفه الإسلاميه (المشيده القواعد و المحرّره المسائل) منتشره بين أبناء الغرب لما ظهر بينهم ما ظهر من المسالك المتناقضه و المذاهب المتبدده التي يقضى الوجدان السليم بطلانها.

و لو كانت الفلسفه الإسلاميه دارجه يرجع إليها المادى في شبهاته و شكوكه و الإلهى في تقويم عقائده و تحكيم مبانيه، لما ظهر سلطان المادى في البيئات العلميه.

و لو كانت الفلسفه الإسلاميه سائده على المفكرين من الغربيين لما تسنى للسوفسطائى أن يبيث تلك الدعاوى الفارغه و الأساطير المكذوبه حينما قضى الدهر على أسلافهم بالفناء و الهلاك، فجاء أخلافهم بعد لآى من الدهر يفتنون آثار آبائهم و أجدادهم الباليه.

ص: ١٢٤

إشاره

العوامل المؤثره فى نشوء المدارس الكلاميه

من أبرز العوامل التى أدت إلى نشوء المدارس الكلاميه، هو الاختلاف فى الأصول، الذى انتهى إلى تأسيس مسالك مختلفه مع اتفاق الكل على أن الغايه من تأسيس علم الكلام هى الذب عن الإسلام، أصوله و فروعاه.

و تتلخص الأصول التى أوجد الاختلاف فيها فجوه كبيره بين الآراء و الأفكار، فى أمور أهمها:

١. الصفات الذاتيه

لا شك أنه سبحانه موصوف بالعلم و القدره و الحياه و غيرها من الصفات الجماليه، و السؤال: هل هذه الصفات هى غير الذات مفهومًا و عينها ذاتًا و مصداقًا، أو هى غير الذات مطلقًا، مفهومًا و مصداقًا؟ فالعديله على الأول، و الأشاعره على الثانى.

ثم إن القائلين بالوحده على طائفتين:

ص: ١٢٥

الأولى: أنّ الصفات الجمالية متحقّقه في الذات، لكن لا- تغاير بين الموصوف و الوصف وجوداً، وإن كان بينهما تغاير مفهوماً، فالذات كلّها علم، وكلّها قدره، وكلّها حياه و هكذا، ولا مانع من أن يكون قسم من الصفات- كالعلم - أمراً قائماً بالغير كما في الممكنات، وقسم منه أمراً قائماً بالذات كما في الواجب عزّ اسمه، وهذا مذهب الإماميه.

الثانيه: أنّ الذات نائب مناب الصفات، فالذات ببساطتها، تقوم بكلّ ما تقوم به الأوصاف، فكما أنّ الذات الموصوفه بالعلم و القدره، و الحياه يصدر منها الفعل بالعلم و الإتقان، و هكذا ذاته سبحانه، النائبه مناب الصفات، يكون فاعلاً عالمياً و متقناً لفعله، و هذا هو القول بالنيابه، و به قال بعض المعتزله.

يقول الحكيم السبزواری: و الأشعري بازدياد قائله و قال بالنيابه المعتزله (١)

٢. الصفات الخبريه

و المراد، ما وصف به سبحانه نفسه في القرآن و الحديث فأثبت له اليد و الاستواء و العين و غيرها، فقد أوجد تفسير هذه الصفات اختلافاً عظيماً بين المتكلمين؛ فالأشاعره على حملها بمعانيها اللغويه على الله سبحانه غايه الأمر «يقولون الكيف مجهول» و قد عرّفوا بالمشبّه، أي مثبتة الصفات؛ و المعتزله على تأويل اليد بالقدره، و الاستواء على الاستيلاء و قد عرفوا بنفاه الصفات أو بالمؤوّله.

و أمّا الإماميه فقد ذهبوا إلى أنّ المتبع هو الظهور التصديقي، لا التصوّري،

ص: ١٢٦

و إن شئت قلت:المتبع هو الظهور الجُملي لا-الإفرادي،و اليد و الاستواء و العين و إن دلت بظهورها التصوري أو الإفرادي على التشبيه و التجسيم لكنّه ليس بمتّبع،بل المتّبع هو الظهور التصديقي،و هو المعاني التي كُتِبَ عنها بهذه الألفاظ،و كلام العرب مشحون بالكنايات،و التفصيل في محله.

٣.الصفات الفعلية

ما يصدر عنه سبحانه من الخلق و الرزق،و الرحمة و العذاب صفات فعلية، فوقع الكلام فيما يجوز عليه تعالى و ما لا يجوز،فالمعتزله و الإماميه على تحديد فعله سبحانه من خلال الإمعان في بعض صفاته ككونه حكيماً عادلاً بالعدل و الحكمه،فقالوا:يُمْتَنَعُ عليه سبحانه،التكليف بما لا يطاق،أو تعذيب المطيع،بخلاف الأشاعره حيث إنّه سبحانه عندهم فوق أن يقع في إطار التحديد،حتّى يوصفَ بعضُ أفعاله بالوجوب و الآخرُ بالامتناع، فيجوزون التكليف بالمحال،و تعذيب المطيع.

٤.العدل

اتَّفَقَ المتكلمون على وصفه سبحانه بالعدل،إنّما اختلفوا في تفسيره، فالأشاعره على أنّ الدليل على وصفه سبحانه به،هو السمع،و على ذلك فكلّ ما صدر منه سبحانه فهو عدل،سواء أ كان عادلاً،عند العقل أم لا،خلافاً للإماميه و المعتزله فإنّ الدليل على وصفه بالعدل هو العقل،و لو دلّ السمع على أنّه عادل فهو مؤيّد له،و العقل بنفسه يميّز مصداق العدل عن خلافه؛ و على ضوء ذلك،يستحيل صدور ما يعد ظلماً في منطلق الفعل،فتكليف العاجز و تعذيب الطفل

الصغير،خلاف العدل،و نفس الظلم عند العدل.

إنّ الاختلاف فى تفسير العدل ينشأ من الاختلاف فى المسأله التاليه،و كأنها هى المصدر الوحيد،لشوء أكثر المدارس الكلاميه.

٥.التحسين و التقيح العقليان

إنّ القائلين بذاتيه التحسين و التقيح،يفسرونها بالقول:إنّ الفعل الصادر من الفاعل المختار،سواء أ كان واجباً أم ممكناً،إذا نظر إليه العقل و تجرّد عن كلّ شىء يستقل إما بحسنه و أنّه يجب أن يفعل،أو بقبحه و أنّه يجب أن يترك، بغضّ النظر عمّا يترتب عليه من المصالح و المفاسد،أو بغضّ النظر عن موافقته لغرض الفاعل أو مخالفته،فإنّ كلّ هذه الضمائم ممّا لا حاجه إليها فى قضاء العقل بالحسن و القبح،فكأنّ نفس الفعل علّه تامه-عند اللحاظ-لحكم العقل بالحسن أو القبح.

فإذا كان الشىء بذاته حسناً فهو حسن عند الكلّ يجب أن يفعل،و إذا كان الشىء قبيحاً فهو قبيح عند الكلّ يجب أن يترك،و بهذا يتميز ما يجب لله تعالى،عمّا لا يجوز عليه و يترتب على ذلك:

١.قبح التكليف بغير المقدور،و بالتالى امتناعه.

٢.قبح تعذيب البرىء و بالتالى امتناعه.

٣.قبح تزويد المتتبئ الكاذب بالمعجزه و بالتالى امتناعه.

٤.قبح تضليل العباد و بالتالى امتناعه.

٥.حسن العمل بالوعد،و بالتالى لزومه و وجوبه.

ص:١٢٨

٦. حسن العصمه فى الأنبياء، و بالتالى لزومه و وجوبه.

٧. حسن انتخاب الأصلح، و بالتالى لزومه و وجوبه.

إلى غير ذلك من الآثار المترتبة على التحسين و التقييح العقليين، على خلاف القول بعجز العقل عن إدراك ما هو الحسن و القبيح، فالقائل به لا يعترف بواحد من هذه الآثار و بذلك تتسع الفجوه بين القائلين، و تحدث مسالك و مدارس كلاميه.

٦. القضاء و القدر

إنّ القضاء و القدر من المعارف العليا و قد تضافرت الآيات و الروايات على وقوع كلّ ما فى الكون فى إطار التقدير و القضاء و اعترف به العدليه من المتكلمين غير أنّ الكلام فى تفسيرهما، فالأشاعره يعطون للقدر سياده على نحو يسلب الاختيار عن الإنسان، و يجعله كالريشه فى مهب الريح اغتراراً ببعض الروايات المستورده، فالقدر عندهم إله ثان و الذى له السيطره على الكون و الإنسان، و ليس للإنسان محيص إلاّ عن سلوك ما قُدّر، و تطبيق العمل على ما قُضى سواء أ كان حُلواً أم مُرّاً؛ غير أنّ العدليه، مع الاعتراف بعموميه القدر و القضاء لأفعال الإنسان، يفسرونهما على نحو لا يسلب المسئوليه عن الإنسان، و ذلك ببيان أنّ المقدر ليس صدور الفعل من الإنسان بأى نحو شاء، بل المقدر، صدوره منه عن إرادته و اختيار، عن رؤيه و تفكير.

هذه هى الأصول المكونه للمدارس الكلاميه المختلفه عبر العصور، و قد اقتصرنا على الرئيسيه منها:

و هناك عوامل أُخرى غير رئيسيه، انتهت إلى ظهور آراء فى المسائل العقائديه، يرجع لُبّها إمّا إلى اعوجاج فى الفكر و تفسير الآيات و الروايات على غير

وجهها؛ أو تبني المدعى أولاً، ثم طلب الدليل ثانياً.

فنحن نشير إلى أمّهات المدارس الكلامية حسب تاريخ تكوينها، و نترك الفروع المشتقة من كلّ مدرسه، و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا «بحوث في الملل و النحل».

ص: ١٣٠

إشارة

نخصّ هذا الفصل بدراسة المدارس الكلامية بمناهجها المختلفة و هي كثيرة، و لكلّ منهج، أصول و كتب، و بُناه و دعاه، و لا يمكننا بسط الكلام فيها، فانه يحوجنا إلى تأليف كتاب خاص في ذلك، و قد قمنا به في موسوعتنا المنتشرة باسم «بحوث في المثل و النحل».

و إنّما الغاية في المقام، الإلماع إلى مؤسسى المدارس و أصولها و أعلامها على وجه موجز.

المحكّمه

و يعبر عنهم بالخوارج، وقد انقضوا و لم يبق منهم إلا فرقه معتدله و هى الإباضيه.

إنّ حركه الخوارج-يوم ظهرت- كانت حركه سياسيه و لم يكن لها جذور كلاميه خلافاً لسائر الفرق. و الأصول التي كانوا يتبنونها، لا تعدو ثلاثه:

١. تكفير مرتكب الكبيره.

٢. إنكار مبدأ التحكيم.

٣. تكفير عثمان و على و معاويه و طلحه و الزبير، و من سار على دربهم و رضى بأعمال عثمان و تحكيم الإمام على عليه السلام.

نعم إنّ المحكّمه عبر الاحتكاك بسائر الفرق تبنت أصولاً أخرى، و بذلك تأسست مدرسه كلاميه فى إطار خاص و هو:

١. عدم اشتراط القرشيه فى الإمام.

٢. صفاته سبحانه عين ذاته.

٣. امتناع رؤيته سبحانه فى الآخره.

٤. القرآن حادث غير قديم.

ص: ١٣٢

و فى هذه الأصول الثلاثة الأخيره يتفقون مع العديله بكلتا الفرقتين:الإماميه و المعتزله.

٥.الشفاعه، و تعنى:دخول الجنه بسرعه لا مغفره الذنوب،و فى هذا الأصل يتفقون مع خصوص المعتزله من العديله.

٦.التولى و التبرى.

ص:١٣٣

المرجئه

و هي مأخوذه من الإرجاء بمعنى التأخير، وهم يولون أهميه للإيمان القلبي و لا يهتمون بالعمل، و قد اشتهروا بتقديم الإيمان و تأخير العمل، فأخذوا من الإيمان جانب مجرد الإقرار بالقول الكاشف عن الإذعان قلباً و إن لم يكن مصاحباً مع العمل، فاشتهروا بالمرجئه، أى المؤخره، و شعارهم: «لا تضرّ مع الإيمان معصيه، و لا تنفع مع الكفر طاعه...» و هؤلاء و الخوارج فى مسأله العمل، على جانبى نقيض، فالمرجئه لا يشترطون العمل فى حقيقه الإيمان، و الخوارج يضيّقون فيرون مرتكب الكبيره كافراً مخلّداً فى النار.

و يقال: إنّ أوّل من وضع الإرجاء الحسن بن محمد بن الحنفية (المتوفى ٩٩هـ) و لكن الإرجاء الذى قال به، ليس هو الإرجاء المصطلح. (١)

ص: ١٣٤

١- ١). لاحظ تفصيل ذلك فى موسوعتنا: بحوث فى الممل و النحل: ج٣، فصل المرجئه. [١]

إشاره

المعتزله

المعتزله بين المدارس الكلاميه المختلفه مدرسه فكريه عقليه أعطت للعقل القسط الأوفر.

و مؤسس المذهب هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى، نقل الشهرستانى أنه دخل شخص على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت فى زماننا جماعه يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيره عندهم يُخرج بها عن المله، وهم وعبيد الخوارج، و جماعه يُرجئون أصحاب الكبائر و يقولون لا تضر مع الإيمان معصيه، كما لا تنفع مع الكفر طاعه، وهم مرجئه الأئمه، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟

فتفكر الحسن فى ذلك و قبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيره مؤمن مطلقاً و لا كافر مطلقاً، بل هو فى منزله بين المنزلتين، لا- مؤمن و لا- كافر، ثم قام و اعتزل إلى اسطوانه المسجد يقرر ما أجاب به على جماعه من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عناً واصل، فسُمى هو و أصحابه: معتزله. (١)

ص: ١٣٥

و الأصول المهمّة التي تعدّ عماداً للاعتزال لا تتجاوز الخمسة و هي:

الأصول الخمسة عند المعتزله

١. التوحيد.

٢. العدل.

٣. الوعد و الوعيد، أي يجب العمل بالوعد كوجوبه بالوعد.

٤. المنزل بين المنزلتين، فمرتكب الكبيره لا مؤمن و لا كافر بل بين المنزلتين.

٥. الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، أي وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر عقلاً.

و للمعتزله أئمة نضج المذهب بأفكارهم و آرائهم و وصل إلى القمه في الكمال و في مقابل هؤلاء مشايخهم الكبار الذين لهم دور في تبيين المذهب دون أن يتركوا أثراً بارزاً يستحقّ الذكر، و إليك نزرّاً من أئمتهم.

أئمتهم

١. واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ).

٢. عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٣هـ).

٣. أبو الهذيل العلاف (١٣٥-٢٣٥هـ).

و هذا الأخير من أعيان المعتزله، و يصفه ابن خلكان بقوله: «كان حسن الجدل، قويّ الحجّه، كثير الاستعمال للأدله و الإلزامات».

و يظهر من مناظرته مع صالح بن عبد القدوس أنّ حركه الشكّ كانت استفحلت في عصره حتّى ألف صالح بن عبد القدوس كتاباً حول الشكوك،

ص: ١٣٦

يقول ابن خلكان: «لقى أبو الهذيل صالح بن عبد القدوس و قد مات له ولد و هو شديد الجزع عليه. فقال له أبو الهذيل: لا أعرف لجزعك عليه وجهاً، إذا كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل: إنما أجزع عليه، لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك فقال له: كتاب الشكوك ما هو يا صالح؟ قال: هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان، حتى يتوهم أنه لم يكن، ويشك فيما لم يكن، حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك و اعمل على أنه لم يميت و إن كان قد مات، و شك أيضاً في قراءه كتاب الشكوك و إن كان لم يقرأه. (1)

٤. النظام (١٦٠-٢٣١هـ).

٥. أبو علي الجبائي (٢٣٥-٣٠٣هـ).

٦. أبو هاشم الجبائي (٢٧٨-٣٢١هـ).

٧. قاضي القضاة عبد الجبار (٣٢٤-٤١٥هـ).

إلى غير ذلك من الأئمة.

لقد ابتسم الدهر للمعتزله في عصر أبي جعفر المنصور و امتد نشاطهم- إلا في عصر هارون- إلى خلافه الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ)، و لما قضى الواثق نحبه و أخذ المتوكل زمام أمر الخلافة أفل نجمهم شيئاً فشيئاً إلى أن انقرضوا، و قد قتل كثير منهم بسيف محمود بن سبكتكين في أرض خراسان، و لم نثر بعد الزمخشري (المتوفى ٥٣٨هـ) و ابن أبي الحديد (المتوفى ٦٥٦هـ) على علم من أعلام المعتزله سوى بعض الزيدية التابعين للمعتزله في الأصول.

ص: ١٣٧

١- ١). وفيات الأعيان: ٢٦٦/٤، [١] منشورات الشريف الرضي، قم.

الجهميّه

الجهميّه منسوبه إلى جهّم بن صفوان السمرقندي الذي قتل في آخر دوله بنى أميّه عام ١٢٨هـ، وقاعده مذهبه أمران:

الأول: الجبر و نفى الاستطاعه، فصار الجهم رأس الجبر و أساسه، و يطلق على أتباعه الجبريه الخالصه في مقابل غير الخالصه منها.

الثاني: تعطيل ذاته عن الوصف بصفات الجمال و الكمال، و لأجل ذلك سميت المعطله أيضاً.

و قد نسب إليه أيضاً الأمور التاليه:

١. كون القرآن الكريم مخلوقاً حادثاً.

٢. نفى رؤيته في الدنيا و الآخره.

٣. جواز الخروج على السلطان الجائر.

و لعلّه لهذا الأصل الثالث قتل بسيف بنى أميّه.

ثمّ إنّ كلّ من قال بنفى الصفات، أو بخلق القرآن، يرمى بالجهميّه و إن لم يكن منهم، و الجهميّه في كلمات الإمام أحمد هم المعترله. (١)

ص: ١٣٨

إنّ إقصاء العقل عن ساحه العقائد، ألحق أضراراً جسيمة بالمجتمع الإسلامي فظهرت حركات هدامه ترمى إلى تقويض الأسس الدينيه والأخلاقية، و من هنا نجمت المجسّمه التي رفع لواءها مقاتل بن سليمان المجسّم (المتوفى عام ١٥٠هـ) فهو و جهم بن صفوان مع تشاطرهما في دفع الأُمّه الإسلاميه إلى حافّه الجاهليه، لكنّهما في مسأله التنزيه و التشبيه على طرفى نقيض.

أمّا جهم بن صفوان فقد أفرط في التنزيه حتّى عطّل وصفه سبحانه بالصفات، و أمّا مقاتل فقد أفرط في التشبيه فصار مجسّمًا. (١)

الكُرامِيَّة

إنَّ الكُرامِيَّة، مثل المَجَسِّمَة و هي أيضاً وليده إقصاء العقل و المنطق عن ساحه العقائد و الانكباب على الروايات المدسوسة المليئة بالأباطيل و الترهات التي وضعتها الأهواء، و الكُرامِيَّة صنيعة محمد بن كُرام السجستاني (المتوفى عام ٢٥٥هـ)، الذي يعرفه ابن حبان بقوله: «التقط من المذاهب أرداهها، و من الأحاديث أوهاهها، و جعل الإيمان قولاً - بل معرفه، و من آرائه أنه سبحانه جسم لا كالأجسام، و من آرائه: أن النبي أخطأ في تبليغ قوله: «وَمَنَاةُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» حَتَّى قَالَ بَعْدَهُ: «تلك الغرائق العلى، و أن شفاعتها لترتجى».

و الحاصل: أن الحركة الكُرامِيَّة من أسوأ الحركات الرجعية التي ظهرت في القرن الثالث. (١)

ص: ١٤٠

١- (١). ميزان الاعتدال: ٢١/٤؛ الفرق بين الفرق: ٢٢٢.

الأشعريه مدرسه كلاميه أسَّسها أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، من أحفاد أبي موسى الأشعري الصحابي المعروف، ولد عام ٢٦٠هـ، و توفي سنة ٣٢٤هـ و علي قول ٣٣٠هـ، و كان معتزلياً و تخرَّج علي يد أستاذه أبي علي الجبائي (٢٣٥-٣٠٣هـ) ثم أعلن براءته من هذا المذهب-بعد وفاه أستاذه بستين-و التحق بمذهب الإمام أحمد، و نادى من على المنبر بأعلى صوته و قال: من عرفني فقد عرفني و من لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى، أنا فلان بن فلان، كنت قلت بخلق القرآن و إنّ الله لا يرى بالأبصار، و إنّ أفعال الشر أنا أفعالها، و أنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزله.

و هو و إن (١) التحق بأهل الحديث لكنّه قد امتاز عنهم باستحسان الخوض في المسائل الكلاميه و البرهنه على العقيدة بالدليل العقلى، و لذلك رفضه بعض أتباع الإمام أحمد كالبربهاري. (٢)

إنّ مذهبه و إن لم يتمتع بالانتشار في حياته، لكن تلاميذه و تلاميذ تلاميذه

١- (١). فهرست النديم: ٢٧١؛ [١] وفيات الأعيان: ٢٨٥/٣. [٢]

٢- (٢). تبين كذب المفترى قسم التعليقه: ٣٩١.

قد نضجوا الأصول الموروثة عنه، ونشروه إلى حد، صار المذهب الأشعري، هو المذهب الرسمي لأهل السنّه.

يقول المقرئزى بعد ذكر الأصول الكلاميه للمذهب الأشعري: «فهذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلاميه، والتي من جهر بخلافها أريق دمه. (1)

و إليك أصول مذهبه المهمه:

١. اللّٰه سبحانه ليس بجسم. ٢. صفاته قديمه لا- حادثه. ٣. صفاته زائده على ذاته. ٤. الصفات الخبريه تحمل عليه سبحانه بلا كيف، مثلاً: له سبحانه يد، و وجه، بلا كيف. ٥. اللّٰه هو الخالق لأفعال العباد و العبد هو الكاسب. ٦.

الاستطاعه مع الفعل لا- قبله. ٧. رؤيه اللّٰه سبحانه فى الآخره. ٨. كلام اللّٰه سبحانه، هو الكلام النفسى. ٩. كلامه قديم و ليس بحادث. ١٠. الحسن و القبح شرعيان لا عقليان. لاحظ للوقوف على مصادر آرائه كتابى الإبانة و اللمع، و هما من تأليفه.

و ربما يتصور: أنّ الشيخ الأشعري أعلن الالتحاق بمذهب الإمام أحمد، ليُجرى الإصلاح فى مذهب أهل الحديث، الذين غلب عليهم يومذاك القول بالتجسيم و الجبهه و الجبر، فحاول أن يصلح ما فسد. و لكن هذا التصور غير دقيق. و إذا افترضنا أنّ الشيخ كان يروم الإصلاح، فإنّ التوفيق لم يحالفه فى ذلك للأسباب التاليه:

١. إبقاء الأصول الفاسده فى مسلك أهل الحديث، نظير: أفعال الإنسان مخلوقه لله سبحانه مباشره، فلا شكّ أنّ القول بهذا الأصل ينتهى إلى الجبر، لأنّ

ص: ١٤٢

معناه أنّ المؤثر فى فعل العبد هو قدرته سبحانه مباشرة و لا دور لإرادته العبد و قدرته المفاضه منه سبحانه إليه، و ربما يعبر عنه بالجبر غير الخالص.

٢. تجويز رؤيه الله يوم القيامة، و هو يلازم القول بالتجسيم و كونه سبحانه ذا وجه.

٣. قوله: إنّ القرآن قديم غير حادث، أو غير مخلوق لله سبحانه و ذلك يؤدى فى النهايه إلى فرض قديم ثان، و تصور ندّ له إلى غير ذلك من الأصول التى تركها الأشعرى بحالها و لم يحدث فيها أى تغيير.

نفى السببه عن الأسباب

إنّ من أبرز سمات منهج الأشاعره هو نفى السببه و العليه حتّى بالمعنى الظلّى عن غيره سبحانه، و أنّه ليس فى صحيفه الكون إلاّ علّه واحده و سبب فارد، هو المؤثر فى الكون و بذلك شطبوا على تأثير العلل الطبيعه بعضها فى بعض، و نفوا السببه فى الكونيات و زعموا أنّ القول بذلك ينافى التوحيد فى الخالقيه و الربوبيه و بذلك نازعوا وجدانهم كما نازعوا الوحي المبين حيث إنّ يثبت الأثر الطبيعى لكلّ سبب، و فى الوقت نفسه يربطهما بالله سبحانه، قال: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». ١

تجد أنّ الوحي اعترف بسببه الماء لخروج الثمرات الطيبه و ليست هذه الآيه وحيده فى هذا الباب، بل فى القرآن الكريم نماذج من هذا النوع، قال سبحانه: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ

صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». ١

فتستدل الآيه على أنّ تدبيره سبحانه فوق تدبير الفواعل الطبيعيه، و ذلك بشهاده أنّ الجّنات تثمر أثماراً مختلفه مع وحده الشرائط و الظروف المحيطه بها من وحده الماء و الأرض، و هذا يدلّ على أنّ وراء الأمور الطبيعيه و الأسباب الماديّه مدبراً فوقها، و على الرغم من هذا الاعتراف إلاّ أنّه لا ينفي تأثير العوامل الطبيعيه و لكن يراها غير كافيه في خلق هذا التنوع.

و بذلك يظهر أنّ ما ذكره ابن خلدون حول تأثير الأسباب و لزوم الغصّ عنها دون شأنه جدّاً و كان المترقب منه غير ذلك، لكن سيطره مذهب الأشعرى على العقول، أثّرت على تفكيره فعاد يفكر كأنّه أشعرى مطلق، بل حنبلى محض. يقول: تأمل من ذلك حكمه الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب و الوقوف معها فإنّه واد يهيم فيه الفكر و لا يحلو منه بطائل و لا يظفر بحقيقته - إلى أن قال: فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول، لأنّها إنّما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر و حقيقه التأثير و كيفيته مجهوله، فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها و إلغائها جملة و التوجّه إلى مسبب الأسباب كلّها و فاعلها و موجدتها لترسخ صفه التوحيد في النفس.

فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع و حقت عليه كلمه الكفر، و إن سبح في بحر النظر و البحث عنها و عن أسبابها و تأثيراتها واحداً بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلاّ بالخيبه، فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب

و أمرنا بالتوحيد المطلق. (١)

يلاحظ عليه أولاً: ما هو الدليل أنّ الشارع نهانا عن النظر في الأسباب، فإن أراد النظر فيها بمعنى التوقف عند تلك الأسباب، وإضفاء الأصالة عليها و انقطاعها عن مسبب الأسباب، فذلك كما ذكره كفر محض، ولكن المؤمن الموحد لا ينظر إلى الأسباب بذلك المنظار.

و إن أراد النظر فيها بما فيها من نظام بديع حاك عن كونه مخلوقاً لموجود عالم قادر حكيم فالنظر فيها بهذا المنظار هو نفس التوحيد، فكيف نهانا الشارع عن النظر في الأسباب؟ هذا هو القرآن الكريم يشرح لنا نظام الكون بأدق الوجوه و يجعلها آية لتوحيد خالق العالم و مدبره.

يقول سبحانه: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». ٢

إنّ قول الله-هذا-مضافاً إلى كونه مشيراً إلى برهان النظم يمكن أن يكون تلويحاً إلى عوامل استقرار الحياه على الأرض، و مذكراً للعقول بأنّه لا يمكن أن تجتمع كلّ العوامل-مع ما فيها من المحاسبات الدقيقه-عن طريق الصدفة العمياء دون أن يتدخل في ذلك تدبير «مدبر عاقل حكيم» و دون أن يكون قد جمعها على هذا النسق المناسب لظاهرة الحياه-«إله خالق عارف بالأُمور، محيط بالمحاسبات و السنن».

ص: ١٤٥

(١-١). مقدّمه ابن خلدون، الفصل العاشر في علم الكلام: ٤٢٤. [١]

كما يمكن أن يكون بعض الآيات الأخر مشيراً إلى هذا البرهان (برهان النظم) مثل قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ». ١

و ثانياً: أن قوله: «إنما يوقف عليها العلية بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر» يرمى إلى نفى العلية و المعلوليه و لو بنحو الظلية بين الأسباب و المسببات، و أن المشهود هو ظهور الحرارة مقترنه بوجود النار و البروده مقترنه بوجود الماء دون أن يكون بين الأثر و ما هو المؤثر فى الظاهر صله و علاقته. و هذا هو الذى يدّعيه الإمام الأشعري من نفى العلية، و إن ما نسّميه عليه هو جريان عاده الله على وجود الآثار بعد الأسباب من دون أن يكون للسبب أى تأثير.

أقول: إذا كان الداعى لنفى السببيه بين الظواهر الكونيه هو تقويه روح التوحيد فى الخالقيه و الربوبيه و أنّ المؤثر الحقيقى هو الله سبحانه فهو أمر جميل؛ و إذا كان الداعى هو نفى السببيه و العلية بين الأسباب و المسببات الطبيعيه، فهو على خلاف الكتاب أولاً، و الوجدان ثانياً، و تشويه لسمعه الإسلام ثالثاً.

أعيان الأشاعره

ثم إن هناك رجالاً ارتبطت أسماءهم ببلوره المذهب الأشعري، و لولاهم لما قام لهذا المذهب عمود و لا اخضر له عود، و إليك أسماء أعلامهم عبر التاريخ:

١. أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٥٤٣هـ).

٢. أبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى ٤٢٩هـ).
 ٣. إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤١٩ - ٤٧٨هـ).
 ٤. حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ).
 ٥. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ).
 ٦. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، فخر الدين الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ).
 ٧. أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم المعروف بسيف الدين الآمدي (٥٥١ - ٦٣١هـ).
 ٨. عبد الرحمن بن أحمد، عضد الدين الإيجي (٧٠٨ - ٧٥٦هـ).
 ٩. مسعود بن عمر بن عبد الله المعروف بسعد الدين التفتازاني (٧١٢ - ٧٩١هـ).
 ١٠. السيد علي بن محمد بن علي الحسيني المعروف بالسيد الشريف (المتوفى ٨١٦هـ).
 ١١. علاء الدين علي بن محمد السمرقندي القوشجي (المتوفى ٨٧٩هـ).
- هذا بعض الكلام في المذهب الأشعري، والذي صار مذهباً رسمياً لأكثر أهل السنّة.

الماتريدييه

فى الوقت الذى ظهر فىه مذهب الإمام الأشعرى بطابع الفرعیه لمذهب أهل الحديث، ظهر مذهب آخر، بهذا اللون و الشكل لغايه نصره السنّه و أهلها و بالتالى: إقصاء المعتزله عن الساحه، و هو مذهب الإمام محمد بن محمد بن محمود الماتريدى السمرقندى (المتوفى سنة ٥٣٣٣هـ) أى بعد ثلاثه أو تسعه أعوام من وفاه الإمام الأشعرى.

و الداعيان كانا فى عصر واحد و لم تكن بينهما أيّه صلّه، فالأشعرى كان يكافح الاعتزال و يُناصر السنّه فى البصره متقلّداً مذهب الشافعى فى الفقه، و الماتريدى يكافح الاعتزال فى الشرق الإسلامى متقلّداً رأى الإمام أبى حنيفه فى الفقه؛ فكانت البصره محط الأهواء و معقلها، كما كانت أرض خراسان مأوى أهل الحديث و مهبطهم.

و لم يكن الماتريدى نسيج وحده فى هذا الأمر، بل معاصره أبو جعفر الطحاوى صاحب العقيدة الطحاويه (المتوفى سنة ٥٣٢١هـ) كان أيضاً يناصر السنّه متقلّداً مذهب أبى حنيفه فى الفقه، و قد صدر رسالته المعروفه بالعقيدة الطحاويه بقوله:

بيان عقيدة فقهاء الملة: أبي حنيفة و أبي يوسف و محمد بن الحسن. (١)

اتَّفَق المترجمون للماتريدي على أنه توفِّي عام ٣٣٣هـ و لم يَعيَّنوا ميلاده، لكن القرائن تشهد على أنه من مواليد عام ٢٤٨هـ. و قد أخذ العلم عن عدّه من المشايخ، و هم:

١. أبو بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني.

٢. أبو نصر أحمد بن العياضي.

٣. نصير بن يحيى، تلميذ حفص بن سالم (أبي مقاتل).

٤. محمّد بن مقاتل الرازي.

و تخرّج عليه عدّه من العلماء، منهم:

١. أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل الشهير بالحكيم السمرقندي (المتوفّي ٥٣٤٠هـ).

٢. أبو الليث البخاري.

٣. أبو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوي، جدّ محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي مؤلّف «أصول الدين».

إنّ منهج الماتريدي يتمتع بسمات ثلاث:

أولاً: أعطى للعقل سلطاناً أكبر و مجالاً أوسع، و ذلك هو الحجر الأساس للسمتين الأخيرتين.

ثانياً: منهجه أبعد عن التجسيم و التشبيه من منهج الأشاعره.

ثالثاً: منهجه أقرب إلى الاعتزال من منهج الإمام الأشاعره.

ص: ١٤٩

و إليك بعض الفوارق بين المنهجين:

١. معرفته سبحانه واجبه عقلاً عند الماتريديه و سمعاً عند الأشاعره.
 ٢. التحسين و التقييح عقليان عند الماتريديه و سمعيان عند الأشاعره.
 ٣. لا يجوز التكليف بما لا يطاق عند الماتريديه خلافاً للأشاعره.
 ٤. أفعال الله تعالى معلله بالأغراض عند الماتريديه دون الأشاعره.
 ٥. الصفات الخبريه كالاستواء و اليد و العين تثبت على الله سبحانه بنفس معانيها اللغويه لكن بلا- كيفيه عند الأشاعره، و أما الماتريديه فهي بين مفوضه معانيها إلى الله سبحانه، أو مفسره لها بنفس ما تفسره العدليه.
 ٦. صفاته عين ذاته سبحانه عند الماتريديه، زائده عند الأشاعره.
- المذهب الماتريدي مذهب الأحناف خصوصاً في تركيا و آسيا الوسطى و شبه القارّه الهنديّه، و مذهب الأشاعره مذهب الشوافع غالباً.

أعيان الماتريديه

١. القاضي الإمام أبو اليسر محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي (٤٢١-٥٤٩٣هـ)، له كتاب «أصول الدين».
٢. أبو المعين النسفي (المتوفى ٥٠٢هـ)، و هو من أعظم أنصار هذا المذهب، له كتاب «تبصره الأدله» الذي ما زال مخطوطاً حتى الآن، و يعدّ ينبوع الثاني بعد كتاب «التوحيد» للماتريديه.
٣. الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفى ٥٣٧هـ) مؤلف «العقائد النسفيه»، و ما زال هذا الكتاب محور الدراسه في الأزهر إلى يومنا هذا.

٤. الشيخ مسعود بن عمر التفتازانى (المتوفى ٧٩١هـ) أحد المتضلعين فى العلوم العربيه و المنطق و الكلام، و هو شارح «العقائد النسفيه».

٥. الشيخ كمال الدين محمد بن همام الدين الشهير بابن الهمام (المتوفى ٨٦١هـ) صاحب كتاب «المسايره» فى علم الكلام، نشره و شرحه محمد محيى الدين عبد الحميد و طبع بالقاهره.

٦. العلّامه كمال الدين أحمد البياضى الحنفى مؤلف كتاب «إشارات المرام من عبارات الإمام» أحد علماء القرن الحادى عشر الهجرى، و يعدّ كتابه هذا أحد مصادر الماتريديه.

٧. الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى المصرى (المتوفى ١٣٧٢هـ) و كيل المشيخه الإسلاميه فى الخلافه العثمانيه، أحد المتضلعين فى الحديث و التاريخ و الملل و النحل.

ص: ١٥١

الزبيديّ مذهب منتسب إلى الإمام زيد الشهيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن مولى الموحدين علي بن أبي طالب، ولد عام ٧٥هـ، واستشهد سنة ١٢١هـ، وقد أدرك زيد ثلاثه أئمّه من أهل البيت عليهم السلام، وهم:

١. والده الإمام علي بن الحسين عليهما السلام (٣٨-٩٤هـ).

٢. أخوه الأكبر أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام (٥٧-١١٤هـ).

٣. ابن أخيه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام (٨٣-١٤٨هـ).

أخذ عن أبيه، ثمّ عن أخيه محمد الباقر عليه السلام كما كانت أوامر الحبّ و الودّ تجمععه بالإمام الصادق، فلمّا بلغ نعيه إلى المدينة أخذ الناس يفتدون إلى الإمام الصادق يعزّونه. (١)

و قد ترك آثاراً علميه، منها:

١. المجموع الفقهي.

٢. المجموع الحديثي.

٣. تفسير غريب الحديث.

ص: ١٥٢

(١-١). الأغاني: ٢٥١/٧.

٤.الصفوه،و هي دراسه قرآنيه تتبني بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام و تقديمهم على سائر الناس في مختلف المجالات.

إلى غير ذلك من المسائل.

زعمت الزيديه أنه ادّعى الإمامه لنفسه،و لكن كلمات زيد تخلو من أيّ إشاره إلى ذلك،بل كلّها تعرب عن أنه دعا للرضا من آل محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

لم يكن زيد الشهيد صاحب منهج كلامي أو فقهى مستقلّ،و إذا كان يقول بالعدل و التوحيد و يكافح الجبر و التشبيه فلأجل أنه ورثهما عن آبائه،و إذا كان يفتى في مورد ما،فإنّما كان يصدر في ذلك عن الحديث الذي يرويه عن آبائه.

نعم جاء بعد زيد مفكّرون وعاه،و هم بين دعاه للمذهب،أو بناء للدوله في اليمن و طبرستان،فساهموا في إرساء مذهب باسم المذهب الزيدي، منفتحين في الأصول و العقائد على المعتزله،و في الفقه و كيفيه الاستنباط على الحنفيه،و لكن الصله بين ما كان عليه زيد الشهيد في الأصول و الفروع و ما أرساه هؤلاء في مجالي العقيده و الشريعه منقطعه إلا في القليل منها.

و على أيه حال،التقت الزيديه مع شيعه أهل البيت في العدل و التوحيد،كما التقوا مع المعتزله في الأصول الثلاثة التاليه:

١.الوعد و الوعيد.

٢.المنزله بين المنزلتين.

٣.الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

و لأجل إيقاف القارئ على الخطوط العريضه لعقائدهم التي يلتقون في بعضها مع المعتزله و في بعضها الآخر مع الإماميه نأتى بها:

ص:١٥٣

١. صفاته تعالى عين ذاته، وفاقاً للإماميه.

٢. إنّ الله سبحانه لا يُرى و لا يجوز عليه الرؤيه خلافاً للأشاعره.

٣. العقل يدرك حسن الأشياء و قبحها.

٤. الله سبحانه مرید بإرادته حادثه.

٥. أنّه سبحانه متكلم بكلام، و كلامه سبحانه فعله: الحروف و الأصوات.

٦. أفعال العباد ليست مخلوقه لله سبحانه.

٧. تكليف ما لا يطاق قبيح، خلافاً للمجبره و الأشاعره.

٨. المعاصي ليس بقضاء الله.

٩. الإمامه تجب شرعاً لا عقلاً خلافاً للإماميه.

١٠. النصّ على إمامه على و الحسين عند الأكثريه.

١١. القضاء في فدك صحيح خلافاً للإماميه.

١٢. خطأ المتقدمين على عليّ في الخلافه قطعي.

١٣. خطأ طلحه و الزبير و عائشه قطعي.

١٤. توبه الناكثين صحيحه.

١٥. معاويه بن أبي سفيان فاسق لبغيه و لم تثبت توبته.

هذه رءوس عقائد الزيديه استخرجناها من كتاب «القلائد في تصحيح العقائد»، المطبوع في مقدّمه البحر الزخار. (١)

ص: ١٥٤

(١ - ١). البحر الزخار: ٥٢-٩٦.

إشاره

الإسماعيليه، إحدى فرق الشيعة القائلة بأن الإمامه منصب تنصيصى من النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام القائم مقامه، غير أنّ هناك خلافاً بين الزيديه والإماميه والإسماعيليه فى عدد الأئمّه و مفهوم التنصيص.

الإمام الأوّل للدعوه الإسماعيليه هو إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام و كان والده شديد المحبّه له و الإشفاق عليه، مات فى حياه أبيه بالعرىض و حمل على رقاب الرجال إلى أبيه بالمدينه حتّى دفن بالبقيع. (1)

الخطوط العريضة للمذهب الإسماعيلى

إنّ للمذهب الإسماعيلى علائم و سمات نشير إليها:

١. انتماءهم إلى بيت الوحى و الرساله، و قد كان لهذه السمه رصيد شعبى و كان المسلمون يتعاطفون مع من ينتمى إلى أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. تأويل الظواهر، إنّ تأويل الظواهر و إرجاعها إلى خلاف ما يتبادر منها فى عرف المتشرعه هى السمه البارزه الثانيه للدعوه الإسماعيليه، و هى إحدى الدعائم الأساسيه لهذا المذهب، بحيث لو انسلخت الدعوه عن التأويل و اكتفت بالظواهر لم تتميز عن سائر الفرق الشيعيه إلا بصرف الإمامه عن الإمام

ص: ١٥٥

الكاظم عليه السلام إلى أخيه إسماعيل بن جعفر.

٣. تطعيم مذهبهم بالمسائل الفلسفيه حيث انجرفوا في تيارات المسائل الفلسفيه و جعلوها من صميم الدين و جذوره، و انقلب المذهب إلى منهج فلسفى يتطور مع تطوّر الزمان، و يتبنى أصولاً لا تجد لها في الشريعه الإسلاميه عيناً و لا أثراً.

هذه سمات مذهبهم، و إليك رءوس عقائدهم:

أما التوحيد، فيصفونه سبحانه بأنه واحد لا مثل له و لا ضدّ.

و أما في مجال الصفات، فقد ذهبوا إلى نفي الصفات عنه على الإطلاق، و اكتفوا في مقام معرفته بالقول بهويّته و ذاته، دون وصفه بصفات حتّى الصفات الجماليه و الكماليه.

و أما عقيدتهم في العدل، فالإنسان عندهم مخير لا مسير، و القضاء و القدر لا يسلبان الاختيار.

و أمّا عقيدتهم في النبوه فإنّها أعلى مراتب البشر و الرساله عندهم تنقسم إلى عامّه و خاصّه، و أنّ شريعه الأنبياء موافقه للحكمه، لكن لها ظاهر و باطن.

إنّ تقسيم الشريعه إلى ظاهريه و باطنيه أعطى مبرراً لكلّ إمام من أئمّتهم في أن يضع لكلّ ظاهر باطناً، و لكلّ واجب حقيقه يسمّى أحدهما شريعه ظاهريه، و الآخر باطنيه من دون أن يستدلّ على تأويله بدليل عقلى أو نقلى.

أما عقيدتهم بالمعاد فهو روحانى لا جسمانى، و أنّ التناسخ محال.

و أما عقيدتهم في الإمامه، فالحديث عنها ذو شجون، فقد ذكروا لها درجات خمس ربما تضيق المقدمه عن بيانها. (١)

ص: ١٥٦

١ - ١). لاحظ في عقائدهم: راحه العقل للكرمانى، ص ٤٧؛ تاج العقائد و معدن الفرائد، و قد ذكرنا تفصيل عقائدهم في

موسوعتنا: بحوث في الملل و النحل، ج ٨. [١]

الوهابية منسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى (١١١٥ - ١٢٠٦هـ). كان الشيخ منذ طفولته ذا رغبة شديدة في مطالعة كتب التفسير و الحديث و العقائد، و قد درس الفقه الحنبلى عند أبيه الذى كان من علماء الحنابلة، و كان ابنه محمد يستقبح كثيراً من الشعائر الدينية التى كان يمارسها أهالى نجد، و لم يقتصر تقييحه على نجد، بل تعداه إلى المدينة المنورة بعد انصرافه من مناسك الحج، فقد كان ينكر على الزائرين التوسل برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عند مرقدته المقدس.

و كان يكتم عقائده هذه خوفاً من أبيه، و لما توفى أبوه، أخذ بالدعوة و الالتقاء برؤساء القبائل، و التقى أخيراً بمحمد بن سعود الجد الأعلى لآل سعود فاتفقا على نشر الدعوة، بشرط أن تكون القيادة الدينية لمحمد بن عبد الوهاب، و السياسيه لمحمد بن سعود، و من ذلك اليوم ابتلى المسلمون بزمره يشنون الغارات على القبائل النجدية و خارجها كاليمن و الحجاز و نواحي سوريا و العراق لأجل أخذ الغنائم تحت غطاء الدعوة إلى التوحيد، و قد ضبط التاريخ حروبهم و غاراتهم على المناطق الإسلامية و كانت النتيجة هى الدمار و إراقه الدماء و نهب الأموال، إلى أن استولى آل سعود على الحرمين فساد الأمن فى البلاد لكن مع الفقر المدقع،

و الجوع الأسود إلى أن اكتشفوا آبار الذهب الأسود، فعند ذلك استتب الأمر للوهابيه مفتين و أمراء، و بذلك استغنوا عن شقّ الغارات و الحروب الداميه.

ميزاتهم عن سائر المسلمين

يختلف الوهابيه مع المسلمين فى مسائل فقهيه تاره، و مسائل كلاميه أُخرى، و يغالون فى المسائل الفقهيه الخلافيه و يعتبرونها خروجاً عن الدين و التوحيد، و إليك نبذاً من خصائصهم:

١. تحريم بناء القبور و لزوم هدم المشاهد عليها.
 ٢. حرمة بناء المساجد على القبور و الصلاه فيها.
 ٣. حرمة شدّ الرحال لزياره القبور و الصلاه فى المساجد.
 ٤. حرمة التوسل بالأنبياء و الصالحين.
 ٥. حرمة طلب الشفاعة من النبى صلى الله عليه و آله و سلم.
 ٦. حرمة النذر للأنبياء و الأولياء.
 ٧. حرمة التبرّك بآثار الأنبياء و الصالحين.
 ٨. حرمة الاحتفال بمواليد أولياء الله و وفياتهم.
- و لهم نشاطات تبشيريّه، و منشورات و دوريات مختلفه.

إشارة

الشيعة: من أحبّ علياً و أولاده عليهم السلام باعتبارهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين فرض الله سبحانه مودّتهم قال عزّ وجلّ: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» ١ و ينضوى تحت لواء الشيعة (بهذا المعنى) كلّ المسلمين إلّا النواصب، بشهادته أنّهم يصلّون على نبيّهم و آله في صلواتهم و أدعيتهم و يتلون الآيات النازلة في حقّهم صباحاً و مساءً، و هذا هو الإمام الشافعي يصفهم بقوله: يا أهل بيت رسول الله حبّكم

و لكن المراد من الشيعة في المقام من يشايح علياً و أولاده باعتبار أنّهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و أئمّه الناس بعده، نصبهم النبي لهذا المقام بأمر من الله سبحانه.

و ليس التشيع كسائر المذاهب الإسلامية من إفرازات الصراعات السياسيّه كما هو الحال في المحكّمه و غيرهم، و لا من نتائج الجدل الكلامي و الصراع

الفكرى كما هو الحال فى الأشعريه و المعتزله.

بل الإسلام و التشيع و جهان لعمله واحده، و توأمان ولدا فى يوم واحد، و لو أنّ كُتّيب العقائد درسوا تاريخ التشيع بدقه و موضوعيه لعلّمو أنّه ليس للتشيع تاريخ و لا مبدأ سوى تاريخ الإسلام و مبدئه، و أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو الغارس لبذره التشيع فى صميم الإسلام من أول يوم أمر فيه بالصدع (1) فأصحر بالحقيقه إلى أن لبى دعوه ربّه.

فالتشيع عباره عن استمرار قياده النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاته عن طريق من نصبه إماماً للناس و قائداً للأُمّه حتّى يرشدها إلى النهج الصحيح و الهدف المنشود، فإذا كان التشيع متبلوراً فى استمرار القياده بالوصى فلا نجد له تاريخاً سوى تاريخ الإسلام و النصوص الوارده عن رسوله.

فالشيعه هم المسلمون من المهاجرين و الأنصار و من تبعهم بإحسان، أعنى:

الذين بقوا على ما كانوا عليه فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى أمر القياده و لم يغيروا و لم يتعدّوا ما رسم لهم الرسول إلى غيره.

و الميزه الهامه للشيعه على الإطلاق و للإماميه خصوصاً هى أنّ الإمامه عندهم منصب إلهى يتصدى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بأمر إلهى لتعيين من يتبوءوه.

و قد أخبر النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن إمامه اثنى عشر رجلاً من أهل بيته و ذكر أسماءهم أولهم على بن أبى طالب و آخرهم الإمام المهدي عليهم السلام. و قد ذكر أهل السنّه روايات حول الأئمه الاثنى عشر دون أن يذكروا أسماءهم.

أخرج مسلم عن جابر بن سمره، قال: انطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و معى

ص: ١٦٠

١- ١). «فأصدع بما تُؤمر و أعرض عن المُشركين* إنا كفيناك المستهزئين». (الحجر: ٩٤-٩٥). [١]

أبى فسمعتة يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفه فقال كلمه صمّنيها الناس، فقلت لأبى: ما قال؟ قال: كلهم من قريش». (١)

و لسنا فى هذا المقام بصدد تحرير تاريخ التشيع و دلائل إمامه الأئمة الاثنى عشر، بل الغايه الإلماع إلى أصولهم الكلاميه. و الشيعه الإماميه تتفق مع الفرق الإسلاميه-أعنى: المعتزله و الأشاعره و الماتريديه- فى أكثر المسائل العقائديه، و لكنهم يفترون عن الأشاعره فى مسائل، كما أنّهم يفترون عن المعتزله فى مسائل أخرى.

و نحن نشير إلى بعض الفوارق بين هاتين الطائفتين (الشيعه و المعتزله)، و ما ذلك إلا لأنّ قسماً كبيراً من كُتاب تاريخ العقائد جعلوا الشيعه من فرق المعتزله مع أنّ بين المنهجين الكلاميين مشتركات و مفترقات.

الفوارق بين الشيعه و المعتزله:

١. الشفاعة عند الشيعه و الأشاعره هى غفران الذنوب أو إخراج العصاه من النار بخلاف المعتزله، فإنّ نتيجة الشفاعة هى ترفيع الدرجه.

٢. مرتكب الكبيره عند الإماميه و الأشاعره مؤمن فاسق، و قالت المعتزله: بل هو فى منزله بين المنزلتين.

٣. الجنّه و النار عند الإماميه و الأشاعره مخلوقتان الآن بدلاله الشرع خلافاً للمعتزله فإنّهما غير موجودتين عندهم.

٤. الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضتان واجبتان عند الإماميه

ص: ١٤١

(١-١). صحيح مسلم: ٤/٣-٤.

و الأشاعره شرعاً، و عند المعتزله عقلاً، نعم ذهب بعض الإماميه إلى وجوبهما عقلاً أيضاً.

٥. اتفقت الإماميه و الأشاعره على بطلان الإحباط، خلافاً للمعتزله، حيث قالوا: إن المعصيه تُحبط الثواب المتقدم.

٦. اتفقت الإماميه و الأشاعره على أن قبول التوبه بفضل من الله و لا يجب عقلاً إسقاط التوبه للعقاب بخلاف المعتزله فإن التوبه مسقطه للعقاب على وجه الوجوب.

٧. اتفقت الإماميه على أن الأنبياء أفضل من الملائكه، و أجمعت المعتزله على خلاف ذلك.

٨. اتفقت الإماميه على أن الإنسان غير مُسَيَّر و لا مفوض إليه بل هو بين الجبر و التفويض، و أجمعت المعتزله على التفويض.

٩. اتفقت الإماميه و الأشاعره على أنه لا بدّ في بيان بعض التكاليف من دلالة الرسول، و خالفت المعتزله و زعموا أن العقول تغنى بمجردّها عن السمع.

١٠. غالت المعتزله في تمسكهم بالعقل و غالى أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص، و أعطت الإماميه للعقل سهماً في ما له فيه مجال.

هذه هي الفوارق بين الشيعة الإماميه و المعتزله و قد تبين أن الشيعة ليست فرعاً من المعتزله و إن كانت الفرقتان تستمدان التوحيد و العدل من كلام الإمام على بن أبي طالب.

فإذا تبينت الفوارق بين الطائفتين فلنذكر بعض الفوارق بين الإماميه و الأشاعره.

الفوارق بين الإماميه و الأشاعره:

إن الشيعة الإماميه تخالف الأشاعره في أصول نذكر المهم منها:

١. صفاته سبحانه متّحده مع ذاته، فليس هناك ذات و علم، بل الذات علم كلّ، خلافاً للأشاعره، فإن الصفات زائده على الذات.

٢. أفعال العباد عند الإماميه صادرة عن نفس العباد صدوراً حقيقياً بلا مجاز أو توسّع.

فالإنسان هو الضارب و القاتل و المصلّي و القارئ، و لم يثبت في لغة العرب استعمال كلمه الخلق في الأفعال فلا يقال: خلقت الأكل و الضرب و الصوم و الصلاة، و إنّما يقال فعلتها، فالإنسان هو الفاعل لأفعاله بقدره مفاضه من الله سبحانه، و أنّ قدرته المكتسبه هي المؤثره بإذن من الله خلافاً للأشاعره، إذ ليس لإرادته العبد و لا قدرته دور في إيجاد الأفعال.

٣. رؤيه الله بالأبصار مستحيله مطلقاً سواء أ كان في الدنيا أم في الآخرة، خلافاً للأشاعره حيث يجوزون رؤيه الله في الآخرة.

٤. التحسين و التقييح عقليان عند الشيعة كما مرّ بيانه دون الأشاعره، فإنهما عندهم شرعيان.

هذه هي الأصول التي تخالف الإماميه فيها الأشاعره و ربما توافقهم المعتزله في بعض الأصول.

الفوارق الرئيسييه بين الشيعة و سائر الفرق:

هناك فوارق رئيسيه بين الشيعة و سائر الفرق و أكثرها تعدد من خصائص

١. وجوب نصب الإمام على الله سبحانه.

٢. عصمه الإمام المنصوب من الله.

٣. الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر المولود عام (٢٥٥هـ) و هو حيّ يرزق.

٤. القول بالبداء، و هو تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة، و البداء بهذا المعنى عند التحقيق من العقائد المشتركة.

٥. الرجعه و هي عباره عن عوده جماعه قليله إلى الحياه الدنيويه قبل يوم القيامه ثم موتهم و حشرهم مجدداً يوم القيامه. و يشهد على إمكانها إحياء جماعه من بنى إسرائيل (١) و إحياء قتلهم. (٢)

هذه هي الخطوط العريضة للعقائد الكلامية عند الشيعة الإمامية، و بذلك تم بيان المدارس الكلامية الرائجة بين المسلمين، و بقى هناك مدارس كلامية أخرى لا حاجة لذكرها إماماً لضئالتها أو لانقراضها.

ص: ١٦٤

١-١. البقره: ٥٥.

٢-٢. البقره: ٧٢-٧٣.

لقد شاع على ألسن بعض الجامعيين الجدد عنوان «علم الكلام الجديد» وهم يلهجون به بفم ملؤه الإعجاب و الاعتبار، و يبدو لأوّل وهله أنّ هناك علمين مختلفين أحدهما «الكلام القديم» و الآخر «الكلام الجديد» و لكلّ تعريف و موضوع و مسائل و غايه.

و لكن الحقيقه غير ذلك، إذ ليس ثمه علمان مختلفان، من حيث الموضوع و الغايه، بل هو علم واحد يتكامل عبّر الزمان حسب تكامل الحضاره و تفتّيح العقول، و ليس ذلك أمراً شاذاً في علم الكلام، بل هو جارٍ في سائر العلوم أيضاً، فعلم النحو مثلاً لم يكن يوم ظهوره إلاّ عدّه مسائل ألقاها على عليه السلام على تلميذه أبي الأسود الدؤلى و أمره بأن ينحو نحوها، ثم أُضيف إليه في كلّ عصر مسائل حتّى تكامل و صار علماً متكامل الأَطراف.

و كذلك شأن علم الكلام، فلم يكن يوم ظهوره إلا عدّه مسائل محدوده كالتوحيد و العدل و القضاء و القدر و ما يشبهها، و لكنّه أخذ بالتكامل و التطوّر بسبب الاحتكاكات الثقافيه و فى ظلّ سائر العوامل المؤثره فى تكامله.

و على ذلك يكون التعبير الصحيح: المسائل الجديده فى علم الكلام لا علم الكلام الجديده.

و أظنّ -و ظنّ الألمعى صواب- أنّ الغايه من وصف بعض المسائل بالكلام الجديده، هو تهميش الكلام الإسلامى الذى تكامل عبر الزمان بيد عمالقه الفن و أساتذته بزعم أنّ المدوّنات الكلاميه لا تلبى حاجات العصر و لا تشبع رغبه الطالبين.

و لكنّه -يشهد الله- بخس لحق هذا العلم، فإنّ الكلام الإسلامى قادر على تلبية حاجات المتكلمين فيما يتبنونه فى هذه الأيام باسم فلسفه الدين و ما يرجع إلى المعرفه الدينيه.

إنّ الفقه الأكبر (علم الكلام) كالفقه الأصغر يستطيع أن يحلّ المشاكل و يجيب عن عامه الأسئلة فى حقل الدين، و قد قمنا بطرح هذه الأسئلة و تحريرها ضمن مقالات متنوّعه نشرناها فى مجلّتنا الفصلية عبر سنين، و قد طبع ما يرجع إلى هذا الموضوع فى جزءين مستقلين و انتشر باللغه الفارسيه باسم «مدخل مسائل جديده در علم كلام».

و لأجل إيقاف القارئ على

نماذج من هذه المسائل التى عرقلت خطى بعض

اشاره

المفكرين،

نذكر عناوينها مقرونه ببيان موجز:

ص: ١٤٤

١. ما هو السبب لنشأه الدين؟

لقد حاول بعض المفكرين تفسير نشأه الدين و تعليل ظهور الاعتقاد بالله سبحانه بين البشر، بوجوه وهميه صنعتها يد الخيال فهم- مكان أن يفسيروه بالفطره و أنّ الدين نداء يسمعه الإنسان من ضميره و باطن عقله- حاولوا أن يفسيروه بعوامل ماديّه ألجأت البشر- حسب زعمهم- إلى اعتناقه.

فتاره يفسيرونها بالخوف من الحوادث الطبيعیه المزعبه، قال ويل دورانت: «الخوف- كما قال لوكريشس- أول أمهات الآلهه و خصوصاً الخوف من الموت». فهذا العامل و ما يشبهه جعل البشر يلوذ إلى قوه عليا اخترعها ليسكن إلى حمايتها و يرتاح في كنفها.

و أخرى يفسيرونها بالجهل بالعلل الطبيعیه، و حاصلها أنّ الإنسان البدائي عند ما واجه الحوادث الطبيعیه كالزلازل و السيول و الكسوف و الخسوف التي تحيط به، و لم يعرف عللها الطبيعیه الواقعيه، لجأ- لجهله- إلى اختراع فاعل لها و اعتبره العله الوحيدَه لكل شيء مباشره.

فكان الاعتقاد بوجود الله وليد الجهل بأسباب الحوادث الكونيه الطبيعیه.

و ثالثه يفسيرونها بالعامل الاقتصادي ببيان أنّ أصحاب الرق و الإقطاعيين و الرأسماليين في عهود (الرق و الإقطاع و الرأسماليه) كلما خشوا ثوره العبيد و الفلاحين و العمال في وجه المستغلين لهم بسبب ما يلاقونه من الضغوط، عمدوا إلى التوسل بالمفاهيم الدينيه و الروحيه و ترويجها بين المحرومين و الكادحين الناقمين بهدف تخديرهم و التخفيف من غضبهم و صرفهم عن الانتفاضه و الثوره.

و رابعه بأنّ التدين نزع طفوليه، وقد تبناها «فرويد» وقال: إنّ الحاله الطفوليه لدى الإنسان و التي تتطلب له أبا رءوفاً يأوى إليه في الأهوال، هي التي جرّته إلى أن يخترع فكره الإله ليقيمه مقام الأب الحامى له في فتره الطفوله حتى تحصل له الطمأنينه و يتوفّر له الاستقرار النفسى.

إلى غير ذلك من النظريات الساقطه التي لم تكن إلا دعاوى فارغه من الدليل، ظهرت لغايات سياسيه.

و نحن لا نذكر ما فى هذه النظريات من إشكالات تجعلها عقيمه (١)، و إنّما نلفت نظر القارئ إلى نكته مهمه، و هي أنّ أصحاب هذه النظريات كأنّهم اتّفقوا على تغافل أنّ هناك لنشوء الاعتقاد بالله فى حياه الإنسان عللاً طبيعيه روحيه كالفطره، أو منطقيه و عقليه كدلاله العقل الإنسانى على وجود قوه عليا عند ما يواجه هذا النظام البديع.

هذه العلل تكشف أنّ للاعتقاد جذوراً واقعيه فى العقل و النفس و هي التي دعت الإنسان فى عامه القرون إلى الاعتقاد بالعوالم الغيبيه غير عامل الخوف من الحوادث الطبيعيه المرعبه أو الجهل بالعوامل الظاهره أو نظريه الاستغلال أو الحاله الطفوليه أو غير ذلك من الفروض التي حاكها الخيال و أبطلها المنطق و التاريخ و التجربه.

٢. ما هي الحاجه إلى التدين؟

هذه هي المسأله الثانيه المطروحه باسم الكلام الجديد، و أكثر من يثيرها الماركسيون قبل انهيار الاتحاد السوفياتى، و بما أنّ القوم لم يدرسوا حاجه

ص: ١٤٨

البشر إلى التدين عادوا يرونه أمراً زائداً في حياه المجتمع الإنساني اليوم بعد أن كان مفيداً في غابر الزمان.

و لكنهم جهلوا ما للدين من آثار ببناءه لا يستغنى عنها الإنسان في أيه فتره من فترات حياته، و نشير إلى بعضها و نحيل التفصيل إلى محله:

أ.التدين إجابته عمليه لسؤال مطروح للإنسان من أقدم العصور حتى اليوم حيث كان يسأل نفسه في أنه:

من أين أتى؟

لما ذا أتى؟

و إلى أين يذهب؟

و لم تزل هذه الأسئلة تطالبه بالجواب بإلحاح شديد...إنه لا يمكنه أن يمرّ على هذه الأسئلة دون اكتراث، و هو يرى لكلّ ظاهره حياتيه سبباً، فكيف بهذا الكون العظيم و هذا الفضاء الواسع العريض و ما يتّسمان به من جلال و إبداع؟ و الدين يجيب على هذه الأسئلة بوضوح و إتقان.

ب.إنّ الدين يطرد القلق المحيط بالإنسان عند ما يحتمل أن يكون هناك قوه عليا و لها عليه سلطه و تكاليف ربما يحاسب لأجلها، و يشتد هذا القلق عند ما يراجع التاريخ البشرى و يواجه مجموعه كبيره ممّن يطلق عليهم «الأنبياء» قد أخبروا بوجود إله خالق لهذا الكون، و أنّهم رسل الله إلى البشرية جاءوا ليخبروهم بأنّ ثمة واجبات و تكاليف، و أنّ هناك حياه أخرى و حشراً و نشرأ و حساباً و عقاباً، و جنّه و ناراً، و أنّ الناس جميعهم مسئولون محاسبون شاءوا أم أبوا.

ص: ١٦٩

إن هذا النوع من القلق هو الباعث على دراسته العقيدة و البحث عن الله و ما يتبع ذلك من العقائد و التكاليف و لا يرتاح إلا بالنزول على عتبة الدين.

ج.التدين مورث للطمأنينه:يواجه الإنسان في حياته أموراً عديدة تنغص عليه عيشه و تسبب له أزمة روحية منها:

١.هاجس الفناء.

٢.المصائب و النكبات.

٣.المطامح المادية غير المحققة.

إن العقيدة الدينية قادره على مواجهه عوامل الاضطراب هذه و على تحقيق السكينه للإنسان و التخفيف من أزماته الروحية،و ذلك من خلال الإيمان ب:

أولاً:أن الموت في العقيدة الدينية ليس فناء،بل هو انتقال من عالم ضيق إلى عالم فسيح و من حياه زائله إلى حياه أبدية،و عندئذ يتغير طعم الموت عند الإلهي عمّا هو عند المادى.

و ثانياً:أن المصائب و الآلام و إن كانت بظاھرھا مره،و لكنھا لا تخلو من مصلحه و حكمه،ما دام خالق الكون عالماً حكيماً،فإذا وقف الإنسان على أنّها من فعل الخالق الحكيم لم يحزن لما دهاه منها،بل يزداد صلابه و استقامه.

و ثالثاً:أن العقيدة بما أنّها تُقدّم للإنسان تعاليم أخلاقية،تحد من سوره الحرص و فوره الطمع الذى يسبب الاضطراب نتيجة العجز عن تحقيق الطموحات المادية العريضة.

د.الاعتقاد بالله دعامة الأخلاق:الإنسان كتله هائله من الغرائز التى لا

ص:١٧٠

تعرف الحدود، و مجموعه من الشهوات و المطامع و الطموحات التي لا تعرف نهايه، فإذا ترك و شأنه لينال ما تدفعه إليه شهواته و غرائزه جرّ على نفسه و على مجتمعه الفساد و الفناء، لتضارب المصالح و المطامع و الطموحات، و من هنا طرح المصلحون و الاجتماعيون مسأله الأخلاق التي تهتمّ بتعديل هذه الغرائز.

و لكن الالتزام بالأخلاق لَمَا كان يلازم التنازل عن بعض الطموحات لم تستطع التوصيات الأخلاقية و حدها من السيطرة على الغرائز، فلا بدّ هنا من شيء يعزّز مكانه الأخلاق و هو أن يشعر الإنسان بأنّ هناك قوه عليا ناظره لأعماله تثيب من التزم طريق العدالة و حفظ الحدود و الحقوق، و تعاقب من خالف ذلك، و هذا لا يحصل إلاّ عن اعتقاد ديني.

ه. الاعتقاد بالله ضمانه لتنفيذ القوانين: قد أثبت التاريخ و تجربه أنّ وجود القانون و حده ليس كافياً في توفير الأمن للمجتمع و إن كان مُدعماً بقوه جهاز الشرطه في الردع و فرض الغرامه و الحكم بالسجن، بل لا بدّ مع ذلك من رقيب (مشرف) داخلي يعمل حتّى في حاله غفله أجهزه الدوله و الشرطه، و ليس هو إلاّ الإيمان بالله و اليوم الآخر و مخافه الحساب و العقاب و خشيه المؤاخذه و المكافاه إلى غير ذلك من آثار بناءه للعقيده الدينيه.

٣. نطاق شمول الدين

و هذه هي المسأله الثالثه و هي تحديد دور الدين و هل هو رابطه روحيه بين الخالق و المخلوق و يتلخص في تصفيه الروح باتصاله بمبدأ الكمال، أو أن نطاقه يعمّ ذلك و غيره؟ فهو نظام شامل لحياه الإنسان في حقول مختلفه من غير فرق بين حقل السياسه و الأخلاق و الاقتصاد و الاجتماع، فللدين بيان و بلاغ في

كل واحد من هذه الحقول.

وهذا لا- يعنى أنّ الدين يغنى عن التفكير فى هذه المجالات و يجعل الإنسان مقلّداً فارغاً عن التخطيط، بل بمعنى أنّ الأصول الكليه التى عليها مدار السعاده فى الدنيا و الآخره يبينها الدين و يترك التخطيط للإنسان على ضوء هذه الأصول المسلّمه.

نعم من يلخص الدين فى مجرد الصله بين الخالق و المخلوق و يدعو الإنسان إلى الدعاء و المناجاه فى الكنائس و المعابد و يترك باقى الأمور لهوى الإنسان، فمثل هذا الدين نطاقه ضيق غير شمولي و هذا كالمسيحيه الموجوده فى العصر الراهن، فإنّ الكنائس لخصت و اجب الإنسان الدينى فى الدعاء و الابتهاال إلى الله فى ساعه واحده من يوم واحد من الأسبوع.

و لعلّ ما يذكره القائل من تضيق نطاق الدين يجعل هذا النوع من الدين مقياساً لقضائه، أمّا لو عطف نظره إلى ما ورد فى تلمود الكليم من الواجبات و المحرّمات و ما فى الشريعه المحمّديه من آلاف الأحكام فى حقول مختلفه لرجع القهقري من هذا النوع من التفكير.

٤. هل النبوه موهبه إلهيه أو نبوغ اجتماعي؟

إنّ النبوه عند الإلهيين موهبه إلهيه يهبها سبحانه إلى صالحى عباده و أفضلهم، و يجهّزهم بالآيات و البيّنات ليقوموا الناس بالقسط و العدل و يهدوهم إلى الصراط السويّ على أصعده مختلفه.

نعم هناك من لم يؤمن بالنبوه يفسرها بالنبوغ الاجتماعى، و أنّ الأنبياء دعاه و مفكّرون لهم من النجده و الفكر ما يميّزهم عن غيرهم، و لأجل إقناع

ص: ١٧٢

الناس و إلفات نظرهم إلى خطابهم نسبوها إلى السماء و ما وراء الطبيعه و إلى الله ليكون أوقع فى النفوس.

و هذا النوع من التفسير للنبوه رمى للأنبياء بالكذب، و أى افتراء أكبر من أن نصف عمالقه الإصلاح و أتقياء المجتمع بالفريه و الكذب و لو لغايه الإصلاح!!

إنّ الأنبياء قد ضحّوا بأنفسهم و نفائسهم فى طريق إصلاح المجتمع، أ فهل يصحّ وصف هؤلاء بالكذب و الدجل؟ و ما هذا إلاّ لأنّ القوم لم يدرسوا حقيقه النبوه و شروطها و واقع الوحي و حدوده.

٥. خلود الشريعه و بقاؤها

هل الشريعه السماويه تصلح لأنّ تسعد المجتمع الإنسانى عبر القرون و ترتقى به إلى أرفع المستويات؟ أو أنّ تعاليم الأنبياء تعاليم زمنيّه و إصلاحات و قتيه تنتفع بها بعض المجتمعات فى فتره حياه النبى أو بعدها بمده يسيره؟

إنّ السائل خلط بين ما هو ثابت فى الشريعه و ما هو متغير فيها، فإنّ الأصول المبتنيه على الفطره الإنسانيه ثابتة لا تتغير و لا تتبدّل لثبات فطرتها.

نعم هناك مقرّرات فى الشريعه تبدّل و تتغير حسب تغير الظروف و الحضارات، فالسائل لم يفرّق بين القوانين و المقرّرات، فالثابت هو الأوّل و المتغير هو الثانى، و مثال ذلك أنّ فريضه التعليم و التعلّم و الكتابه من الأصول الإسلاميه التى لا تتغير، فالمسلم هنا مطالب بتحصيل العلم، و بذل أقصى الجهود فى هذا المجال، و أمّا ما يتحقّق به هذا الأصل من الأدوات فهى تابعه للظروف و الحضاره كما هو واضح، و قس على ذلك كلّ ما ورد فى الشريعه من

و فى مجال آخر، يُعدّ الدفاع عن كيان الإسلام و حفظ الاستقلال، استناداً إلى قوله سبحانه: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ١ من الأصول الثابتة، و أمّا كيفية الدفاع و نوع السلاح المستخدم و غير ذلك، فهى من الأصول المتغيرة التى تخضع لمقتضيات الزمان.

٦.الوحده أو التعدديه الدينيه

التعدديه الدينيه msilarulP suoigileR من المسائل الكلاميه الحديثه الظهور، و قد جرت مؤخراً على الألسن، و صدرت حولها كتب و مقالات مختلفه فى بيانها أو نقدها، يتكون عنوان (البيئوراليزم الدينى) من كلمتين هما «بيئوراليزم» و«دينى» و المفهوم الثانى واضح نوعاً ما، إلا أنّ المفهوم الأول يحتاج إلى بيان.

تستخدم كلمه larulP اسماً أو صفه، و كذلك تأتى بمعنى «الجمع أو الكثره» و الحقيقه أنّ الكلمه المذكوره تشير إلى «الكثره» و«التعدد» و تكملتها msi تعنى تياراً، من هنا استخدمت فى مجالات مختلفه أعّم من الدين، كالفلسفه، و الأخلاق، و الحقوق و السياسه، فمثلاً «البيئوراليزم السياسى» نوع من التعدديه السياسيه، كما تشير إلى تعدد الأحزاب و التشكيلات، و المقصود من التعدديه الدينيه ما يقابل الوجدانيه و التفرد، أو ما يصطلح عليه الانحصاريه فى الدين فى مقابل الشموليه.

إنّ التعدديه الدينيه لها تفسيران:

١. إنَّ جميع أتباع الأديان (حسب تعبير المنظرين) أو الشرائع (فى ضوء تعبيرنا) قادرون على التعايش على أساس ما لديهم من المشتركات، و أن يتحمّل بعضهم البعض و هو ما يُعرف-لدى السياسيين-بالتعايش السلمى، فالتعدديه الدينيه بهذا المعنى ممّا نادى به الإسلام و قبلها المسلمون شعوباً و حكّاماً حيث يُتاح للجميع التعايش مع بعضهم البعض فى ظل السلام و الاحترام المتبادل.

٢. يكفى فى سعادته الإنسان أن يؤمن بالله و يلتزم بإحدى الشرائع السابقه، و هذا التفسير من التعدديه الدينيه مردود بنصوص الشريعه، و إليك بعضها:

١. إنَّ القول بخلود و استمرار كلّ شريعه يفضى إلى إلغاء فائده تشريع الشرائع المتعدده و إرسال الرسل المحوريين، و سوف لا نجنى من ذلك شيئاً سوى التشويش و بث الفرقه.

٢. إذا قلنا بأنه يكفى فى تحقيق السعاده اتباع أيه شريعه، فلما ذا تحدد مسؤليه كلّ نبي بمجيء النبي الآخر بل و التبشير به؟

٣. إذا كانت كل الشرائع خالده فلا موجب لنسخ الأحكام، و لو بشكل إجمالى، و لما قال المسيح: «وَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ». (١)

٤. إذا كانت شريعه عيسى صالحه و معترفاً بها رسمياً حين نزول الشريعه اللاحقه، فلا وجه لدعوه اليهود و النصارى لاتباع دين محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، مع أنّ القرآن يصرّح بضلال أهل الكتاب ما لم يؤمنوا بالدين الجديد: «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا». ٢

ص: ١٧٥

٥. عند ما نراجع نصوص الكتاب المقدس و القرآن الكريم و أقوال و رسائل النبي صلى الله عليه و آله و سلم نجد أنّ هذه النظرية من الهشاشه إلى درجه لا- يصدقها إلاّ من يقضى و يبرم جزافاً، ثمّ يبحث عن الدليل و يتشبّث من أجل نجاته بكلّ غث فيؤمن بهذه النظرية.

٦. تتوقّف حياه الإنسان في الآخرة على عقيدته صحيحه و عمل صالح، و تحقّقهما موجب للثواب. و هنا نسأل: كيف يمكن للتضاد في العقيدة أو العمل بأمرين متضادين، أن يضمّن الحياه المعنويه للإنسان؟ و كيف يُسعد الإنسان في الدارين بتبني التوحيد على جميع الأصعدة و في الوقت نفسه يسعد بالإيمان بالتثليث و بتثليث الرب، أو يُشيد بتجنّب الخمر و الربا و كذلك مع الإدمان و أكل الربا؟

٧. لو أعرضنا عن هذا، فإنّ واقعيه السعاده التي ستوقّرها هذه الأديان ستكون مشروطه بعدم تحريفها، فهل هذا الشرط صادق في الأديان السابقه؟ فالإنجيل المتداول ليس هو كتاب الله المنزل على المسيح، بل هو من تحرير تلامذته بشهادته أنّ حياه المسيح قد سجّلت في آخر الأناجيل الأربعة ضبط حياته عليه السلام بشكل خاص، و ذكر صلبه و دفنه و عروجه إلى السماء.

فهل يمكن للإنجيل الذي خطّته يد البشر أن يُسعد جميع الناس على وجه الأرض؟ و التوراه أيضاً- مثل الإنجيل- حامت حولها الشكوك، فالتوراه الحاليه قُرئت و كتبت على يد أحد حفاظ التوراه في زمان نبوخذنصير (١) بعد اختفاء النسخه الأصليه، و هذه النسخه تعرضت بعد مرور سبعين سنه للتحريف، و اشتملت على أحكام و نصوص تخالف العقل، و قد انتقدتها القرآن باعتبارها

ص: ١٧٦

(١- ١). أي «بخت النصر» ملك بابل، و في الكتاب المقدس «نبوكدنصر».

عاجزه عن توفير السعاده و الهدايه.

٨.و لو أعرضنا عن كلّ ما تقدم نقول: «إنّ الأديان التاريخيه الكبيره هي بمنزله مجموعه تتشكل من منظومه عقيديه واحده» إلا أنّنا متى شخصنا الأكمل من بينها فعلينا-بحكم العقل-تباعها، وهذه الحقيقه صرّح بها بعض أنصار البيلوراليزم. يقول «وليم نلسون»: أنا لا اعتقد أنّ جميع الأديان التي امتدت على طول التاريخ حتى اليوم، متساويه من منظار علمي.

٧. تعارض الدين و العلم

لهذه المسأله (السابعه) جذور في القرون المتقدّمه، فحينما ترجمت الكتب اليونانيه و الهنديه و الفارسيه إلى اللغه العربيه و انتشرت الفلسفه بين المسلمين، رأى غير واحد من المفكرين أنّ هناك تعارضاً بين السمع و بين ما في هذه الكتب، فعادوا يعبرون عن هذه الفكره بتعارض الدين و الفلسفه أو تعارض العقل و النقل.

و عند ما ارتجّ العالم بظهور الحضاره الصناعيه و أخذ العلم زمام الحياه، و انتشرت نتائج التجارب في الأوساط و ربما كان بعضها مخالفاً لما في الكتاب المقدّس أخذت هذه المسأله لنفسها عنواناً آخر، و هو تعارض العلم و الدين.

و حصيله الكلام في نقد التعارض: أنّ المراد من الدين هو حصيله الوحي الإلهي لا أخبار الآحاد المنتشره بين الكتب و الأفواه، و الوحي إدراك قطعي لا يقبل الخطأ، فعند التعارض لا بدّ من انتخاب أحد الأمرين:

ما تلقّيناه ديناً و ما فهمناه من الكتاب العزيز ليس بدين و إنّما هو انتزاع ذهني و فهم خاطئ منّا.

أو ما أثبتته تجربته ليس من الحقائق المسلّمه، بل فرضيه سوف تتبدل إلى فرضيه أخرى.

و عند ما ظهرت نظريه «دارون» في أصول الإنسان، حسب المادّيون أنّهم قد توسّلوا بسلاح حادّ لضرب المتدينين القائلين بخلق الإنسان من الطين، و لكن لم يلبث أن قامت الأدله القاهره على بطلان هذه النظرية و قامت مقامها نظريه أخرى، و هكذا تابعت النظريات إلى يومنا هذا.

٨. صلّه الدين بالأخلاق

إنّ الأخلاق جزء من الدين و ليست شيئاً خارجاً عنه، و قد مرّ أنّ الاعتقاد بالله دعامه الأخلاق، بحيث لو انهارت هذه الدعامة لم يبق هناك ما يدعم القيم الأخلاقية، و لأجل إيضاح المقام نقول: إنّ الفضائل و السجايا الكريمة جزء من فطره كلّ إنسان، و إنّ الميل إلى الخير و كراهه الشر أمران مغروسان في جبلّه البشر فهم يحبّون الخير و أهله و يكرهون الشر و أهله، و لكن هذه البذور و الخمائر لا تستطيع مقاومه الغرائز و مزاحمه الشهوات إلّا إذا قويت و نمت، و هي لا تنمو إلّا في ظلّ الدين الذي ينطوي على الاعتقاد بالله و اليوم الآخر و ما وعد فيه من مثوبات عظيمة على الخيرات، أو عقوبات شديده على ارتكاب الشرور و الآثام، و بهذا تكون العقيدة خير و سيله لتنمية السجايا النبيله في الكيان الإنساني و خير سبيل إلى تقويتها و دعمها.

و قد سبق منّا: أنّ الدين دعامة الأخلاق و لنعم ما قاله الشاعر: و إنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُم ذهبّت أخلاقهم ذهبوا

فإذا كانت هذه مكانه الأخلاق، فما هي مكانه الدين الذي هو دعامتها؟

٩. حرّية الإنسان في سلوكه الفردي والاجتماعي

إنّ الفيلسوف الطائر الصيت «سارتر» و من نحا نحوه أعطوا للحرية مكانه مرموقه، و كأنّ الإنسان خلق للحرية و في خدمتها، و هم - لأجل ذلك - يرفضون الدين لأنّه يحدد حرية الإنسان و يزاحمها، و ينكرون كلّ أمر فطري أطبق عليه العقلاء في كلّ قرن كحسن العدل و قبح الظلم، بحجه أنّ الاعتراف بوجود هذا الميل الفطري، يحدد حرية الإنسان و يضع لها إطاراً خاصاً، فصارت الحرية عند هؤلاء، إلهاً يعبد مكان إله العالم.

و قد أخذ الإسلام من الحرّية، الجانب الأوسط، فأرى كرامه الإنسان في الحفاظ على حرّيته، و لكن لا - على نحو تكون ذريعه للانحلال الأخلاقي فتصبح وبالاً - عليه، و تجعل الإنسان عبداً خاضعاً، للميول و الغرائز تحت غطاء، صيانه الحرية. فالحرية بهذا المعنى، تذليل للإنسان و هدم لكرامته و نوع من العبودية للشهوات و الغرائز الجامحة كما حدّد حرّيته بعدم الإضرار بمصالح الآخرين، و إن أردت التفصيل فنقول:

يتميّز الإنسان عن سائر الموجودات بالتفكير العقلاني، و الحرّية في السلوك، و كأنّ هذين العنصرين: التفكير و الحرية، جوهر الحياه الإنسانيه.

أمّا التفكير فقد دعا إليه الإسلام في العديد من آياته إلى درجه عدّت تنميه القوه العقلية و التفكير في مظاهر الكون من سمات ذوى الألباب، قال سبحانه:

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا. ١

وقد نهى الإسلام عن كل عمل أو سلوك يضاد التفكير العقلاني، فنهى عن الخمر، وكل مسكر يزيل العقل، كما نهى عن التقليد الأعمى، والاتباع غير المدروس للآباء والأجداد.

وأقيا الحرّيه فإنّ الإسلام حدّر الإنسان من استعباد أخيه الإنسان وقهره و إذلاله، كما حدّر من الخضوع للقهر و التسلّط، فليس للإنسان إلّا أن يعيش حرّاً كريماً بعيداً عن أى شكل من أشكال الذلّ و الصغار، قال الإمام على عليه السلام:

«لا تكن عبد غيرك و قد جعلك الله حرّاً». (١)

و قد روى عنهم عليهم السلام: «إنّ الله تبارك و تعالى فوّض إلى المؤمن كلّ شيء إلّا إذلال نفسه». (٢)

نعم الحرّيه موهبه إلهيه منحها الله للإنسان لحفظ كرامته و عزته و شرفه، فلو استخدمها في هدم كرامته و شرفه، فقد خالف السنّه الإلهيه، و لذلك صارت الحرّيات الفرديه الشخصيه في المجالات الاقتصادية أو السياسيه محدّده بعدم منافاتها لتكامله المعنوي، كما هي مقيدده بعدم إضرارها بالمنافع العامه.

فالحرّيه أصل أساسى في حياه الإنسان محدده باستخدامها في طريق رقيّه و تكامله، و عدم إضرارها بمصالح العامه، لكي تكون في خدمه الإنسان و مصالحه، و مصالح المجتمع.

ص: ١٨٠

١- ٢). نهج البلاغه، قسم الرسائل، رقم ٣٨.

٢- ٣). وسائل الشيعه: ١١/٤٢٤، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ١٢، الحديث ٤. [١]

الهرموتيك كلمه يونانيه بمعنى تفسير النصوص، و الغايه من طرح هذه المسأله هو أنّ النصوص الدينيه لا يمكن تفسيرها تفسيراً قطعياً، و أنه يتعدّد رأى نهائى و قطعىّ فى المفاهيم الدينيه المأخوذه من الكتاب و السنّه.

قالوا فى ذلك: «لا يوجد أى رأى نهائى و قطعىّ فى الشئون الدينيه، لأنّ الخطاب الدينى يجد معناه فى نهايه الأمر عبر الارتباط بالله، فلا توجد لدينا فتوىّ قطعيه و لا نظريه عقائديه نهائيه و إنّما نعيش مساراً تفسيرياً دائماً...».

إنّ هذا القائل و إن خصّ النظرية بالنصوص الدينيه، و لكنّ مؤسسى النظرية فى الغرب، أعنى: «شلاير ماخر» (١٧٦٨ - ١٨٤٤م) و «مارتين هايدغر» (١٨٧٩ - ١٩٧٤م) و من تقدّم عليهما أو تأخر عنهما، تبوّها على نطاق وسيع، و قاموا بتعميمها على كلام كلّ متكلم و أثر كلّ مؤلّف، و أنه لا يمكن أن يصل المخاطب إلى المقصود النهائى منهما أبداً.

و قد أفردنا رساله فى نقد هذه النظرية و انتشرت انتشاراً واسعاً، فلا نعود إليها، إلا أنّنا نوّد أن نلفت نظر القارئ إلى أمور:

أولاً: أنّ أصحاب تلك النظرية يتكلمون عن أصحاب الكتب السماويه، و هم لا يعترفون بتلك النظرية بل يكذبونها، فإنّ القرآن الكريم يقسم آياته إلى قسمين: محكم و متشابه، فيرى المحكم أم الكتاب، و أنّ عقده المتشابه تنحلّ بالرجوع إليه، يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ». ١

فالمحكّمات من الآيات ما أحكمت دلالتها، واتّضحت معالمها، وتبيّنت مقاصدها، فهل يصحّ وصف هذه الآيات بعدم وجود أى رأى نهائى فى تفسيرها و تبيينها؟!

إنّ النظرية تعنى أنّ النصوص الدينيه مجموعه رموز و ألغاز يفسره كلّ إنسان، حسب ما أوتى من مواهب و حسب ما لذهنه من طابع مع أنّه تبارك و تعالى يصف كتابه بأنّه أنزل بلسان عربى مبين: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ». ٢

إلى غير ذلك من الآيات الأمره باستماع القرآن و الإنصات إليه لفهم مقاصده الساميه.

و ثانياً: أنّ القول بعدم وجود رأى نهائى و قطعى فى الشئون الدينيه ناجم عن القول بنسبيه الإدراكات التى ورثها الغرب عن «إيمانويل كانت» الذى أعاد السفسطه اليونانيه-التي تهدمت بجهود حكماء كبار كسقراط و أفلاطون و أرسطاطاليس- إلى الساحة العلميه فى الغرب، قائلاً بأنّ ما يدركه الإنسان لا يحكى عن الواقع مائه بالمائه و إنّما يحكى عنه بنسبه خاصه، و ذلك لأنّ القوى المدركه فى الإنسان مقرونه بقوالب لها طابعها الخاص ترد إليها المفاهيم و الصور من الخارج لكن لا- تبقى على سذاجتها، بل تنصبغ بصبغه الدهن و تنطبع بتلك الطوابع، و هذا نظير من نظر إلى غابه خضراء بمنظار أصفر فيراها بلون المنظار مع أنّها على خلافه.

ص: ١٨٢

وقد أثبتنا في محاضراتنا حول نظريه المعرفة، أنّ هذه الفكره تنتهى إلى السفسطه مائه بالمائه، و الفرق بين ما تبناه «كانت» و ما تبناه بعض الإغريقين هو أنّ الفرقه الثانيه كانوا يطرحون أنظارهم ببساطه و سذاجه و يدعون أنّه ليس لنا علم بالخارج، و لكن الغرب و على رأسهم «كانت» يعرض تلك النظرية بثوب علمي يغرى الجاهل.

و إذا كانت مدركات الإنسان تأخذ لنفسها أشكال القوالب الذهنيه، فمن أين نعلم أنّ هناك عالماً وراء ذهننا و مدركاتنا و نحن ندركه و نعرف آثاره؟ لأنّ هذه الفكره (وجود العالم الخارج عن الذهن) لا يمكن أن تعبّر عن الواقع مائه بالمائه لأنّها انصبغت بصبغه الذهن و أخذت شكل القوالب الذهنيه.

٣. أنّ المطلوب في الدين هو الإيمان الجازم و التصديق القاطع، و قد بعث الأنبياء لتلك الغايه الساميه، يقول سبحانه: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَّا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ». (١)

فلو كانت المفاهيم الدينيه مفاهيم غير قطعيه و إدراكات متزلزله تتبدّل كل يوم إلى معنى يغير الأول، فلا تحصل الغايه الساميه من إنزال الكتب و بعث الرسل، لأنهم بعثوا لإيجاد الإيمان القاطع بالله سبحانه و كتبه و رسله.

نعم إن هذه المسائل و أشباهها التي اشتهرت باسم الكلام الجديد، و ذكرنا في المقام نماذج منها، كانت تتبلور في الغرب و تهز أركان الكنائس و تُضعف قدرتهم، و قد قوبلت في الغرب بقيام رجال مخلصين، تصدّوا لهذه الشبهه و نقدوها أفضل النقد، و قد ألقوا في ذلك مئات الكتب، و لا يزال ينتشر في كلّ شهر أو

ص: ١٨٣

أسبوع حول المواضيع المذكوره كتاب أو رساله،و قد وصلت موجه هذه الشبه إلى الشرق عبر مَنْ تخرج من المعاهد الغربيه دون أن تترسخ في أذهانهم المبادئ الدينيه و العلميه،فتأثروا بذلك و حسبوها حقائق راهنه، و أخذوا ينشرونها في الجامعات زاعمين أنّها منهاج فلسفي ثمين،غفل عنه الإسلاميون و انتبه له الغربيون.

مخطط الغربيين لضرب الثقافه الإسلاميه

اشاره

بدأ الغربيون يسيطرون على البلاد الإسلاميه بفضل تفوّقهم الصناعى، يقودهم جند الاستشراق الذين يعرفون ما يملك المسلمون من طاقات ماديه و معنويه.

و لذلك فقد عملوا على صعيدين:

١. تصدير الصناعه بشكل ناقص بحيث يكون الشرق محتاجاً إلى الغرب فى كلّ حين و زمان،و بالتالى تكون لهم السياده و للآخرين الفقر و الحاجه.

٢. إرسال البعثات التبشيريّه إلى البلاد الإسلاميه النائيه،و البعيده عن العواصم الإسلاميه،كدول إفريقيا و دول شرق آسيا الذين أسلموا طوعاً و رغبه دون أن يكون عندهم علماء أقوياء فى مواجهه التبشير.و قد نجحوا بعض النجاح فى ذلك المجال،حتّى رفع البابا عقيرته قبل سنين بأنّ إفريقيا على رأس القرن الحادى و العشرين قاره مسيحيه خالصه و ليس للإسلام هناك أى شأن و قدره،و لكنّها كانت مجرّد أمنيّه لم يكتب لها النجاح.

و قد أحسّ الاستعمار أنّ السيطره على البلاد الإسلاميه الّتى ضرب الإسلام فيها بجرانه،ليس أمراً سهلاً،فدخلوا من باب آخر و هو بث الشكوك و الشبهات

عن طريق المسائل الفلسفيه و الكلاميه فى المدارس و الجامعات حتى يخرج الإيمان من قلوبهم فيصبحوا شكّاكين حيارى، غير باذلين أى اهتمام فى الدفاع عن الدين، فعند ذلك يسهل استعمارهم، و ذوب ثقافتهم فى ثقافه المستعمرين.

و لتنفيذ هذا المخطط فتحو فروعاً لجامعاتهم فى العواصم الإسلاميه، و ربّما نفذوا هذا المخطط أيضاً عن طريق بعث رجال العلم إلى الجامعات الإسلاميه- و هم يحملون شهادات علميه- لغايه إيجاد الشك و التزلزل فى قلوب الطلاب و الطالبات.

و على ضوء ذلك نرى أنّ الفلسفه الغربيه و الكلام المسيحي أخذ ينتشر و ينتعش فى البلاد الإسلاميه و خاصه فى الجمهوريه الإسلاميه الإيرانيه، و الغايه من نشر هذه الأفكار هى إزالة الإيمان عن قلوبهم الذى أصبح سداً منيعاً أمام أطماع المستعمرين، و هاهنا نشير إلى بعض المسائل الكلاميه الّتى طرحت لغرض إيجاد البلبه الفكرية و تشويش أذهان الجامعيين و سوقهم إلى الشك و الإلحاد.

١. فصل السياسه عن الدين

إنّ فصل السياسه عن الدين من أهمّ خطتهم حتى يحصروا علماء الدين فى زوايا المساجد لكى لا يكون لهم شأن سوى الدعاء و الأوراد، و عند ذلك يسهل لهم السيطرة على العباد و البلاد.

فلو أُريد من الدين، الدين الرائج فى البلاد المسيحيه حيث إنّ أصحاب الكنائس ليس لهم شأن إلاّ الدعاء و قراءه الأوراد فى يوم واحد من أيام الأسبوع و ترك الناس على أحوالهم دون تدخل فى شأن من شئون حياتهم، فالحق عدم

و لو أُريد منه، خاتمه الشرائع -أعنى: شريعه الإسلام- فكتابها و سنتها يصوّران السياسة و الدين لحمة و سدى للشريعة، ففصل أحدهما عن الآخر محو لها، فكيف يمكن فصلها عن الدين إذا فسّرت السياسة بتدبير أمور الأمة في معاشهم و معادهم، و قد طُفح الكتاب و السنّه بأصول تتكفّل تدبير حياه المسلمين. يقول سبحانه: «الَّذِينَ إِِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ». ١

فالصلاه صله العبد باللّه سبحانه، و الزكاه صله الإنسان بالمجتمع، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هو تدبير حياه الأمة بدفعها إلى المعروف و نهياها عن المنكر بأساليب مختلفه تقتضيها مصالح العصر.

٢. تعدّد القراءات

إنّ مسأله تعدّد القراءات للدين من أخطر المصائد التي نصبها المستعمرون في سبيل مسخ الهويه الإسلاميه، لأنّ مغزاه أنّ كلّ ما ورد في الكتاب و السنّه ليس له معنى واحد و قراءه واحده، بل يمكن تفسيرها بطرق مختلفه، و لكلّ إنسان قراءته الخاصه في الدين، فربّما تكون نتيجه قراءه فردٍ فصل السياسة عن الدين و الآخر ضمها إليه، و هكذا دواليك.

فإذا قام الخطيب بتفسير آيه أو روايه في جانب من الجوانب الدينيه و الذي لا يناسب أذواق المستعمرين و أذناهم قاموا بوجهه قائلين بأنّ ما فهمته من الدين قراءه تختص بك و للآخرين من العلماء قراءه أخرى، فلا يكون فهمك حجّه على

الكل. و عند ذلك يصبح الإسلام بكتابه و سنته و كلمات علمائه مفاهيم غير واضحة، بل ألعوبه بيد المنحرفين.

٣. حصر الشريعة بفتريه خاصه

الشريعة الإسلاميه بفضل نصوصها شريعته خاتمه للشرائع، و كتابها خاتم الكتب، و نبيها خاتم النبيين، و قد جاء بسنن و قوانين تستطيع أن تلبي حاجات الإنسان فرديه و اجتماعيه ما دام هو يعيش في هذا الكوكب، و لما كان القول بالخاتمية و دوام الشريعة سداً منيعاً أمام أطماع المستعمرين حاولوا أن يحدّدوا شريعته بأجيال ماضيه قد قضى عليها التاريخ، فعلى الإنسان أن يمهد طريقه في الحياه بأفكاره و آرائه، أو بما يمليه العلم في مختلف الجوانب دون أيه حاجه إلى الوحي و الشريعة.

هذه هي الأصول المخططة لتضعيف الإيمان و سوق المجتمع إلى اللادينية و الانحراف عن التمسك بالشريعة، فعندئذٍ تسهل السيطرة على منافع البلاد و أرباحها و نفوسها و مصيرها و مستقبلها، فعلى علماء الإسلام و محققهم رصد هذه المناهج الضالّة و الدفاع عن حياض الإسلام بتحليل هذه المناهج بالمشراط العلمى حتّى لا يذوب الإيمان في قلوب الناشئه و تصبح سداً منيعاً أمام هذه التيارات الضالّة.

و هذه دراسته إجماليه تدفع المفكر الإسلامى إلى بذل التوجّه و الاهتمام بالفقه الأكبر و أنّه ينال الدرجه الأولى من الحاجات العلميه.

الكلام الإمامي في مراحلہ التي مرّ بها، كان يسير على ضوء الكتاب، و السنّہ الصحيحه المأخوذه عن أئمّہ أهل البيت عليهم السلام، و العقل الحصيف، و لم يكن فيما يبرم و ينقض، أو يعتقد و يرفض عيالاً- على منهج من المناهج الكلاميه خصوصاً الاعتزال، من غير فرق بين أهل الحديث و الأثر منهم، كالشيخ الصدوق (المتوفى ٥٣٨١هـ)، و من تقدّم عليه كأستاذہ ابن الوليد (المتوفى ٥٣٤٣هـ) و أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري (المتوفى حدود ٥٢٨٠هـ) و سعد بن عبد الله القمي (المتوفى ٥٣٠١هـ)، و أهل البرهنه و الاستدلال كعيسى بن روضه حاجب المنصور، و علي بن إسماعيل بن ميثم التمار البغدادي، و أبي جعفر مؤمن الطاق، و هشام بن الحكم، و هشام بن سالم، و من يليهم إلى عصر المفيد و المرتضى و الشيخ الطوسي، و الجميع على اختلاف مشاربهم درسوا العقيدہ الإسلاميه على ضوء ما ذكرنا، خصوصاً خطب الإمام علي عليه السلام و كلماته، فلو قالوا بالتوحيد، و العدل، و التنزيه، و نفى الرؤيه، و القدره، و الاستطاعه فإنّ جميع هذه المفاهيم مستقاه من

عين صافيه، و هي أحاديث أئمة أهل البيت في مقدّمهم، خطب الإمام على عليه السلام.

فلو اتفقوا مع المعتزله في قسم من الأصول المذكوره، فلا يُعدّ هذا دليلاً على أنّهم أخذوه عن المعتزله، بل الطائفتان اجتمعتا على مائده واحده و انتهلتا من معين واحد.

و قد ذكرنا في موسوعتنا (١) نصوص أئمة الاعتزال على أنّ مذهبهم يتصل بالإمام على عليه السلام، و نأتى هنا بنموذجين:

قال القاضي عبد الجبار: فأما أمير المؤمنين عليه السلام فخطبه في بيان نفى التشبيه و إثبات العدل أكثر من أن تحصى. (٢)

و قال أيضاً: و أنت إذا نظرت في خطب أمير المؤمنين وجدتها مشحونه بنفى الرؤيه عن الله تعالى. (٣)

و هذا هو ابن المرتضى يقول: و سند المعتزله لمذهبهم أوضح من الفلق، إذ يتصل إلى واصل و عمرو اتصالاً ظاهراً، و هما أخذتا عن محمد بن على بن أبى طالب و ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، و محمد هو الذى ربى و اصلاً و علّمه حتّى تخرّج و استحکم، و محمد أخذ عن أبيه على بن أبى طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. (٤)

و ها نحن نذكر خطبه من خطب الإمام، و هي جواب لسؤال من قال: صِفْ لنا ربّنا مثل ما نراه، فغضب عليه السلام، و نادى الصلاه جامعه، فاجتمع إليه الناس حتّى غصّ المسجد بأهله فقال كما يرويه الشريف الرضى:

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَائِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَ تَلَاخِمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمْ

ص: ١٨٩

١-١. بحوث في الممل و النحل: ١٨٨/٣ - ١٩٠.

٢-٢. فصل الاعتزال و ذكر المعتزله: ١٦٣.

٣-٣. شرح الأصول الخمسه: ٢٦٨. [١]

٤-٤. المنيه و الأمل: ٥-٦. [٢]

الْمُحْتَجِبِ لِتَدْبِيرِ حَكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبُهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ، وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتَّبِعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُواكَ بِأَصْدِنَامِهِمْ وَ نَحَلُّوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ. وَ جَزَّأوكَ تَجْزِئَةَ الْمَجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَ قَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقِ الْمُخْتَلِفِ الْقَوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ.

وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَ الْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنْزَلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَ نَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَّاهِ فِي الْعُقُولِ فَتُكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيِّفًا وَ لَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتُكُونَ مَحْدُودًا مُصَرِّفًا.

و من كان عنده هذا الكنز الثمين و أمثاله فهو فى غنى عن التطفل على موائد الآخرين، و فى متدح عن أن يتفوه بالتجسيم و التشبيه أو بالجهه و الرؤيه، أو يصير عيالاً على غيره.

و مع هذا التاريخ الواضح لكلام الشيعة الإماميه فقد اتهموه ببعض التهم:

نذكر منها أمرين:

١. اتهام الشيعة بالتجسيم

إشاره

إنّ مشايخ الإماميه كانوا على عقيدته التشبيه و التجسيم و الجهه و الرؤيه، إلّا نفرأ قليلاً عدلوا إلى التنزيه و العدل، لأجل مصاحبتهم المعتزله.

و حاصل التهمه: أنّ الشيعة الإماميه، كانوا مجسّمه غير أنّ أقلّيه منهم اتّصلت بالمعتزله فتأثروا بعقائدهم و صاروا من أصحاب التوحيد و العدل.

ص: ١٩٠

يقول أبو الحسين الخياط (المتوفى ٥٣١هـ): «و أمّا جملة قول الرافضة، فهو: إنّ الله عزّ وجلّ ذو قَدٍ، و صورته، و حدّ يتحرّك و يسكن، و يدنو و يبعد، و يخفّ و يثقل...» هذا توحيد الرافضة بأسرها، إلّا نفرًا منهم يسيراً صحبوا المعتزلة و اعتقدوا التوحيد، فنفتهم الرافضة عنهم، و تبرأت منهم، فأتمّوا جملتهم و مشايخهم، مثل: هشام بن سالم، و شيطان الطاق، و عليّ بن ميثم، و هشام بن الحكم، و عليّ بن منصور، و السكّاك، فقولهم ما حكيت عنهم...» (١).

و يقول ابن تيمية: و معلوم أنّ المعتزلة هم أصل هذا القول (العدل الإلهي)، و أنّ شيوخ الرافضة كالمفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) و السيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) و الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) و الكراجكي (المتوفى ٤٤٩هـ) إنّما أخذوا ذلك من المعتزلة، و إلّا فالشيعة القدماء لا يوجد في كلامهم شيء من هذا.

و يقول الذهبي، زميل ابن تيمية: و من حدود سنة ٣٧٠هـ، إلى زماننا هذا تصادق الرافضة و الاعتزال و توأخيا. (٢).

يقول ابن حجر-موسّعاً زمان التآخي-: و إنّ الطائفتين لم يزالا متوآخيين من زمان المأمون العباسي. (٣).

أقول: و أنّي لأبى الحسين الخياط و ابن تيمية و الذهبي و أشباههم الإمام بتاريخ الشيعة، و تقييم عقائدهم، و هم يكتبون تاريخ الشيعة بنفسية خاصة و بعقيدة مسبقه في حقهم.

كيف يكون الشيعة عيالاً على المعتزلة من عصر اتّصال المفيد بهم مع أنّ

ص: ١٩١

١-١. الانتصار: ١٤. [١]

٢-٢. ميزان الاعتزال: ٣/١٤٩.

٣-٣. لسان الميزان: ٤/٢٤٨.

مشايخ الشيعة، قد رفعوا لواء التوحيد في القرون المتقدمه على المفيد.

و ها نحن نذكر لفيماً من مشايخ الشيعة (في القرنين الثاني و الثالث) الذين ألفوا كتباً حول التوحيد، منهم:

١. على بن منصور الكوفي، البغدادي.

له كتاب التدبير في التوحيد و الإمامه.

و كان من حضار مجلس يحيى بن خالد البرمكي الذي كان يعقده للمناظره.

قال المسعودي: كان إمامي المذهب، و من نظار الشيعة في وقته.

فمن كان يناظر في المسائل الكلاميه و الفلسفيه بمحضر جمع من متكلمي الإسلام، هل يتصور أن يقول بالتجسيم و التشبيه و الجهه؟!.

٢. محمد بن الخليل البغدادي، أبو جعفر السكاك (المتوفى بعد ٥٢٠٨هـ).

له كتاب باسم التوحيد و آخر باسم المعرفه.

و هو من المتكلمين المرموقين في عصر هارون الرشيد، و كان يرتاد الندوه التي كان يعقدها خالد بن يحيى البرمكي ببغداد.

٣. محمد بن أبي عمير البغدادي (المتوفى ٥٢١٧هـ).

له كتاب التوحيد.

كان من مشايخ الشيعة، و لذلك اعتُقل في أيام هارون الرشيد و كفي في مقدرته العلميه أنّ هشام بن الحكم و هشام الجواليقي لَمَّا أرادا المناظره في بعض المسائل العلميه، اشترط الجواليقي أن تجرى المناظره بينهما بحضور ابن أبي عمير.

٤. على بن الحسن بن محمد الكوفي، المعروف بالطاطري (المتوفى بعد ٥٢٣٠هـ).

ألف في الكلام كتاب التوحيد.

و هو أحد أقطاب الشيعة في عصره.

٥. محمد بن الحسين بن أبي الخطاب (المتوفى ٥٢٦٢هـ).

ألف كتباً، منها: كتاب التوحيد، و كتاب الرد على أهل القدر.

و هو صاحب الباع الطويل في الفقه و الحديث و الكلام.

٦. سهل بن زياد الآدمي (المتوفى بعد ٥٢٦٠هـ).

عاصر الإمامين محمد الجواد و علي الهادي عليهما السلام.

صنف كتاب التوحيد.

و هو يروى مناظره موسى بن جعفر عليهما السلام مع أبي حنيفة، و هي بصدد نفى الجبر عن العبد، و تصحيح التقدير على نحو لا يخالف حريه الإنسان. (١)

هذه نماذج من مشايخ الشيعة الذين عاشوا في القرنين الثاني و الثالث، و قبل أن يولد الشيخ المفيد بسنين متطاولة، فكيف يصح لهؤلاء المتسرّعين ذلك القضاء الباطل الذي يبخس حق الشيعة، و يتنكّر لأصالة آرائهم و نظرياتهم الكلامية؟!

و العجب العجاب أن تصبح شيعة أمير المؤمنين (الذي منه عليه السلام انتشر التوحيد و العدل) مجسّمه مجبّره، و يكون الأغيار أهل التنزيه و العدل!!

و ليس هذا من خصائص الكلام الإمامي و حسب، فإنّ الزيدية المقتفيه أثر خُطب الإمام و كلماته، رفعت أيضاً لواء التوحيد و العدل منذ زمن قديم، منهم:

أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرّسّى الحسنى (١٦٩-٥٢٤٦هـ)

ص: ١٩٣

(١- ١). انظر تراجم هؤلاء الأعلام في هذا الجزء من الكتاب.

فقد أُلّف كتاب التوحيد و العدل الصغير، طبع في بيروت، دار مكتبة الحياة ضمن مجموعه رسائل من العدل و التوحيد.

كما أُلّف كتاب التوحيد و العدل الكبير و هو ردود على المشبهه و المجبره و القدرية و المرجئه طبع أيضاً في بيروت في نفس الدار.

يحيى بن الحسين الزيدى (٢٢٠-٢٩٨هـ) له العدل و التوحيد كما في الجامع الكبير. (١)

إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة حول التوحيد و العدل بيد مشايخ الشيعة إماميهم و زيديهم و قد اشتهر بين المتكلمين: العدل و التوحيد علويان، و الجبر و التشبيه أمويان.

إنّ كتاب الكافي لمؤلفه الشيخ الكليني (٢٦٠-٣٢٩هـ) يزخر بالأحاديث الداله على نفى التشبيه و التجسيم و الجبر، و يليه كتاب التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١هـ) فقد أخرج فيه ما روى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال التوحيد و العدل، و قد جمع العلامة المجلسي (١٠٣٧-١١١٠هـ) في موسوعته الحديثيه «بحار الأنوار»، كلّ ما ورد حولهما من الأثر عن النبي و أهل بيته فاستغرق ستة أجزاء من كتابه.

أ فبعد هذه الأحاديث المتوافره تُتهم، شيعه آل البيت بالتجسيم و التشبيه، ظلماً و عدواناً؟! و لأجل الملازمه بين التشيع و حبّ آل البيت و بين العدل و التوحيد يقول صاحب بن عباد: لو شُقَّ عن قلبي يُرى و سطه

ص: ١٩٤

١-١). الجامع الكبير: ٦٧٥/٢.

و العجب من ابن تيميه يرى القذى فى عين غيره، ولا يرى الجذع فى عينه، فهو و زميله الذهبى ينسبان للشيعه ما عرفت، مع أنّ كتب الحنابله مكتظه بأخبار التجسيم و الجبر و هذا هو محمد بن إسحاق بن خزيمه (المتوفى ٥٣١هـ) ألف كتاباً باسم «التوحيد و إثبات صفات ربّ العالمين»، جمع فيه من هنا و هناك روايات التجسيم، و قد أصبح هذا الكتاب و كتاب «السنة»، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢١٣ - ٥٢٩٠هـ)، مرجع المجسّمه، فقد جاء فيهما ضحك ربنا، و اصبعه، و يده، و رجله، و ذراعيه و صدره إلى غير ذلك من الإسرائيليات و المسيحيات التى خدع بها المغفلون من الحشويه، فملئوا بها كتبهم، و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

و قد نال توحيد ابن خزيمه مكانه عظمى لدى الحنابله، و صار مصدر العقيده الإسلاميه عندهم.

قال ابن كثير فى حوادث ٥٤٦٠هـ: و فى يوم النصف من جمادى الأولى قرئ «الاعتقاد القادري» الذى فيه مذهب أهل السنّه و الإنكار على أهل البدع و قرأ أبو مسلم الكجى البخارى، المحدث، كتاب «التوحيد» لابن خزيمه على الحاضرين و ذكر بمحضر من الوزير ابن جهير و جماعه الفقهاء و أهل الكلام، و اعترفوا بالموافقه. (١)

و قد وقف الرازى على ما فى الكتاب من الشرك و البدع، فشطب عليه، و قال فى تفسير قوله سبحانه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»: و اعلم أنّ محمد بن إسحاق بن خزيمه أورد استدلال أصحابنا بهذه الآيه فى الكتاب الذى سمّاه ب «التوحيد» - و هو فى الحقيقه كتاب الشرك - و اعترض عليها و أنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف

ص: ١٩٥

التطويلات، لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل. (١)

ولما وقف شيخنا الصدوق على اتهام قدماء أصحابنا بالتجسيم والتشبيه، ألف كتاب «التوحيد»، في ردّ هذه الوصمه فقال في مقدّمه الكتاب: إنّ الذى دعانى إلى تأليف كتابى هذا، إنّى وجدت قوماً من المخالفين لنا ينسبون عصابتنا إلى القول بالتشبيه والجبر، لما وجدوا فى كتبهم من الأخبار التى جهلوا تفسيرها ولم يعرفوا معانيها، ووضعوها فى غير مواضعها، ولم يقابلوا بألفاظها، ألفاظ القرآن فقبّحوا بذلك عند الجهال مذهبنا، ولبسوا عليهم طريقتنا، وصدّوا الناس عن دين الله، وحملوهم على جحود حجج الله، فتقربت إلى الله تعالى ذكره بتصنيف هذا الكتاب فى التوحيد ونفى التشبيه والجبر.

اتهام هشام بن الحكم بالتجسيم

اتّهم أبو الحسين الخياط «الهشاميين: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم» ومؤمن الطاق وغيرهم بالتجسيم والتشبيه وتبعه غيره، لكنّها شنشنة أخزميه، نسمعها من كلّ من يكنّ العداء لشيعة آل البيت. ومن وقف على جانب من جوانب شخصيه «هشام بن الحكم» وأنّه كان رائد الدليل والبرهان فى الأنديه الكلاميه لأذعن بأنّ نسبه التجسيم إليه وإلى نظرائه، فريه بلا مريه.

وهذا هو المسعودى يعرفنا مكانته بين أعلام عصره، ونبوغه فى الجدل والبرهان، فيقول: وقد كان يحيى بن خالد ذا علم و معرفه وبحث و نظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور، والقدم

ص: ١٩٦

و الحدود، و الإثبات و النفي، و الحركة و السكون، و المماسه و المباينه، و الوجود و العدم، و الجرّ و الطفره، و الأجسام و الأعراض، و التعديل و التجريح، و نفي الصفات و إثباتها، و الاستطاعه و الأفعال، و الكميّه و الكيفيه، و المضاف، و الإمامه أنصّ هي أم اختيار، و سائر ما تورّدونه من الكلام في الأصول و الفروع، فقولوا الآن في العشق على غير منازعه، و ليورد كلّ واحد منكم ما سنع له فيه، و خطر إيراده بباله.

فقال على بن ميثم و كان إمامي المذهب من المشهورين من متكلّمي الشيعة:

أيّها الوزير العشق ثمره المشاكلة....

و قال الثالث: و هو محمد بن الهذيل العلاف، و كان معتزليّ المذهب و شيخ البصريين: أيّها الوزير، العشق يختم على النواظر، و يطبع على الأفئده، مرتقى في الأجساد....

و قال الرابع: و هو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإماميه في وقته و كبير الصنعه في عصره-: أيّها الوزير، العشق جباله نصبها الدهر فلا يصيد بها إلاّ أهل التخالص في النوائب....

و قال النّظام إبراهيم بن سيّار المعتزليّ و كان من نظار البصريين في عصره:

أيّها الوزير العشق أرق من السراب و أدبّ من الشراب....

ثمّ قال السادس و السابع و الثامن و التاسع و العاشر و من يليهم، حتّى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفه و معان تتقارب و تتناسب، و فيما مر دليل عليه. (١)

أ فيصحّ بعد هذا أن نّتهمه بأنّه كان يقول بأنّ معبوده سبعة أشبار بشير

ص: ١٩٧

نفسه و أنه فى مكان مخصوص وجهه مخصوصه، و أنه يتحرك و حركته...

و ليست من مكان إلى مكان و قال: هو متناه بالذات غير متناه بالقدره.

و حكى عبد الله عيسى الوراق أنه قال: إن الله تعالى مماس لعرشه، لا يفضل منه شىء عن العرش و لا يفضل من العرش شىء منه. (١)

إن هذه الأفكار ألصق بالحشويه منها بشيعة آل البيت الذين تربوا فى أحضان التوحيد و العدل.

إن أفضل السُّبُل للوقوف على شخصيه إنسان و أفكاره و نزعاته هو تسليط الضوء على الآثار التى تركها بعد رحيله، فالمترومون له، يذكرون له كتباً، منها:

١. كتاب التوحيد.

٢. كتاب المجالس فى التوحيد.

٣. كتاب الشيخ و الغلام فى التوحيد.

٤. كتاب الردّ على ارسطاطاليس فى التوحيد.

٥. كتاب الدلالات على حدث (حدوث) الأجسام.

٦. كتاب الردّ على الزنادقة.

٧. كتاب الردّ على أصحاب الاثنيين.

٨. كتاب الردّ على أصحاب الطبائع.

٩. كتاب فى الجبر و القدر.

١٠. كتاب القدر.

١١. كتاب الاستطاعة.

ص: ١٩٨

١٢. كتاب المعرفة.

١٣. كتاب الألفاظ.

١٤. كتاب الألفاظ، ولعله كان يعنى شرح المصطلحات التي كان يستعملها هو أو كانت تستعمل في الكلام.

إن من يرد على أرسطاطاليس في التوحيد، و يناضل ذلك المعلم الأول، يستحيل عليه أن يقدر ربه بأشبار نفسه، أو يجلسه على عرشه الذي لا يزيد عليه ولا ينقص منه.

وقد كفانا في دفع هذه السهام المرشوقه على شخصيه مثل هشام بن حكيم، أو هشام بن سالم أو مؤمن الطاق، ما قام به القدامى من علمائنا، منهم الشريف المرتضى، حيث يقول:

«...فأما ما رُمى به هشام بن الحكم من القول بالتجسيم، فالظاهر من الحكاياه عنه القول بـ«جسم لا كالأجسام»، ولا خلاف في أن هذا القول ليس بتشبيه، ولا ناقض لأصل، ولا معترض على فرع، وأنه غلط في عبارته، يرجع في إثباتها ونفيها إلى اللغه، وأكثر أصحابنا يقولون: إنه أورد ذلك على سبيل المعارضه للمعتزله، فقال لهم: إذا قلت: إن القديم تعالى شىء لا كالأشياء، فقولوا: إنه جسم لا كالأجسام، وليس كل من عارض بشىء وسأل عنه أن يكون معتقداً له و متديناً به، وقد يجوز أن يكون قصد به إلى استخراج جوابهم عن هذه المسأله و معرفه ما عندهم فيها، أو إلى أن يبين قصورهم عن إيراد المرتضى في جوابها، إلى غير ذلك مما لا يتسع ذكره.

فأما الحكاياه أنه ذهب في الله تعالى أنه جسم له حقيقه الأجسام الحاضره، و حديث (الأشبار) المدعى عليه فليس نعرفه إلا من حكايه الجاحظ عن النظم،

ص: ١٩٩

و ما فيها إلاّ متّهم عليه غير موثوق بقوله، و جملة الأمر: أنّ المذاهب يجب أن تؤخذ من أفواه قائلها و أصحابهم المختصين بهم و من هو مأمون في الحكايه عنهم، و لا يرجع إلى دعاوى الخصوم....

و ممّا يدلّ على براءة هشام من هذه التّهم، ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «لا تزال يا هشام مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

و أمّا الجبر و تكليفه [تكليف الله] بما لا يطاق ممّا لا نعرفه مذهباً له...» (١).

و في معالم ابن شهر آشوب، قال الصادق عليه السلام: «هشام رائد حقنا، و سائق قولنا، المؤيد لصدقنا، و الدامغ لباطل أعدائنا، من تبعه و تبع أثره تبعنا، و من خالفه و ألحد فقد عادانا و ألحد فينا». (٢)

و لا-ريب في أنّ العارف بفنّ المناظره و الأساليب المتّبعه في هذا الفنّ، يُدرك ما يرمى إليه المناظر القدير من مقاصد في كلامه، و يبدو أنّ أبا الفتح الشهرستاني (المتوفى ٥٤٨هـ)، قد فهم هذا المعنى، و أدرك مغازى تلك المناظرات، فقال: و هذا هشام بن الحكم صاحب غور في الأصول، لا يجوز أن يُغفل عن إزماته على المعتزله، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه على الخصم، و دون ما يظهره من التشبيه، و ذلك أنّه ألزم العلاف، فقال: إنّك تقول الباري عالم بعلم و علمه ذاته، فيشارك المحدثات في أنّه عالم بعلم، و يباينها في أنّ علمه ذاته، فيكون عالماً لا كالعالمين،

ص: ٢٠٠

١-١. الشافى: ٨٣/١.

٢-٢. معالم العلماء: ١٢٨. و [١] قد قام المحقق المعاصر الشيخ محمد رضا الجعفرى (حفظه الله) بالدفاع العلمى عن شيخ الشيعه و متكلّمهم هشام بن الحكم فى مقال خاص نشره فى مجله تراثنا العدد ٣٠، ط قم فلاحظ.

فلم لا تقول هو جسم لا كالأجسام، وصوره لا كالصور، و له قدر لا كالأقدار، إلى غير ذلك.

و يقول أحمد أمين: إنَّ هشام بن الحكم أكبر شخصيه شيعيه فى الكلام، و كان جداً قوى الحجّه، ناظر المعتزله و ناظروه، و نقلت له فى كتب الأدب مناظرات كثيره متفرقه تدل على حضور بديهيته و قوه حججه.

و أقصى ما يمكن أن يقال: إنَّ الرجل كان فى بدايه أمره من تلاميذ أبى الشاكر الديصانى، صاحب النزعه الإلحاديه فى الإسلام، ثم تبع الجهم بن صفوان، الجبرى المتطرّف المقتول بترمذ عام ١٢٨هـ، ثم لحق بالإمام الصادق عليه السلام ودان بمذهب الإماميه، و ما تنقل منه من الآراء التى لا توافق أصول الإماميه، فإنّما هى راجعه إلى العصرين اللّذين كان فيهما على النزعه الإلحاديه أو الجهميه، و أمّا بعد ما لحق بالإمام الصادق عليه السلام فقد انطبعت عقليته بمعارف أهل البيت إلى حدّ كبير، حتّى صار أحد المناضلين عن عقائد الشيعه الإماميه. (١)

و إننى أعتقد أنّ هذا الكلام الواضح كالشمس فى رابعه النهار، يبدّد كلّ السحب السوداء التى أحاطت بآراء و مقالات هشام، و لم يُبق لطلاب الحقيقه من عذر فى جهل شخصيه هشام، و سمو منزلته فى العلم و الإيمان و العقائد الصحيحه.

٢. الشيعه ورثه المعتزله

هذه هى التهمه الأخرى التى ألصقها خصوم الشيعه بهم، و قد مرّ فى كلام الخياط و غيره الإشاره إليها و اجتّرها الباحث الغربى «آدم متز» فى كتابه «الحضاره

ص: ٢٠١

١- ١). راجع بحوث فى الملل و النحل: ٥٧٨/٦. [١]

الإسلاميه فى القرن الرابع»، و قد خَصَّص الفصل الخامس من كتابه للشيعه، و لم يكن عنده -حسب اعترافه- إلا مخطوط علل الشرائع للصدوق (٣٠٦-٥٣٨١) و قد عثر عليه فى مكتبه برلين، و لم يذكر فى هذا الفصل شيئاً مهماً عن الشيعه سوى الصراعات و الفتن التى دارت فى هذا القرن و ما قبله بين السنّه و الشيعه فى بغداد و غيرها، و قد جمع تلك الصفحات بجدّ و حماس، و كأنّه يريد أن يُلخّص الشيعه فى إثارة الفتنة و الفساد، متناسياً دورهم الكبير فى الدين و الأدب، و مشاركتهم سائر المسلمين فى بناء الحضاره الإسلاميه، و إن أشار فى ثنايا كتابه إلى بعض الشخصيات اللامعه منهم كنصير الدين الطوسى، وليته اكتفى فى رسم صورته تلك الطائفه بما ذكره، و لم يتهمهم بكونهم تبعاً للمعتزله فى الأصول و الآراء، و إنّه لم يكن لهم فى القرن الرابع مذهب كلامى مدوّن، و إليك نصّ كلامه:

إنّ الشيعه هم ورثه المعتزله، و لا بدّ أن تكون قلّه اعتداد المعتزله بالأخبار المأثوره ممّا لاءم أغراض الشيعه، و لم يكن للشيعه فى القرن الرابع (٣٠٠-٥٤٠٠) مذهب كلامى خاصّ بهم، فتجد مثلاً أن عضد الدوله (المتوفى ٣٧٢هـ) و هو من الأمراء المتشيعين يعمل على حسب مذهب المعتزله، و لم يكن هناك مذهب شيعى للفاطميين، و يصرح المقدسى بأنهم يوافقون المعتزله فى أكثر الأصول، و على العكس من هذا نجد الشيعه الزيديه يرتقون بسند مذهب المعتزله حتى ينتهى إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، و يقولون: إنّ واصلاً أخذ عن محمد بن على بن أبى طالب، و أنّ محمّداً أخذ عن أبيه، و الزيديه يوافقون المعتزله فى أصولهم إلاّ- فى مسأله الإمامه، و يدلّ على العلاقه الوثيقه بين المعتزله و الشيعه أنّ الخليفه القادر جمع بينهما حينما نهى فى عام (٥٤٠٨) عن الكلام و المناظره فى الاعتزال و الرفض (مذهب الشيعه) و المقالات المخالفه للإسلام.

ثم إنَّ الطريفة التي سار عليها ابن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري في كتابه المسمى بكتاب «العلل» تذكّرنا بطريفة علماء المعتزلة الذين يبحثون عن علل كل شيء. (١)

إنَّ في كلام هذا الباحث مناقشات كثيرة قد أشرنا إليها في مقال تحت عنوان «الشيعة و علم الكلام عبر القرون الأربعة»، نشر بمناسبة الذكرى الألفية لوفاه الشيخ المفيد برقم ٣٢ لكن نشر في المقام إلى الغرض الأسنى من هذا البحث.

من قرأ تاريخ التشيع و الاعتزال يقف على أنّ الطائفتين تتصارعان صراع الأقران في المسائل التي اختلفتا فيها، فكيف يمكن أن تكون الشيعة عاله على المعتزلة في عقائدها؟ فأين مبادئ الشيعة من مبادئ الاعتزال و الطائفتان و إن كانتا تشتركان في التوحيد و العدل و بالتالي في نفى التجسيم و الرؤيه و الجبر و القول بالتحسين و التقييح العقليين، لكنهما تفترقان في كثير من الأصول، و كفاك في هذا المضممار ما ألفه الشيخ المفيد باسم «أوائل المقالات في المذاهب و المختارات».

يقول في ديباجه كتابه: «فإني بتوفيق الله و مشيئه مثبت في هذا الكتاب ما آثر إثباته من فرق ما بين الشيعة و المعتزله، و فصل ما بين العدليه من الشيعة و من ذهب إلى العدل من المعتزله، و الفرق ما بينهم من بعد، و ما بين الإماميه فيما اتفقوا عليه من خلافهم فيه من الأصول، و ذاكر في أصل ذلك ما اجتبيته أنا من المذاهب المتفرعه عن أصول التوحيد و العدل و القول من اللطيف في الكلام و ما كان وفاقاً منه لبنى نوبخت رحمهم الله، و ما هو خلاف لآرائهم في المقال و ما يوافق

ص: ٢٠٣

ذلك مذهبه (١) من أهل الاعتزال وغيرهم من أصحاب الكلام ليكون أصلاً معتمداً فيما يمتحن للاعتقاد، وباللّه استعين على تبين ذلك و هو بلطفه الموفق (٢) للصواب».

و قد سبق منّا في الفصل العاشر الفوارق بين المنهجين في الكلام. (٣)

إنّ المناظرات التي دارت بين الشيعة و المعتزلة من عصر الإمام الباقر عليه السلام إلى العصر الذي ارتمت فيه المعتزلة في أحضان آل بويه، أدلّ دليل على أنّ النظام الفكري للشيعة لا يتفق مع المعتزلة. (٤)

و أمّا ردود الشيعة على المعتزلة فحدّث عنها و لا حرج، و إليك أسماء بعضها:

١. محمد بن علي بن النعمان، مؤمن الطاق (المتوفى نحو ١٦٠هـ): أحد المتكلمين البارزين، و له مجالس مع الآخرين، له كتب، منها: الرد على المعتزلة في إمامه المفضل، و كتاب الجمل في أمر طلحة و الزبير و عائشه. (٥)

٢. هشام بن الحكم (المتوفى ١٩٩هـ): متكلم الشيعة في عصره. له ردود على مختلف الفرق، منها: كتاب الرد على المعتزلة، و كتاب الرد على المعتزلة و طلحة و الزبير. (٦)

ص: ٢٠٤

١-١). الضمير يرجع إلى الشريف الرضى حيث أشار إليه فيما سبق من كلامه هذا.

٢-٢). أوائل المقالات: ١-٢، طبعه تبريز. [١]

٣-٣). لاحظ ص ١٦١-١٦٣ من هذه الرسالة.

٤-٤). لاحظ هذه المناظرات في الكتابين التاليين: ١. الفصول المختارة من العيون و المحاسن، ٢. كنز الفوائد، للكراچكي (المتوفى ٤٤٩هـ).

٥-٥). فهرست الطوسي، رقم ٥٩٥. [٢]

٦-٦). رجال النجاشي: ٣٩٧/٢ برقم ١١٦٥.

٣. الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري (المتوفى ٥٢٦٠هـ): فقيه متكلم بارع.

له ردود، منها: النقض على الاسكافي، الرد على الأصم، كتاب في الوعد و الوعيد. (١)

٤. الحسن بن موسى بن الحسن بن محمد بن العباس النوبختي (المتوفى حدود ٣١٠هـ) له ردود على المعتزله نذكر منها ما يلي:

النقض على أبي الهذيل العلاف في المعرفة (أبو الهذيل متكلم معتزلي توفي سنة ٢٣٥هـ)، النقض على جعفر بن حرب في الإمامه (و هذا متكلم معتزلي توفي سنة ٢٣٦هـ)، نقض العثمانيه للجاحظ، الرد على أصحاب المنزله بين المنزلتين في الوعيد، إلى غير ذلك من آثاره.

٥. محمد بن عبد الرحمن بن قبه المتكلم المعروف، المتوفى قبل سنه (٣١٩هـ)، له كتاب الرد على الجبائي، و نقل النجاشي عن أبي الحسين السوسنجردي، أنه قال: مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا عليه السلام بطوس فسلمت عليه و كان عارفاً بي و معي كتاب أبي جعفر ابن قبه في الإمامه المعروف بالإنصاف، فوقف عليه و نقضه ب«المسترشد في الإمامه»، فعدت إلى الري فدفعت الكتاب إلى ابن قبه فنقضه ب«المستثبت في الإمامه»، فحملته إلى أبي القاسم فنقضه ب«نقض المستثبت»، فعدت إلى الري فوجدت أبا جعفر قد مات. (٢)

و أخيراً قام الشيخ المفيد بنقض كثير من كتب المعتزله، فله الكتب التاليه و كلها ردود عليهم:

ص: ٢٠٥

١-١. رجال النجاشي: ١٦٨/٢ برقم ٨٣٨.

٢-٢. رجال النجاشي: ٢٨٨/٢ برقم ١٠٢٤.

١. الرد على الجاحظ العثمانيه.

٢. نقض المروانيه.

٣. نقض فضيله المعتزله.

٤. النقض على ابن عبّاد في الإمامه.

٥. النقض على عليّ بن عيسى الرمانى.

٦. النقض على أبي عبد الله البصرى فى المتعه.

٧. نقض الخمس عشره مسأله للبلخى.

٨. نقض الإمامه على جعفر بن حرب.

٩. الكلام على الجبائى فى المعدوم.

١٠. نقض كتاب الأصمّ فى الإمامه.

١١. كتاب الردّ على الجبائى فى التفسير.

١٢. عمد مختصره على المعتزله فى الوعيد.

إنّ تلميذه الفارس البطل فى حقل الكلام السيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) نقض بعض كتب المعتزله فألف الشافى ردّاً على الجزء العشرين من كتاب «المغنى» للقاضى عبد الجبار (المتوفى ٤١٥هـ).

كلّ ذلك يعرب عن أنّ الطائفتين تتفقان فى أصول و تختلفان فى أصول أخرى و ليست إحداهما فرعاً للأخرى، بل الجميع يصدرون فى قسم من الأصول عن عين صافيه، أعنى: خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و يختلفون فى أصول كلاميه.

إلى هنا تمّ تبين بعض التهم المرمى بها الكلام الإمامى و تركنا بعض التهم الجزئيه لضالتها، و لله الحمد.

إشارة

قد أصبح اليوم تاريخ كلّ علم موضوعاً مستقلاً وراء العلم حتّى غلّا- بعضهم في القول بأنّه ليس للعلم حقيقة سوى تاريخه و مراحلہ التي مرّ بها العلم عبر قرون، و الفرق بين ذات العلم و دراسه تاريخه و مراحلہ يتجلى في المثال التالي:

هناك من يبحث في علم الطب من منظار داخلي و تُثمر جهودُه في نفس ذلك العلم، و تتبعه اكتشافات في الداء و الدواء، و هناك من يبحث في ذلك العلم من منظار خارجي و تنصب جهوده في تاريخه و المراحل التي مرّ بها العلم، و ما أعقبه من نضوج و تكامل، و هذا ما نهدف إليه في هذا الفصل الذي هو خاتمه المطاف في هذا التقديم.

المرحلتان المتواكبتان

إشارة

إنّ الشيعة الإمامية منذ عصر الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام إلى عصر

الشيخ المفيد كانوا على منهجين متقاربين لا متضادين:

١. منهج جمع الحديث و تدوينه مجرداً عن التعمق و التمحيص إلا قليلاً.

٢. منهج تدوين الحديث مع تمحيص السنه الصحيحه عن الموضوعه.

و كانت الطائفتان على ذينك المنهجين و كلّ يدافع عن منهجه بجدّ و حماس إلى أن وصل دور الرئاسة إلى الفارس الباسل في ميدان العلوم و المعارف:

الشيخ المفيد فأطفأ ثوره الطائفه الأولى و قلع فكره الجمود على النقل من دون تمحيص و نظر.

نعم كان المنهجان يتواكبان في عصر واحد دون أن يكون لواحد تقدّم زمني على الآخر، و قد اتخذت الطائفه الأولى بلده قم و الريّ مركزاً لتعاليمها و ثقافتها، كما كانت الكوفه و بغداد مركزاً للطائفه الثانيه، و ستقف على أعلام كلّ طائفه على وجه الإجمال.

جدير بالذكر أنّ اختلاف المنهجين في المسائل الكلاميه التي لا يجب الاعتقاد فيها بواحد من القولين، رغم أنّهم كانوا متفقين في الأصول التي تناط بها السعاده كالتوحيد و العدل و نفى الرؤيه، و عينه الصفات للذات و حدوث القرآن و نفى الجبر عن أفعال العباد، و ها نحن نشير إلى أعلام كلّ منهج بإيجاز:

أعلام المنهج الأوّل

١. سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعريّ. يقول النجاشي: شيخ هذه الطائفه و فقيها و وجهها، كان سمع من حديث العامه شيئاً كثيراً و سافر في طلب الحديث، لقي من وجوههم: الحسن بن عرفه و محمد بن عبد الملك الدقيقي و أبا حاتم الرازي و عباس الترقفي، و لقي مولانا أبا محمد عليه السلام (توفّي سنه ٣٠١هـ،

٢. سهل بن زياد أبو سعيد الآدمي الرازي، كان ضعيفاً في الحديث غير معتمد فيه، له كتاب التوحيد، توفى بعد ٢٥٥. (٢)

٣. محمد بن الحسن الصفّار، يقول النجاشي: كان وجهاً في أصحابنا القميين، ثقه، عظيم القدر، راجحاً، قليل السقط في الرواية. توفى عام ٢٩٠هـ. له كتاب الردّ على الغلاة، وغير ذلك. (٣)

٤. أحمد بن محمد بن خالد البرقي، أبو جعفر، نقل العلامة الحلّي عن ابن الغضائري: طعن عليه القميون وليس الطعن فيه، وإنما الطعن فيمن يروى عنه، فإنه كان لا يبالي عمّن أخذ على طريقه أهل الأخبار، توفى عام ٢٧٤هـ. (٤)

٥. عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودى البصرى أبو أحمد، شيخ البصره و أخباريّها، و كان عيسى الجلودى من أصحاب أبي جعفر الجواد عليه السلام. (٥)

٦. محمد بن زكريا بن دينار مولى بنى غلاب، قال النجاشي: كان هذا الرجل وجهاً من وجوه أصحابنا فى البصره، و كان أخبارياً واسع العلم و صنّف كتباً كثيره، توفى عام ٢٩٨هـ. (٦)

٧. أحمد بن إبراهيم بن معلّى بن أسد العمى، قال النجاشي: كان ثقه فى

ص: ٢٠٩

١-١. رجال النجاشي، برقم ٤٦٥.

٢-٢. رجال النجاشي، برقم ٤٨٨.

٣-٣. رجال النجاشي، برقم ٩٥٠.

٤-٤. رجال النجاشي برقم ١٨٠؛ و خلاصه الرجال [١] للعلامة، القسم الأوّل، باب أحمد، برقم ٧.

٥-٥. رجال النجاشي برقم ٦٣٨.

٦-٦. رجال النجاشي برقم ٩٣٧.

حديثه، حسن التصنيف، و أكثر الروايه عن عامه الأخباريين. (١)

و أخيرهم لا آخرهم:

٨. أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه المعروف بالصدوق القمي أبو جعفر نزيل الرى. قال النجاشى: شيخنا و فقيها و وجه الطائفة بخراسان، و كان ورد بغداد سنه ٣٥٥هـ، و سمع منه شيوخ الطائفة و هو حدث السن. (٢)

هؤلاء هم مشاهير المقتفين للمنهاج الأول، و قد مرّ أنّ النجاشى يصف أكثرهم بالأخباريه، و قد مرّ أنّهم كانوا يسكنون مدينه قم أو الرى، و يُستنتج ممّا جاء فى تراجمهم أنّهم كانوا يتميزون بأمر:

١. كانوا يمارسون الأخبار و يروونها لكن بلا- تمحيص، و مع ذلك لم يكن الجميع على منزله واحده من هذه الجبهه للفرق الواضح بين ما ألفه الصدوق و غيره.

٢. كانوا يعتمدون على العقل بأقلّ ما يمكن.

٣. يرون أنّ خبر الآحاد حجه فى العقائد و المعارف كما هو حجّه فى الفقه و الأحكام.

أعلام المنهج الثانى

إشاره

و أمّا أعلام المنهج الثانى الذين كانوا أكثر اعتماداً على العقل و البرهان من الطائفة الأولى، فقد ورثوا هذا الخط من عصر الإمام الصادق عليه السلام، و نبغ فى

ص: ٢١٠

١- ١. رجال النجاشى برقم ٢٣٧.

٢- ٢. رجال النجاشى برقم ١٠٥٠.

أحضانة متكلمون واعون نشير إلى بعضهم:

١. زراره بن أعين. يقول النجاشي: شيخ أصحابنا في زمنه و متقدمهم كان قارئاً، فقيهاً، متكلماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمع فيه خصال الفضل و الدين، له كتاب في الاستطاعة و الجبر. (١)

٢. محمد بن أبي عمير زياد بن عيسى. يقول النجاشي: بغدادى الأصل و المقام؛ جليل القدر، عظيم المنزله فينا و عند المخالفين. له من الكتب: كتاب الكفر و الإيمان، كتاب البداء، كتاب الاحتجاج في الإمامه، توفي عام ٥١٧هـ. (٢)

٣. يونس بن عبد الرحمن مولى على بن يقطين. يقول النجاشي: كان وجهاً في أصحابنا، متقدماً، عظيم المنزله، روى عن الكاظم و الرضا عليهما السلام. له كتاب المثالب، كتاب البداء، كتاب الردّ على الغلاة، كتاب الإمامه. (٣)

٤. الفضل بن شاذان، أبو محمد الأزدي. كان أبوه من أصحاب يونس، و كان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء و المتكلمين، و له جلاله في هذه الطائفة، و من كتبه:

كتاب النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، كتاب الوعيد، كتاب الردّ على أهل التعطيل، كتاب الاستطاعة، كتاب الأعراض و الجواهر، إلى غير ذلك من كتبه. (٤)

٥. أبو محمد حسن بن موسى النوبختي. يقول النجاشي: الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي شيخنا المتكلم المبرّز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة

ص: ٢١١

١-١. رجال النجاشي، برقم ٤٦١.

٢-٢. رجال النجاشي، برقم ٨٨٨.

٣-٣. رجال النجاشي، برقم ١٠٢٩.

٤-٤. رجال النجاشي، برقم ٨٣٨.

و بعدها له على الأوائل كتب كثيرة، منها: كتاب الآراء و الدياتان، كتاب كبير حسن يحتوى على علوم كثيرة، قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبى عبد الله.

ثم ذكر فهرس كتبه الكثيره عامتها فى الكلام و قسم منها نقوض و ردود. توفى حوالى ٣١٠هـ. (١)

٦. أبو سهل إسماعيل بن على بن إسحاق النوبختى. يقول النجاشى: كان شيخ المتكلمين من أصحابنا و غيرهم، له جلاله فى الدنيا و الدين، يجرى مجرى الوزراء فى جلاله الكتاب. صنف كتباً كثيرة، منها: الاستيفاء فى الإمامه، و كتاب التنبيه فى الإمامه، إلى غير ذلك من النقوض و الردود.

٧. أبو (٢) الجيش مظفر بن محمد البلخى. يعزفه النجاشى بقوله: متكلم مشهور الأمر سمع الحديث فأكثر، له كتب كثيرة، منها: نقض العثمانية على الجاحظ، كتاب مجالسه مع المخالفين، إلى غير ذلك من الكتب، توفى عام ٣٦٧هـ، و قد قرأ على أبى سهل النوبختى. (٣)

أخيرهم لا آخرهم:

٨. محمد بن محمد بن النعمان المفيد، الغنى عن التعريف، كان فارسَ ميدان العلوم و المعارف، و من أبرز تخصّصاته أنه كان متكلماً بارعاً ذا منهج خاص و مناظراً منقطع النظر، انتهت إليه رئاسه كلام الشيعة فى أواخر القرن الرابع، توفى عام ٤١٣هـ.

هذه إشاره عابره إلى رجال المنهجين، و الطابع الغالب على الأوّل التحديث

ص: ٢١٢

١-١. رجال النجاشى، برقم ١٤٦.

٢-٢. رجال النجاشى، برقم ٦٧.

٣-٣. رجال النجاشى، برقم ١١٣١.

و العمل بخبر الآحاد فى العقائد و المعارف، كما أنّ الطابع العام لمقتضى المنهج الثانى هو العمل بالكتاب و السنّه المتضافره و العقل الحصىف.

و هناك سبب آخر لتمايز المنهجين، و هو أنّ رواد المنهج الأوّل كانوا فى منطقهم طابعها العام هو التشيع و كانت السنّه بينهم فى قلّه، فلم يكن هناك ما يحفز كثيراً على إعمال العقل و النظر و الاحتجاج، لكن رواد المنهج الثانى كانوا يتواجدون فى بغداد و الكوفه و فيها السنّه بطوائفها، و كان الاحتكاك الثقافى يلزمهم بالجدل و المناظره و إعمال الفكر لتحصين العقائد.

و مع سياده طابعين مختلفين على أصحاب هذين المنهجين إلّا أنّهم لم يختلفوا فى الأصول و إنّما اختلفوا فى مسائل كلاميه، تظهر بمراجعته كتاب «تصحیح الاعتقاد» للشيخ المفيد، و هو تعليقات على كتاب «عقائد الإماميه» للشيخ الصدوق، ناقشه فى عدّه من المسائل الكلاميه.

و بالرجوع إلى «تصحیح الاعتقاد» تظهر مواقع الاختلاف بين المنهجين، و بما أنّ «تصحیح الاعتقاد» طبع و انتشر على نطاق واسع، فإنّنا لا نجد هنا ما يلزم لبيان الفوارق بينهما.

و لأجل إعلام القارئ بوجود النقاش بين أصحاب المنهجين نذكر عبارته المفيد التى سطرها فى بعض فصول هذا الكتاب يقول:

«لكن أصحابنا المتعلّقين بالأخبار، أصحاب سلامه و بعد ذهن و قلّه فطنه، يمرّون على وجوههم فيما سمعوه من الأحاديث و لا ينظرون فى سندها، و لا يفرقون بين حقّها و باطلها، و لا يفهمون ما يدخل عليهم فى إثباتها، و لا يحصلون معانى ما يطلقونه منها...» (١)

ص: ٢١٣

١- ١). تصحیح الاعتقاد: ٣٨، طبع تبريز.

نقل الشيخ المفيد آراء بعض المحدّثين بما لا يوافق مذهب الإماميه، ولأجل ذلك خطّاهم و نسبهم إلى التقصير قال: وقد سمعنا حكاية ظاهره عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن الوليد (١) لم نجد دافعاً في التقصير، وهي ما حكى عنه أنّه قال: أوّل درجه في الغلوّ نفى السهو عن النبي و الإمام، فإن صحت هذه الحكايه فهو مقصّر مع أنّه من علماء القميين و مشيختهم.

قد وجدنا جماعه وردوا إلينا من قم يقصّرون تقصيراً ظاهراً في الدين، و ينزلون الأئمه عن مراتبهم، يزعمون أنّهم كانوا لا يعرفون كثيراً من الأحكام الدينيه حتّى ينكت في قلوبهم.

و رأينا في أولئك من يقول: إنّهم ملتجئون في حكم الشريعه إلى الرأي و الظنون، و يدعون مع ذلك أنّهم من العلماء، و هذا هو التقصير الذي لا شبهه فيه. (٢)

و ها نحن نأتى ببعض المسائل التي اختلف فيها العلماء، و هي إمّا موضوعات قرآنيه أو مسائل كلاميه.

١. معنى كشف الساق

قال سبحانه: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ». ٣

قال الصدوق: الساق وجه الأمر و شدّته.

و فسره الشيخ المفيد بأنّه سبحانه يريد به يوم القيامه ينكشف فيه عن أمر

ص: ٢١٤

١- ١). شيخ القميين و فقيهم و متقدّمهم و وجههم، نزيل قم، مات سنه ٣٤٣هـ.

٢- ٢). تصحيح الاعتقاد: ٦٦.

شديد صعب عظيم، و هو الحساب و المداقه على الأعمال و الجزاء على الأفعال، و ظهور السرائر و انكشاف البواطن...

ترى أنّ الاختلاف بين العلمين بسيط، و بيان الشيخ توضيح لما ذكره الصدوق في تفسير الآية.

٢. تأويل اليد

قال سبحانه: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ». ١

قال الصدوق: معنى الآية: ذو القوّه، و قال الشيخ المفيد: فيه وجه آخر و هو أنّ اليد عباره عن النعمه. قال الشاعر: له على أيادٍ لست أكفرها و إنّما الكفر أن لا تُشكر النعم

٣. نفخ الأرواح

قال سبحانه: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي». ٢

قال الصدوق: هي روح مخلوقه أضافها إلى نفسه كما أضاف البيت إلى نفسه، حيث قال: «وَطَهَّرُ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ». ٣

قال الشيخ المفيد: ليس وجه إضافه الروح [و البيت] إلى نفسه و النسبه إليه، من حيث الخلق فحسب، بل الوجه في ذلك التمييز لهما بالإعظام و الإجلال، و الاختصاص بالإكرام....

ص: ٢١٥

٤. الخدعه و المكر و النسيان

قال سبحانه: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ». ١

و قال سبحانه: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ». ٢

قال سبحانه: «تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ». ٣

قال الصدوق: إنَّ المراد بذلك كَلِّه جزاء الأعمال.

و قال المفيد: هو كما قال، إلاَّ أنَّه لم يذكر الوجه في ذلك. ثم ذكر الوجه.

٥. خلق أفعال العباد

قال الصدوق: أفعال العباد مخلوقه خلق تقدير لا خلق تكوين، و معنى ذلك أنَّه تعالى لم يزل عالماً بمقاديرها.

و خالفه المفيد، و قال: إنَّ العلم بالشيء لا يعدُّ خلقاً له. ثم هو نفى كون أفعال العباد مخلوقه لله بأى نحو كان، و استدلل بما روى عن أبى الحسن الثالث أنَّه سئل عن أفعال العباد؟ فقليل له: هل هى مخلوقه لله تعالى، فقال عليه السلام: لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها، قال سبحانه: «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ». ٤

٦. الجبر و التفويض

ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام: «لا جبر و لا تفويض بل أمر بين الأمرين»، ففسره الصدوق بنحو و الشيخ بنحو آخر.

٧. المشيئة والإرادة

قال الصدوق: «شاء الله و أراد، و لم يحب و لم يرض، و شاء عز اسمه ألا يكون شيء إلا بعلمه، و أراد مثل ذلك». و حاصله: أن أفعال العباد تعلقت بها إرادته الله و مشيئته و لكنّها غير محبوبه و لا مرضيّه.

و خالفه الشيخ المفيد و قال: إن الله تعالى لا يريد إلا ما حسن من الأفعال، و لا يشاء إلا الجميل من الأعمال و لا يريد القبائح و لا يشاء الفواحش. يقول سبحانه: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ». ١

٨. الكلام فى القضاء و القدر

قال الصدوق: الكلام فى القدر منهى عنه.

و خالفه الشيخ المفيد و حمل الأخبار الناهية على وجهين:

١. أن يكون النهى خاصاً بقوم كان كلامهم فى ذلك يفسدهم و يضلّهم عن الدين و لا يصلحهم فى عبادتهم إلا الإمساك عنه و ترك الخوض فيه و لم يكن النهى عنه عامّاً لكافة المكلفين.

٢. النهى عن الكلام فى ما خلق الله تعالى و عن علله و أسبابه و عمّا أمر به و تعيّد و عن القول فى علل ذلك، إذ كان طلب علل الخلق و الأمر محظوراً، لأنّ الله تعالى سترها عن أكثر خلقه.

٩. معنى فطره الله

قال الصدوق: إن الله تعالى فطر جميع الخلق على التوحيد.

و وافقه الشيخ، و لكن فسر معنى ذلك.

١٠. الجدل في الله

ذهب الصدوق إلى أنّ الجدل في الله منهى عنه، لأنه يؤدي إلى ما لا يليق به.

قال الشيخ المفيد: الجدل على ضربين: أحدهما بالحق و الآخر بالباطل، فالحقّ منه مأمور به و مرغّب فيه، و الباطل منه منهى عنه و مزجور عن استعماله، ثمّ استشهد ببعض الآيات.

هذه نماذج ممّا اختلف فيه العلمان، و ربما ذكر الشيخ المفيد عقيدة الصدوق و لم يخالفه بشيء، و ربما اتّفقا في المعنى لكن أجمل الصدوق و أفصح المفيد، و ثالثه اختلفا جوهرًا و لبًا، و الاختلاف في هذه المسائل إمّا اختلاف في تفسير الآية، أو في مسأله كلاميه لا تمتّ إلى صميم العقيدة بصله.

و إليك قائمه بما لم نذكر كلامهما فيه:

١١. معنى الاستطاعه، ١٢. معنى البداء، ١٣. اللوح و القلم و العرش، ١٤.

النفوس و الأرواح، ١٥. الموت، ١٦. سؤال القبر، ١٧. العدل، ١٨. الأعراف، ١٩. الصراط، ٢٠. العقبات، ٢١. الحساب و الميزان، ٢٢. الجنة و النار، ٢٣.

حدّ التكفير، ٢٤. نزول الوحي و القرآن، ٢٥. العصمه، ٢٦. الغلو و التفويض، ٢٧. التقيّه، ٢٨. آباء النبي، ٢٩. تفسير قوله سبحانه: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» ١، ٣٠. الحظر و الإباحه، ٣١. الطب، ٣٢. حكم الأحاديث المختلفه.

ص: ٢١٨

و هذه المقدار من الاختلاف فى جنب ما اتفقوا عليه من الأصول و الأمهات، أمر طفيف.

المرحله الثالثه:تجديد المنهج الحديثى

قد سبق أنه كان بين محدثى مدرسه قم و محدثى مدرسه بغداد اختلاف فى بعض المسائل الكلاميه خصوصاً فى ما يرجع إلى مقامات النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه عليهم السلام.

و كان النزاع بين أصحاب المنهجين قائماً على قدم و ساق إلى أن حسمه الشيخ المفيد عند ما انتهت إليه رئاسه الإماميه فى الكلام و الفقه،فقد جمع أصحاب المنهجين على مائده واحده بتأليف كتابين:

١.أوائل المقالات فى المذاهب و المختارات.

٢.تصحيح الاعتقاد.

و قد علق على عقائد الإماميه للصدوق و أثبت أن بعض ما ذكره الصدوق ليس من عقائد الإماميه و إنما هو نتيجة استخراجه من أخبار الآحاد.

و بما أن الشيخ ربى جيلاً عظيماً كالشريفين:المرتضى و الرضى و الشيخ الطوسى و الكراجكى و الديلمى و غيرهم،فقد أخذ تلامذه الشيخ زمام البحوث بعد رحيله،و جمعوا الإماميه على أصول موحد،و لم ينجم بينهم خلاف مُعتبر إلى أن ظهرت الحركه الأخباريه.

كان مطلع القرن الحادى عشر مسرحاً للتيارات الفكرية المختلفه،فمن مكب على العلوم الطبيعیه كالنجوم و الرياضيات،و الطب و التشريع،إلى آخر متوغل فى الحكمه و العرفان،إلى ثالث مقبل على علم الشريعة كالفقه

ص:٢١٩

و الأصول.

فى تلك الأ-جواء ظهرت المدرسه الأخباريه التى شطبت على العلوم العقليه بقلم عريض، و لم تر للعقل أى وزن و قيمه لا- فى العلوم العقليه، و لا- فى العلوم الثقليه، و قد رفع رايه تلك الفكره الشيخ محمد أمين بن محمد شريف الاسترآبادى (المتوفى ١٠٣٦هـ).

و أمآ ما هو السبب لظهور ذلك التيار فى ربوع الشيعه، فقد ذكروا هنا فروضاً مختلفه و ذكرنا ما هو الحق بين تلك الفروض. (١)
و على كل تقدير فقد تأثرت الأوساط العلميه بالتيار الأخبارى و ذاع صيته و كثر أتباعه، و هم بين متطرف- كمؤسس- يطعن على العلماء، و معتدل يحترم المخالف.

و من أصول ذلك المنهج: نفى حجيه حكم العقل فى المسائل الأصوليه، و عدم الملازمه بين حكم العقل و النقل، و ادعاء قطعيه صدور أحاديث الكتب الأربعة، و أنه عند تعارض العقل و النقل يؤخذ بالنقل.

و هذا الأصل الأخير صار سبباً لتقديم أخبار الآحاد على أحكام العقل فى باب المعارف و المسائل الكلاميه.

و لذلك نرى أن المجلسى الأول (١٠٠٣ - ١٠٧٠هـ) و كذا ولده المجلسى الثانى (١٠٣٧ - ١١١٠هـ) و الفيض الكاشانى (١٠٠٧ - ١٠٩١هـ) و المحدث الحرّ العاملى (١٠٣٣ - ١١٠٤هـ) و غيرهم ممن تأثروا بالمنهج الأخبارى إلى ظهور المحقق البهبهانى (١١١٨ - ١٢٠٦هـ) نبذوا كل ألوان التفكير العقلى فى أصول الفقه على الإطلاق و فى مجال العقائد على نحو خاص حتى أنكروا تجرد النفس الإنسانيه.

ص: ٢٢٠

١- ١). لاحظ تاريخ الفقه الإسلامى و أدواره: ٣٨٦- ٣٩٠. [١]

ولمّا كان المظهر الأتمّ لهذا التفكير في العقائد هو كتاب «بحار الأنوار» الذي جمع درر أخبار الأئمّه الأطهار بلا تمحيص و لا تنقيح، فقد قام أستاذنا العلامه الطباطبائي بالتعليق على مواضع من بيانات العلامه المجلسي حول الروايات، ولكنه قدس سره توقّف عن العمل بسبب الضغوط التي مورست عليه، و بذلك خسر العلم و الدين ثروه زاخره في مجال تمحيص روايات ذلك الكتاب على ضوء الكتاب العزيز و السنّه القطعيه و العقل الحصيف.

المرحله الرابعه: إحياء المنهج العقلي

كان للمحقّق البهبهاني الدور الرئيسي في إرجاع العقل إلى الساحة في مجالى أصول الفقه و العقائد، و قد أُلّف في التحسين و التقيح العقليين و أثبت فيه حجّيه العقل في المستقلات العقليه.

و أصبح المححقّ البهبهاني رائد الحركه الفكرية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر و أوائل القرن الثالث عشر، ثمّ قاد هذه الحركه لفيف من تلامذته و تلامذه تلامذته، الأمر الذي مكّن من إعادته العقل إلى الساحة في مجال الاستنباط و المعارف العقليه، و لذلك ترى أنّ ما أُلّف حول المسائل الكلاميه يختلف عمقاً و اعتباراً عمياً أُلّف في عهد المجلسيين أو قبلهما أو بعدهما.

هذه إشاره عابره إلى المراحل الأربع التي مرّ بها الكلام الإمامي، و ليعذرني إخواني في هذا الإيجاز في بيان المرحلتين الثالثه و الرابعه.

إنّ للأئمة الاثنى عشر عليهم السلام دوراً كبيراً فى بيان العقيدة الإسلاميه، وإرساء قواعدها، وترسيخ جذورها من خلال بثّ الآراء والأفكار المعبره عن روح الإسلام و نهجه السامى.

كما قاموا-هم و تلامذتهم-بدور بالغ الأهميه فى صيانه العقيدة و الدفاع عنها، و مواجهه التيارات المنحرفه و الأفكار الضاله، و التصدى للثقافات الأجنبية و المذاهب الفاسده المتأثره بالفلسفه الإلحاديه و إسرائيليات اليهود و آراء النصارى و غيرها، و مناقشتها و بيان هشاشتها على ضوء البراهين و الحجج العقلية الرصينه، و النصوص الدينيه الصحيحه.

و قد أخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن نشاط هؤلاء الرساليين حين قال: «يحمل هذا الدين من كلّ قرن عدول، ينفون عنه تأويل المبطلين و تحريف الغالين، و انتحال الجاهلين، كما ينفى الكثير خبث الحديد».(1)

ص: ٢٢٢

و قبل أن نذكر-بإيجاز-ما قاموا به في مجال صيانته العقيدة الإسلامية في أدوار مختلفه،نودّ أن نذكر مقدّمه لها صلّه بالموضوع و هي:

إنّ الدين السائد في الجزيره العرييه-و خاصّه منطقه أمّ القرى-قبل بزوغ شمس الإسلام كان هو الشرك بالله في التدبير و العباده،و هذا أمر واضح لا يرتاب فيه ذو مسكه،و كان العرب في تلك المناطق يعيشون في خِصَمّ الخرافات،و يستسلمون في مجال العقيدة إلى الأساطير و القصص الخرافيه إلى حدّ لا يمكن أن نذكر معشار ما دوّنه المؤرّخون في ذلك المجال،لكنّا نشير إلى بعض أفكارهم التي بقيت رواسبها في أذهان بعض المسلمين حتّى بعد بزوغ الإسلام:

١.كانوا يدينون الله تبارك و تعالى بالجبر و سلب الاختيار عن الإنسان، و كانوا يبزرون شركهم و عبادتهم للأصنام بمشيئه الله تبارك و تعالى قائلين:

«لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ» ١ و نظيره قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَلَيْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» ٢ إلى غير ذلك من الآيات المعربه عن عقيدتهم الراسخه في الجبر و أنّ كلّ المعاصي و المحرّمات بمشيئه من الله سبحانه على نحو تسلب الاختيار عن الإنسان،و بالتالي فالله هو المسؤول عن أعمالنا لا نحن أنفسنا،وقد بقيت رواسب هذه العقيدة في أذهان بعض الصحابه و يشهد له ما رواه الواقدي في مغازيه عن أمّ الحارث الأنصاريه و هي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين.قالت:مرّ بي عمر بن الخطاب منهنّماً فقلت:ما هذا؟! فقال عمر:أمر الله. (١)

ص: ٢٢٣

و هذا هو السيوطى ينقل عن عبد الله بن عمر أنه جاء رجل إلى أبى بكر فقال: أ رأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإن الله قدّره علىّ ثمّ يعذبني؟ قال:

نعم يا ابن اللخناء، أما والله لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ أنفك. (١)

لقد كان السائل فى حيره من أمر القدر فسأل الخليفه عن كون الزنا مقدراً من الله أم لا؟ فلما أجاب الخليفه بنعم، استغرب من ذلك، لأنّ العقل لا يسوّغ تقديره سبحانه شيئاً بمعنى سلب الاختيار عن الإنسان فى فعله أو تركه ثمّ تعذيبه عليه، و لذلك قال: فإنّ الله قدّره علىّ ثمّ يعذبني؟! فعند ذاك أقرّه الخليفه على ما استغربه و قال: «نعم يا ابن اللخناء...».

٢. كانت العرب تدين بالتجسيم و التشبيه، و تعتقد أنّ إله العالم بصوره الصنم و الوثن الذى يُعبد حتّى اتخذت كلّ قبيله لنفسها ربّاً، و صارت الجزيره العربيه مسرحاً للأصنام و مستودعاً للأوثان، و يتجلّى هذا الأمر من قول شاعرهم الذى أسلم و راح يستنكر التجسيم و عباده الأصنام المتعدّده الخارجه عن العدد و الإحصاء: أ ربّاً واحداً أم ألف ربّ

ص: ٢٢٤

إلى غير ذلك من العقائد الفاسده التي كانت العرب تدين بها، وهذا الإمام على أمير المؤمنين يصف عقائدهم في بعض خطبه و يقول:

«و أهل الأرض يومئذ مللٌ متفرقه، و أهواء منتشره، و طرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه أو مشير إلى غيره، فهدهم به من الضلاله، و أنقذهم بمكانه من الجهاله». (١)

و في خطبه أخرى له:

«إنَّ الله بعث محمداً صلى الله عليه و آله و سلم نذيراً للعالمين و أميناً على التنزيل، و أنتم معشر العرب على شرِّ دين، و في شرِّ دار منيخون بين حجاره خشن، و حيات صمّ تشربون الكدر و تأكلون الجشب، و تسفكون دماءكم و تقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبه و الآثام بكم معصوبه».

و للأسف (٢) أن هذه العقائد الباطله بعد ما شطب الإسلام عليها جميعاً عادت - بعد رحيل الرسول - إلى الساحة الإسلاميه بثوب آخر و بغطاء جديد.

و قد بذل أئمه أهل البيت عليهم السلام جهوداً مضنيه في طريق تثبيت العقيدة الإسلاميه، و صيانتها عن الانحراف، بما وصل إليهم من آباؤهم، و إليك نماذج منها:

١. مكافحه الجبر و التفويض

قد عرفت أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يدينون بالجبر و أن القرآن ندّد به و عزّف الإنسان بأنّه مختار في مصيره، يقول سبحانه: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ». ٣

ص: ٢٢٥

١ - ١. نهج البلاغه، الخطبه رقم ١، ط صبحي [١] الصالح.

٢ - ٢. نهج البلاغه، الخطبه ٢٥. [٢]

و لله در الشهيد السعيد زين الدين العاملي في قوله: لقد جاء في القرآن آية حكمه

و قد اعتنق الجبر طائفه كبيره من المسلمين و ألفوا في ذلك رسائل ذهبوا فيها إلى القول بأنّ من قال بالقدر و الاختيار يُجلد و يوثق، و قد بلغ حماس الأمويين في ترسيخ الجبر بين المسلمين إلى حدّ كُبحت معه ألسن الخطباء عن الإصحاح بالحقيقه، فهذا الحسن البصرى الذى يُعدّ من مشاهير الخطباء و وجوه التابعين كان يسكت عن أعمالهم الإجراميه، غير أنّه كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذى كانت السلطه تروجه آنذاك، فلمّا خوفه بعض أصدقائه من السلطان، و عد أن لا يعود. روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّه حتى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم. (١)

و لم يسلم محمد بن إسحاق صاحب السيره النبويه المعروفه من الجدل لمخالفته القدر، قال ابن حجر: إنّ محمد بن إسحاق اتّهم بالقدر و قال الزبير عن الدراوردي «و جلد ابن إسحاق يعنى في القدر». (٢)

و قد ألف عمر بن عبد العزيز رساله في الردّ على القدرية القائلين بالاختيار نقلها أبو نعيم الاصفهاني في ترجمه عمر بن عبد العزيز. (٣)

ص: ٢٢٦

١- ١. الطبقات الكبرى: ١٦٧/٧، ط بيروت. [١]

٢- ٢. تهذيب التهذيب: ٣٨/٩ و ٤٦. [٢]

٣- ٣. حليه الأولياء: ٣٥٣/٥.

كما انتشر التفويض في عصر الإمام الصادق عليه السلام بمعنى إيكال الأمور إلى البشر و استغنائهم في أفعالهم عن الله سبحانه، و يظهر من بعض الروايات أنّ فكره التفويض استولت على بعض المفكرين في عصر عبد الملك بن مروان على نحو أعجز العلماء في الشام، فكتب عبد الملك رساله إلى الإمام الباقر عليه السلام يدعوه لنزول أرض الشام، و مناظره ذلك الرجل القدرى (التفويضى)، فلمّا جاءت الرساله كتب إليه الإمام بقوله: إننى شيخ كبير لا أقوى على الخروج، و هذا جعفر ابني يقوم مقامى فوجهه إليه، فلمّا قدم على الأموىّ أزره لصغره، و كره أن يجمع بينه و بين القدرىّ مخافه أن يغلبه، و تسمع الناس بالشام بقدم جعفر لمخاصمه القدرىّ، فلمّا كان من الغد اجتمع الناس بخصوصتهما، فقال الأموىّ لأبى عبد الله عليه السلام إنّه قد أعيانا أمر هذا القدرىّ، و إنّما كتبت إليه (١) لأجمع بينه و بينه، فإنّه لم يدع عندنا أحداً إلاّ خصمه، فقال: إنّ الله يكفيناه.

قال: فلمّا اجتمعوا قال القدرىّ لأبى عبد الله عليه السلام: سل عمّا شئت! فقال له:

«اقرأ سورة الحمد»، قال: فقرأها، و قال الأموىّ و إنّنا معه: ما فى سورة الحمد؟!، غلبنا، إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون!! قال: فجعل القدرىّ يقرأ سورة الحمد حتّى بلغ قول الله تبارك و تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فقال له جعفر: «قف؛ مَنْ تستعين؟ و ما حاجتك إلى المثنونه إن الأمر إليك؟» فبهت الذى كفر، و الله لا يهدى القوم الظالمين. (٢)

كان الطابع العام على السلفيه و أهل الحديث، هو الجبر و نفى القدر بمعنى الاختيار إلى أن جاء الإمام الأشعرى فأحسّ بخطوره الموقف و أنّ القول بالجبر

ص: ٢٢٧

١-١. الضمير يعود إلى أبى جعفر الباقر عليه السلام.

٢-٢. بحار الأنوار: ٥/٥٥، [١] رقم الحديث ٩٨ نقلاً عن تفسير العياشى. [٢]

يساوى بطلان التكليف و لغويه بعثه الأنبياء، فحاول أن يصحح عقيدته أهل الحديث بإضافه الكسب على عقيدتهم، فقال: إنه سبحانه خالق لأفعالنا و العبد كاسب، فهو حاول أن يخرج أهل الحديث عن الجبر الخالص إلى فسيح الاختيار، لكنه أضاف عقده إلى عقده، فلم يُعَلِّم ما هو مراده من الكسب؟! إلى حدّ صار أحد الألغاز في جنب سائرهما، يقول الشاعر: مما يقال و لا حقيقه عنده

ففى خضم هذه التيارات الضالّه شمّر أئمّه أهل البيت عليهم السلام عن ساعد الجدّ، فنشروا فكره الأمر بين الأمرين و أنّه لا جبر و لا- تفويض بل أمر بين الأمرين، و بذلك فسروا الآيات الوارده فى الجبر و التفويض و قضاوا على الفكرتين، فكره الجبر التى تساوق بطلان التكليف، و فكره التفويض التى تساوق الشرك و استغناء الممكن فى فعله عن الله سبحانه، و لهم فى ذلك بيانات شافيه لا يمكننا نقل معشار ما ذكروه.

إنّ فكره الأمر بين الأمرين مستنتجه من القرآن الكريم. يقول سبحانه: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.» ٢

إنّه سبحانه ينسب الفعل (رمى) إلى العبد و فى الوقت نفسه يسلبه عنه

و ينسبه إلى الله سبحانه، و هو نفس الأمر بين الأمرين، فالفعل مستند إلى العبد، و فى الوقت نفسه إلى الله سبحانه، و قد كتب الإمام الهادى عليه السلام رساله فى نفى الجبر و التفويض نقلها المجلسى فى موسوعته. (١)

و قال الإمام الصادق عليه السلام فى ردّ كلا المنهجين:

«إنّ الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، و الله أعز من أن يكون فى سلطانه ما لا يريد». (٢)

٢. مكافحه التجسيم و التشبيه

اتفق الإلهيون على كونه تعالى موصوفاً بصفات الكمال و الجمال من العلم و القدره و الحياه و لكنهم اختلفوا فى كيفية إجرائها عليه سبحانه.

ذهبت أكثر المعتزله إلى نيابه الذات عن الصفات من دون أن يكون هناك صفه، و إنّما ذهبوا إلى ذلك لأجل أنّهم رأوا أنّ الاعتراف بأنّ هناك ذاتاً و صفه هو التركيب، لأنّ الصفه غير الموصوف، و التركيب آيه الإمكان، فلذلك ذهبوا إلى نفى الصفات، و لما رأوا أنّ ذلك يجزّهم إلى القول بخلوّ الذات عن الكمال قالوا: إنّ الذات تنوب مناب الصفات و إن لم تكن هناك واقعيه للصفات وراء الذات.

و أمّا الأشاعره فقد ذهبوا إلى زياده الصفات على الذات، و بذلك صاروا معترفين بالقدماء الثمانيه، نظير التثليث الذى اعتنقه النصارى، بل أسوأ منه.

و من المعلوم أنّ لازم ذلك هو تركيب الذات من أمور مختلفه و التركيب آيه الإمكان و الافتقار. و أمّا أنّهم أهل البيت عليهم السلام فاعترفوا بأنّ لله سبحانه صفات

ص: ٢٢٩

١- ١. بحار الأنوار: ٧١/٥-٧٥، كتاب العدل و المعاد، الباب ٢، الحديث ١. [١]

٢- ٢. بحار الأنوار: ٤١/٥. [٢]

كماله، ولكنها ليست زائده على الذات، بل هي عينها.

صحيح أنّ الصفه غير الموصوف، ولكن هذا فى الموجودات الإمكانية، و أمّا الواجب بالذات فكما هو واجب فى ذاته واجب فى صفاته، فلا مانع من أن تكون صفاته عين ذاته دون أن يكون هناك تركيب أو تشبيه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «و كمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، لشهاده كلّ صفه أنّها غير الموصوف و شهاده كلّ موصوف أنّه غير الصفه، فمن وصف الله فقد قرنه، و من قرنه فقد ثناه، و من ثناه فقد جزّاه، و من جزّاه فقد جهله». (١)

و فى هذا الكلام تصريح بعينه الصفات للذات، و فيه إشاره إلى برهان الوحده، و هو أنّ القول باتحاد صفاته مع ذاته يوجب تنزيهه عن التركيب و التجزئه و نفى الحاجه عن ساحته، و لكن إذا قلنا بالتعدّد و الغيريه فذلك يستلزم التركيب و يتولد منه التشبيه، و التركيب آيه الحاجه، و الله الغنى المطلق لا يحتاج إلى من سواه.

و قال الإمام الصادق عليه السلام: «لم يزل الله جلّ و عزّ ربّنا و العلم ذاته و لا معلوم، و السمع ذاته و لا مسموع، و البصر ذاته و لا مبصر، و القدره ذاته و لا مقدور». (٢)

و الإمام عليه السلام يشير إلى قسم خاص من علمه سبحانه - وراء عينيه صفاته و ذاته - و هو وجود علمه بلا معلوم و سماعه بلا مسموع. و ما هذا إلاّ لأجل أنّ ذاته من الكمال و الجمال بلغت إلى حدّ لا يشد عن حيطه وجوده أىّ شىء، و تفصيل هذا القسم من العلم يُطلب من محالّه.

٣. مكافحه فكره رؤيه الله

اتّفتت العدليه على أنّه سبحانه لا يرى بالأبصار لا فى الدنيا و لا فى

ص: ٢٣٠

١-١. نهج البلاغه، الخطبه رقم ١. [١]

٢-٢. التوحيد للصدوق: ١٣٩.

الآخره، و أما غيرهم فالكراميه و المجسّمه فقد جوّزوا رؤيته في الدارين بلا إشكال، و أما أهل الحديث و بعدهم الأشاعره فمع أنّهم يصفون أنفسهم بالتنزيه و يتبرّون من التجسيم و الجهه، لكن قالوا برؤيته سبحانه يوم القيامه خضوعاً للروايه التي رواها الإمام البخارى في صحيحه.

و هؤلاء تركوا صحيح النص في القرآن الكريم، أعنى: «لا- تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» ١، كما تركوا قضاء العقل الصريح و أخذوا بالروايه، و لو لا وجود هذا الحديث في الصحيح لما أخذوا بهذا القول، و لكنهم غفلوا عن أبسط الدلائل على امتناع الرؤيه، لأنّ الرؤيه لا- تخلو عن حالتين: إمّا تقع على الذات كلّها، أو على البعض؛ فعلى الأول يلزم أن يكون المرئى محدوداً متناهيّاً محصوراً شاغلاً لناحيه من النواحي و تخلو النواحي الأخرى منه، و على الثاني يلزم أن يكون مركباً متخيّراً ذا جهه.

إنّ فكره الرؤيه فكره مستورده جاءت من جانب الأخبار و الرهبان بتدليس خاصّ. فإنّ أهل الكتاب يدينون برؤيته سبحانه، و قد تصدّى أئمّه أهل البيت عليهم السلام لتلك الفكره بخطبهم و أحاديثهم التي لا يسعنا إيرادها في هذا البحث. قال الإمام على عليه السلام في خطبه الأشباح:

«الأوّل الذي لم يكن له قبلُ فيكون شيء قبله، و الآخر الذي ليس له بعدُ فيكون شيء بعده، و الرادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه». (١)

و قد سأله ذعبل اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام:

«أ فأعبد ما لا أرى؟» فقال: كيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهده العيان

ص: ٢٣١

و لكن تدركه القلوب بحقائق الايمان، قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين». (١)

٤. مكافحه قدم غيره سبحانه

ذهبت النصرارى إلى قدم الأقانيم الثلاثة، فقالوا بالتثليث و قدم الأب و الابن و روح القدس، و بذلك خرجوا عن عداد الموحّدين، و الأسف أنّ أهل الحديث تأثروا بدون وعى بالمسيحيين فقالوا بقدم القرآن و نفى حدوثة و بذلك اعترفوا بقدم غيره سبحانه، و قد بذلوا جهودهم على طريق ترسيخ هذه العقيدة التى لا يعلم مرامها و ما هو المقصود منها، فإنّ محلّ البحث و النزاع لم يحرر بشكل واضح بحيث يمكن تحليله. فهاهنا احتمالات يمكن أن تكون محطّ النظر لأهل الحديث و الأشاعره عند توصيف كلامه سبحانه بالقدم، نظرهما على بساط البحث و نطلب حكمها من العقل و القرآن.

أ. الألفاظ و الجمل الفصيحه البليغه التى عجز الإنسان فى جميع القرون عن الإتيان بمثله، و قد جاء بها أمين الوحي إلى النبى الأكرم، و قرأها الرسول فتلقتهما الأسماع و حررتها الأقلام على الصحف المطهّره، و من الواضح أنّها مخلوقه على الإطلاق لله سبحانه.

ب. المعانى الساميه و المفاهيم الرفيعه فى مجالات التكوين و التشريع و الحوادث، و أشار إليها بألفاظه و جملة و هى حادثه بلا ترديد.

ج. ذاته سبحانه و صفاته من العلم و القدره و الحياه التى بحث عنها القرآن، و من المعلوم أنّ ذاته و صفاته قديمه و لكن الألفاظ التى أشار بها إليها

ص: ٢٣٢

د. علمه سبحانه بكل ما ورد في القرآن الكريم. و لو كان المراد هذا، فلا شك أنه قديم و البحث فيه بلا طائل.

ه. الكلام النفسى القائم بذاته الذى هو أحد الألغاز.

و. القرآن ليس مخلوقاً، أى مصنوعاً للبشر و إن كان مخلوقاً لله.

و قد جرّت هذه العقيدة ويلات على المسلمين و سفكت فيها الدماء و حبس فيها الأبرياء، و قد أدرك أئمّه أهل البيت عليهم السلام أنّ المسأله اتّخذت لنفسها طابعاً سياسياً فامتنعوا عن الخوض فيها و منعوا أصحابهم أيضاً، فقد سأل الريان بن الصلت الإمام الرضا عليه السلام و قال له: ما تقول فى القرآن؟ فقال عليه السلام: «كلام الله لا تتجاوزوه، و لا تطلبوا الهدى فى غيره فتضلّوا». (1)

نعم فى بعض المواقف الخاصه التى يأمن فيها الأئمّه من الفتنة أدلّوا برأيهم فى الموضوع و صرّحوا بأنّ الخالق هو الله و غيره مخلوق، و القرآن ليس نفسه سبحانه، و إلاّ يلزم اتحاد المنزل و المنزل فهو غيره، فيكون لا محاله مخلوقاً.

روى محمد بن عيسى بن عبيد اليقطينى أنّه كتب على بن محمد بن على بن موسى الرضا عليه السلام إلى بعض شيعته ببغداد: «بسم الله الرحمن الرحيم، عصمنا الله و إتيّاك من الفتنة، فإنّ يفعل فقد أعظم بها نعمه، و إن لا يفعل فهى الهلكه، نحن نرى أنّ الجدال فى القرآن بدعه، اشترك فيها السائل و المجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، و يتكلّف المجيب ما ليس عليه، و ليس الخالق إلاّ الله عزّ و جلّ، و ما سواه مخلوق، و القرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين، جعلنا

اللّه و إِيّاك من الذين يخشون ربّهم بالغيب و هم من الساعه مشفقون». (١)

٥. مكافحه الغلوّ و النصب

الغلاه هم الذين غلوا في حقّ النبي و آله حتّى أخرجوهم من حدود الخلقه، و الخطاييه و المغيريه من هذه الصنوف، كما أنّ القول بالتفويض و هو تفويض تدبير العالم إلى النبي و الأئمه و أنّهم هم الخالقون و الرازقون و المدبّرون للعالم، شعبه من الغلوّ.

و يقابله النصب و هو تنقيص أئمه أهل البيت عليهم السلام و نصب العداء لهم، و قد كافح أئمه أهل البيت عليهم السلام هاتين الفكرتين الهدّامتين، فبينوا أنّ الغلوّ كفر و خروج عن الإسلام كما كشفوا عن فضيحه أهل النصب، و ها نحن نذكر حديثين في هذا المجال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائه: «إِيّاكم و الغلوّ فينا، قولوا: عبيد مروبون و قولوا في فضلنا ما شئتم، من أحبنا فليعمل بعملنا و يستعن بالورع». (٢)

و قال الإمام الصادق عليه السلام: «لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، لعن الله من أزالنا عن العبوديه لله الذي خلقنا، و إليه ما بنا و معادنا، و بيده نواصينا». (٣)

و قد أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام موقف أئمه أهل البيت عليهم السلام في خطبته:

«لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه و آله و سلم من هذه الأئمه أحد، و لا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين و عماد اليقين، إليهم يفىء الغالى و بهم يلحق التالى،

ص: ٢٣٤

١- ١). التوحيد للصدوق: ٢٢٤، باب القرآن ما هو، الحديث ٤.

٢- ٢). الخصال للصدوق: ١٤/٢.

٣- ٣). الكشي، الرجال: ١٥٩ في ترجمه المغيره بن سعيد.

و لهم خصائص حق الولايه، وفيهم الوصيه و الوراثه، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، و نقل إلى منتقله». (١)

و فى كلام له عليه السلام: «نحن آل محمد النمط الأوسط، الذى لا يدركنا الغالى و لا يسبقنا التالى». (٢)

و قال أيضاً: «سيهلك فى صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، و مبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، و خير الناس فى حالاً النمط الأوسط فألزموه». (٣)

إلى غير ذلك من الكلمات التى ترشد الأمة الإسلاميه إلى ما لهم من المكانه الرفيعه دون الغلو و فوق ما يزعمه النصاب- أعداء أهل العصمه.

٦. عصمه الأنبياء

إشاره

النبوه سفاره بين الله و بين ذوى العقول من عباده لإزاحه علتهم فى أمر معادهم و معاشهم، و النبى هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بإحدى الطرق المعروفه، و الأنبياء هم الصفوه من الناس الذين تحلوا بزينه التقوى و العصمه، حتى صاروا أهلاً لحمل الرساله الإلهيه إلى عباده و الله سبحانه يصفهم بقوله: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصِهِ ذِكْرَى الدَّارِ * وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ». ٤

و بقوله: «وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». ٥

ص: ٢٣٥

١- ١. نهج البلاغه، الخطبه رقم ٢. [١]

٢- ٢. الكافى: ١/١٠١، [٢] رقم الحديث ٣.

٣- ٣. نهج البلاغه، الخطبه ١٢٧. [٣]

فمن يصفه سبحانه بأنه من المصطفين الأخيار يستحيل عادة أن يعصى الله سبحانه و يخالفه، و لذلك اتفق أهل العدل على عصمه الأنبياء فى المرحلتين قبل البعثه و بعدها، و استدلوا على ذلك بأدله عقليه و آيات قرآنيه، غير أن لفيفاً من أهل الحديث اغتروا بروايات رواها مستسلمه أهل الكتاب فى حق بعض الأنبياء كداود و سليمان و غيرهما، و قد ملأت هذه الروايات المدسوسه كتب التفسير التى يندى الجبين من نقلها و نشرها فى حياه هذين النبيين الكريمين.

و العجب أن أهل السنه قالوا بعداله الصحابه من أولهم إلى آخرهم، بل بعصمتهم و إن لم يتفوهوا بها، فلو سمعوا من باحث موضوعى شيئاً يمس كرامه صحابى كفسق الوليد بن عقبه الذى جاء وصفه بالفسق فى الذكر الحكيم (1)، لطاشت عقولهم و رموا القائل بالحق و العدا للصحابه، بل إلى قلبه الدين و عدم الإيمان.

و بما أن أهل الحديث اغتروا ببعض ظواهر الآيات من دون أن يقفوا على مغزاها، فقد قام أئمه أهل البيت عليهم السلام بتفسيرها و تبين مقاصدها، فمن حاول الوقوف على كلماتهم فى هذا الموضوع فليرجع إلى كتاب «الاحتجاج» للشيخ الطبرسى.

و لعل ما ذكرنا كاف فى تبلور دور أئمه أهل البيت عليهم السلام فى صيانه العقيدة الساميه، و الدفاع عن حياض الدين بالبرهنه و الخطاب.

لكن إكمالاً للبحث نأتى ببعض المناظرات التى دارت بينهم و بين أهل الضلال عملاً بقوله سبحانه: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمُؤَعَّظِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». ٢

ص: ٢٣٦

إن الدعوة الصحيحة تتحقق بأمر ثلاثة:

١.الدعوه بالحكمه و الحجّه العقليه التى تفيد العلم و الإذعان بالمدعى،و قد استخدمها القرآن الكريم فى مجال التنديد بالوثنيه و دحض الشرك،يقول سبحانه: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ». ١

٢.الدعوه بالموعظه الحسنه،و هى البيان الذى تلين به النفس و يرقّ له القلب لما فيه صلاح حال السامع،و يستخدمه الآباء عند إرشاد الأبناء،و الخطباء عند الجلوس على منصّه الخطابه.

٣.الجدل و هو الحجّه التى تستعمل لإفحام الخصم باستخدام مسلّماته،غير أنّ القرآن يدعو إلى العظه التى هى أحسن،و بالطبع إلى الجدل مثلها،و قد استخدمها العتره الطاهره فى أكثر المجالات،و لأجل إيقاف القارئ على قسم من مناظراتهم التى صانوا بها العقيدة الإسلاميه عن الانحراف،نأتى ببعضها:

الأولى:تفسير القضاء و القدر

كانت العرب فى العصر الجاهلى قائله بالقضاء و القدر بمعنى كون الإنسان مسيراً لا مختاراً،و أنّه أمام الحوادث مكتوف اليدين،و لا محيص له عن التسليم لما قُضى.و قد كانت هذه العقيدة راسخه فى أذهان كثير من المسلمين فى عصر النبى و بعده،حتى روى أنّ رجلاً سأل عليّاً عليه السلام بعد انصرافه من الشام فقال:يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام أبقضاء و قدر؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:«نعم يا شيخ،ما علوتم تلعه و لا هبطتم بطن

وإِلاَّ بقضاء من الله و قدر».

فقال الرجل: عند الله أحتسب عنائي، و الله ما أرى لى من الأجر شيئاً!!

فقال على عليه السلام: «بلى، فقد عظم الله لكم الأجر فى مسيركم و أنتم ذاهبون، و على منصرفكم و أنتم منقلبون، و لم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين، و لا إليه مضطرين».

فقال الرجل: فكيف لا نكون مضطرين و القضاء و القدر ساقانا، و عنهما كان مسيرنا؟!!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لعمرك أردت قضاءً لازماً، و قدراً حتماً، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب و العقاب، و سقط الوعد و الوعيد، و الأمر من الله و النهى، و ما كانت تأتى من الله لائمه لمذنب، و لا محمده لمحسن، و لا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، و لا المذنب أولى بعقوبه الذنب من المحسن، تلك مقالة إخوان عبده الأوثان، و جنود الشيطان، و خصماء الرحمن، و شهداء الزور و البهتان، و أهل العمى و الطغيان، هم قدرية هذه الأمة و مجوسها، إن الله تعالى أمر تخيراً، و نهى تحذيراً، و كلف يسيراً، و لم يعص مغلوباً، و لم يطع مكرهاً، و لم يرسل الرسل هزلاً، و لم ينزل القرآن عبثاً، و لم يخلق السماوات و الأرض و ما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار».

قال: ثم تلا عليهم: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» ١. قال: فنهض الرجل مسروراً و هو يقول: أنت الإمام الذى نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضواناً

(١)

ص: ٢٣٨

(١-٢). الاحتجاج: ١/٤٩٠. [١]

الثانيه:عدم احتجابه سبحانه بالسموات السبع

لقد كان التجسيم و الاعتقاد بوجود الجبهه لله من عقائد اليهود،و قد تسربت تلك العقيده عن طريق مستسلمه أهل الكتاب إلى أوساط المسلمين،فحسبه أهل الحديث أنه سبحانه فوق السموات السبع،و أنه جالس على عرشه، و العرش يئط أطيط الرجل،و لم تزل هذه العقيده محفوظه عند ابن تيميه و أتباعه. (1)و هي عقيده سخيغه ساقطه تضاد القرآن الكريم و العقل الحصيف.

و قد كافح أئمه أهل البيت عليهم السلام هذه الفكره المستورده،و هذا هو الإمام على ابن أبي طالب عليه السلام سمع رجلاً يقول:«و الذي احتجب بسبع طباق»فعلامه بالدرّه،ثم قال له:«يا ويلك! إنّ الله أجلّ من أن يحتجب عن شيء،أو يحتجب عنه شيء،سبحان الذي لا يحويه مكان،و لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء».

فقال الرجل:أ فأكفر عن يميني يا أمير المؤمنين؟

قال:«لا،لم تحلف بالله فيلزمك كفاره،و إنّما حلفت بغيره». (2)

الثالثه:اتحاد الصفات مع الذات

المتسالم عند الناس هو أنّ الصفه غير الموصوف و أنّ الأولى عارضه للثاني، و قد اختمرت تلك الفكره في أذهان العامه حسب احتكاكهم بالماديات، فهناك إناء و له لون،و إنسان و له علمه،و على ضوء ذلك زعموا أنّ علمه سبحانه زائد على ذاته و أنّ مقتضى الصفه هو الاثنيه.

ص: ٢٣٩

١- ١). العقيده الواسطيه،الرساله التاسعه من مجموع الرسائل الكبرى:٣٩٨.

٢- ٢). الاحتجاج:١/٤٩٦؛ [١]التوحيد للصدوق،ص ١٧٤ الباب ٢٨،الحديث ٣.

و لما كان هذا القول مؤدياً إلى الشرك و تعدّد القدماء قام أئمّه أهل البيت عليهم السلام بوجه تلك الفكره الخاطئه فى بعض مناظراتهم.

روى محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: فى صفه القديم: إنّه واحد صمد، أحدى المعنى، ليس بمعانٍ كثيره مختلفه.

قال: قلت: جعلت فداك إنّه يزعم قوم من أهل العراق أنّه يسمع بغير الذى يبصر، و يبصر بغير الذى يسمع؟

قال: فقال: «كذبوا و ألدوا، و شَبَّهوا الله تعالى، إنّه سميع بصير، يسمع بما به يبصر، و يبصر بما به يسمع».

قال: فقلت: يزعمون أنّه بصير على ما يعقله؟

قال: فقال: تعالى الله إنّما يعقل من كان بصفه المخلوق، و ليس الله كذلك». (1)

الرابعه: البرهنه على أنّ الحسين من أبناء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

لقد أراد أهل النصب و أصحاب العداة أن ينكروا كون الحسين من أبناء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قد أشاعوا تلك الفكره، لأنّ الولد عندهم عباره عمّن ينتسب إلى الرجل بنفسه أو عن طريق ابنه لا بنته، أخذاً بالرأى الجاهلى فى تفسير الولد، قالوا: بنونا بنو أبنائنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

و بما أنّ الحسين كانا يتصلان بالنبي عن طريق بنته فاطمه عليها السلام فلا يصحّ وصفهما بأنّهما من أبناء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٢٤٠

وقد رد على تلك الفكرة، تلاميذ أبي جعفر الباقر عليه السلام ببعض الآيات القرآنية، حيث عدّ القرآن عيسى بن مريم من آل إبراهيم وقال: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ [إبراهيم] دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ». ١ حيث عدّ «عيسى» من ذريته إبراهيم وهو يتصل به من جانب الأم.

كما احتجوا عليهم بقوله سبحانه: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» ٢، وقد اتفق المفسرون على أنّ المراد من قوله: «أَبْنَاءَنَا» هو الحسنان.

هذا هو الذى احتج به تلاميذ الإمام و من تربى فى حجره، لكن الإمام الباقر عليه السلام احتج بشكل آخر فقال مخاطباً أبا الجارود: «و الله يا أبا الجارود! لأعطينكها من كتاب الله آية تسميهما أنهما لصلب رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم لا يردها إلا كافر».

قال: قلت: جعلت فداك و أين؟

قال: «حيث قال الله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ - إلى قوله: - وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ» ٣، فسلمهم يا أبا الجارود هل يحلّ لرسول الله صلى الله عليه وآله و سلم نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا: نعم، فكذبوا و الله، و إن قالوا: لا، فهما و الله ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم لصلبه، و ما حرّم عليه إلا للصلب». (١)

ص: ٢٤١

لم يزل برهان النظام دليلاً واضحاً و مقنعاً لعامة الناس، بالأخص إذا كان هادفاً لغايه خاصه، إذ لا تخضع الهادفيه للصدفه، بل هي تكشف عن خضوع النظام لخالق مدبر عالم، أو وجد مصنوعه، لغايه عقلانيه.

و هذا النوع من البرهان كثير الدوران في الذكر الحكيم و الروايات الشريفه نذكر منها ما يلي:

دخل أبو شاعر الديصاني على أبي عبد الله عليه السلام و قال يا جعفر بن محمد: دلّني على معبودي!

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «اجلس!» فإذا غلام صغير في كفه بيضه يلعب بها، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ناولني يا غلام البيضه!» فناوله إياها، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا ديصاني! هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق، و تحت الجلد الرقيق ذهبه مائعه، و فضه ذائبه، فلا الذهبه المائعه تختلط بالفضّه الذائبه، و لا الفضّه الذائبه تختلط بالذهبه المائعه، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحها، و لم يدخل فيها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدري للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أ ترى له مدبراً؟».

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمداً عبده و رسوله، و أنك إمام و حجّه من الله على خلقه، و أنا تائب [إلى الله تعالى] ممّا كنت فيه. (١)

ص: ٢٤٢

قد تعرفت على أنّ التجسيم و الجهه كان مختمراً في أذهان المسلمين و قلماً يتفق لأحدٍ منهم أن يتصور تصوّراً صحيحاً من إحاطته سبحانه بالعالم إحاطةً قيوماًه.

و هذا ابن أبي العوجاء زنديق عصره بعد ما سمع كلمه «الله» سبحانه عن الصادق عليه السلام قال له:

ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك! كيف يكون غائباً مَنْ هو مع خلقه شاهد، و إليهم أقرب من جبل الوريد، يسمع كلامهم و يرى أشخاصهم و يعلم أسرارهم؟» فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كلّ مكان، أ ليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض، و إذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟!!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، و خلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان و لا يشتغل به مكان، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان». (1)

فقد استدلل الإمام بأنّ إنكار إله محيط بالعالم نابع عن قياس الممكن بالواجب و المخلوق بالخالق. فالممكن لأجل كونه محدوداً إذا وقع في مكان يخلو عنه مكان آخر، و أما الواجب لأجل سعه وجوده و عدم تحديده يكون حاضراً في كلّ مكان، لا حضوراً حلولياً، بل قيوماً، لقيام كلّ ممكن بوجوده قيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي.

ص: ٢٤٣

لقد شاع العمل بالقياس بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لقله النصوص فى المسائل المستجده، فلم يجدوا بدّاً من العمل بالقياس والاستحسان و سائر القواعد التى لم يدلّ على حجيتها الكتاب و السنّه، و إنّما التجئوا إليها لإعواز النصوص و الإعراض عن أئمّه أهل البيت عيبه علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

كان أبو حنيفة من أعلام العاملين بالقياس، و لذلك عُرف فقهاء العراق بأهل القياس، و فيما دار بينه و بين أبى عبد الله عليه السلام من المناظره يظهر قوه منطق المناظر و رجوع الخصم إلى الحق.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «فانظر إلى قياسك إن كنت مقيساً أيما أعظم عند الله:

القتل أم الزنا؟»

قال: بل القتل.

قال: «فكيف رضى الله تعالى فى القتل بشاهدين، و لم يرض فى الزنا إلا بأربعة؟» ثم قال له: «الصلاه أفضل أم الصيام؟» قال: بل الصلاه أفضل.

قال عليه السلام: «فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاه فى حال حيضها دون الصيام، و قد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاه».

قال له: «البول أقدر أم المنى؟».

قال: البول أقدر.

قال عليه السلام: «يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المنى، و قد أوجب الله تعالى الغسل من المنى دون البول».

(١)

ص: ٢٤٤

الثامنة: إبطال الرؤيه يوم القيامة

إنَّ أبا قره كان أحدَ المحدثين الكبار في عصر الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام فدخل عليه و دار بينهما كلام طويل،نورد منه ما يلي:

قال أبو قره:فإننا رُوينا أنَّ الله قسَم الرؤيه و الكلام بين نبيين،فقسَم لموسى عليه السلام الكلام و لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم الرؤيه.

فقال أبو لحسن عليه السلام:«فمن المبلِّغ عن الله إلى الثقلين الجن و الإنس أنه لا- تدركه الأبصار و لا يحيطون به علماً و ليس كمثلته شيء،أ ليس محمد صلى الله عليه و آله و سلم و؟!» قال:بلى.

قال أبو الحسن عليه السلام:«فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله،و أنه يدعوهم إلى الله بأمر الله،و يقول:إنه لا تدركه الأبصار،و لا يحيطون به علماً و ليس كمثلته شيء،ثم يقول:أنا رأيتُه بعيني و أحطتُ به علماً و هو على صورهِ البشر،أما تستحيون؟! ما قدرت الزنادقه أن ترميه بهذا:أن يكون أتى عن الله بأمر ثم يأتي بخلافه من وجه آخر». (١)

التاسعة: تصحيح فهم الحديث النبوي

لم يزل أصحاب الحديث يستدلُّون على التجسيم بالحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال:«إنَّ الله خلق آدم على صورته».

فالضمير حسب زعمهم يرجع إلى الله،فتكون النتيجة أنَّ لله سبحانه صورهِ كصورهِ الإنسان و قد خلق آدم على غرار صورته.

ص: ٢٤٥

فلما سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن هذا الحديث قال:

«قاتلهم الله لقد حذفوا أوّل الحديث، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ برجلين يتساويان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: «قبح الله وجهك ووجه من يُشبهك». فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك! فإنّ الله عز وجل خلق آدم على صورته».(١)

العاشرة: مكافحه الغلو

كانت ظاهرة الغلو فاشيه في عصر الإمام الصادق عليه السلام وبعده إلى أن بلغت أوجها في عصر الإمام العسكري عليه السلام. و إليك مناظره دارت بين الإمام الرضا عليه السلام و أحد السائلين، قال السائل: بأبي أنت و أمّي يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فإنّ معنى من ينتحل موالاتكم و يزعم أنّ هذه كلّها من صفات على عليه السلام، و أنّه هو الله ربّ العالمين.

قال: فلما سمعها الرضا عليه السلام، ارتعدت فرائضه و تصبب عرقاً و قال: «سبحان الله عمّا يقول الظالمون و الكافرون علواً كبيراً! أو ليس علىّ كان آكلاً في الآكلين، و شارباً في الشاربين، و ناكحاً في الناكحين، و محدثاً في المحدثين؟ و كان مع ذلك مصلياً خاضعاً، بين يدي الله ذليلاً، و إليه أوهاً منيباً، أ فمن هذه صفته يكون إلهاً؟! فإن كان هذا إلهاً فليس منكم أحد إلا هو إله لمشاركته له في هذه الصفات الدالات على حدوث كلّ موصوف بها».(٢)

ص: ٢٤٦

١-١. الاحتجاج: ٣٨٥/٢، [١] المناظره ٢٩٢.

٢-٢. الاحتجاج: ٤٥٤/٢، [٢] المناظره ٣١٤.

الحادي عشره:استنطاق القرآن في مورد إسلام الذمّي

قدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأه مسلمه، فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم.

فقال يحيى بن أكتم: قد هدم إيمانه شركه و فعله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثه حدود، وقال بعضهم: يفعل به كذا و كذا.

فأمر المتوكل بالكتاب إلى أبي الحسن العسكري عليه السلام و سؤاله عن ذلك.

فلما قرأ الكتاب كتب عليه السلام: «يضرب حتى يموت»، فأنكر يحيى و أنكر فقهاء العسكر ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين! سله عن ذلك فإنه شيء لم ينطق به كتاب، و لم يجئ به سنّه.

فكتب إليه: إن الفقهاء قد أنكروا هذا، و قالوا: لم يجئ به سنّه و لم ينطق به كتاب، فبين لنا لِمَ أوجبت عليه الضرب حتى يموت؟

فكتب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَيْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» الآية. (١) قال: فأمر به المتوكل فضرب حتى مات. (٢)

الثانيه عشره: اعتراف الزنادقه بعجزهم عن نقض القرآن

اجتمع ابن أبي العوجاء و أبو شاعر الديصاني الزنديق و عبد الملك البصرى و ابن المقفع عند بيت الله الحرام، يستهزءون بالحاج و يطعنون على القرآن.

ص: ٢٤٧

[١-١]. غافر: ٨٤-٨٥. [١]

[٢-٢]. الاحتجاج: ٢/٤٩٨-٤٩٩. [٢]

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منّا ربع القرآن و ميعادنا من قابل في هذا الموضوع، نجمع فيه و قد نقضنا القرآن كله، فإن في نقض القرآن إبطال نبوه محمد، و في إبطال نبوته إبطال الإسلام و إثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك و افترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء:

أمّا أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: «فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا» ١، فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها و جمع معانيها شيئاً، فشغلتنى هذه الآية عن التفكير فيما سواها.

فقال عبد الملك: و أنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: «يا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَجْمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ» ٢، و لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاعر: وأنا منذ فارقتم مفكر في هذه الآية: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» ١، لم أقدر على الإتيان بمثلهما.

فقال ابن المقفع: يا قوم! إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتم مفكر في هذه الآية: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ٢، لم أبلغ المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلهما.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك. إذ مرّ بهم جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام فقال: «قُلْ لئن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» ٣، فنظر القوم بعضهم إلى بعض و قالوا: لئن كان للإسلام حقيقه لما انتهت أمر وصيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلا إلى جعفر بن محمّد، والله ما رأينا قط إلا هبناه و اقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرّقوا مقرّين بالعجز. (١)

هذه نماذج من مناظرات أئمّه أهل البيت في مجالات مختلفه، و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «الاحتجاج» للعلامة الطبرسي و «بحار الأنوار» للعلامة المجلسي.

و قد تربي في أحضانهم رجال صاروا أبطال المناظره، فخرجوا في حله الجدال العلمي بوجه مشرقه، منهم: هشام بن الحكم، مؤمن الطاق، فضال بن حسن بن فضال، إلى غير ذلك من متكلمي عصر الأئمّه الذين تقرأ تفاصيل حياتهم في هذه الموسوعه.

ص: ٢٤٩

هذه رساله متواضعه فى علم الكلام و علل نشوئه و مناهجه و مسائله الى غير ذلك، قدّمناها إليك أيها القارئ الكريم لتكون على بصيره من سير هذا العلم، و تكون تمهيداً لما سيوافيك من حياه رواد هذا العلم من المتقدمين و المتأخرين، الذين بذلوا جهوداً جباره فى إرساء قواعد هذا العلم و ردّ الشبهات و التموهيات عن وجه الدين القويم.

و أنا أختم رسالتى هذه بما ختم به الشيخ أحمد التلمسانى مؤلف «نفع الطيب»، مقدّمه كتابه حتى يكون ختامه مسك. و من يتوسّل بالنبيّ محمّد

تمّ تحرير هذه الرساله، يوم ميلاد النبيّ الأعظم، محمد المصطفى و سبطه الإمام الصادق عليهما السلام السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من شهور عام ١٤٢٤ من الهجره النبويه.

و الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص: ٢٥٠

الفصل الثاني: الخبر الواحد في الشؤن الدينيه بين الرفض و القبول

اشاره

ص: ٢٥١

الخبر الواحد في الشئون الدينيه بين الرفض و القبول بعث الله سبحانه نبيه الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم بدين مشرق يحتوى على أصول يجب الاعتقاد بها و عقد القلب عليها، و أحكامٍ عمليه يطلب العمل بها، و تطبيق السلوك عليها في الحياه الفرديه و الاجتماعيه، فكان لفظ الإسلام شاره العقيده و الشريعه.

فالمطلوب من العقيده هو الإذعان القلبى، كما أنّ المطلوب من الشريعه هو العمل، فكان الشريعه ثمرة العقيده، و كل إنسان ينطلق في سلوكه من عقيدته و إيمانه.

و الذى يجب إلفات النظر إليه هو أنّ السلوك العملى و تطبيق الحياه على الحكم الشرعى ليس رهن الإذعان بصحه الحكم الشرعى، بل ربّما يعمل به الإنسان أو يتركه مع الشك و التردد في صحه حكم ما، بشهاده أنّ جميع الأحكام الفرعيه ليست من القطعيّات، بل هى بين مقطوع و مظنون بها، كما أنّ له تلك الحاله مع الظن بصحه الحكم دون اليقين بها، فالعمل و التطبيق في تناول الإنسان في أى وقت شاء، سواء أشك في صحه الحكم أو ظنّ بها أو قطع.

و أمّا العقيدته بمعنى عقد القلب على شىء و أنه الحق تماماً دون غيره فتختلف عن الأحكام الفرعية، فهي رهن أسس و مبادئ تقود الإنسان إلى الإذعان على نحوٍ لولاها لما حصلت له تلك الحاله و إن شاء و أصرّ على حصول اليقين.

فالعامل بالأحكام من مقوله الفعل و هو واقع تحت إرادة الإنسان، ربّما يعمل بما لا يجزم بصحته كما يعمل مع الجزم بها، و مثال ذلك أنّ أئمة المذاهب الفقيهيه مختلفون فى الآراء و المصيب منهم واحد، و مع ذلك فأتباع كل إمام يعملون بفقيهه مع علمهم بخطئه إجمالاً فى بعض الآراء لعدم عصمته.

و لكن الإذعان من مقوله انفعال النفس بالمبادئ التى تؤثر فى طروء هذه الحاله على صحيفتها، و لو لا تلك المبادئ لما ترى له أثراً فى الذهن.

يقول سبحانه: «لا إكراه فى الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» . (١) ما ذا يريد الله سبحانه من هذه الجملة؟ هل يريد أنّ الدين لا يمكن أن يتعلّق به إكراه؟! لأنّه من شئون القلب الخارجه عن قدره، تماماً كالتصورات الذهنيه، و أنّما يتعلّق الإكراه بالأقوال و الأفعال التى يمكن صدورها عن إرادته القائل و الفاعل. (٢)

يقول العلامة الطباطبائى: إنّ الدين و هو سلسله من المعارف العلميه التى تتبعها أخرى عمليه، يجمعها أنّها اعتقادات، و الاعتقاد و الإيمان من الأمور القليه التى لا يحكم فيها الإكراه و الإيجاب، فإنّ الإكراه إنّما يؤثر فى الأعمال الظاهريه و الأفعال و الحركات البدنيه الماديه.

و أمّا الاعتقاد القلبى فله علل و أسباب أخرى قليه من سنخ الاعتقاد

ص: ٢٥٤

١- ١). البقره: ٢٥٦. [١]

٢- ٢). تفسير الكاشف: ٣٩٦/١. [٢]

و الإدراك، و من المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلميه تصديقاً علمياً. (١)

فما ادّعه أعداء الإسلام من: «أن الإسلام قام بالسيف و القوه» ما هو إلا ادّعاء فارغ يجانب العقل، لأنّ السيف لا يؤثر في العقيدة و الإذعان و إن كان يؤثر في تطبيق العمل وفق الشريعة.

و على ضوء ذلك قال المحققون بحجيه خبر الواحد العادل في الأحكام العمليه دون الأصول و العقائد، لأنّه لا يفيد العلم و اليقين الّذى هو أساس العقيدة إلا إذا احتفّ بقرائن خارجيه تورث العلم و الجزم، و ما هذا إلا لأنّ المطلوب في الأحكام هو العمل، و هو أمر اختياري يقوم به الإنسان حتّى في حالتى الشك و التردد في صحه الحكم.

و أمّا الأصول و المعارف فالمطلوب فيها عقد القلب و الإذعان على نحو يطرد الطرف النقيض بإحكام، و الخبر الواحد بما هو هو -و إن كان الراوى ثقّه خصوصاً إذا كان بعيداً عن مصدر الوحي- لا يورث إلا الظن، و هو لا يغنى في مجال العقيدة عن الحق شيئاً.

فعلى ما ذكرنا فالخبر الواحد إذا كان راويه ثقّه و سنده صحيحاً، فإنّه يوصف بالصحه، و لكن لا ملازمه بين صحه السند، و صحه المضمون، لأنّ أقل ما يمكن أن يقال في آحاد الثقات أنّهم ليسوا بمعصومين، و يحتمل في حقّهم الخطأ و الاشتباه في السمع و البصر و الذاكرة، فكيف يفيد قولهم العلم بالصحه؟ و مع ذلك فالخبر الواحد حجه في الفرعيات الّتى لا تعدّ و لا تحصى، لأنّ فرض

ص: ٢٥٥

تحصيل العلم فيها يستلزم الحرج، وربما لا يناله الفقيه، ولذلك اعتبره الفقهاء حجه من عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا كما اعتبره العقلاء حجه في حياتهم الاجتماعيه و سلوكهم الفردى.

و أما الأصول و المعارف فهى رهن دليل قطعى حاسم يجلب اليقين و يخاصم الطرف المقابل.

نعم شدّد عن هذه القاعده الّتى تؤيدها الفطره و الكتاب و السنّه جماعه اغتروا بروايات الآحاد فجعلوها أسساً للعقائد و الأصول، يقول ابن عبد البر: ليس فى الاعتقاد كلّ فى صفات الله و أسمائه إلا ما جاء من أخبار الآحاد فى ذلك كلّ أو نحوه يسلم له، و لا يناظر فيه.

و قال أيضاً: و كلّهم يدين بخبر الواحد العدل فى الاعتقادات، و يعادى و يوالى عليها، و يجعلها شرعاً و ديناً فى معتقده، و على ذلك جماعه أهل السنّه. (١)

و جاء فى شرح الكوكب المنير: و يعمل بأحاد الأحاديث فى أصول الديانات، و حكى ذلك ابن عبد البر إجماعاً. (٢)

يقول ابن القيم: إنّ هذه الأخبار لو لم تفد اليقين، فإنّ الظن الغالب حاصل منها، و لا يمتنع إثبات الأسماء و الصفات بها، كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطليبيه بها... و لم تزل الصحابه و التابعون و تابعوهم و أهل الحديث و السنّه يحتجون بهذه الأخبار فى مسائل الصفات و القدر و الأسماء و الأحكام، و لم ينقل عن أحد منهم البتّه أنّه جوّز الاحتجاج بها فى مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله و أسمائه

ص: ٢٥٦

١- ١). التمهيد: ٨/١.

٢- ٢). شرح الكوكب المنير: ٣٥٢/٢ و انظر: لوامع الأنوار الإلهيه: ١٩/١.

و قد نقل هذه النصوص مؤلف كتاب «موقف المتكلمين من الكتاب و السنّه» عن المصادر التي أشرنا إليها في الهامش و استنتج من هذه الكلمات ما يلي:

يرى أهل السنّه و الجماعه الأخذ بكل حديث صحّ عن النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم في العقائد، و اعتقاد موجهه، سواء أ كان متواتراً أم آحاداً، إذ إنّ كلّ ما صحّ عن النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم و جب القطع به و اعتقاده و العمل به، سواء أوصل إلى درجه التواتر أم لم يصل، و سواء أ كان ذلك في الاعتقادات أم فيما يسمّى بالعمليات، أي:

المسائل و الأحكام الفقهيّه.

- إلى أن قال:- فمن أفاده الدليل العلم القاطع و جب عليه الأخذ به و تيقن دلالته، و من أفاده الظن الغالب لم يجز له أن يترك هذا الظن الغالب لعجزه عن تمام اليقين. (٢)

إلى غير ذلك من الكلمات التي يشبه بعضها بعضاً، و يدعو الكل إلى لزوم بناء العقيدته على العلم و اليقين إنّ تيسّر، و إلا فعلى الظن و لا يجوز ترك الظن الغالب، لعجزه عن اليقين.

أقول: إن هؤلاء- نور الله بصيرتهم- لم يفرّقوا بين الأحكام العمليه و الأصول العقائديه، و قاسوا الثانيه بالأولى مع أنّ القياس مع الفارق، فالمطلوب في الأحكام هو العمل و هو يجتمع مع العلم و الظن، و لكن المطلوب في الثانيه هو عقد القلب و الجزم و رفض الطرف المخالف، و هو لا يتولّد من الظن، فإنّ الظن لا يُذهب

ص: ٢٥٧

١- ١. مختصر الصواعق ٢/٤١٢. [١]

٢- ٢. موقف المتكلمين: ١/١٩٨.

الشك، بخلاف اليقين فإنه يطردهما معاً.

و تكليف الظان بموضوع، بالإذعان به و عقد القلب عليه تكليف بما لا يطاق، كتكليف الظان بطلوع الفجر، بالإذعان به.

و لو كان العمل بالظن فى العقائد أمراً مطلوباً لما ندد به القرآن الكريم فى غير واحد من الآيات. قال سبحانه: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» ١، و قال: «وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» ٢، إلى غير ذلك من الآيات.

معطيات الخبر الواحد فى العقائد

لو قمنا بتنظيم العقيدة الإسلاميه على ضوء الخبر الواحد لجاءت العقيدة الإسلاميه أشبه بعقائد المجسمه و المشبهه بل الزنادقه.

نفترض أن الخبر الواحد فى العقيدة حجه إذا كان السند صحيحاً، فهل يصح لنا عقد القلب على ما رواه مسلم عن أبى هريره عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال:

لا تملأ النار حتى يضع الرب رجله فيها

تحتاجت النار و الجنة فقالت النار: أثرت بالمتكبرين و المتجبرين، و قالت الجنة: فمالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس و سقطهم و عجزهم، فقال الله للجنة: أنت رحمتى أرحم بك من أشياء من عبادى، و قال للنار: أنت عذابى أعذب بك

من أشياء من عبادى، و لكل واحد ملؤها، فأما النار فلا تمتلى فيضع قدمه عليها فتقول: قط قط فهناك تمتلى و يزوى بعضها إلى بعض.

و لنا على الحديث ملاحظات تجعله فى مدحرة البطلان:

الأولى: أى فضل للمتكبرين و المتجبرين حتى تفتخر بهم النار، ثم و من أين علمت الجنة بأن الفائزين بها من عجزه الناس مع أنه سبحانه أعدّها للنبيين و المرسلين و الصديقين و الشهداء و الصالحين؟!

الثانية: ثم هل للجنة و النار عقل و معرفه بمن حلّ فيهما من متجبر أو ضعيف و ساقط من الناس؟

الثالثة: أنه سبحانه قد أخبر بأنه يملأ جهنم بالجنة و الناس لا برجله تعالى، كما قال سبحانه: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» ١، و قال: «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» . (١)

و على ذلك فالموعود هو امتلاء جهنم بهما، و ما هو المتحقق إنما هو امتلاء النار بوضع الرب رجله فيها، فما وعد لم يتحقق، و ما تحقق لم يعد.

الرابعة: هل لله سبحانه رجل أكبر و أوسع حتى تمتلى بها نار جهنم إلى حدّ يضيق الظرف عن المظروف فينادى بقوله: قط قط؟!

فالحديث أشبه بالأسطورة، و قد صاغها الراوى فى ثوب الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فجنى به على الرسول و حديثه و سوّد صحائف كتب الحديث و صحيفه عمره - أعاذنا الله من الجهل المطبق، و الهوى المغرى - .

ص: ٢٥٩

ولا- يتصوّر القارئ أنّ ما ذكرناه حديث شاذ بين أخبار الآحاد، لا- بل هناك أخبار كثيرة لو اعتمدنا عليها ل جاءت العقيدة الإسلامية مهزلة للمستهزئين، فإن كنت في شك فلاحظ الحديث التالي:

نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا

أخرج البخارى فى صحيحه، عن أبى عبد الله الأغر و أبى سلمه بن عبد الرحمن، عن أبى هريره:

إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: يتنزل ربنا تبارك و تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: مَنْ يدعونى فأستجيب له، مَنْ يسألنى فأعطيه، و مَنْ يستغفرنى فأغفر له. (١)

و فى الحديث تساؤلات:

أولاً: أنّ ربنا هو الغفور الرحيم، و هو القائل عزّ من قائل: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

٢

و القائل تبارك و تعالى: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ٣

و القائل سبحانه: «قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ

ص: ٢٦٠

١- ١). صحيح البخارى: ٧١/٨، باب الدعاء نصف الليل من كتاب الدعوات؛ و أخرجه مسلم فى صحيحه: ١٧٥/٢، باب الترغيب فى الدعاء من كتاب الصلاة عن أبى عبد الله الأغر و عن أبى سلمه بن عبد الرحمن عن أبى هريره.

رَحْمَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا». ١ إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن سعه رحمته لعموم مغفرتة.

كما أنه سبحانه وعد عباده بأنه يستجيب دعاء من دعاه و يقول: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ٢، إلى غير ذلك من الآيات الداله على قُرب المغفِره من المستغفرين، و الإجابة من اللّٰه سبحانه للسائلين آناء الليل و النهار فأى حاحه إلى نزول الرب الجليل من عرشه الكريم فى الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا و ندائه بقوله: «مَنْ يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ».

ثانياً: تعالٰى ربّنا عن النزول و الصعود و المجرى و الذهاب و الحركه و الانتقال و سائر العوارض و الحوادث، و قد صار هذا الحديث سبباً لذهاب الحشويه إلى التجسيم و السلفيه إلى التشبيه، و إن كنت فى شك فاستمع لكلام من أحيا تلك الطريقه بعد اندثارها و انطماسها، يقول الرّحاله ابن بطوطه فى رحلته:

و كان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيميه كبير الشام يتكلم فى فنون، إلا أنّ فى عقله شيئاً، و كان أهل دمشق يعظّمونه أشدّ التعظيم، و يعظّمهم على المنبر، و تكلم مرّه بأمر أنكره الفقهاء. و رفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهره، و جمع القضاة و الفقهاء بمجلس الملك الناصر، و تكلم شرف الدين الزواوى المالكى، و قال: «إنّ هذا الرجل قال كذا و كذا» و عدّد ما أنكر على ابن تيميه، و أحضر الشهود بذلك و وضعها بين يدى قاضى القضاة.

قال قاضى القضاة لابن تيميه: ما تقول؟ قال: لا إله إلا اللّٰه، فأعاد عليه

فأجاب عليه بمثل قوله: فأمر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، و صَنَّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سَمَّاه بـ«البحر المحيط».

ثم إنَّ أمَّه تعرضت للملك الناصر، و شكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانيه، و كنتُ إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة، و هو يعظ الناس على منبر الجامع و يذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إنَّ الله ينزل إلى السماء الدنيا كتولي هذا، و نزل درجه من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، و أنكر ما تكلم به، فقامت العامه إلى هذا الفقيه و ضربوه بالأيدي و النعال ضرباً كثيراً. (١)

نحن و مؤلف «موقف المتكلمين»

إشاره

ألَّف الشيخ سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن كتاباً باسم «موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب و السنه، عرضاً و نقداً» في جزئين، و قدَّمه إلى كليه أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميه في عام ١٤١٣ هـ، لنيل درجه الدكتوراه في قسم العقيدة و المذاهب المعاصره، و قد حصل على مرتبه الشرف الأولى.

و قد أدان- المؤلف في خاتمه ذلك الكتاب- المتكلمين بأُمر عديده منها:

١. يرى المتكلمون أنه لا يجوز الاستمساك بأخبار الآحاد في مسائل العقيدة بحجّه أنها ظنيّه، و مسائل العقيدة مبناها على القطع، و قد تبين بطلان هذا الزعم و تناقضه و مخالفته لمنهج السلف. (٢)

ص: ٢٦٢

١- ١. ابن بطوطه: الرحله: ١١٢، طبع دار [١] الكتب العلميه.

٢- ٢. موقف المتكلمين: ٩١٨/٢.

أقول: أراد الكاتب إدانة المتكلمين المجاهدين في معرفه الله و صفاته، و الذين وعد الله سبحانه أمثالهم بقوله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» ١، و لكنه في الوقت نفسه مدحهم من حيث لا- يشعر، لا تباعهم الذكر الحكيم في ترك الظن في الأصول و العقائد، و بالتالي ترك المنهج الذي نسبه إلى السلف، و إن كان قسم من السلف بريئاً من هذه الوصمة.

٢. إنَّ المتكلمين غلوا في تعظيم العقل حتى جعلوه حاكماً على الشرع، و مقدماً عليه عند التعارض، و حتى أوجب بعضهم على الله-بالعقل-أموراً، و منعوا عليه أموراً أخرى. (١)

نلفت نظر الكاتب إلى أمرين:

١. إنَّ الوحي دليل قطعي، لا يتطرق إليه الخطأ و الاشتباه، كما أنَّ حكم العقل إذا استمدَّ حكمه من البرهان، مثله، أمر قطعي، فكيف يمكن أن يقع التعارض بين القطعيين؟! فما يُتراءى من صورته التعارض بين الوحي القرآني و ما استنبطه العقل أو دلَّت عليه التجربة فلا يخلو الحال من أحد أمرين:

١. إمّا أن يكون ما فهمناه من الشرع أمراً خاطئاً، دون أن يتطرق الخطأ إلى نفس الشرع، أو يكون ما استفدناه من البرهان مغالطه، حدثت لقصور أو تقصير في المبادئ، و قد ذكرنا تفصيل ذلك في نقد الفروض العلمية التي ربّما يتصوّر كونها معارضة للقرآن.

نعم إذا كان المنسوب إلى الشرع أمراً ظنياً، غير قطعي، كأخبار الأحاد، فلو كان هناك تعارض بينه و بين العقل القاطع، فالمجال للثاني، لانعدام الظن

ص: ٢٤٣

(٢-١). موقف المتكلمين: ٩١٩/٢.

بالقطع بخلافه.

٢. إنَّ الكاتب لم يفرِّق بين الإيجاب المولوى و الإيجاب الاستكشافى، فخلط أحدهما بالآخر، فأما الأوّل فهو كفر و زندقه، فأئى للعبد تلك المولويه حتى يكلف ربّه بما حكم به عقله؛ و أما الثانى فهو نفس التوحيد، أعنى:

استكشاف الآثار من المؤثرات، فإذا وقف الباحث على أنّ من صفاته سبحانه كونه عدلاً حكيماً، فيستكشف من خلال هذه الصفات أنّه برىء من الظلم و القبح، و أنّه لا يأخذ البرىء بذنب غيره، و بعبارة أُخرى: يستكشف وجود الملازمه بين كونه حكيماً عادلاً و بين أن يفعل كذا و أن لا يفعل كذا.

و الحقّ أن الكاتب أمى بالنسبه إلى منطق المتكلمين؛ فلو رجع إلى كتب المحقّقين من المتكلمين لعرف مقاصدهم، و لما شنّ عليهم هذه الحمله العشواء.

و ما ذكره من الإدانه ليس أمراً جديداً ابتكره الكاتب، و إنّما هو أمرٌ سبق إليه غير واحدٍ من خصماء العقل و أعداء البرهان و إن كانوا يتظاهرون بالعقل و التفكير منهم الرازى؛ قال: «لا يجب على الله تعالى شىء عندنا، خلافاً للمعتزله فإنّهم يوجبون اللطف و العوض و الثواب، و البغداديون خاصه يوجبون العقاب و يوجبون الأصلاح فى الدنيا.

لنا: إنّ الحكم لا يثبت إلا بالشرع، و لا حاكم على الشرع فلا يجب عليه شىء.

و الإشكال بمعزل عن التحقيق— و أظن أنّ الرازى كان واقفاً على وضعه— و قد أجاب عنه المحقّق نصير الدين الطوسى و قال: ليس هذا الوجوب بمعنى الحكم الشرعى كما هو المصطلح عند الفقهاء، بل هذا الوجوب بمعنى كون الفعل بحيث

يستحقّ تاركه الذمّ، كما أنّ القبيح بمعنى كون الفعل بحيث يستحقّ فاعله الذمّ. والكلام فيه هو الكلام فى الحسن و القبح بعينه، و يقولون: إنّ القادر العالم الغنى لا يترك الواجب ضرورةً. (١)

٣. أبطل المتكلمون دلالات كثيرٍ من النصوص الشرعية من خلال عدّه طرق، كاتّباع المتشابه و القول بالمجاز و التأويل و التفويض. (٢)

أقول: قد نسب الكاتب إلى المتكلمين فى هذه العبارة القصيره أموراً أهمها أمران:

١. تفويض المراد من الصفات الخبرية إلى الله سبحانه.

٢. التأويل.

الأمر الأوّل: تفويض المراد من الصفات الخبرية إلى الله سبحانه

إنّ التفويض شعار مَنْ يرى أنّه يكفيه فى النجاه قول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله و أنّ محمداً رسول الله، و إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و الحج، و صوم رمضان»، و عند ذاك يرى أن التفويض أسلم من الإثبات الذى ربّما ينتهى -عند الإفراط- إلى التشبيه و التجسيم المبعوض، أو إلى التعقيد و اللغز الذى لا يجتمع مع سمه سهوله العقيدة.

إنّ القائلين بالتفويض رأوا أنفسهم بين محذورين، فمن جانب أنّه سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفات الخبرية و لا بد من إثباتها عليه سبحانه بلا- كلام، و من جانب آخر أنّ إثباتها بما لها من المعانى الإفراديه و التصوريه يُشرف الإنسان على التجسيم و التشبيه، فاختاروا طريقاً للتخلص من المحذورين

ص: ٢٤٥

١- (١). النقد المحصّل: ٣٤٢.

٢- (٢). موقف المتكلمين: ٩١٩/٢.

بتفويض معانيها إلى الله سبحانه مع الإيمان بمعانيها حسب ما أنزله سبحانه.

ولا يُعاب على الرجل إذا اختار طريق الاحتياط و جمع بين الواجب (الإيمان بصفات الله الخبريه) و التحرز عن مغبه التشبيه و التجسيم.

و قد نقل نظير ذلك عن إمام السلفيين أحمد بن حنبل يقول حنبل بن إسحاق: سألت أحمد بن حنبل: أ لم ترو عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قال أحمد: تؤمن بها و نصدق و لا نرد شيئاً منها إذا كانت الأسانيد صحاحاً- إلى أن قال:- قلت: أ تُزوله بعلمه أو بما ذا؟ قال: اسكت عن هذا، ما لك و هذا، معنى الحديث على ما روى بلا كيف و لا حد. (١)

إنّ الاعتقاد بنزوله سبحانه بلا كيف و حدّ تعبير آخر عن الاعتقاد بالنزول و تفويض واقعه إلى الله سبحانه.

و لو قلنا بتغايرهما فالقول بالتفويض أهون بمراتب من الإيمان بالنزول بلا كيف، فإنّ واقع النزول هو كيفية و تحرك النازل من مكان إلى مكان، و نفى الكيف يساوق نفى النزول أساساً، فالقول به بلا كيف أشبه بقولنا بوجود أسد لا رأس له و لا ذنب و لا مخلب.

ثمّ إنّ التفويض ليس إلا- عقيدته قليل من المتكلمين الذين دعاهم الاحتياط إلى ترك التدبّر في مفاهيم الصفات باللجوء إلى التفويض. و أمّا المحققون منهم فهم لا- يعطّلون العقول عن معرفته سبحانه و معرفه محامد أوصافه و جلائل نعوته، قائلين بأنّه سبحانه أنزل القرآن «تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ» ٢، فإذا كان تبيّناً لكل شيء، فكيف لا يكون تبيّناً لنفسه؟!

ص: ٢٦٦

١- ١). شرح أصول السنّه للألكائى كما فى علاقه الإثبات و التفويض: ٩٨.

هذا ما يتعلّق بالأمر الأوّل و هو التفويض الّذى نسبّه الكاتب إلى المتكلّمين، و قد عرفت ما هو سبب لجوء هؤلاء إلى التفويض و إن كانوا بالنسبه إلى المحقّقين من القلّه.

و إليك تحليل الأمر الثانى:

الأمر الثانى: التّأويل

إشاره

قد نسب الكاتب إلى المتكلّمين التّأويل و أردفه باتباع المتشابه، و كأنّ تأويلهم نوع من اتّباع المتشابه المنهى عنه فى الذكر الحكيم (١)، لكن لا بد من تبيين حقيقه التّأويل و له صورتان:

١. حمل الآيات على خلاف ظاهرها

ربّما يُفسّر التّأويل بحمل الآيه على خلاف ظاهرها، جمعاً بينها و بين حكم العقل أو العلم، و بالتالى درء التعارض بين الوحي و العقل و العلم.

و التّأويل بهذا المعنى مرفوض جدّاً، فإنّ ظاهر القرآن حجّه بلا كلام، و ليس لأحد أن يصرف الآيه إلى خلافها إلا بدليل قاطع مقبول عند العقلاء، كما هو الحال فى حمل العموم على الخصوص، و المطلق على المقيد، حيث إنّ عموم الآيه أو إطلاقها يُخصّص أو يُقيد بآيه أُخرى أو بالسّنه النبويه الّتى قام الدليل على حجيتها فهذا النوع من التصرف أمر شائع بين العقلاء، خصوصاً فى مجالس التقنين و التشريع، و بما أن القرآن نزل نجومّاً و الأحكام شُرّعت تدريجاً فربما ورد العام و المطلق فى برهه و ورد مخصّصه و مقيده فى برهه أُخرى، و هذا يوجب الجمع

ص: ٢٤٧

١- (١). لاحظ آل عمران: ٧.

بينهما بالتخصيص و التقييد، و بالتالى صرف الآيه عن ظاهرها، على نحو مقبول عند عامه الناس.

و أما التأويل بمعنى صرف الآيه عن خلاف ظاهرها فى غير مجال التقنين، فهو أمر باطل لا يسير عليه إلا الفرق الباطله كالباطنيه، و أما غيرهم فالجميع على حجه الظواهر فى عامه المجالات.

٢. الأخذ بالظهور الجُملى لا الإفرادى

نعم لا بد من تشخيص الظاهر الذى يجب الأخذ به و عليه عامه العقلاء فى محاوراتهم، فالمراد من الظاهر ليس هو الظهور التصورى و الإفرادى بل الظهور الجُملى و التصديقى، فلو قلت: رأيت أسداً فى الحَيّام، فالظهور الإفرادى للفظه أسد يقتضى تفسيره بالحيوان المفترس، و لكن بالنسبه إلى الظهور الجُملى «مجموع الجمله» و التصديقى يقتضى حمله على الرجل الشجاع، يقول القائل: أسدٌ علىّ و فى الحروب نعامه رِبْداءٌ تجفُّلٌ من صفيّر الصافر (١).

فالجمود على الظهور الإفرادى و التصورى يقودنا إلى حمل الأسد على المعنى اللغوى، و لكّنه بالنظر إلى القرائن الحافّه بالشعر و الغرض الذى صيغ لأجله الكلام يقودنا إلى حمله على الإنسان الجبان الذى يتظاهر بالشجاعه لدى الضعفاء و لكّنه فى ساحه الحرب جبان ينزوى هارباً.

و بعبارة أخرى: لا يشكّ أى متشرّع غير الباطنيه من أنّه يجب الأخذ بظواهر الكتاب دون العدول عنه قيد شعره، غير أنّ المهم هو تعيين الصغرى و أنّه ما هو الظاهر، فلنأت بمثال يوضح المقصود، يقول سبحانه: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

ص: ٢٤٨

(١-١). لعمران بن حطان السدوسى يهجو به الحجاج.

مَغْلُوهٌ إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا». ١

فالناظر في الآية لا يشك في أنه ليس المراد هو بسط الجارحه أو قبضها، بل المراد هو المعنى المكنى عنه و هو البخل و التقتير أو الجود و البذل الخارج عن الحدود المعتاده.

فتفسير الآية حسب ما ذكرنا تأويل صحيح بمعنى أول الآية و إرجاعها إلى المعنى المقصود.

و هذا رهن رفض الظهور الإفرادى و التصورى و الأخذ بالظهور الجملى و التصديقى، و هو طريقه العقلاء فى تفسير الكلمات فيها نحن نذكر نوعاً من هذا التأويل ليعرف ما هى طريقه المحققين فى تفسير الصفات الخبرية.

أ فيصح لمفسر أن يأخذ بظاهر قوله سبحانه: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا». ٢

فإن فى الأخذ بالظهور الإفرادى و التصورى وضعاً للإنسان الضعيف الذى ابتلى بالعمى و فقد البصر لعوامل وراثيه أو بيثيه أو ما شابه ذلك، فلا محيص من رفض الظهور الإفرادى و الأخذ بالظهور التصديقى و تطبيقها على الكفار الفاقدين للبصيره الذين «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

(١)

ص: ٢٦٩

١-٣). الأعراف: ١٧٩. [١]

طالما تمسك السلف و السلفيون، بالآيه التاليه لإثبات الرؤيه الحسيه لله، قال سبحانه:

«كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» ١، و قال سبحانه: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ.» ٢

إن هذه الآيه شغلت بال المثبتين و المنكرين للرؤيه، فالفرقه الأولى تُصِرُّ على أنّ النظر بمعنى الرؤيه، و الثانيه على أنّها بمعنى الانتظار.

غير أنّ الإصرار على تفسير لفظ الناظره و أنّها هل هي بمعنى الرؤيه أو الانتظار ليس أمراً مهماً، بل المهم هو التفسير الجملى لا الإفرادى.

نحن نسلم أنّ النظر هنا بمعناه اللغوى قطعاً، و لكن القرائن تدلّ على أنّ المراد الجدّى هو الانتظار، فاستعمل اللفظ فى المعنى اللغوى و لكن صار ذريعه إلى المعنى الثانى المكنّى عنه بمعنى الانتظار، كما فى قولك: (زيد كثير الرماد) فى مقام المدح مشيراً به إلى سخائه، و إلا فالمعنى الإفرادى يكون ذمّاً لا مدحاً.

و بما أنّ حمل الجملة على الكنايه ليس بصحيح إلا بقرائن قاطعه تقود الإنسان إليها، نعطف نظر القارئ الكريم إلى تلك القرائن:

نجد إنّ هنا آيات ست و تقابلات ثلاثه و التنظيم لها بالشكل التالى:

١. «كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ» يقابلها «وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» .

٢. «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ» يقابلها «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ».

٣. «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» يقابلها «تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ».

فلا شك أن الآيات الأربعة الأولى واضحة لا غموض فيها، إنما الإبهام و موضع النقاش هو الشق الأول من التقابل الثالث، فهل المراد منه جداً هو الرؤيه، أو أنها كناية عن انتظار الرحمة؟ و الذي يعين أحد المعنيين هو أن ما يقابله - أعني: «تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ» صريح في أن أصحاب الوجوه الباسره ينتظرون العذاب الكاسر لظهرهم و يظنون نزوله، و مثل هذا الظن لا ينفك عن الانتظار، فكل ظان لنزول العذاب منتظر، فيكون قرينه على أن أصحاب الوجوه المشرقه ينظرون إلى ربهم، أي يرجون رحمته، و هذا ليس تصرفاً في الآيات و لا- تأويلاً- لها، و إنما هو رفع الإبهام عن الآيه بأختها المتقابله و إرجاع الآيه إلى معناها الواقعي، و تعيين أحد المحتملين بالأدلة القاطعه.

و ترى ذلك التقابل و الانسجام في آيات أخرى، و كأنّ الجميع سبيكه واحده، كما في الآيات التاليه:

١. «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ» يقابلها «ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ»

٢. «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ» يقابلها «تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ». ١

فإن قوله: «ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ» ، قائم مقام قوله: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» فيرفع إبهام الثاني بالأول.

٣. «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ» يقابلها «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلِي نَارًا حَامِيَةً». ٢

٤. «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» يقابلها «لِسَعِيهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ». (١)

انظر إلى الانسجام البديع، والتقابل الواضح بينهما، والهدف الواحد. والجميع بصدد تصنيف الوجوه يوم القيامة، إلى: ناضره، ومسفره، وناعمه، وباسره، وغبره، وخاشعه.

أما جزء الصنف الأول فهو الرحمه والغفران، وتحكيه الآيات التاليه:

«إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»، «ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ»، «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

و أما جزء الصنف الثاني فهو العذاب، والابتعاد عن الرحمه، وتحكيه الآيات التاليه:

«تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ»، «تَزْهَقُهَا فَتَرَةٌ»، «تَصَلِي نَاراً حَامِيَةً».

أبعد هذا البيان يبقى الشك في أن المراد من قوله «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» هو انتظار الرحمه!! والقائل بالرؤيه يتمسك بهذه الآيه، ويغض النظر عما حولها من الآيات، ومن المعلوم أن هذا من قبيل محاوله إثبات المدعى بالآيه، لا محاوله الوقوف على مفادها.

و يدل على ذلك أن كثيراً ما يستخدم العرب النظر بالوجوه في انتظار الرحمه أو العذاب:

و إليك بعض ما ورد: ١. وجوه بها ليل الحجاز على الهوى

ص: ٢٧٢

فلا- نشك أنّ قوله: «وجوه ناظرات» بمعنى رائيات، و لكن النظر إلى الرحمن كناية عن انتظار النصر و الفتح. ٣. إنني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر

فلا- ريب أنّ اللفظين في الشعر و إن كانا بمعنى الرؤيه، و لكن نظر الفقير إلى الغنى ليس بمعنى النظر بالعين، بل الصبر و الانتظار حتى يعينه.

و أوضح دليل على أنّ المراد الجدّي من النظر، ليس هو الرؤيه، هو نسبة النظر إلى الوجوه لا- إلى العيون، فلو أراد الرؤيه الحسيه، لكان اللازم أن يقول: عيون يومئذ ناظره، لا وجوه يومئذ ناظره.

هذه هي طريقه المحققين من المتكلمين، و لا- أظن أن الإنسان البعيد عن الأهواء غير المتأثر بالبيئه و الرأي المُسبق، إذا تأمل ما ذكرنا يبقى له شك في المراد بالآيه، و هذا النوع من التأويل ليس من باب فرض العقيده على الآيه، و إنما هو استنتاج للآيه بنفسها و بما يشابهها من الآيات الأخرى.

و ليس التأويل بهذا المعنى، يهدف إلى صرف الآيه عن ظاهرها، بل هو عين الأخذ بالظهور الجملي، مكان الظهور الإفرادي، و إرجاع الآيه إلى المراد الجدّي منها، و إخراجها عن الظهور المتزلزل إلى الظهور المستقرّ بالتدبر و التفكير فيها و ما ورد حولها من الآيات الأخرى.

تقدير لا تصويب

لسنا في هذا المقام بصدد تصويب جميع المناهج الكلاميه و المسالك الفكرية، إذ كيف يمكن تصويب الجميع، مع أنّ المصيب واحد؟! بل الهدف

تقدير جهودهم التي بذلوها في سبيل فهم العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب و السنه و العقل الحصيف.

و ما أبعد ما بينهم و بين المتقاعسين عن فهم العقائد المقتصرين على الظهور الإفرادى فى فهم النصوص المقدسه، المؤثرين راحه النفس على التدبر و التفكير فى مضامين الآيات و مداليلها.

ثمَّه رجلا انطلقا إلى جبل ليتباريان فى تسلُّقه، فلما رأى الأوّل شموخَ الجبل و علوَّ قمته، ضَمَعَتْ إرادته و انهارت مُنْتَهه، و قَعَدَتْ به عن إنجاز ما كان يسعى إليه همته، فأثر البقاء حيث هو فى أسفل الجبل و منحدره، دون أن يخطو خطوه واحده فى طريق تسلُّقه؛ أمّا الثانى فلم يتهيبُ بعد القمه و لا شذائد الطريق، فمضى بعزم و مضاء، و ظل يكافح و يناضل و يبذل جهده فى الصعود و الارتقاء، إلى أن استبدَّ به التعب و خارت قواه، فوقف فى أثناء الطريق دون أن يبلغ القمه و يُدرك مُناه.

إن مثل المتكلم المجاهد الذى حاول أن يتعرف على أسمائه و صفاته سبحانه عن طريق التدبر و التفكير بجِدِّ و إخلاص إذا أخطأ فى بضع مسائل كمثّل متسلِّق الجبال الذى لم يتهيبُ بعد القمه و لا مصاعب الطريق فمضى بعزم و مضاء، و إن خارت قواه، و لم يصل إلى المقصد الأسنى، فهو ممدوح فى جهده و سعيه؛ و أمّا السلف و السلفيون الذين يأخذون بظواهر الآيات دون تدبر و تعقُّل و يحتجون بالظهور الإفرادى دون الجملى و يعتقدون بالظهور التصورى لا التصديقى لإراحه أنفسهم عن تعب البحث و التفكير، فحالهم حال من رأى ارتفاع الجبل فأثر البقاء فى أسفل الجبل و منحدره.

فأيهما أحق بالمدح و الثناء. و أيهما أحق أن يشمله قوله سبحانه:

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...» ١

السلف و تفسير الصفات الخبريه

يقول مؤلف «موقف المتكلمين»: يعتقد أهل السنّه (١) إنّ الله خاطبنا بما نفهم و أراد منّا اعتقاد ظاهر النصوص «على الوجه اللاتق». فنصوص الصفات مثلاً تجرى على ظاهرها «بلا كيف»، كما تضافرت عبارات السلف فى ذلك، فتثبت له الصفات الوارده بلا تمثيل، فلو كان ظاهر النصوص غير مراد لما خاطبنا بها ربنا تعالى و لما أمرنا بتدبر كتابه، كما قال: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ». ٣

فعلى هذا نعلم أنّ الواجب الأخذ بظواهر النصوص و أنّه ليس هناك باطن يخالف الظاهر، فالباطن الحق عند السلف موافق للظاهر الحق، و كلّ معنى باطن يخالف ظاهر الكتاب و السنّه فهو خيال و جهل و ضلال. (٢)

يؤخذ على الكاتب أمور، منها:

١. إنّ الكاتب خلط الحق بالباطل، و ذلك لأنّ الأُمّه الإسلاميه (غير الفرقة الباطنيه) كلّهم يعتقدون بالأخذ بظاهر النصوص، و ليس الأخذ بالظواهر من خصائص السلف، بل كلّ من اتّخذ القرآن دليلاً و هادياً، يأخذ بها، غير أنّ

ص: ٢٧٥

١- ٢). احتكر الكاتب لفظ «أهل السنّه» و خصّه بأهل الحديث فقط، كأحمد بن حنبل و أسلافه أو أخلافه، و رأى أنّ سائر الفرق حتّى الأشاعره ليسوا منهم.

٢- ٤). موقف المتكلمين: ٧٢/١-٧٣، نقله عن كتاب الدرء و التعارض: ٨٦/٥ و كتاب إبطال التأويلات: ٦-١٣ مخطوط.

الَّذِي يَهْمُنَا هُوَ تَشْخِصُ الظَّاهِرِ، فَهَلِ الْمُرَادُ الظُّهُورَ الْإِفْرَادِيَّ أَمْ الظُّهُورَ الْجُمْلِيَّ؟ وَهَلِ الْمُرَادُ الظُّهُورَ التَّصَوُّرِيَّ أَوْ الظُّهُورَ التَّصَدِيقِيَّ؟ فَالسَّلَفُ وَالسَّلَفِيُّونَ عَلَى الْأَوَّلِ، وَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى الثَّانِي، فَهَمَّ أَوْلَى بِالْآيَةِ التَّالِيَةِ: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» دُونَ الْمُتَسَمِّينَ بِالسَّلَفِيَّةِ، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ أَيُّ شَأْنٍ حَوْلَ الْآيَاتِ سِوَى الْأَخْذِ بِظَوَاهِرِ مَفْرَدَاتِ الْآيَةِ.

٢. إِنَّهُ تَبَعًا لِأَسْلَافِهِ لَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَخْذَ بِظَوَاهِرِ النُّصُوصِ عَلَى النُّحُو الْإِفْرَادِيَّةِ وَالنَّحُو الْإِفْرَادِيَّةِ يُوجِبُ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَ وَالْجِهَةَ الَّتِي هِيَ مَذْهَبُ الزَّنَادِقَةِ، حَاوَلَ أَنْ يَفْرَّ مِنْ مَعْبَهُ ذَلِكَ الْمَسْلُوكَ بِعَبَارَتَيْنِ:

١. تَفْسِيرِ النُّصُوصِ فِي حَقِّهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ.

٢. بَلَا تَمَثِيلٍ وَلَا كَيْفٍ.

إِذَا كَانَتْ الْوُضُوفُ حَمْلَ النُّصُوصِ عَلَى ظَوَاهِرِهَا فَمَا هَذَا التَّقْيِيدُ-أَعْنَى:

«اللَّائِقُ بِهِ» أَوْ «بَلَا- تَمَثِيلٍ وَلَا- كَيْفٍ»-فَإِنَّهَا قِيُودٌ مُبْتَدِعَةٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا سِنْدٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، وَمَا هَذَا إِلَّا لِأَنَّ السَّلَفَ وَالسَّلَفِيِّينَ أَبْنَاءَ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالْجِهَةِ، وَلَكِنَّهُمْ اتَّخَذُوا هَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ جُنَّةً لِلدِّفَاعِ وَغَطَاءً لِسُتْرِ مَعَايِبِ مَنْهَجِهِمْ كَالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ وَالْجِهَةِ.

السلفيه و نفى المجاز

إشاره

قد عرفت أن بعض السلف و أتباعهم يحاولون حمل الصفات الخبريه الوارده فى القرآن الكريم على الله سبحانه بنفس معانيها الحرفيه، و لأجل ذلك حاولوا إنكار المجاز فى القرآن الكريم لئلا يكون القول به ذريعه لنفى الصفات بالمعنى اللغوى.

ص: ٢٧٦

يقول مؤلف «موقف المتكلمين»: إنَّ البحث في المجاز لو كان أمراً لغوياً لم يكن به بأس، و لكنَّه ربّما يقع سلماً و مطيِّهً لأهل البدع بتحريف بعض نصوص الشرع عن حقائقها. و لو كان مجرد اصطلاح لا- يترتب عليه خوض في مسائل الشريعة لما حصل فيه خلاف كبير و لما احتدم فيه النقاش، و لكن لما أدرك العلماء خطورته و كثرة المتدريين به سارعوا إلى تحقيق القول فيه بين ضعف قواعده و قصور مباحثه.

و ذكر في ذلك الفصل حجج المنكرين للمجاز قائلاً إنَّ أبرزها ما يلي:

١. أنَّ المجاز كذب؛ لأنَّه يتناول الشئ على خلاف حقيقته، و من المعلوم بالضروره أنَّ كلام الله تعالى كلُّه حق، و كلُّ حق فله حقيقته، و كل ما كان حقيقته، فإنَّه لا يكون مجازاً.

٢. أنَّ العدول عن الحقيقه إلى المجاز يقتضى نسبه الحاجه أو الضروره، أو العجز إلى الله تعالى، و هذا محال على الله تعالى.

٣. أنَّ الله تعالى لو خاطب بالمجاز لصحَّ وصفه بأنَّه متجوِّز، و مستعير، و هو خلاف الإجماع.

٤. أن المجاز لا- يُفهم معناه بلفظه دون قرينه، و ربّما تخفى، فيقع الالتباس على المخاطب فلا يفهم مراد الله، و هذا يخالف حكمه الخطاب. (١)

هذه أدلته على نفى المجاز لا لغايه التحقيق في اللغه، بل للتحرز عن حمل الصفات الخبريه على المعاني المجازيه، و هذا يعنى أنَّه اتخذ موقفاً خاصاً من الصفات الخبريه و صار ذلك سبباً لإنكار المجاز، و إلا فلو دخل في البحث مجرداً عن عقيدته مسبقه لما أنكر المجاز و لما اعتمد على هذه الأدله الواهيه التي تُضحك الثكلى.

ص: ٢٧٧

و إليك دراستها مع الاعتذار إلى القراء الكرام:

أما دليله الأول-أعنى: وصف المجاز بالكذب-فسبحان الله كيف يصفه بالكذب و بالتالى ينكر وجوده فى القرآن الكريم و هذا كتابه العزيز يشهد عليه؟!

يقول سبحانه حاكياً عن نساء مصر: «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». ١

هل هناك إنسان يتهم نساء مصر بالكذب، لأنهن نفينَ كون يوسف بشراً، بل قلن بجده، إنه ملك كريم؟!

كلاً و لا، لأنَّ القرائن الحاقه بالكلام أوضح دليل على أنَّ الوصف ادعائى لا حقيقى.

و لذلك عادت امرأه العزيز بإدانتهم و قالت: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ». ٢

تريد بكلامها هذا، أنَّ يوسف بما أنه بلغ من الحسن و الجمال حداً يلىق أن يقال فيه أنه ليس بشراً بل هو ملك، صار ذلك سبباً لغرامى و تعلق قلبى به.

أ ترى أنه سبحانه كذب فى قوله: «وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا». ٣

فهو لا يريد من الأعمى فى كلا الموردین المعنى الحقيقى و هو الضرير

و مكفوف العينين، و إنما يريد من عمى قلبه، و من المعلوم أن «الأعمى» وضع للضرير، فاستعماله فى غيره على نحو من المجاز.

و قال سبحانه: «وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا - قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ». ١

فإن اللباس حسب اللغة هو ما يلبسه الإنسان و يستر به بدنه، و الله سبحانه استعمله فى الجوع المحيط بالإنسان، و كأنه شمله الجوع كما يشمل اللباس البدن.

و بعبارة أخرى: إنه سبحانه يُخبر عن إحاطه لباس الجوع عليهم، فهل هو سبحانه -و العياذ بالله- يكذب فى ذلك؟! إذ لا شك أن الجوع ليس لباساً و لم يوضع اللفظ له و مع ذلك يخبر عن وجود هذا اللباس، و ما هذا إلا لأن القرائن الحافه بالكلام تُخرج الكلام عن كونه كذباً، و لا يخطر ببال أى مخاطب أنه كذب، بل لو فُسر الكلام بالمعنى الحقيقى لعاد كذباً.

و أما دليله الثانى، أى كون العدول عن الحقيقه سبباً لنسبه الحاجه إلى الله سبحانه...

يلاحظ عليه: بأن الله سبحانه كتب على نفسه أن يخاطب الناس عن طريق الوحي بلغتهم و يحاورهم بكلامهم، يقول سبحانه: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». ٢

فليس العدول عن الحقيقة آية الحاجه أو الضروره أو العجز، بل كل ذلك لغايه إفهام الناس و هدايتهم.

و أما الدليل الثالث، فلا ملازمه بين كونه مستعملاً للمجاز و جواز وصفه بأنه متجاوز أو مستعير، لأن أسماء الله توقيفيه و يشهد على ذلك:

إن أفعال العباد عند أهل السنّه مخلوقه لله سبحانه، فمع ذلك لا تصحّ تسميته سبحانه بكونه آكلًا، شاربًا، ضاربًا، قاتلاً.

إنه سبحانه يصف نفسه بقوله: «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ». ١ فهل تصحّ تسميته بكونه زارعًا، و دعوته في مقام الدعاء «يا زارع؟!».

و أما الدليل الرابع، فيلاحظ عليه: أنّ من شرط استعمال المجاز احتفافه بالقرينه الواضحه، فاستعمال اللفظ مجازاً مع اختفاء القرينه يضادّ البلاغه، و هو لا يناسب ساحه البلاغه.

إكمال

المعروف أنّ اللفظ إن استعمل فيما وضع له فهو حقيقه، و إن استعمل في غيره بعلاقه معتبره مع قرينه صارفه عن المعنى الحقيقى، فهو مجاز.

لكن المختار عندنا تبعاً لمشايخنا الكبار، كالعلامة مجد الدين الاصبهاني (١٢٨٦-١٣٦٢هـ)، و السيد الإمام الخميني (١٣٢٠-١٤٠٩هـ) رضوان الله عليهما: أنّ الألفاظ مطلقاً حتّى في الموارد التي توصف بالمجاز، مستعمله في معانيها الأصليه و ليس المعنى المجازى، معنى مقابلاً للمعنى الحقيقى، كما يوهمه قولهم: الأسد مستعمل في الرجل الشجاع. وجه ذلك: أنّه إذا استعمل اللفظ في

ص: ٢٨٠

معناه الأصلي و لم يكن هناك أى ادعاء، يوصف الاستعمال بالحقيقه، و إن استعمل فى نفس معناه الأصلي، و كان مقروناً بادعاء أن المورد من مصاديق ذلك المعنى الأصلي يوصف بالمجاز.

مثلاً- استعمل لفظ «ملك» فى قوله: «ما هذا بشراً إن هذا إلا- ملكك كريم» ١ فى نفس معناه الأصلي مدعياً بأن يوسف من مصاديقه. و الذى يُضفى على الكلام حسناً و جمالاً، هو نفس ذلك الادعاء، و إلا فلو استعمل لفظ «ملك» فى يوسف بلا توسط معناه الأصلي و بلا ادعاء أنه من مصاديقه، لسقط الكلام عن قّمه البلاغه، و لم يبق للتعجب وجه.

فلو قال القائل: إنى قاتلت فى جهات القتال أسداً هصوراً، أو قابلت أمس قمراً منيراً. و هو لم يقابل إلا رجلاً شجاعاً بأسلاً، أو وجهاً صبيحاً، فلا يريد بكلامه هذا اللقاء، بهذين الشخصين بلا توسط المعنى الأصلي بل يستعملهما فى معنهما الأصليين لكن بادعاء أن المورد من مصاديق الأسد، و القمر.

و هذا الشاعر، يمدح محبوبته متعجباً و يقول: قامت تُظللنى و من عجب شمس تُظللنى من الشمس

و إنما يصح أن يتعجب إذا استعمل لفظ الشمس فى نفس معناها الحقيقى، أعنى: التير الكبير، فعند ذلك صح أن يتعجب، ان شمساً (محبوبته) قامت تظله من الشمس.

و هنا يظهر حال الكنايه و إن جعلها الأدباء قسيماً ثالثاً للحقيقه و المجاز، و ذلك لأن الألفاظ فى الكنايات أيضاً مستعمله بالإراداه الاستعماليه فى معانيها الأصليه لكن صار ذلك سبباً لتعلق الإراده الجديده بشىء آخر، و هو لازم المعنى

الأصلي، كل ذلك بالقرائن الحالية أو المقاليه.

مثلاً- من ألفاظ المدح عند العرب. قولهم: فلان طويل النجاد، أو كثير الرماد؛ و الأول كناية عن طويل القامه، و الثاني عن كثره الضيافه، كل ذلك بعلاقه الملازمه بين المعنى الاستعمالي و المعنى الجدى. و المسوغ للاستعمال هو كون المتكلم فى مقام المدح، و لأجل ذلك ربّما يستعمل «طويل النجاد» فى من لم يشتمل سيقاً طول عمره و لم يصاحب عاتقه نجاداً.

السلفيه و تفسير الصفات الخبريه

إنّ السلفيين يصفونه سبحانه بالصفات التالیه، معتمدين فى ذلك حسب زعمهم على الذكر الحكيم و هى:

١. العلو.

٢. الاستواء.

٣. النزول.

٤. الإتيان و المجيء.

٥. الغضب و الضحك.

٦. الوجه.

٧. العين.

٨. اليدان.

٩. القدم.

١٠. الرؤيه.

و على هذا فالله سبحانه مستوٍ على عرشه و جالس عليه، و أنّه خلق آدم

ص: ٢٨٢

بيديه، وهو ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، ويأتي ويجيء، ويغضب ويضحك، ويراه الإنسان بأم عينيه، إلى غير ذلك من الصفات، فهو - جلّ اسمه - يوصف بها بنفس المعاني الحرفية واللغوية، وأقصى ما عندهم في تنزيه الرب أنه موصوف بها «بلا كيف»، و«حسب ما يليق بساحته».

وبما أن دراسته جميع هذه الأوصاف الواردة في الكتاب والسنة على نحو يقلع الشبهه عن أذهان المغرورين بكتبهم و رسائلهم، تتطلب تأليف كتاب مفرد، فنقتصر هنا على إيضاح صفتين وردتا في الذكر الحكيم، لأنهم يعتمدون عليهما أكثر من سائر الصفات.

الأولى: الاستواء على العرش

نقول: ورد استواؤه على العرش في غير واحد من السور (١)، ونحن نذكر آيتين ونحيل الباقي إلى القارئ الكريم:

قال سبحانه: «إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». (٢)

وقال تعالى: «إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». ٣

ص: ٢٨٣

١- ١. الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجده: ٥، غافر: ١٥، طه: ٥، باختلاف يسير.

٢- ٢. يونس: ٣. [١]

إِنَّ هَؤُلَاءِ-الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْمَشْبُوهِ وَالْمُجَسَّمِ (و لكنهم منهم) و يتسترون ب«البلكفه» أو «ما يليق بساحته سبحانه»-أخذوا بحرفيه قوله سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» و الظهور التصورى المتزلزل و تركوا الظهور التصديقى المستقر.

قال مؤلف «موقف المتكلمين»: روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال:

و العرش فوق الماء و الله فوق العرش لا يخفى عليه شىء من أعمالكم. (١)

و عن الأوزاعي قال: كنا و التابعون نقول إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ، و نؤمن بما وردت به السُّنَّة. (٢)

و ذكر ابن القيم: أنه روى غير واحد باسناد صحيح عن عبد الرحمن بن مهدى أنه قال: إِنَّ الْجَهْمِيَةَ أَرَادُوا أَنْ يَنْفُوا أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى و أن يكون على العرش، أرى أن يُستتابوا، فإن تابوا و إلا ضُربت أعناقهم. (٣)

إلى غير ذلك من الكلمات الظاهره فى التجسيم، و أنه سبحانه فى السماء لا- فى الأرض، يجلس على سريره ينظر إلى ما دون العرش و لا تخفى عليه أعمال عباده.

هؤلاء بدل أن يتدبروا فى نفس الآيات الوارد فيها الاستواء على العرش و يرجعوا إلى عقولهم، لا ذوا بكلمات السلف غير المعصومين ثم أوعدوا المخالف بالسيف، كما فى كلام ابن القيم.

و أما المحققون الذين يتدبرون القرآن حسب ما أمر به الذكر الحكيم، فقد رجعوا إلى نفس الآيات و تدبروا الجمل الحافه بهذه الجملة، ثم قاموا بتفسيرها

ص: ٢٨٤

١- ١). التمهيد، لابن عبد البر: ١٣٩/٧.

٢- ٢). الأسماء و الصفات للبيهقى: ٥١٥. [١]

٣- ٣). الفتوى الحمويه: ٤٠/٥.

و خرجوا بالتنزيه لا بالتجسيم، وإليك البيان:

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تَتَحَدَّثُ عَنِ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

١. إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

٢. خَلَقَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

٣. ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

٤. يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلْقِ وَ لَيْسَ هُنَا مُدَبِّرٌ سِوَاهُ.

٥. لَوْ كَانَ هُنَاكَ شَفِيعٌ (عَلَّه مَوْثِرُهُ فِي الْكُونِ) لَا يَشْفَعُ وَلَا يُؤَثِّرُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

٦. هَذَا هُوَ رَبُّنَا الَّذِي فَرَضَتْ عَلَيْنَا عِبَادَتَهُ.

هَذَا هُوَ حَالُ الْآيَةِ الْأُولَى.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ، فَتَتَحَدَّثُ عَنِ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ:

١. إِنَّ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

٢. خَلَقَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

٣. ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

٤. يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، يَغْطِي كَلًّا مِنْهُمَا بِالْآخِرِ وَيَأْتِي بِأَحَدِهِمَا بَعْدَ الْآخَرِ.

٥. يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ فَيَدْرِكُهُ سَرِيعًا.

٦. وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ. مَذَلَّلَاتٍ جَارِيَاتٍ فِي مَجَارِيهِنَّ بِأَمْرِهِ وَ تَدْبِيرِهِ.

٧. أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِبْدَاعُ وَالْإِبْدَاعُ.

٨. وَالْأَمْرُ: أَمْرُ التَّدْبِيرِ أَوْ أَمْرِهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا أَحَبَّ.

٩. تبارك الله رب العالمين: تعاضم الله رب العالمين تعالى فيما لم يزل ولا يزال.

نعود مرّة أخرى وندبّر هذه المقاطع، فنجد أنّ قائل هذه الجُمَل -عزّ اسمه - يتحدث عن عظمته و أنّه الخالق، خالق العالم و مدبّره، و أنّه خلقه في ستة أيام، و يغشى الليل النهار، و هو يطلبه، و أنّ الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره، و ليس هناك من خالق و مدبّر إلا هو، و لا مؤثّر في الكون إلا بإذنه، ثمّ ربّ على ذلك تاره و جوب عبادته، لكونه القائم بالخلق و التدبير و الأمر، فتجب عبادته دون غيره كما في الآيه الأولى؛ و أخرى تعظيمه و تنزيهه كما في الآيه الثانية.

ما ذكرناه خلاصه مضمون الآيتين، فعندئذ يجب أن تكون هناك مناسبة ذاتية بين استوائه على العرش و الإخبار عن هذه الأمور الكونية، فلو فُسر الاستواء بمعنى الجلوس على العرش، تفقد الجملة المناسبه و تصبح جملة فاقده الصلّه بما قبلها و ما بعدها.

فما هي المناسبه بين التحدّث عن عظمه الخلقه وسعتها و ما فيها من السنن الكونية و التحدّث عن جلوسه على السرير، و هذا هو العدى دفع المحقّقين إلى التدبّر في الآيه حتى يفسّروها بالظهور التصديقي لا بالظهور التصوري، و بالظهور الجُملي لا بالظهور الإفرادي. و هذا يتحقّق بأمرين:

أ. تفسير الاستواء بالاستيلاء، لا بالجلوس و الاستقرار.

ب. جعل العرش كناية عن السلطه و القدره، لا بمعنى السرير.

أمّا الأوّل: فقد استعمل في اللغة العربية لفظ الاستيلاء بمعنى الاستواء، قال الأخطل يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين تولّى أمره العراقيين:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهوراق

فالحمد للمهيمن الخلاق

فليس المراد من الاستواء الجلوس أو الاستقرار، بل التمكّن و الاستيلاء التام و السيطرة على العراقيين و كسح كل مزاحم و مخالف. و إلا فالجلوس المجرد على السرير، لا يكون مدحاً.

و قال الطرمّاح بن حكيم: طال على رسم مهدهد أبده و عفا و استوى له بلده

و المراد استقام له الأمر و استتب.

و قال شاعر آخر: فلما علونا و استوينا عليهم تركناهم صرعى لسر و كاسر

حتّى أنّ لفظه «استويت» في قوله سبحانه مخاطباً نوحاً عليه السلام: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». ١ ليس بمعنى الركوب على الفلك أو الجلوس عليه، بل المراد إذا تمكّنت من الفلك على نحو صار زمامها بيدك. و لذلك فسره السيوطي ب «اعتدلت».

و مثله قوله تعالى: «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْبِتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

ص: ٢٨٦

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ». ١

فليس المراد من الاستواء هو الجلوس في الفلك أو الركوب على ظهر الأنعام، بل المراد هو التسلّط على الفلك و الأنعام و الاستيلاء عليها، بشهادته أنّه سبحانه يأتي بالاستواء بعد الركوب و يقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسَ لَهَا عَلَى ظُهُورِهِ» فهو يُعرب على أنّ الاستواء غير الركوب.

فليس الاستواء مجرد الجلوس و الركوب، بل هو السيطرة و السلطه على الشيء و لكن كُلُّ بحسبه، فاستواء الإنسان على الفلك و الأنعام سيطرته عليهما بحيث يوجهها إلى أى صوب شاء، كما أنّ استواءه سبحانه على العرش (سيوافيك معنى العرش) هو استيلاؤه و سيطرته على عالم الإمكان بحيث لا يشذ عن إرادته شيء.

و لأجل هذه السيطرة و الاستيلاء فهو يُدبّر العالم بعد الإيجاد فهو خالق و مسيطر على الأمور و الكل «مُدبّر».

و أما الثانى: أى تفسير العرش

نقول: إنّ العرش حسب اللغه هو السرير، و لكن بما أنّ الملوك يجلسون عليه و يدبّرون من فوقه ملكهم و يُصدرون منه أحكامهم، صار العرش مظهر القدره و السلطه و سبباً لأن يُكنّى به عنهما بقول الشاعر: إذا ما بنو مروان ثلّت عروشهم و أودّت كما أودّت إياد و حمير

فليس المراد تهدّم العروش التى كانوا يجلسون عليها، بل كناية عن زوال الملك و السيطرة و انقطاع سلطتهم.

و يقول الآخر: ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعثيه بن الحارث بن شهاب

و الله سبحانه أخرج كلامه على المتعارف من كلام العرب حيث يقولون:

استوى الملك على عرشه: إذا انتظمت أمور مملكته، و إذا اختل أمر ملكه قالوا: ثلّ عرشه، و ربّما لا يكون له سرير، و لا يجلس على سرير أبداً.

و حصيلة الكلام: إنّ الملاحظه الدقيقه للآيات التي ورد فيها استيلاؤه سبحانه على العرش تكشف عن أنه لا يُراد منه الجلوس و الاستقرار عليه، بل المراد هو السيطرة و التمكّن من صحيفه الكون و الخلقه، و أنّها بعد الخلقه في قبضه قدرته و حوزة سلطنته لم تفوّض لغيره.

و لأجل ذلك يذكر في سورة يونس بعد هذه الجملة أمر التدبير و يقول: يدبّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه معرباً عن أنّه المدبّر لأمر الخلقه، و ذلك لاستيلائه على عرش ملكه. فمن استولى على عرش ملكه يقوم بتدبيره، و من ثلّ عرشه أو زال ملكه أو انقطع عنه لا يقدر على التدبير. و لكنّه سبحانه في سورة الأعراف يذكر بعد هذه الجملة كيفيه التدبير و يقول: «يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومَ مُسَيِّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا- لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» فهذه الجمل (بما أنّها تعبّر عن تدبيره صحيفه الكون، و كونه مصدراً لهذه التدبيرات الشامخه) دليل على أنّه مستول على ملكه، مهيمن عليه، مسيطر على ما خلق و لم يخرج الكون عن حوزة قدرته، و مثله سائر الآيات الوارده فيها تلك الجملة، فإنّك ترى أنّها جاءت في ضمن بيان فعل من أفعاله سبحانه. ففيها دلالات على «التوحيد في التدبير» الذي هو أحد مراتبه.

و أمّا إذا فسّرنا الاستواء بالجلوس، و العرش بالكرسى الّذى يترّبع عليه الملوك، يكون المعنى غير مرتبط بما ورد فى الآيه من المفاهيم، كما تقدّم، إذ أىّ مناسبة بين التّربّع على الكرسى المادى و القيام بهذه التدابير الرفيعه؟ فإنّ المصحّح للتدبير هو السيطره و الهيمنه على الملك و هو لا يحتاج إلى التّربّع و الجلوس على الكرسى، بل يتوقّف على سعه ملكه و نفوذ سلطته.

و المعطله (الذين عطّلوا عقولهم عن التدبّر و التفكير)، يحسبون أنّ ما ذكرناه تأويل، لأنّه مخالف للظهور الإفرادى، حيث لفظ «العرش» بإفاده بمعنى «السّرير» لا السلطه و السيطره على الملك، لكنّك عرفت أنّ الميزان فى تفسير الآيه هو الظهور «الجُملى» و التصديقى بمعنى التدبّر فى مجموع الجملة و ما يدل عليه - بعد رعايه السياق و غيره من القرائن - و عليه، فليس ما ذكرناه تأويلاً، بل إرجاع الآيه إلى واقعها، و إخراج لها من الظهور المتزلزل (الإفرادى) إلى الظهور المستقرّ (التصديقى) كما هو المتعارف فى تفسير سائر الآيات و كلمات البلغاء و الفصحاء بل عامه العقلاء. و ليس التأويل المقبول إلا إرجاع الآيه إلى معناها، كما أنّ تأويل الرؤيا فى الذكر الحكيم، هو إرجاعها إلى واقعها و جذورها.

٢. خلق سبحانه آدم بيديه

قد تعرّفت على مفاد قوله سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» و أنّه لا يدلّ على ما يرومه ابن تيميه و أتباع مسلكه من أنّه سبحانه يجلس على سريره الخاص، و أنّه ينظر إلى العالم من فوق عرشه.

بقى الكلام فى تفسير قوله: «يا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرُتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ». ١

قال ابن تيميه: إنَّ لله يدين مختصتين ذاتيتين- كما يليق بجلاله- وإنَّه سبحانه خلق آدم بيده.... (١)

فابن تيميه يحمل اليدين على المعنى الإفرادى، جموداً على الظهور البدائى دون أن يتدبّر فى القرائن الحافّة بالآيه، التى تعطى للآيه مفاداً آخر، وهو نتيجة الظهور التصديقى.

و ممّا تقدّم من أنّ الميزان هو الظهور المستقرّ لا- المترزّل، يجب الإمعان فى موقف الآيه و هدفها، و ليس لنا صرف الآيه عن ظهورها بتوهم أنّه يخالف حكم العقل كما مرّ عليك، و لو كان هناك تعارض فهو بدائى مرتفع بأحد الأمرين: إمّا لأجل تطرق الخطأ إلى فهم المفسّر فى تبين مفاد الآيه، أو طروء القصور و التقصير على العقل فى مبادئ البرهان.

و على ضوء ذلك لا- محيص من القول بأنّ اليدين فى الآيه بمعنى الجارحه، لكن اللفظ كناية عن لازمه و هو الاهتمام بخلقه آدم، حتى يتسنّى بذلك ذم إبليس على ترك السجود لآدم فقله سبحانه: «ما مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ» كناية عن اهتمامه سبحانه بهذا المخلوق، و أنّه لم يكن مخلوقاً لغيرى حتّى يصحّ لك يا شيطان تجنّب السجود له، بحجّه أنّه لا صلّه له بى، مع أنّه موجود خلقته بنفسى، و نفختُ فيه من روحى، فهو مصنوعى و مخلوقى الذى قمت بخلقه، فمع ذلك تمرّدت عن السجود له.

فأطلقت الخلقه باليد و كنى بها عن قيامه سبحانه بخلقه، و عنايته بإيجاده، و تعليمه إياه أسماءه، لأنّ الغالب فى عمل الإنسان هو القيام به باستعمال اليد،

ص: ٢٩١

يقول: هذا ما بنيت بيدي، أو ما صنعت بيدي، أو ربّيته بيدي، و يراد من الكلّ هو القيام المباشري بالعمل، و ربّما استعان فيه بعينه و سمعه و غيرهما من الأعضاء، لكنّه لا يذكرها و يكتفى باليد، و كأنّه سبحانه يندّد بالشيطان بأنك تركت السجود لموجود اهتمت بخلقه و صنعه.

و نظير ذلك قوله سبحانه: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ» ١، فالأيدي كناية عن تفوّده تعالى بخلقها، لم يشركه أحد فيها. فهي مصنوعة لله تعالى و الناس يتصرّفون فيها تصرف الملاك، كأنّها مصنوعة لهم، فبدل أن يشكروا يكفرون بنعمته. و أنت إذا قارنت بين الآيتين تقف على أنّ المقصود هو المعنى الكنائى، و المدار فى الموافقه و المخالفه هو الظهور التصديقى لا تصوّرى.

قال الشريف المرتضى: «قوله تعالى: «لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ» جار مجرى قوله «لَمَّا خَلَقْتُ أَنَا»، و ذلك مشهور فى لغة العرب، يقول أحدهم: هذا ما كسبت يداك، و ما جرّت عليك يداك. و إذا أرادوا نفى الفعل عن الفاعل استعملوا فيه هذا الضرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشى قدمه، و لا ينطق لسانه، و لا تكتب يده، و كذلك فى الإثبات، و لا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح فى الحقيقة بل الفائدة فيه النفى عن الفاعل».

و قس على ما ذكر سائر الموارد الباقية التى أوغزنا إلى عناوينها فى صدر البحث.

فابن تيمية و أتباعه يأخذون بحرفيه المعنى، و الظهور البدائى دون التدبّر فى الظهور التصديقى، و ما يعطيه السياق أو سائر القرائن.

قد عرفت أنّ ابن تيميه و أتباعه يفسّرون الصفات الخبريه بنفس معانيها الإفراديه، و لَمَّا كان القول به ملازماً للتجسيم و التشبيه تدرّعوا، بلفظ «بلا- كيف» أو «مميّا يليق بساحته» أو ما أشبهه. و صار ذلك سبباً لا تسام العقيده الإسلاميه بالتعقيد، مع أنّ العقيده الإسلاميه متّسمه بالسهوله و الوضوح.

ذلك لأنّ اليد و الوجه و الرّجل موضوعه للأعضاء الخاصه فى الإنسان، و لا يتبادر منها إلا ما يتبادر عند أهل اللغه، و حينئذٍ فإن أُريد منها المعنى الحقيقى يلزم التشبيه، و إن أُريد غيره فذلك الغير: إمّا معنى مجازى أُريد من اللفظ بحسب القرينه فيلزم التأويل، و هم يفزّون منه فرار المزكوم من المسك، و إمّا شىء لا هذا و لا ذاك، فما هو ذلك الغير؟ بينوه لنا حتى تتّسم العقيده بالوضوح و السهوله، و نبتعد عن التعقيد و الإبهام، و إلا فالقول بأنّ له وجهاً لا كالوجه، و يداً لا كالأيدى، ألفاظ جوفاء و شعارات خداعه لا يستفاد منها شىء سوى تخديش الأفكار و تضليلها عن جاده الصواب.

و باختصار: إنّ المعنى الصحيح لا يخرج عن المعنى الحقيقى و المجازى، و إرادته أمر ثالث خارج عن إطار هذين المعنيين يعدّ غلطاً و باطلاً، و على هذا الأساس لو أُريد المعنى الحقيقى لزم التشبيه بلا إشكال، و لو أُريد المعنى المجازى لزم التأويل، و الكلّ ممنوع عندهم، فما هو المراد من هذه الصفات الوارده فى الكتاب و السنّه؟!

إنّ ما يلهجون به و يكرّرونه من أنّ هذه الصفات تجرى على الله سبحانه بنفس معانيها الحقيقيه و لكن الكيفيه مجهوله، أشبه بالمهزله، إذ لو كان إمرارها على الله بنفس معانيها الحقيقيه لوجب أن تكون الكيفيه محفوظه حتى يكون

الاستعمال حقيقياً، لأنّ الواضع إنّما وضع هذه الألفاظ على تلك المعانى التى يكون قوامها بنفس كفيّتها، و يكون عمادها و سنادها بنفس هويتها الخارجيه، فاستعمالها فى المعانى، حقيقه بلا كفيّيه، أشبه بقولنا أسد، لكن لا ذنب له و لا مخلب و لا ...

فقولهم: «المراد هو أنّ لله يداً حقيقه لكن لا كالأيدى» أشبه بالكلام الذى يناقض ذيله صدره.

عفا الله عنّا و عنهم، فلله درّ الشيخ محمود صاحب الكشاف فقد عرفهم بقوله: قد شبّهه بخلقه و تخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفه

ص: ٢٩٤

و نحن نختم هذا البحث بذكر كلمه شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى كتبه حول سؤال رفعه إليه الشيخ أحمد على بدر شيخ معهد «بلصفوره» و إليك خلاصه السؤال:

ما قولكم-دام فضلکم-فی رجل من أهل العلم يتظاهر باعتقاد ثبوت جهه الفوقيه لله سبحانه و تعالى و يدعی أن ذلك مذهب السلف، و تبعه على ذلك بعض الناس و جمهور أهل العلم ينكرون ذلك، و السبب فی تظاهره بهذا المعتقد عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيميه فی إثبات الجهه للبارى سبحانه و تعالى و يخطئ أبا البركات - رضی الله عنه-فی قوله:فی خریدته: منزه عن الحلول و الجهه و الاتصال و الانفصال و السفه

ص: ٢٩٥

١-١). تولی مشيخه الأزهر مرّه بعد أخرى، توفى عام ١٣٣٥هـ.ق.

يخطئه في موضعين من البيت قوله: و الجهه، و قوله: و الانفصال.

و الشيخ اللقاني في قوله: و يستحيل ضدّ ذى الصفات في حقّه كالكون في الجهات

و بالجملة هو مخطئ لكلّ من يقول بنفى الجهه مهما كان قدره.

و لا- يخفى على فضيلتكم أنّ الكلام في مسأله الجهه شهير، إلاّ- أنّه من المعلوم أنّ قول فضيلتكم سيما في مثل هذا الأمر هو الفصل، و أرجو أن يكون عليه إمضاءكم بخطكم و الختم و لا- مؤاخذه، لا- زلتم محفوظين و لمذهب أهل السنّه و الجماعه ناصرين آمين.

نصّ الجواب

و قد كتب إليه شيخ الأزهر جواباً لسؤاله و هذا نصّه:

إلى حضره الفاضل العلامه الشيخ أحمد على بدر خادم العلم الشريف ببلصفوره:

قد أرسلتم بتاريخ ٢٢ محرم سنه ١٣٢٥هـ مكتوباً مصحوباً بسؤال عن حكم من يعتقد ثبوت الجهه له تعالى، فحررنا لكم الجواب الآتى و فيه الكفايه لمن اتّبع الحق و أنصف، جزاكم الله عن المسلمين خيراً.

«اعلم أيّدك الله بتوفيقه و سلك بنا و بك سواء طريقه، أنّ مذهب الفرقة الناجيه و ما عليه أجمع السنيون أنّ الله تعالى منزّه عن مشابهه الحوادث، مخالف لها في جميع سمات الحدوث، و من ذلك تنزهه عن الجهه و المكان كما دلّت على ذلك البراهين القطعيه، فإنّ كونه في جهه يستلزم قدم الجهه أو المكان و هما من العالم،

ص: ٢٩٤

و هو ما سوى الله تعالى، وقد قام البرهان القاطع على حدوث كل ما سوى الله تعالى بإجماع من أثبت الجبهه و من نفاها، ولأنّ المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أنّ المكان يمكن وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب و وجوب الممكن، و كلاهما باطل، ولأنّه لو تحيز لكان جوهرًا لاستحاله كونه عرضًا، و لو كان جوهرًا فإمّا أن ينقسم و إمّا أن لا ينقسم، و كلاهما باطل، فإنّ غير المنقسم هو الجزء الذي لا يتجزأ و هو أحقر الأشياء، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

و المنقسم جسم و هو مركّب و التركيب ينافي الوجوب الذاتى، فيكون المركّب ممكنًا يحتاج إلى علّه مؤثره، و قد ثبت بالبرهان القاطع أنّه تعالى واجب الوجود لذاته، غنى عن كلّ ما سواه، مفتقر إليه كلّ ما عداه، سبحانه ليس كمثله شىء و هو السميع البصير....

هذا و قد خذل الله أقوامًا أغواهم الشيطان و أزّلهم، اتّبعوا أهواءهم و تمسّكوا بما لا يجدى فاعتقدوا ثبوت الجبهه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

و اتّفقوا على أنّها جبهه فوق إلّا- أنّهم افترقوا؛ فمنهم من اعتقد أنّه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش، و به قال الكراميه و اليهود، و هؤلاء لا نزاع فى كفرهم.

و منهم من أثبت الجبهه مع التنزيه، و أنّ كونه فيها ليس ككون الأجسام، و هؤلاء ضلّال فساق فى عقيدتهم، و إطلاقهم على الله ما لم يأذن به الشارع، و لا مريه أنّ فاسق العقيدته أقبح و أشنع من فاسق الجارحه بكثير سيما من كان داعيه أو مقتدى به. و ممّن نسب إليه القول بالجبهه من المتأخّرين أحمد بن عبد الحلیم بن

عبد السلام بن تيميه الحرائى الحنبلى الدمشقى من علماء القرن الثامن، فى ضمن أمور نسبت إليه خالف الإجماع فيها عملاً برأيه، و شنع عليه معاصروه، بل البعض منهم كفره، و لقي من الذل و الهوان ما لقي، و قد انتدب بعض تلامذته للذب عنه و تبرئته مما نسب إليه و ساق له عبارات أوضح معناها، و أبان غلط الناس فى فهم مراده.

و استشهد بعبارات له أخرى صريحه فى دفع التهمه عنه، و أنه لم يخرج عمياً عليه الإجماع، و ذلك هو المظنون بالرجل لجلاله قدره و رسوخ قدمه، و ما تمسك به المخالفون القائلون بالجبهه أمور واهيه وهميه، لا تصلح أدله عقليه و لا نقليه، قد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه، و ما تمسكوا به ظواهر آيات و أحاديث موهمه:

كقوله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»، و قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ»، و قوله:

«تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ»، و قوله: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ»، و قوله:

«وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ» .

و كحديث: «إنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة».

و فى روايه «فى كل ليلة جمعه فيقول هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

و كقوله للجاريه الخرساء: «أين الله فأشارت إلى السماء» حيث سأل بأين التى للمكان و لم ينكر عليها الإشاره إلى السماء، بل قال إنها مؤمنه.

و مثل هذه يجاب عنها بأنها ظواهر ظتيه لا تعارض الأدله القطعيه اليقينيته الداله على انتفاء المكان و الجبهه، فيجب تأويلها و حملها على محامل صحيحه لا تأباها الدلائل و النصوص الشرعيه، إما تأويلاً إجمالياً بلا تعيين للمراد منها كما هو

مذهب السلف، وإما تأويلاً تفصيلاً بتعيين محاملها و ما يراد منها كما هو رأى الخلف، كقولهم: إنَّ الاستواء بمعنى الاستيلاء كما فى قول القائل: قد استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مُهراق

و صعود الكلم الطيب إليه قبوله إيّاه و رضاه به، لأنّ الكلم عرض يستحيل صعوده، و قوله: من فى السماء: أى أمره و سلطانه أو ملك من ملائكته موكل بالعذاب.

و عروج الملائكه و الروح إليه صعودهم إلى مكان يتقرب إليه فيه. و قوله: فوق عباده أى بالقدره و الغلبه، فإنّ كلّ من قهر غيره و غلبه فهو فوقه، أى عال عليه بالقهر و الغلبه، كما يقال: أمر فلان فوق أمر فلان، أى أنه أقدر منه و أغلب.

و نزوله إلى السماء محمول على لطفه و رحمته و عدم المعامله بما يستدعيه علوّ رتبته و عظم شأنه على سبيل التمثيل، و خصّ الليل لأنه مظنه الخلوه و الخضوع و حضور القلب.

و سؤاله للجاريه ب«أين» استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقدّه الوثنيون، فلمّا أشارت إلى السماء فهم أنّها أرادت خالق السماء، فاستبان أنّها ليست و ثنيه، و حكم بإيمانها. و قد بسط العلماء فى مطولاتهم تأويل كلّ ما ورد من أمثال ذلك، عملاً بالقطعى و حملاً للظنى عليه، فجزاهم الله عن الدين و أهله خير الجزاء.

و من العجيب أن يدع مسلم قول جماعه المسلمين و أنّمتهم و يتمشّدق

بُتُّرَهَاتِ الْمُبْتَدِعِينَ وَ ضَلَالَتِهِمْ. أَمَا سَمِعُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُضِلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» فليتب إلى الله تعالى من تلتطخ بشيء من هذه القاذورات و لا- يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء و المنكر، و لا يحملنه العناد على التماذى و الإصرار عليه فإن الرجوع إلى الصواب عين الصواب و التماذى على الباطل يفضى إلى أشد العذاب «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَهُوَ ضَالٌّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرَشِدًا» نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل و هو حسبنا و نعم الوكيل، و صلى الله تعالى و سلم على سيدنا محمد و صحبه أجمعين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمله الفقير إليه سبحانه (سليم البشرى) خادم العلم و الساده المالكيه بالأزهر عفا عنه أمين أمين. (١)

اقتراح

و فى الختام نوصى رؤساء الطوائف الإسلاميه بالابتعاد عن العصبية و عن الآراء التى ورثوها عن أناس غير معصومين، و بالاستعداد لإجراء الحوار الهادئ فىم اختلف فيه كلمه المحققين من العلماء حتى يرتفع كثير من الخلافات النابعه من تقديم الهوى على الحق.

قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: أتباع الهوى و طول الأمل؛ فأمرًا اتباع الهوى فيصد عن الحق، و أما طول الأمل فينسى الآخره». (٢)

ص: ٣٠٠

١- ١. فرقان القرآن: ٧٤- ٧٦.

٢- ٢. نهج البلاغه: الخطبه ٤٢، طبعه عبده. [١]

إنّ المرجع الديني-بعد رحيل الرسول-حسب حديث الثقلين، هو الكتاب و العتره-كما قال صاحب الرساله العظمى في غير موقف من مواقف حياته:-

«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا»، و قد تضافرت بل تواترت ألفاظه و توصلت حلقات أسانيده من عصر الرساله إلى هنا، و ألفت حول الحديث كتب و رسائل. (١)

و الأسف كلّه على هؤلاء المتسمّين بالسلفيه، حيث يسندون دينهم و شرعهم إلى أقوال السلف من صحابي أو تابعي و...و لكنهم لا يستضيئون بعلوم أئمة أهل البيت الذين مثلهم كمثل سفينه نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق. (٢) فلا تجد في كتب هؤلاء خصوصاً الجدد من أتباعهم نقل حديث منهم أو استدلالاً بكلامهم، فكأنّهم ليسوا من السلف، أو أنّ النبي لم يوص الأئمة بالاهتداء بهم.

و الذي يورث الأسي أنّهم يأخذون بقول كلّ سلفي من غير فرق بين المرجئ و الناصبي، و الخارجي و الجهمي و الواقفي. (٣) إلى غير ذلك من الفرق.

إنّ لأئمة أهل البيت دوراً بارزاً في مكافحة البدع، و الردّ على الأفكار الدخيله على الشريعة عن طريق أهل الكتاب الذين تظاهروا بالإسلام و بزى المسلمين، نظراء: كعب الأخبار، و تميم الداري، و وهب ابن منبه، و من كان على

ص: ٣٠١

١-١. انظر: عقبات الأنوار للعلامة مير حامد حسين الهندي (المتوفى ١٣٠٦) فقد خصّ أجزاء من كتابه لبيان أسانيده.

٢-٢. حديث مستفيض.

٣-٣. تدريب الراوي للسيوطي: ٣٢٨/٢.

شاكلتهم.

إن كتب الحديث-من غير فرق بين الصحاح و غيرها-مشحونه بأخبار التجسيم و التشبيه و الجبر و نفى الاستطاعه المكتسبه و نسبه الكذب و العصيان إلى الأنبياء و الرسل،و قد تأثر بها المحدثون الشُّذج و حسبوا أنّها حقائق مسلّمه فنقلوها إلى الأجيال اللاحقه،و قد حيكت العقائد على نول هذه الأحاديث،و لم يتجرّأ أحد من المفكرين الإسلاميين القدامى و الجدد على نقدها إلاّ من شدّ.

نرى فى مقابل هذه البدع أنّ أئمّه أهل البيت يكافحون التجسيم و التشبيه و الجبر و غيرهما،بخطبهم و رسائلهم و مناظراتهم أمام حشد عظيم،و فى وسع القارئ الكريم مراجعه:«نهج البلاغه» للإمام علىّ عليه السلام و كتاب«التوحيد» للشيخ الصدوق (٣٠٦-٥٣٨١هـ)،و كتاب«الاحتجاج» للشيخ الطبرسى (المتوفّى ٥٥٥٠هـ)،إلى غير ذلك من الكتب المؤلّفه فى ذلك المضمار،و ما أحلى المناظرات التى أجراها الإمام علىّ بن موسى الرضا عليه السلام فى عاصمه الخلافه الإسلاميه (مرو) يوم ذاك مع الماديين و الملحدين و أحبار اليهود و قساوسه النصارى،بل و مع المترمّتين المغتّرين بتلك الأحاديث.

كانت لفكره الإرجاء التى تدعو إلى التسامح الدينى فى العمل،واجهه بديعه عند السذج من المسلمين و لا-سيما الشباب منهم،فقام الإمام الصادق عليه السلام بردها و التنديد بها،و قد أصدر بياناً فيها حيث قال:«بادروا أولادكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئه». (١)

هذا هو الإمام الثامن علىّ بن موسى الرضا عليه السلام يكافح فكره رؤيه الله تبارك و تعالى بالعين،و يرد الفكره المستورده من اليهود و التى اغتّرب بها بعض المحدثين،

ص:٣٠٢

(١-١). الكافى:٤٧/٦،الحديث ٥،و [١]لاحظ البحار:٢٩٧/٦٨.

و إليك ما جرى بينه و بين أحدهم باسم أبي قره.

قال أبو قره: إنا روينا أنّ الله عزّ و جلّ قسم الرؤيه و الكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام و لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم الرؤيه.

فقال الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «فمن المبلّغ عن الله عزّ و جلّ إلى الثقلين الجنّ و الإنس «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» ١، «وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» ٢ و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ٣ أ ليس محمداً صلى الله عليه و آله و سلم ؟»
قال أبو قره: بلى.

قال الإمام: «فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله و أنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله و يقول: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» و «وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» و «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ثمّ يقول: أنا رأيتّه بعيني و أحطت به علماً و هو على صورته البشر. أما تستحيون؟! ما قدرت الزناقه أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر». (١)

هذا نموذج من نماذج كثيره أوردناه حتى يكون أسوه لنماذج أخرى.

و إن أردت أن تقف على مدى مكافحه الأئمة الاثنى عشر للبدع المحدثه، فعليك مقارنه كتابين قد ألفا في عصر واحد بيد محدّثين في موضوع واحد، و هما:

١- التوحيد لابن خزيمة (المتوفى ٣١١ هـ).

٢- التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦-٣٨١ هـ).

ص: ٣٠٣

١-٤). الصدوق: التوحيد، باب ما جاء في الرؤيه: ١١١.

قارن بينها، تجد الأوّل مشحوناً بأخبار التجسيم و التشبيه و الجبر و ما زال المتسمّون بالسلفيه ينشرونه عاماً بعد عام، كأنّ ضالّتهم فيه.

و أمّا الثانی ففيه الدعوه إلى التوحيد و تنزيه الحق، و معرفته بين التشبيه و التعطيل، و تبين الآيات التي اغترّ بعضهم بطواهرها من دون التدبّر بالقرائن الحافّة بها.

و بذلك تبين أنّ النبيّ الأكرم قد جعل من الأئمّه عليهم السلام واجهه دفاعيه لصد البدع و أفكار المبتدعين و لا تتبين تلك الحقيقه إلا بعد معرفتهم و مراجعه كلماتهم.

جعفر السبحاني

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

٢٥ شوال المكرم ١٤٢٤هـ

ص: ٣٠٤

الفصل الثالث: الإيمان والكفر بين التساهل والتطرف

إشاره

ص: ٣٠٥

من سمات العقيدة الإسلامية هي بساطتها و وضوحها، و يُسرُّ تكاليفها و وظائفها، و قد كان هذان الأمران من أسباب انتشار الإسلام في ربوع الأرض بصوره سريعه عند بزوغ شمس الهدايه.

مثلاً، التوحيد الذي هو الركن الركين للدعوه، قد بينه الذكر الحكيم في سوره التوحيد، بلغه واضحه يُدركها الناس و يستفيد منها كل بحسب فهمه و مقدرته الفكرية، قال سبحانه: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». ٢

فأين هذه العقيدة الواضحه في توحيدِه سبحانه من عقيدته التثليث و الأقانيم الثلاثة للنصرانية التي تدعى أنها من دُعاة التوحيد و مكافحي الشرك و الثنويّه، و في الوقت نفسه تدعو إلى التثليث و تدعى أنه يجب الإيمان به دون أن يدرك واقعه؟

و مثل التوحيد، الاعتقاد بنبوه النبي الخاتم و خلود شريعته.

و يتلوه في الوضوح الاعتقاد بالحشر و النشر و العود إلى الحياه الجديده.

ص: ٣٠٧

١ - ١). الذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع هو الأوضاع الراهنه التي نمرّ بها و التي شاع فيها التطرف بين الطوائف الإسلامية، بحيث عاد يكفر بعضها بعضاً لمجرد وجود فوارق بسيطه لا تمتّ إلى ملاك الإيمان و الكفر بصله.

فالأصول التي أنيط بها الإيمان هي الأصول الثلاثة المشار إليها من التوحيد و النبوه و المعاد، فلها من الوضوح و البساطه ما يجعلها في متناول الجميع بعيداً عن التعقيد.

هذا كله حول العقيدة الإسلاميه، و أمّا يسر التكليف و الفرائض الإسلاميه، فالكلّ محدّد بإطار عدم الحرج و الضرر و ما لا يطاق. قال سبحانه: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». ١

و قال سبحانه: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». ٢

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «لا ضرر و لا ضرار». (١)

فأين هذه التكليف الحنيفيه الميسوره و السهله من الدعوه إلى العزوبه و الرهبانيه المبتدعه التي تضادّ فطره الإنسان و تنتهى إلى انقطاع النسل؟ و من التكليف الشاقه التي تحفل بها الشرائع السابقه.

فالدخول في حظيره الإسلام رهن الإيمان بأصول بسيطه و واضحه، كما أنّ الفوز و النجاح رهن العمل بأحكامه الميسوره.

نجاح الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في دعوته

لقد حالف التوفيق الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم في دعوته الرساليه حيث ضرب الإسلام-غبّ دعوته-بجرانه في أكثر الربوع العامره في مدّه قليله حتّى دخل الناس في دين الله زرافات و وحداناً، و إنّ من أبرز أسباب نجاحه هو دعوته إلى

ص: ٣٠٨

١-٣). مسند أحمد: ٥/٣٢٦؛ [١]الوسائل: ١٧، الباب ٢ من إحياء الموات، الحديث ٥.

عقيدته واضحه المعالم، و تكليف مرفق باليسر.

نعم لم يكن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم متساهلاً فى قبول الإيمان، و لا متشدداً فيه.

أمّا أنّه لم يكن متساهلاً فى قبول الإيمان فإنه صلى الله عليه و آله و سلم قَبِلَ إِسْلَامَ قَوْمٍ—عند ما أسلموا بلسانهم—لكن رفض إدعاء إيمانهم، إذ كان لعقاً على ألسنتهم، و قد اطلع على واقع اعتناقهم عن طريق الوحي، فلما وفدوا إليه صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا آمنا، أمره الله سبحانه أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». ١

و قد كان حزب النفاق من أبرز المنتمين إلى هذه الطائفة حيث كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فلذلك اشتهروا بالنفاق و لم يكن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يعتمد عليهم، و لذا رفض التساهل فى قبول الإيمان، و إدخال من لم يكن مؤمناً فى حظيره الإيمان. و قد أماط سبحانه الستر عن كثير من نياتهم و فتنتهم و تخطيطاتهم فى ضرب الإسلام.

و كما أنّه لم يكن متساهلاً، لم يكن أيضاً متطرفاً متشدداً فى قبول الإيمان، فإذا دلّت الأمارات على أنّ الرجل آمن بلسانه و قلبه، و نبذ عباده الأصنام و آمن بنبوته و شريعته و حشره يوم القيامة، قَبِلَ إِيْمَانَهُ و أدخله مدخل المؤمنين، و أثبت له من الحقوق ما للآخرين دون أن يسأله وراء الأصول الثلاثة:

«التوحيد و النبوة و المعاد» عن أعرافه و عاداته و تقاليد القوميه التى تختلف حسب البيئات و الظروف المختلفه.

فقد ندد سبحانه بالسَّريَّة التي بعثها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لغايه من الغايات فالتقت برجل صاحب أموال و ثروه فحسبوه كافراً، فأرادوا قتله، فتكلم هو بما يدل على إسلامه كالقاء تحيه الإسلام إليهم أو النطق بالشهادة و نحوها، فاعتبرها بعضهم مجرد كلمات يدفع بها عن نفسه القتل، فعمدوا إلى قتله، ولما وصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم شق ذلك عليه، و أنب القاتل فقالوا له: إنما تعوذ بها من القتل، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقاتل: «هلاً شققت قلبه؟» وقد نزل في ذلك قوله سبحانه: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا». ١

قال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرمى غنماً له فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، و أتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت هذه الآية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...» إلى آخرها. (١)

و حصيله الآية: أن من أظهر الإسلام و لم يدل على أنه آمن بلسانه دون قلبه، فله ما للمسلمين و عليه ما عليهم، خصوصاً فيما يرجع إلى حقن الدماء و حفظ الأموال.

ثم إنه سبحانه نفى منطق القاتل - إنما تعوذ بهذه الكلمة لينجو من القتل - بمنطق العقل و الوجدان، فقال: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» أي قد كنتم من قبل في هذه الحالة كهذا الذي يسر إيمانه و يخفيه من

ص: ٣١٠

قومه، أو أنكم كنتم مشركين من قبل، ثم دخلتم الإسلام بنفس الكلمه التي نطق بها، و بها حُفنت دماءكم و أموالكم، فكان عليكم أن تقبلوا من القتل ما قبله النبي منكم.

و الآيه تدلّ على حكمين شرعيين:

١. وجوب التثبيت في كلّ شيء خاصّه فيما يرجع إلى الدماء و الأموال.

٢. إنّ كلّ من أظهر الإسلام و نطق بالشهادتين فحكمه حكم المسلمين ما لم يدلّ دليل على نفاقه.

و هذا هو موضوع مقالنا و تحقيق القول في الموضوع يأتي ضمن أمور:

ص: ٣١١

ثقافه التساهل

لقد شاعت ثقافه التساهل بين الساسه الغربيين و المثقفين فى الشرق، حيث استخدموا هذه الكلمه فى مجالات مختلفه أعم من الدين و الفلسفه و الأخلاق و الحقوق و السياسه، و نحن نركّز فى المقام على خصوص التساهل الدينى أو «البيئوراليزم الدينى» حسب مصطلح الغربيين، و نفسره بوجهين:

١. التساهل السلوكى

قد يطلق التساهل و يراد به الخضوع للتعدديه الدينيه و قبولها فى سعيد الحياه مع الناس و الأخذ بالمشترك الأصيل بين الشرائع السماويه الذى لا يختلف فيه اثنان من أتباعها، و الغمض عن الاختلاف فى غيره، أخذاً بقوله سبحانه: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ» ١ و قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». ٢

و التساهل بهذا المعنى ركيزه التعايش الاجتماعى و أساسه، فى مجتمع استولت عليه الثقافات المختلفه، و الأفكار المتنوعه. و كلَّ يدعى وصلاً بليلى و ليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

فليس للإنسان الراغب فى الحياه إلا الغمض عن نقاط الافتراق، و التركيز على المشتركات لتدور رحى الحياه لصالح الجميع، مثلاً أصحاب الديانات المختلفه فى شبه القاره الهنديه التى هى أشبه ب«متحف المذاهب» لا محيص لهم من الأخذ بالتعدديه الدينيه حسب التفسير السلوكى، حتّى يعيش أتباع الديانات المختلفه جنباً إلى جنب حياه سَلْمِيَه، و يتحمّل بعضهم البعض الآخر، فتكون النتيجة هو تقليل التعصّب الدينى بالمعنى السلبي بين أتباع الديانات الأخرى و إيجاد التعاون و التفاهم على طريق تحقيق العداله الاجتماعيه، و إقامة الصلح و نشر الصفاء بين المواطنين.

فالتساهل السلوكى لا يضاد مبادئ الإسلام و أسسه.

و اعترافه بأتباع الشرائع السماويه كاليهوديه و النصرانيه و المجوسيه آيه قبول التسالم السلوكى، ما لم يتآمروا على مصالح المسلمين و أهدافهم العالیه.

و قد اعترف الفقه الإسلامى بحقوقهم، ففيه فصول تعكس تعاطف الإسلام مع أتباع هذه الشرائع، نذكر على سبيل المثال:

عند ما كان الإمام على عليه السلام يتجول فى شوارع المدينه رأى رجلاً أعمى يستعطى الناس، فسأل: «ما هذا؟» فقيل: رجل نصرانى، فأجاب الإمام: «عجباً، استعملتموه حتّى إذا كبر و عجز منعموه! اصرفوا عليه من بيت الله لتصونوا وجهه». (١)

ص: ٣١٣

(١ - ١). الوسائل: ٤٩/١١، الباب ١٩ من أبواب الجهاد، الحديث ١. [١]

إنّ الحياه السليمه لا تختص بأهل الكتاب، بل جوّز القرآن ذلك التعامل مع المشركين أيضاً، شريطه عدم اشتراكهم في حرب ضدّ المسلمين، وعندئذٍ يجب معاملتهم بالحسنى و العدل و القسط، لأنّ الله يحبّ المقسطين.

و هذا السلوك لا ينطوى على شىء من النفاق، و إنّما هو من صميم الدين الإسلامى، بل كان هذا أحد الأسباب المشجّعه على اعتناق الإسلام. و ليس فى هذا الشأن أجمل من كلام الإمام على عليه السلام و هو يخاطب و اليه على مصر، إذ يقول: «و أشعر قلبك الرحمة للرعيه و المحبّه لهم، و اللطف بهم، و لا تكون عليهم سبعا ضارياً تغتم أكلهم فانهم صنفان:

[أ.] إمّا أخ لك فى الدين.

[ب.] أو نظير لك فى الخلق». (١)

نعم التساهل بهذا المعنى، لا- يعنى توفر السعاده الأخرويه للناس فى جميع الأعصار و من أتباع أىّ دين، فالتساهل الدينى بهذا المعنى- و إن صدر عن بعض الكُتّاب- تفسير خاطئ يناقض القرآن الكريم الذى يرى الفوز و السعاده و الإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و العمل به، يقول سبحانه: «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا» ٢، و قد أوضحنا التساهل الدينى بهذا المعنى فى كتابنا «مفاهيم القرآن» و فنّدنا أدلّه اتباع تلك الفكره فى الأوساط الإسلاميه. (٢)

ص: ٣١٤

١- ١). نهج البلاغه، [١] قسم الكتب، الكتاب ٥٣.

٢- ٣). مفاهيم القرآن: ٢٠٠/٣- ٢١٤. [٢]

التساهل العملي عبارته عن فكره الإرجاء، بمعنى الاكتفاء في فوز الإنسان بالسعادة الأخروية و دخوله في حظيره الإيمان، بالإقرار باللسان و الإيمان بالقلب، و إن اقترف المعاصي، و ترك الفرائض، فهؤلاء هم القائلون بالإرجاء، و المعروفون بالمرجئه.

و في هذا النوع من التساهل -لو صحّت نسبته إلى المرجئه- خطر على أخلاق المجتمع، و لو ساد لم يبق من الإسلام إلا رسمه و من الدين إلا اسمه، و يكون المتظاهر بهذه الفكره كافرأ حقيقه، اتّخذ هذه الفكره واجهه لما يكنّ في ضميره.

و لقد شعر أئمّه أهل البيت عليهم السلام بخطوره الموقف، و علموا بأنّ إشاعه هذه الفكره عند المسلمين عامّه، و الشيعة خاصّه، سترجعهم إلى الجاهليّه، فقاموا بتحذير الشيعة و أولادهم من خطر المرجئه فقالوا:

«بادرُوا أولادكم بالحديثِ قبلَ أن يسبقكم إليهم المرجئه». (١)

و حصيله الكلام: أنّ فكره الإرجاء و إن كانت تضرّ بالمجتمع عامّه. و لكن الإمام خصّ منه الشباب لكونهم سريعي التقبّل لهذه الفكره، لما فيها من إعطاء الضوء الأخضر لهم لاقتراف الذنوب و الانحلال الأخلاقي و الانكباب على الشهوات مع كونهم مؤمنين.

و لو صحّ ما تدّعيه المرجئه من الإيمان و المعرفة القلبيّه، و المحبّه لإله العالم، لوجب أن تكون لتلك المحبّه القلبيّه مظاهر في الحياه، فإنّها رائده الإنسان و راسمه حياته، و الإنسان أسير الحبّ و سجين العشق، فلو كان عارفاً

ص: ٣١٥

بالله، محباً له، لا تتبع أوامره و نواهيه، و تجنّب ما يُسخطه و عمل بما يرضيه، فما معنى هذه المحبّه للخالق التي ليس لها أثر في حياه المحبّ؟!

و لقد وردت الإشاره إلى التأثير الذي يتركه الحبّ و الودّ في نفس المحبّ في كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما أحبّ الله عزّ و جلّ من عصاه» ثمّ تمثّل و قال: تعصى الإله و أنت تظهر حبّه

(١)

ص: ٣١٤

١-١). سفينه البحار: ١/١٩٩، [١] ماده «حبّ».

إشاره

ثقافه التكفير

إذا كان التساهل يطلق و يراد به تاره التساهل السلوكى، و أُخرى الانحلال الأخلاقى. و الأول منهما أساس الحياه الاجتماعيه، و الثانى دعامه الماديه المحضه، فهكذا التكفير، يطلق و يراد به أحد الأمرين:

١. إنكار دعائم الإيمان

للإيمان فى الكتاب و السنّه دعائم ثلاث، قامت عليها خيمه الإيمان و عرشه، ألا و هى:

١. الإيمان بتوحيده سبحانه، و أنّه واحد لا ثانى له، و لا مدبّر غيره، و لا معبود سواه.

٢. إنّ محمداً صلى الله عليه و آله و سلم رسول الله و خاتم النبيين، لا نبى بعده، و إنّ كتابه خاتم الكتب، و شريعته خاتمه الشرائع.

٣. إنّ الساعه آتية لا ريب فيها، و أنّ الله يبعث من فى القبور.

هذه هى الأصول الثلاثة التى تدور عليه رحى الإيمان، فمن اعتنقها فهو مؤمن، و من أنكرها فهو كافر.

ص: ٣١٧

فمن أنكر هذه الأصول، أو واحداً منها، أو ثبت بالدليل إنكاره، فهو محكوم بالكفر، خارج عن ساحه الإيمان، فلو ولد من والدين مسلمين أو أحدهما مسلم، ومع ذلك رفضها أو رفض واحداً منها، فيحكم عليه بالكفر و الارتداد، و للكافر و المرتد أحكام محرّره في الكتاب و السنّه.

أمّا من شكّ فيها، تأثراً بتيارات كلاميه مناهضه للدين، و لكن بغير إنكار، بل مع محاوله جادّه لإزاله الشكّ عن ضميره، فلا يحكم عليه بالكفر و لا بالارتداد.

فهذا النوع من التكفير-القائم على ثبوت إنكار الرجل دعائم الإيمان و أسسه، باعترافه أو بدليل قاطع-مما ثبت بالكتاب و السنّه، قال سبحانه: «وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ١.

و هذا هو القرآن الكريم، يحكى لنا اتّخاذ اليهود، الإيمان بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ثمّ الارتداد عنه في عصر الرساله، ذريعه لإيجاد الريب و الشكّ في قلوب البسطاء من الناس، قال سبحانه: «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ٢

إنّ شيوع الارتداد بين المؤمنين، هو إحدى الأمنيات الكبرى لأهل الكتاب، لأجل أنّ الارتداد كما يضرب بدين المرتد، يضر بالمجتمع الدينى أيضاً، و يورث الفوضى في اعتناق الدين، و يزعزع الإيمان بالأصول، و ينبت العداء بين المسلمين، يقول سبحانه حاكياً عن أمنيّه كثير من أهل الكتاب، في

أن يروا ارتداد المسلمين على أعقابهم: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». ١

فتكفير من أنكر الأصول و دعائم الإيمان، لا- صله له بالتشدد و التطرف، بل هو عمل بالكتاب و السنه، و قد أطبق عليه فقهاء الإسلام و علماءه.

قال سبحانه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ». ٢

فالإيمان بالله و رسوله، من دعائم الإيمان و لا ينفك الإيمان بالرسول، عن الإيمان بالحياه الأخرويه. فمن آمن بهذه الاصول فهو مؤمن بشرط أن لا يطرأ عليه الريب و الشكّ دون أن يسعى في قلعه و إزالته.

و أمّا الجهاد الوارد في الآيه فهو من علائم الإيمان و أماراته، فالتضحيه بالنفس و النفيس آيه الإذعان بالذى ضحى من أجله، و أراق دمه في طريقه.

هذه هي نصوص الكتاب، أمّا كلمات المحققين فنذكر منها ما يلي:

١. قال أبو الحسن الأشعري (المتوفى ٥٣٢٤هـ): إن الإيمان هو التصديق لله و لرسله في أخبارهم، و لا يكون هذا التصديق صحيحاً إلا بمعرفته و الكفر هو التكذيب. (١)

٢. قال القاضي الايجي (المتوفى ٧٥٦هـ): الكفر و هو خلاف الإيمان، فهو عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم بمجيئه به ضروره. (٢)

ص: ٣١٩

١-٣). أصول الدين لأبي منصور البغدادي: ٢٤٨.

٢-٤). المواقف: ٣٨٨. [١]

٣. وقال سديد الدين الحمصي الرازي (المتوفى حوالى ٥٨٥هـ): وقد أجمعت الأمة على أنّ الإخلال بمعرفة الله تعالى و توحيدِه و عدله، و الإخلال بمعرفة رسوله، و بكلّ ما تجب معرفته ممّا يعدّ من أصول الدين، كفر. (١)

٤. وقال ابن ميثم البحراني (المتوفى ٥٩٩هـ): الكفر هو إنكار صدق الرسول، و إنكار شيء ممّا علم بمجيئه به بالضروره. (٢)

٥. وقال الفاضل المقداد (المتوفى ٨٢٦هـ): الكفر اصطلاحاً إنكار ما علم ضروره مجيء الرسول به. (٣)

إلى غير ذلك من الكلمات الحاكيه عن أنّ منكر أحد الأصول الثلاثة محكوم بالكفر أو الارتداد.

فاللازم على حكام الإسلام و فقهاء المسلمين تصفيه المجتمع الإسلامى من المرتدين بعد السعى إلى هدايتهم و إزاله شبهاتهم و حلّ عقدهم، مهما استغرق ذلك من الوقت، و كلّ من الثمن، و إلا فيحكم عليهم بما حكم به الكتاب و السنّه.

٢. مسلسل التكفير بلا ملاك

إشاره

فإذا كان ملاك الإيمان هو التصديق القلبي بالأصول الثلاثة، و هى جامعته لكلّ ما يجب الاعتقاد به على وجه الإيجاز، فأبناء الطوائف الإسلاميه الذين يؤمنون بها بجد و حماس، و يُقرّون بها باللسان، كلّهم مؤمنون و فى حظيره الإيمان متبوءون، فمن التطرّف تكفير طائفه لم يظهر منها إنكار أحد الأصول و إن غلب عليها

ص: ٣٢٠

١-١. المنقذ من التقليد: ١٦١/٢.

٢-٢. قواعد المرام: ١٧١. [١]

٣-٣. ارشاد الطالبين: ٤٣٣. [٢]

الهُوى فاقترفت معاصى أو تركت فرائض، دون أن تُنكر جزءاً من هيكل الشريعة الإسلاميه.

نعم إنَّ القول بإيمان هؤلاء المحكومين بهوى النفس، لا يعنى عدم الاهتمام بالعمل، و أنّ مجرد التصديق هو المنقذ من عذاب النار، بل يعنى أنّ الّذى ينقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان -و الّذى من آثاره حرمة دمه و عرضه و ماله- هو التصديق القلبى المقترن بالإقرار باللسان إن أمكن أو بالإشارة إذا امتنع، و أما المنقذ من عذاب الله سبحانه، أو الّذى يدخل إلى الجنة، فهو أمر آخر، مرهون بالعمل بالشريعة و ترك المعاصى و أداء الفرائض.

و لذلك ترى أنّ الآيات تركّز على العمل بعد الإيمان نحو قوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» ١، و قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا». ٢

و قال عزّ من قائل: «وَ الْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». ٣

فللتصديق القلبى المظهر بالإقرار، أثر، و هو احترام دمه و عرضه و ماله، و له - مقروناً بالعمل بالصلحاحات- أثر آخر، و هو الفوز بالسعادة الأخرويه.

مبدأ التطرف فى التكفير

ظهر التطرف فى أمر التكفير من الخوارج الذين كفّروا مرتكب الكبيره

و أخرجوه من ساحه الإيمان، و تشددوا إلى حد جعلوه مخلدًا فى النار لخروجه عن ربه الإيمان، إلا أن يتوب.

و تلتهم المعتزله، الذين جعلوا لمرتكب الكبيره منزله بين المنزلتين، فلا هو مؤمن و لا هو كافر، و لكنهم اقتنوا أثر الخوارج فجعلوه مخلدًا فى النار إذا مات بلا توبه، و حُرِّم من شفاعه الشفعااء.

إنَّ المسلمين اليوم بأمسِّ الحاجه إلى توحيد الكلمه و رصِّ الصفوف، و الابتعاد عن كلِّ ما يُفَرِّق جمعهم. و يشتت كلمتهم. و لو جعلنا هذه الفوارق و ما شابهها ممَّا يوجب خروج هذه الجماعه من الإسلام لتمزقت وحده الأُمَّه، و سهل حينئذٍ ابتلاعها جميعاً من قبل أعداء الإسلام المتربِّصين الطامعين.

و نحن نأسف لما مضى من إقدام أتباع بعض المذاهب الإسلاميه على تكفير بعضها بعضاً من دون تورع و تحرج، فأهل الحديث و الحنابله يكفرون المعتزله، و المعتزله يكفرون أهل الحديث و الحنابله.

ثم لَمَّا ظهر الأشعرى، و حاول إصلاح عقائد أهل الحديث و الحنابله، ثارت ثائره تلك الطائفه ضده، فأخذ الحنابله يكفرون الأشاعره، و يلعنونهم و يستونهم على صهوات المنابر.

فهذا هو تاج الدين السُّبكى يقول حول تكفير الحنابله للأشاعره: هذه هى الفتنه التى طار شررها فملاً الآفاق و طال ضررها فشمل خراسان و الشام و الحجاز و العراق و عظم خطبها و بلاؤها، و قام فى سبِّ أهل السنه (يريد بهم الأشاعره) خطيبها و سفهاؤها، إذ أدى هذا الأمر إلى التصريح بلعن أهل السنه فى الجمع، و توظيف سبِّهم على المنابر، و صار لأبى الحسن الأشعرى - كرم الله وجهه - بها أسوه بعلّى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فى زمن بعض بنى أميه

حيث استولت النواصب على المناصب، واستعلى أولئك السفهاء في المجامع و المراتب. (١)

كما نأسف لسريان هذه الحاله إلى مجال الفروع فإذا بأصحاب المذاهب الفقهيه الأربعة تختلف و تتشاحن و تتنازع، و نجمت عن ذلك فتنٌ كثيره داميه بينها.

فقد وقعت فتنه بين الحنفيه و الشافعيه في نيسابور ذهب تحت هياجها خلقٌ كثير، و أحرقت الأسواق و المدارس و كثر القتل في الشافعيه فانتصروا بعد ذلك على الحنفيه و أسرفوا في أخذ الثأر منهم في سنه ٥٥٤هـ، و وقعت حوادث و فتنٌ مشابهة بين الشافعيه و الحنابله و اضطرت السلطات إلى التدخّل بالقوّه لحسم النزاع في سنه ٧١٦هـ و كثر القتلُ و حرق المساكن و الأسواق في أصبهان، و وقعت حوادثٌ مشابهه بين أصحاب هذه المذاهب و أتباعها في بغداد و دمشق و ذهب كلُّ واحد منها إلى تكفير الآخر. فهذا يقول:

من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم، و ذاك يغري الجهله بالطرف الآخر فتقع منهم الإساءه على العلماء و الفضلاء منهم و تقع الجرائم الفظيحه. (٢)

يا لله و لهذه الدماء المراقه، و الأعراض المهتوكه و الأموال المنهوبه و قد صارت ضحيّه التعصّب الممقوت و الجهل المطبق بالشريعه السمرحه السهله، و الحنفيه البيضاء.

لم يكن الشافعي و لا أحمد مختلفين في الأصول و أركان الدين و دعائم بل

ص: ٣٢٣

(١ - ١). طبقات الشافعيه: ٣/٣٩١.

(٢ - ٢). راجع: البدايه و النهايه لابن كثير: ١٤/٧٦؛ مرآه الجنان: ٣/٣٤٣؛ الكامل لابن الأثير: ٨/٢٢٩؛ تذكره الحفاظ: ٣/٣٧٥؛ طبقات الشافعيه: ٣/١٠٩، و غيرها. و لاحظ الإمام الصادق عليه السلام لأسد حيدر، فقد أشبع المقال في هذا المجال.

كانا متعاطفين، وقد تبرّك أحمد بشرب الماء الذي عُسِّلَ فيه قميص الشافعي، و في قاموس الدهر أن يرث المأموم ما ورّثه إمامه، فلو كان بينهما اختلاف فإنما كان في الفروع و لم تزل الأمة مختلفه فيها بعد غروب شمس الدين و مصباحه و كلّ مأجور في فتياه إذا كانت جامعه للشرائط.

يقول محمد صالح العثيمين:

«لقد جرى في سنه من السنين مسأله في «منى» على يدي و يد بعض الإخوان، و قد تكون غريبه عليكم، حيث جيء بطائفتين، و كلّ طائفه من ثلاثه أو أربعه رجال، و كلّ واحده تتهم الأخرى بالكفر و اللعن و هم حجاج و خبر ذلك أنّ إحدى الطائفتين، قالت: إنّ الأخرى إذا قامت تصلّى وضعت اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر، و هذا كفر بالسنة، حيث إنّ السنة عند هذه الطائفه، إرسال اليدين على الفخذين؛ و الطائفه الأخرى تقول: إنّ إرسال اليدين على الفخذين دون أن يجعل اليمنى على اليسرى، كفر مبيح للعن، و كان النزاع بينهم شديداً.

ثمّ يقول: فانظر كيف لعب الشيطان بهم في هذه المسأله التي اختلفوا فيها، حتّى بلغ أن كفر بعضهم بعضاً بسببها التي هي سنه من السنن، فليست من أركان الإسلام، و لا من فرائضه، و لا من واجباته، غايه ما هنالك إنّ بعض العلماء يرى أنّ وضع اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر هو السنه و آخريين من أهل العلم يقولون: إنّ السنه هو الإرسال، مع أنّ الصواب الذي دلّت عليه السنه هو وضع اليد اليمنى على الذراع اليسرى». (1)

ص: ٣٢٤

أقول: لا- أظنّ أنّ الشباب أو غيرهم-الذين يتنازعون في مسأله القبض و نظائرها حتّى كادوا أن يقتتلوا-مقصّرون، وإنّما يرجع التقصير إلى خطباء القوم و علمائهم، فإنّ خطيب كلّ مذهب يثني على إمام مذهبه إلى درجه يُصوّر فيها أنّ الحقّ يدور على قوله و فعله، و بالتالي عند ما يبرز الخلاف في الفتوى، فأتباع كلّ إمام يتّهم الآخر بالانحراف عن الحقّ، و ربّما ينتهي الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

فالشافعي و ابن حنبل و عامّه أنّمه المذاهب، كلّهم خرّيجو مدرسه الكتاب و السنّه التي تدعو إلى الاعتصام بحبل الله و التحرّز عن الجدال و التفرقه.

يقول تعالى شأنه: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً». ١

و يقول سبحانه: «وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اختلفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». ٢

موقف النبي من تكفير المسلم

لقد حذر النبي صلى الله عليه و آله و سلم المؤمنين من تكفير بعضهم بعضاً، و نحن نعكس في هذه الصفحات بعض ما أثر عنه صلى الله عليه و آله و سلم:

١. بنى الإسلام على خصال: شهاده أن لا- إله إلا الله، و أنّ محمّداً رسول الله، و الإقرار بما جاء من عند الله، و الجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابه تكون من المسلمين... فلا تكفروهم بذنوب و لا تشهدوا عليهم بشرك». (١)

٢. أخرج أبو داود عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أيّما

ص: ٣٢٥

رجل مسلم أكفر رجلاً مسلماً، فإن كان كافراً وإلا كان هو الكافر». (١)

٣. أخرج مسلم، عن نافع، عن ابن عمر، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما». (٢)

٤. أخرج مسلم، عن عبد الله بن دينار، أنّه سمع ابن عمر، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أئماً امرئ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه». (٣)

٥. عقد البخارى باباً باسم «المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك»، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك امرؤ فيك جاهلية، وقول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» ٤. ٥

٦. أخرج الترمذى فى سننه عن ثابت بن الضحاك، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس على العبد نذر فيما لا يملك، ولا عن المؤمن كقاتله، و من قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله». (٤)

٧. أخرج أبو داود عن أسامه بن زيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريه إلى الحرقات، فنذروا بنا فهربوا، فأدركنا رجلاً فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه، فذكرته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال:

ص: ٣٢٤

١- ١. سنن أبى داود: ٢٢١/٤، برقم ٤٦٨٧، كتاب السنه. [١]

٢- ٢. صحيح مسلم: ٥٦/١، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان.

٣- ٣. صحيح مسلم: ٥٧/١، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده: ٢٢/٢ و ٦٠ و ١٤٢؛ و [٢] أخرجه الترمذى فى سننه: ٢٢/٥ برقم ٢٦٣٧، كتاب الإيمان.

٤- ٤. سنن الترمذى: ٢٢/٥، برقم ٢٦٣٦، كتاب الإيمان. [٣]

قلت: يا رسول الله، إنَّما قالها مخافه السلاح و القتل، فقال: «أ فلا شققت عن قلبه حتَّى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلاَّ الله يوم القيامة؟» قال: فما زال يقولها حتى وددت أنى لم أسلم إلاَّ يومئذ. (١)

٨. لما خاطب ذو الخويصره الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: اعدل، ثارت ثوره من كان فى المجلس، منهم خالد بن الوليد قال: يا رسول الله أ لا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «لا، فلعلَّه يكون يصلّى» فقال: إنَّه رب مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنى لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس و لا أشق بطونهم». (٢)

و على ضوء هذه الأحاديث المتضافره و الكلمات المضيئه المرويّه عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يعلم أن تكفير المسلم ليس بالأمر الهين، بل هو من الموبقات.

إجابه عن شبهه

إنَّ هؤلاء المكفّرين-المتطرّفين عندنا- ربّما يشتبّه عليهم الأمر و يقولون: إنَّ الكتاب و إن أمر بالاعتصام بحبل الله و نهى التفرقه، و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و إن حذّر من التكفير، لكن مصب الآيات أو موضوع الروايات، هم المسلمون و المؤمنون، و هؤلاء الذين نكفّرهم أو نغتالهم، و نقتلهم و نهب أموالهم، ليسوا منهم، فستحل دماؤهم و أعراضهم و أموالهم؟

هذه الشبهه التى تدّرّعوا بها فى سفك الدماء، محجوجه بكلام الرسول و لا شىء فى المقام أحسم و أقطع منه، فهو صلى الله عليه و آله و سلم لا يعتبر فى وصف الرجل بالإسلام

ص: ٣٢٧

١ - ١). سنن أبى داود: ٤٥/٣ برقم ٢٦٤٣؛ [١] صحيح البخارى: ١٤٤/٥، باب بعث النبى أسامه بن زيد إلى الحرقات من كتاب المغازى.

٢ - ٢). صحيح البخارى: ١٦٤/٥، باب بعث على و خالد بن الوليد من كتاب المغازى.

و الإيمان سوى الإيمان بالأصول الثلاثة، و هذه هي كلماته:

١. أخرج البخارى و مسلم فى باب فضائل على عليه السلام أنه قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يوم خير: «لأُعطينَ هذه الراية رجلاً يحب الله و رسوله يفتح الله على يديه».

قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الأماره إلا يومئذٍ، قال: فتساورتُ لها رجاء أن أدعى لها، قال فدعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على بن أبى طالب فأعطاه إياها، و قال:

«امشِ و لا تلتفت حتى يفتح الله عليك» فسار «على» شيئاً ثم وقف و لم يلتفت و صرخ: يا رسول الله على ما ذا أقاتل الناس؟

قال صلى الله عليه و آله و سلم: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد مُنعوا منك دماؤهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله». (١)

٢. روى الشافعى فى كتاب «الأُم» عن أبى هريره، أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله فقد عصموا منى دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله».

قال الشافعى: فأعلم رسول الله أن فرض الله أن يقاتلهم حتى يُظهروا أن لا إله إلا الله فإذا فعلوا منعوا دماءهم و أموالهم إلا بحقها، يعنى إلا بما يحكم الله عليهم فيها و حسابهم على الله بصدقهم و كذبهم و سرائرهم، الله العالم بسرائرهم، المتولى الحكم عليهم دون أنبيائه و حكّام خلقه، و بذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود و جميع الحقوق، و أعلمهم أن جميع أحكامه على ما يظهرون و أن الله يدين بالسرائر. (٢)

٣. روى الجزرى فى «جامع الأصول» عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من شهد

ص: ٣٢٨

١- ١. صحيح البخارى: ٢، مناقب على عليه السلام؛ صحيح مسلم: ج ٦ باب فضائل على عليه السلام.

٢- ٢. الأُم: ٢٩٦/٧-٢٩٧.

أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، و أكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم». (١)

وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله و أنّ محمّداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله و أنّ محمّداً رسول الله و استقبلوا قبلتنا و أكلوا ذبيحتنا و صلّوا صلاتنا، حرمت علينا دماؤهم و أموالهم إلا بحقّها».

كلّ هذه الأحاديث تصرّح بأنّ ما تُحقّن به الدماء و تُصان به الأعراض و يدخل به الإنسان في عداد المسلمين هو الاعتقاد بتوحيده سبحانه و رساله الرسول، فإذا كان هذا هو ملاك الدخول في الإسلام، فقد حفظ الله للمقرّين بها، أنفسهم و أعراضهم و أموالهم و حرم انتهاكها، و قال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبه حجه الوداع:

«إنّ الله حرم دماءكم و أموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمه شهركم هذا». (٢)

موقف علماء الإسلام من تكفير المسلم

و قد تشدّد علماء الإسلام في تكفير المسلم و نهوا عنه بقوّه، و بالغوا في النهي عنه.

قال ابن حزم حيث تكلم فيمن يكفر و لا يكفر (٣): و ذهب طائفه إلى أنّه لا يكفر و لا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو قُتيا، و أنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحقّ فإنّه مأجورٌ على كلّ حال، إن أصاب فأجران،

ص: ٣٢٩

١-١. جامع الأصول: ١/١٥٨-١٥٩.

٢-٢. السيره النبويه: ٢/٦٠٥. و [١] المذكور في السيره، يختلف مع ما في سائر الجوامع الحديثيه بشيء يسير.

٣-٣. الفصل بين الأهواء و الملل و النحل: ٣/٢٤٧.

و إن أخطأ فأجرٌ واحدٌ.

(قال): و هذا قول ابن أبي لیلی و أبی حنیفه و الشافعی و سفیان الثوری و داود ابن علی، و هو قول کل من عرفنا له قولاً فی هذه المسأله من الصحابه (رض) لا نعلم منهم خلافاً فی ذلك أصلاً.

و قال شیخ الإسلام تقی الدین السبکی: إن الإقدام علی تکفیر المؤمنین عسیر جداً، و کل من كان فی قلبه إیمان يستعظم القول بتکفیر أهل الأهواء و البدع مع قولهم لا- إله إلا الله، محمّد رسول الله، فإنّ التکفیر أمرٌ هائل عظیم الخطر (إلى آخر كلامه و قد أطل في تعظیم التکفیر و تفضیح خطره). (١)

و كان أحمد بن زاهر السرخسی (و هو أجل أصحاب الإمام أبی الحسن الأشعری) يقول: لما حضرت الشيخ أبا الحسن الأشعری الوفاء بدارى فى بغداد أمرنى بجمع أصحابه فجمعتهم له فقال: اشهدوا علىّ أنّى لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، لأننى رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد، و الإسلام يشملهم و يعمهم. (٢)

و قال القاضى عبد الرحمن الإيجى: جمهور المتكلمين و الفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة- و استدلالاً قائلاً:- إن المسائل التى اختلف فيها أهل القبلة- من كون الله تعالى عالماً بعلم، أو موجداً لفعل العبد أو غير متحيز و لا فى جهه و نحوها- لم يبحث النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها و لا الصحابه و لا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً فى حقيقه الإسلام. (٣)

ص: ٣٣٠

١-١. اليواقيت و الجواهر: ٥٨. [١]

٢-٢. اليواقيت و الجواهر: ٥٨. [٢]

٣-٣. المواقيف: ٣٩٣، طبعه القاهره، [٣] مكتبه المتنبي، لاحظ ذيل كلامه ترى أنه يستدل على أنه لا يجوز تكفير أيه فرقه من الفرق الإسلاميه إذا اتفقوا على أصل التوحيد و رساله.

وقال السيد محمّد رشيد رضا: إنّ من أعظم ما بُليت به الفرق الإسلاميه رمى بعضهم بعضاً بالفسق و الكفر مع أنّ قصد الكلّ الوصول إلى الحقّ بما بذلوا جهدهم لتأييده، واعتقاده و الدعوه إليه، فالمجتهد و إن أخطأ معذور.... (١)

ص: ٣٣١

١-١. تفسير المنار: ١٧/٤٤.

التكفير و المسائل الكلاميه الخلافيه

المسائل العقائديه على قسمين:

الف. ما اتفق فيها المسلمون على رأى واحد، فإنكارها يوجب الكفر، و يناقض الاعتقاد برسالة الرسول، كرسالة النبي و خاتمته.

ب. ما اختلف فيها المسلمون. و نحن نركز الكلام على القسم الثانى و نأتى ببعض الأمثله.

١. رؤيه الله فى الآخره

إن رؤيه الله يوم القيامة، من المسائل الخلافيه بين علماء الإسلام و مفسرى القرآن، فهم بين مثبت و ناف، و نحن لا نخوض فى الموضوع، إنما نركز على أن إنكار رؤيه الله يوم القيامة لا يلازم إنكار ما جاء به النبي، إذ لم يثبت أنها مما جاء به النبي بضروره من الدين و إن كان المثبت يستدل عليها بآيه قرآنيه نظير: «إلى ربها ناظرة» ١، لأنّ الثانى أيضاً يستدل بآيه أخرى نحو: «لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَ هُوَ

نحن نأسف على الجواب المذى صدر من مفتى السعودية السابق: عبد العزيز بن باز المؤرخ ب ١٤٠٧/٣/٨ رقم ٢/٧١٧ على السؤال الذى وجه إليه حول الائتتام بمن ينكر الرؤيه يوم القيامه، أى رؤيه الله جلّ و علا من قبل أهل الجنه.

فَنَقَلَ عَنْ عَدَّةٍ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ كَافِرٌ، مِنْهُمْ: ابْنُ تَيْمِيَّةٍ وَ تَلْمِيزُهُ ابْنُ الْقَيْمِ، فَقَالَ الْأَوَّلُ:

و الذى عليه جمهور السلف أنّ من جَحَدَ رؤيه الله فى الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممّن لم يبلغه العلم فى ذلك عُرِفَ ذلك كما يُعْرَفُ مَنْ لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصرّ على الجحود بعد بلوغ العلم فهو كافر.

إنّ هذه الفتوى تضادّ ما تضافر عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم من أنّ أركان الإسلام عبارته عن التوحيد و الإقرار بالرسالة و غيرهما ممّا مضى ذكره، فهل كان النبى يفرض على من يعترف بالشهادتين، الاعتقاد برؤيه الله؟!!

إنّ الرؤيه مسأله اجتهاديه تضاربت فيها أقوال المفسرين، و من نفى الرؤيه فإنّما اجتهد فى النصوص التى زعم القائل دلالتها عليها.

إنّ التكفير أمر خطير له من المضاعفات ما لا تحمد عقباه، و لا يصحح بأى مقياس، و هو بطبيعته يقتضى الحزم و الثبوت، و لا أقلّ من دعوه المكفر كالتنافى لرؤيه الله يوم القيامه لإيرائه دليله من الكتاب و السنّه، فلو كان ذلك مقنعاً للغير، أو على الأقلّ مقنعاً لنفس المستدل، فيجتنب عن تكفيره، إذ لا ملازمه عند النافى بين نفى الرؤيه، و إنكار رسالته صلى الله عليه و آله و سلم.

و لعمر الحقّ إنّ ما يعانى منه مجتمعنا اليوم من التطرّف و الإرهاب و الخوف،

بل تفجير المراكز و المؤسّسات المدنيّه، و قتل النفوس و حرق الأموال، ناجم عن هذا النوع من الفتيا، و قد ابتليت البلاد الإسلاميّه بهذا الشر بلا استثناء حتّى صارت الأراضي المقدسه هدفاً له، و أُعيد الحجر إلى ما جاء منه.

٢. الاعتقاد بعلم الغيب للأنبياء و الأولياء

كثيراً ما نرى المتطرّفين في التكفير، يكفّرون من أثبت علم الغيب لغيره سبحانه، بزعم أنّ هذه العقيدته تضاد قوله سبحانه: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ». ١

و لا- أظنّ أنّ مسلماً و اعياناً يصف الأولياء بعلم الغيب بنفس المعنى الّذي يصف به الله سبحانه، فعلمه سبحانه بالغيب، تابع من ذاته، غير مكتسب و لا محدود؛ و الآخر تعلّم من ذي علم مأخوذ من الله سبحانه، مكتسب محدد، و أين المعنى الأوّل من الآخر؟ و ليس علم الأنبياء و الأولياء بالغيب- بإذن الله سبحانه- في موارد خاصّه، إلّا كعلم صاحب موسى بالأُمور الخفيه الّتي تعلّمها من لدنه سبحانه، قال تعالى في وصفه: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا». ٢

و لأجل تحلّيه بهذا العلم اللّذي، طلب منه موسى عليه السلام أنّ يعلمه من ذاك العلم و قال له: «هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». ٣

فالاعتقاد بهذا النوع من العلم بالمغيبات، لا ينافي تخصيص علم الغيب بالله سبحانه.

٣. الاعتقاد بالقدره الخارقه للعاده

الاعتقاد بكون الأولياء مصادر لأُمور خارقه للعاده، كنفس الاعتقاد، بعلمهم بالغيب، لا يستلزم كُفراً و انكاراً لأصل من الأصول الثلاثه، و ذلك لأنَّ غير الله سبحانه لا يملك لنفسه شيئاً، و أنّ ما يصدر منه من الأفعال، سواء أ كانت عاديه أو غيرها إنّما هو بإقداره سبحانه عليها، و لو لا إفاضه القدره على العبد الّذى لا يملك شيئاً، لعجز عن أبسط الأعمال فضلاً عن الأُمور الخارقه للعاده.

فالاعتقاد بهذا النوع من المقدره المفاضه من الله سبحانه لا ينافى التوحيد أبداً، لأنَّ هنا قادراً بالذات و هو الله سبحانه، و قادراً بالغير (الإنسان)، فهو قادر بفضله و بإفاضه منه سبحانه.

هذا هو الذكر الحكيم يخبر عن مقدره خارقه للعاده لبعض أصحاب سليمان.

و يقول: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ». ١

هذه هي المقدره الخارقه للعاده الّتى أثبتها سبحانه لعفريت من الجن، أثبتها بشكل أوسع إلى من كان عنده علم من الكتاب حيث استطاع أن يأتي بالعرش قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه، كما أشار سبحانه إلى هذه الحقيقه بقوله:

«قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي». ٢

وقد شعر سليمان أنّ ذلك كلّهُ من فضل ربّه و كرمه، و حينئذٍ ندرك بما لا ريب فيه أنّ تفضّل الله على بعض عباده بالكرامه لا ينافى كبرياءه سبحانه و لا ينازع توّحده بالملك.

٤. الصفات الخبرية

لقد شغلت الصفات الخبرية الكثير من محدّثين و بعض المتكلّمين، ككونه سبحانه مستويّاً على العرش، و أنّ له وجهاً، و عيناً، و يدين، فالتشاجر قائم على قدم و ساق من القرن الثاني إلى يومنا هذا، حتّى أنّ الإمام الأشعري جعل الاعتقاد بها من عقائد أهل السنّه، فقال في رسالته التي كتبها في عقيدة أهل السنّه: من جمله قولنا....

و إنّ الله استوى على عرشه كما قال: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى». ١

و إنّ له وجهاً بلا كيف، كما قال: «وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ». ٢

و إنّ له يدين بلا كيف، كما قال سبحانه: «خَلَقْتُ بِيَدَيَّ». ٣

و إنّ له عيناً بلا كيف كما قال سبحانه: «تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا» ٤. ٥

و لسائل أن يسأل الشيخ الأشعري لما ذا جعلت هذه البنود من عقائد أهل السنّه؟ فإن كان الملاك و رودها في القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن أمور كثيرة

حول موضوعات مختلفه، تصلح لأن تكون نواه للعقيده فلما ذا تركتها؟!

ثم هل كان النبي عند وفود الناس إليه، يسألهم عن عقيدتهم في الصفات الخبرية؟!

فالعقيدة الإسلامية عند الشيخ الأشعري بعد ما تاب من الاعتزال و التحق بالحنابلة، عبارته عن عدّه أصول، دام فيها الخلاف بين المحدّثين و أهل الفكر و الوعي من الإسلاميين، و لو لا الخلاف بينهم لما رأيت منها أثراً في كتابيه:

الإبانة، و مقالات الإسلاميين، فكأنّ العقيدة الإسلامية عبارته عن عدّه مسائل، تضاربت فيها الآراء و الأفكار، فصار الخلاف نواه للعقيدة. «ما هكذا تورّد يا سعد الإبل»!!

٥. خلق القرآن و حدوثة

و من أعظم الفتن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية في أوائل القرن الثالث هو مسألة خلق القرآن و حدوثة، أو قدمه، و كان الأولى بمنهج أهل الحديث، عدم الخوض في هذا الموضوع، لأنّ مسلك أهل الحديث في اتّخاذ العقيدة في مسائل الدين هو اقتفاء كتاب الله و سنّه رسوله، فما جاء فيها يؤخذ به، و ما لم يجئ فيها يسكت عنه و لا يبحث فيه، و لأجل ذلك، حرّم أهل الحديث علم الكلام، و منعوا البحث عن ما لم يرد في الكتاب و السنّه.

و على ضوء هذا كان اللازم على أهل الحديث التّيكوت و عدم التّيس بينت شفه في هذه المسألة، لأنّ البحث فيها حرام على أصولهم، سواء أ كان الموقف هو قدم القرآن أم حدوثة، لأنّه لم يرد فيه نصّ عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و لا عن أصحابه، و مع الأسف كان موقفهم -و في طليعتهم أحمد بن حنبل - سلبياً و قاموا بتكفير المخالف.

يقول الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «السنة»: «و القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، و من زعم أن القرآن كلام الله عز و جل و وقف و لم يقل مخلوق و لا - غير مخلوق فهو أخبث من الأول، و من زعم أن ألفاظنا بالقرآن و تلاوتنا له مخلوقه و القرآن كلام الله، فهو جهمي، و من لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم». (١)

إن السلفيين و حتى أتباعهم في هذه الأيام يتحرجون من القول بأن الله ليس بجسم، قائلين بأنه لم يرد فيه نص في الشريعة، و لكن يتشدقون بقدم القرآن و عدم حدوثه بلا اكتراث، سالفهم و لاحقهم حتى جعلوه أصلاً يدور عليه إسلام المرء و كفره.

و أنا أجل الإمام أحمد، من هذا التطرف و التشدد الذي أفضى به إلى تكفير من لم يكفر هؤلاء القوم، و لعل الرسالة موضوعه على لسانه، كما عليه بعض أهل التحقيق.

ما ذا يراد من قدم القرآن؟ فإن أريد قدم علمه سبحانه فلا شك أن علمه بما في القرآن قديم، و إن أريد به قدم ما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين فلا شك أنه حادث، و كيف يمكن أن يكون قديماً و هو فعله سبحانه، و كل ما سواه فهو حادث و إن أريد من نفى كونه مخلوقاً أنه غير مختلق فهو حق لا غبار عليه، كيف و الاختلاق تهمه ألصقها المشركون بالقرآن فقالوا: «ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق». ٢

و كيف يعد القول بعدم حدوث القرآن أو حدوثه ملاكاً للإيمان و الكفر مع

ص: ٣٣٨

أَنَّ محل النزاع غير واضح جدًّا؟!!

هذه نماذج من المسائل الكلامية التي صارت ذريعه للمتطرفين لئن يكفروا مخالفيهم مع أنّها مسائل كلامية، لا صلة لها بالعقيدة التي يُسأل العبد عنها يوم الورود.

و هناك مسائل فقهية، تذرّعت بها المتطرّفه لتكفير من يخالفهم، و إليك عناوينها:

ص: ٣٣٩

التكفير و المسائل الفقهيّه

ما عشت أراك الدهر عجباً، و العجب العجاب أن تصبح المسائل الفرعيه محوراً للإيمان و الكفر أو التوحيد و الشرك، خصوصاً ما اختلفت فيها كلمه الفقهاء، فنرى أنّ المتخصّصين في توزيع الكفر و الشرك و الألقاب البديئه، ينثرونها على مخالفهم في المسائل الفقهيّه مرفقه بشيء من السب و الشتم، كالدجل و الخرف. أعاذنا الله و إياكم من التناز بالألقاب و سباب المؤمن و شتمه.

لقد خفي على هؤلاء أو تجاهلوا حقيقه الأمر، فإنّ الإيمان و الكفر لا- يدور على المسائل الفرعيه، بل على المسائل العقائديه، فالاختلاف في الفروع لا- يورث كفراً و لا- شركاً، فغايه ما يُقال في هذا الشأن، أن يوصف المخالف بالخطي، و الجهل بحكم الله الشرعي، و مع ذلك يكون القائل به معذوراً إلا إذا كان الحكم الشرعي من ضروريات الدين على نحو يكون إنكاره ملازماً لإنكار الرساله، و هذا خارج عن محلّ البحث.

و ها نحن نذكر رءوس بعض المسائل الفقهيّه التي صارت ذريعه للرمي بالشرك:

١. زياره القبور.

ص: ٣٤٠

٢. شدّ الرحال إلى زياره القبور.

٣. البناء على القبور.

٤. بناء المسجد على القبور، و الصلاة فيه.

٥. الاحتفال بميلاد النبي.

٦. البكاء على الميت.

٧. التوسل بالأنبياء بأقسامه.

٨. التبرّك بآثار الأنبياء.

٩. صيانته الآثار الإسلاميه.

١٠. الاستغاثه بالنبيّ.

هذه المسائل كلّها مسائل فرعيه عمليه، و لكلّ من القائل بالجواز و عدمه دليله الذي يطرحه على صعيد النقاش العلمى كسائر المسائل الفقهيّه، و ليس لواحد من الطرفين رمى الآخر بالشرك، و إنّما له نقد دليل المخالف و إرشاده إلى الحقّ المهيح، شأن عامه المسائل الفقهيّه التي لم تزل محلّاً للخلاف بعد رحيل الرسول إلى يومنا هذا.

و نحن إذا طالعنا كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» للشيخ الجزيري، لرأينا فجوه الخلاف فيه متّسعه بين فقهاء المذاهب، و مع ذلك نجد آراء الجميع فيه محترمه.

و لا- نريد هنا الخوض في هذه المسائل الفرعيه لأننا أشبعنا الكلام فيها في محاضراتنا، و إنّما نوّد أن نسلط بصيص ضوء عليها ليتاح للقارئ معرفه دليل القائل بالجواز.

ص: ٣٤١

تنطوي زيارة القبور على آثار تربويه هامه، وقد أشار الرسول الأعظم إلى بعضها، فقال «زوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة». (١)

و في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة»: زيارة القبور مندوبه للاتعاض و تذكر الآخرة و تتأكد يوم الجمعة، و ينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء و التضرع، و الاعتبار بالموتى، و قراءه القرآن للميت فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، و بما ورد أن يقول الزائر عند رؤيه القبور: «السّلام عليكم دار قوم مؤمنين و إنّنا إن شاء الله بكم لاحقون» و لا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبه أو بعيده (٢)، بل يندب السفر لزياره الموتى خصوصاً مقابر الصالحين. (٣)

٢. شد الرحال إلى زيارة القبور

فإذا كانت زيارة القبور أمراً مستحباً فتكون مقدّمته أمراً مستحباً، أو على الأقلّ مباحاً لا حراماً.

و تخصيص الحديث النبوى الحاث على زيارة القبور بالقبور القريبه على خلاف الإطلاق أوّلاً، و على خلاف إطلاق الحكمة التي ذكرها النبي لها، لأنّ التذكير بالآخرة يشارك فيه القبر القريب و البعيد.

إنّ النبي الأعظم كان يشدّ الرحال إلى زيارة قبور شهداء أحد و يقول: هذه قبور إخواننا. (٤)

ص: ٣٤٢

١-١. سنن ابن ماجه: ١١٧/١، باب ما جاء في زيارة القبور.

٢-٢. إلّا الحنابلة فقالوا: إذا كانت القبور بعيده فزيارتها مباحه لا مندوبه.

٣-٣. الفقه على المذاهب الأربعة: ٣٤٠/١، [١] خاتمه في زيارة القبور.

٤-٤. سنن أبي داود: ٢/٢١٨، برقم ٢٠٤٣، [٢] آخر كتاب الحجّ.

وقد جرت سيره المسلمين عبر القرون على شد الرحال إلى زياره قبر النبي في المدينة المنوره، والقصاص والأخبار في ذلك كثيره لا يسع المجال لنقل معشارها.

وأما ما رواه أبو هريره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه «لا تشد الرحال إلا إلى مساجد ثلاثه:

مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى» (1) فليس له مساس بشد الرحال إلى زياره القبور، لأن الاستثناء فيه مفرغ والمستثنى منه محذوف وهو المسجد، فالنهي فيه متوجه إلى شد الرحال إلى مسجدي غير هذه المساجد الثلاثه، لا إلى شد الرحال إلى مكان من الأماكن غير هذه المساجد الثلاثه، لوضوح جواز شد الرحال إلى التجاره، والسياحه، وصله الأرحام، وتحصيل العلم، والإصلاح بين الفئتين إلى غير ذلك، وهذا يُعرب عن أن مصب النهي هو المساجد، جوازاً أو منعاً، لا مطلق الأماكن. فكأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا تشد إلى مسجد من المساجد إلا إلى ثلاثه....

٣. البناء على القبور

المراد من القبور في العنوان هو قبور الأنبياء والشهداء والأئمه والأولياء الذين لهم مكانه عاليه في قلوب المؤمنين، فهل هو أمر جائز أو لا؟

وهذه المسأله كالمسألتين السابقتين لا تمت إلى العقيدته الإسلاميه بصله حتى تكون ملاكاً للتوحيد والشرك، وإنما هي من المسائل الفقهيّه التي يدور أمرها بين الإباحه والكراهه والاستحباب وغيرها.

ولا يصح لمسلم واع أن يتخذ هذه المسأله ذريعه لتوزيع تُهم الشرك والتكفير والابتداع، فكم من مسائل فقهيّه اختلفت فيها كلمه الفقهاء، ومن

ص: ٣٤٣

(١-١). صحيح مسلم: ١٢٦/٤، باب لا تشد الرحال، كتاب الحجّ.

حسن الحظ لم يختلف في هذه المسأله فقهاء الأئمه الأربعة و لا فقهاء المذهب الإمامي، و دليلهم على جواز البناء على قبور تلك الشخصيات، هو ما اتفق عليه المسلمون منذ رحيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى يومنا هذا من صيانته الأبنيه على قبور الأنبياء و الصالحين و البناء على قبور الأولياء. مضت القرون، و ذى القباب مشيد فسيره للمسلمين تتابعت

من كل عصر فيه أهل الحلّ و ال

أضف إلى ذلك، أنّ البناء على قبور الأنبياء و الأولياء من مظاهر حبّ الرسول و موده آله، فصيانته آثارهم و العناية بكلّ ما يتّصل بهم من مظاهر الحب و الودّ.

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده و ولده و الناس أجمعين». (١)

نعم من مظاهر الحب، الاتّباع، و لكن تخصيص المظهرية بالاتّباع فقط، قول بلا دليل، بل له مظاهر أخرى كما عرفت.

ص: ٣٤٤

١-٢). صحيح البخارى: ٨/١، باب حب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من الإيمان، من كتاب الإيمان.

إنّ بناء المساجد على القبور أو عندها و الصلاة فيها مسأله فقهيه فرعيه لا تمتُّ إلى العقائد بصله.

فالمرجع في هذه المسائل هم أئمه المذاهب و فقهاء الدين -أعنى:الذين يستنبطون أحكامها من الكتاب و السنّه- و ليس لنا تكفير أو تفسيق واحد من الطرفين إذا قال بالجواز أو بعدمه، و نحن بدورنا نعرض المسأله المذكوره على الكتاب و السنّه لنستنبط حكمها من أوثق المصادر الفقهيه.

الذكر الحكيم يشرح لنا كيفيه عثور الناس على قبور أصحاب الكهف و أنّهم - بعد العثور- اختلفوا في كيفيه تكريمهم و إحياء ذكراهم و التبرّك بهم على قولين: فمن قائل: يُبنى على قبورهم ببيان ليُخلد ذكرهم بين الناس.

إلى قائل آخر: يبنى على قبورهم مسجد يصلّى فيه.

و قد حكى سبحانه كلا الاقتراحين من دون تنديد بواحد منهما.

قال سبحانه: «و كَذَلِكَ أَعْتَزْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا». ١

قال المفسّرون: إنّ الاقتراح الأوّل كان لغير المسلمين و يؤيده قولهم في حقّ أصحاب الكهف: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» حيث حوّلوا أمرهم إلى ربّهم.

و أمّا الاقتراح الثانی فنفس المضمون (اتخاذ قبورهم مسجداً) شاهد على أنّ المقترحين كانوا من المؤمنين، و ما اقترحوا ذلك إلاّ للتبرّك بالمكان الذى دفنت فيه

و القرآن يذكر ذلك الاقتراح من دون أن يعقب عليه بنقد أو رد، وهو يدلّ على كونه مقبولاً عند مُنزل الوحي.

إنّ المسلمين من عهد قديم أى من سنه ٥٨٨ و التي وُسِّع فيها المسجد النبويّ و دخل مرقد النبيّ الشريف فيه-، ما زالوا يصلّون في المسجد النبويّ و فيه قبر النبيّ الأعظم، و لم يخطر ببال أحد، أنّه تحرم الصلاة في مسجد فيه قبر إنسان.

٥. الاحتفال بميلاد النبي

الاحتفال بمواليد الأنبياء و الأولياء خصوصاً ميلاد النبي صلى الله عليه و آله و سلم، كلّه من مظاهر الحب و الودّ، قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوه الإيمان و طعمه: أن يكون الله و رسوله أحب إليه من سواهما...» (١).

و على ذلك جرت سيره المسلمين عبر قرون.

ففى «تاريخ الخميس»: لا- يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، و يعملون الولائم، و يتصدّقون فى لياليه بأنواع الصدقات، و يُظهرون السرور، و يزيدون فى المبرّات، و يعتنون بقراءه مولده الشريف و يظهر عليهم من كراماته كلّ فضل عظيم. (٢)

و قال القسطلانى: و لا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده صلى الله عليه و آله و سلم، يعملون الولائم، و يتصدّقون فى لياليه بأنواع الصدقات، و يظهرون السرور، و يزيدون المبرّات، و يعتنون بقراءه مولده الكريم، و يظهر عليهم من بركات كلّ فضل

ص: ٣٤٤

١- ١. جامع الأصول: ٣٣٨ رقم ٢٢.

٢- ٢. تاريخ الخميس: ٣٢٣/١ [١] للديار بكرى.

عميم...فرحم الله امرئ اتخذ ليالى شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدَّ علّه على من فى قلبه مرض و أعياء داء. (١)

٦. البكاء على الميت

الحزن و التأثر على فقد الأحبه أمر جبلت عليه الفطره الإنسانيه و ربّما يتعقبه ذرف الدموع على صفحات الوجه دون أن يملك الإنسان حزنه أو بكاءه، و الإسلام دين الفطره و لا يكون حكمه مخالفاً لها.

و هذا رسول الله يبكى على ولده إبراهيم و يقول: «العين تدمع، و القلب يحزن، و لا نقول إلا ما يرضى ربنا، و إننا بكى يا إبراهيم لمحزونون». (٢)

و قد بكى النبى و أصحابه فى مواقف كثيره على فقدان أحبّتهم و أفلاذ أكبادهم، و لا يسع المجال لبيانها. (٣)

٧. التوسل بالأنبياء و الصالحين

إشاره

قد وصلت تهمه الشرك للمتوسّلين بأنبياء الله و الصالحين من عباده ذروتها، و ظهرت بأشدّ صورها، فصار المتوسّلون بهم، دعاه للشرك و الضلال، و مجددى نحلّه «عمرو بن لحيّ» الذى هو أوّل من دعا إلى عباده غير الله سبحانه فى مكّه المكرمه، فكأّتهم نسوا قول الله سبحانه: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْهُ

ص: ٣٤٧

١- ١). المواهب اللدنيه: ٢٧/١. [١]

٢- ٢). سنن أبى داود: ٥٨/١؛ [٢] سنن ابن ماجه: ٤٨٢/١.

٣- ٣). لاحظ: بحوث قرآنيه: ١٤٠- ١٤٧.

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ». ١

و بالتالى نسوا أسلوب الدعوة، و أدب الحوار فى الإسلام، و طرق النقاش فى الشريعة، فعادوا يكيلون للمتوسّلين - و هم جمهوره المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها - أنواع التهم من التكفير، و الشرك، و البدعة، و الانحراف عن الحنيفية، إلى غير ذلك من ردود و كلمات تحوّلت إلى عناد شخصي و رغبة إلى إصاق التهم، لجمهور المسلمين.

ثمّ من المستفيد من هذا الهجوم فى الكلام، و إلحاق جماهير المسلمين بالمشركين؟!

لا شكّ أنّها فتنة يستغلّها أعداء الإسلام حيناً بعد حين.

فإذا بلغ السيل الزبى، لا - محيص من بسط الكلام لأجل إيقاف القارئ على واقع التوسّل الدائر بين المسلمين من عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى يومنا هذا، كلّ ذلك من منظار التوحيد و الشرك. فنقول إنّ للتوسّل أقساماً:

الف. التوسّل بدعاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى حال حياته

إنّ التوسّل بدعاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم حال حياته، أمر اتّفق على جوازه المسلمون، و دعا إليه الكتاب و قال: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا». ٢

فتجد أنّه سبحانه يدعو الظالمين إلى المجيء إلى مجلس الرسول كى يستغفر لهم النبى.

ب. التوسل بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد رحيله

التوسل بدعاء الرسول بعد رحيله لا يمكن أن يصبح شركاً، وإلا يكون التوسل بدعائه في حياته شركاً أيضاً، لأنّ الحياه و الموت ليسا مدار التوحيد و الشرك، بل هما مدار كون الفعل (الدعاء) مفيداً أو غير مفيد، فلو كان نبيّ الشهداء و رسولهم، كنفس الشهداء حياً، فيكون طلب الدعاء منه كطلبه في حياته الدنيويه.

فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يسمع كلام المتوسل، يصبح التوسل مفيداً لا لغواً، موافقاً لأصول التوحيد لا شركاً، مع أنّ الكلام في إصاق تهمه الشرك بالتوسل بدعاء النبي بعد رحيله، لا في كونه مفيداً أو غير مفيد.

و من حسن الحظ أنّ المسلمين اتّفقوا على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم حيّ، و على الرغم من الخلافات المذهبيه بينهم في فروع الدين، يسلّمون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة في تشهدهم، و يقولون:

«السّلام عليك أيّها النّبيّ و رحمه الله و بركاته».

و قد أفتى الإمام الشافعي و آخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، و أفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متّفقون على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم علّمهم السلام و أنّ سنّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثابتة في حياته و بعد وفاته. (1)

فلو انقطعت صلّتنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بوفاته، فما معنى مخاطبته و السلام عليه يومياً؟!

ص: ٣٤٩

(١ - ١). تذكرة الفقهاء: ٣/٣٣٣، المسألة ٢٩٤؛ الخلاف: ١/٤٧.

ج. طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

و قد اتّضحت بما ذكرنا حقيقه طلب الشفاعة من النبي بعد رحيله، إذ هو من أقسام طلب الدعاء منه، فلو جاز طلب الدعاء منه لجاز طلب الشفاعة، مضافاً إلى أنّ سيره المسلمين تكشف عن جواز طلب الشفاعة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و بعده.

أخرج الترمذى في سننه عن أنس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع لى يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ فقال: «اطلبنى أوّل ما تطلبنى على الصراط». (١)

و نقل ابن هشام في سيرته: أنّه لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف أبو بكر عن وجهه و قبله، و قال: بأبى أنت و أمى أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً. (٢)

و قال الرضى في «نهج البلاغه» لما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تغسيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلاماً و في آخره: «بأبى أنت و أمى طبت حياً و طبت ميتاً، اذكرنا عند ربك». (٣)

إنّ طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين-الذين أذن الله لهم بالشفاعة- إنّما يعتبرهم عبداً لله مقربين لديه، و جهاء فيطلب منهم الدعاء، و ليس طلب الدعاء من الميت عباده له، و إلّا لزم كون طلبه من الحيّ عباده لوحده واقعيه العمل.

ص: ٣٥٠

١- ١. سنن الترمذى: ٤/٦٢١، كتاب صفه القيامة.

٢- ٢. السيره النبويه: ٢/٦٥٦، ط عام ١٣٧٥هـ. و [١] هو يدلّ على وجود الصله بين الأحياء و الأموات، و قد جئنا به لتلك الغايه.

٣- ٣. نهج البلاغه، رقم الخطبه ٢٣.

و قياس طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطلب الوثنيين الشفاعة من الأصنام قياس مع الفارق، لأن المشركين كانوا على اعتقاد بألوهيه معبوداتهم و ربوبيتها، و أين هذا من طلب الموحد الذي لا يراه إلهاً و لا رباً و لا مَن بيده مصير حياته؟! و إنما تعتبر الأعمال بالنيات لا بالصور و الظواهر.

د. التوسل بذات النبي و قدسيته

و هناك من لا يرى التوسل بدعاء النبي أو طلب الشفاعة منه حياً و ميتاً، عباده له، لأن أقصاه، هو طلب الدعاء و أمره يدور بين كونه مفيداً أو غير مفيد، و لكن ربما يدور في خلده أن التوسل بذاته و شخصيته، أو قدسيته و منزلته أمر ممنوع أو شرك خفي، و يتوهم أن هذا النوع من الخضوع عباده للنبي.

و لكن التفريق ما بين التوسلين، تفريق بلا- فارق، لأن التوسل بدعاء النبي في كلتا الحالتين إنما هو لأجل كونه ذا مقام محمود و منزله كبيره عند الله، بل هو الرصيد لأمره سبحانه بالمجيء إليه صلى الله عليه وآله وسلم و طلب الدعاء و الاستغفار منه ثم استجابته دعائه، فلولا طهاره روحه، و قدسيه نفسه، لكان هو و سائر الناس سواء، فالتوسل بدعائه، في الحقيقة توسل بقربه منه، و منزلته لديه، «و كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا». ١

و قد أحس أولاد النبي يعقوب بذلك، فعند ما تبين أنهم عصاه التجأوا إلى والدهم فقالوا: «يا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ»، فاستجاب الأب لدعوتهم و «قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». ٢

ثم كيف يوصف هذا النوع من الخضوع عباده للنبي، مع عدم صدق حدّها عليه، فإنّها عبارته عن الخضوع لشخص بما أنّه إله العالمين، أو لمن فوّض إليه أموره سبحانه فصار إلهاً صغيراً، بيده التدبير والنصر، والعزّ، والذلّة، والمغفرة، والشفاعة، كما كان عليه المشركون في عصر الرسالة حيث كانوا يسوّون بين الأوثان وإله العالمين كما يحكى عنهم سبحانه بقوله: «تَاللّٰهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسَوٰىكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ». ١

و كانوا يعبدون الأوثان، بتصوّر أنّ العزه في الحياه الدنيا، أو الانتصار في الحرب بأيديهم و قد فوّض الله سبحانه ذلك لهم. كما يقول سبحانه: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». ٢

و قال عزّ من قائل: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ». ٣

و أين هذا من التوسّل بقدسيه النبي و منزلته عند الله، بما أنّه من عباد الله الصالحين، فالعبودية جوهره، والحاجه إلى الله سبحانه، طبيعته، لم يفوّض إليه شيء من الشفاعة و التدبير.

يا لله و للأفهام الصافيه و الأذهان المستقيمه، التي تجعل التوسّل بالنبيّ بما هو عبد صالح مقرب عند الله، و التوسّل بالآلهه المزعومه-التي يتخيل المتوسّل أنّه فوض إليها أمر التكوين و التشريع، و الشفاعة و المغفره-في كفّ واحد!!

و هاهنا وثيقه تاريخيه نقلها بنصّها تعرب عن توسّل الصحابه بدعاء النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم في حال حياته أولاً، و بقدسيته و شخصيته ثانياً، و المقصود من نقلها هو الاستدلال على الأمر الثاني.

روى عثمان بن حنيف أنه قال: إن رجلاً ضريراً أتى النبي فقال: ادع الله أن يعافيني؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت و هو خير».

قال: فادعه، فأمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يتوضأ فيحسن وضوءه و يصلى ركعتين و يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفّعه في».

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر.

و هذه الرواية من أصح الروايات، قال الترمذى: هذا حديث حق، حسن صحيح. (١)

و قال ابن ماجه: هذا حديث صحيح. (٢)

و يستفاد من الحديث أمران:

الأول: يجوز للإنسان أن يتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يدلّ على ذلك قول الضرير: ادع الله أن يعافيني، و جواب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: إن شئت دعوت، و إن شئت صبرت و هو خير.

الثانى: أنه يجوز للإنسان الداعى أن يتوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى ضمن دعائه، و هذا يستفاد من الدعاء الذى علمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للضرير، و الإمعان فيه يثبت هذا المعنى، و أنه يجوز لكل مسلم فى مقام الدعاء أن يتوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يتوجه به إلى الله.

ص: ٣٥٣

١-١. صحيح الترمذى: ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨. [١]

٢-٢. سنن ابن ماجه: ١/١/٤٤١ برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد ٤/١٣٨؛ [٢] إلى غير ذلك.

و إليك الجمل التي تدلّ على هذا النوع من التوسّل:

١. اللهمّ إنّني أسألك و أتوجّه إليك بنبيك.

إنّ كلمه «بنبيك» متعلّق بفعلين «أسألك» و «أتوجّه إليك» و المراد من النبي صلى الله عليه و آله و سلم، نفسه القدسيه و شخصيته الكريمة لا دعاؤه.

٢. محمد نبي الرحمة.

نجد أنّه يذكر اسم النبي صلى الله عليه و آله و سلم ثمّ يصفه بنبي الرحمة معرباً عن أنّ التوسّل حصل بذات النبي صلى الله عليه و آله و سلم بما لها من الكرامه و الفضيله.

٣. يا محمد إنّني أتوجّه بك إلى ربّي.

إنّ جملة: «يا محمد إنّني أتوجّه بك إلى ربّي» تدلّ على أنّ الضرير حسب تعليم الرسول، اتّخذ النبي صلى الله عليه و آله و سلم نفسه و سيّله لدعائه و توسّل بذاته بما لها من المقام و الفضيله.

إلى هنا تمّ بيان أحكام التوسّل على وجه موجز فلنذكر سائر الأمور التي صارت ذرائع للتكفير.

٨. التبرك بآثار الأنبياء و الصالحين

إشارة

جرت سنّه الله الحكيمه على إجراء فيضه إلى الناس بالطرق و الأسباب العاديه، فالله سبحانه مع أنّه «هو الرازق ذو القوه المتين»، أمرنا بطلب الرزق عن طريق العمل، فمن جلس في البيت و طلب الرزق فقد أخطأ في فهم سنّه الله.

و مع ذلك ربّما تقتضى المصلحه جريان فيضه بطرق و أسباب غير مألوفه، خارقه للعاده لغايات قدسيه، فتارة تكون الغايه هو إثبات النبوه - كما في المعاجز -

و أخرى، إجلال الشخص و إظهار كرامته عند الله.

أما الأول فلا حاجة إلى البيان، فقد حكى الذكر الحكيم معاجز الأنبياء و تحدّيتهم للمخالفين. و أما الثاني فالنموذج الواضح له فى الذكر الحكيم هو قصه مريم فى محرابها أولاً، و بعد مخاضها ثانياً.

يقول سبحانه: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَحَمِدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» ١

و قال أيضاً: «وَهَزَى إِلَيْكَ بِيَدِهِ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا» ٢

كل ذلك كان تفضلاً من الله على مريم فى فترات متلاحقه دون أن يعد ذلك من معاجزها و تحدّياتها.

و هذا ما نلاحظه أيضاً فى قصه النبی يعقوب عليه السلام الذى ابتلى بفراق ابنه يوسف، و صب عليه أنواع المحن و الغصص، فبكى عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (١)، و قد ردّ الله سبحانه بصره إليه بسبب غير مألوف، و هو تبرّكه بقميص ابنه يوسف فارتدّ بصيراً.

و الذكر الحكيم يحكى تفصيل ذاك التبرّك و انه قال يوسف: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أُتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ... * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» ٤

لكن أيه صلّه هنا بين إلقاء القميص و ارتداد البصر؟ و هو شىء لا تؤيده

ص: ٣٥٥

التجربة العلمية، ولا يمكن تفسيره و تعليله إلا عن طريق التمسك بعلم غيبه فوق تلك الحسابات، فالله سبحانه ربما يخرق سنته و عاداته بتدبير الأمور عن طرق غير مألوفه.

و قد كان التبرك بآثار الأنبياء من الأشياء الثابته فى الأمم السابقه على نحو يحكيه القرآن بتحسين.

تبرك بنى إسرائيل بصندوق العهد

لمّا أخبر نبي بنى إسرائيل قومه ب «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» حَتَّى يقاتلوا العدو بأمره، طلبوا منه آيه تدلّ على أمره سبحانه، فبعث إليهم ملكاً فقال لهم:

«إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ». ١

قال ابن كثير فى تفسير الآيه:

فالله سبحانه يصف الصندوق الذى فيه آثار موسى و هارون بالأوصاف التاليه:

١. فيه سكينه من ربكم و طمأنينه لقلوبكم حيث كانوا يستفتحون به على عدوهم و يقدمونه فى القتال و يسكنون إليه.

٢. فيه بقيه مما ترك آل موسى و آل هارون، حيث كان فيه: نعلا موسى و عصاه و عمامه هارون و قفيز من المن الذى ينزل عليهم من السماء و رضراض الألواح. (١)

٣. تحمله الملائكه فحملته الملائكه بين السماء و الأرض و هم ينظرون حتى

ص: ٣٥٦

١-٢). تفسير ابن كثير: ٣٠١/١. [١]

وضعته أمام طالوت.

فإذا جاز التبرك بصندوق فيه نعلا موسى و عمامه أخيه هارون و غير ذلك، و قد بلغ شرفاً و كرامه إلى درجه كانت الملائكه تحمله، فلما ذا لا يجوز التبرك بآثار النبي و الصالحين من عباد الله سبحانه؟!

٩. صيانه الآثار الإسلاميه

اشاره

تسعى الأمم المتحضّره المعترّّه و المهتمه بماضيها و تاريخها بما فيه من شخصيات و مواقف و أفكار، إلى إبقاء كل أثر تاريخي يحكى عن ذلك الماضي لتدلّل به على واقعيه ماضيها، و تُبقى على أمجادها و أشخاصها في القلوب و الأذهان.

و لا شكّ أنّ لهدم الآثار و المعالم التاريخيه الإسلاميه و خاصّه في مهد الإسلام: مكّه، و مهجر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم المدينه المنوره، نتائج و آثاراً سيئه على الأجيال اللاحقه التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامى و ربّما ينتهى بها الأمر إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضيه مُفتعله، و فكره مُبتدعه ليس لها أى أساس واقعي، تماماً كما أصبحت قضيه السيد المسيح عليه السلام في نظر الغرب، الذى بات يُرلُّ أهله يعتقدون بأنّ المسيح ليس إلّا- قضيه أُسطوريه حاكتها أيدي البابوات و القساوسه، لعدم وجود أيّه آثار ملموسه تدلّ على أصاله هذه القضيه و وجودها التاريخي.

فالواجب على المسلمين تشكيل لجنة من العلماء من ذوى الاختصاص للمحافظه على الآثار الإسلاميه و خاصّه النبويه منها، و آثار أهل بيته و عنايه بها و صيانتها من الاندثار، أو عمليات الإزاله و المحو، لما في هذه العنايه و الصيانه من

تكریم لأمجاد الإسلام و حفظ لذكرياتھا فی القلوب و العقول و إثبات لأصاله هذا الدين، إلى جانب ما فی أيدي المسلمين من تراث ثقافي و فكري عظيم.

و ليس فی هذا العمل أئ محذور شرعی فحسب، بل هو أمر محبذ كما عرفت، بل هو أمر وافق عليه المسلمون الأوائل.

فهذا هو السلف الصالح قد وقف-بعد ما فتح الشام-على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ...فتركها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم و على رأسهم عمر بن الخطاب بأن الإبقاء على الآثار أمرٌ محرّمٌ فيجب أن يهدم، و هكذا الحال في سائر القبور المشيّد عليها الأبنية في أطراف العالم، و إن كنت في ريب من هذا فاقراً تواريخهم و إليك نصّ ما جاء في دائره المعارف الإسلاميه:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعةً في قبيله «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم ب «حبرون» و لعلهم استغلّوا ذلك ففرضوا اتاوه على حجّاج هذا الحرم...و ربّما يكون توصيف تميم الدارى أن يكون نسبه إلى الدار أى الحرم، و ربّما كان دخول هؤلاء اللخمين في الإسلام، لأنه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذى قدّسه المسلمون تقديس اليهود و النصارى من قبلهم. (١)

محافظه الخلفاء على خاتم النبي صلى الله عليه و آله و سلم

روى البخارى بسنده عن ابن عمر قال: «أخذ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خاتماً من ورق و كان في يده، ثم كان بعد في يد أبى بكر، ثم كان بعد في يد عمر، ثم كان بعد في يد عثمان، حتّى وقع بعد في بئر أريس، نقشه محمد رسول الله».

ص: ٣٥٨

١- ١). دائره المعارف الإسلاميه: ٤٨٤/٥، ماده «تميم الدارى».

عبد الله بن عمر و الاعتناء بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم

اشتهر ابن عمر بتبذره للآثار و اعتنائه بها و محافظته عليها، قال الشيخ ابن تيميه: سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل يأتي هذه المشاهدة؟ فأجاب و ذكر في جوابه: أنّ ابن عمر كان يتتبع مواضع سير النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أنّه رُئي يصب في موضع ماء، فسئل عن ذلك، فقال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصب هاهنا ماء.

و روى البخارى في صحيحه عن موسى بن عقبه قال: رُئي سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق و يصلّى فيها، و يحدث أنّ أباه كان يصلّى فيها و أنّه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصب في تلك الأماكن، قال موسى: و حدثني نافع أنّ ابن عمر كان يصلّى في تلك الأماكن. (١)

١٠. الاستعانة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

إشارة

و نركّز في المقام على أمور ثلاثة:

١. إذا كانت الاستعانة بحكم قوله سبحانه: «وَإِذَا كُنْتَ تُسَبِّحُ» مختصه به سبحانه، فكيف نستعين في قضاء الحوائج بالأولياء و نستعين بهم؟

٢. هل الاستعانة بالنبي -مثلاً- عبادة له؟

٣. هل للصالحين القدره على الإجابة عند الاستعانة و الاستغاثة بهم؟

و إليك درسه الجميع واحداً بعد الآخر:

الف. الاستعانة بالمختصّ بالله، غير الاستعانة بالمخلوق

إنّ الاستعانة، مختصّه بالله سبحانه و قد أمرنا الله سبحانه أن نقول في

ص: ٣٥٩

صلواتنا: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، و مع ذلك كله، فإنَّ حياة البشر -فضلاً عن المسلمين - لا تستغنى عن الاستعانه بالغير. فكيف الجمع بين حصرها في الله، و كون التعاون أساس الحياه؟

و بعبارة أخرى إنَّ الاستعانه بالغير تشكّل الحجر الأساس للحضاره الإنسانيه حيث إنَّ حياه البشر في هذا الكوكب قائمه على أساس التعاون، و إنَّ العقلاء يتعاونون في أمورهم الحيويه.

و هذا هو العبد الصالح ذو القرنين استعان في بناء السد و قال: «فَاعِينُونِي بِقُوَّةِ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا» ١، و مع ذلك كيف تحصر الاستعانه بالله سبحانه؟!

و الجواب: إنَّ المُعين حقيقه و في عامه الصور، هو الله سبحانه، فلو قام شخص بإعانه غيره، فأنما يُعين بقدره مكتسبه و بإرادته من الله سبحانه.

و على ضوء هذا فالاستعانه بمن يعين بذاته، و بقدرته التي هي عين ذاته، مختصه بالله سبحانه؛ و أما الاستعانه بمن يعين بقدره مكتسبه من الله سبحانه، لا تؤثر إلا بإذنه فهو يختص بالمخلوق. و كم في القرآن الكريم نظائر لهذا الأمر، مثلاً أنه سبحانه ينسب التوفى لنفسه و يقول: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا». ٢

و في ذات الوقت ينسبه إلى الملائكه و يقول: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ». ٣

فالتوفى المنسوب إلى الله غير المنسوب إلى رسله، فالتوفى الصادر عن شخص بقدره ذاتيه غير محدد، هو قائم بالله سبحانه لا يعم غيره؛ و أما التوفى

الصادر عن الرسل بقدره مكتسبه محدد، فهو للرسل.

وقس على ذلك كثيراً من الأفعال التي نسبت إلى الله سبحانه وفي الوقت نفسه نسبت إلى المخلوق.

ب. الاستعانه بالأولياء ليست عباده لهم

إن طلب الإعانه أو الاستعانه بالأولياء ليست عباده لهم، وإنما يكون عباده لهم إذا استعان الإنسان و استغاث بهم بما أنهم آلهه، أو فوض إليهم تدبير العالم في عامه الجهات أو بعضها، و تحدّثنا بالتفصيل في محاضراتنا عن معنى العباده و مواردها، و قلنا: إن الاعتقاد بالألوهية و الربوبية هو الذي يصبغ العمل بصبغه العباده، و من الواضح أن المتوسّل بأولياء الله لا يعتقد بالألوهيةهم و لا بربوبيتهم، و لا بتدبيرهم لشئون الكون و لا بقيامهم بأفعال الله - بالاستقلال و الاختيار - بل يعتبرهم عباداً مكرمين، أظهاراً طيبين، ووجهاء عند الله، مطيعين له، غير مرتكبين لأدنى ذنب و معصية.

إن التواضع و الخضوع أمام قبور أولياء الله هو - في الحقيقة - تواضع لله و خضوع له، و إن كان في ظاهره تواضعاً لذلك الولي الصالح، إلا أنه لو كشفنا الستار عن قلب ذلك المتواضع لرأينا أنه يتواضع لله من خلال تواضعه لوليّه الصالح، و أنه يطلب حاجته من الله بواسطة هذا الولي الصالح و بسببه، فالتوسّل بالأسباب هو عين التوسّل بمسبّب الأسباب - و هو الله سبحانه - و هذا واضح لأهل البصيره و المعرفه.

و أنت لو سألت المتوسّل بأولياء الله عن الذي دعاه إلى التوسّل به، لأجابك - فوراً - بأنه «وسيله» إلى الله سبحانه، كما قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ١

فكما أنّ الإنسان يتوسّل إلى الله بالصلاه و الصوم و العبادات و الطاعات، كذلك يتوسّل إليه سبحانه بأوليائه الصالحين المكرّمين لديه.

و الخلاصه: أنّ المؤمن يعتقد-في قراره نفسه-بأنّ توسّله بالنبيّ و غيره من المعصومين و الصالحين يدفع المتوسّل به إلى السؤال من الله تعالى لقضاء حاجه من توسّل به، سواء أ كانت الحاجه غفران ذنب، أو أداء دين، أو شفاء مريض، أو رفاهيه عيش، أو غير ذلك.

ج. هل للصالحين القدره على الإعانه؟

إذا تبين أنّ الاستعانه بالخالق غير الاستعانه بالمخلوق، كما أنّها ليست عباده للمستعان ما دام المستعين يعترف بكونه عبداً، لا يقدر على الإعانه إلاّ بما قدره سبحانه و مكّنه منه.

فعندئذٍ ينتهي البحث إلى الأمر الثالث و هو كون الصالحين قادرين على إنجاز ما يطلب منهم-إذا شاء الله-و دراسه الحياه البرزخيه، يزيح الستار عن وجه الحقيقه. و إليك موجز الكلام فيه.

هل الموت انعدام و فناء مطلق، أو أنّه انتقال من دار إلى دار و من عالم ضيق إلى عالم فسيح؟

فالماديون على الأوّل، فالموت عندهم عباره عن فناء الإنسان و ضلاله في الأرض، فلا يبقى بعد الموت إلاّ الذرات الماديه المبعثره في الطبيعه، و هي غير

كافيه فى إعاده الإنسان، إذ لیس هنا شىء متوسط بين المبتدأ و المعاد.

و الإلهيون على الثانى، و أنّ الموت خروج الروح من البدن العنصرى و تعلّقه ببدن آخر يناسبه، و هو أمر يدعّمه كتاب الله الأ-كبر، و يدلّ عليه بأوضح دلالة، و يفتد دليل المشركين القائلين: «أ إذا ضلّلنا فى الأرض أ إنّا لفي خلقٍ جديدٍ» بقوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ». ١

و معنى الآيه: هو أنّ الموت ليس ضلالاً فى الأرض و أنّ الشخصيه الإنسانيه ليست هى الضالّه الضائعته فى ثنايا التراب، إنّما الضال فى الأرض هو أجزاء البدن العنصرى المادى، فهذه الأجزاء هى التى تتبعثر فى الأجواء و الأراضى، و لكن لا يشكّل البدن حقيقة الشخصيه الإنسانيه، و لا يكون مقوماً لها، و إنّما واقعيتها هى نفس الإنسان، و روحه، و هى لا ينتابها ضلالٌ، و لا يطرأ عليها تبعثر، بل يأخذها الله سبحانه و يحتفظ بها كما قال: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

و يتجلّى معنى الآيه بوضوح إذا عرفنا أنّ التوفى فى الآيه يعنى الأخذ فى مثل قوله سبحانه: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». ٢

و المعنى: هو أنّ الله يقبض الأنفس و يأخذها فى مرحلتين: حين الموت، و حين النوم، فما قضى عليها بالموت أمسكها و لم يردها إلى الجسد، و ما لم يقض عليها بالموت أرسلها إلى أجل مسمى.

كُلّ ذلك يكشف عن أنّ الموت ليس علامه الفناء و آيه العدم، بل هناك انخلاع عن الجسد، و ارتحال إلى عالم آخر، و لو لا ذلك لما كانت الآيه جواباً على اعتراض المشركين، و رداً على زعمهم.

فإذا كانت الحياه البرزخيه، حياه واقعيه، فالمسيح العذى كان يبرى الأ-كمه و الأبرص بإذن الله، هو نفس المسيح فى الحياه البرزخيه، فيستطيع قطعاً أن يقوم بنفس ما كان يقوم به فى حياهه الماديه.

كُلّ ذلك بإذنه سبحانه.

فإذا كان الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى حياهه الماديه-سبباً، لاستجابته الدعاء و انفتاح أبواب الرحمه، كما قاله أبو طالب:

و أبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمه للأرامل

فالاستسقاء به فى الحياه البرزخيه لا ينقص عن الاستسقاء به فى حياهه الماديه، لأنّ سبب استجابته دعائه، هو منزلته و مكانته عند الله و قربه لديه، و الجميع محفوظ فى كلتا الحالتين.

ص: ٣٦٤

الآن حصحص الحق

الآن حصحص الحق، وتجلت الحقيقه بأجلى مظاهرها و تبين أنّ تكفير أهل القبله لأجل الاختلاف فى المسائل الكلاميه أو الأحكام العمليه، على خلاف الكتاب و السنّه النبويه، و سيره علماء الإسلام خصوصاً إذا صدر المخالف فيها عن دليل، لا عن الهوى و العصبية.

و العجب أنّ هؤلاء المتطرفين، يرون أنفسهم أتباع أحمد بن تيميه، و لكنّه برىء منهم حسب فتاواه التى جمعها عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى.

فعلى هؤلاء-الذين يقتلون الأبرياء و لا يقيمون لدمائهم و أعراضهم و أموالهم وزناً-أن يرجعوا إلى فتاوى إمامهم حتى يقفوا على أنّه يعدّ المخالف إذا صدر عن اجتهاد، و قد ذكر عدّه مسائل عدّ فيها المخالف-بما ليس معذوراً عند المتطرفين-و إليك نصّ كلامه:

«و الخطأ المغفور فى الاجتهاد هو نوعى المسائل الخبرية و العلميه كما قد بسط فى غير موضع، كمن اعتقد ثبوت شىء لدلاله آيه أو حديث، و كان لذلك ما

ص: ٣٦٥

يعارضه و يبين المراد و لم يعرفه.

مثل من اعتقد أنّ الذبيح إسحاق، لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أنّ الله لا يرى، لقوله: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ»، و لقوله: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا- وَخِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»، كما احتجّت عائشه بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤيه فى حقّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و إنّما يدلّان بطريق العموم.

و كما نقل عن بعض التابعين أنّ الله لا يرى، و فسّروا قوله: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» بأنّها تنتظر ثواب ربّها، كما نقل عن مجاهد و أبى صالح.

أو من اعتقد أنّ الميت لا يعذب ببيكاء الحى؛ لاعتقاده أنّ قوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» يدلّ على ذلك؛ و أنّ ذلك يقدم على روايه الراوى، لأنّ السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفه من السلف و الخلف.

أو اعتقد أنّ الميت لا يسمع خطاب الحى؛ لاعتقاده أنّ قوله تعالى: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ» يدلّ على ذلك.

أو اعتقد أنّ الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أنّ العجب إنّما يكون من جهل السبب و الله منزّه عن الجهل.

أو اعتقد أنّ عليّاً أفضل الصحابه؛ لاعتقاده صحّ حديث الطير؛ و أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: «اللّهم ائتنى بأحبّ الخلق إليك؛ يأكل معى من هذا الطائر».

أو اعتقد أنّ من تجسّس للعدو و علّمهم بغزو النبى صلى الله عليه و آله و سلم فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك عمر فى حاطب و قال: دعنى أضرب عنق هذا المنافق.

أو اعتقد أنّ من غضب لبعض المنافقين غضبه فهو منافق؛ كما اعتقد ذلك أسيد بن حضير فى سعد بن عباده و قال: إنّك منافق! تجادل عن المنافقين.

أو اعتقد أنّ بعض الكلمات أو الآيات أنّها ليست من القرآن؛ لأنّ ذلك لم

يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظاً من القرآن، كإنكار بعضهم: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» ، و قال: إنما هي «و وصَّىٰ رَبُّكَ».

و إنكار بعضهم قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» ، إنما هو ميثاق بنى إسرائيل، و كذلك هي فى قراءه عبد الله. و إنكار بعضهم: «أَفَلَمْ يَتَّسِبِ الَّذِينَ آمَنُوا» إنما هي أو لم يتبين الذين آمنوا. و كما أنكروا عمر على هشام بن الحكم، لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها. و كما أنكروا طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

و كما أنكروا طائفة من السلف و الخلف أن الله يريد المعاصى، لاعتقادهم أن معنى أن الله يحب ذلك و يرضاه و يأمر به. و أنكروا طائفة من السلف و الخلف أن الله يريد المعاصى، لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلا بمعنى المشيئة لخلقها، و قد علموا أن الله خالق كل شيء، و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن، و القرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى، و لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين و أنكرت الآخر.

و كالذى قال لأهله: إذا أنا مت فأحرقونى، ثم ذرونى فى اليم فو الله لئن قدر الله على ليعذبنى عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. و كما قد ذكره طائفة من السلف فى قوله: «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ»، و فى قول الحواريين: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ».

و كالصحابه الذين سألو النبي صلى الله عليه و آله و سلم: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فلم يكونوا يعلمون أنهم يرونه، و كثير من الناس لا يعلم ذلك، إما لأنه لم تبلغه الأحاديث، و إما لأنه ظن أنه كذب و غلط». (1)

ص: ٣٦٧

١ - ١). ابن تيمية: أحمد، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى: ٣٣/٢٠ - ٣٦.

معنى كلامه: إنَّ هنا مجموعه من المسائل اتَّفَق جمهور الأُمَّة فيها على رأى واحد، و مع ذلك عَدَّر المخالف حتَّى لم ير اعتقاد المخالف بتحريف القرآن خروجاً عن الدين.

يا أُمَّة ائكليہ

يعانى العصر الراهن من الإرهاب الواسع الذى من ثمراته: قتل الأبرياء، و إراقه دماء الشيوخ الرُّكَّع، و الأطفال الرُّضَّع، و تمارسه كوادر سياسيه-لا دينيه-عليها سمه الإسلام، فصار ذلك سبباً لتشويه سُمعه الإسلام فى مختلف الأقطار، و عاد الشياطين يشهرون بالإسلام، و يزعمون أنه دين الإرهاب و أنّهما وجهان لعملة واحده.

و قد قام غير واحد من علماء الإسلام بإدائه هؤلاء و التبرّى منهم، و أكّدوا على أنّها فتنة استغلها أعداء الإسلام للإيقاع بالمسلمين و ضرب بعضهم ببعض، عبر خطابات من عُلى المنابر، و وسائل الإعلام، حتَّى وقف الأبيكم و الأصمّ على أنّ هذه الأعمال الوحشيه، تغاير مبادئ الإسلام فى عقيدته عامه طوائفه.

و لكن ما عشت أراك الدهر عجبا، فقد قام فى هذه الظروف العصيبه أحد دكاتره السعوديه (1) بمهمه التحقيق و التعليق على كتاب يحمل اسم «كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» و الكتاب حافل بذكر الأعمال الدمويه و الإرهابيه و ملخص الكتاب: إنَّ انتصار الشيخ كان قائماً على شنّ الغارات على الطوائف العربيه فى داخل نجد و خارجها و أحياناً على القبائل البعيده، و كلّ هؤلاء كانوا من أهل القبلة، يصلّون و يصومون، و على ذلك درج آل

ص: ٣٤٨

١-١). الدكتور عبد الله الصالح العثيمين بجامعة الملك سعود، نشرته دار الملك عبد العزيز.

سعود أيضاً بعد رحيل الشيخ.

و ها نحن نقتطف من الكتاب، نموذجاً يوقف القارئ على عامّه محتوياته.

غزوات باذن محمد بن عبد الوهاب

لما التجأ ابن عبد الوهاب-هرباً من حاكم الإحساء-إلى الدرعيه التي كان يحكمها محمد بن سعود، قال له الأمير: يا شيخ ما يكون لك قعود (١) عندنا و لا- مسكن، فأنا رجل متعود على أكل الحرام، و أنت عالم زاهد. هل عندك أن تفتينا؟ (٢) قال له الشيخ محمد: نعم أنا أبقىك على ما أنت عليه من أكل الحرام و أنت تتركنى أسكن عندك، أقوم الدين. فرضى ابن سعود بذلك. و قام ابن سعود و غزا من بلده على أربع ركائب. فوجد غنماً لقوم يسمون القرينيه، فذبح راعى الغنم و أخذها... ثم بعدها أرسل ثمانى ركائب على أهل القرينيه لأنهم قريبون منه. ثم [غزا] هذه القرية التي تسمى عرقه. و [حارب ثانيه، و غزا] بقدر أربعين ذلولاً. و بعث إلى جماعه له بالعينه ثمانيه رجال، و ذبح عثمان بن معمر و عبيداً حوله أربعين. ثم إنه ضجت القوم، و قالوا: يريدون. و لا يختلف منهم أحد. و ملك العينه و الجبلية. و هذه تبعد عن الدرعيه بقدر ست ساعات. و الله أعلم بالصواب.

و بعد ما قتل ابن معمر خاف ابن سعود منه، و قال: أخاف أن يقتلنى. و أما الشيخ كان بذلك الوقت إذا خرج من بيته إلى المسجد يمشى خلفه مقدار مائتى رجل. و إذا دخل كذلك. (٣)

ص: ٣٦٩

١-١). (قعود): إقامه.

٢-٢). (هل عندك أن تفتينا؟): هل عندك لنا فتوى بحل ذلك.

٣-٣). كيف كان ظهور محمد بن عبد الوهاب: ٥٨-٥٩.

إنّه لما أراد الجهاد تجهز معه مائه و عشرون جملاً، فحارب قريه تسمى الهلاليه. و أخذها و أخرج أهلها منها و دخلها. و هى بأرض القصيم تبعد عن الدرعيه بقدر سبعة أيام. و أسلم رياض العارض و ضرما. الرياض حاكمها ابن دؤاس، و أهل «ضرما» حاكمها ناصر بن إبراهيم. و صارت غزوته مقدار ثلاثمائه ذلول. و طاعوا له بنو سبيع، و هم بدو و أصحاب بيوت شعر. و تبعوا الدين الظفير. (١)

و هكذا ساق المؤلف غزوات آل سعود طيله سنين و كلّها تخريب و دمار، اغتيال و إغاره، لا على الكافرين و المشركين و لا على أهل الكتاب من اليهود و النصارى، بل على المسلمين الذين يخالفون تطرف ابن عبد الوهاب فى التكفير و الاتهام بالشرك!!

إنّ نشر هذا الكتاب و أمثاله، هو الذى أعطى بعض المبررات للأعداء و المتربّصين بنا للنيل من إسلامنا العظيم، و فتح لهم أبواب الطعن عليه لتشويه صورته الناصعه.

كما لعبت هذه الكتب دوراً فاعلاً. فى تهيئه الأرضيه المناسبه لبث الأحقاد و الأضغان فى النفوس المريضة التى انطلقت لتزرع الرعب و القتل و الدمار فى كلّ زاويه، غير مكترته بالضحايا الأبرياء الذين لا- ذنب لهم سوى نشدان الأمن و الراحة و السلام، تلك الآمال التى حرص إسلامنا العزيز على تحقيقها من خلال تجسيد مبادئه و قيمه و مفاهيمه الساميه على أرض الواقع.

ص: ٣٧٠

و لعل المحقق-سامحه الله و إيانا-لم يكن يحسب لهذه المضاعفات الخطيره و النتائج المأساويه التي يسببها نشر مثل هذه الكتب. و الله العالم.

بيان هيئه كبار العلماء فى الأراضى المقدسه

لما أحست هيئه كبار العلماء فى الأراضى المقدسه، بخطوره الموقف، و أنّ التكفير ثمّ التفجير و ما ينشأ عنه من سفك الدماء و تخريب المجتمعات و...

يضاد أصول الإسلام و مبادئه، أصدرت بياناً يُعرب عن وقوفهم فى وجه أعداء الإسلام و المغفلين المشغولين بالمسائل الخلافيه، مكان التركيز على المسائل المتفق عليها.

و إليك نصّ البيان:

أعلن مجلس هيئه كبار العلماء فى بيان أصدره عن ما يجرى فى كثير من البلاد الإسلاميه و غيرها من التكفير و التفجير، و ما ينشأ عنه من سفك الدماء و تخريب المنشآت. و ما يترتب عليه من إزهاق أرواح بريئه، و إتلاف أموال معصومه، و إخافه الناس، و زعزعه الأمن و الاستقرار.

أعلن أنّ الإسلام برىء من معتقد التكفير الخاطئ، و إنّ ما يجرى فى بعض البلدان من سفك للدماء البريئه و تفجير المساكن و المركبات و المرافق العامه و الخاصه و تخريب للمنشآت هو عمل إجرامى و الإسلام برىء منه و كذلك كلّ مسلم يؤمن بالله و اليوم الآخر.

و أوضح البيان أنّ من يقوم بمثل هذه الأعمال من التفجير و التخريب بحجه التكفير إنّما هو تصرّف من صاحب فكر منحرف، و عقيدته ضالّه. فهو يحمل إثمه و جرمه فلا يحتسب عمله على الإسلام و لا على المسلمين المهتدين بهدى الإسلام، المعتصمين بالكتاب و السنّه، المتمسكين بحبل الله المتين، و إنّما هو

محض إفساد و إجرام تأباه الشريعة و الفطره. و لهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعه بتحريمه محذره من مصاحبه أهله.

قال الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْهُ جَهَنَّمَ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ». ١

و أوضح بيان مجلس هيئه كبار العلماء أنّ التكفير حكم شرعى مردّه إلى الله و رسوله، فكما أنّ التحليل و التحريم و الإيجاب إلى الله و رسوله، فكذلك التكفير، و ليس كلّ ما وصف بالكفر من قول أو فعل يكون كفراً أكبر مخرجاً من الملة.

و لما كان مردّ حكم التكفير إلى الله و رسوله لم يجوز أن نكفر إلاّ من دلّ الكتاب و السنّه على كفره دلالة واضحة، فلا يكفى فى ذلك مجرد الشبهه و الظن لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيره.

و إذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات مع أنّ ما يترتب عليها أقلّ ممّا يترتب على التكفير فالتكفير أولى أن يدرأ بالشبهات، و لذلك حذر النبي صلى الله عليه و آله و سلم من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر فقال: «...أَيُّمَا امْرَأٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٍ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدَهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَ إِلَّا رَجَعْتَ عَلَيْهِ...» (١)

نشكر الله سبحانه على وجود هؤلاء العلماء الواعين، الذين لا تأخذهم فى الله لومه لائم. فشكراً لهم ثمّ شكراً شكراً.

ص: ٣٧٢

(١-٢). اقرأ البيان بتمامه فى رساله «التحذير من المجازيه بالتكفير»: د-ج.

ذرائع واهيه فى تضليل الشيعه

ما تقدمت الإشاره إليه من ذرائع التكفير أو التفسيق، لم تكن مختصه بطائفه دون طائفه، بل كانت تستهدف عامه المسلمين بفرقهم المختلفه. و نريد أن نتحدث هنا عن أمور يُضللُّ بها طائفه خاصه من المسلمين و هم الشيعه الإماميه المتمسِّكون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و أهل بيته.

و قد أخذ الجِدَد من الكُتَّاب-الذين لهم ولع بتمزيق الشمل و تفريق الصف - بنشرها و ترويجها، مركزين على الفوارق، و مُعرضين عن المشتركات، و كأنه ليس بين تلك الطائفه و سائر المسلمين سوى هذه الفوارق.

إنَّ الشيعه تشارك السنه فى أغلب الأُصول و الفروع و تفارقها فى أمور كلها عند السنه من الفروع و ليست من الأُصول، و الاختلاف فى الفروع بين العلماء قائم على قدم و ساق منذ رحيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى يومنا هذا، و نحن ندرسها على ضوء الكتاب و السنه، و سيظهر للقارئ الكريم أنَّ الخلاف فى هذه المسائل لا يمت إلى الإيمان و الكفر بصله على أنَّ بعضها ممَّا أُصق بالشيعه و هم منه برآء براءه يوسف ممَّا اتَّهم به.

١. عدم الاعتراف بخلافه الخلفاء

إن الشيعة ترفض خلافه الخلفاء و تعتقد بإمامه الأئمة الاثني عشر.

أقول: إن الشيعة لا- تعترف بخلافه الخلفاء، لأن الإمامه عندهم- بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم-مقام تنصيبى، لا انتخابى، و قد قام النبي صلى الله عليه و آله و سلم حسب الأخبار المتواتره بتنصيب وصيه عند منصرفه من حجه الوداع إلى المدينه فى أرض الغدير و قال مخاطباً أصحابه البالغين إلى ثمانين ألفاً أو أزيد:

«أ لستُ أولى بكم من أنفسكم»؟ قالوا: بلى.

قال: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله». ثم قال: «اللهم اشهد أنى قد بلغت».

و هو حديث متواتر رواه الصحابه و التابعون و العلماء فى كلِّ عصر و قرن، و قد احتفلت بنقله كتب التفسير و الحديث و التاريخ و السير. كما أُلّف فى هذا الموضوع عشرات الموسوعات و مئات الكتب، و صاغه الشعراء فى قصائدهم عبر القرون. (١)

و نحن نضرب عن ذلك صفحاً و نركّز على أمر آخر و هو:

هل الاعتقاد بخلافه الخلفاء من الأصول؟ و هل كان إسلام الصحابه و إيمانهم فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مشروطاً بالإيمان بخلافه الخلفاء؟ و هل كان النبي يسأل الوافدين لاعتناق الإسلام عن إيمانهم بخلافتهم؟ أو أنّها عند أهل السنّه

ص: ٣٧٤

١ - ١). لاحظ الغدير للأمين فى ١١ جزءاً. يُذكر أنّ الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبى ممّن جزم بصدور حديث الغدير، [١] حيث قال عند ترجمته للمؤرخ الشهير أبى جعفر الطبرى: جمع طرق حديث غدير خمّ فى أربعة أجزاء، رأيت شطره، فبهرنى سعه رواياته، و جزمت بوقوع ذلك. سير أعلام النبلاء: ١٤/٢٦٧ برقم ١٧٥.

من الفروع و من شعب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر حيث إنهما من الواجبات المطلقة و لا- يتحققان إلا- بنصب الإمام. فيكون واجباً بحكم و جوب مقدمته؟

و إن كنت فى شك فاستمع لما تتلو عليك من كلمات أكابر أهل السنّه:

قال الغزالي: «اعلم أنّ النظر فى الإمامه أيضاً ليس من المهمّات، و ليس أيضاً من فنّ المعقولات، بل من الفقهيات». (١)

و قال الآمدى: «و اعلم أنّ الكلام فى الإمامه ليس من أصول الديانات، و لا من الأمور اللابديّات، بحيث لا يسع المكلف الإعراض عنها و الجهل بها». (٢)

و قال الايجى: و هى عندنا من الفروع، و إنّما ذكرناها فى علم الكلام تأسيّاً بمن قبلنا». (٣)

و قال التفتازانى: «لا- نزاع فى أنّ مباحث الإمامه، بعلم الفروع أليق، لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامه، و نصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصه، من فروض الكفايات، و هى أمور كليّه تتعلّق بها مصالح دينيه أو دنيويه، لا ينتظم الأمر إلاّ بحصولها، فيقصد الشارع تحصيلها فى الجملة من غير أن يقصد حصولها من كلّ أحد. و لا خفاء فى أنّ ذلك من الأحكام العمليه دون الاعتقديه». (٤)

و إذا كانت الإمامه، بعامّه أبحاثها من الفروع، فما وجه إقحام ذلك فى عداد المسائل الأصوليه، كما صنع إمام الحنابله، و قال: «خير هذه الأئمّه بعد نبينا،

ص: ٣٧٥

١- ١). الاقتصاد فى الاعتقاد: ٢٣٤. [١]

٢- ٢). غايه المرام فى علم الكلام: ٣٦٣. [٢]

٣- ٣). المواقف: ٣٩٥. [٣]

٤- ٤). شرح المقاصد: ٢٧١/٢. [٤]

أبو بكر؛ وخيرهم بعد أبي بكر، عُمَرُ؛ وخيرهم بعد عُمر، عُثْمَانُ؛ وخيرهم بعد عثمان، عَلِيٌّ؛ رضوان الله عليهم، خلفاء راشدون مهديون».

و مثله، (١) أبو جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية، المسماة بـ «بيان عقيدة السنّة و الجماعة»، حيث قال: «و تثبت الخلافه بعد النبي صلى الله عليه و آله و سلم لأبي بكر الصّدِّيق، تفضيلاً، و تقدماً على جميع الأُمّة، ثم لعُمَرُ بن الخطاب، ثم لعثمان بن عفان، ثم لعليّ بن أبي طالب». (٢)

و قد اقتفى أثرهما الشيخ أبو الحسن الأشعري، عند بيان عقيدة أهل الحديث و أهل السنّه، و الشيخ عبد القاهر البغدادي في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنّه. (٣)

و هذا الصراع في المسأله الفرعيّه، أراق الدماء الطاهره، و جرّ على الأُمّة الويلَ و الثُّبور، و عظام الأمور، فما معنى إقحام الاعتقاد بالأحكام الفرعيه في قائمه العقائد؟ و إن هذا إلّا زلّه لا تُقال.

٢. نظره الشيعة إلى أصحاب الرسول نظره سيئه

و ممّا يؤاخذ به الشيعة هو أن نظرتها إلى أصحاب رسول الله نظره سيئه.

ص: ٣٧٦

١ - ١). كتاب السنّه: ٤٩، المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد الفقى. و هذا الكتاب أُلّف لبيان مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر و أهل السنّه، و وصف من خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها أو عاب قائلها، بأنّه مخالف مبتدع و خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنّه و سبيل الحق.

٢ - ٢). شرح العقيدة الطحاوية، [١] للشيخ عبد الغنى الميداني الحنفي الدمشقي: ٤٧١، و [٢] أخذنا العبارة من المتن. و توفى الطحاوي عام ٣٢١هـ.

٣ - ٣). لاحظ «الإبانه عن أصول الديانه»: ١٩٠، الباب ١٦؛ و «الفرق بين الفرق»: ٣٥٠. و [٣] لاحظ «لمع الأدلّه» للإمام الأشعري: ١١٤؛ و «العقائد النسفيه»: ١٧٧. [٤]

أقول: إنَّ نظره الشيعة إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي نفس نظره أئمتهم الهداه إليهم، فهذا هو الإمام على عليه السلام يقول في حقهم:

«أين إخواني الذين ركبوا الطريق و مضوا على الحق؟ أين عمّار، و أين ابن التيهان، و أين ذو الشهادتين، و أين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية؟» (١).

و هذا هو الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام يدعو لأصحاب جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين أحسنوا الصحبه و يقول: «اللهم و أصحاب محمد خاصّه الذين أحسنوا الصحبه و الذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، و استجابوا له حيث أسمعهم حجّجه رسالاته و فارقوا الأزواج و الأولاد في إظهار كلمته، و قاتلوا الآباء و الأبناء في تثبيت نبوّته، و انتصروا به، و من كانوا منطوين على محبته، يرجون تجاره لن تبور في مودته» إلى أن قال: «اللهم و أوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك». (٢).

إنَّ اللّدى يميّز الشيعة عن غيرهم، هو قولهم بأنَّ حكم الصحابه، حكم التابعين، فكما أنّ فيهم الصالح و الطالح، و العادل و الفاسق، فهكذا الصحابه ففيهم عدول اتقياء بهم يستدرّ الغمام، و فيهم من سماه سبحانه، فاسقاً و قال:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا». ٣

و فيهم من ترك النبي قائماً و هو يخطب و أعرض عن الذكر و الصلاه و اشتغل بالتجاره، قال سبحانه: «وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا

ص: ٣٧٧

١-١. نهج البلاغه: الخطبه ١٨٢. [١]

٢-٢. الصحيفه السجديه: الدعاء رقم ٤. [٢]

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَ وَمِنَ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». ١

لنفترض أنّ بين الشيعة من لا- يحب بعض الصحابه لا لكونهم صحابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل لما صدر عنهم من أعمال لا تنطبق على موازين الشريعة، و على كلّ تقدير فالشيعة إمّا مصيب في اعتقاده و اجتهاده و إمّا مخطئ؛ و على الأول له أجران، و على الثاني له أجر واحد.

كيف لا و قد حدث هذا التشاجر و التعارض بين صحابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنفسهم، فهذا هو الإمام البخارى ينقل لنا مشاجره حامييه بين سعد بن عباده الذى قال لسعد بن معاذ فى محضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كذبت لعمر الله لا تقتله و لا- تقدر على قتله، و لو كان من أهلك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حُضير- و هو ابن عم سعد بن معاذ- و قال لسعد بن عباده: كذبت، و عمر الله لنقتلته، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين». (١)

و كم لهذه المشاجرات الساخنه و التراشق بالاتّهامات بين الصحابه من نظير، و مع ذلك لم يعتبرها أحد موجبا للكفر أو الخروج عن ربه الإيمان.

ثمّ ما ذا يفعل الشيعة إذا وجدوا فى أصحّ الكتب عند أهل السنّه بعد كتاب الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلّون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري»، و غير ذلك من الروايات التي أخرجها الإمام البخارى فى صحيحه فى باب الحوض و غيره. (٢)

ص: ٣٧٨

١-٢). صحيح البخارى: ١١٨/٥-١١٩، فى تفسير سوره النور.

٢-٣). لاحظ جامع الأصول: ١٠/١١.

و ما ذنب الشيعة إذا وجد في أصح الكتب لدى إخوانه السنه ان صحابياً جليلاً كأسيد بن حُضير يصف سعد بن عباده ذلك الصحابي الجليل بالنفاق و يقول: إنك منافق تجادل عن المنافقين؟!

فإذا صحّ ذلك العمل من الصحابي بحجّه أنه وقف على نفاق أخيه الصحابي الآخر، فلما ذا لا يصحّ صدوره من الآخرين إذا وقفوا على أنّ بعض من كان حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد اقترف ما لا يرضى به الله و رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيبدي عدم رضاه عن عمله كما أبداه أسيد بن حُضير؟!

أفبعد هذه الحقائق، يصحّ أن يعدّ الاعتقاد بطهاره كلّ صحابي من الأصول ممّا يناط بها الإيمان و الكفر.

ثم هل كان النبي يسأل الوافدين من مختلف الأقطار عن اعتقادهم بعداله أصحابه و طهارتهم أو أنّها مسأله تاريخيه، يجب أن تطرح على صعيد البحث، و لكلّ دليله و نظره دون أن يخرج أحد الطرفين عن حظيره الإسلام.

ثم إنّ لعضد الدين الإيجي في «المواقف» و شارحه السيد الجرجاني في شرحها كلاماً في عدم جواز تكفير الشيعة بمعتقداتهم نأتى بنصهما متناً و شرحاً قد ذكرا الوجوه و ردّها:

الأول: أنّ القدح في أكابر الصحابه الذين شهد لهم القرآن و الأحاديث الصحيحه بالتركيه و الإيمان (تكذيب) للقرآن و (للسول حيث أثنى عليهم و عظّمهم) فيكون كفرا.

قلنا: لا- ثناء عليهم خاصه، أي لا ثناء في القرآن على واحد من الصحابه بخصوصه و هؤلاء قد اعتقدوا أنّ من قدحوا فيه، ليس داخلاً في الثناء العام الوارد فيه و إليه أشار بقوله: (ولا هم داخلون فيه عندهم) فلا يكون قدحهم تكديباً

للقرآن، وأمّا الأحاديث الواردة في تزكيه بعض معين من الصحابه و الشهاده لهم بالجَنّه فمن قبيل الآحاد، فلا- يكفّر المسلم بإنكارها أو تقول ذلك، الثناء عليهم، و تلك الشهاده لهم مقيدان، بشرط سلامه العاقبه و لم توجد عندهم، فلا يلزم تكذيبهم للرسول.

الثانى: الإجماع منعقد من الأئمة، على تكفير من كَفَر عظماء الصحابه، و كلّ واحد من الفريقين يكفّر بعض هؤلاء العظماء فيكون كافراً.

قلنا: هؤلاء، أى من كَفَر جماعه مخصوصه من الصحابه، لا يسلمون كونهم من أكابر الصحابه و عظمائهم، فلا يلزم كفره.

الثالث: قوله عليه السلام: «من قال لأخيه المسلم يا كافر، فقد باء به-أى بالكفر - أحدهما».

قلنا: آحاد، و قد أجمعت الأئمة على أنّ إنكار الآحاد ليس كفراً، و مع ذلك نقول:

المراد مع اعتقاد أنه مسلم، فإنّ من ظن بمسلم أنه يهودى أو نصرانى فقال له يا كافر لم يكن ذلك كفراً بالإجماع. (1)

أقول: إنّ القدح فى الصحابه غير تكفيرهم؛ ثم إنّ القدح فى البعض منهم - الذين لا يتجاوزون عدد الأصابع - دون جميعهم.

ثمّ القدح ليس بما أنّهم صحابيون، بل بما أنّهم أناس مسلمون، و لو كان القدح كفراً، فقد قدح فيهم القرآن فسمّى بعضهم فاسقاً، و قال: «إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا...». ٢

نعم إنّ الخلاف الذى دام قروناً، لا يرتفع بيوم أو اسبوع، و لكن رجاؤنا

ص: ٣٨٠

سبحانه أن يُلمَّ شعث المسلمين و يجمع كلمتهم، و يفزق كلمه الكفر و أهله.

٣. الشيعة لا تعمل بصحيح البخارى و مسلم

إن الشيعة لا تعمل بالصحيحين لدى السنّة، أعنى: صحيح البخارى و مسلم!!

و هل الأمر كذلك، أو أنّها تعمل بما صحّ عندهم من السنّة من غير فرق بين الصحيحين و غيرهما من السنن: نحو سنن أبى داود، و سنن الترمذى، و سنن النسائى، و ابن ماجه، و ما صحّ عن أئمّه أهل البيت عليهم السلام الذين جعلهم الله أعدال الكتاب و قرناؤه و قال:

«إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتى». (١)

و أخيراً نقول: لم يكن الأخذ بالصحيحين ملاكاً للإيمان، بشهاده أنّ المسلمين كانوا يعملون بسنّه رسول الله و يروونها قبل أن يولد البخارى و مسلم و يكون لهما أثر فى الوجود، فمتى أصبح البخارى و مسلم أصلاً و مناراً و محوراً للإيمان و الكفر؟! مع أنّ الأصل هو سنّه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و عند الشيعة سنّته صلى الله عليه و آله و سلم المرويه عن طريق رجال عدول، خصوصاً ما روى عن طريق أهل بيته المطهرين بأسانيد عاليه و نقيه من كلّ شائبه.

٤. عصمه الأئمه الاثنى عشر

قالت الشيعة بعصمه الأئمه الاثنى عشر، و العصمه من خصائص الأنبياء.

أقول: إنّ الشيعة الإماميه على أنّ الأئمه الاثنى عشر معصومون من الذنب

ص: ٣٨١

(١- ١). حديث مستفيض أو متواتر. لاحظ مسند الإمام أحمد: ٣٧١/٤؛ صحيح مسلم: ١٨٧٣/٤؛ و سنن الترمذى: ٦٦٥/٥.

و الخطأ، و لا ينسون شيئاً من الأحكام.

و يقع الكلام فى موضعين:

أ. ما هو الدليل على عصمتهم؟

ب. القول بالعصمة لا يلازم النبوه.

أمياً الأول: فهو خارج عن موضوع بحثنا، و موجز القول فيه: إنه ليست عصمتهم فكره ابتدعتها الشيعة، و إنما دلهم عليها فى حق العترة الطاهره كتاب الله و سنه رسوله، قال سبحانه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً» ١، و ليس المراد من الرجس إلا الرجس المعنوى، و أظهره هو الفسق.

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «على مع الحقّ و الحقّ مع علىّ يدور معه كيفما دار». (١) و من دار معه الحقّ كيفما دار لا يعصى و لا يخطأ.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم فى حقّ العترة: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً». (٢) فإذا كانت العترة عدل القرآن، و القرآن هو كلام الله تعالى، فاللازم أن تكون معصومه كالكتاب، لا يخالف أحدهما الآخر.

و من أطف ما استدلّ به على عصمه الإمام- بوجه مطلق- هو ما ذكره الرازى فى تفسيره حول قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ٤ قال ما هذا نصّه: إن الله تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآيه، و من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم و القطع لا بدّ و أن يكون معصوماً عن الخطأ؛

ص: ٣٨٢

١- ٢). حديث مستفيض، رواه الخطيب فى تاريخه: ٣٢١/١٤ و الهيثمى فى مجمع: ٢٣٦/٧ و غيرهما.

٢- ٣). تقدّم بعض مصادره.

إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، و الخطأ لكونه خطأ منهياً عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم، و ثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولى الأمر المذكور في هذه الآية لا بدّ و أن يكون معصوماً. (١)

و أما الثاني: أعني: أن العصمة لا تلازم النبوه، فهو أمر واضح لمن درس حياه الصالحين و الصالحات. و نذكر على سبيل المثال:

إنّ مريم العذراء كانت معصومه بنصّ الكتاب العزيز حيث طهرها الله سبحانه من المساوي و السيئات و اصطفاها على نساء العالمين مع أنها لم تكن نبيّه، قال تعالى: «وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ». ٢

و هل المراد من التطهير هو تطهيرها من الذنوب و الآثام، أو تطهيرها من مسّ الرجال؟

الظاهر هو الأول.

لأنّ امرأه عمران أمّ مريم طلبت من الله سبحانه أن يعيد «مريم» و ذرّيتها من الشيطان الرجيم و قال: «وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» ٣. فاستجاب سبحانه دعوتها فصانها سبحانه من وساوس

ص: ٣٨٣

الشيطان و دعوته إلى العصيان، فمن عُصِمَ من وساوسه و دعوته فهو مطَّهر من الذنوب.

و الله سبحانه يشير إلى استجابته دعوتها تارة بقوله: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّتُهَا نَبَاتًا حَسَنًا». ١

و أخرى بقوله في المقام: «وَ طَهَّرَكِ وَ اضْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».

و تفسير التطهير بمسّ الرجال-أعنى:القسم المحرم منه-لا دليل عليه بعد إطلاق الآية في أمر التطهير و صيانتها سبحانه إيّاها من الشيطان الرجيم.

أضف إلى ذلك اتفاق المفسرين على أنّ المراد من التطهير في قوله سبحانه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا» هو التنزيه من الذنوب و مساوئ الأخلاق و سيئات الأعمال.

من غير فرق بين تفسير أهل البيت بالعترة الطاهرة الذين جمعهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تحت الكساء و قال:«اللهم إنّ لكلّ نبي أهل بيت و هؤلاء أهل بيتي». (١) أو فسرت بنساء النبي.

٥.التقيه من المسلم المخالف

إنّ الشيعة يتقى من المسلم الذي يخالفه في العقيدة، مع أنّ التقيه التي نزل بها الذكر الحكيم، هي تقيه المسلم من الكافر لا المسلم من المسلم، قال سبحانه: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». ٣

فقد نزلت الآية في حقّ عمّار الذي أظهر الكفر و أبطن الإيمان تقيه من كفّار

ص: ٣٨٤

١-٢). تفسير الطبري: ٢٢/١٢٥؛ و [١] الدر المنثور: ٥/١٩٨-١٩٩. [٢]

و لكنّ الشيعي، يتقى من المسلم المخالف، فيقول على خلاف عقيدته و يعمل على خلاف مذهبه.

أقول: التقيه شعار كل مضطهد صُودرت حرياته و حقوقه، و لاقى ضرورَ المحن و صنوف الضيق إلى درجه اضطرَّ معها إلى استعمال التقيه في تعامله مع المخالفين و ترك مظاهر تهمة، فلو كانت التقيه أمراً مذموماً أو محرّماً فالأخ المسلم الذي صادر حريات أخيه، هو الأولى بتحمل و زر عمل هذا المضطهد الضعيف الذي ليس له سلاح في حفظ دمه و عرضه و ماله إلاّ بالمسايره و المداراه و التكتّم على معتقداته.

و لعمر الحق لو سادت الحريه جميع الفرق الإسلاميه، و تحمّلت كل فرقه آراء الفرق الأخرى، لتجدنّ الشيعه في طليعه الفرق التي تهتف بأرائها و معتقداتها بكلّ صراحه و وضوح، و لألغيت هذه اللفظه (التقيه) من قاموس حياتها، و لساد الوئام و الانسجام، و ولى النزاع و الخصام.

نعم مورد الآيات الوارده في القرآن حول التقيه، هي التقيه من الكافر لا- من المسلم، لكن الملا-ك واحد، فإنّ ملاك التقيه هو التحرّز من الضرر المرتقب عند التظاهر بالخلاف، و هذا بنفسه موجود في التقيه من المسلم الذي لا يحترم أخاه المسلم، و هذا ليس بأمر بديع، بل صرّح به جمع من الفقهاء و المفسرين.

١. قال الشافعي: تجوز التقيه بين المسلمين كما تجوز بين الكافرين محاماه عن النفس. (١)

٢. و قال الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: «أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءَ»:

ظاهر الآيه يدلّ على أنّ التقيه إنّما تحل مع الكفّار الغالبيين، إلا أنّ مذهب الشافعي أنّ حاله بين المسلمين إذا شاكلت حاله بين المسلمين و الكافرين حلّت التقيه محاماه عن النفس، وقال: التقيه جائزه لصون النفس، و هل هي جائزه لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»، و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «من قتل دون ماله فهو شهيد». (١)

٣. و نقل جمال الدين القاسمي عن الإمام مرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الخلق» ما نصّه: و زاد الحق غموضاً و خفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين- مع قلتهم- من علماء السوء و سلاطين الجور و شياطين الخلق مع جواز التقيه عند ذلك بنص القرآن، و إجماع أهل الإسلام، و ما زال الخوف مانعاً من إظهار الحقّ، و لا برح المحقّ عدوّاً لأكثر الخلق، و قد صحّ عن أبي هريره أنّه قال- في ذلك العصر الأوّل -: حفظت من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وعاءين، أما أحدهما فبثثته في الناس، و أمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم. (٢)

٤. و قال المراغي في تفسير قوله سبحانه: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»: و يدخل في التقيه مداراه الكفره و الظلمه و الفسقه، و إلامه الكلام لهم، و التبسّم في وجوههم، و بذل المال لهم، لكف أذاهم و صيانه العرض منهم، و لا يعدّ هذا من الموالاه المنهى عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «ما وقى المؤمن به عرضه فهو صدقه». (٣)

ص: ٣٨٤

١- ١. مفاتيح الغيب: ١٣/٨ [١] في تفسير الآيه.

٢- ٢. محاسن التأويل: ٨٢/٤. [٢]

٣- ٣. تفسير المراغي: ١٣٦/٣. [٣]

و مما يؤخذ به الشيعة، إثباتهم البداء لله و معناه: ظهور ما خفى عليه سبحانه، و هو يلزم جهله تعالى بالمستقبل.

أخى العزيز: لو أريد من قولهم «بدا لله» ما فسّرت به، فالحقّ معك فإنّه عقيدته باطله و لكن -يا للأسف- قد فسّرت كلام الشيعة بغير ما يقصدون منه، فإنّهم يريدون به أنّه سبحانه أبدى للناس ما خفى عليهم، و أمّا التعبير عن هذا المعنى الصحيح بقولهم «بدا لله» فهو من باب المجاز أولاً، أو من باب التأسّي بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ثانياً على ما رواه البخارى فى صحيحه فى باب حديث أبرص و أقرع و أعمى فى بنى إسرائيل عن أبى هريره أنّه سمع من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنّ ثلاثة فى بنى إسرائيل: أبرص و أقرع و أعمى بدا لله أن يتليهم.... (١)

و لو احفيت الحقيقة من كتب الفريقين لوقفت على أنّ النزاع فى البداء نزاع لفظى، فالقائل بعدم الجواز يريد به معناه الحقيقى الّذى يستلزم الجهل لله، و القائل بالجواز يريد معناه المجازى أى إبداء من الله لما خفى على الناس، و إن كان يتخيل فى بادئ الأمر أنّه بداء له سبحانه.

و أمّا مورد البداء فهو عبارة عن تغيير مصير العباد، بحسن أفعالهم و صلاح أعمالهم من قبيل: الصدقة و الإحسان، و صلته الرحم، و برّ الوالدين، و الاستغفار، و التوبة، و شكر النعمة و أداء حقّها، إلى غير ذلك من الأمور التى تغيّر المصير و تبدّل القضاء، و تفرّج الهموم و الغموم، و تزيد فى الأرزاق و الأمطار و الأعمار و الآجال؛ كما أنّ لمحرم الأعمال و سيئها من قبيل: البخل و التقصير، و سوء الخلق،

ص: ٣٨٧

و قطيعه الرحم، و عقوق الوالدين، و الطيش، و عدم الإنابة، و كفران النعمة، و ما شابها تأثيراً فى تغيير مصيرهم بعكس ذلك من إكثار الهموم، و القلق، و نقصان الأرزاق و الأمطار و الأعمار و الآجال، و ما شاكلها.

فليس للإنسان مصير واحد، و مقدر فارد؛ يصيبه على وجه القطع و البت، و يناله شاء أو لم يشأ، بل المصير أو المقدر يتغير و يتبدل بالأعمال الصالحة و الطالحة و شكر النعمة و كفرانها، و بالإيمان و التقوى، و الكفر و الفسوق. و هذا ممّا لا يمكن -لمن له أدنى علاقه بالكتاب و السنّه- إنكاره أو ادّعاء جهله.

و هذا ما نراه جلياً فى عده موارد من الذكر الحكيم:

منها: قوله سبحانه حاكياً عن شيخ الأنبياء: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً». ١

ترى أنّه عليه السلام يجعل الاستغفار علّه مؤثره فى نزول المطر، و كثره الأموال و البنين، و جريان الأنهار إلى غير ذلك، و أمّا بيان كيفيه تأثير عمل العبد فى الكائنات الطبيعیه، فيطلب من محلّه.

و قوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ». ٢

و قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ». (١)

ص: ٣٨٨

إنَّ الشيعة وإن كانت تعتقد بالإمام المهدي الذي يُظهره الله سبحانه في آخر الزمان لبسط العدل، وإعلاء كلمه الحق، ولكن هذه العقيدة ليست مختصه بهم، بل هي عقيدة اتفق عليها المسلمون إلا من أصمَّه الله. وقد تضافر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجل من ولدى فيملأها عدلاً و قسطاً كما ملئت جوراً و ظلماً».

و ليس هناك اختلاف بين الفريقين إلا أنّ الشيعة قاطبه و قليلاً من السنّة يقولون بأنّه ولد عام (٢٥٥هـ) و هو حتّى يُرزق و له حياه طبيعیه و الناس يرونه و لا يعرفونه، و أكثر السنّة يقولون: إنّه سيولد في آخر الزمان.

و قد ألّف عدّه من محقّقي السنّة و محدّثيهم كتباً حول المهدي و ألف أخيراً الدكتور عبد الباقي كتاباً في نفس الموضوع أسماه «بين يدي الساعة» فقال: أمّا عقيدته السنّه بالنسبه إلى المهدي فإنّ المشكله ليست في حديث أو حديثين أو راو أو راويين، إنّها مجموعه من الأحاديث و الأخبار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواه، و أكثر من صاحب كتاب صحيح.

لما ذا نردّ كلّ هذه الكميه؟ أكلّها فاسده؟ لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين - و العياذ بالله نتيجة تطرّق الشك و الظن الفاسد إلى ما عداها من سنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي، أو حول حاجه العالم إليه، و إنّما الخلاف حول من هو، حسني أو حسيني؟ سيكون في آخر الزمان، أو موجود الآن؟ خفي و سيظهر؟ ظهر أو سيظهر؟ و لا عبره بالمدّعين الكاذبين، فليس لهم اعتبار.

ثم إنني لا أجد مناقشه موضوعيه في متن الأحاديث، و الذي أجده إنما هو مناقشه و خلاف حول السند، و اتصالة و عدم اتصالة، و درجه رواته، و من خرّجوه، و من قالوا فيه.

إذا نظرنا إلى ظهور المهدي نظره مجردة فإنا لا نجد حرجاً من قبولها و تصديقها، أو على الأقلّ عدم رفضها. فإذا تؤيد ذلك بالأدلة الكثيره، و الأحاديث المتعدده، و رواتها مسلمون مؤتمنون، و الكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمه، و الترمذي من رجال التخريج و الحكم، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصحّ أن يكون سنداً لها في البخاري و مسلم، كحديث جابر في مسلم الذي فيه: «فيقول أميرهم (أى لعيسى): تعال صلّ بنا» (١)، و حديث أبي هريره في البخاري، و فيه: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم و إمامكم منكم» (٢)، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير، و هذا الإمام هو المهدي.

يضاف إلى هذا أنّ كثيراً من السلف -رضى الله عنهم- لم يعارضوا هذا القول، بل جاءت شروحههم و تقريراتهم موافقه لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين. (٣)

٨. حليه المتعه

اشاره

و ممّا يُشنع به على الشيعة قولهم بجواز نكاح المتعه، و هو عبارته عن تزويج المرأه الحره الكامله نفسها- إذا لم يكن بينها و بين الزوج مانع نسب أو سبب أو

ص: ٣٩٠

١- ١). صحيح مسلم: ٥٩/١، باب نزول عيسى.

٢- ٢). صحيح البخاري، بشرح الكرماني: ٨٨/١٤.

٣- ٣). بين يدي الساعه للدكتور عبد الباقي: ١٢٣- ١٢٥.

رضاع-بمهر مسمّى إلى أجل مسمّى بالرضا و الاتفاق، فإذا انتهى الأجل تبين المرأه من الزوج من غير طلاق، و يجب عليها مع الدخول-إذا لم تكن يائسه - أن تعتد عدّه الطلاق إذا كانت ممّن تحيض و إلاّ فيخمسه و أربعين يوماً.

و قد أجمع أهل القبله على أنّه سبحانه شرّع هذا النكاح في صدر الإسلام و عمل به الصحابه أنّما الاختلاف في كونه على حليته أو أنّه منسوخ.

و قد ذهب أكثر المفسرين إلى أنّ قوله سبحانه: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» ١ نزل في هذا الشأن. (١)

و على كلّ تقدير سواء أقلنا بأنّها غير منسوخه أو قلنا بأنّها منسوخه فهي من المسائل الفقهيّه، التي تضاربت فيها الأقوال، و ليس الخلاف فيها معياراً للتكفير، أو التفسيق.
هذه بعض المؤاخذات على عقائد الشيعة.

أكاذيب و مفتريات

و هناك أكاذيب و مفتريات نسبوها إلى الشيعة، نظير:

١. تأليههم لعلی و أولاده و أنّهم يعبدونهم و يعتقدون بألوهيتهم.

٢. تحريف القرآن الكريم و أنّه حذف منه سور أو آيات.

٣. نسبه الخيانه لأمين الوحي و أنّه سبحانه بعثه لإبلاغ الرساله إلى علی، فخان فجاء بها إلى محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

ص: ٣٩١

١ - ٢). تفسير الطبري: ٩/٥؛ [١] أحكام القرآن: ١٧٨/٢؛ سنن البيهقي: ٢٠٥/٧؛ و جامع أحكام القرآن: ١٣/٥، إلى غير ذلك من كتب الحديث و التفسير.

إلى غير ذلك من المهازل و المنكرات التي افتعلها الكذّابون الأفّاكون الذين لا يخافون حساب الله يوم الورود، و الشيعة منها برآء؛ و هذه كتبهم، و هؤلاء علماؤهم و خطباؤهم كلّهم متفقون على خلاف هذه النّسب.

و نعم ما قال المرحوم محمد جواد مغنيه:

إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا إِلَّا الْاِفْتِرَاءَ عَلَى الشَّيْعَةِ.

و إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ نَهَايَهُ إِلَّا الْكُذْبَ عَلَى الشَّيْعَةِ.

و فى الختام نقدّم كلمه فيها رضى الله و رضى رسوله و صلاح الأُمّه جميعاً.

نصيحه للمتطرفين

إِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْمًا، تَقَامُ فِيهِ الْمَوَازِينُ، وَ تَنْشُرُ فِيهِ الصُّحُفُ، وَ تَتَمَثَّلُ فِيهِ الْأَعْمَالُ «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَ يُحِذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ» ١ يُحَاسِبُ فِيهِ الْعِبَادَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ صَغِيرَهَا وَ كَبِيرَهَا.

فعلى من يرمى طائفه بالكفر و الشرك و غيرها من مساوئ الأعمال و سيئات الأفعال، أن يذكر ذلك اليوم العصيب، ثم يكتب عن عباد الله ما شاء و كيف شاء، و ليعلم أنّ رمى أيّه طائفه من الطوائف الإسلاميه بالكفر، تلاعب بدمائهم و أعراضهم و أموالهم، و هو عند الله ليس بالأمر الهين.

ثمّ إنّ فى القرآن الكريم و سنّه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم بياناً شافياً فى كلّ ما يتنازع فيه، فعلى المتنازعين فى المسائل المختلفه الرجوع إلى دينك المصدرين،

و الصدور عنهما دون رأى مسبق فعندئذٍ تجدون فيهما بياناً شافياً.

كما أنّ على مفكرى الأُمَّه الإسلاميه و علمائها الواعين عقد مؤتمر أو مؤتمرات لدراسه هذه المسائل و يُدعى إليها رءوس الطوائف الإسلاميه للمشاركة فيها.

و إذا صلحت التيات، فيكون التوفيق -ياذن الله- حليفاً لهم، يقول سبحانه:

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ». ١

هذه كلمتى أُقدمها لإخوانى المسلمين عسى أن أكون مأجوراً بهذا التذكير كما يقول سبحانه:

«وَذَكَرْنَا الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». ٢

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

عاشر شهر صفر الخير

من شهور عام ١٤٢٥هـ

ص: ٣٩٣

الفصل الرابع: البدعه و آثارها الموبقه

اشاره

ص: ٣٩٥

البدعه و الاتجاهان فى تفسيرها

البدعه فى اللغه

هو الفعل أو القول لا عن سابق مثال، قال ابن فارس: البدعه: ابتداع الشىء و صنعه لا عن مثال، نحو قولهم: أبدعتُ الشىء قولاً أو فعلاً. إذا ابتدعتَه لا عن مثال سابق. و الله بديع السماوات و الأرض؛ و العرب تقول: فلان بدع فى هذا الأمر، قال تعالى: «ما كُنْتُ بِدُعًا مِّنَ الرُّسُلِ» ١، أى ما كنت أول. (١)

و فى «النهايه» لابن الأثير: البديع: المخترع لا عن مثال. (٢)

و قال ابن منظور فى «اللسان»: يَدَعُ الشىء يبدعه بدعاً و ابتدعه: أنشأه و بدعه، و البديع و البدع: الشىء الذى يكون أولاً، و البدعه: الحدث و ما ابتدع من الدين بعد الإكمال. (٣)

ص: ٣٩٧

١-٢). المقاييس: ٢٠٩/١، [١] ماده «بدع».

٢-٣). النهايه: ١٠٧/١.

٣-٤). لسان العرب: ٣٤٢/١، [٢] ماده «بدع»

وقد جمع ابن منظور في كلامه هذا، بين المعنى اللغوي: (الشيء الذي يكون أولاً)، والمعنى الاصطلاحي: (ما ابتدع في الدين بعد الإكمال). ولإيضاح المعنيين نقول:

ثمّه اتّجاهان في تفسير البدعه:

الأول: التزم المعنى اللغوي، فشمل كلّ أمر مستحدث لم يكن في عصر رساله، سواء أ كان صحيحاً أم باطلاً. وعبارة أخرى: كلّ فعل لم يعهد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: التزم المعنى الاصطلاحي بين العلماء، وهو التّدخل في أمر الدين وإدخال ما ليس منه فيه.

الاتّجاه الأول: و عليه مضى جماعه من الشوافع كالغز بن عبد السلام، و جماعه من المالكيه منهم القرافي.

وانتهى ذلك الاتّجاه إلى تقسيم البدعه-وفق تقسيم الأحكام-إلى أقسام خمس، وهي:

بدعه واجبه، و بدعه محرّمه، و بدعه مكروهه، و بدعه مباحه، و بدعه مندوبه.

و قد ضربوا لكلّ قسم منها أمثله.

فالبدعه الواجبه مثّلوا لها بتعلّم العلوم التي يفهم بها كلام الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بحكم أنّ ذلك مقدّمه لحفظ الشريعة و العمل بها، و مقدّمه الواجب أمر واجب.

و البدعه المحرمه مثّلوا لها بالعقائد التي ظهرت بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم و التي تضاد الكتاب و السنّه الشريفه، و الأفعال التي يؤتى بها باسم الشريعة لم يكن لها

أصل في الشرع المقدّس.

و البدعه المندوبه فمِثْلُ إحداث المدارس و بناء القناطر.

و البدعه المكروهه كزخرفه المساجد.

و البدعه المباحه هو بناء ناطحات السحاب و التنوع في الملابس.

و ممّا يلاحظ على الاتّجاه الآنف الذكر هو أنّ المتبادر من البدعه في الكتاب و السنّه هو الأمر المذموم، و الأمر القبيح كما سيوافيك بيانه.

فإذا كان هذا المتبادر منها فما هو المبرّر لرفض ما هو الشائع بالكتاب و السنّه و الأخذ بالمعنى اللغوي ثمّ تقسيمها إلى أقسام خمسّه؟!

و يبدو أنّ الدافع لنشوء هذا الاتّجاه هو قول عمر في صلاه التراويح في شهر رمضان: نِعَمَتِ البدعهُ هذه كما أخرجه البخارى عن عبد الرحمن بن عبد القارى أنّه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليله في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلّى الرجل لنفسه، و يصلّى الرجل فيصلّى بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثمّ عزم فجمعهم على أبيّ بن كعب، ثمّ خرجت معه ليله أخرى و الناس يصلّون بصلاه قارئهم، قال عمر: نعم البدعهُ هذه، و التي ينامون عنها أفضل من التي يقومون. (1)

فلما سمّى عمر الأمر المسنون عندهم بالبدعه، صار ذلك سبباً لنشوء الاتّجاه، و لو لا ذلك لما كان لهذا الاصطلاح من أثر بين العلماء و في كتبهم.

و ربما يبرّر هذا الاتّجاه (تقسيم البدعه) بما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «من سنّ سنّه حسنه فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، و من سنّ

ص: ٣٩٩

١-١. صحيح البخارى: ٤٤/٣، باب فضل من قام رمضان من كتاب الصوم.

سَنَّهُ سَيِّئُهُ فَعَلِيهِ وَزَرَّهَا وَوَزَرَ مِنْ عَمَلٍ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». (١)

و هذا التبرير في غير محلّه، للفرق الواضح بين البدعه و السنّه، لأنّ المتبادر من البدعه في عصر نزول القرآن هو الأمر المذموم كما يشهد بذلك الكتاب العزيز و السنّه النبويه، و لذلك صار تقسيمه إلى الأقسام الخمسه تقسيماً في غير محلّه و إن كان صحيحاً حسب المعنى اللغوي.

و أمّا السنّه في اللغة فهي الطريقه و السيره من غير فرق بين كونها حسنه أو سيئه، و إنّما يعلم حالها عن طريق إضافتها إلى الشرع المقدّس أو غيره. قال الهذلي:

فلا من سنّه أنت سرّتها فأول راض سنّه من يسيرها

يقول ابن منظور: الأصل في السنّه: الطريقه و السيره، فإذا أُطلقت في الشرع فإنّما يراد بها ما أمر به النبي صلى الله عليه و آله و سلم و نهى عنه و ندب إليه قولاً و فعلاً ممّا لم ينطق به الكتاب العزيز. (٢)

و لذلك نرى أنّ السنّه أُضيفت في القرآن الكريم إلى الله سبحانه و إلى غيره، فقال تعالى: «سُنَّهَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ». ٣
و قال: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ». ٤

نعم اصطبغ لفظ السنّه في عصر الصحابه و التابعين بلون خاص من القداسه، فأصبح يستعمل في الأمور المستحبه، فما كان النبي يداوم عليه سُمي

ص: ٤٠٠

١- ١. صحيح مسلم: ٧٠٥/٢، ط. الحلبي.

٢- ٢. لسان العرب: ٣٩٦/٦، [١] مادة «سن».

سنّه، و ما لم يداوم عليه سُمّي مندوباً.

و لذلك نرى ذلك التقسيم الرائج، أى تقسيم الفعل إلى سنّه و بدعه.

و على كلّ تقدير فهذا الاتجاه ليس فيه كثير فائده.

الاتجاه الثانى: الذى يأخذ بالمعنى الرائج فى عصر الرساله و حين نزول القرآن الكريم، و هو كلّ أمر دخل فى الشريعه و لم يكن له رصيد فيها من غير فرق بين العبادات و المعاملات و العاديات.

و على هذا جرى الإمام الشاطبى فى كتابه «الاعتصام» الذى ألفه فى جزئين، عقد عامه مباحثه التى ترجع إلى البدعه بهذا المعنى.

(١)

و قد عرّف البدعه وفق هذا الاتجاه و قال: البدعه طريقه فى الدين مخترعه تضاهى الشريعه يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقه الشريعه.

و قال فى إيضاحه: و لما كانت الطرائق فى الدين تنقسم -فمنها ما له أصل فى الشريعه، و منها ما ليس له أصل فيها- خصّ منها ما هو المقصود بالحدّ و هو القسم المخترع، أى طريقه ابتدعت على غير مثال تقدّمها من الشارع، إذ البدعه إنّما خاصّيتها أنّها خارجه عمّا رسمه الشارع، و بهذا القيد انفصلت عن كلّ ما ظهر لبادى الرأى أنّه مخترع ممّا هو متعلّق بالدين، كعلم النحو و التصريف و مفردات اللغه و أصول الفقه و أصول الدين، و سائر العلوم الخادمه للشريعه. فإنّها و إن لم توجد فى الزمان الأوّل فأصولها موجوده فى الشرع، إذ الأمر بإعراب القرآن منقول، و علوم اللسان هاديه للصواب فى الكتاب و السنّه فحقيقتها إذا أنّها فقه التعبد

ص: ٤٠١

١ - ١). يعّد الشيخ الشاطبى (المتوفى عام ٥٧٥٠هـ) من المفكرين و صاحب منهج فى الفقه الإسلامى، و له جهود متميزه فى إرساء بعض القواعد الفقهيّه كمقاصد الشريعه و غيرها، و لكنّه كان مطنباً فى الكلام، و قد خصّص كتابه «الاعتصام» بكلا جزأيه لمباحث البدعه.

بالألفاظ الشرعية الدالّة على معانيها كيف تؤخذ و تؤدّى...إلى آخر ما أفاد. (١)

و على ضوء هذا الاتجاه عزّفها أيضاً ابن حجر العسقلاني بقوله: إنّ المراد بالبدعه ما أحدث و ليس له أصل في الشرع، و ما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس بدعه. (٢)

و قال ابن رجب الحنبلي: البدعه ما أحدث ممّا لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، أمّا ما كان له أصل في الشرع يدلّ عليه فليس بدعه شرعاً و إن كان بدعه لغّة. (٣)

ص: ٤٠٢

١-١. الاعتصام: ٢٧/١.

٢-٢. فتح الباري: ١٥٦/٥، و ٩/١٧.

٣-٣. جامع العلوم و الحكم: ١٦٠، ط الهند.

البدعه فى الكتاب العزيز

استعمل الذكر الحكيم لفظ (البدع) بالمعنى اللغوى مرّه واحده و قال: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» ١، أى لست بأوّل مُرْسَلٍ، و إنّما بُعثت الرسل من قبلى تترأ، فلست بأمر جديد حتّى تستنكرونى....

إلاّ أنّه قد أشار إلى الاتجاه الثانى إمّا بنفس لفظ «البدعه» أو بغيره.

فمن الأوّل قوله سبحانه: «و رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا». ٢

فقوله سبحانه: «ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» أى ما فرضناها عليهم و لكنّهم نسبوها إلينا كذباً.

و أمّا قوله: «إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ» ففيه وجهان:

١. الاستثناء منقطع، أى ما كتبنا عليهم الرهبانية و إنّما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

٢. الاستثناء متصل، أى أنه سبحانه قد كتب عليهم أصل الرهبانية لأجل كسب رضوان الله و لكنهم لم يراعوا حقها.

فعلى الأول تكون البدعه فى نفس الرهبانية.

و على الثانى تكون البدعه فى الخروج عن حدودها.

و أما الآيات التى تشير إلى واقع البدعه التى عمّت حياه المشركين و غيرهم فكثيره، نشير إلى قسم منها.

فلنقدم ما ورد فى المشركين ثم نتطرق إلى غيرهم.

القرآن و بدع المشركين

ذكر سبحانه و تعالى فى أكثر من آيه شيئاً من بدعهم و افتراءاتهم على الله سبحانه، و ندد بأعمالهم، و إليك قسماً من هذه الآيات:

الآيه الأولى و الثانیه

قال سبحانه: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». ١

تطلق كلمه «زوج» على كل ما له قرين كأحد الزوجين و أحد النعلين، و ذكر سبحانه و تعالى فى هذه الآيه أزواجاً أربعه: الضأن، و المعز، و الإبل، و البقر...

و من

ص: ٤٠٤

كُلُّ مِنْهَا ذَكَرٌ وَأُنْثَى فَتَكُونُ أَزْوَاجًا ثَمَانِيَةً.

أَمَّا «الضَّانُّ» فَالْكَبْشُ وَالنَّعْجَةُ، وَأَمَّا «الْمَعَزُ» فَالْتَيْسُ وَالْمَعْزَاهُ، وَأَمَّا «الْإِبِلُ» فَالْجَمَلُ وَالنَّاقَةُ، وَأَمَّا «الْبَقَرُ» فَالثَّوْرٌ وَالْبَقْرَةُ. فَيَكُونُ الْجَمِيعُ ثَمَانِيَةً أَزْوَاجًا.

ثُمَّ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَرُدُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُشْرِكِينَ وَنَسَبِهِ بَعْضَ هَذِهِ الْأَزْوَاجِ إِلَى اللَّهِ فَيَسْأَلُهُمْ هَلْ هُوَ حَرَّمَ الذَّكَرَ مِنْهَا أَوِ الْأُنْثَى؟ أَوْ هَلْ هُوَ حَرَّمَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنَاثِ؟ فَيُذَمُّهُمْ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

فَالْآيَاتَانِ تَرْشِدَانِ إِلَى أُمُورٍ:

١. أَنَّ الْمُبْدِعَ مَفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا حَيْثُ يَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ حَكْمًا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ أَوْ مَعَ الْعِلْمِ بِكَذِبِهِ.

٢. الْغَايَةَ مِنَ الْإِبْتِدَاعِ هُوَ إِضْلَالُ النَّاسِ.

٣. فَإِذَا اسْتَمَرَ الْمُبْدِعُ عَلَى مَوْقِفِهِ فَلَا تَشْمَلُهُ هِدَايَتُهُ سَبَّحَانَهُ، بَلْ يَبْقَى ضَالًّا مُضَلًّا حَتَّى تَخْتَلِفَهُ الْمَنِيَّةُ.

الآيَةُ الثَّلَاثَةُ

قَالَ سَبَّحَانَهُ: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». ١

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ شَيْئًا مِنْ زَرْعِهِمْ وَ ثَمَارِهِمْ وَ أَنْعَامِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَ شَيْئًا لِأَصْنَامِهِمْ تَأْخُذُهُ سَدَنُهُ الْأَصْنَامِ وَ حُرَّاسُهَا، فَإِذَا أَخْصَبَتِ السَّنَةُ أَبْقَوْا لِكُلِّ

ص: ٤٠٥

نصيبه، و إذا أجدبت السنه جعلوا ما لله للأصنام قائلين بأنها فقيره لا شىء لها و لله كل شىء.

انظر كيف يجمع العقل البدائى بين المتناقضات؟! فالصنم أو الحجر الذى ليس بشىء هو فى نفس الوقت شريك للخالق فى كل شىء!! فساء ما يحكمون فى الجمع بين من يقول للشىء «كُنْ فَيَكُونُ» و بين الحجر الأصم!

الآيه الرابعه

قال سبحانه: «وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ و لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ و لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ و مَا يَفْتَرُونَ». ١

المراد من الشركاء فى الآيه «شُرَكَائِهِمْ» هو الكهنة و خدمه الأصنام و غيرهم من الرؤساء،الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم،و كانت الغايه من تزيين هذا العمل القبيح هو إهلاكهم و تلبيس دينهم عليهم،أى تخليط دينهم عليهم.

الآيه الخامسه

قال سبحانه: «وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ و حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعِمِهِمْ و أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا و أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بما كانوا يفترون». ٢

الحجر هو الحرام،و معنى ذلك أنّ المشركين كانوا يقتطعون قسماً من زرعهم و ثمارهم و ماشيتهم و يحرمون التصرف فيه إلا على من يختارون،كما يحكى عنهم قوله

ص: ٤٠٤

سبحانه: «هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ (أى حرام) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَرَعْمِهِمْ».

كما كانوا يحرمون ظهور بعض الأنعام فلا يركبونها ولا يحملون عليها شيئاً.

كما أنهم كانوا يذبحون أنعاماً باسم الأصنام لا باسمه سبحانه.

فهذه الآيات إخبار عن الأمم الماضية، وكلها كانت افتراءً على الله سبحانه.

وقد ذكر القرآن الكريم تفصيل ما حرموا من الأنعام فى الآيه التاليه:

الآيه السادسه

قال سبحانه: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا كَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». ١

و كان العرب فى الجاهليه يحرمون الأنعام التاليه:

١. البحيره: المراد بها الناقه التى تنجب خمسه أبطن، فيشقون أذنها و يحرمون ركوبها.

٢. السائبه، كان العربى الجاهلى يقول: إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبه، فتكون أيضاً كالبحيره.

٣. الوصيله: كانوا إذا ولدت الناقه ذكراً و أنثى فى بطن واحد قالوا: وصلت أخاها و لم يذبحوا الذكر لأجلها.

٤. الحام: كانوا إذا نتج من صلب الجمل عشره بطون قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب و لا يُحمل عليه شىء.

ص: ٤٠٧

و لكن الله سبحانه يعد هؤلاء الكفرة من المفترين على الله الكذب و ان افتراءهم من قلبه عقلهم.

و العجب ان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كان إذا دعاهم إلى ما أنزل الله أعرضوا عنه، و قالوا:

تكفينا سنه آباءنا و طريقتهم كما يقول سبحانه:

«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ». ١

و هذه الأنعام الأربعة المحرمة افتراء على الله هي المقصوده في قوله سبحانه: «وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا».

الآيه السابعه

أشار القرآن الكريم في آيه أخرى إلى أن أبالسه الإنس هم الذين كانوا يتدعون و يفترون على الله.

قال سبحانه: «وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ». ٢

فالآيه تنهى عن أكل ما لا يذكر اسم الله عليه عند الذبح معتبره «الأكل» فسقاً و معصية، و كان الشياطين -أى أبالسه الإنس- يعلمون بعض أذناهم أن يقولوا للمسلمين: كيف تأكلون الحيوان الذى ذبحتموه بأيديكم، و لا تأكلون الحيوان الذى أماته الله؟ أ ليس قتل الله أولى بالأكل من قتلكم؟

ص: ٤٠٨

قال سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». ١

إنه سبحانه و تعالى يهدد في هذه الآية من يفرق الأمة الواحدة و يجعلها شيعاً ما، فخطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ»، فهو وحده تعالى يتولى عقاب من يثير العدا و البغضاء بين أهل الدين الواحد.

و المراد من هؤلاء المفرقين هم المشركون، بقوله سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ». ٢

و الآية و إن نزلت في شأن المشركين إلا أن شأن النزول لا يكون سبباً لتخصيص مفهوم الآية، فلو قام فريق من المسلمين (في أى عصر من العصور) بتفريق الأمة الواحدة بأهوائه و بدعه فهو من مصاديق الآية المتقدمه.

قال سبحانه: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَ كُمْ شِيْعًا وَ يُدِيقَ بَعْضَ كُمْ بِأَسْرِ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ». ٣

لقد اعتبر سبحانه و تعالى تشتت الأمة الواحدة إلى فرق و شيع بمشابه العذاب النازل من السماء (كالصواعق و الطوفان) أو المنبعث من الأرض

(كالزلازل و الخسف)، إذ عطف قوله «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا» على هذه الكوارث.

الآيه العاشره

قال سبحانه: «وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». ١

فالآيه المباركه تأمر الأممه باتّباع سبيل واحد، و هو صراط الله سبحانه و تنهى عن اتّباع سبل أُخرى تُفضى بها إلى التفرّق و بالتالى نزول العذاب عليها.

هذه بعض الآيات الواردة فى ابتداء المشركين و ذمهم و التنديد بهم، و التى يتّضح منها أنّ لفظه البدعه و الابتداع و ما يشابهها كانت فى عصر نزول الرساله تحمل معنى سلباً، و لذا لا يصحّ تقسيمها إلى الأقسام الخمسه الآنفه الذكر.

ص: ٤١٠

القرآن و البدعه عند أهل الكتاب

و لم يكن الابتداع منحصرأ بالمشركين و إنما عم أهل الكتاب، إذ ندد بهم القرآن المجيد، و أشار إلى بعض بدعهم، و نقتصر هنا على ما يلي:

أمر سبحانه و تعالى جميع الأنبياء باتباع إبراهيم عليه السلام فى المعارف و العقائد و خاصه التوحيد.

قال سبحانه: «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا». ١

و قال: «تَمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا». ٢

و قال سبحانه: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ». ٣

ثم إن الخط الذى رسمه إبراهيم عليه السلام لمن يأتى بعده هو خط التوحيد و عبادته سبحانه و الاجتناب عن عباده غيره، فجعلها كلمه باقيه فى عقبه، قال

سبحانه: «وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيْمُ لَآبِيْهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّىْ بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُوْنَ * اِلَّا الَّذِى فَطَرَنِىْ فَاِنَّهُ سَيِّدِىْنَ * وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ». ١

و لكنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم و ابتدعوا بدعاً، منها ما يلى:

١. بدعه التثليث

مع أنّ الخطّ الذى رسمه ابراهيم عليه السلام هو خط التوحيد و تنزيه الله سبحانه عن الأمثال و الأنداد و عن الأولاد ذكوراً و إناثاً، لكن بدعه التثليث لصقت بالنصارى فكانوا من دعائها و بغاتها.

يقول سبحانه: «يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُوْلُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوْحٌ مِنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا». ٢

أين التوحيد الذى دعا إليه ابراهيم عليه السلام من القول بالتثليث، أى الأب و الابن و روح القدس؟! فالأب عندهم هو الذى خلق العالم بواسطة الابن، و الابن هو الذى أتمّ الفداء و قام به، و روح القدس هو الذى يطهر القلب و الحياه لله، و هذه هى الأقانيم الثلاثة.

ثمّ إنّ سبحانه نبه على تنزيهه من الولد بقوله: «سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ»، فإنّ الولد عندهم إله، و الإله لا بدايه له و لا نهايه، و المولود له بدايه، و هى يوم ولادته، فكيف يكون إلهاً؟!

و يقول سبحانه فى آيه أخرى مندداً بفكره التثليث: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ١

و ممّا يُثير العجب أنّ فكره التثليث و اتّخاذ الولد فكره مستورده، استعاروها من الهند البوذيين، و الذكر الحكيم يصرّح بأنّ النصرارى يضاھئون فى قولهم بالتثليث قول القائلين به فى الأمم الماضيه، يقول سبحانه: «وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ». ٢

و قد أثبت الباحثون أنّ القول بالتثليث رائج بين البراهمه و البوذيين، و قد ألّف أحد المحققين كتاباً فى هذا الصدد أسماه: «العقائد الوثنيه فى الديانه النصرانيه»، أثبت فيه وجود عقيدته التثليث عند البراهمه و هم يسمونها بأسماء ثلاثه:

برهما: خالق العالم.

وشتو: الحافظ و رب العالم.

سيفا: المميت.

٢. بدعه اتّخاذ الرهبان أرباباً

و قد بلغت غوايتهم حداً اتّخذوا أبحارهم و رهبانهم أرباباً، قال سبحانه:

«اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا

ص: ٤١٣

لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ». ١

و يظهر ممّا رواه الطبرى وغيره أنّهم كانوا مشركين فى مسأله التقنين، روى عن الضحاك أنّه قال: «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ» أى قرآهم و علماءهم «أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعنى ساده لهم من دون الله، يُطِيعُونَهُمْ فى معاصى الله، يحلّون ما أحلّوه لهم ممّا قد حرّمه الله عليهم، و يحرمون ما يحرمونه عليهم ممّا قد أحلّه الله لهم.

و روى أيضاً عن عدى بن حاتم قال: انتهيت إلى النبی صلی الله علیه و آله و سلم و هو یقرأ فى سورة براءه: «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال: قلت: یا رسول الله إنّنا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس یحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه، و یحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». (١)

هذه نماذج من بدع أهل الكتاب و أخص بالذكر النصارى منهم، و لغيرهم أيضاً بدع تحدّث عنها القرآن الكريم تُعرض عن ذكرها.

ص: ٤١٤

قد وردت روايات متضافره عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و عترته الطاهره بشأن هذا الموضوع، و هى على قسمين:

الأول منهما يذكر البدعه و يندد بها، و الآخر يذكرها و يحدّد وظيفه المسلمين من أصحابها.

و نحن نذكر فى هذا المقام ما يتعلّق بالأمر الأول.

١. روى الإمام أحمد عن جابر قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فحمد الله و أثنى عليه كما هو أهل له ثم قال: «أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، و أفضل الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ بدعه ضلاله». (١)

٢. و روى أيضاً عن جابر قال: كان رسول الله يقوم فيخطب فيحمد الله و يُثنى عليه بما هو أهله و يقول: من يهد الله فلا مضلّ له، و من يضلّ فلا هادى له، إنّ خير الحديث كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ محدثه بدعه». (٢)

ص: ٤١٥

١-١. مسند أحمد: ٣/٣١٠، [١] دار الفكر.

٢-٢. مسند أحمد: ٣/٣٧١، [٢]

٣. و روى أيضاً عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله الفجر ثم أقبل علينا فوعظنا موعظه بيّنه، قال: «أوصيكم بتقوى الله... وإياكم و محدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثه بدعه، و كلّ بدعه ضلاله». (١)

٤. روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله إذا خطب احمّرت عيناه ثم يقول: «أما بعد فإنّ خير الأمور كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ بدعه ضلاله». (٢)

٥. روى مسلم فى صحيحه: كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا خطب: احمّرت عيناه، و علا صوته، و اشتدّ غضبه، حتّى كأنّه منذر جيش، يقول: صبّحكم و مسّاكم»، و يقول: «بُعِثْتُ أنا و الساعه كهاتين»، و يقرن بين اصبعيه: السبابة و الوسطى، و يقول: «أما بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ بدعه ضلاله»، ثم يقول: أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه، من ترك ما لأهله، و من ترك ديناً أو ضياعاً فالى و على». (٣)

٦. روى النسائي عن جابر قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول فى خطبته: «نحمد الله و نشنى عليه بما هو أهله»، ثم يقول: «من يهد الله فلا مضلّ له، و من يضلل فلا هادى له، إنّ أصدق الحديث كتاب الله، و أحسن الهدى هدى محمد، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ محدثه بدعه، و كلّ بدعه ضلاله، و كلّ ضلاله فى النار»، ثم يقول: «بعثت أنا و الساعه كهاتين»، و كان إذا ذكر الساعه احمّرت وجنتاه، و علا صوته، و اشتدّ غضبه، كأنّه نذير جيش، و يقول: «صبّحكم و مسّاكم»، ثم قال: «من ترك

ص: ٤١٦

١- ١). المصدر نفسه: ١٢٦/٤. و [١] لاحظ أيضاً ص ١٢٧، و لاحظ البحار: ٢/٢٦٣ [٢] فقد جاءت فيها نفس النصوص و فى ذيلها: «و كلّ ضلاله فى النار».

٢- ٢). سنن ابن ماجه: ١٧/١، الباب السابع، الحديث ٤٥، دار الفكر.

٣- ٣). صحيح مسلم: ١١/٣، باب تخفيف صلاه الجمعة و الخطبه، دار الفكر.

مالاً فلاهله، و من ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ (أو عليّ)، و أنا أولى بالمؤمنين». (١)

٧. قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». (٢)

قال الشاطبي: و هذا الحديث عدّه العلماء ثلث الإسلام، لأنّه جمع وجوه المخالفه لأمره صلى الله عليه و آله و سلم، و يستوى في ذلك ما كان بدعه أو معصيه. (٣)

٨. روى الكليني عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «أيّها الناس إنّما يبدؤ و وقوع الفتن، أهواءٌ تُتَّبَعُ، و أحكامٌ تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله، و يتولّى عليها رجال رجلاً على غير دين الله، فلو أنّ الباطل خالص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، و لو أنّ الحق خالص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، و لكن يؤخذ من هذا ضعف و من هذا ضعف فيمزجان، فهناك يستولى الشيطان على أوليائه، و ينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى». (٤)

٩. و روى عن الحسن بن محبوب رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّ من أبغض الخلق إلى الله عزّ و جلّ لرجلين: رجل و كله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعه، قد لهج بالصوم و الصلاه فهو فتنه لمن افتتن به، ضالّ عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته و بعد موته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته؛ و رجل قمش رجلاً...». (٥)

ص: ٤١٧

١-١. السنن الكبرى: ١/٥٥٠، برقم ١٧٨٦؛ [١] جامع الأصول: ٥، الفصل الخامس، برقم ٣٩٧٤.

٢-٢. مسلم: الصحيح: ٥/١٣٣، كتاب الأفضيه، الباب ٨؛ مسند أحمد: ٦/٢٧٠. [٢]

٣-٣. الاعتصام: ١/٦٨.

٤-٤. الكافي: ١/٥٤-٥٥ ح ١، ٢، ٣، ٤، باب البدع. و [٣] لفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغه، الخطبه ٥٠، [٤] دون الكافي [٥] لكونه أتم.

٥-٥. المصدر نفسه: ح ٦. [٦]

١٠. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة». (١)

١١. و قال عليه السلام: «ما أحدثت بدعه إلا ترك بها سنّه، فاتّقوا البدع و ألزموا المهيع، إنّ عوازم الأمور أفضلها، و إنّ محدثاتها شرارها». (٢)

١٢. و قال عليه السلام: «من مشى إلى صاحب بدعه فوقّه فقد مشى في هدم الإسلام». (٣)

١٣. روى مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «عليكم بسنّه، فعمل قليل في سنّه خير من عمل كثير في بدعه». (٤)

و للإمام عليّ عليه السلام في «نهج البلاغه» و راء ما نقلناه كلمات درّيه في ذمّ البدعه، نقتبس منها ما يلي:

١٤. «فاعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدي و هُدى، فأقام سنّه معلومه و أمات بدعه مجهوله؛ و إنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ و ضلّ به، فأمات سنّه مأخوذه و أحيا بدعه متروكه». (٥)

١٥. و قال: «أوّه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، و تدبّروا الفرض فأقاموه، أحياوا السنّه و أماتوا البدعه». (٦)

١٦. و قال عليه السلام أيضاً: «إنّما الناس رجلان: متّبِع شرعه، و مبتدع بدعه». (٧)

ص: ٤١٨

١-١. البحار: ٢/٢٦٤، ح ١٤. [١]

٢-٢. البحار: ٢/٢٦٤، ح ١٥. [٢]

٣-٣. البحار: ٢/٣٠٤، ح ٤٥. [٣]

٤-٤. البحار: ٢/٢٦١، ح ٣. [٤]

٥-٥. نهج البلاغه: [٥] الخطب ١٧٦، ١٨٢، ١٦٤.

٦-٦. نهج البلاغه: [٦] الخطب ١٧٦، ١٨٢، ١٦٤.

٧-٧. نهج البلاغه: [٧] الخطب ١٧٦، ١٨٢، ١٦٤.

١٧. وقال عليه السلام: «طوبى لمن ذلّ في نفسه و طاب كسبه-إلى أن قال:-و عزل عن الناس شرّه و وسعته السنّه و لم ينسب إلى البدعه». (١)

ص: ٤١٩

١-١. المصدر نفسه: قسم الحكم-رقم ١٢٣.

البدعه و آثارها الموبقه و واجب المسلمين تجاهها

إن صيانته الشريعه و حفظها من التحريف، رهن مكافحه المبدعين بشتى الوسائل، و لو لا ذلك لأصبحت فريسه لكل طامع، و غرضاً لكل حاقد، و لتسرّب الشك إلى أصولها و فروعها، الأمر الذى يؤول إلى مسخها و تشويه صورتها، و إلى تفرق المسلمين إلى فرق و طوائف متخاصمه، لا تلجأ إلى ركن و ثيق، و لا تتمسك بحبل الله المتين الذى أمرت الأُمّه بأن تعتصم به.

و قد نبه الذكر الحكيم إلى هذا المصير المردى بقوله سبحانه: «و لا تُكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا و اٰخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ و أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». ١

و كذا تبعته السنّه الشريفه فذكرت آثار البدعه الموبقه، و دعت الأُمّه الإسلاميه إلى مكافحتها و محاربتها بما تيسر؛ و إليك نزرًا مما ورد فى هذا المجال.

قد وردت أحاديث وافره في تأثير البدعه في حياه المبدع و مصيره عاجلاً و آجلاً،نقتصر منها على ما يلي:

١.روى ابن ماجه:«قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:لا يقبل الله لصاحب بدعه صوماً و لا صلاه و لا صدقه و لا حجاً و لا عمره و لا جهاداً». (١)

٢.روى مسلم عن أبي هريره قال:قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا- ينقص ذلك من أجورهم شيئاً،و من دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً». (٢)

٣.روى مسلم في«الصحيح»من حديث أبي هريره: أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أتى المقبره فقال:«السلام عليكم دار قوم مؤمنين و إنا إن شاء الله بكم لاحقون - إلى أن قال:- ألا ليؤذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال،أناديهم ألا هلم! ألا هلم! ألا هلم! فيقال:إنهم قد بدلوا بعدك،فأقول:سحقاً! سحقاً». (٣)

٤.روى الكليني عن محمد بن جمهور،رفعه؛قال:قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

«أبى الله لصاحب البدعه بالتوبه» قيل:يا رسول الله و كيف ذلك؟ قال:«إنه قد أشرب في قلبه حبها». (٤)

ص: ٤٢١

(١-١). سنن ابن ماجه: ١٩/١.

(٢-٢). صحيح مسلم: ٦٢/٨، كتاب العلم؛سنن أبي داود: ٣٩٣/٢ برقم ٤٦٠٩،باب من دعا إلى سنه. [١]

(٣-٣). صحيح مسلم: ١٥٠/١-١٥١، كتاب الطهاره.

(٤-٤). الكافي: ٥٤/١-٥٥، الحديث ٤،باب البدع. [٢]

إذا تلاعب المبدع بالشريعة و ألصق بها ما ليس منها، أو رفض منها ما هو من صحيحها و لم يكن يقف أمامه وازع يمنعه عن ذلك، تسربت الفكره الموبقه إلى أوساط المسلمين، فيصوّر الحقّ باطلاً و الباطل حقّاً، و لذلك فرض الإسلام على المسلمين عامه و على حُكّامهم و علمائهم خاصه مكافحه المبدعين بما تيسّر.

و من المعلوم أنّ مسئوليّه الحاكم ذى المنعه و القدره غير مسئوليّه الناس العاديين، و إليك بعض ما ورد من ذلك فى السنّه الشريفه:

١. روى مسلم فى صحيحه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». (١)
٢. روى الكليني عن محمد بن جمهور، رفعه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إذا ظهرت البدع فى أمّتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله». (٢)
٣. و بنفس الإسناد قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من أتى ذا بدعه فعظّمه فإنّما يسعى فى هدم الإسلام». (٣)
٤. روى عمر بن يزيد، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تصحبوا أهل البدع و لا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله: المرء على دين خليله و قرينه». (٤)

ص: ٤٢٢

١-١. صحيح مسلم: ١٣٣/٥، كتاب الأفضيه، الباب ٨؛ و رواه أحمد فى مسنده: ٢٧٠/٦. [١]

٢-٢. الكافي: ٥٤/١-٥٥، الحديث ٢، باب البدع. [٢]

٣-٣. نفس المصدر: الحديث ٣. [٣]

٤-٤. الكافي: ٣٧٥/٢. [٤]

٥. و روى داود بن سرحان، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأيتم أهل الريب و البدع من بعدى فأظهروا البراءة منهم، و أكثروا من سبهم و القول فيهم و الوقيع...» (١).

٦. و روى المجلسى أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «من تبسّم فى وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه». (٢).

ص: ٤٢٣

١-١. نفس المصدر. [١]

٢-٢. بحار الأنوار: ٢١٧/٤٧؛ [٢] عن مناقب آل أبى طالب: ٣/٣٧٥. [٣]

البدعه و مقوماتها الثلاثه

قد تعرفت فيما سبق على أنّ الموضوع ليس هو نفس لفظ البدعه و مفهومها حتّى يشمل الأمور العاديه؛ و إنّما هو يخصّ البدعه فى الدين؛ و لكن قسماً كثيراً من علماء السنّه جعلوا الموضوع نفس البدعه و قسّموها إلى قسمين:

حسنه و سيئه، و ما ذلك إلاّ لتصحيح ما أقدم عليه عمر بن الخطاب فى مسأله صلاه التراويح، و وصف إقامتها بالجماعه و بإمام واحد، بدعه حسنه، و لو لا ذلك لما خطر فى بالهم هذا التقسيم للبدعه.

و كما عرفت أنّ المتبادر من البدعه و ما ورد فى الذكر الحكيم من مرادفاتنا هو الفعل المذموم.

و مع ذلك نرى أنّ الإمام الشافعى يقول: البدعه بدعتان: بدعه محموده، و بدعه مذمومه؛ فما وافق السنّه فهو محمود، و ما خالف السنّه فهو مذموم. (١)

و على هذا المنوال نسج غير واحد من علماء أهل السنّه (٢)، كالغزالي فى

ص: ٤٢٤

١-١. فتح البارى: ١٧/١٠.

٢-٢. لا حاجه لذكر الكثير من التفاصيل.

الإحياء (١)، وغيره.

غير أنّ أصحابنا-إلا النادر منهم-حينما يتناولون موضوع البدعه، فإنّهم يقصدون بها خصوص البدعه في الدين، ويذهبون إلى أنّ لها قسماً واحداً، وإليك بعض كلماتهم في هذا الصدد:

١. قال السيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ): البدعه: الزيادة في الدين، أو نقصان منه مع إسناد إلى الدين. (٢)

٢. وقال العلامة (٤٤٨-٥٧٢٦هـ): كلّ موضع لم يشرع فيه الأذان فإنّه يكون بدعه. (٣)

٣. وقال الشهيد الأوّل (٧٣٤-٥٧٨٦هـ): محدثات الأمور بعد عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم تنقسم أقساماً، لا يطلق اسم البدعه عندنا إلا على ما هو محرّم منها. (٤)

٤. وقال الطريحي (...-١٠٨٦هـ): البدعه: الحدث في الدين وما ليس له أصل في كتاب ولا سنّه، وإنما سمّيت بدعه لأنّ قائلها ابتدع هو نفسه، والبدع - بالكسر والفتح - جمع بدعه، ومنه الحديث: «من توضع ثلاثاً فقد أبدع» أي فعل خلاف السنّه، لأنّ ما لم يكن في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم فهو بدعه. (٥)

٥. وقال المجلسي رحمه الله (١٠٣٧-١١١٠هـ): البدعه في الشرع ما حدث بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرد فيه نص على الخصوص، ولا يكون داخلاً في بعض العمومات، أو ورد نهى عنه خصوصاً أو عموماً. (٦)

ص: ٤٢٥

١-١. إحياء علوم الدين: ٣/٢، [١] ط. الحلبي.

٢-٢. الرسائل: ٨٣/٣.

٣-٣. المختلف: ١٣١/٢.

٤-٤. القواعد والفوائد: ١٤٤/٢-١٤٥، [٢] القاعده ٢٠٥.

٥-٥. مجمع البحرين: ج ١، [٣] مادّه «بدع».

٦-٦. بحار الأنوار: ٢٠٢/٧٤. [٤]

إلى غير ذلك من التعاريف التي تركّز على أنّ البدعه هو التدخّل في الدين بزياده أو نقيصه، و أمّا إيجاد ما لم يكن له مثال في السابق و لا في عهد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لم يكن له أى صله بالدين، فلا يدخل في إطار البدعه، و إنّما يطلب حكمه من الكتاب و السنّه، فتاره يكون حلالاً و أخرى حراماً لكن لا بما هو «بدعه» بل بما هو هو.

مقومات البدعه

إشاره

المهم في المقام هو التعرف على مقومات البدعه، و إن ظهر بعضها ممّا سبق.

إنّ البدعه تتقوّم بقيود ثلاثه:

١. التدخّل في الدين عقيدته و شريعته بزياده أو نقيصه.

٢. أن لا يكون لها دليل في الشرع يدلّ على جوازها خصوصاً أو عمومياً.

٣. أن تكون هناك إشاعه و دعوه من المبدع.

و إليك دراسه القيود الثلاثه:

الأول: التدخّل في الدين بزياده أو نقيصه

إشاره

إذا كان الموضوع هو البدعه في الدين، فلا محاله أن تكون البدعه متقوّمه بالتدخّل في الدين بزياده شيء أو نقيصه شيء منه.

و قد تعرّفت فيما سبق على تضافر الآيات و الروايات على أخذ هذا القيد (في الدين) في مفهومها. و أمّا ما تظافر نقله عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من أنّ «شر الأمور محدثاتها» فإنّما يريد الأمور التي لها صله بالدين، و أمّا الخارج عنه فهي تتبع في كونها حلالاً و حراماً ما ورد بشأنها في الكتاب و السنّه.

فاختلاط الرجال-مثلاً-بالنساء السافرات في الأعراس، من البدع الغريبه التي تسربت إلى الشرق الإسلامي، و هو بلا شك محرم شرعاً، لكن لا- بعنوان أنه بدعه في الدين، لأن القائمين بهذه الأعمال غير متمسكين بأهداب الدين، و غير معنيين بمسائله، فهم يمارسون مثل هذه الأعمال تأثراً بالغرب و اقتداءً بالغربيين، لا بأنه من الدين.

و لأجل تحقيق الحق و إيضاحه نذكر نص الحديث الذي صرح به الرسول الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلم و نقل بصور مختلفه حتى يبين أن القائل لا- يريد من الأمور إلا- الأمور التي لها صلته بالدين، و أما الأمور العاديه و ما شابهها فمحدثاتها قد تكون حلالاً و قد تكون حراماً، لكن لا من حيث كونها من مصاديق البدعه.

روى الإمام أحمد عن جابر: قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهل له، ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم: «فإن أصدق الحديث كتاب الله، و أفضل الهدى هدى محمد، و شر الأمور محدثاتها، و كل بدعه ضلالة».

(١)

تفسير قوله صلى الله عليه و آله و سلم: شر الأمور محدثاتها

إن الذكر الحكيم دعا المسلمين إلى التفكير في خلق السماوات و الأرض و قال: «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا» ٢، كما أمر سبحانه في موضع آخر بالنظر-بتدبر-إلى ما في السماوات و الأرض، فقال سبحانه: «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ٣.

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر و التفكر و التدبر في عالم الطبيعه.

ص: ٤٢٧

هذا من جانب و من جانب آخر دعا الإسلام إلى التعلّم و نشر العلم و إن اقتضى ذلك السفر إلى البلاد النائية كالصين مثلاً.

و الآيات و الروايات الواردة في هذا المجال كثيره لا حازه لبيانها و التفصيل في ذكرها.

و النتيجة التي تسفر عن هذين الأمرين: التفكير و التعلّم، هي كشف كوامن الطبيعه، و سنن الله سبحانه في عالم الحياه، و بالتالي التطور و التكامل في حياه الإنسان في مختلف شئونها و متطلّباتها.

و لذلك نرى أنه قد طرأت في حياه المسلمين بعد رحيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمور جديده تلقّاها الصحابه و التابعون بالقبول بلا- غمز و اعتراض، و خاصه بعد اتّساع دائره الفتوحات الإسلاميه و احتكاك المسلمين بسائر الشعوب كاليهود و النصرى و المانويين و الزرادشتيه و البراهمه و الصابئه، و كانت لديهم علوم و معارف و عادات و تقاليد اقتبسها المسلمون منهم (باستثناء ما ورد نهى عنها في الشرع) خصوصاً ما يرتبط منها بالعلوم الكونيه و الرياضيات و التاريخ، و عند ذلك حدثت أطوار و أنماط في الحياه العمرانيه و العادات الاجتماعيه و الأنشطة الاقتصاديه على وجه لم يكن لها أى مثال في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم.

يقول أحد الكتّاب المعاصرين في هذا الصدد: أخذ المسلمون يشيدون الأبنيه باللبن و الحجاره و الجص، بعد أن كانت تقام بالقصب و خوص النخل، و تدعم باللبن فيما بينها ثمّ تسقف بالإذخر و نحوه. و أخذ الأمراء يبنون لأنفسهم قصوراً ذات حوى و أبهاء، لممارسه وظائف الحكم و النظر في مصالح المسلمين فيها، و راح المهندسون يخطّطون لإقامه المدن و تشييدها، الكوفه و البصره أبرز مثالين لها، فقد نظموا الشوارع الرئيسيّه فيها بعرض أربعين ذراعاً، و الشوارع الفرعيّه بعرض

ثلاثين، والأزقه الداخليه بعرض سبعة أذرع، كما وضعوا نظاماً لارتفاع الأبنيه حسب مكان وجودها.

نشطت الأعمال التجاريه نشاطاً بيناً بين الصحابه بعد أن كانت التجاره محترقة عند العرب،...ظهرت الصناعات بأنواعها المختلفه و أخذت تنتشر بين الصحابه فمن بعدهم تبعاً.

تطوّرت صناعات الأَطعمه و أساليب استحضارها فاستعملوا دقيق الحواري، و هو خلاصه الدقيق و لبابه خالياً من النخاله، كانوا يجلبونه فى أول معرفتهم له و عهدهم به من بلاد الشام و غيرها، ثم ما لبثوا أن أتقنوا صنعه و تحضيره، و اتّخذوا طعاماً لهم: الخبز الرقاق آنأ، و أنواع الحلوى كالتى كانت تسمى بالخبيص و الفالودج آنأ آخر. (١)

لقد ظهرت المناخل بينهم فجأه، و ما كان لهم عهد بها من قبل. و هى من أدوات التمتع و الترفه فى المأكَل، ممّا لم يكن يعرفه العرب و لا المسلمون من قبل. فما الذى ينبغى أن يتخذوه؟ أ يتبعون فى ذلك سنن الصحابه الذين من قبلهم، فيتجنبون استعمال المناخل فى نخل الدقيق، نظراً لأن ذلك بدعه مستحدثه، و كلّ بدعه ضلاله، أم يجارون الزمن و تطوراته و ينظرون إلى المسأله على أنّها من الأعراف المرسله عن قيود الاتباع و عدمه، و لا علاقه لها بشيء من الأحكام التعبدية التى قضى بها الإسلام؟ و أياً كان الموقف المتّخذ، فما هو الميزان أو البرهان المعتمد فى ذلك؟ (٢)

جرى المسلمون على هذا المنوال عبر قرون متطاولة و لم يخطر ببال أحد أنّ

ص: ٤٢٩

١- (١). السلفيه مرحله زمنيه للدكتور البوطى: ٣٧-٣٨.

٢- (٢). السلفيه مرحله زمنيه: ٤٦.

هذه الأمور-من أبسط التحوّلات إلى أعمقها-أنها من محدثات الأمور و أنها بدعه، و هذه قرينه منفصله على تفسير حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأنّ المراد من قوله صلى الله عليه و آله و سلم «شر الأمور محدثاتها» (١) هو الأمور المحدثه فى متن الشريعة بالزياده أو النقصه و يشهد على ذلك أيضاً صدر الحديث و ذيله.

ففى صدره: «إنّ أصدق الحديث كتاب الله»، و فى ذيله: «و كلّ بدعه ضلاله».

فالصدر و الذيل شاهدان على أنّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بصدد المحافظه على الشريعة و الدعوه الإسلاميه حتّى لا يتلاعب فيها المبدع بأهوائه، فيزيد فيها شيئاً باسم الشريعة أو ينقصه أيضاً كذلك.

و أمّا الأمور التى لم يحرمها الشارع فى أصل الشريعة، لا فى كتابها و لا فى سننها، و لكن وصل إليها المسلمون من جراء عوامل شتى، فلا صلّه لهذه الأمور المحدثه بالحديث الشريف المذكور.

روى مسلم فى صحيحه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا خطب احمرّت عيناه و علا صوته، و اشتد غضبه كأنّه منذرٌ جيش ثمّ يقول: «أما بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، و خير الهدى هدى محمد...».

و من الواضح أنّ سبب غضبه ليس إلّا تدخّل المبتدع فى شريعته، لا مطلق التدخل فى شؤون الحياه و أن لم تمسّ دينه خصوصاً إذا كان فيه مصلحه الإنسان.

كيف يمكن للصادع بالحق أن يوقف عجله الحياه عن السير إلى الإمام حتّى يعيش المسلمون عيشه بدائيه، مع أنّه يأمر بالتسلّح بما استطاعوا من قوه، و هو يلازم التجاوز عن الحياه البدائيه، و إعداد أفتك الأسلحه و أعقدها أمام

ص: ٤٣٠

الأعداء؟ يقول سبحانه: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لَكُمْ». ١

إلى هنا تمّ الكلام فى بيان المقوم الأول للبدعه، و يأتى الكلام فى المقوم الثانى.

المقوم الثانى: أن لا يكون لها رصيد فى الشريعة

إشاره

و هذا هو العنصر الثانى لمفهوم البدعه، و هو عدم وجود رصيد لها فى الشريعة بمعنى فقدان الدليل من الكتاب و السنّه على جوازها، لأنّه عند ذاك لا تصبح أمراً جديداً طارئاً على الدين، و لا تعدّ زياده عليه و لا نقيصه.

فإنّ البدعه فى الشرع: ما حدث بعد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لم يرد فيه نص على الخصوص و لم يكن داخلاً فى بعض العمومات، و إن شئت قلت: إحداث شىء فى الشريعة لم يرد فيه نص، سواء أ كان أصله مبتدعاً كصوم عيد الفطر، أم خصوصيته مبتدعه كالإمساك إلى غسق الليل ناوياً به الصوم المفروض، معتقداً بأنّه الواجب فى الشرع.

و قال ابن حجر العسقلانى: المراد بالبدعه ما أحدث و ليس له أصل فى الشرع، و ما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعه.

(١)

قال ابن رجب الحنبلى: البدعه ما أحدث ممّا لا أصل له فى الشريعة يدلّ عليه، أمّا ما كان له أصل فى الشرع يدلّ عليه فليس ببدعه

شرعاً، و إن كان بدعه لغهً. (٢)

و انطلاقاً من ذلك، فإنّ ما واجهه المسلمون فى خضمّ التيارات الحضاريه

ص: ٤٣١

١- ٢. فتح البارى: ١٥٦/٥، و لاحظ ج ٩/١٧.

٢- ٣. جامع العلل و الحكم: ١٦٠، ط الهند.

التي فرضها عليهم الاحتكاك الثقافي وغيره و لم يجدوا فيه منعاً من الشرع و لا تحريماً، تقبلوه بصدر رحب و قلب راض و نفس مطمئنه، و ما ذلك إلا- لأن الأصل في الأشياء الإباحه، و المحتاج إلى البيان هو الحرمة، يقول سبحانه: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ». ١

و يقول سبحانه: «وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ». ٢

و يقول سبحانه: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ». ٣

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ مهمه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم هي بيان المحظورات و المحرمات، و أنّ الناس في سعه من أمرهم ما لم يحرم الشارع منها شيئاً.

نعم لا ينحصر وجود الدليل الشرعي على الحليّة بأصل البراءه و الإباحه، بل ربّما تكون هناك عمومات و إطلاقات اجتهاديه تدلّ على أنّ حكم الموضوع، هو الحليّة بعموماتها و إطلاقاتها و إن لم يكن هناك دليل بالخصوص. و قد عرفت أنّ قوله سبحانه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» كاف في تجويز التسلّح بالأسلحه الحديثه. لكون الجميع من مصاديق إعداد القوه، و هذا العنصر الثاني الّذى نبهنا عليه هو مفتاح حل كثير من المشاكل التي علقت بأذهان المسلمين في بلدانهم و خارجها و بما يتصورها بعض القشريين أنّها بدعه.

و على ضوء هذا فالخطه العسكريه المتبعه في عصرنا الحالى لا تعدّ بدعه إذا

كان فيها مصلحة للشعب، و تحصيناً للبلد، فإنها من مصاديق قوله تعالى:

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».

و لإيضاح الحال نأتى هنا بأمثله ليتبين أن وجود الدليل العام أو المطلق، كاف فى خروج الشىء عن كونه بدعه.

١. السفر لمشاهده الآثار الإسلاميه

جرت السيره فى أيام الحجّ عبر قرون على السفر لمشاهده معالم و آثار معركة بدر و أحد و الحديبيه و الأحزاب و غيرها من أيام الله التى نصر بها رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و عباده الصالحين و هزم الشرك و المشركين.

و لكن الهيئه العلميه المتمثله بالأميرين بالمعروف و الناهين عن المنكر تعدّ ذلك بدعه، لعدم ورود الدليل على جواز السفر إلى هذه المشاهد فى الكتاب و السنّه.

و لكن نظرتهم مبنيه على لزوم وجود الدليل بالخصوص على العمل، و هو أمر غير تام لكفايه وجود الدليل العام و إن لم يكن ثمه دليل فى المورد الخاص، و مثال ذلك أنه تبارك و تعالى يأمرنا بأن نسير فى الأرض لننظر آثار المشركين فنعتبر بها، كعاد و ثمود الموجوده فى ديار صالح قرب المدينه المنوره و التى لا تزال مزاراً للسائحين، يقول سبحانه: «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ». ١

و قال تعالى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا

مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ١

فإذا كان السير في الأرض لمشاهده آثار المشركين و الاعتبار بها، أمراً محبوباً و مطلوباً أمر به الكتاب العزيز، كان السير إلى الأماكن التي فيها معالم النبوه و آثار الصالحين جائزاً بطريق أولى، و ما ذلك إلا لتقف الأجيال المتعاقبه على الجهود التي بذلها المسلمون الأوائل في رفع رايه التوحيد و قمع رايه الشرك أولاً، و تكون على بصيره من دينها ثانياً، و تتخذ أعمالهم و أفعالهم أسوه في الحياه ثالثاً.

فالمنع عن السفر و السير إلى تلك المعالم لا يصدر إلا عن إنسان لا يعي الآثار الإيجابيه المترتبه على ذلك.

أضف إلى ذلك: إن السفر إلى تلك المساجد و المشاهد لرؤيتها و التعرّف عليها ليس سافراً عبادياً، حتى يحتاج إلى الدليل، و إنما هو على غرار سائر الأسفار، لغايات محلّله، و إذا لم يكن محرّماً بالذات أو بالغايه فيحكم عليه بالرخصه.

٢. الاحتفال بالمولد النبوي

جرت سيره المسلمين منذ قرون على الاحتفال بالمولد النبوي، و يرشدك إلى هذا ما ذكره الدياربكري (المتوفى ٥٩٦٦هـ) مؤلف «تاريخ الخميس» إذ يقول: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، و يعملون الولائم، و يتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، و يظهرون السرور، و يزيدون المبرّات، و يعتنون بقراءه مولده

الشريف، و يظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم. (١)

و قال القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ): «لا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، و يعملون الولائم، و يتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، و يظهرون السرور، و يزيّدون في المبرّات، و يعنون بقراءه مولده الكريم، و يظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم... فرحم الله امرأً اتخذ ليالى شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشدّ علّه على من في قلبه مرض و أعياء داء. (٢)

إلى غير ذلك من الكلمات التي تتحدث عن هذه السيره الحسنه، و مع ذلك نرى ابن تيميه (و من تبعه) يُنكر ذلك، و يقول: و كذلك ما يحدثه بعض الناس، إمّا مضاهاهً للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام، و إمّا محبه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و الله قد يثيبهم على هذه المحبه و الاجتهاد، لا على البدع من اتّخاذ مولد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عيداً، مع اختلاف الناس في مولده، فإنّ هذا لم يفعله السلف، مع عدم قيام المقتضى له، و عدم المانع منه، و لو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف أحقّ به منّا، فإنّهم كانوا أشدّ محبهً لرسول الله و تعظيماً له منّا. (٣)

و قد تبع ابن تيميه لفيف من تلامذه منهجه، حتّى أنّ الفقى رئيس جماعه (أنصار السنّه المحمّديه) يقول في حواشيه على كتاب «الفتح المجيد»: كتاب

الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العباده لهم و تعظيمهم. (٤)

و قد نسج على هذا المنوال المتأخرون من أتباع مدرسه ابن تيميه الذين يشار إليهم بالبنان كالفوزان و غيره.

ص: ٤٣٥

١-١. تاريخ الخميس: ٣٢٣/١. [١]

٢-٢. المواهب اللدنيه: ١٤٨/١. [٢]

٣-٣. اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٩٤.

٤-٤. الفتح المجيد: ١٥٤.

و لكن وقفه قصيره فى المقام تثبت أنّ ما زعموه من العلل أمور واهيه ستنهار قواعدها أمام الدليل القاطع، و ذلك لأنّ ابن تيميه اعتمد على أمرين:

الأول: أنّ الاحتفال مضاهاه للنصارى فى الاحتفال بميلاد عيسى عليه السلام.

الثانى: أنّه من البدع، لأنّه لم يفعله السلف، و لو كان هذا خيراً محضاً لكانوا أحقّ به منّا.

لكن الوجهين غير صحيحين:

أمّا الأول: فلأنّه ادّعاء بلا دليل، و التوافق فى العمل لا يعدّ دليلاً على المضاهاه للنصارى و أنّهم تبعوا النصارى فى هذا العمل، و ربّما يكشف التوافق عن أنّ الاحتفال نزع إنسانيّه تنبعث من عوامل الحبّ و العاطفه - كما سيوافيك - من غير فرق بين المسلم و المسيحى.

ثمّ إنّ القائمين بالاحتفال لا يدور فى خلداهم أنّ عملهم مضاهاه و أنّهم يقصدون بذلك التشبه بهم.

و إن كنت فى ريب من هذا فاسأل القائمين به فى أقطار العالم، دانيه و قاصيه، و ستجد أنّ السبب الداعى للاحتفال هو حبّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تعظيمه و تكريمه.

و أمّا الثانى: فلأنّ عدّه من البدع غفله عمّا ورد فى الكتاب و السنّه الّذى يصحّ أن يكون رصيذاً لهذا الاحتفال كما نلاحظه فى الموارد التاليه:

١. ما دلّ على وجوب تكريم النبى و تبجيله، يقول سبحانه: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَّيْرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ١

و المراد من التعزير هو التعظيم و التوقير، و ليس المراد منه هو نصره

المحضة، لأنها مذكوره بعد التعزير حيث قال تعالى: «عَزَّوَهُ وَنَصَّوَهُ»، ولذلك فسَّره علماء التفسير بقولهم: أى عَظْموه و وقروه،
(١) و فسَّره أبو حيان الأندلسى بقوله: أثنوا عليه و مدحوه. (٢)

و قال ابن كثير: و نصره أى عظموه و وقروه. (٣)

إلى غير ذلك من الكلمات التى تفسر الآيه بتعظيم النبى و توقيره و تكريمه.

و تخصيص مفاد الآيه بحياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بخس لحقه و تنكر لعظمته و شأنه، و تفسير لها بالرأى، فلو صحّ ذلك الزعم فليكن الأمر بالإيمان به و أتباع النور المذكور فى الآيه مختصاً أيضاً بحال حياته فقط.

و على ضوء ذلك فالاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى شهر ربيع الأول تجسيد لهذه الآيه، أى أنه تكريم و تبجيل للنبى صلى الله عليه و آله و سلم.

٢. ما ورد حول ترفيع شأن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال سبحانه: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» ٤. فالآيه تدلّ بصراحه على أنه سبحانه رفع ذكر النبى بأساليب مختلفه، و تدلّ بالدلاله الالتزاميه على أن رفع ذكره أمر مطلوب و محبوب، فلو عدّ الاحتفال بذكرى ميلاده لدى الناس ترفيعاً، فيكون تجسيداً لمفادها.

فالاحتفال بنفسه تجسيد لهذه الآيه، و هذا ما دعا المسلمين القدامى و الجدد إلى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف.

٣. كيف لا يصحّ للمسلمين أن يتخذوا ولاده النبى أو يومه صلى الله عليه و آله و سلم عيداً و قد غمرتهم المائدة الإلهيه و الرحمه العالميه بميلاده و ظهوره؟ إنّ المسيح عليه السلام

ص: ٤٣٧

١-١. مجمع البيان: ٤/٤٠٤.

٢-٢. البحر المحيط: ٥/١٩٦. [١]

٣-٣. تفسير ابن كثير: ٣/٢٣٤. [٢]

عند ما دعا ربّه أن ينزل مائده عليه، و على حوارِيّه، بقوله: «رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» ١، اتّخذ يوم نزول النعمة الماديه الّتي تشيع البطون عيداً، و الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم هو أعظم نعمه منّ الله بها على المسلمين، فكيف لا نتخذ يوم ولادته عيداً و يوم فرح و سرور؟

نعم لم يرد النص على الاحتفال فى هذا اليوم أو هذا الشهر بالخصوصيه الكذائيه، فالاحتفال بهذا العنوان بدعه بلا شك، لأنّ الخصوصيه ليست منصوصه، و إنّما المنصوص هو التكريم و التبجيل، و له أسباب و طرق و مظاهر، و الاحتفال هو أحد هذه الطرق و الوسائل. و المسلمون لا يحتفلون بنيه و رواد الأمر به فى ذلك اليوم الخاص و إنّما يختارون يوم ميلاده لمناسبات عرفيه نظير احتفال الإنسان بيوم ولادته.

و أخيراً: ما ذكره من أنّ السلف لم يحتفل بذلك مع قيام المقتضى له و عدم المانع منه، كلام خال عن التحقيق، و ذلك للأُمور التاليه:

أولاً: أنّ المسلمين قد احتفلوا بذكره فى أواسط القرن الرابع فى القاهره، و ذلك فى خلافه المعز لدين الله عام ٣٦١هـ، ثمّ درج عليه حكام الأقطار الإسلاميه الأخرى عده قرون، و بذلك تحقّق الإجماع على جوازه و استحبابه قبل أن يولد ابن تيميه (٦٦٢-٧٢٨هـ). و انعقد قبله بقرون، و إجماع المسلمين على جواز شىء فى عصره حجّه فى أعصار متواليه؟!!

ثانياً: أنّ الصحابه لم تحتفل بذلك، ففيه أنّ عملهم دليل على الجواز، و أمّا عدم احتفالهم فلا يعدّ دليلاً على التحريم، و كم من مشاريع علميه و صناعيه قام

بها المسلمون في أعصار متأخره لم يقيم بها الصحابه و التابعون.

ثالثاً: إذا اشتملت هذه الاحتفالات على أمور محرّمه فلا شكّ أنّه حرام، ولذا يجب تنزيه الاحتفال عن كلّ أمر محرّم، ولكنّه لا يكون دليلاً على حرمة الاحتفال إذا كان نزيهاً.

كلمتان قيمتان في المقام

و في هذا المقام كلمتان قيمتان إحداهما للعلامة الأميني و الأخرى للأستاذ سعيد حوى.

قال العلامة الأميني: «لعلّ تجديد الذكرى بالمواليد و الوفيات، و الجرى على مراسم النهضات الدينيه، أو الشعبيه العامه، و الحوادث العالميه الاجتماعيه، و ما يقع من الطوارق المهمه فى الطوائف و الأحياء، بعد سنيتها، و اتخاذ رأس كلّ سنه بتلك المناسبات أعياداً و أفراحاً، أو مآتماً و أحزاناً، و إقامة الحفل السارّ، أو التأبين، من الشعائر المطّرده، و العادات الجاربه منذ القدم، و دعمتها الطبيعه البشريه، و أسستها الفكره الصالحه لدى الأمم الغابره، عند كلّ أمّه و نحلّه، قبل الجاهليه و بعدها، و هلم جرّاً حتى اليوم.

هذه مراسم اليهود، و النصرى، و العرب، فى أمسها و يومها، و فى الإسلام و قبله، سجّلها التاريخ فى صفحاته.

و كأنّ هذه السنّه نزعته إنسانيه، تنبعث من عوامل الحب و العاطفه، و تسقى من منابع الحياه، و تتفرع على أصول التبجيل و التجليل، و التقدير و الإعجاب، لرجال الدين و الدنيا، و أفذاذ الملاء، و عظماء الأمم إحياءً لذكراهم، و تخليداً لاسمهم، و فيها فوائد تاريخيه اجتماعيه، و دروس أخلاقيه ضافيه راقيه، لمستقبل

الأجيال، و عظام و عبر، و دستور عملي ناجع للناشئه الجديده، و تجارب و اختبارات تولد حنكه الشعب، و لا تختصّ بجيل دون جيل، و لا بفئه دون أخرى.

و إنّما الأيام تقتبس نوراً و ازدهاراً، و تتوسّم بالكرامه و العظمه، و تكتسب سعداً و نحساً، و تتخذ صبغه ممّا وقع فيها من الحوادث الهامه، و قوارع الدهر و نوازله.... (1)

و قال الأستاذ سعيد حوى: و الذى نقوله: أن يعتمد شهر المولد كمناسبه يُذكر بها المسلمون بسيره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و شمائله، فذلك لا حرج فيه، و أن يعتمد شهر المولد كشهر تهيج فيه عواطف المحبه نحو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فذلك لا حرج فيه، و أن يُعتمد شهر المولد كشهر يكثّر فيه الحديث عن شريعته رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فذلك لا حرج فيه، و أنّ ممّا أُلّف فى بعض الجهات أن يكون الاجتماع على محاضره و شعر، أو إنشادٍ فى مسجد، أو فى بيت بمناسبه شهر المولد، فذلك ممّا لا أرى حرجاً فيه، على شرط أن يكون المعنى الذى يُقال صحيحاً.

إنّ أصل الاجتماع على صفحهِ من السيره، أو على قصيده فى مدح رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جائز، و نرجو أن يكون أهله مأجورين، فإن يُخصص للسيره شهر يُتحدث عنها فيه بلغه الشعر و الحب فلا حرج.

ألا- ترى لو أنّ مدرسه فيها طلابٌ خصصت لكل نوعٍ من أنواع الثقافه شهراً بعينه، فهل هى آثمه؟ ما نظن أن الأمر يخرج عن ذلك.

و يضيف إلى ذلك القول:

لقد كان الأستاذ حسن البنا رجل صدق، و ثاقب نظر، و إماماً فى العلم، و كان يرى إحياء المناسبات الإسلاميه فى عصر مضطرب مظلم قد غفل فيه

ص: ٤٤٠

المسلمون، و جهلوا فيه كثيراً من أمور دينهم، و من كلامه رحمه الله في مذكراته:

إحياء جميع الليالي الواجب الاحتفال بها بين المسلمين، سواء بتلاوه الذكر الحكيم، و بالخطب، و المحاضرات المناسبه....

إلى أن قال:

و المتشددون في مثل هذه الشؤون تشددهم في غير محلّه، فليس الأصل في الأشياء الحرمه، بل الأصل فيها الإباحه، حتّى يرد النصّ بالتحريم، و فهمهم لحديث: «كلّ ما ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ» فهم خاطئ.... (1)

٣. حفظ الآثار الإسلاميه

إنّ لصيانته الآثار الإسلاميه من عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى يومنا هذا سببين:

١. الحب: فإنّ حبّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم و حبّ شريعته و ما تمتّ إليه بصله، يدفع الإنسان إلى العناية بكلّ ما يتّصل بها، حتّى الألبسه التي صلّوا فيها و الآنيه التي شربوا بها، كلّ ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس و الود المكنون في الطبيعه البشريه.

و ليس هذا أمراً مختصّاً بالمسلمين، بل الأمم المتحضّره المعترّزه بماضيها و تاريخها تسعى إلى صيانته كلّ أثر تاريخي باق من الماضي.

٢. إنّ لهدم الآثار و المعالم التاريخيه الإسلاميه لا سيّما في مهد الإسلام مكّه و مهجر النبي صلى الله عليه و آله و سلم المدينه المنوره، نتائج سيئه و مضاعفات خطيره على الأجيال اللاحقه، التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامى، و الأمر الذي قد يدفعها

ص: ٤٤١

١ - ١). كى لا- نمضى بعيداً عن احتياجات العصر: ٣٦ - ٣٩، الفصل ٦؛ السيره بلغه الحبّ و الشعر، كما في البدعه للدكتور الباقري: ٢٦١-٢٦٢. [١]

إلى الاعتقاد بأن الإسلام قضيه مفتعله و فكره مبتدعه ليس لها جذور فى التاريخ.

و لنعتبر بما مرّ على الديانه المسيحيه، فقد تحولت فى الغرب إلى أسطوره تاريخيه، و ذلك لأنّ قسماً من المحقّقين يشكّون مبدئياً فى وجود رجل اسمه المسيح و أمّيه مريم و كتابه الإنجيل، لما ذا؟ لأنّهم لا يجدون أى أثر ملموس لصاحب الشريعه: المسيح، و لا لأُمّه، و لا لتلامذته و أصحابه، و أصبح (الإنجيل) كتاب ترجمه لحياته و ليس كلاماً موحى به إليه لبيان المعارف و الشريعه.

إنّ رساله الإسلام رساله خالده و دائمه إلى يوم القيامه، و الله سبحانه يعلم مدى عمر الرساله الّذى يمتدّ إلى يوم البعث و النشور.

فرساله هذا شأنها تفرض على كلّ جيل أن يحافظ على كلّ ما يمت إليها بلا تحوير و لا تخريب ليكون الطريق و ضاءً للأجيال القادمه، و لكى لا تنقطع صلّتهم بالماضى.

و لذا اهتم المسلمون منذ أربعه عشر قرناً بصيانته الآثار الإسلاميه، كمرقد النّبى صلى الله عليه و آله و سلم و مراقد آله و أصحابه، و المساجد الّتى صلوا فيها، و المصاحف الّتى خطّوها بأيديهم، و الآبار الّتى شربوا منها، و الألبسه و الأوانى الباقيه بعدهم، و كلّ ما يرتبط بهم.

و لكن -يا للأسف- استولى على هذه المعالم و الآثار رجال لا يعرفون البدعه و لا حدودها الصحيحه، فتصوّروا أنّ وجود هذه الآثار من البدع الّتى ينبغى مكافحتها، فراحوا يهدمون قبور الصحابه و أمّهات المؤمنين و آل البيت حتّى تركوها قاعاً صفصفاً، لا يعلم و لا يعرف قبر هذا من هذا.

و فى ظل هذه الرؤى الضيقيه هدم البيت الّذى تارّج بأنفاس السيده خديجه الكبرى أمّ المؤمنين و حبيبه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و سطع بمولد الزهراء عليها السلام فيه، البيت الّذى

كان مهبط الوحي الأوّل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من ربّ العزه و الجلال.

و قد كان هذا البيت وراء المروه و قد تبدّل الآن إلى ما ترى، فأين الخوف من الله تعالى؟!

و قد كانت البقعه الشريفه الّتي ولد فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم باقيه إلى أعصارنا، فهدمت و جعلت سوقاً للبهائم، إلى أن وفق الله رجلاً من الصالحين فحوّلها بطريقه ذكيه إلى مكتبه، و هي مكتبه مكه المكرمه الرائجه، قريباً من فندق الرواسى.

إنّ صيانه الآثار أمر نابع من حب النبي و هو السبب للإبقاء عليها و صيانتها و ترميمها.

و العجب أنّ المعاول تهدم آثار نبي التوحيد و الداعى إليه و تقضى عليها باسم التوحيد!!

ما ذا يريدون من التوحيد؟ هل يريدون التوحيد فى العباده؟ فالمسلمون جميعاً يعبدون الله وحده لا غيره. و هل صيانه آثار النبي - حباً له - عباده للآثار؟ لا أدرى و لا المنجم يدرى!!

المقوّم الثالث: الإشاعه و الدعوه

اقتصر المحقّقون فى تفسير البدعه على العنصرين السابقين:

١. التدخّل فى الدين بالزياده و النقيصه.

٢. عدم وجود رصيد لها فى الدين.

و لم يذكروا العنصر الثالث، و هو دعوه الناس إلى البدعه و إشاعتها بين الناس.

إنّ قيام شخص بإضافه شيء إلى الدين أو حذف شيء منه دون أن يكون له

دعوه إليهما يعدّ عملاً محرماً، ولا يوصف بالبدعه إلا بعد دعوه الناس إلى العقيدة و الفكره الخاطئه التي يحملها.

و هذا هو الظاهر من بعض الروايات.

روى مسلم عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه، و من دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً». (١)

و يدلّ على ذلك أيضاً قول القائل يوم القيامة مخاطباً النبي صلى الله عليه و آله و سلم عند الحوض:

«أنهم قد بدلوا بعدك» (٢) فإنّ تبديل الدين ليس عملاً قائماً بالشخص، بل عمل قائم به و بمن حوله.

و قد كان الإمام السيد الخميني قدس سره يركّز على هذا القيد، و يرى أنّ البدعه وراء العنصرين السابقين تمتلك هذا العنصر أيضاً، و لولاه لما صدق عليها عنوان البدعه و إن كانت تعدّ أمراً محرماً.

ص: ٤٤٤

١-١. صحيح مسلم: ٦٢/٨، كتاب العلم.

٢-٢. صحيح مسلم: ١٥٠/١، كتاب الطهاره.

هل كانت ثمّة سنّة، وراء سنّة النبي؟

يظهر من بعض الروايات و كلمات بعض أهل السنّة أنّ هناك سنّة وراء سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و هي حجّة كسنّته.

و استدّلوا على ذلك بما رواه العرياض بن ساريه قال: صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الفجر، ثمّ وعظنا موعظه بليغه ذرفت منها العيون، و جلّت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظه مودّع فأوصنا، فقال:

أوصيكم بتقوى الله و السمع و الطاعة و إن كان عبداً حبشياً، فإنّه من يعش منكم بعدى فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي و سنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ. (١)

و هذه الروايه تدلّ على أنّ للخلفاء سنّة كسنّته النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و سنّتهم حجّة كسنّته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ص: ٤٤٥

١ - ١). سنن الترمذى: ٣٤٠/٥، كتاب العلم، الباب السادس عشر، الحديث ٢٦٧٦؛ سنن أبي داود: ٢٠٠/٤، باب لزوم السنه، الحديث ٤٦٠٧، [١] إلى غير ذلك من المصادر.

روى السيوطى: قال حاجب بن خليفه شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب و هو خليفه، فقال فى خطبته: ألا و إن ما سنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و صاحباة فهو دين نأخذ به و ننتهى إليه و ما سنّ سواهما فإننا نرجئه. (١)

و يظهر من الذهبى: قبوله للحديث إذ قال: السنّه ما سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الخلفاء الراشدون من بعده. (٢)

يقول مؤلّف كتاب «السنه قبل التدوين»: تطلق السنه أحياناً على ما عمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و إن لم يكن فى القرآن و فى المأثور عنه صلى الله عليه و آله و سلم، و قد كان يفرق بعض المحدثين فيرى الحديث هو ما ينقل عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و السنّه ما كان عليه العمل المأثور فى الصدر الأوّل. (٣)

نرى هناك اختلافاً بارزاً بين حديث العرباض و ما ذكره عمر بن عبد العزيز، فالأوّل يوسّع الموضوع و يضيف الحجية على عامّه الخلفاء الراشدين، لكن الخليفه الأموى يخصّ الحجية بالشيخين و يرجئ سنن الصهرين، كما أنّ مؤلّف التدوين يفرط و يطلقها على عمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من دون استثناء.

و لكن الجميع سراب لا ماء.

و الأصل فى ذلك هو روايه العرباض بن ساريه، و هى مخدوشه سنداً و مضموناً.

أمّا الأوّل: فإنّ أسانيد الحديث تصل إليه و كلّها أسانيد غير نقيه. يعلم بالرجوع إلى الأسانيد التى روى الحديث بها.

ص: ٤٤٤

١- ١. تاريخ الخلفاء: ١٦٠؛ [١] كنز العمال: ٣٣٢/١.

٢- ٢. سير أعلام النبلاء: ١١٦/٧.

٣- ٣. السنه قبل التدوين: ٨.

و لو افترضنا صحّحه الأساسيد فإنّ الجميع ينتهي إلى شخص واحد فلا يتجاوز الحديث عن كونه خبراً واحداً، و الخبر الواحد لا يحتج به في الأصول، و إن كان يحتج به في الأحكام، و ذلك لأنّ إضفاء الحجّيه على سنن الخلفاء الراشدين مسأله أصوليه، و لا يقبل فيها إلاّ الدليل القطعي.

نعم دلّت الأدلّه القطعيه على حجّيه خبر الواحد في الأحكام الفرعيه العمليه، و أمّا العقائد أو المسائل الأصوليه فلا يحتج فيها بخبر الواحد. و أساسيد الحديث مهما كثرت فهي تصل إلى شخص واحد.

هذا ما يرجع إلى السند.

نظره إلى مضمون الروايه:

و أمّا المضمون فهو مردود من وجوه:

١. إنّ العمل بمضمونه مستحيل، لاختلاف سيره الخلفاء، و كيف يمكن أن يتعبّدنا الشارع بالمتناقضات من سيرتهم.

فهذا هو أبو بكر قد ساوى في توزيع الأموال الخراجيه، و خالفه عمر حيث فزق فيها، و كان أبو بكر يرى طلاق الثلاث واحداً، و رآه عمر ثلاثاً.

و أمّا الاختلاف بين سيره الشيخين و عثمان فواضح جداً حتّى أنّ اختلافه معهما قد أودى بحياته، حيث أثار حفيظه المسلمين على خلافته فقتل في عقر داره.

كما أنّ اختلاف سيره على عليه السلام مع عثمان، بل مع الجميع واضح لمن استقرأ التاريخ، فكيف يمكن للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يتعبّدنا بالعمل بالمتناقضات؟

و ممّا يؤكّد ذلك أنّ عبد الرحمن بن عوف لمّا بايع علياً بشرط العمل بالكتاب

و السنّه و سيره الشيخين، رفض على عليه السلام بيعته، وقال: «أعمل بكتاب الله و سنّه نيّه».

٢. إنّ من مراتب التوحيد، التوحيد فى التشريع و التقنين، فهما حقّ لله تبارك و تعالى لا يشاركه فيه أحد، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحكم أنّه معصوم يحكى بقوله و فعله و تقريره، تشريعه سبحانه تبارك و تعالى و ليس لأحد أن يشرع حكماً لقوله سبحانه: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ». ١

و المراد من الحكم، هو الحكم التشريعى لا التكوينى؛ بقريته قوله: «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ».

فما أشبه قول من أثبت حقّ التشريع لغيره سبحانه تبارك و تعالى، بما عليه أهل الكتاب، كما حكاه سبحانه بقوله: «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَ زُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ». ٢

روى السيوطى فى «الدر المنثور» عن عدّه من المحدثين منهم البيهقى فى سننه عن عدى بن حاتم قال: أتيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو يقرأ فى سورة براه «اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَ زُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم و لكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. (١)

و ثمه كلمه قيمه للشوكانى (و قد وقف على خطوره الموقف و أنّ إثبات السنّه لغير النبى قول بنوتهم) جاء فيها: و الحقّ أنّه - رأى الصحابى - ليس بحجه، فإنّ الله لم يبعث إلى هذه الأُمّه إلاّ نبيناً محمداً صلى الله عليه و آله و سلم، و ليس لنا إلاّ رسول واحد و كتاب واحد، و جميع الأُمّه مأموره باتّباع كتابه و سنّه نيّه، و لا فرق بين الصحابه و من

ص: ٤٤٨

بعدهم في ذلك، فكُلُّهم مكلفون بالتكاليف الشرعية وبتأبَع الكتاب و السنَّة، فمن قال: إنَّها تقوم الحجَّة في دين الله عز و جلّ بغير كتاب الله تعالى و سنَّة رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و ما يرجع إليها، فقد قال في دين الله بما لا يثبت. (١)

٣. كيف تكون سنَّة الخلفاء سنَّة شرعية إلهية يجب العمل بها مع أنّ الخلفاء لم يكونوا يرون لأنفسهم هذا المقام، و هذا هو عمر بن الخطاب كان يقول:

إنِّي لعلِّي أنهماكم عن أشياء تصلح لكم، و آمركم بأشياء لا تصلح لكم. (٢)

و من الكلمات الرائجة المنقولة عن أبي بكر: أقول فيها برأى فإن أصبت فمن الله، و إن أخطأت فمَنى أو من الشيطان. (٣)

فالرأى الذي يتردّد بين كونه من الله أو من الشيطان هل يمكن أن يكون سنَّة شرعية يجب على الأجيال اتّباعها و العمل بها؟! لا والله.

٤. اتَّفَق أهل السنَّة عن بكره أبيهم أنّ منصب الخلافة منصب انتخابي، و أنّ المهاجرين و الأنصار أو أهل الحل و العقد أو غيرهم يختارون خليفه الإسلام و قائد المسلمين و ان ليس هناك أيّ تنصيب من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم على خليفته، و لكنّ الحديث يشير إلى أنّ للرسول خلفاء راشدين، و أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم تتبأ بهم، خاصّه إذا فسرنا قوله بالخلفاء الأربعة، لغايه إخراج سائر الخلفاء:

الأمويين و العباسيين.

فالتصريح من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم باقتفاء سنَّة الخلفاء الراشدين، هو نوع تعيين للخليفه بعده و تنبأ عنه لهم بالرشد، و هو على النقيض ممّا أطبق عليه أهل السنَّة من عدم وجود نصّ من النبي صلى الله عليه و آله و سلم في أمر الخلافة لا تصريحاً و لا إيماءً و إشاره، و إنّما خوّل الأمر إلى الأمّة.

ص: ٤٤٩

١-١. إرشاد الفحول: ٢١٤.

٢-٢. تاريخ بغداد: ٨١/١٤. [١]

٣-٣. سنن الدارمي: ٣٦٦/٢، باب الكلاله؛ [٢] سنن البيهقي: ٢٢٣/٦.

البدعه فى تحديد البدعه

قد تعرفت على أنّ البدعه هو التدخّل فى أمر العقيده و الشريعه بزياده شىء عليهما أو نقيصته منهما. و المرجع فى التعرف عليهما على الوجه الصحيح هو المصادر القطعيه التاليه:

١. كتاب الله المنزل الذى هو تبيان لكلّ شىء، كما قال سبحانه: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَمِّناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ». ١

٢. السنّه الشريفه التى رواها الثقات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى الأحكام الفرعيه، و السنّه المتواتره فى مجال العقائد و المعارف.

٣. ما أجمع عليه المسلمون فى عامّه الأعصار.

٤. العقل الحصيف الذى به عرفنا الله سبحانه و صفاته و أفعاله.

و هناك من يرى أنّ ثمّه مرجعاً آخر تُحدّد به البدعه، و هو القرون الثلاثه الأولى، فما حدث فيها فهو سنّه و ما حدث بعدها فهو بدعه، فتكون تلك القرون ملاكاً لتمييز البدعه عن السنّه.

ص: ٤٥٠

و على هذا درج محمد بن عبد الوهاب و قال: إن البدعه-هى ما حدثت بعد القرون الثلاثة-مذمومه مطلقاً خلافاً لمن قال: حسنه و قبيحه، و لمن قسمها خمسه أقسام إلا أن أمكن الجمع بأن يقال: الحسنه ما عليها السلف الصالح شامله للواجبه و المندوبه و المباحه و تكون تسميتها بدعه مجازاً، و القبيحه ما عدا ذلك شامله للمحرمه و المكروهه فلا بأس بهذا الجمع. (١)

و قد ورث هذه الفكره كثير ممن يؤمن بمنهج ابن عبد الوهاب، و منهم عبد الله بن سليمان بن بليهد الذى قام باستفتاء علماء المدينه بشأن تخريب قباب الصحابه و أئمه أهل البيت فى بقيق الغرقه عام ١٣٤٤هـ و جاء فى مقاله:

لم نسمع فى خير القرون أن هذه البدعه-البناء على القبور-حدثت فيها بل بعد القرون الخمسه. (٢)

و لعل الأستاذ و التلميذ و كل من اقتفى منهج الأستاذ، استندوا فى هذه الضابطه إلى ما رواه البخارى قال: سمعت عمران بن الحصين يقول: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم-قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثه-ثم إن بعدكم قوماً يشهدون و لا يستشهدون، يخونون و لا يؤتمنون، و يندرون و لا يفون، و يظهر فيهم السمن.

و روى أيضاً عن عبد الله بن عمر أن النبى قال: خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، و يمينه شهادته. (٣)

ص: ٤٥١

١-١. الهديه السنيه، الرساله الثانيه: ٥١.

٢-٢. كشف الارتباب، [١] للسيد الأمين العاملى: ٣٥٧/١-٣٥٨.

٣-٣. فتح البارى فى شرح صحيح البخارى لابن حجر: ٦/٧، باب فضائل أصحاب النبى، شرح صحيح مسلم للنووى: ٨٤/٨-٨٥.

نحن لا- نناقش سند الحديث، لأنه مروى في صحيح البخارى و مسلم و هما فوق أن يناقشا على زعم القوم، إنما الكلام فى مضمونه حيث إنه على فرض الصحه لا يثبت ما رامه القائل من نزاهه القرون الثلاثه الأولى عن وجود البدعه و التحريف. و ذلك لأن القرن فى اللغة بمعنى النسل. (١) و فى هذا المعنى استعمله الذكر الحكيم فقال سبحانه: «فَأَهْلَكُنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ» ٢.

فإذا كان القرن بمعنى النسل، فلنرجع إلى تفسير الحديث، المروى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: خير أمتى قرنى.

ثم الذين يلونهم.

ثم الذين يلونهم.

على ضوء تفسير القرن بالنسل يكون المراد من قوله «قرنى» هو النسل الحاضر و المعاصر للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المنقرض برحيله، أو بعده بشىء.

و يكون المراد من قوله:

«ثم الذين يلونهم» هو النسل الثانى بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، كما يكون المراد من قوله صلى الله عليه و آله و سلم:

«ثم الذين يلونهم» هو النسل الثالث بعد مضى سبعين سنة-مثلاً-من النسل الثانى.

فإذا افترضنا ان كل نسل عاش سبعين سنة، فإن الاستدلال بالروايه لا يصح إذن لتتزيه من عاش بعد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأكثر من (١٤٠) سنة.

فأين ذلك من صيانته من عاش خلال الثلاثمائه سنة التى أعقبت رحله الرسول صلى الله عليه و آله و سلم؟!

ص: ٤٥٢

هذا، وقد اختلف شراح الحديث في تفسير الرواية على أقوال، لم يسعف أى واحد منها ما يتبناه الكاتب من رأى في هذا الموضوع.

قال بعضهم: إنَّ المراد من القرن في قوله «قرنى» هو أصحابه، و من «الذين يلونهم» أبناؤهم، و من الثالث أبناء أبنائهم.

و قال آخر: إنَّه قرنه ما بقيت عين رآته صلى الله عليه و آله و سلم، و من الثانى ما بقيت عين رأت من رآه، ثم كذلك.

و ذهب ثالث إلى: أنَّ قرنه: الصحابه، و القرن الثانى: التابعون، و الثالث: تابعو التابعين.

كل ذلك تخمينات و انطباعات شخصيه ليس عليها دليل، و على تقدير صحتها لا ينطبق شىء منها على ما يتبناه الكاتب الذى يريد إضفاء الصيانه و العصمه على أبناء ثلاثه قرون أى ٣٠٠ سنه.

و لأجل عدم انطباقه على ثلاثمائه سنه، قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح:

و فى هذا الوقت (٥٢٢٠هـ) ظهرت البدع فاشيه، و أطلقت المعتزله ألسنتها، و رفعت الفلاسفه رءوسها، و امتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، و تغيرت الأحوال تغيراً شديداً، و لم يزل الأمر فى نقص إلى الآن. (١)

و لا عتب على ابن حجر، لأنَّه محدث و ليس له باع فى تاريخ العقائد أو فى حقل الملل و النحل، فالبدع التى ادعاها قد ظهرت فى نفس القرن الأول و ليس فى القرون المتأخره عنه.

فقد ظهرت فكره الإرجاء بمعنى تقديم الإيمان و تأخير العمل فى أواخر

القرن الأول، كما ظهر الاعتزال في أوائل القرن الثاني و قبل وفاه الحسن البصرى (١١١هـ) بقليل. (١)

خير القرون: ما ساد فيها الصلح و الصفاء

ما ذا يريد القائل من قوله: «خير القرون قرنى...»؟ فإنَّ خير القرون ما ساد فيه الصلح بين أفراد المجتمع، فهل كان الأمر كذلك؟
كلّاً، ولا، بشهاده أنّ المجتمع الإسلامى كان مسرحاً لحروب طاحنه.

ففى أى يوم ساد الصلح؟

أ يوم معركة الجمل (عام ٣٦هـ) التى قُتل فيها الآلاف من الطرفين بين صحابى و تابعى، و ما أسفر عن ذلك من ترميل النساء و أيتام الأطفال و حدوث الأزمه و الشده؟

أم يوم صفين (عام ٣٧هـ) الذى نازع فيه معاويه الإمام علياً عليه السلام الذى بايعه المهاجرون و الأنصار، بيعه لم ير لها نظير فى التاريخ، و ما تبع ذلك من صدام مسلح بين الطائفتين أريقت فيه دماء عشرات الألوف إلى أن انتهى بالتحكيم؟

أم يوم ظهور الخوارج (عام ٣٨هـ) على الساحة الإسلاميه يُغيرون و يقتلون الأبرياء، إلى أن انتهت فتنهم بقتل مشايخهم فى النهروان؟

و إن يُنسَى شىء فلا- يُنسَى ذلك اليوم الذى أُغير فيه على آل رسول الله بكرىلاء عام (٦١هـ) و قتل فيه أبناء المصطفى و فيهم سبطه و ريحانته سيد شباب أهل الجنه، و سُبيت بنات الزهراء و من معهنّ من نساء أهل البيت حتّى لم يبق بيت

ص: ٤٥٤

١- ١). لاحظ بحوث فى الملل و النحل: ج ٢، [١] فصول الإرجاء و الاعتزال و المناهج الرجعيه.

له برسول الله صلّه إلّا و قد ضجّت فيه النوائح و عمّته الآلام و الأحزان.

و إن شئت فاستمع للتاريخ يحدّثك عن وقعه الحرّه (سنه ٥٦٢هـ) التي أبيضت فيها مدينه رسول الله، و قتل فيها أصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و التابعون، و نهبت الأموال، و بقرت بطون الحوامل، و هتكت الأعراض، حتى ولدت الأبقار لا يعرف من أولدهنّ. (١)

و اقرأ ما حدث في (سنه ٥٦٤هـ) حيث حاصر جيش بني أميه مكّه المكرمه و البيت العتيق و رموه بالحجاره، لأجل القضاء على عبد الله بن الزبير.

و ما جرى في (سنه ٥٦٥هـ) فقد تسلّم فيها عبد الملك بن مروان منصفه الخلافه و عين الحجاج بن يوسف عاملاً على العراق، فأقدم هذا الطاغيه على سفك الدماء الطاهره و زج الأبرياء من الرجال و النساء في السجون من دون أن تظلمهم مظله تقيهم حرّ الشمس و برد الليل القارص.

هذه الحوادث الدمويه التي ذكرناها لك (و أعرضنا عن غيرها للاختصار) قد وقعت في القرن الأوّل، فكيف يعتبر ذلك القرن خير القرون و أفضلها و إن كان صاحب القرن هو الرسول الأعظم أفضل الخلق؟! و أين سيرته، من سيره أمته التي وقفت على صورته مجمله من سيرتها الدمويه. (٢)

خير القرون لأجل تمسك أهلها بالدين

و لعلّ بين المحدّثين من يفسّر الخيره، بكون أهلها متمسكين بأهداب

ص: ٤٥٥

١- ١). راجع منهج في الانتماء المذهبي لصائب عبد الحميد: ٢٧٧.

٢- ٢). للوقوف على هذه الحوادث المرّه، لاحظ: تاريخ الطبري، و تاريخ اليعقوبي، و مروج الذهب للمسعودي، و تاريخ الكامل للجزري، و الإمامه و السياسه لابن قتيبه و غيرها من المصادر.

الشرعيه، لا يختلفون عنها قيد شعره، بخلاف القرون التاليه، فقد شاع فيها الارتداد، و الفساد.

و هذا النوع من التفسير، لا يصدق التاريخ الصحيح، و إن كنت في ريب فأقرأ - في صفحات التاريخ- ما حدث بعد رحيل النبي في نفس عام الرحله، فإن كثيراً ممن رأى النبي الأكرم و أدركه و سمع حديثه أصبح يمتنع عن أداء الزكاه، بل أصبح البعض مرتدّاً عن دين الإسلام لو لا أنّ الخليفه الأول قام بقمعهم و ردّ عاديتهم.

لا ندرى هل نصدق هذا الحديث أم نؤمن بما حدّث به القرآن الكريم، حيث يعرف قوماً بأنهم أفضل و أعرف بمبادئ الإسلام ممن كان في حضره النبي من الصحابه الكرام، يقول سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» ١ قل لي من هؤلاء الذين يعتزّ الله بهم سبحانه و يفضلهم على أصحاب النبي؟ فلاحظ التفاسير. (١)

لا ندرى هل نؤمن بهذا الحديث الذي رواه الشيخان، أم نؤمن بما رواه هما أيضاً في باب آخر، قالوا: قال رسول الله: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلّثون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أديبارهم القهقري». (٢)

ص: ٤٥٦

١- ٢). الرازي: مفاتيح الغيب: ٣/٤٢٧؛ [١] تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري: ٦/١٦٥. [٢]

٢- ٣). جامع الأصول: ١١/١٢٠ برقم ٧٩٧٣.

التراعى بالابتداع

إن القرآن الكريم يأمر المسلمين بالاعتصام بحبل الله المتين و يقول:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا». ١

وقد استخدم الذكر الحكيم لفظ «الحبل» فى الآيه الآنفه الذكر و لم يستعمل لفظ الدين أو ما يرادفه، و ذلك لأن فى استخدام «الحبل» نكته بديعه و هى أن الأمة المتفرقه المختلفه، كالساقط فى البئر لا يتم إنقاذه إلا بإرسال الحبل إليه ليتمسك به و يخرج من البئر سالمًا.

فالأمة الإسلاميه إذا ما انضوت تحت لواء الوحده فى الفكر و العقيده و العمل أتيحت لها القوه و غمرتها السعاده، و أما إذا تفرقت و تنافرت، فإنها ستصبح كحال المتردى فى البئر، المشرف على الهلاك.

ارتحل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و ترك شريعته ناصعه و طريقاً مهيباً لا يضل فيه سالكه. بيد أن الأحداث التى جرت بعده شنت وحده المسلمين و جعلتهم

طوائف و فئات يكيّل بعضها لبعض تُهمّ الابتداع و التكفير و التفسيق.

و هذا داء عضال ينخر في جسم الأُمَّة الإسلاميّة إلى يومنا هذا و لا يعالج إلّا بسعى رؤساء الطوائف الإسلاميّة لتوحيد الكلمه و الأخذ بالمشتركات و الإغماض عمّا يفرّق و يشتت، و هذا هو واجب المسلمين و وظيفتهم أمام التيارات الإلحادية القادمه من الغرب، لأجل نشر التحلّل الدينيّ.

و لا أظنّ أنّ من له ميسيس معرفه بالأوضاع العالميّة أن يتصوّر غير ذلك، و يسلك مسلكاً مغايراً.

و لهذه الغايه قام نخبه من فطاحل علماء الفريقين بتأسيس دار باسم «دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة» لأجل تقريب الخطى و توطيد الأخوه الإسلاميّة، و في طليعه من ساهم في تعزيز الإخاء و ترسيخ الوفاق: الشيخ الوفاق: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، و السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، و الشيخ محمد جواد مغنیه (من علماء الشيعة)، و الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر، و الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، و الشيخ محمد المدني (من علماء السنّة)، و غيرهم من الأفاضل الأفاضل الذين كانت تنبض قلوبهم بتوحيد الكلمه و لمّ الشعث.

و لكنّ الذي يثير العجب أن تظهر في غضون تاريخ الأُمَّة -طائفه توزّع تهمة الابتداع على عامه الفرق الإسلاميّة دون أن تحاسب كلّ فرقه بخصوصها.

فهذا هو ابن تيميه (٦٦٢-٧٢٨هـ) يتكلّم في مسأله كلام الله سبحانه فيقول:

و من تدبّر هذا الباب وجد أهل البدع و الضلال لا يستطيلون على فريق منتسبين إلى السنّة و الهدى، إلّا بما دخلوا فيه من نوع بدعه أُخرى، و ضلال آخر، لا سيما إذا وافقوهم على ذلك، فيحتجون عليهم بما وافقوهم عليه من ذلك، و يطلبون لوازمه حتّى يُخرجوهم من الدين إن استطاعوا خروج الشعره من

العجيين، كما فعلت القرامطة الباطنية، والفلاسفة، و أمثالهم بفريق فريق من طوائف المسلمين.

و المعتزله استطالوا على الأشعريه و نحوهم من المثبتين للصفات و القدر، بما وافقوهم عليه من نفى الأفعال القائمه بالله تعالى، فنقضوا بذلك أصلهم العذى استدلوا به عليهم، من أنّ كلام الله غير مخلوق، و أنّ الكلام و غيره من الأمور إذا خلق (١) بمحل عاد حكمه على ذلك المحل، و استطالوا عليهم بذلك فى مسأله القدر و اضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح، فعلاً لله رب العالمين دون العبد (٢) إلى آخر كلامه.

ترى أنه يهاجم فى كلامه هذا و فى غيره، عامه الفرق و يصفهم بالبدع و الضلال، مع أنّ أكثر الفرق الإسلاميه لم يفتروا فى الأصول التى أنيط بها الإيمان و الإسلام، كالتوحيد و الرساله الخاتمه و معاد يوم القيامه، و ما لله سبحانه من صفات الجمال و الجلال.

و المسائل التى شتت الأئمه الإسلاميه إلى طوائف، أكثرها يرجع إلى مسائل كلاميه و أمور نظريه لا تمس العقيداه الإسلاميه التى فرضت على الأئمه جمعاء.

فالاختلاف فى الفلكيات و الجواهر و الأعراض، و المسائل النظرية المعقده لا يعدّ اختلافاً فى الدين، و لا خروجاً عن الإيمان و الإسلام. و أكثر المسائل التى شتت المسلمين، هى مسائل فكرية كلاميه لا تمتّ بصلب الإيمان و العقيداه.

ص: ٤٥٩

١-١). كذا فى المطبوع و لعلّ الصحيح «حلّ».

٢-٢). مجموعاه الرسائل الكبرى لابن تيميه: ٣٦٥.

كلّما أطلق القدر-عند أهل الحديث و مؤرّخي العقائد-يراد به نفي القدر، و كلّما قيل:القدرية،يراد به نفاه القدر (1)و بالتالى القائلون بكون الإنسان حراً مختاراً فى فعله مسئولاً عن عمله،و الاختيار بهذا المعنى هو أساس الشرائع السماويه.فلولا أنّ الإنسان حرّ فى عمله لبطلت التكاليف و أُلغيت جهود علماء الترييه.

و مع ذلك فقد بلغ الجمود فى فهم الإسلام إلى حدّ عمّد فيه القدرية بهذا المعنى من الفرق المبتدعه،و القول بالقدر بالمعنى السابق بدعه،و هذا هو عمر بن عبد العزيز يرى أنّ الجبر نفس الإسلام و أنّ القول بالقدر ينافى إحاطه علمه سبحانه بأفعال العباد،و له رساله فى ذلك الصدد ذكرها أبو داود.

قال:كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؟ فكتب:أمّا بعد؛ أوصيك بتقوى الله،و الاقتصاد فى أمر اتّباع سنّه نبيه،و ترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت فيه سنته،و كُفُوا مئونه.فعليك بلزوم السنّه فإنّها لك ياذن الله عصمه...إلى أن قال:

ما أعلم ما أحدث الناس من محدثه و لا ما ابتدعوا من بدعه هى أبيضُ أثراً و لا أثبتُ أمراً من الإقرار بالقدر،لقد كان ذكره فى الجاهليه الجهلاء يتكلّمون به فى كلامهم و فى شعرهم،يُعزّون به أنفسهم على ما فاتهم،ثمّ لم يزد الإسلام بعدُ إلا شدّه،و لقد ذكره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى غير حديث و لا حديثين،و قد سمعه منه

ص: ٤٦٠

١- ١). أنّ استعمال القدرية بمعنى نفاه القدر،استعمال لا توافقه اللغه و لا قواعدها،إذ اللازم هو أن يراد به القائلون بالقضاء و القدر،لا نفاتهما،و ما اللفظه هذه إلا كالعدييه،فهى تستعمل فى القائلين بالعدل لا نفاته.

المسلمون فتكلموا به في حياته و بعد وفاته، يقيناً و تسليماً لربهم، و تضعيفاً لأنفسهم، أن يكون شيء لم يحط به علمه، و لم يحصه كتابه، و لم يمض فيه قدره.... (١)

إنّ تحذير الخليفة الأموي من القول بالقدر و رميه القائل به بالابتداع، نابع عن أمور:

أ. أنّه وليد البيت الأموي و إن كان يختلف مع أبناء هذا البيت في النزعه و السلوك، إلاّ أنّه يتأثر بآراء هذا البيت، فقد كان الأمويون على القول بالجبر و من مروّجى ذلك المنهج الذي يثبت دعائم عروشهم.

ب. تصوّر أنّ القول بالقدر يتنافى مع القول بإحاطه علمه تعالى بأفعال العباد، و لذلك كان يرمى القائل بالقدر بالابتداع.

ج. القول بالاختيار، ينافى القول بالقضاء و القدر، فتقديره سبحانه جار في الكون عامّه و في حياه الإنسان خاصه، و معه كيف لا يصحّ القول بالاختيار.

و هذه الأمور جرتّه إلى نفي القول بالقدر بمعنى الاختيار، لأنّه ينافى سبق علمه سبحانه تبارك و تعالى بأفعال العباد. و بما أنّ علمه تعالى لا يختلف فيكون الإنسان مجبوراً في سلوكه و حياته.

و لكن عزب عن المسكين أنّه سبحانه كما أنّه عالم بصدور فعل من عبده عالم أيضاً بكيفية صدوره و المبادئ التي تؤثر في صدوره منه، و من تلك المبادئ حريه الإنسان و اختياره، و على ضوء ذلك يعلم سبحانه في الأزل أنّ فلاناً يقوم بهذا الفعل في ظروف خاصه مختاراً.

ص: ٤٤١

١- ١). سنن أبي داود: ٢٠٣/٤، الرقم ٤٦١٢. و [١] نقله أبو نعيم في حليه الأولياء: ٣٤٦/٥.

إن احتكاك المسلمين العرب بأُمم و شعوب البلدان المفتوحه، صار سبباً لانتقال كثير من الشبه و الأفكار غير الصحيحه إلى أوساط المسلمين، ممّا دعا لقيفاً من كبار علماء الإسلام إلى الذبّ عن العقيدة و الشريعة و الدفاع عنهما دفاعاً علمياً معتمداً على المنطق و البرهان.

و لما لم يَرُق ذلك لبعض المحدثين و حُكّام العصر عادوا يرمون المتكلمين بالابتداع، و الذائين عن حياض الشريعة بالخروج عن الكتاب و السنّه.

فالعجب كلّ العجب لهذا التهجم الغريب! و هل دعا الكتاب و السنّه إلا إلى التمسك بالدليل و البرهان؟ أ لم يقل سبحانه: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»؟ ١

لقد أقام بعض أهل الحديث القيامه على رءوس المتكلمين الذين كرسوا جهودهم للدفاع عن الدين، و لأجل ذلك كتب الإمام الأشعري رساله مبسوطه حول علم الكلام أثبت فيها أنّه ليس ببدعه. (١)

إنّ تكفير الطوائف الإسلاميه و رميهم بالابتداع عدول عمياً عليه أئمه الفقه، كأبى حنيفه و الشافعي، و هذا هو ابن حزم يذكر رأيهم في ذلك فيقول:

ذهب طائفه إلى أنّه لا يكفر و لا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، و أنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحقّ، فإنّه مأجور على كلّ حال، إن أصاب الحقّ فأجران، و إن أخطأ فأجر واحد.

ص: ٤٦٢

إلى أن يقول: وهذا قول ابن أبي ليلى، وأبي حنيفة و الشافعي و سفيان الثوري، و داود بن علي رضي الله عنهم أجمعين، و هو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابه رضي الله عنهم، لا نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلاً. (١)

نعم نحن لا- نوافق ابن حزم فيما ذكره بشكل مطلق، ذلك أنّ من خالف في شيء يعدّ من ضرورات الكتاب و السنّه يجب أن يُفسّق أو يكفر، و مثال ذلك أنّ الأئمّه أجمعت على حبّ عليّ و أهل بيته، و كيفيك في ذلك ما روته طائفه من الصحابه أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن، و لا يبغضك إلا منافق».

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «من أحبّ علياً فقد أحبّني، و من أبغض علياً فقد أبغضني، و من آذى علياً فقد آذاني، و من آذاني فقد آذى الله». (٢)

فإذا كان حبّ علي عليه السلام بهذه المنزله و هذه الدرجه من الوضوح، فلا- ريب في أنّ من يخالفه إنّما يخالف ما ثبت بالضروره من الدين.

نعم نوافقه في أكثر ما أفاده من أنّ الخلاف في المسائل العلميه النظرية التي لم يثبت أنّ أحد الرأيين فيها من ضروريات الدين لا يوجب التكفير و التفسيق ما لم يهدم أحد الأصول الثلاثة.

و قد ذهب ضحيّه هذا التطرف أبو سهل محمد بن هبه الله العالم الكبير المعروف بأبي سهل (٢٢٣-٤٥٦هـ) و إليك ما قاله بهذا الشأن عند ترجمه السبكي له في طبقاته:

أنّه لما بلغ من سُموم المقام أرسل إليه السلطان الخلع، و ظهر له القبول عند

ص: ٤٤٣

١- ١). الفِصل، لابن حزم: ٢٤٧/٣.

٢- ٢). الاستيعاب: ٢٠٤/٣. ط دار [١] الكتاب العلميه بيروت، ط ١، عام ١٤١٥هـ.

الخاصّ و العام حتّى حسده الأكاير و خاصموه، فكان يخصمهم و يتسلّط عليهم.فيدا له خصوم استظهروا بالسلطان عليه و على أصحابه.و صارت الأشعريّه مقصودين بالإهانه و المنع عن الوعظ و التدريس،و عُزِلوا من خطابه المجمع.و نبغ من الحنفية طائفه أشربوا في قلوبهم الاعتزال و التشيع، فخيّلوا إلى أولى الأمر الإزراء بمذهب الشافعي عموماً،و بالأشعريّه خصوصاً.

و هذه هي الفتنه التي طار شررها،و طال ضررها،و عظم خطبها،و قام في سبّ أهل السنّه خطيبها،فإنّ هذا الأمر أدى إلى التصريح بلعن أهل السنّه في الجُمع،و توظيف سبّهم على المنابر،و صار لأبي الحسن الأشعري بها أسوه بعليّ بن أبي طالب عليه السلام و استعلى أولئك في المجمع.

فقام أبو سهل في نصر السنّه قياماً مؤزراً،و تردّد إلى المعسكر في ذلك و لم يفد،و جاء الأمر من قبل السلطان (طغرل بك) بالقبض على الرئيس الفراتي، و الأستاذ أبي القاسم القشيري،و إمام الحرمين،و أبي سهل ابن الموفّق، و نفيهم و منعهم عن المحافل.

و كان أبو سهل غائباً في بعض النواحي،فلَمّا قرئ الكتاب بنفيهم أغرى بهم الغاغه و الأوباش،فأخذوا بالأستاذ أبي القاسم القشيري و الفراتي يجرّونهما و يستخفّون بهما،و حسبا بالقهنّذز (١)و بقيا في السجن متفرّقين أكثر من شهر، و أمّا إمام الحرمين فإنّه كان أحسّ بالأمر فاختمى و خرج على طريق كرمان إلى الحجاز...إلى آخر ما ذكره. (٢)

ص: ٤٦٤

-
- ١- ١). القهندر في الأصل اسم الحصن أو القلعه في وسط المدينة،و هو في مواضع كثيره،بسمرقند و بخارى و بلخ و مرو و نيسابور.معجم البلدان: ٢١٠/٤. [١]
- ٢- ٢). طبقات الشافعيه: ٢٠٩/٤- ٢١٠، ط دار إحياء الكتب العربيّه.

يُعدّ محمد بن على بن إسماعيل المعروف بالقفال الشاشى (٢٦١-٣٦٥هـ) من كبار شيوخ الشافعيه بما وراء النهر، و له مذاهب فى علم الأصول على وفق آراء المعتزله، نظير:

١. يجب العمل بالقياس عقلاً.

٢. يجب العمل بخبر الواحد فعلاً.

و مع أنّ القول بوجوب العمل بهما، لا يمتُّ إلى صميم الدين بصله، نرى أنّ السبكي ينقل عن أبى سهل الصُّعلوكى أنّه سئل عن تفسير الإمام أبى بكر القفال فقال «قدسه من وجه و دنسه من وجه أى دنسه من جهه نصره مذهب الاعتزال». (١)

و لعمر القارئ، أنّه يضاد أدب الإسلام و أدب القرآن الكريم فى الحوار مع المخالفين، ثمّ أى مساس بصميم الإسلام حتّى يصبح سبياً لدنس الرجل الذى أنفق عمره فى دراسه فقه الشافعى و أصوله، و كان فى من غزا الروم فى أهل خراسان مع سيف الدوله، و له قصيده غراء ردّ فيها على قصيده وردت من نَقفور (دُمستق الروم) فيها ضروب من الاتهامات و التهديد و الوعيد للمسلمين مستهلها: من الملك الطهر المسيحى رساله إلى قائم بالملك من آل هاشم

فأجاب الشيخ القفال الشاشى قائلاً: اتانى مقال لأمرى غير عالم بطرق مجارى القول عند التخاصم (٢)

ص: ٤٤٥

١-١. طبقات الشافعيه الكبرى: ٢٠١/٣. [١]

٢-٢. طبقات الشافعيه: ٢٠٩/٣.

كان العلماء العظام الأحرار على وجل من الغاغة والأوباش، حيث كانوا يتهمون العلماء الكبار بالفسق والكفر، و كان بعضهم يتأبط دائماً وثيقه أحد القضاة لإثبات صحه إيمانه.

و إن كنت فى شكّ من ذلك فاقراً ما ذكره ابن حجر فى «الدرر الكامنه» قال:

إنّ العالم الجليل الّذى هو زينه عصره، و تاج دهره، كان لا- يأمن على نفسه من الإفك عليه، هو السعايه به، فيما يكفّره و يحلّ دمه، حتّى صار يخشى على نفسه من أخذت منه السنّ، و أقعده الهرم، و أفلجته الشيخوخه، و لا- من راحم أو منصف، كما نقرأ ذلك فى ترجمه علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووى، و أنّه مع زمانته، و كونه صار حلس بيته، يتأبط دائماً وثيقه أحد القضاة بصحّته إيمانه و براءته من كلّ ما يكفّره. (1)

و لقد أريقت دماء محرّمه، و عدّبت أبرياء بالسجون و النفى و الإهانات باسم الدين، و روّعت شيوخ و شبّان أعواماً و سنين، حتّى عجّ لسان حالها بالدعاء إلى فاطر الأرض و السماوات، بكشف هذه الغمم و الظلمات.

التاريخ يعيد نفسه

لقد حفل التاريخ بدعوات التكفير و التضليل و إصاق التهم الجاهزه ببعض الفرق أو الأعلام، و قد استفحل هذا فى عصرنا و أصبح أشدّ ممّا كان عليه فى منتصف قرون الألف الأوّل من الهجره، فالمسلمون بعامتهم مضللون، إلّا من

ص: ٤٤٤

تبع نهج ابن تيميه أو محمد بن عبد الوهاب، لا تكاد عبارته الحديث الشريف: «كل بدعه ضلاله» تفارق ألسنتهم و أقلامهم، مشيرين بذلك إلى أنّ أعمالهم على وفق السنّه و لا تخالفها فى شىء.

إنّ الذكر الحكيم يذكر ما تركه آل موسى و آل هارون بالتقديس و أنّه كان بمنزله من الكرامه بحيث إنّ الملائكه تحمله و تنزله إلى بنى إسرائيل.

يقول سبحانه: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ». ١

و قد صرح المفسرون بأنّ ما تركاه لم يكن يتجاوز العصا و الألبسه.

هذا ما عليه الذكر الحكيم فى تكريم تركه الرجلين النبيين عليهما و على نبينا و على آله السلام.

و أمّا المتشدّدون فى العصر الحاضر، و خصوصاً من تحكّم منهم بالمدينه المنوره و مكه المكرمه، فبدل أن يذلوا الجهود لحفظ آثار الرساله و مآثر الصحابه و بيوت الآل، راحوا يضعون المعاول الهدامه فيها لتخريبها و إزالتها من الوجود، فيا لله و لسوء الأدب و سوء الفهم و سوء المنقلب.

ربما يحسب من تغره القشور: أنه قد مضى عصر التعصب بزئده و غثائه، و دارت على دولته الدوائر، و أنه يحكم الآن فى الساحة فقهاء أمناء على النفوس و الأعراض و الأموال ذوو طويات صالحه و نفسيات طيبه.

لكنه سرعان ما يرجع عن قضائه و حكمه إذا وقف على الفتاوى الصادره عن اللجنه الدائمه للبحوث العلميه و الإفتاء- فى المملكه العربيه السعوديه- التى كان يرأسها عبد العزيز بن عبد الله بن باز و ينوب عنه عبد الرزاق العفيفى و غيرهما من الأعضاء كعبد الله بن قعود و عبد الله بن غديان، و قد جمع فتاواهم أحمد بن عبد الرزاق الدرويش و نشرت فى مجلدات تناهز العشرين.

و فى الجزء الثامن عشر منها جاء السؤال التالى:

ما حكم الزواج من الراضه، و إن حصل و تم فما هو الحكم الآن؟

فكان الجواب: لا يجوز للسنى أن يتزوج من نساء الراضه، و إذا وقع النكاح و جب فسخه، لأن المعروف عنهم دعوه أهل البيت و الاستغاثه بهم و ذلك من الشرك الأكبر. (١)

ص: ٤٤٨

لقد ألحق المجبيون فرقه كبيره من المسلمين بمن يعبد الأوثان، و لكنهم فى الوقت نفسه جوزوا نكاح النصرانيه و اليهوديه، و إن كنت فى شك فاقراً جوابهم التالى:

يجوز للمسلم أن يتزوج الكتابيه نصرانيه أو يهوديه (إذا كانت محصنه) و الأصل فى ذلك قوله سبحانه: «و الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ». ١

و المحصنه هى الحره العفيفه، و أمّا قوله: «وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَيْتَى يُؤْمِنَنَّ» فالمراد بها المشركات الوثنيات دون الكتابيات، لأن آيه سوره المائده صريحه فى حل الكتابيات. (١)

أ رأيت مثل هذه الجراه على الله فى إصدار هذه الفتوى الجائره التى يكاد لعظمها تنزل الأرض و تسيخ الجبال الراسيات؟! أ رأيت كيف تبيح للمسلم نكاح اليهوديه التى تقول عزير ابن الله، و النصرانيه التى تقول المسيح ابن الله و أنّ الله ثالث ثلاثه و أنّ المسيح هو الإله، و لا تبيح له نكاح المسلمه المؤمنه التى تشهد الشهادتين و تصلّى إلى القبلة و تصوم شهر رمضان و تحج البيت و تحب أهل البيت حبا صادقا لا مريه فيه؟!!

و أمّا ما اتّخذته المجيب ذريعه لحكمه فهو أوهن من بيت العنكبوت، فإنّ دعوه أئمّه أهل البيت عليهم السلام إنّما تجرى على لسان الشيعى باعتبارهم عباداً صالحين لا آلهه يُعبدون من دون الله.

فهناك فرق بين دعاء إنسان بما أنه عبد لله سبحانه، محبوب عنده، مستجاب

ص: ٤٦٩

دعوته، و بين دعائه بما أنه إله، خالق، رازق، أو بيده الشفاعة و المغفرة.

فدعاء الشيعة من الضرب الأوّل و ليس من الثانى. و لو صار الأوّل ذريعه للتكفير يلزم تكفير الصحابه العدول. و إليك نماذج من توسلاتهم و دعواتهم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

١. توسّل الضير و دعاء النبي

أخرج الترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أنه قال: إن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: ادع الله أن يعافيني؟

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: إن شئت دعوت و إن شئت صبرت فهو خير لك؟

قال: فادعه، فأمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يتوضأ فيحسن وضوءه و يصلّى ركعتين و يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي لتتقضى اللهم شفّعه فيّ».

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرّقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضررٌ.

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. (١)

و قال ابن ماجه: هذا حديث صحيح. (٢)

و قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. (٣)

و رواه في موضع آخر بسندين آخرين و قال بعدهما: هذا حديث صحيح

ص: ٤٧٠

١-١. سنن الترمذى: ٢٢٩/٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٦٤٩.

٢-٢. سنن ابن ماجه: ١/٤٤١ برقم ١٣٨٥؛ و مسند أحمد: ٤/١٣٨. [١]

٣-٣. مستدرک الحاكم: ١/٣١٣.

و فى موضع ثالث قال: تابعه شبيب بن سعيد الحبطى عن روح بن الهاشم فى المتن و الاسناد- إلى أن قال:- هذا حديث صحيح على شرط البخارى و لم يخرجاه. (٢)

ترى أن الرجل الضير يدعو محمداً و يقول: يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى.

نعم إن الضير يدعو بما أنه نبي التوحيد و قائد الموحدين، و دعوته مستجابة، و أن له مقاماً و منزله عند الله.

و قد استمرت الدعوه بالنحو الموجود فى الروايه حتى بعد رحيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم. و إليك نزرأ منها:

٢. توسل و دعاء نان

روى الطبرانى عن أبى أمامه بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجه له، فكان عثمان لا يلتفت إليه و لا ينظر فى حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان ابن حنيف: ائت الميضاه فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إنى أسألك و أتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه و آله و سلم نبي الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فتقضى لى حاجتى» فتذكر حاجتك، و رُح حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسه، فقال:

ص: ٤٧١

١- ١. المستدرک: ٥١٩/١.

٢- ٢. المستدرک: ٥٢٦/١.

حاجتك؟ فذكر حاجته و قضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعه. و قال: ما كانت لك من حاجه فاذكرها.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي و لا يلتفت إليّ حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: و الله ما كلمته، و لكنني شهدت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أتاه ضريزاً فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد فقد شقّ عليّ.

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: ائت الميضاه فتوضّأ ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرّ قط. (١)

٣. بلال بن الحارث و دعاء النبي

هذا هو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علّمنا كيفية التوسّل و هذه سيره أصحابه صلى الله عليه و آله و سلم.

روى البيهقي و ابن أبي شييبه بإسناد صحيح: أنّ الناس أصابهم قحط في خلافه عمر، فجاء بلال بن الحارث—و كان من أصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم—إلى قبر النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في المنام و أخبره أنّهم يسقون.

و ليس الاستدلال برؤيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فإنّ رؤياه و إن كانت حقاً إلاّ أنّها لا تثبت بها الأحكام، لإمكان اشتباه الكلام على الرائي، لا لشكّ في الرؤيا. و إنّما

ص: ٤٧٢

١ - ١). المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (المتوفى ٥٣٦٠هـ): ١٦/٩ - ١٧، باب ما أُسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١٠؛ و المعجم الصغير له أيضاً: ١/١٨٣ - ١٨٤.

الاستدلال بفعل الصحابي و هو بلال بن الحارث،فإتيانه لقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و نداؤه له و طلبه منه أن يستسقى لأُمَّته دليل على أنّ ذلك جائز،و هو من باب دعائه و التوسّل و التشفّع و الاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم،و ذلك من أعظم القربات،و قد توّسل به صلى الله عليه وآله وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجود سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١)

٤.دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحضور الصحابه

روى ابن أبي شيبة باسناد صحيح من روايه أبي صالح السَّمَان عن مالك الدارى-و كان خازن عمر-قال:

أصاب الناس قحط في زمن عمر،فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم،فقال:يا رسول الله هلك الناس،استسقى لأُمَّتك،فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، [فقال:] ائت عمر فاقرئه منّي السلام،و أخبره أنّهم مسقون [مستقيون]،و قل له:

عليك الكيس! عليك الكيس!

قال:فأتى الرجل عمر فأخبره،فبكى عمر،و قال:يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه. (٢)

قال ابن حجر:رواه ابن أبي شيبة باسناد صحيح. (٣)

و قال ابن كثير:هذا اسناد صحيح. (٤)

و أضاف ابن حجر و قال:روى سيف بن عمر التميمي في «الفتوح الكبير»

ص:٤٧٣

١-١). دلائل النبوه:٤٧/٧،باب ما جاء في رؤيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام،و [١]نقله مفتى مكه زيني دحلان في الدرر السنيه:٩.

٢-٢). المصنف لابن أبي شيبة:٤٨٢/٧.و لاحظ طبقات ابن سعد:١٢/٥.

٣-٣). فتح البارى:٤١٢/٢،باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قُحطوا.

٤-٤). البدايه و النهايه في حوادث سنه ثمانى عشره.

أنّ الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابه. (١)

قلت: سواء أ كان السائل هو بلال بن الحارث أم غيره، فإنّ دعاء النبي من قبل الرجل لم يكن أمراً سرّياً، بل كان بمرأى و مسمع من مالك الداري.

و نصّ ابن حجر أنّ لمالك إدراكاً-لعصر النبي صلى الله عليه و آله و سلم-فهو صحابي صغير روى عنه أربعة من الثقات. و لو كان نداء النبي شركاً موجباً للخروج عن الدين لما خفى على خازن الخليفة، كونه شركاً و لنهاه عنه.

إنّ من هوان الدنيا على الله أن تكون العقيدة الشخصية مقياساً لصحّة الروايه و بطلانها، فهذا هو عبد العزيز بن باز-عفا الله عنا و عنه-لمّا رأى أنّ الروايه تخالف ما ورثه من ابن تيميه و ابن عبد الوهاب-و من أتى بعدهما-حول التوسّل بالنبي و دعائه، أخذ يناقش في صحّته الروايه فقال في تعليقه على فتح الباري: هذا الأثر على فرض صحّته-كما قال الشارح (يريد ابن حجر)- ليس بحجّه على جواز الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد وفاته لما ذا؟:

١. لأنّ السائل مجهول.

٢. و لأنّ عمل الصحابه رضى الله عنهم على خلافه، و هم أعلم الناس بالشرع.

٣. و لم يأت أحد منهم إلى قبره يسأله السقيا و لا-غيرها، بل عدل عمر عنه لئلا وقع الجذب إلى الاستسقاء بالعباس، و لم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابه، فعلم أنّ ذلك هو الحقّ و أنّ ما فعل هذا الرجل منكر و وسيله للشرك. (٢)

و لعمر الحق أنّ الرجل لو لم يكن متمسكاً بالعقيدة الموروثة، لما ردّ الروايه بما ذكر من الأمور الثلاثة الواهيه.

ص: ٤٧٤

١-١. فتح الباري: ٢/٤١٢.

٢-٢. فتح الباري: ٢/٤٩٥ قسم التعليقه.

أما الأول: من أن الرجل مجهول، فهذا لا يضر، لأن أساس الاستدلال هو دعاء النبي بمرأى و مسمع من مالك الدارى الصحابى الذى كان خازن عمر.

و أمّا الثانى: من أن عمل الصحابه كان على خلافه، و أنه لم يأت إلى قبره أحد يسأل السقيا، فموهون جداً، لأن من قال بمرجعيه الصحابه، فإنما قال بحجّيه أقوالهم و أفعالهم على الجواز و الإباحه، لا بحجّيه تروكهم على الحرمة و الشرك، فعدم قيام الصحابه بهذا الفعل لا يعدّ دليلاً على التحريم و لا على كونه شركاً و خروجاً عن الدين.

و أمّا الثالث: من أن عمر توّسل بالعباس عم النبي، لا به صلى الله عليه و آله و سلم فموهون أيضاً، لأنّ التوسّل بعم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، لا يكون دليلاً على بطلان التوسّل بالرسول.

على أن العارف إذا أمعن النظر فى قول عمر: «إنا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا»، يقف على أن التوسّل كان فى الحقيقه بالرسول، و أنّ التوسّل فى الظاهر بالعباس كان لأجل صلته بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

تلك -و الله شقشقه هدرت ثمّ قرّت- فإذا كان هذا هو الفقه و الفتوى، و هؤلاء هم الفقهاء المعنيون بحفظ الدين و صيانته أعراض المسلمين، فعلى الإسلام السلام و على الدنيا العفا.

و كأنّى بشاعر المعرّه شهد ما يشابه هذه الظروف القاسيه فجادت قريحته بالأبيات التاليه: إذا وصف الطائى بالبخل مادراً

أين فتاواهم و أقوالهم و أعمالهم ممّا نصّح به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أصحابه الكرام و أمرهم بالدعاء التالى فى حقّ الناكثين و القاسطين:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ، وَ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَ بَيْنَهُمْ، وَ اهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهَلَهُ، وَ يَزْعُمِ عَنِ الْغَيِّ وَ الْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ. (١)

ص: ٤٧٤

١-١). نهج البلاغه: الخطبه رقم ٢٠٦. [١]

يعدّ الاتّهام بالشرك و البدعه من الأمور التي كان يتردّد صداها باستمرار في الحرمين الشريفين، فلم يكد الوافد إلى حرم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يقف أمام الضريح الشريف، و يسلم على النبي و يقول: يا رسول الله اشفع لنا عند الله، حتّى تعلقو بوجهه صرخه شديده من أحد من يُسمون بالأميرين بالمعروف، متّهماً إياه بالشرك و البدعه!!

و إذا ما هوى زائر للثم الباب أو الضريح حباً و شوقاً للنبي و تبرّكاً بكلّ ما يتصل به، فيواجه بعنفٍ من أحد هؤلاء الغلاظ، فيصدّ و يُضرب، و ربّما يُهان و يُساق إلى مركز الشرطه للاستجواب و المحاكمه!!

و إذا حلّ مسافر في أحد الأماكن المقدّسه كجبل أحد أو غيره، لأجل المزيد من البصيره في الدين و تاريخه، فإنّ مكبرات الصوت تقرع سمعه بعبارات تصف هذا السفر بالشرك و البدعه!!

إلى غير ذلك من كلمات جوفاء تتهم عامّة المسلمين - باستثناء فرقه واحده - بالابتداع و الانحراف عن الصراط المستقيم.

و كان من نتيجة هذا النوع من التطرف في إصااق هذه التهم، أن ظهر في الساحة شباب متعصبون أوقفوا أنفسهم لمحاربه ما يتصورونه شركاً و بدعه.

و ممّا يبعث على الأسى و الأسف أنّ هؤلاء لم يدرسوا الكتاب و السنّه دراسه معمّقه، و إنّما اغتروا و اكتفوا بما أخذوه من أساتذتهم في الثانويات و الجامعات و ما يثيره خطباء المساجد في الجمع و صلاه الجماعه.

و لما جنت المجتمعات ثمار تلك الأفكار المتطرّفه قتلاً و إرهاباً و تخريباً و دماراً، شعر العديد من المفكرين و القاده بأنّ الطريق الّذى كانوا يسلكونه عبر سنين طريق غير سوى، لا- يُفضى إلّا إلى زعزعه كيان المسلمين و تبديد وحدتهم و جعلهم فريسه للآخرين.

و لأجل معالجه هذه الأوضاع المستغله بالحق و الكراهيه و التعصب، و التي أصابهم منها بعض شررها، راحوا يعظون الشباب في خطبهم و كلماتهم داعين إيّاهم إلى الرجوع إلى الطريق الوسطى قائلين بأنّ اليمين و الشمال مضلّه و أنّ الطريق الوسطى هي الجاده.

و من أمثله ذلك، البيان الّذى أصدرته هيئه كبار العلماء في المملكه العربيه السعوديه و أعدّه للنشر أحمد بن عبد العزيز بن محمد التويجى تحت عنوان «فتنه التكفير و خطرهما على مستقبل الأُمّه الإسلاميه»، و إليك نصّ المقدمه و مقاطع من البيان:

ص: ٤٧٨

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاه و السلام على نبينا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنّ التكفير شرّه عظيم، و خطره جسيم، و عواقبه وخيمه، و نهايته مؤلمه، و فواجعه لا تنتهى.

أخى القارئ الكريم: لا يسارع فى التكفير من كان عنده مُشِيكَةٌ من ورع و دين، أو شذره من علم و يقين، ذلك بأنّ التكفير و بيلُ العاقبه، بشع الثمره، تتصدعُ له القلوب المؤمنه، و تفرع منه النفوس المطمئنه. يقول العلامة الشوكانى فى (السييل الجرار: ٤/٥٨): و هاهنا تُسكب العبرات، و يُنّاح على الإسلام و أهله بما جناه التعصّب فى الدين على غالب المسلمين من الترامى بالكفر، لا لسُنّه، و لا لقرآن، و لا لبيان من الله، و لا لبرهان، بل لَمَا غلّتْ به مراحل العصبية فى الدين،

ص: ٤٧٩

و تمكن الشيطان الرجيم من تفريق كلمه المسلمين لَقَنَهُمْ، إلزَامَاتٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِمَا هُوَ شَبِيهُ الْهَبَاءِ فِي الْهَوَاءِ، وَ السَّرَابِ بَقِيْعِهِ، فِيَا لِلَّهِ وَ لِلْمُسْلِمِيْنَ مِنْ هَذِهِ الْفَاقِرَةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ فَوَاقِرِ الدِّيْنِ، وَ الرِّزِيَةِ الَّتِي مَا رَزَى بِمِثْلِهَا سَبِيْلَ الْمُؤْمِنِيْنَ....

وَ الْأَدْلَةَ الدَّلَالَةَ عَلَى وَجُوبِ صِيَانِهِ عَرْضَ الْمُسْلِمِ وَ احْتِرَامِهِ يَدُلُّ بِفَحْوَى الْخَطَابِ عَلَى تَجَنُّبِ الْقَدْحِ فِي دِيْنِهِ بِأَيِّ قَادِحٍ، فَكَيْفَ إِخْرَاجِهِ عَنِ الْمَلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الْمَلَّةِ الْكُفْرِيَّةِ، فَإِنَّ هَذِهِ جُنَايَهُ لَا تَعْدِلُهَا جُنَايَهُ، وَ جِرَآهُ لَا تَمَآثِلُهَا جِرَآهُ، وَ أَيْنَ هَذَا الْمَجْتَرَى عَلَى تَكْفِيرِ أَخِيهِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ:

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَ لَا يَسْلُمُهُ» وَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَ قِتَالُهُ كُفْرٌ»، وَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَ أَمْوَالَكُمْ وَ أَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

وَ الْأَحَادِيثُ الْخَاصَّةُ بِالْتَرَهيبِ الْعَظِيمِ مِنْ تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِيْنَ كَثِيرَةٌ نَذَرَ مِنْهَا عَلَى سَبِيْلِ الْمِثَالِ:

١. قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَ إِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ».

٢. وَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللَّهِ، وَ لَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا - حَارَ عَلَيْهِ». رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ).

٣. وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «لَا يَزِمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ، وَ لَا يَزِمِيهِ بِالْكَفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ».

٤. وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «وَ مَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ، فَهُوَ كَقَتْلِهِ» رَوَاهُمَا الْبُخَارِيُّ فِي (صَحِيحِهِ).

أَخِي الْقَارِي الْكَرِيمُ: التَّكْفِيرُ حَكْمٌ شَرْعِيٌّ، مَرْدُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ،

و من ثبت إسلامه بيقين، لم يزُل عنه ذلك إلا بيقين، ولا يجوز إيقاع حكم التكفير على أى مسلم، إلا ما دلّ الكتاب و السنّه على كفره، دلّاله واضحه، صريحه بينه، فلا يكفى فى ذلك مجرد الشبهه و الظن.

و قد يرُدّ فى الكتاب و السنّه ما يفهم منه أنّ هذا القول، أو العمل، أو الاعتقاد:

كفر، و لا يُكفّر به أحدٌ عيناً إلا إذا أقيمت عليه الحجه بتحقيق الشروط و انتفاء الموانع، و هى:

أولاً: العلم، و ذلك بأن يعلم المسلم أنّ هذا العمل كفر و يقابله من الموانع الجهل، فمتى حلّ الجهل ارتفع التكفير، قال سبحانه و تعالى: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَ نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا». ١

فمن لم يتبين له الأمر فلا تنزل نصوص الوعيد عليه.

ثانياً: قصد القول أو الفعل الكفرى، و المراد به تعمد القول أو الفعل و يقابله من الموانع الخطأ، أى: أن يقع القول أو الفعل دون قصد كسبق اللسان أو السهو و يدلّ له قوله تعالى: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» ٢ قال سبحانه و تعالى فى الحديث القدسى: «قد فعلت» رواه مسلم.

ثالثاً: الاختيار و يقابله من الموانع الإكراه قال تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». ٣

رابعاً: التأويل غير السائغ: و يقابله من الموانع التأويل السائغ، و يدلّ له

اتَّفَاقِ الصَّحَابَةِ عَلَى عَدَمِ تَكْفِيرِ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا الْخَمْرَ، لِأَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا قَوْلَهُ سَبْحَانَهُ: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا» ١ بجواز شرب الخمر مع التقوى والإيمان. رواه عبد الرزاق في مصنفه بإسناد صحيح، على أن الخمر محرمة تحريماً قاطعاً و لكن الصحابه لم يكفروهم لوجود الشبهه و هى تأويلهم للآيه الكريمه.

و هذا كله لأنَّ التكفير حقٌّ لله و لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم و من لم يُصَبِّ في إطلاقه فإنه يعود إليه كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٌ إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَ الْإِحَارَتْ عَلَيْهِ». انظر (مخالفات في التوحيد، ص ١٥).

و إليك أخى القارئ الكريم: بيان هيئه كبار العلماء فى المملكة العربيه السعوديه عن خطر التكفير و ضوابطه:

بيان من هيئه كبار العلماء

الحمد لله، و الصلاة و السلام على رسول الله، و على آله و صحبه و من اهتدى بهداه، أما بعد:

فقد درس مجلس هيئه كبار العلماء فى دورته التاسعه و الأربعين المنعقده بالطائف ابتداء من تاريخ ١٩/٤/٢٠١٤هـ، ما يجرى فى كثير من البلاد الإسلاميه و غيرها من التكفير و التفجير، و ما ينشأ عنه من سفك الدماء، و تخريب المنشآت، و نظراً إلى خطوره هذا الأمر، و ما يترتب عليه من إزهاق أرواح بريئه، و إتلاف أموال معصومه، و إخافه للناس، و زعزعه لأمنهم و استقرارهم، فقد رأى المجلس إصدار بيان يوضح فيه حكم ذلك نصحاً لله و لعباده، و إبراءً للذمه،

و إزاله للبس فى المفاهيم لدى من اشتبه عليه الأمر فى ذلك، فنقول و بالله التوفيق:

أولاً- التكفير حكم شرعى، مردّه إلى الله و رسوله، فكما أنّ التحليل و التحريم و الإيجاب إلى الله و رسوله، فكذلك التكفير، و ليس كلّ ما وصف بالكفر من قول أو فعل، يكون كفراً أكبر مخرجاً عن الملة.

و لما كان مردّد حكم التكفير إلى الله و رسوله لم يَجْز أن نُكفّر إلاّ من دلّ الكتاب و السنّه على كُفْره دلالة واضحة، فلا يكفى فى ذلك مجرد الشبهه و الظن، لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيره، و إذا كانت الحدود تُدرأ بالشبهات، مع أنّ ما يترتب عليها أقلّ ممّا يترتب على التكفير، فالتكفير أولى أن يُدرأ بالشبهات؛ و لذلك حذّر النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر، فقال: «أيّما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال و إلا رجعت عليه». و قد يرد فى الكتاب و السنّه ما يُفهم منه أنّ هذا القول أو العمل أو الاعتقاد كُفْر، و لا يكفّر من اتّصف به، لوجود مانع يمنع من كفره، و هذا الحكم كغيره من الأحكام الّتى لا- تتم إلاّ بوجود أسبابها و شروطها، و انتفاء موانعها كما فى الإرث، سببه القرابه-مثلاً- و قد لا يرث بها لوجود مانع كاختلاف الدين، و هكذا الكفر يُكره عليه المؤمن فلا يكفر به.

و قد ينطق المسلم بكلمه الكفر لغلبه فرح أو غضب أو نحوهما فلا- يكفر بها لعدم القصد، كما فى قصه الّذى قال: «اللهم أنت عبدى و أنا ربك» أخطأ من شدة الفرح.

و التسرّع فى التكفير يترتب عليه أمور خطيره من استحلال الدم و المال، و منع التوارث، و فسخ النكاح، و غيرها ممّا يترتب على الرّدّه، فكيف يسوغ للمؤمن أن يُقدّم عليه لأدنى شبهه.

و جملة القول: إنّ التسرّع فى التكفير له خطره العظيم؛ لقول الله عزّ و جلّ:

«قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ». ١

ثانياً: ما نَجَمَ عن هذا الاعتقاد الخاطيء من استباحه الدماء و انتهاك الأعراض، و سلب الأموال الخاصه و العامه، و تفجير المساكن و المركبات، و تخريب المنشآت، فهذه الأعمال و أمثالها محرّمه شرعاً بإجماع المسلمين؛ لما في ذلك من هتك لحرمه الأنفس المعصومه، و هتك لحرمه الأموال، و هتك لحرمات الأمن و الاستقرار، و حياه الناس الآمنين المطمئنين في مساكنهم و معاشهم، و غدوهم و رواحهم، و هتك للمصالح العامه التي لا غنى للناس في حياتهم عنها.

و قد حفظ الإسلام للمسلمين أموالهم و أعراضهم و أبدانهم و حرّم انتهاكها، و شدّد في ذلك و كان من آخر ما بلّغ به النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمته فقال في خطبه حجه الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَ أَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمِهِ يَوْمَكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا». ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدُ». متفق عليه.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَ مَالُهُ وَ عَرَضُهُ».

و قال عليه الصلاة و السلام: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظِلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

و قد توعّد الله سبحانه مَنْ قَتَلَ نفساً معصومه بأشدّ الوعيد، فقال سبحانه في حقّ المؤمن: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا». ٢

و قال سبحانه في حقّ الكافر الذي له ذمّه في حكم قتل الخطأ: «إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عِدُوِّكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَخْرِيرٌ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» ٣ فإذا كان

الكافر المذى له أمان إذا قُتِل خطأ، فيه الدية و الكفّاره، فكيف إذا قُتِل عمداً، فإنّ الجريمه تكون أعظم، و الإثم يكون أكبر. و قد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من قَتَلَ معاهداً لم يَرِح رائحه الجنة».

ثالثاً: إنّ المجلس إذ بيّن حكم تكفير الناس بغير برهان من كتاب الله و سنّه رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و خطوره إطلاق ذلك، لما يترتب عليه من شرور و آثام، فإنّه يُعلن للعالم أنّ الإسلام برىء من هذا المُعتَقَد الخاطىء، و أنّ ما يجرى فى بعض البلدان من سفك الدماء البريئه، و تفجير للمساكن و المركبات و المرافق العامه و الخاصه، و تخريب للمنشآت هو عمل إجرامى، و الإسلام برىء منه، و هكذا كلّ مسلم يؤمن بالله و اليوم الآخر برىء منه، و إنّما هو تصرّف من صاحب فكر منحرف، و عقيدته ضالّه، فهو يحمل إثمه و جرمه، فلا يحتسب عمله على الإسلام، و لا على المسلمين المهتدين بهدى الإسلام، المعتصمين بالكتاب و السنّه، المستمسكين بحبل الله المتين، و إنّما هو محض إفساد و إجرام تأباه الشريعة و الفطره؛ و لهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعه بتحريمه، محذّره من مصاحبه أهله. قال الله تعالى:

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلْمُدُّ الْخِصَامُ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْأَمَهُادُ». ١

و الواجب على جميع المسلمين فى كلّ مكان التواصى بالحق، و التناصح و التعاون على البرّ و التقوى، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بالحكمه و الموعظه

الحسنه، و الجدال بالتى هى أحسن، كما قال الله تعالى: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ١

و قال سبحانه: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». ٢

و قال عز و جل: «وَ الْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». ٣

و قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «الدين النصيحة». قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله و لكتابه و لرسوله و لأئمه المسلمين و عامتهم».

و قال عليه الصلاة و السلام: «مثل المؤمنین فی توادهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى».

و الآيات و الأحاديث فى هذا المعنى كثيره.

رئيس المجلس

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

صالح بن محمد اللحيان عبد الله بن عبد الرحمن البسام

عبد الله بن سليمان بن تقنيع عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ

محمد بن صالح العثيمين ناصر بن حمد الراشد

د. عبد الله بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ محمد بن عبد الله السبيلى

محمد بن سليمان البدر عبد الرحمن بن حمزه المرزوقى

راشد بن صالح بن خنين د. عبد الله بن عبد المحسن التركي

عبد الله بن عبد الرحمن الغديان د. عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان

محمد بن إبراهيم بن جبير محمد بن زيد آل سليمان

د. صالح بن فوزان الفوزان د. صالح بن عبد الرحمن الأطرم

نقول: مع تقديرنا لموقفهم هذا، ولكنهم وضعوا الدواء بعد أن تفشى الداء وانتشر، وأصاب ما أصاب من جسم الأمة الإسلامية:

وقد قال الشاعر: تروح إلى العطار تبغي شبابها و هل يصلح العطار ما أفسد الدهر

و إن ننس، لا ننسى ما جرى فى سنة ١٣٦٢هـ من إزهاق روح حاج مسلم إیرانى یسمى ب«أبو طالب» بین الصفا و المروه ببهتان عظیم و هو یتشهد

الشهادتين، وقد حج البيت و اعتمر و أتى بالفرائض كلها،فقتل مظلوماً،من دون مانع و لا رادع و لا زاجر و لا مدافع.

و العجب أنّ عبد العزيز بن عبد الله بن باز،-أحد الموقعين في بيان هيئة كبار العلماء-هو نفسه رئيس لجنة الإفتاء التي أفتت بكون الشيعة مشركين مرتدين عن الإسلام،لا- يحلّ الأكل من ذبائحهم لأنها ميتة و لو ذكروا عليها اسم الله. (1)فبأى القولين تؤمن يا شيخ!! أ بما جاء في البيان الماضي،أم بإفتائك في غير مقام بكفر طائفه كبرى من المسلمين!!

ص: ٤٨٧

١-١). فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث برقم ١٦٦١.

فعلى الصالحين من الموقعين و على كلّ عالم واع ينبض قلبه بعز الإسلام و شرف المسلمين أن يوحدوا كلمتهم، و يشدّوا صفوفهم كبنيان مرصوص لصيانته دماء المسلمين و أعراضهم و أموالهم، و تحقيق الوثام و السلام، و لا يسمحوا بنشر هذه الكتب فى بلادهم-البلد الحرام و حرم النبى-لكى لا تشوّه سمعتها فى أرجاء الدنيا و هى ثغر الإسلام و ملجأ المسلمين.

و السلام

جعفر السبحانى

قم-مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص: ٤٨٨

الفصل الخامس: في المسائل الفقهيه و الأصيليه

أشاره

١. حقيقه الإحرام فى كلمات الفقهاء

٢. من لا يمر بميقات من المواقيت

٣. المطاف بين السعه و الضيق

٤. شبهات و إيضاحات

٥. التقيه مفهومها، حدّها، دليلها

ص: ٤٨٩

إشاره

حقيقه الإحرام فى كلمات الفقهاء

تحقيق المقام يتوقف على البحث فى أمور ثلاثه:

١. الإحرام فى كلمات أهل اللغه.

٢. ما هو حقيقه الإحرام فى لسان الأصحاب، و ما هو المستفاد من الروايات؟

٣. تصوير تعلق النيه بالإحرام.

و إليك الكلام فيها:

الأول: الإحرام فى معاجم اللغه

قال الفيومى: الحرمة-بالضم-: ما لا- يحل انتهاكه، و هذه اسم من الاحترام مثل الفرقه من الافتراق، و الجمع حرمت، مثل «غرفه»: «غرفات»، و شهر حرام و جمعه حرم، بضمين،-إلى أن يقول:- و أحرم الشخص: نوى الدخول فى حج أو عمره، و معناه أدخل نفسه فى شىء حرم عليه ما كان حلالاً له، و هذا كما يقال: أنجد إذا أتى نجداً، و أتهم إذا أتى تهامه-إلى أن قال:- أحرم:

دخل الحرم،

ص: ٤٩١

و أحرم:دخل فى الشهر الحرام. (١)

و الإمعان فى كلامه يفيد أنّ المعنى الأصلي للإحرام هو نيه الدخول فى حجّ أو عمره، و لازمه، إدخال نفسه فى شىء حرم عليه ما كان حلالاً، لا أنّه المعنى الأصلي للإحرام. فلاحظ.

التانى: ما هى حقيقه الإحرام؟

إشاره

ما هى حقيقه الإحرام؟ فهل هو نقل لفظه من المعنى اللغوى-الذى صرّح به المصباح (نوى الدخول فى حجّ أو عمره) إلى معنى آخر-أو لا؟

الظاهر من كلمات أكثر الأصحاب ذلك، و لنشر إلى آراء السنّه فى حقيقه الإحرام أولاً، ثمّ إلى آراء الأصحاب ثانياً، فنقول:

الإحرام عند الحنفيه هو الدخول فى حرّات مخصوصه غير أنّه لا يتحقّق شرعاً إلاّ بالنيه مع الذكر أو الخصوصيه.

و المراد بالدخول فى حرّات:التزام الحرّات، و المراد بالذكر التلبيه و نحوها ممّا فيه تعظيم الله تعالى.

و المراد بالخصوصيه ما يقوم مقام التلبيه من سوق الهدى، أو تقليد البدن.

و أمّا الإحرام عند المذاهب الثلاثه الباقيه فهو نيه الدخول فى حرّات الحجّ و العمره. (٢)

و الظاهر عدم وجود الفرق الجوهرى بين التعريفين، فالنيه المذكوره فى

ص: ٤٩٢

١- ١). المصباح المنير: [١] ماده حرم: ١٦٢.

٢- ٢). الموسوعه الفقهيّه الكويتيه: ١٢٨/٢، ماده «إحرام».

تعريف الثلاثة شرط عند الحنفيه أيضاً، كما صرحوا به، و الظاهر أنّ مراد الحنفيه من حرّمات مخصوصه، هو حرّمات الحجّ و العمرة.

هذا كلّه عند السنّه، و أمّا أصحابنا فقد اختلفت كلمتهم في تعريف الإحرام نذكرها تباعاً.

١. الإحرام أمر مركب من أمور ثلاثة

يظهر من كلمات المحقّق في «الشرائع» و العلامه في غير واحد من كتبه: أنّ الإحرام أمر مركب من أمور ثلاثة: ١. التيه، ٢. التلبّيات الأربع، ٣. لبس ثوبي الإحرام.

ثمّ إنّ متعلق النيه عبارته عن الأمور الأربعة، أعني: ما يُحرّم به من حجّ أو عمره متقرباً، و نوعه من تمتع و قران أو إفراد، و صفتته من وجوب أو ندب، و ما يحرم له من حجه الإسلام أو غيرها. (١)

و على هذا فالإحرام أمر مركب من أمور ثلاثة، و للجزء الأوّل منها - أعني: التيه - متعلّقات أربعة، و به صرّح العلامه في غير واحد من كتبه.

قال في «المختلف»: الإحرام ماهيه مركبه من النيه و التلبيه و لبس الثوبين. (٢)

و قال في «التذكرة»: واجبات الإحرام ثلاثة: النيه و التلبّيات الأربع، و لبس ثوبي الإحرام - إلى أن قال: - و الواجب في النيه أن يقصد بقلبه إلى أمور أربعة: ما يحرم به من حجّ أو عمره. إلى آخر ما ذكره المحقّق في «الشرائع». (٣)

ص: ٤٩٣

١ - ١. الشرائع: ١/٢٤٥. [١]

٢ - ٢. المختلف: ٤/٤٣.

٣ - ٣. التذكرة: ٧/٢٣١. [٢]

وقد فسره في المنتهى بنفس عبارته «التذكرة». (١)

يلاحظ عليه أولاً: بأن نسبة الإحرام إلى هذه الأمور الثلاثة لا يخلو من أحد وجهين:

١. أن يكون من قبيل المحصّل إلى المحصّل والمسبّب إلى مسبب، فعندئذٍ تتعلّق به النية، لكونه وراء الثلاثة التي منها النية لكن لازمه وجوب الاحتياط في ما شكّ في جزئيه شيء أو شرطيته للمحصّل وهو كما ترى.

٢. أن يكون من قبيل العنوان المشير، والجمع في التعبير، كما هو حال العشرة بالنسبة إلى الأفراد الواقعة تحتها، وحال الصلاة بالنسبة إلى الأفعال والأقوال، فعند ذاك، إذا شكّ في جزئيه شيء أو شرطيته فالمرجع هو البراءة العقلية والشرعية، لكن لا تتعلّق به النية، إذ ليس الإحرام أمراً زائداً على الأجزاء الثلاثة التي منها النية، مع اتّفاقهم على أنّ الإحرام أمر قصدي، يعتبر فيه النية. فتأمل.

وبذلك يعلم النظر فيما أفاده بعض الأعظم حيث أوّل كلمات القدماء الظاهره في أنّ الأمور الثلاثة هي الإحرام قائلاً بأنّ وجوب تلك الأمور، في الإحرام لا يلزم كونه عبارته عن تلك الأمور لا غير، بل يدلّ على أنّ الإحرام بأى معنى كان، لا يصح بدونها. (٢)

وجه النظر واضح، إذ لو كان الإحرام أمراً غير الأمور الثلاثة فلا تخلو الحال من أحد الوجهين اللذين عرفت وجه الإشكال فيهما.

و ثانياً: لم يظهر الاتفاق من القدماء على تفسير صاحب الشرائع وابن أخته

ص: ٤٩٤

١- ١). المنتهى: ٢١٥/١٠-٢١٦، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد-١٤٢٤هـ.

٢- ٢). كتاب الحج: ٢١٦/١. [١]

العلامة-أعلى الله مقامهما-من الأمور الثلاثة، فقد قال في «المدارك»:

اختلفت عبارات الأصحاب في حقيقته الإحرام، فذكر العلامة في «المختلف» في مسأله تأخير الإحرام عن الميقات أن الإحرام ماهيه مركبه من النيه و التلبيه و لبس الثوبين.

و حكى الشهيد في الشرح عن ابن إدريس أنه جعل الإحرام عباره عن النيه و التلبيه و لا مدخل للتجرد و لبس الثوبين فيه.

و عن ظاهر «المبسوط» و «الجمل» أنه جعله أمراً واحداً بسيطاً و هو النيه. (١)

و ثالثاً: أنه لم يدل دليل على وجوب بعض متعلقات النيه كقصد الوجه من كونه واجباً أو مندوباً، كما حقق في محله، كما لم يدل دليل على لزوم قصد كونه حجه الإسلام، إذا لم تكن ذمته مشغوله بحج آخر، فليس ذلك العنوان، كعنواني الظهر و العصر ممّا يجب قصده، فإذا كان الرجل مستطيعاً و لم يحج من ذى قبل و نوى العمره و الحج، كفى ذلك، إذ الواجب عليه في هذه الحاله ليس إلا واقع حجه الإسلام بأحد أقسامها الثلاثة.

٢. توطين النفس على ترك المنهيات

الإحرام عباره عن توطين النفس على ترك المنهيات المعهوده إلى أن يأتى بالمناسك، و هذا القول هو الذى حكاه صاحب المدارك عن الشهيد، قال:

و كنت قد ذكرت في رساله أن الإحرام هو توطين النفس على ترك المنهيات المعهوده إلى أن يأتى بالمناسك أو التلبيه هي الرابطه لذلك التوطين نسبتها إليه كنسبه التحريمه إلى الصلاه. (٢)

ص: ٤٩٥

[١ - ١]. المدارك: ٢٣٩/٧. [١]

[٢ - ٢]. المدارك: ٢٣٩/٧. [٢]

و نسبه المحقق الخوئي إلى الشيخ الأنصاري، بل إلى المشهور، و لذلك ذكروا أنه لو بنى على ارتكاب شيء من المحرمات، بطل إحرامه لعدم كونه قاصداً للإحرام. (١)

و ربما يؤيد ذلك بما في صحيح معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام من أن المحرم يقول: «أحرم لك شعري و بشرى و لحمي و دمي و عظامي و مخي و عصبى من النساء و الثياب و الطيب، أبتغى بذلك وجهك و الدار الآخرة». (٢)

يلاحظ عليه أولاً: أن كثيراً من الناس، يحرمون و لا- يدور ببالهم، توطين النفس على ترك محظورات الإحرام من غير فرق بين العالم بها تفصيلاً، أو إجمالاً أو الجاهل بها.

و أما صحيح معاوية بن عمار، فهو دعاء قبل الإحرام، و لذلك يقول في ذيله:

ثم قم- بعد الدعاء المذكور- «فامش هنيهة فإذا استوت بك الأرض، ماشياً كنت أو راكباً فلبّ»، فالإحرام يتحقق بالتلبيه، و بها تحرم الأمور المذكورة، و كأنه قبل الإحرام يتذكر ما يحرم عليه بالتلبيه، فتحریم الأمور المذكورة من آثار الإحرام و أحكامه لا حقيقته.

و ثانياً: أنه ليس في الروايات أثر من هذا التوطين، فلاحظ أحاديث الباب ١٧ من أبواب الإحرام لا تجد فيها أثراً منه، نظير:

١. خبر أبي الصلاح مولى بسام الصيرفي قال: أردت الإحرام بالتمتع فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف أقول؟ قال: «تقول: اللهم إني أريد التمتع بالعمرة إلى الحج، على كتابك و سنه نبيك». (٣)

ص: ٤٩٦

١- ١). المعتمد: ٢/٤٧٧. [١]

٢- ٢). الوسائل: ٩، الباب ١٦ من أبواب الإحرام، الحديث ١. [٢]

٣- ٣). الوسائل: ٩، الباب ١٧ من أبواب الإحرام، الحديث ٢. [٣]

٢. صحيح يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: كيف ترى أن أهل (أى أحرم)؟ فقال: «إن شئت سميت، وإن شئت لم تسم شيئاً» فقلت له: كيف تصنع أنت؟ قال: «أجمعهما فأقول: لبيك بحجه و عمره معاً لبيك». (١)

و لو كانت حقيقه الإحرام هى التوطن لجاء ذكره فيهما خصوصاً فى الروايه الأولى.

و ربّما يورد على هذا القول باستنزاه الدور قائلاً: بأنه لا يعقل أخذ هذه المنهيات و المحرمات فى معنى الإحرام و إلاّ لزم الدور، لأنّ حرمة هذه المحرمات متوقّفه على الإحرام، هذا من جانب، و من جانب آخر كون الإحرام متوقّفاً على حرمة المحرمات، و بعبارة أخرى: صيرورته محرماً متوقّف على كون المحرمات محرمة عليه و تحريمها متوقف على كونه محرماً. (٢)

يلاحظ عليه: بأنّ الإحرام و توطن النفس على تحريم المنهيات، يتوقّف على تحريم هذه الأمور فى لسان الدليل.

و إن شئت قلت: يتوقّف على التحريم الإنشائي، لأنّ الحكم الشرعى لا يوصف بالفعل إلاّ بعد وجود الموضوع، أى كون الشخص محرماً.

و المفروض أنّه مرید للإحرام، لا متلبس به، و التحريم الفعلى يتوقف على الإحرام و توطن النفس و إعلامه بالتلبيه.

٣. إدخال نفسه فى حرمة الله بسبب التلبيه

الإحرام عبارة عن إدخال النفس فى حرمة الله، غايه الأمر إنّما يدخل فى

ص: ٤٩٧

١- ١). الوسائل: ٩، الباب ١٧ من أبواب الإحرام، الحديث ٣. [١]

٢- ٢). المعتمد: ٢/٤٨٣. [٢]

حرمه الله بسبب التلبيه، فما لم يلبّ لم يدخل في الإحرام و في حرمه الله، كما أنّه إذا لم يكبر لم يدخل في الصلاة، وإذا كبر حرم عليه منافيات الصلاة، و في المقام تحرم عليه الأمور المعهودة إذا لبّي، و لا يتحلّل من ذلك إلا بالتقصير في العمره و السعى في الحجّ.

و بعبارة أخرى: الإحرام شيء مترتب على التلبيه لا أنّه نفس التلبيه، و لذا يعبّر عنها بتلبيه الإحرام، و لا مدخل في هذه الحرمه الإلهيه إلا بالتلبيه.

و الحاصل: أنّ الإحرام أمر اعتباري يترتب عليه هذه الأمور بسبب التلبيه، فحال الحجّ بعينه، حال الصلاة في كون التكبيره أوّل جزء من أجزاءها و بها يدخل في الصلاة، و كذلك التلبيه فإنّها أوّل جزء من أجزاء الحجّ و بها يدخل في تلك الحرمه الإلهيه، كما في النصّ الدالّ على أنّ الذي يوجب الإحرام ثلاثه: التلبيه، و الإشعار، و التقليد. (١)

و حاصل كلامه -بعد الغض عن التهافت- هو أنّ الإحرام أمر مسببيّ، يحصل بسبب التلبيه، و له آثار بعدها.

ثمّ إنّ القائل استشهد لما ذكره بروايات:

١. صحيحه معاويه بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا فرغت من صلاتك و عقدت ما تريد فقم و امش هنيهه، فإذا استوت بك الأرض -ماشياً كنت أو راكباً- فلبّ». (٢)

٢. صحيحه منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا صلّيت عند الشجره فلا تلبّ حتّى تأتي البيداء حيث يقول الناس يخسف بالجيش». (٣)

ص: ٤٩٨

١-١. المعتمد: ٢/٤٨٣. [١]

٢-٢. الوسائل: ٩، الباب ٣٤ من أبواب الإحرام، الحديث ٢ و ٤. [٢]

٣-٣. الوسائل: ٩، الباب ٣٤ من أبواب الإحرام، الحديث ٢ و ٤. [٣]

٣. صحیحہ عبد اللہ بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن رسول الله لم يكن يلبي حتى يأتي البيداء». (١) إلى غير ذلك من الروايات الدالة على أن مفتاح الإحرام هو التلبيه كتكبيره الإحرام في الصلاة، ويؤيد ذلك أيضاً أمران:

الف. ما دلّ على جواز مواقفه بعد دخول المسجد و الصلاة فيه، و لبس الثوبين، و قبل التلبيه. (٢)

ب. ما سيوافيك من أن الإشعار و التقليد يقومان مقام التلبيه. (٣)

كلّ ذلك يدلّ على أنّ مفتاح الإحرام و الدخول في عمل العمره، هو التلبيه، فما لم يُلبّ لا ينعقد الإحرام بها فمع أنّها جزء من العمره مفتاح لها، كتكبيره الإحرام، و مثل هذا العمل يتحقّق بلا نيه.

فإن قلت: إذا كان الإحرام غير متحقّق إلاّ بالتلبيه فيما ذا تفسر قول الراوى قال كتبت إلى أبى إبراهيم عليه السلام رجل دخل مسجد الشجره فصلّى و أحرم و خرج من المسجد، فبدا له قبل أن يلبي أن ينقض ذلك بمواقفه النساء.... (٤)

قلت: هو محمول على مجاز المشارفه، أى تهيأ للإحرام، كما أنّ الحال هو كذلك في بعض الروايات السابقه.

يلاحظ عليه أولاً: بأنّ ما استدللّ به من الروايات لا يدلّ إلاّ على أنّ مفتاح الإحرام هو التلبيه، و أنّ الحاج ما لم يُلبّ لا يحرم عليه من المحظورات، و أمّا أنّ حقيقه الإحرام عباره عن إدخال النفس في حرمة الله فلا يستفاد من هذه الروايات. و بعباره أخرى: أنّ ما أفاده أنّ التلبيه سبب و الإحرام أمر اعتبارى يتولد

ص: ٤٩٩

١-١. الوسائل: ٩، الباب ٣٤ من أبواب الإحرام، الحديث ٥. [١]

٢-٢. راجع الوسائل: ٩، الباب ١٤ من أبواب الإحرام.

٣-٣. الوسائل: ٨، الباب ١٢ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ٢١، ٢٠، ٩.

٤-٤. الوسائل: ٩، الباب ١٤ من أبواب الإحرام، الحديث ١٢. [٢]

من التلبيه أمر لا يستفاد ممّا أورده من الأحاديث.

نعم لو أراد من «إدخال النفس في حرمة الله» مصداق الحرمة - أعني: العمره و الحج - لرجع إلى الوجه السادس الذي هو مختارنا، و عندئذٍ يلاحظ عليه:

لما إذا عدل عن التعبير الواضح إلى التعبير المعقّد؟

و ثانياً: لو كان الإحرام أمراً اعتبارياً متحصلاً من التلبيه التي نسبتها إليه نسبة المحصّل إلى المحصّل، يلزم الاحتياط في كلّ ما شك في جزئيه شيء أو شرطيته للإحرام، و هو كما ترى.

١٠٤. الإحرام أمر إنشائي يوجد بتحريم المحرمات

إنّ الإحرام صفه خاصّه تحصل للمحرم بتوسط الالتزام بترك المحرّمات أو نيه ترك المحرّمات، فيكون الالتزام سبباً لإنشاء الإحرام و حصوله، نظير سائر المفاهيم الإيقاعيه التي إيقاعها بالالتزام، لا أنّه نفس الإحرام، كما أنّه ليس نفس الترك. (١)

هو أيضاً خيره بعض الأساطين على ما في تقريرات درسه حيث قال: إنّ الإحرام أمر إنشائي يوجد المحرم بتحريم المحرمات على نفسه، و إن كان لا يؤثر في التحريم قبل التلبيه، كما هو المستفاد من المحقّق في «الشرائع».

ثمّ إنّّه قدس سره ذكر كلام المحقّق في «الشرائع» في إحرام الحجّ حيث جاء فيه: «ثمّ ينشأ إحراماً آخر للحج من مكه». و هو ظاهر في أنّ الإحرام أمر إنشائي، و عبر بذلك في التحرير و السرائر. (٢)

ص: ٥٠٠

١- ١). المستمسك: ٣٦١/١. [١]

٢- ٢). كتاب الحج للسيد الكلبيگانی: ٢٤٦.

يلاحظ عليه: أنّ الإنشاء يحتاج إلى سبب، فما هو السبب؟ فإن كان السبب هو الالتزام القلبي بتحريم المحظورات- كما هو ظاهر كلامهما- فهو ممنوع، لأنّ الإنشاء يحتاج إلى سبب إما فعلى- كما فى المعاطاه- أو قولى، و المفروض عدمهما، و لو قيل: إنّ السبب هو التليه، فهو ليس بتمام، لأنها ليست سبباً عرفياً لتحريم المحرمات، بل هو إجابته لدعوته إبراهيم الخليل القريب و البعيد إلى زيارته البيت الحرام حيث إنه سبحانه يخاطب إبراهيم بقوله: «وَ أذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ». ١

و أمّا ما استدل به من كلام الشرائع فالظاهر أنّ مراده من الإنشاء هو نفس الإحرام، أى يحرم إحراماً آخر وراء الإحرام للعمرة. لا أنّ الإحرام من الأمور الإنشائية مقابل الأمور الواقعية التى يحكى عنها بالألفاظ، و على فرض صحّة إنشاء الأمور النفسية بالالتزام فهو نفس عقلى غير مطروح لأكثر المحرمين.

٥. الإحرام حاله تمنع عن فعل شيء من المحظورات

عرّف الشيخ جعفر كاشف الغطاء الإحرام بقوله: هو عبارة عن حاله تمنع عن فعل شيء من المحرّمات المعلومه، و لعلّ حقيقة الصوم كذلك، فهما عبارة عن المحبوسيه عن الأمور المعلومه، فيكونان غير القصد، و الترك، و الكف، و التوطن، فلا يدخلان فى الأفعال، و لا- الأعدام، بل هما حالتان متفرعتان عليها، و لا يجب على المكلفين من العلماء فضلاً عن الأعوام الاهتداء إلى معرفه الحقيقه، و إلاّ للزم بطلان عباده أكثر العلماء و جميع الأعوام. (١)

ص: ٥٠١

يلاحظ عليه: بأنه لو كانت حقيقه الإحرام هو ما ذكره، يجب تحصيل تلك الحاله عند الإحرام، لأن الأمر بالإحرام أمر به بما له من الواقعه مع أنه اعترف بأن العلماء فضلاً عن العوام لا- يهتدون إلى تلك الحقيقه حتى يحصيَ لمونها، فأى فائده فى جعل شىء موضوعاً للحكم مع عدم اهتداء أغلب المكلفين إليه، و يرد عليه مثل ذلك فى تعريف حقيقه الصوم.

٦. الإحرام هو الدخول فى العمره أو الحج لا غير

الظاهر كما هو اللائح من معاجم اللغه انّ الإحرام عباره عن الدخول فى العمره و الحج و إنّما أطلق عليه الإحرام لكون المدخول من حرّات الله.

و تبين ذلك رهن بيان أمرين:

١. الحرمة لغيره، ما لا- يجوز انتهاكه و وجبت رعايته، قال سبحانه فى سورة الحج بعد ذكر مناسكه: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ». ١

قال الطبرسى: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» أى ليزيلوا، شعث الإحرام من تقليم ظفر و أخذ شعر، و «لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ» بإنجاز ما نذروا من أعمال البر فى أيام الحج «لِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» و البيت العتيق هو الكعبه «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ...» و الحرّات ما لا يحلّ انتهاكه، و اختار أكثر المفسرين فى معنى الحرّات هنا: أنّها المناسك لدلاله ما يتصل بها من الآيات على ذلك. و قيل معناها: البيت الحرام، و البلد الحرام، و الشهر الحرام، و المسجد الحرام. (١)

ص: ٥٠٢

١-٢). مجمع البيان: ٨٢/٤-٨٣، و لاحظ أيضاً، تفسير قوله سبحانه: «وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» البقره: ١٩٤، [١] فى المجمع: ٢٨٧/١.

و اللفظ يدلّ على أنّ كلّ شيء له مكانه عند الله تجب رعايتها، فهو الحرمه من غير فرق بين الأعمال كالمناسك، أو غيرها كالبيت و الشهر و المسجد الحرام.

٢. وجود الفرق الواضح بين التحريم و الإحرام كالفرق بين قوله «حَرَمَ» و «أحرم».

أمّا الأوّل، فهو عباره عن المنع عن الشيء، كقوله سبحانه: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَنبِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ» ١ حيث حَرَمَ يعقوب بعض الأَطعمه على نفسه وفاء للنذر. (١)

و أمّا الثانى -أى أحرم- فهو عباره عن الدخول فى شيء له منزله و كرامه لا تهتك، فتاره يكون المدخول فيه مكاناً له حرمه يقال أحرم: دخل الحرم، و أخرى يكون زماناً كذلك فيقال: أحرم: دخل الشهر الحرام، و ثالثه يكون عملاً له حرمه يقال: أحرم: دخل العمره و الحج، و الميزان فى صدق الإحرام كون المدخول فيه شيئاً يحرم انتهاكه، و بما أنّ المدخول فيه فى المقام هو العمل -لا المكان و لا- الزمان -يكون معنى «أحرم» أنه دخل العمره و الحج اللذين لهما ذاك الشأن، و قد مرّ عن الفيومى أنه فسر قوله: «أحرم» الشخص:

نوى الدخول فى حج أو عمره، و مثله ابن منظور فى «اللسان». نعم لا يتحقّق الدخول فى العمره أو الحج إلاّ عن طريق خاص و هو التلبيه، فكانّها مفتاح الدخول فى هذا العمل الذى هو من محرّمات الله سبحانه.

و فى بعض الروايات ما يدل عليه، نظير: صحيحه معاويه بن عمار عن أبى عبد الله عليه السلام حيث وصف حجّ النبى فى حديث مبسوط و قال: «ثمّ خرج

ص: ٥٠٣

١-٢). مجمع البيان: ١/٤٧٥.

حتى أتى المسجد الذى عند الشجرة، فصلّى فيه الظهر، وعزم بالحجّ مفرداً و خرج حتى انتهى إلى البيداء عند الميل الأوّل، فصاف الناس له سماطين، فلبى بالحجّ مفرداً، وساق الهدى. (١) فقد بيّن الإمام إحرام النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالجملتين:

١. عزم بالحجّ، و فى بعض النسخ: أحرم بالحجّ.

٢. فلبى بالحجّ مفرداً.

و بما أنّ «العزم» يتعدّى بنفسه يقال: عزمت الأمر، فلعل الصحيح هو الثانى، أى أحرم بالحجّ، أى دخل الحجّ الذى هو من حرم الله، فليس للإحرام واقعيه سوى الدخول فى واحده من الحرمتين: العمره و الحجّ، بطريق خاص و هو التلبيه، و بما أنّ النبى لبيّ فى البيداء، يحمل قوله: «أحرم بالحجّ» على مجاز المشارفه.

هذا هو حقيقه الإحرام، و مع ذلك يستحبّ معه أن يقول: أحرم لك شعرى و بشرى و لحمى و دمي و عظامى و مخى و عصبى من النساء و الثياب و الطيب. (٢) و الجميع من أحكام الإحرام و لوازمه، لا أنّها حقيقته.

ص: ٥٠٤

١- ١). الوسائل: ٨، الباب ٢ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ٤. [١]

٢- ٢). الوسائل: ٨، الباب ١٦ من أبواب أقسام الحجّ. [٢]

من لا يمرّ بميقات و لا بما يحاذيه

اتَّفقت كلمه الفقهاء على أنّ الآفاقي (النائي) يجب عليه الإحرام لعمرته من أحد المواقيت الخمسه التي وقَّتها رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم لمن يمرّ بها (١)، أو ممّا يحاذيها، محاذاه عرفيه كما إذا كان الحد الفاصل بين الميقات و مهله، بضع كيلومترات.

أخرج الكليني بسند صحيح عن عبد الله بن سنان الثقه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أقام بالمدينه شهراً و هو يريد الحجّ، ثم بدا له أن يخرج في غير طريق أهل المدينه الذي يأخذونه، فليكن إحرامه من مسيره سته أميال فيكون حذاء الشجره من البيداء». (٢)

و لعلّ الحدّ الفاصل بين المدينه و مسجد الشجره يوم ذاك، كان سته أميال، فلذلك أمر الإمام بالإحرام بعد الابتعاد عن المدينه، مقدار سته أميال، ليكون المهلّ، محاذياً للمسجد.

إنّما الكلام إذا ورد عن طريق لا يمرّ بالميقات، و لا بما يحاذيه محاذاه عرفيه.

ص: ٥٥

١-١. الوسائل: ٨، الباب ١ من أبواب المواقيت، الحديث ٢، ١ و ٣ و غيرها.

٢-٢. الوسائل: ٨، الباب ٧ من أبواب المواقيت، الحديث ١. [١]

فإن قلنا بعدم تصوّر طريق لا يمر بالميقات (١) ولا- يكون محاذياً لواحد منها، بحجه أنّ المواقيت محيطه بالحرم من الجوانب، وقلنا بكفايه مطلق المحاذاه وإن كانت عن مسافه بعيده، يحرم ممّا يحاذى أحد المواقيت.

و أمّا لو قلنا بإمكان طريق لا يمر بميقات ولا بما يحاذيه محاذاه عرفيه، عن مسافه قريبه، كما هو الحال فى مدينه «جده» فإنّها ليست بميقات كما هو واضح، ولا تحاذى أحد المواقيت- كالجحفه- محاذاه عرفيه (٢)، فيقع الكلام فيما هو الواجب على الوافدين إلى جده جويّاً أو بحريّاً؟

و المسأله معنونه فى كلمات الفريقين، و هى ذات قوانين منذ عهد بعيد.

و إليك البيان:

دراسه فتوى السيد الخوئى قدس سره

ثم إنّ السيد الخوئى-رضوان الله عليه-أفتى فى الموضوع بالأمر التالى:

١. لزوم الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان.

٢. أو نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول إلى جده بمقدار معتد به، و لو فى الظاهر فيُحرم من محل نذره.

٣. الذهاب إلى-رابع-الذى هو فى طريق المدينه و الإحرام منه بنذر،

ص: ٥٠٦

١- ١). قال المحقق النراقى: وقد اختلفوا فى حكم من سلك طريقاً لا- يحاذى شيئاً من المواقيت، و هو خلاف لا فائده فيه، إذ المواقيت محيطه بالحرم من الجوانب.(المستند: ٢٨٣/١١) و تبعه صاحب العروه الوثقى [١] فى مبحث المواقيت، و التصديق العلمى يحتاج إلى دراسه ميدانيه، و أنى لنا هذه.

٢- ٢). و أمّا المحاذاه عن مسافه بعيده، و التى نسّمىها محاذاه غير عرفيه فالظاهر من الخرائط الجغرافيه أنّ المطار الحديث للحجاج و ساحل البحر، و مقدّم الجسر الكبير تحاذى الجحفه، فإنّ الخط الممتد من الجحفه إلى جده يمرّ على هذه الأمكنه أو على مقربه منها.

باعتبار أنه قبل الجحفة التي هي أحد المواقيت.

٤. إذا لم يمكن المضي إلى أحد المواقيت و لم يحرم قبل ذلك بنذر، لزمه الإحرام من جده بالنذر ثم يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه. (١)

يلاحظ على ما أفاده بأمر:

أولاً: إن لزوم الذهاب إلى أحد المواقيت مع الإمكان، بلا ملزم، لما مرّ من أن الروايات الدالة على لزوم الإحرام من المواقيت التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ناظره إلى من كان من أهل هذه المواقيت أو كان ممن يجتازها، وأما من سلك طريقاً لا يؤدي إلى أحدها فلا دليل على لزوم الذهاب إلى المواقيت.

ثانياً: إن نذر الإحرام من بلده أو من الطريق قبل الوصول إلى جده بمقدار معتد به أو في الطائره، وإن كان يحل مشكله الإحرام، لكن يبقى الإشكال في الاستئلال بعده بسقف الطائره، ونحوها إذا كان الطيران في النهار أو في الليالي الممطره أو ذات الرياح العاصفه.

وجه الإشكال: إن حقيقه الإحرام عباره عن العزم على ترك المحرمات، فكيف يجتمع ذلك العزم الجدى، مع العلم بنقضه في الطريق أو قبل ركوب الطائره، ونحو ذلك، وهذه مشكله يجب التخلّص منها على نحو لا يصادم حقيقه الإحرام الذى هو أمر قلبى قائم بالجزم والنيه.

أضف إلى ذلك: إن هذا الاقتراح، لا ينفك عن وجوب الفديه عليه، وهو تكليف زائد و تحميل عليه، وهو رهن الدليل.

ثالثاً: أنه إذا تمكن من الذهاب إلى رابغ يتمكن غالباً من الذهاب إلى الجحفه، فإنها بمقربه من رابغ، والطريق: معتد، ذلول، والمسافه قليله جداً.

ص: ٥٠٧

رابعاً: إذا لم يمكن المضى إلى أحد المواقيت و لم يحرم قبل ذلك بنذر، فقد أفتى بلزوم الإحرام من جده بالنذر، ثم يجدد إحرامه خارج الحرم قبل دخوله فيه، و لم يعلم وجهه، لأنّ المورد خارج عن مصب روايات النذر، لأنّ مورد رواياته (1) هو نذر الإحرام قبل الميقات، ثم اجتيازه و المرور به. و أين هو من المفروض، و هو نذر الإحرام قبل الدخول فى الحرم ثم الدخول فيه محرماً؟! و قد ثبت فى محله أنّه لا يمكن تحليل الحرام-تكليفاً أو وصفاً-بالنذر و اليمين و العهد، و الإحرام قبل الميقات، أو بعده حرام تكليفاً و باطل وضعاً، خرجت منه صورته واحده، و هو نذره قبل الميقات ثم المرور به محرماً و الصور الأخرى باقيه تحت المنع.

و الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات

ص: ٥٠٨

١-١). الوسائل: ٨، الباب ١٢ من أبواب المواقيت، الحديث ١-٣. [١]

المطاف بين السعه و الضيق

كان الحجيج في الأزمان المنصرمه يُعدّون بالألوف حيث لا يتجاوز عددهم مائه ألف حاج في أغلب السنين، و لم تكن آنذاك أيه مشكله باسم الازدحام في المطاف، إلا حين استلام الحجر الأسود، غير أن تطور وسائل النقل البحريه و البريه و الجويه جعل هذا العدد يتضاعف كثيراً في كلّ سنه إلى أكثر من ميلونى حاج.

هذا و أنّ عدد الحجاج في هذه السنه ١٤٢٥هـ-حسب و كاله الأنباء للمؤتمر الإسلامى في اليوم الثامن من ذى الحجه الحرام لهذه السنه-بلغ مليونين و مائتى و خمسين ألفاً (٢،٢٥٠،٠٠٠ ألف)، و كان عدد الحجاج الوافدين من سائر الأقطار يبلغ مليوناً و سبعمائه و خمسين ألفاً (١،٧٥٠،٠٠٠)، و هذا يعرب عن أن تطور وسائل المواصلات صار سبباً لتزايد عدد الوافدين إلى البيت الحرام.

و على ضوء ذلك، فإنّ عدد الحجاج سوف يشهد تزايداً ملحوظاً في المستقبل.

هذا من جانب و من جانب آخر المشهور عند فقهاء الشيعة هو أنّ المطاف عبارة عمّا بين البيت و المقام، و هو لا يزيد على ١٢مترًا أو ٢٦ذراعاً و نصف ذراع. و من المعلوم أنّ طواف هذا العدد الهائل من الحجاج فى هذه المسافه الضيقه يوجب ازدحاماً و حرجاً كثيراً فى أشهر الحج خصوصاً فى الشهر الأخير.

و أشكال من ذلك تحديد المطاف خلف جدار حجر إسماعيل بثلاثه أمتار.

و من المعلوم أنّ هذا التضييق يوجب العسر و الحرج و الزحام للشيعة الإماميه.

و هذا ما يلّمسه كلّ من يحج فى هذه السنوات و يعانى من هذه المشكله.

و أمّا أهل السنّه فهم فى يسر حيث جعلوا ساحه المسجد كلّها مطافاً للحاج حتى تحت الأروقه و السقائف بل قالوا لو وسع المسجد إلى الحل لكان الجميع مطافاً، كما سيوافيك.

و لذلك نطرح هاتين المسألتين على صعيد التحقيق.

ص: ٥١٠

إشاره

ذهب أكثر فقهاء الشيعة إلى أنّ المطاف هو المسافه الفاصله بين البيت و المقام الموجود حالياً و نص بذلك جلّ فقهاءهم، و ستوافيك كلماتهم.

و هناك قولان آخران:

١. جواز الطواف خارج المقام اختياراً على كراهه، و هو خيره الصدوق و المحقق الأردبيلي على وجه.

٢. جواز إدخال المقام في الطواف في حاله الضروره، و هو خيره ابن الجنيد و العلامه في «التذكره»، فعلينا دراسه أدله الأقوال بعد ذكر نصوص من أقوال الفقهاء.

القول الأول: المطاف هو الحدّ الفاصل بين الحدّين

تقدّم أنّ المشهور بين فقهاءنا أنّ المطاف هو الحدّ الفاصل بين البيت و المقام، و تجد النص على ذلك في أغلب الكتب الفقيهيه، و إليك منها ما يلي:

١. قال الشيخ في «الخلاف»: إذا تباعد من البيت حتى يطوف بالسقايه و زمزم لم يجزه به. و قال الشافعي: يجزيه. (١)

ص: ٥١١

٢. وقال في «المبسوط»: «وينبغي أن يكون طوافه فيما بين المقام و البيت و لا يجوز، فإن جاز المقام و تباعد عنه لم يصح طوافه. (١)

٣. وقال في «النهايه»: «وينبغي أن يكون الطواف بالبيت فيما بين المقام و البيت و لا يجوز، فإن جاز المقام أو تباعد عنه لم يكن طوافه شيئاً. (٢)

و ذيل العبارة في الكتابين يدلّ على أنّ مراده من قوله: «ينبغي» هو الوجوب.

٤. وقال ابن البراج: «و يجب أن يكون طوافه بين المقام و البيت. (٣)

٥. وقال ابن زهره: «و الواجب في الطواف النيه- إلى أن قال:- و ان يكون، بين البيت و المقام فمن ترك شيئاً من ذلك لم يجزه الطواف. (٤)

٦. وقال ابن إدريس: «ينبغي أن يكون الطواف بالبيت فيما بين مقام إبراهيم عليه السلام و البيت يُخرج المقام في طوافه، و يدخل الحجر في طوافه، و يجعل الكعبه في شماله، فمتى أخلّ بهذه الكيفيه أو نسي منها بطل طوافه. (٥)

٧. قال العلامة: «يجب عندنا أن يكون الطواف بين البيت و المقام و يدخل الحجر في طوافه، فلو طاف في المسجد خلف المقام لم يصح طوافه، لأنه خرج بالتباعد عن القدر الواجب فلم يكن مجزئاً.

و قال الشافعي: «لا بأس بالحائل بين الطائف و البيت كالسقايه و السوارى و لا بكونه في آخر باب المسجد و تحت السقف، و على الأروقه و السطوح إذا كان البيت أرفع بناءً على ما هو اليوم، فإن جعل سقف المسجد أعلاه لم يجز الطواف

ص: ٥١٢

[١-١]. المبسوط: ٣٥٧/١. [١]

[٢-٢]. النهايه: ٢٣٧. [٢]

[٣-٣]. المهذب: ٢٣٣/١.

[٤-٤]. الغنيه: ١٧٢. [٣]

[٥-٥]. السرائر: ٥٧٢/١.

على سطحه... إلى أن قال: ولو اتسعت خطه المسجد اتسع المطاف، وقد جعلته العباسيه أوسع مما كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. (١)

٨. وقال في «المنتهى»: «و يجب أن يكون [الطواف] بين البيت و المقام. (٢)

٩. وقال في «المدارك»: «و أمّا أنه يعتبر كون الطواف واقعاً بين البيت و المقام بمعنى كونه في المحل الخارج عن جميع البيت و الداخل عن جميع المقام، فهو المعروف من مذهب الأصحاب. (٣)

١٠. وقال في «الجواهر»: «لا خلاف معتد به أجده في وجوب كون الطواف بينه و بين البيت، بل عن الغنيه الإجماع عليه. (٤)

إلى غير ذلك من الكلمات التي يقف عليها المتتبع في الكتب، خلافاً للسنة كما مرّ عن العلامة.

نعم المطاف عند فقهاء السنة أوسع بكثير، كما مرّ عن العلامة في التذكرة. و في «الموسوعة الفقهية الكويتية»: «مكان الطواف هو حول الكعبة المشرفة داخل المسجد الحرام قريباً من البيت أو بعيداً عنه، فلو طاف من وراء مقام إبراهيم عليه السلام أو من وراء حائل كمنبر أو غيره كالأعمده أو على سطح المسجد الحرام أجزاءه، لأنه قد حصل حول البيت ما دام ضمن المسجد و إن وسع المسجد و مهما توسع ما لم يبلغ الحلّ عند الجمهور، لكن خصّت المالكية الطواف بالسقائف بصورة الزحام. (٥)

ص: ٥١٣

١-١. التذكرة: ٩٣/٨-٩٤. [١]

٢-٢. المنتهى: ٦٩١/٢، الطبعة الحجرية.

٣-٣. المدارك: ١٣٠/٨. [٢]

٤-٤. الجواهر: ٢٩٥/١٩. [٣]

٥-٥. الموسوعة الفقهية الكويتية: ١٢٧/٢٩.

والمعروف أنّ المسافة بين «شاذروان» البيت و المقام هي ستة و عشرون ذراعاً و نصف ذراع، و أمّا حسب المتر فالحدّ الفاصل ١٢ متراً.

و كيف كان فهذا هو القول المعروف بين الأصحاب و الدليل الوحيد-مضافاً إلى الشهره-صحيحه محمد بن مسلم حسب ما رواه الكليني، قال: سألته عن حدّ الطواف بالبيت الذي من خرج منه لم يكن طائفاً بالبيت؛ قال: «كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يطوفون بالبيت و المقام، و أنتم اليوم تطوفون ما بين المقام و البيت، فكان الحدّ موضع المقام اليوم، فمن جازه فليس بطائف، و الحدّ قبل اليوم و اليوم واحد قدر ما بين المقام و بين نواحي البيت كلّها، فمن طاف فتباعد من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت، بمنزله من طاف بالمسجد، لأنّه طاف في غير حدّ، و لا طواف له». (١)

و الاستدلال بالروايه فرع صحّحه السند و إتقان الدلاله.

أمّا الأوّل فرجال السند كلّهم ثقات سوى «ياسين الضرير» فإنّه لم يوثق، بل هو مهمل من ذلك الجانب، و الرجل إماميٌّ بشهاده عنوان النجاشي له في رجاله. (٢)

و عنايه المشايخ بذكره و ذكر كتابه، و استحصال السند إليه تعرب عن صلاحيه كتابه للاحتجاج. و قد ذكر النجاشي سنده إلى كتابه.

و أمّا اتقان الدلاله، فالدلاله واضحه.

إنّما الإشكال في بعض المضمون حيث دلّت على أنّ المقام كان ملصقاً بالبيت في عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و صار بعده في المكان الذي هو فيه اليوم و يؤيده ما

ص: ٥١٤

١- (١). الوسائل: ٩، الباب ٢٨ من أبواب الطواف، الحديث ١. [١]

٢- (٢). رجال النجاشي: برقم ١٢٢٧.

نقل عن الطبري: أن قريشاً في الجاهلية، كانت قد ألصقته بالبيت خوفاً عليه من السيول، واستمر كذلك في عهد النبي و عهد أبي بكر، فلما ولي عمر رده إلى موضعه الحالي، الذي هو مكانه في زمان الخليل عليه السلام. (١)

و لكن فيما ذكره الطبري ملاحظه واضحه، إذ لو كان الأمر كما ذكره الطبري فالنبي أولى بأن يأتي به إلى مكانه اليوم، فلما ذا لم ينقله حتى قام عمر بذلك؟! و المذكور في بعض التواريخ أنّ المقام كان موجوداً في محلّه الذي هو الآن فيه، في عصر النبي و فتره بعد رحيله.

قال أبو الوليد محمد الأزرقى (المتوفى قريباً من عام ٢٢٢هـ) في كتابه «أخبار مكة و ما فيها من الآثار»: حدّثني جدّي قال: حدّثنا عبد الجبار بن الورد، قال:

سمعت ابن أبي مليكه يقول: موضع المقام هذا الذي هو به اليوم هو موضعه في الجاهلية و في عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أبي بكر و عمر، إلا أنّ السيل ذهب به في خلافه عمر فجعل في وجه الكعبه حتى قدم عمر فرده بمحضر الناس. (٢)

و قال أيضاً: ... حتى جاء سيل في خلافه عمر بن الخطاب يقال له: سيل أم نهشل، فاحتمل المقام من موضعه هذا فذهب به حتى وجد بأسفل مكة، فأتى به فربط إلى أستار الكعبه في وجهها، و كتب في ذلك إلى عمر، فأقبل عمر فدخل بعمره في شهر رمضان و قد غُبي موضعه و عفاه السيل، فدعا عمر بالناس فقال: أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام، فقال المطلب بن أبي وداعه السهمي: أنا يا أمير المؤمنين عندي ذلك فقد كنت أخشى عليه هذا فأخذت قدره من موضعه إلى الركن و من موضعه إلى باب الحجر، و من موضعه إلى زمزم بمقاط، و هو عندي في البيت، فقال له عمر: فاجلس عندي، و أرسل إليها، فأتى بها فمدّها فوجدها

ص: ٥١٥

[١-١]. الجواهر: ٢٩٦/١٩. [١]

[٢-٢]. أخبار مكة: ٣٥/٢. [٢]

مستويه إلى موضعه هذا، فسأل الناس و شاورهم، فقالوا: نعم هذا موضعه، فلما استثبت ذلك عمر و حقّ عنده أمر به فاعلم ببناء ربه تحت المقام ثم حوله فهو في مكانه هذا إلى اليوم. (١)

و ما ذكره الأزرقي هو الأوفق بالقبول، لأنّ المقام هو العمود من الصخر الّذى كان إبراهيم عليه السلام يصعد عليه عند بناء البيت، فلو كان هذا متّصلاً بالبيت في عصر النبي كان على الزائرين الصلاه وراءه و هي تراحم طواف الطائفين، و الروايات في المورد متعارضه، تحتاج إلى فحص أكيد يوصل إلى رأى حاسم، و على أى تقدير، فيجب علينا الطواف بين البيت و المقام الموجود حالياً بروايه محمد بن مسلم الماضيه، و ضعف السند منجبر بعمل المشهور.

قولان آخران في المطاف

قد تقدّم أنّ في تحديد المطاف قولين آخرين، و إليك دراستهما:

الأول: جواز الطواف خارج المقام اختياراً على كراهه، و قد اختاره قليل من الفقهاء، منهم:

١. الصدوق في «الفقيه» حيث روى بسند صحيح عن أبان بن عثمان، عن محمد بن علي الحلبي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الطواف خلف المقام، قال: «ما أحب ذلك و ما أرى به بأساً، فلا تفعله إلا أن لا تجد منه بُدّاً» (٢). بناء على أنّ الصدوق يُفتى بكلّ ما نقله في الفقيه، لما صرّح به في أوّل الكتاب.

فلو قلنا بأنّ قوله عليه السلام: «ما أحب ذلك» ظاهر في الكراهه، و هي تزول مع

ص: ٥١٦

١-١. نفس المصدر: ٣٣/٢. [١]

٢-٢. الفقيه: ٣٩٩/٢، الباب ٢١٩، ما جاء في الطواف خلف المقام.

الضرورة، و يكون دليلاً- على أنّ الصدوق مّمن يجوّز الطواف خارج المقام اختياراً و إن كان مكروهاً، و تزول الكراهه في الضروره.

٢. و قال المحقق الأردبيلي بعد نقل الروايه المذكوره: فإنّها ظاهره في الجواز خلف المقام على سبيل الكراهه، و تزول مع الضروره، و لكن قال في «المنتهى»: و هي تدلّ على ذلك مع الضروره و الزحام و شبهه.

و أنت تعلم أنّ دلالتها على ما قلناه (جواز الطواف خلف المقام اختياراً) أظهر إلّا- أن يقال: إنّه لا- قائل به فيحمل على ما قاله في «المنتهى» على أنّ «أبان» الظاهر أنّه ابن عثمان، و فيه قول فلا يقبل منه ما ينفرد به. (١)

يلاحظ عليه: أنّ أبان بن عثمان من أصحاب الإجماع، و قد اتفقوا على وثاقه هؤلاء.

فتلخص ممّا ذكرنا أنّ الصدوق و الأردبيلي- على وجه- ذهبوا إلى جواز الطواف خلف المقام اختياراً.

الثاني: اختصاص الجواز بصوره الضروره و الزحام، و عليه ابن الجنيد و العلامه في بعض كتبه، و إليك كلماتهم:

١. قال العلامه في «التذكره» بعد ما نقل خبر الفقيه: و هو يعطى الجواز مع الحاجه كالزحام. (٢)

٢. و قال في «المختلف»: المشهور أنّه لا- يجوز إدخال المقام في الطواف، و قال ابن الجنيد: يطوف الطائف بين البيت و المقام الآن، و قدره من كلّ جانب، فإن اضطر أن يطوف خارج المقام أجزاءه. (٣)

ص: ٥١٧

١- ١. مجمع الفائده و البرهان: ٨٧/٧.

٢- ٢. التذكره: ٩٣/٨. [١]

٣- ٣. المختلف: ١٨٣/٤.

و هذا القول هو الأقوى، و يدلّ عليه مضافاً إلى صحيح الحلبي:

أنّه سبحانه يأمر مجموع الحجيج الحاضرين في المسجد بالطواف بقوله:

«وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» ١ هذا من جانب.

و من جانب آخر يقول سبحانه: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» ٢.

فمقتضى دعوه الحاضرين في المسجد إلى الطواف مع رعايه عدم تسبب الحرج هو كون المطاف في هذه الظروف أوسع من الحدّ المذكور مع ملاحظه الأقرب فالأقرب. بمعنى اتصال الطائف خارج المقام بالطائفين داخل المطاف.

و ربما يقال بإيجاب الاستنابه، عند عدم الاستطاعه أو إذا كان حرجياً.

يلاحظ عليه: بأنّه إذا كان الابتلاء في مورد واحد صحّ ما احتمل، وإلاّ - فلو كان ممّا تبثلى به العامه، فنفس الاستنابه تكون حرجيه، فكيف الطواف نفسه.

ص: ٥١٨

المسأله الثانيه:حدّ المطاف خلف حجر إسماعيل

هذه هي المسأله الثانيه التي ألعنا إليها.

و إليك توضيحها:

قد تقدم أنّ المطاف هو الحدّ الفاصل بين الكعبه و مقام إبراهيم، و قد حدّد بسته و عشرين ذراعاً و نصف ذراع، و هو يقرب من ١٢ متراً، فعلى الطائف ألا يخرج عن هذا الحدّ إلا عند الضروره كما قلنا.

و اتفقوا على أنّ مبدأ هذا الحدّ في الأضلاع الثلاثه هو جدار الكعبه.

و إنّما الكلام في الضلع الذي يتصل به حجر إسماعيل فهل يُحسب الحدّ الفاصل من جدار الكعبه كما هو المشهور عند أكثر فقهاءنا؛ أو يحسب من جدار الحجر إلى نهايه ١٢ متراً، كما عليه لفيف من المتقدمين و المعاصرين؟

فلو قلنا بالاحتمال الأوّل يكون مقدار المسافه للطواف نحو ثلاثه أمتار و هو يسبب الحرج في أكثر الأوقات، و أكثر ممّا سبق، إذ لازم ذلك أن يكون المطاف في الأضلاع الثلاثه هو ١٢ متراً و في الضلع المتصل ب«حجر إسماعيل» ٣ أمتار.

و أمّا لو قلنا بالاحتمال الثاني، فبما أنّ مبدأ المسافه هو خارج الحجر

يكون المطاف نظير سائر الأضلاع، وبذلك يزول الحرج في غالب الأوقات غير أيام الحج.

إنما الكلام في استظهار أحد القولين من معتبره محمد بن مسلم الماضيه.

أقول: إن الروايه في النظره الأولى تحتمل أحد معنيين و لا يتعين المقصود النهائي إلا في الإمعان في الغرض الذي سيقى له، و إليك الاحتمالين:

١. إن الروايه بصدد بيان حدى المسافه، و يكون غرضها مصروفاً إلى بيان المبدأ و المنتهى.

٢. إن الروايه بصدد بيان مقدار المسافه التى يطوف فيها الطائف بحيث لو خرج عنها فى جانب المقام لبطل طوافه. و إنما ذكر المبدأ ليتيسر له ذكر المسافه التى لو خرج عنها الطائف لبطل طوافه.

فإذا كان المقصود هو الأول، لكانت الروايه مؤيده للقول المشهور، غير أن القرائن المتوفره تشهد بأن الغرض هو بيان مقدار المسافه التى لا يجوز الخروج عنها، و أميا المبدأ فهو و إن تعرضت له الروايه بقولها: «قدر ما بين المقام و بين البيت من نواحي البيت كلها» إلا أنه لم تصب اهتمامها عليه، و إنما جاء ذكره ليكون مقدمه لبيان حد المسافه التى لا يجوز للطائف الخروج عنها، لا لبيان الحد حتى من الجانب الذى يبدأ منه.

لكن القرائن تشهد بأن الغرض هو بيان مقدار المسافه لا بيان مبدأ المسافه، و إليك القرائن:

أ. نفس سؤال الراوى حيث ركز على الحد الذى لا يجوز الخروج عنه، و قال:

سألته عن حد الطواف بالبيت الذى «من خرج عنه» لم يكن طائفاً

بالبيت، فلا بد أن يكون الجواب ناظراً إلى تلك الجهة أى بيان الحد الذى لا يجوز الخروج عنه، و الخروج يتحقق من جانب المقام، لا من جانب البيت.

ب. أن الإمام عليه السلام بين كيفية طواف الناس أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبيت و المقام، ثم بين انقلاب الأمر بعده حتى صار الناس يطوفون بين البيت و المقام. ثم يؤكد بأن ذلك لا يؤثر فى تغيير الحد بقوله: «فكان الحد، موضع المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف» فهذه التعابير تشير كلها إلى أن المقصود الأصلي فى الرواية هو بيان المسافة التى يطاف فيها و لا يجوز الخروج عنها، و إن نقل المقام فى العهود السابقة لا يؤثر فى ذلك.

ج. «فالحد قبل اليوم و اليوم واحد، قدر ما بين المقام و بين البيت» و هو ظاهر فى أن تغيير مكان المقام لا يؤثر فى تحديد المسافة و مقدارها فهى فى جميع الظروف واحده لا تتغير، و إن ذكر المبدأ (بين البيت) فلأجل أن يتيسر له بيان حد المسافة التى لا يجوز الخروج عنه.

و لقد لخص العلامة المجلسى مفاد الحديث بقوله: و الحاصل أن المعتبر دائماً مقدار، بين الموضع الذى فيه المقام الآن و بين البيت، سواء أ كان المقام فيه أم لم يكن. (1)

و على ضوء ما ذكرنا فالرواية تركّز على بيان الحد الفاصل الذى لا يجوز الخروج عنه فى عامه الجوانب لا على مبدئه.

إذا عرفت ذلك فنقول: إذا كانت الرواية ظاهره فى تبين المسافة التى يسلكها الطائف، فيجب الأخذ بها فى عامه الجوانب.

لكن الأخذ به واضح فى الأضلاع الثلاثة، و إنما الكلام فى الأخذ به فى

ص: ٥٢١

الضلع المتصل بحجر إسماعيل، فهو يتحقق بأحد أمرين:

الأول: أن يكون الحجر جزءاً من المسافه و المطاف، فيجوز للطائف سلوكه.

الثاني: ألا يكون الحجر جزءاً منها بل خارجاً.

و بما أن الروايات المتضافره أبطلت الاحتمال الأول يتعين الاحتمال الثاني فيكون المبدأ خارج الحجر إلى نهايه اثني عشر متراً.

ثم إن المشهور و إن ذهب إلى أن المبدأ هو البيت في ذلك الضلع الخاص، غير أن جماعه من الفقهاء اختاروا ما ذكرناه، و إليك مقتطفات من كلماتهم:

١. قال الشهيد الثاني في «الروضه»: و تحتسب المسافه من جهه الحجر من خارجه و إن جعلناه خارجاً من البيت. (١)

٢. و قال أيضاً في «المسالك»: و تجب مراعاة هذه النسبه من جميع الجهات فلو خرج عنها و لو قليلاً - بطل، و من جهه الحجر تحتسب المسافه من خارجه بأن ينزله منزله البيت و إن قلنا بخروجه عنه.

ثم إنه قدس سره تردد فيما ذكر و قال: مع احتمال احتسابه (الحجر) منها على القول بخروجه و إن لم يجز سلوكه. (٢)

يلاحظ عليه: أن المتبادر من الروايه جواز السلوك في المسافه المحدده في عامه الجوانب، فلو كان الحجر جزءاً من المسافه جاز السلوك فيه مع تضافر الروايات على المنع.

ص: ٥٢٢

١- ١. الروضه البهيه في شرح اللمعه الدمشقيه: ٢/٢٤٩. [١]

٢- ٢. مسالك الأفهام: ٢/٣٣٣. [٢]

٣. وقال سبطه في «المدارك»: وقد قطع الأصحاب أنه يجب مراعاة قدر ما بين البيت و المقام من جميع الجهات، وفي روايه محمد بن مسلم دلالة عليه، و تحتسب المسافه من جهه الحجر من خارجه و إن كان خارجاً من البيت، لوجوب إدخاله في الطواف، فلا يكون محسوباً من المسافه.

٤. وقال (١) المحقق السبزواري في «الذخيره»: وقد ذكر جماعه من المتأخرين أنه يحتسب المسافه من جهه الحجر من خارجه، و منهم من قال:

و إن كان خارجاً من البيت، و منهم من علله بوجوب إدخاله في الطواف فلا يكون محسوباً من المسافه. (٢)

٥. ما نقله المحقق النراقي عن جماعه من المتأخرين. (٣)

٦. وقال في «الجواهر»: نعم لا إشكال في احتساب المسافه من جهه الحجر من خارجه، بناءً على أنه من البيت، بل في «المدارك» و غيرها و إن قلنا بخروجه عنه لوجوب إدخاله في الطواف فلا يكون محسوباً من المسافه. (٤)

و إن استشكل في ما ذكره و زعم أنه خلاف ظاهر الخبر.

و يؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم طاف في عمره القضاء مع أصحابه الذين صدّهم المشركون في العام الماضي، فهل يمكن أن يطوف هذا الجَمّ الغفير في مسافه قليله لا تتجاوز عن ثلاثه أمتار؟

قال ابن هشام: ثم استلم النبي صلى الله عليه و آله و سلم الركن و خرج يهرول و يهرول أصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم و استلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن

ص: ٥٢٣

١-١. مدارك الأحكام: ١٣١/٨. [١]

٢-٢. ذخيره المعاد في شرح الإرشاد: ٦٢٨. [٢]

٣-٣. مستند الشيعة: ٧٦/١٢. [٣]

٤-٤. الجواهر: ٢٩٨/١٩. [٤]

الأسود، ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف و مشى سائرهما. (١)

وقد شارك النبي عام الحديبيه حوالي ٧٠٠ رجل، ولما صُيِّدوا في ذلك العام، قضوا عمرتهم في السنه القادمه، و الظاهر أنهم شاركوا في القضاء بلا استثناء.

قال ابن إسحاق: خرج معه المسلمون ممن كان صدّ معه في عمرته تلك، و هي سنه سبع، فلما سمع به أهل مكه خرجوا عنها. (٢)

و من المعلوم أنّ طواف هؤلاء في زمان قليل في تلك المسافه الضيقه، لا يخلو من حرج و لو كان واجباً لنصّ به النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، كلّ ذلك يعرب عن أنّ المطاف من جانب الحجر أوسع و يساوى في السعه سائر الجوانب، فتدبر.

أضف إلى ذلك: ان لو كان المطاف في الضلع المتصل بالحجر، ثلاثه أمتار لأوجب ذلك الزحام الشديد في عامه الأعصار و انتهى إلى طرح السؤال على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أنّهم أهل البيت عليهم السلام، مع أنّا لا نرى أى سؤال قد طرح حوله.

ص: ٥٢٤

١- (١). السيره النبويه: ٣٧١/٢، [١] عمره القضاء.

٢- (٢). السيره النبويه: ٣٧٠/٢. [٢]

شبهات وإيضاحات حول أصول الفقه للشيعة الإمامية

لقد قمنا بزياره المملكة المغربية في مستهل عام ١٤٢٥هـ، وتعرفت على رجال الفكر والثقافة في تلك البلاد من خلال إلقاء المحاضرات في غير واحده من جامعاتها حول مواضيع مختلفه. وقد دُوت مذكراتي حول هذه الرحله في كتاب سمي «الرحله المغربيه أو على ساحل جبل طارق» و سيصدر قريباً إن شاء الله تعالى.

و مما يجب ذكره: إنني قد أقيمت محاضره حول تطوّر أصول الفقه عند الإماميه في جامعه القرويين في مدينه فاس بتاريخ ٤ محرم الحرام ١٤٢٥هـ، و ذكرت فيها التطوّر الذي أحدثه علماء الإماميه في علم الأصول عبر القرون على نحو لا يُرى نظيره في المدارس الأخرى، و ذكرنا نماذج من تقدم الحركه الأصوليه، و قد أعقب هذه المحاضره مناقشات و استفسارات أجبنا عنها حسب ما سمح لنا الوقت بذلك.

و في اليوم الأخير من سفرنا و الذي غادرنا فيه المملكة المغربيه زرنا صباحاً

مؤسسه «دار الحديث الحسنيه» التي يديرها الدكتور أحمد الخمليشي، وقد استقبلونا بحفاوه و تكريم، و تعرّفنا هناك على عدد من الأساتذه المحترمين من أصحاب الاختصاصات المتنوّعه، و قد دار الحديث خلال هذه الزياره في مواضيع عديده لا يسع المجال لذكرها هنا.

كلّ ذلك كان بفضل ربّنا سبحانه و تعالى حيث التقينا بشخصيات علميه بارزه، و لمسنا منهم حب المعرفه و الاطلاع على مذهب الشيعة الإماميه و التقريب بين المسلمين، و الاهتمام بالتبادل الثقافي بين الجمهوريه الإسلاميه و المملكه المغربيه.

و قد وقفنا في هذه الأيام على مقال نشر في مجله «الواضح»، الصادره من «دار الحديث الحسنيه» العدد الثاني من السنه الأولى ١٤٢٥هـ تحت عنوان «أصول الفقه عند الشيعة الإماميه-تقديم و تقويم» بقلم: الدكتور أحمد الريسوني، الأستاذ في جامعه محمد الخامس في الرباط.

و من حسن الحظ أنّا قد التقينا بصاحب المقال مرتين:

الأولى: خلال إلقاء محاضره في كليه الآداب و العلوم الإسلاميه جامعه محمد الخامس، و كان موضوعها: «الفقه الإسلامى و أدواره التاريخيه».

الثانيه: كانت خلال الحفل الذى أقيم في سفاره الجمهوريه الإسلاميه في المغرب لتكريم ضيفها.

و نشكر الله الذى هيا لنا هذه اللقاءات الأخويه.

و قد قرأت المقال و وجدت أنّ المواضيع التي تخضع للبحث و النقاش فيه عباره عمّا يلى:

١. تأخر الشيعة في تدوين علم الأصول عن السنّه.

٢. أدلّه الأحكام عند الشيعة الإماميه، و منها سنّه الأئمه الاثني عشر و الإجماع.

٣. الإماميه ترفض الأخذ بالقياس و الاستصلاح لأنّها أدلّه ظنيّه، و في الوقت نفسه يعملون بالظنّيات كالعمل بأخبار الآحاد.

٤. الإماميه يقولون بحجّيه الدليل العقلي بينما يرفضون القياس و هو من بديهيات العقول و أولياتها.

٥. الإماميه ترفض حجّيه المصلحه؟! و لكنّهم يأخذونها بأسماء و أشكال متعدّده.

هذه هي المحاور التي يدور حولها مقال الدكتور الذي مارس النقد البناء، و استعرض وجهه نظره بعبارات مهذبّه، و نحن نتناول تلك الأمور بالبحث و المناقشه ضمن فصول، خضوعاً لما أفاده في مقدّمه مقاله قائلاً:

على أنّي حين أضع هذا المقال في سياق التقريب و السعي نحو التفاهم، فإنّي لا- أنفي حتميه النقاش الصريح و النقد الحر المتبادل، لأنّ التقريب المنشود لا يمكن أن يبنى على المجامله أو المحاباه، و لكنّه بحاجه إلى تحسين الظن، و تهذيب الخطاب، و تحمّل النقد بحثاً عمّا فيه من حق لقبوله، لا بحثاً- فقط- عمّا فيه من مداخل لنقضه و تسفيهه.

ص: ٥٢٧

إنّ واقع العلم المنتشر قائم بأمرين:

١. إلقاء الأفكار التي تنقذ في أذهان المؤسّسين إلى تلاميذهم.

٢. تدوين الأفكار من قبل المؤسّسين أو تلاميذهم الذين اقتبسوا من أضوائهم و استلهموا تلك الأفكار.

و ليس علم الأصول شاذّاً عن هذه القاعدة.

إذا كانت الغاية من علم الأصول هو تعليم الفقيه كيفية إقامه الدليل على الحكم الشرعي و استنتاج الأدلّة الشرعيه لاستنباط الحكم الشرعي في الحقول المختلفه، فإنّ أئمّه أهل البيت عليهم السلام- لا- سيّما الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام- هم السابقون في هذا الميدان، فقد أملوا على أصحابهم قواعد كليّه تتضمّن قواعد أصوليه تاره و قواعد فقهيه تاره أخرى، فربّوا جيلاً كبيراً من الفقهاء في مجال الاجتهاد و الاستنباط حفلت معاجم الرجال و التراجم بأسمائهم و آثارهم.

فمن سبر ما وصل إلينا من آثار الفقهاء في القرن الثاني و الثالث ممّن تربّوا في أحضان أهل البيت عليهم السلام، يقف على مدى رقيهم في سلم الاجتهاد، فمن باب المثال انظر إلى ما بقى إلى هذا الوقت من اجتهادات تلاميذ الإمامين

الصادقين عليهما السلام، نظير:

١. زراره بن أعين (المتوفى عام ١٥٠هـ) الذى يقول فى حقه ابن النديم:

زراره أكبر رجال الشيعة فقهاً و حديثاً.

٢. محمد بن مسلم الثقفى (المتوفى عام ١٥٠هـ).

٣. يونس بن عبد الرحمن (المتوفى عام ٢٠٨هـ).

٤. الفضل بن شاذان (المتوفى عام ٢٦٠هـ)، مؤلف كتاب «الإيضاح» المطبوع.

إلى غيرهم من الفقهاء البارزين، الذين تركوا تراثاً فقهيّاً مستنبطاً من قواعد أصوليه و فقهيه على نحو يبهر العقول، و قد ذكرنا شيئاً من فتاواهم و اجتهاداتهم فى كتابنا (تاريخ الفقه الإسلامى و أدواره، ج١، ص ١٩٥ - ٢٠٢).

و قد كانت اجتهاداتهم و استنباطاتهم على ضوء قواعد تلقوها عن أئمتهم عليهم السلام و استضاءوا بنور علومهم. و قد جاءت هذه القواعد مبثوثة ضمن أحاديث موجوده فى جوامعنا الحديثيه.

و قد قام جماعه من المحدّثين بفصل هذه الروايات و جمعها فى مكان واحد، نذكر منهم:

١. العلامة المجلسى (١٠٣٧ - ١١١٠هـ) الذى جمعها ضمن موسوعته الكبيره «بحار الأنوار»، فى كتاب العقل و العلم. (١)

٢. الشيخ الحرّ العاملى (المتوفى ١١٠٤هـ) الذى ألّف كتاباً مستقلاً فى هذا المضمّار أسماه «الفصول المهمه فى أصول الأئمه» و قد اشتمل على ٨٦ باباً أودع فيها الأحاديث التى تتضمّن قواعد أصوليه و فقهيه ممّا يتنى عليها الاستنباط.

ص: ٥٢٩

(١ - ١). بحار الأنوار: ٢/٢٦٦ - ٢٨٣. [١]

٣.المحدث الخبير السيد عبد الله شبر (المتوفى ١٢٤٢هـ) الذي صنّف كتاباً أسماه «الأصول الأصلية و القواعد الشرعية» يحتوى على مائه باب، وقد طبع الكتاب في ٣٤٠صفحة.

٤.العلامة الفقيه السيد محمد هاشم الخوانسارى الاصفهاني (المتوفى ١٣١٨هـ) الذى خاض بحار الأحاديث و صرف برهه من عمره فى جمع هذا النوع من الروايات المرويه عن أهل البيت عليهم السلام (و التى تتضمن الأصول و القواعد التى يبتنى عليها الاستنباط) فى كتاب سماه «أصول آل الرسول» و أورد فيه خمسه آلاف حديث من هذا النوع، و لو أسقطنا المتكرر منها لكان فى الباقي غنى و كفايه، و هذا يشهد على تقدم أئمة أهل البيت عليهم السلام فى تأسيس الفكره و هدايه الأئمة إلى تلك القواعد و الأصول.

هذا و إنّ كثيراً من أئمة الفقه كانوا سابقين فى التأسيس لا- فى التدوين، و إنّما قام بالتدوين تلاميذ منهجهم. و من المعلوم أنّ الفضل للمؤسس لا للمدوّن.

هذا الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠- ١٥٠هـ) أحد أئمة المذاهب الأربعة، و مؤسس الفقه الحنفى قد أسس مدرسه فقيهيه توسعت على يد تلاميذه، و أخصّ بالذكر منهم: تلميذه المعروف محمد بن الحسن الشيبانى (١٣١- ١٨٩هـ)، و تلميذه الآخر القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى (١١٣- ١٨٢هـ) و هذان الفقيهان اتّصلا بأبى حنيفة و انقطعا إليه و تفقّها على يديه و بهما انتشر المذهب، و الفضل للمؤسس لا للمدوّن.

و هذا أحمد بن محمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ) الحافظ الكبير الذى لم يصنّف كتاباً فى الفقه يُعدّ أصلاً و مرجعاً، و إنّما جمع أصوله تلميذ تلميذه

«الخلال» من الفتاوى المتشتمته الموجوده بين أيدي الناس و جاء من جاء بعده فاستثمرها و بلورها حتى صارت مذهباً من المذاهب.

يقول الشيخ أبو زهره: إنَّ أحمد لم يصنّف كتاباً في الفقه يُعدّ أصلاً يؤخذ منه مذهبه و يُعدّ مرجعه و لم يكتب إلاّ الحديث. (١)

و مع هذا فقد صقل تلاميذه مذهبه و ألفوا موسوعه فقهيه كبيره، كالمغنى لابن قدامه....

و أمّا مسأله التدوين فهي و إن كانت أمراً مهماً قابلاً للتقدير لكن لا نخوض فيها، على الرغم من وجود تأليف في أصول الفقه للشيعة الإماميه يعود تاريخها إلى نهايه القرن الثاني و أوائل القرن الثالث الهجري.

و من سبر تاريخ الحديث و الفقه و دور الأئمه الاثني عشر و خاصه الباقر و الصادق عليهما السلام في حفظ سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و توعيه الناس، يقف على أنّ حضور مجالسهم كان واسعاً جداً، فكان يحضر فيها فئات مختلفه من طوائف المسلمين، و كانت خطاباتهم موجهه إلى عامه الحاضرين... فإنّ الفوارق التي نشاهدها اليوم بين السنّه و الشيعة لم تكن في عصر الإمامين عليهما السلام على حد تصد غير شيعتهم عن الاختلاف إلى مجالسهم و محاضراتهم، فقد كان يشهد حلقات دروسهم فريق من التابعين و تابعي التابعين، من غير فرق بين من يعتقد بإمامتهم و قيادتهم أو من يرى أنّهم مراجع للعقائد و الأحكام.

هذا هو التاريخ يحكى عن أنّ حلقه درس الإمام الصادق كانت تضم عدداً كبيراً من رجال العلم، وها نحن نذكر فيما يلي أسماء البارزين منهم:

١. النعمان بن ثابت (المتوفى ١٥٠هـ) صاحب المذهب الفقهي المعروف.

ص: ٥٣١

١- ١. ابن حنبل حياته و عصره لأبي زهره: ١٦٨.

يقول محمود شكرى الألوسى فى كتابه «مختصر التحفه الاثنى عشرية»: هذا أبو حنيفه و هو من بين أهل السنّه كان يفتخر و يقول بأفصح لسان: لو لا السنّان لهلك النعمان، يريد السنّين اللتين صحب فيهما - لأخذ العلم - الإمام جعفر الصادق عليه السلام. (١)

يقول أبو زهره: و أبو حنيفه كان يروى عن الصادق كثيراً، و اقرأ كتاب الآثار لأبى يوسف، و الآثار لمحمد بن الحسن الشيبانى فإنك واجد فيهما روايه عن جعفر بن محمد فى مواضع ليست قليله. (٢)

٢. مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩هـ) و كانت له صله تامّه بالإمام الصادق عليه السلام، و روى الحديث عنه، و اشتهر قوله: ما رأيت عين أفضل من جعفر بن محمد.

٣. سفيان الثورى (المتوفى ١٦١هـ) من رؤساء المذهب و حمله الحديث و كان له اختصاص بالإمام الصادق، و قد روى عنه الحديث، كما روى كثيراً من آدابه و أخلاقه و مواظبه.

٤. سفيان بن عيينه (المتوفى ١٩٨هـ) و هو من رؤساء المذاهب البائده.

٥. شعبه بن الحجاج (المتوفى ١٦٠هـ)، خرّج له أصحاب الصحاح و السنن.

٦. فضيل بن عياض (المتوفى ١٨٧هـ)، أحد أئمّه الهدى و السنّه. خرّج له البخارى.

٧. حاتم بن إسماعيل (المتوفى ١٨٠هـ) خرّج له البخارى و مسلم، أخذ عن

ص: ٥٣٢

١- ١. مختصر التحفه: ص ٨، طبع عام ١٣٠١هـ.

٢- ٢. الإمام الصادق: ٣٨. [١]

الصادق عليه السلام و أخذ عنه خلق كثير.

٨. حفص بن غياث (المتوفى ١٩٤هـ) روى عن الصادق عليه السلام و روى عنه أحمد و غيره.

٩. إبراهيم بن محمد أبو إسحاق المدني (المتوفى ١٩١هـ) روى عن الصادق.

١٠. عبد الملك بن جريج القرشي (المتوفى ١٤٩هـ).

هذه عشره كامله و من أراد أن يقف على حمله علمه و تلامذه منهجه من السنّه، فعليه بكتاب «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة» لأسد حيدر، ج ١، ص ٤٠٠ - ٤٢١.

هذه نبذه ممن استناروا بنور الصادق عليه السلام الوهاج، و انتهلوا من نميره العذب، و تلقوا عنه الفقه و الحديث كما تلقاهما عنه غيرهم من شيعته.

ص: ٥٣٣

إشاره

اتفقت الشيعه الإماميه على أنّ منابع الفقه و مصادره لا تتجاوز الأربعة، و هى:

١. الكتاب.

٢. السنّه.

٣. الإجماع.

٤. العقل.

و ما سواها إمّا ليست من مصادر التشريع، أو ترجع إليها.

هذا هو فقيه القرن السادس محمد بن إدريس الحلّي (٥٤٣-٥٩٨هـ) يذكر الأدله الأربعة فى ديباجه كتابه (السرائر) و يُحدّد موضع كلّ منها، و يقول: فإنّ الحقّ لا يعدو أربع طرق: إمّا كتاب الله سبحانه، أو سنّه رسوله صلى الله عليه و آله و سلم المتواتره المتفق عليها (١)، أو الإجماع، أو دليل العقل؛ فإذا فقدت الثلاثه فالمعتمد فى المسائل

ص: ٥٣٤

(١- ١). اشتراط التواتر نظريه خاصه لقليل من علماء الإماميه، فالجمهور منهم يعملون بخبر العدل أيضاً.

الشرعيه عند المحققين الباحثين عن مأخذ الشريعه، التمسك بدليل العقل فيها، فإنها مبقاه عليه و موكوله إليه، فمن هذا الطريق يوصل إلى العلم بجميع الأحكام الشرعيه في جميع مسائل أهل الفقه، فيجب الاعتماد عليها و التمسك بها. (١)

تقسيم الأدله إلى اجتهاديه و أصول عمليه

تقسيم الأدله إلى اجتهاديه و أصول عمليه من خصائص الفقه الشيعي، و أما الفرق بينهما فهو ما يلي:

إذا كان الملا-ك في اعتبار شيء حجه على الحكم الشرعي هو كونه أماره للواقع و طريقاً إليه عند المعتبر فهو دليل اجتهادي كالأدله الأربعة. فإن الملا-ك في حجيتها هو ما ذكرنا، فإن كلاً من الكتاب و السنه حتى الخبر الواحد منها طريق إلى الواقع و كاشف عنه إما كشافاً تاماً كما إذا أفاد القطع، أو كشافاً غير تام كما في خبر العدل، و على كل تقدير فالملاك لا اعتبره حجه هو كاشفته عن الواقع.

و أما إذا كان الملا-ك بيان الوظيفه و وضع حلول عمليه للمكلفين عند قصور يد المجتهد عن الواقع فهو أصل عملي، فالملاك لا اعتبار هذا القسم من الأدله هو رفع التحير و إراءه الوظيفه عند اليأس عن العثور على دليل موصل للواقع، و لذلك أخذ في لسان حجيتها الجهل بالواقع و عدم توفر طريق في متناوله. و هذه الأصول العامه التي تجرى في عامه أبواب الفقه لا تتجاوز الأربعة، و هي:

١. أصاله البراءه.

٢. أصاله الاشتغال.

٣. أصاله التخيير.

ص: ٥٣٥

و لكلّ منها مجرى خاص:

أمّا الأولى:فمجرها هو الشكّ فى التكليف،فإذا كان المجتهد شاكّاً فى أصل الوجوب أو الحرمة،و تفحص عن مظانّ الأدلّه و لم يقف على دليل و حجّه على الحكم الشرعى،فوظيفته الحكم بالبراءة عن التكليف،كما إذا شكّ مثلاً فى وجوب الدعاء عند رؤيه الهلال مثلاً أو ما أشبهه ذلك،و الأصل له رصيد قطعى و هو:

أ.قول الرسول صلى الله عليه و آله و سلم:رفع عن أمّتى تسعه...و ما لا يعلمون.

ب.حكم العقل بقبح عقاب الحكيم دون بيان واصل.

و أمّا الثانية:فمجرها فيما إذا علم بالحكم الشرعى،و لكن تردّد الواجب أو الحرام بين أمرين،فيجب عليه الجمع بين الاحتمالين بالإتيان بهما عند تردّد الواجب،و الاجتناب عنهما عند تردّد الحرام.

مثلاً إذا علم بفوت صلاه مردّده بين المغرب و العشاء يجب عليه الجمع بينهما،أو إذا علم نجاسه أحد الإنائين من غير تعيين يجب الاجتناب عن كليهما.

و أمّا الثالثة:فمجرها ما إذا دار حكم الشىء بين الوجوب و الحرمة و لم يقف على دليل شرعى يوصله إلى الواقع،فالوظيفه العمليه هى التخيير.

و أمّا الرابعة:فمجرها ما إذا علم بوجوب شىء أو بطهارته لكن شكّ فى بقاء الحكم أو بقاء الموضوع و تفحص و لم يقف على بقائه أو زواله،فالمرجع هو الأخذ بالحاله السابقه أخذاً بقول الإمام الصادق عليه السلام«لا يُنقض اليقين بالشك».

هذه هى الأصول العمليه الأربعة التى استنبطها المجتهدون من الكتاب و السنّه،و لا يرجع إليها إلا عند فقد النص على الحكم الشرعى،و لكلّ مجرى

خاصّ و ليس الملاك في اعتبارها كونها كاشفه عن الواقع، بل كونها مرجعاً للوظيفه الفعلية.

تقسيم الأصول إلى محرزه و غير محرزه

اشاره

إنّ الأصول العمليه تنقسم إلى: أصول محرزه، و أصول غير محرزه. و المراد من الإحراز، هو إحراز الواقع و الكشف عنه، و ذلك لأنّ بعض الأصول فيه جهه كشف عن الواقع، كشفاً ضعيفاً، لكن العقلاء لا يعتبرون في معاملاتهم و سياساتهم كونه حجّه لهذه الجهه، بل الملاك لاعتباره هو تسهيل الأمر في الحياه و وضع حلول عمليه في ظرف الجهل و الشكّ، كما أنّ الشارع الذي أمضاه و اعتبره حجّه في الفقه، لم يعتبره لهذه الغايه حتّى يكون أماره عقلائيّه كخبر الثقه.

و مثلاً لذلك بالأصول العمليه الثلاثه:

١. الاستصحاب.

٢. قاعده اليد.

٣. قاعده التجاوز.

فالأوّل منها أصل عام يجرى في عامّه أبواب الفقه، بخلاف الأخيرين فإنّهما خاصان ببعض الأبواب.

و ما سوى ذلك أصل غير محرز كأصالة البراءه و الاشتغال و التخيير.

هذه هي أدلّه الأحكام عند الشيعه الإماميه، فهلمّ معي ندرس ما ذكره الأستاذ حول أدلّه الأحكام عند الشيعه لنرى فيه مواقع الخطأ و الالتباس على ضوء الدراسه الصحيحه لأصول الفقه عند الإماميه.

ص: ٥٣٧

يقول الأستاذ: جعلت الشيعة أدلّه الأحكام المعتمده أربعه: الكتاب و السنّه و الإجماع و العقل، ثم قال: و لا يخفى على الدارس أنّ هذا هو مسلک الإمام الغزالي في باب الأدلّه. (١)

يلاحظ عليه: لا نظن أنّ الأستاذ يتّهم الشيعة بمتابعه الغزالي في حجّيه الكتاب و السنّه، فإنّ المسلمين قاطبه يقولون بذلك. و إنّما مظنّه التهمه قولهم بحجّيه العقل.

فنقول: هناك فرق واضح بين المسلكين: الإمامي و الغزالي، فإنّ الأوّل يعتمد على التحسين و التقيح العقليين، و الغزالي تبعاً لإمام مذهبه يرفض ذلك و يقول: إنّ لله عزّ و جلّ إيلام الخلق و تعذيبهم من غير جرم سابق، لأنّه متصرّف في ملكه.... (٢)

و العقل الّذي هو مصدر التشريع عند الإماميه أو كاشف عن التشريع الإلهي - على الأصح - هو العقل المعتمد على حكيمين ينبعان من صميم العقل و هما:

١. التحسين و التقيح العقليان.

٢. الملازمات العقليه.

و أين الغزالي و منهاج أستاذه عن القول بهما؟!

و تضافرت الروايات عن أئمّه أهل البيت عليهم السلام على حجّيه العقل قبل أن يولد الغزالي بقرون، قال الإمام الصادق عليه السلام: «حجّه الله على العباد النبي، و الحجّه فيما

ص: ٥٣٨

١ - ١). الصفحه ٨٦ مجله الواضحه.

٢ - ٢). قواعد العقائد: ٦٠ و ٢٠٤.

و قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام (المتوفى ١٨٣هـ) مخاطباً هشام بن الحكم: «يا هشام إنَّ لله على الناس حجتين: حجَّه ظاهره، و حجَّه باطنه؛ فأما الظاهره فالرسول و الأنبياء و الأئمَّه، و أمَّا الباطنه فالعقول». (٢).

إنَّ أئمَّه أهل البيت عليهم السلام أعطوا للعقل أهميه كبيره، فهذا هو الإمام الباقر عليه السلام يقول: «إنَّ الله لمَّا خلق العقل استنطقه-إلى أن قال:- و عزَّتى و جلالى ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إلىَّ منك، و لا أكملتك إلاَّ فى مَنْ أُحبُّ، أما إنى إياك أمر و إياك أنهى، و إياك أعاقب و إياك أُثيب». (٣).

فكان المترقب من الأستاذ المحترم أن لا يقضى فى الموضوع إلاَّ بعد الإحاطه بأصول الشيعة الإماميه.

٢. تقييم تعريفه للأدلة الاجتهاديه و الأصول العمليه

قد تعرَّفت على ما هو الفرق بين الأدله الاجتهاديه و الأصول العمليه، و على تقسيم الأصول إلى أصل محرز و غير محرز.

و للأستاذ كلام فى هذا الصدد نأتى به:

أ. الأدله الأربعة المعتمده المشار إليها آنفاً تسمى الأدله المحرز-الكتاب، السنه،العقل، و الإجماع- و يقابلها الأصول باعتبارها تعطى حلاً عمليه للمكلفين حين يتعذر عليهم إحراز الحكم الشرعى من دليله.

ص: ٥٣٩

١- (١). الكليني: الكافي: ٢٥/١، كتاب العقل و الجهل، الحديث ٢٢. [١]

٢- (٢). الكافي: ١٦/١، كتاب العقل و الجهل، الحديث ١٢. [٢]

٣- (٣). الكافي: ١٠/١، كتاب العقل و الجهل، الحديث ١. [٣]

يلاحظ عليه: أنه أصاب في التفريق بين الأدلة الأربعة و الأصول العملية إلا- أن وصف الأدلة الأربعة بالأدلة المحرزة، خلاف المصطلح و إنما يوصف بها بعض الأصول، فمنها أصل محرز و منها غير محرز. كما تقدم في كلامنا، و إنما توصف الأدلة الأربعة، بالأدلة الاجتهادية.

ب. و يدخل ضمن هذه الأصول العملية جملة قواعد: أهمها قاعده الاحتياط، انطلاقاً من أن الأصل هو شغل الذمه بالتكليف و أن لله في كل نازله حكماً يتعين الالتزام به، و قاعده البراءة الأصلية، انطلاقاً من أن الأصل براءة الذمه من التكليف، و قاعده الاستصحاب التي تقضى بإبقاء ما كان على ما كان انطلاقاً من أن اليقين لا يرتفع بالشك. (١)

يلاحظ عليه: أن قاعده الاحتياط تنطلق من العلم القطعي بنفس التكليف في الواقعه بلا تردد فيه، و الجهل بالموضوع، كما إذا علم بفوت إحدى الصلاتين المغرب أو العشاء، فيجب عليه قضاؤهما، و ما ذكره من المنطلق يعني أن «الأصل هو شغل الذمه بالتكليف» لا صلة له بقاعده الاحتياط، بل أساسه هو العلم بالتكليف و الجهل بالمتعلق.

و العجب أنه عند ما يفسر قاعده الاحتياط عند الإماميه، يقول: الأصل شغل الذمه بالتكليف.

و عند ما يفسر قاعده البراءة عندهم يقول: الأصل براءة الذمه من التكليف، و هذا تناقض واضح، فلو كان الأصل هو الاشتغال فما معنى كون الأصل هو البراءة!؟

ص: ٥٤٠

و هذا يكشف عن أنّ الأستاذ لم يكن ملماً بأصول الفقه عند الإماميه حيث ارتكب في بيانها التناقض.

كما أنّ ما ذكره: «أنّ لله في كلّ نازله حكماً يتعيّن الالتزام به» وجعله منطلقاً للاحتياط عجيب جداً، لأنّ العلم بأنّ لله في كلّ نازله حكماً لا يسبب الاحتياط، إذ من المحتمل أن يكون حكم الله في المورد هو الإباحه أو الكراهه، أو الاستحباب.

ص: ٥٤١

السنّه هي المصدر الثاني للعقيدته و الشريعة، سواء أ كانت منقوله باللفظ و المعنى، أو كانت منقوله بالمعنى فقط، إذا كان الناقل ضابطاً في النقل.

و قد خصّ الله بها المسلمين دون سائر الأمم، إذ إنهم اهتموا بنقل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قول و فعل و تقرير، و بذلك صارت السنّه من مصادر التشريع الإسلامي.

و قد أكد أئمّه أهل البيت عليهم السلام على أنّ السنّه الشريفه هي المصدر الرئيسي بعد الكتاب، و أنّ جميع ما يحتاج الناس إليه قد بيّنه سبحانه في الذكر الحكيم أو ورد في سنّه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله تبارك و تعالى لم يدع شيئاً يحتاج إليه الأئمّه إلّا أنزله في كتابه و بيّنه لرسوله، و جعل لكلّ شيء حدّاً، و جعل عليه دليلاً يدلّ عليه، و جعل على من تعدّى ذلك الحدّ حدّاً». (١)

و قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلّا و فيه كتاب أو سنّه». (٢)

ص: ٥٤٢

١- ١). الكافي: ٥٩/١، باب الرد إلى الكتاب و السنّه، الحديث ٢، ٤. [١]

٢- ٢). الكافي: ٥٩/١، باب الرد إلى الكتاب و السنّه، الحديث ٢، ٤. [٢]

و روى سماعه عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام، قال: قلت له: أكل شيء في كتاب الله و سنّه نبيّه، أو تقولون فيه؟

قال: «بل كلّ شيء في كتاب الله و سنّه نبيّه». (١)

روى أسامه، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام و عنده رجل من المغيريه (٢)، فسأله عن شيء من السنن؟ فقال: «ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلا و قد خرجت فيه سنّه من الله و من رسوله، و لو لا ذلك، ما احتج علينا بما احتج؟»

فقال المغيرى: و بما احتج؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً» ٣ فلو لم يكمل سنّته و فرائضه و ما يحتاج إليه الناس، ما احتج به». (٣)

روى أبو حمزه، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في خطبته في حجّه الوداع: «أيّها الناس اتّقوا الله ما من شيء يقربكم من الجنّه و يباعدكم من النار إلا و قد نهيتكم عنه و أمرتكم به». (٤)

إلى غير ذلك من النصوص المتضافره عن أئمّه أهل البيت عليهم السلام من التأكيد على السنّه و الركون إليها.

ص: ٥٤٣

١- ١. الكافي: ٦٢/١، باب الرد إلى الكتاب و السنّه، الحديث ١٠. [١]

٢- ٢. هم أصحاب المغيره بن سعيد، الذي تبرأ منه الإمام الصادق عليه السلام.

٣- ٤. البحار: ١٦٨/٢، ح ٣. [٢]

٤- ٥. البحار: ١٧١/٢، ح ١١. [٣]

كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقوم بأمر و مهام لها صلة بالجوانب المعنوية - بالإضافة إلى إداره دفعه الحكم - و هي:

١. تبيين الأحكام الشرعيه و الإجابة عن الحوادث المستجده التي لم يُبين حكمها في الكتاب و لا في السنه الصادره إلى يومها.
٢. تفسير القرآن الكريم و تبيين مجملاته و تقييد مطلقاته و تخصيص عموماته.

٣. الرد على الشبهات و التشكيكات التي يطلقها أعداء الإسلام من اليهود و النصارى بعد الهجره.

و من المعلوم أنّ من يقوم بهذه المسئوليات، سوف يُورث فقدته فراغاً هائلاً في نفس هذه المجالات، و من الخطأ أن نّتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم - و العياذ بالله - بأنه قد ارتحل من دون أن يفكر في ملء تلك الثغرات المعنويه الحاصله برحيله....

فإذا رجعنا إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقف على أنه قد سدّ هذه الثغرات باستخلاف مَنْ جعلهم قرناء الكتاب و أعداله، و أناط هدايه الأئمه بالتمسك بهما، و نذكر نماذج من كلماته صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال:

١. روى ابن الأثير الجزري في «جامع الأصول» عن جابر بن عبد الله، قال:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجّه الوداع يوم عرفه و هو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: «إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله و عترتي أهل بيتي». (١)

ص: ٥٤٤

٢. و أخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم، قال:

قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فبنا خطيباً بماء يُدعى خمأ بين مكة والمدينة، و حمد الله و أثنى عليه و وعظ و ذكر، ثم قال:

أمّا بعد: ألا- أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب، و أنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله فيه الهدى و النور فخذوا بكتاب الله و استمسكوا به. فحثّ على كتاب الله و رغب فيه.

ثم قال: و أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي. (١)

٣. أخرج الترمذى في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجّه يوم عرفه على ناقته القصواء يخطب فسمعتة، يقول: يا أيها الناس إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله و عترتى. (٢)

٤. أخرج الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتى أهل بيتي، و أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. (٣)

و هذا الحديث المعروف بحديث الثقلين رواه عن النبى أكثر من ثلاثين صحابياً، و دونه ما يربو على ثلاثمائة عالم فى كتبهم فى مختلف العلوم و الفنون، و فى جميع الأعصار و القرون، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين، و قد عيّن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بركة هذا الحديث من يسدّ هذه الثغرات و يكون

ص: ٥٤٥

١- ١. صحيح مسلم: ٣٢٥/٢.

٢- ٢. سنن الترمذى: ٦٦٢/٥، باب مناقب أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم. [١]

٣- ٣. مسند أحمد: ١٤/٣. [٢]

المرجع العلمى بعد رحيله و ليس هو إلا أهل بيته.

و بهذا يتبين أنّ العتره عليهم السلام عيبه علم الرسول و خزنه سننه و حفظه كلمه، تعلموها بعنايه من الله تبارك و تعالى كما تعلم صاحب موسى بفضل من الله دون أن يدرس عند أحد، و لذلك تمنى موسى عليه السلام أن يعلمه ممّا علم.

قال سبحانه حاكياً عن لسان نبيه موسى: «قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً». ١

و على ضوء ذلك فليس لأئمة أهل البيت عليهم السلام سنّه و لا تشريع، و ما أثر عنهم من قول و فعل أو تقرير، فإنّما يعتبر لكونهم حفظه سنن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فلا يصدرن و لا يحكمون إلا بسنّته.

فلو قيل: إنّ قول الإمام عليه السلام أو فعله أو تقريره سنّه إنّما يراد به أنّهم تراجم سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أقواله و أفعاله.

فما قاله العلامة الشيخ المظفر قدس سره من أنّ المعصوم من آل البيت عليهم السلام يجرى قوله مجرى قول النبي صلى الله عليه و آله و سلم من كونه حجه على العباد، إنّما يريد ذلك و ما أحسن قوله: «يجرى مجرى قول النبي صلى الله عليه و آله و سلم»، فلو كان أئمة أهل البيت عليهم السلام هم أصحاب سنن في عرض سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فلما ذا قال «يجرى قولهم مجرى قول النبي صلى الله عليه و آله و سلم»؟!

هذه عقيدته الإماميه من أولهم إلى آخرهم؛ فالتشريع لله سبحانه فقط، و النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم هو المبلّغ عن الله سبحانه في ما شرّعه، و أئمة أهل البيت خلفاء رسول الله و حفظه سننه و تراجم كلمه، و المبلّغون عنه السنن حتى يجسدوا إكمال الدين في مجالى العقيدته و الشريعته.

و حين قال سبحانه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ١ فَإِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ نَصْبِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِلْخِلاَفَةِ لِكَيْ يَقُومَ بِنَفْسِ الْمَسْئُولِيَّاتِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا بِهَا طِيلَهُ أَيَّامَ رِسَالَتِهِ، وَيَمَلَأُ الثُّغْرَاتِ الَّتِي أَعْقَبَتْهَا رِحْلَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ أَنَّهُ نَبِيُّ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ وَهَذَا وَصَىٰ حَافِظَ لِسَنَّتِهِ.

سَنَّةُ الصَّحَابَةِ فِي مَقَابِلِ سَنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

لَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْأُسْتَاذَ قَدْ عَجِبَ مِنْ وَجُودِ سَنَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَقَدْ فَسَّرْنَا مَعْنَى ذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِيَّةِ، وَقُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ لِلْأُمَّةِ سَنَةٌ سِوَى مَا سَنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ أُفْتُتْ نَظْرُهُ إِلَى أَنَّ أَهْلَ السَّنَّةِ قَدْ قَالُوا بِوَجُودِ سَنَنِ أُخْرَى بَعْدَ سَنَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَإِلَيْكَ مَا يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ:

١. الْحَدِيثُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ: «عَلَيْكُمْ بِسَنَّتِي وَ سَنَةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ».

يَقُولُ ابْنُ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ: فَقَدْ قَرَنَ سَنَةَ خُلَفَائِهِ بِسَنَّتِهِ وَ أَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا كَمَا أَمَرَ بِاتِّبَاعِ سَنَّتِهِ، وَ هَذَا يَتَنَاوَلُهُ مَا أَفْتُوا بِهِ وَ سَنُوهُ لِلْأُمَّةِ وَ إِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْءٌ وَ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ سَنَةً. (١)

فَالرَّوَايَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلصَّحَابَةِ سَنَةً كَسَنَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعِنْدَهُمْ سَنَةُ أَبِي بَكْرٍ وَ سَنَةُ عُمَرَ وَ سَنَةُ عُثْمَانَ وَ سَنَةُ عَلِيٍّ.

٢. رَوَى السِّيُوطِيُّ: قَالَ حَاجِبُ بْنُ خَلِيفَةَ: شَهِدْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَ هُوَ خَلِيفَتُهُ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: عَلِيُّ أَنْ مَا سَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ صَاحِبَاهُ

ص: ٥٤٧

فهو دين نأخذ به و ننتهى إليه، و ما سنّ سواهما فإننا نرجئه. (١)

أبعد هذه النصوص يصحّ للأستاذ أن يستغرب من وجود سنّه لأئمّه أهل البيت عليهم السلام: أعلام الهدى و مصابيح الدجى و قرناء الكتاب، و ثانى الثقليين....

و لو لا المخافه من تكدير مياه الصفاء لبسطنا القول فى ذلك.

طُرق علم الأئمّه بالسنّه

إشاره

قد أشرنا إلى أنّه ليس لأئمّه أهل البيت عليهم السلام سنّه خاصّه، بل هم حفظه سنن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و لسائل أن يسأل: ما هى طرقهم إلى سنن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أكثرهم لم يعاصروه و لم يسمعوها منه مباشرة، و من المعلوم أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد عاصره الإمام على و الإمامان الحسن و الحسين عليهم السلام، فقط؟

و الإجابة عن هذا السؤال واضحة لمن عرف أحاديث الشيعة و أنس بجوامعهم، فإنّ لهم عليهم السلام طرقاً إلى سنن النبي صلى الله عليه و آله و سلم تأتي ببعضها:

الأول: السماع عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

إنّ الأئمّه عليهم السلام يروون أحاديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سماعاً منه بلا واسطه أو بواسطه آبائهم، و لذلك ترى فى كثير من الروايات أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: حدّثنى أبى عن زين العابدين عن أبيه الحسين بن على عن على أمير المؤمنين عن الرسول الأكرم.

و هذا النمط من الروايات كثير فى أحاديثهم.

فأئمّه أهل البيت عليهم السلام رووا أحاديث كثيره عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن هذا الطريق

ص: ٥٤٨

دون أن يعتمدوا على الأخبار و الرهبان أو على مجاهيل أو شخصيات متستره بالنفاق.

الثانى: كتاب على عليه السلام

كان لعلى عليه السلام كتاب خاص بإملاء رسول الله و قد حفظته العتره الطاهره عليهم السلام و صدرت عنه فى مواضع كثيره و نُقلتْ نصوصه فى موضوعات مختلفه، و قد بث الحرّ العاملى فى موسوعته الحديثيه، أحاديث ذلك الكتاب حسب الكتب الفقهيّه من الطهاره إلى الديات، و من أراد فليرجع إلى تلك الموسوعه.

و إليك شذرات من أقوال الأئمه بشأن هذا الكتاب الذى كانوا يتوارثونه و ينقلون عنه و يستدلّون به:

قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «إنّ العلم فينا و نحن أهله، و هو عندنا مجموع كلّه بحذافيره، و منه لا يحدث شىء إلى يوم القيامة حتّى أُرش الخدش إلّا و هو عندنا مكتوب، بإملاء رسول الله و خطّ على بيده». (١)

و قال أبو جعفر الباقر عليه السلام لأحد أصحابه -أعنى: حمران بن أعين- و هو يشير إلى بيت كبير: «يا حمران إنّ فى هذا البيت صحيفه طولها سبعون ذراعاً بخطّ على و إملاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، لو وُلينا الناس لحكمتنا بما أنزل الله، لم نعد ما فى هذه الصحيفه».

و قال عليه السلام أيضاً لبعض أصحابه: يا جابر إنّنا لو كنّا نحدّثكم برأينا و هو انّا لکنّا من الهالكين، و لكنّا نحدّثكم بأحاديث نكتزها عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم».

و قال الإمام الصادق عليه السلام عند ما سئل عن الجامعه: «فيها كلّ ما يحتاج

ص: ٥٤٩

١- ١. الاحتجاج: ٦/٢، [١] بحار الأنوار: ٤٧/٨٩. [٢]

الناس إليه، وليس من قضيه إلا فيها حتى أرش الخدش».

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تعريف كتاب علي عليه السلام: «فهو كتاب طوله سبعون ذراعاً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فلق فيه وخط علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، حتى أن فيه أرش الخدش و الجلده و نصف الجلده». (١)

ويقول سليمان بن خالد: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن عندنا لصحيفه طولها سبعون ذراعاً، إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط علي عليه السلام بيده، ما من حلال ولا حرام إلا وهو فيها حتى أرش الخدش».

وقد كان علي عليه السلام أعلم الناس بسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكيف لا يكون كذلك، وهو القائل: «كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاني، وإذا سكت ابتدأني». (٢)

الثالث: أنهم محدثون

لأجل إيقاف القارئ على المحدث في الإسلام ومفهومه نذكر شيئاً في توضيحه.

«المحدث» من تكلمه الملائكة بلا نبوه ورؤيه صورته، أو يلهم ويلقى في روعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفه من المبدأ الأعلى، أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره.

فالمحدث بهذا المعنى مما أصفقت الأمة الإسلاميه عليه، بيد أن

ص: ٥٥٠

١ - ١. قد جمع العلامة المجلسي ما ورد من الأثر حول كتاب علي في موسوعته بحار الأنوار: ١٨/٢٦ - ٦٦ تحت عنوان، باب

جهات علومهم وما عندهم من الكتب، الحديث: ٢٠، ١٠، ١، ١٢.

٢ - ٢. المستدرک للحاكم: ٣/١٢٥.

الخلافة في مصاديقه، فالسنه ترى عمر بن الخطاب من المحدثين، والشيعه ترى علياً و أولاده الأئمه منهم.

أخرج البخارى فى صحيحه: عن أبى هريره قال: قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: لقد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجالٌ يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء؛ فإن يكن من أمتى منهم فعمراً. (١)

وقد أفاض شراح صحيح البخارى الكلام حول المحدث. (٢)

وللمحدثين من أهل السنه كلمات حول المحدث نأتى بملخصها:

يقول القسطلانى حول الحديث: يجرى على ألسنتهم الصواب من غير نبوه. (٣)

وأخرج مسلم فى صحيحه فى باب فضائل عمر عن عائشه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم.

وقال النووى فى شرح صحيح مسلم: اختلف تفسير العلماء للمراد ب«محدثون» فقال ابن وهب: ملهون، وقيل: يصيبون إذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيء فظنوه، وقيل: تكلمهم الملائكه وجاء فى روايه مكلمون. (٤)

وقال الحافظ محب الدين الطبرى فى «الرياض»، ومعنى «محدثون» -والله أعلم- أن يلهموا الصواب، ويجوز أن يحمل على ظاهره وتحدثهم

ص: ٥٥١

١-١. صحيح البخارى: ٢٠٠/٤، باب مناقب المهاجرين و فضلهم، دار الفكر، بيروت.

٢-٢. لاحظ: إرشاد السارى، شرح صحيح البخارى للقسطلانى: ٩٩/٦.

٣-٣. إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى: ٤٣١/٥.

٤-٤. شرح صحيح مسلم للنووى: ١٦٦/١٥، دار الكتاب العربى، بيروت.

الملائكة لا لوحى، وإنما بما يطلق عليه اسم حديث، وتلك فضيله عظيمه. (١)

و حصيله الكلام: أنه لا- وازع من أن يخصّ سبحانه بعض عباده بعلوم خاصّه يرجع نفعها إلى العامّه من دون أن يكونوا أنبياء، أو معدودين من المرسلين، والله سبحانه يصف مصاحب موسى بقوله: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» ولم يكن المصاحب نبياً، بل كان ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالى بلغ من العلم والمعرفه مكانه، دعت موسى- وهو نبى مبعوث بشريعه- إلى القول: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». ٢

و يصف سبحانه وتعالى جليس سليمان- آصف بن برخيا- بقوله: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي». ٣

و هذا الجليس لم يكن نبياً، ولكن كان عنده علم من الكتاب، وهو لم يحصّله من الطرق العاديه التى يتدرّج عليها الصبيان و الشبان فى المدارس و الجامعات، بل كان علماً إلهياً أفيض عليه لصفاء قلبه و روحه، ولأجل ذلك ينسب علمه إلى فضل ربه و يقول: «هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي». ٤

و الإمام على و الأئمه من بعده، الذين أنيطت بهم الهدايه فى حديث

ص: ٥٥٢

الثقلين، ليسوا بأقل من مصاحب موسى عليه السلام، أو جليس سليمان، فأى وازع من أن يقفوا على سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الإشراقات الإلهية؟!

الرابع: الاستنباط من الكتاب و السنه

هذا هو الطريق الرابع، فقد كانوا يستدلون على الأحكام الإلهية بالكتاب و السنه بوعى متميز يبهر العقول و يورث الحيره، و لو لا خشيه الإطاله فى المقام لنقلنا نماذج كثيره من ذلك، و نكتفى هنا بانموذج واحد و هو: قُدم إلى المتوكل رجل نصرانى فجر بامرأه مسلمه فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى ابن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، و قال بعضهم: يُضرب ثلاثه حدود، فكتب المتوكل إلى الإمام على الهادى عليه السلام (١) يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: يُضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العله، فكتب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَيْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» ٢.

فأمر به المتوكل فضرب حتى مات. (٢)

إن الإمام الهادى بيانه هذا شقّ طريقاً خاصاً لاستنباط الأحكام من الذكر الحكيم، طريقاً لم يكن يحلم به فقهاء عصره، و كانوا يزعمون أنّ مصادر الأحكام الشرعيه هى الآيات الواضحه فى مجال الفقه التى لا تتجاوز ثلاثمائه

ص: ٥٥٣

١-١). الإمام العاشر و هو على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق عليهم السلام.

٢-٣). مناقب آل أبى طالب: ٤/٤٠٥. [١]

آيه، وبذلك أبان للقرآن وجهاً خاصاً لدلالته، لا يلتفت إليه إلا من نزل القرآن في بيته، وليس هذا الحديث غريباً في مورده، بل له نظائر في كلمات الإمام وغيره من آبائه وأبنائه عليهم السلام.

هذه إمامه عابره في بيان طرق أهل البيت عليهم السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فما روى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حول علمهم بالسنة فإنما هو ناظر إلى ما سبق ذكره.

سئل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه، أو تقولون فيه؟ فقال: «لا بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه». (١)

فالإمام يريد بالسنة ما ذكرنا (مصادرها وطرقها) لا خصوص السنة الموجودة في أفواه الناس وعلى ألسنتهم، وإن كان ربما يلتقى علمهم بالسنة بما رواه الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض المواضع.

هذه الرواية العابره توقفنا على مدى ما تلقاه الأئمة من سنن النبي، أبعدها هذا يصح أن نعتمد على ما رواه البخاري عن أبي جحيفة الذي قال: قلت لعلی:

عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر. (٢)

كيف لا يكون عند علي عليه السلام كتاب يجمع فيه سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء هم أبناء علي عليه السلام ينقلون عنه ويعتمدون عليه؟!

والعجب مما ورد في هذه الرواية من أن الصحيفة التي كان يحتفظ بها

ص: ٥٥٤

١- ١). الكافي: ١/٦٢، باب الرد إلى الكتاب والسنة، الحديث ١٠. [١]

٢- ٢). صحيح البخاري: ١/٦٤، باب كتابه العلم، الحديث ٥٢.

على لم تشتمل إلا على جمل محدوده، فلو لم يكن عند على و أبنائه المعصومين إلا ما جاء فى هذه الروايه، فمن أين هذه العلوم الموروثة عنه و عن أبنائه الصادقين التي بهرت العقول!؟

كيف لا يكون عند على عليه السلام سوى ما فى هذه الصحيفه أو ما فى ألسن الناس مع أنّ المسلم عند الفريقين أنّ علياً كانت عنده علوم و أسرار لم تكن عند غيره، و كان الصحابه يرجعون إليه فى المشاكل و المسائل العويصه، فهذا عمر بن الخطاب و سائر الخلفاء كانوا يرجعون إليه و يسألونه، كيف لا و هو باب مدينه علم النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و قد قام زميلنا الجليل المغفور له الشيخ على الأحمدي. بجمع ما ورد فى كتاب على عليه السلام ممّا هو مبثوث فى الجوامع الحديثيه و رتبه على ٢٦ باباً (١)، و ما جمعه إنّما هو غيظ من فيض و قليل من كثير ممّا كان فى الأصل.

ص: ٥٥٥

١- ١). مكاتيب الرسول: ١٣٥/٢ - ٣١٣.

الرابع تقييم الإجماع عند الإماميه

إشاره

عدّ الأصوليون الإجماع من أحد الأدلّه الشرعيه، غير أنّهم اختلفوا في ملاك الحجّيه فالمحقّقون من السنّه قالوا: إنّ الإجماع يجب أن يكون مستنداً إلى دليل شرعى قطعى أو ظنّي كالخبر الواحد و المصالح المرسله و القياس و الاستحسان.

فلو كان المستند دليلاً قطعياً من قرآن أو سنّه متواتره، يكون الإجماع مؤيداً معاضداً له (١)؛ و لو كان المستند دليلاً ظنياً، فيرتقى الحكم بالإجماع من مرتبه الظن إلى مرتبه القطع و اليقين. و مثله إذا كان المستند هو المصلحه أو دفع المفسده، فالاتفاق على حكم شرعى -استناداً إلى ذلك الدليل- يجعله حكماً شرعياً قطعياً إلهياً و إن لم ينزل به الوحي (٢).

و على ضوء ذلك فالإجماع عند أهل السنّه من مصادر التشريع فى عرض الكتاب و السنّه، لكن بشرط أن يكون الحكم مستنداً إلى دليل ظنى، فعندئذٍ يجعله إجماع العلماء حكماً قطعياً.

ص: ٥٥٦

-
- ١-١. لا يذهب عليك أنّه إذا كان فى المورد دليل قرآنى أو سنّه متواتره، فلا حاجه للتأييد و التعضيد، و الأولى أن تخص موردّه بما إذا لم يكن فى موردّه إلا دليل ظنّي.
- ٢-٢. الوجيز فى أصول الفقه لوهبه الزحيلي: ٤٩.

و أما عند الشيعة فالإجماع بما هو هو ليس من مصادر التشريع و إنما يكشف عن وجود الدليل، فالإتفاق مهما كان واسعاً، لا يؤثر في جعل الحكم، شرعياً إلهياً و إنما المؤثر في ذلك المجال، نزول الوحي به فقط.

نعم للإجماع دور في كشف الدليل الأعم من القطعي و الظني، و قد اختلفوا في كيفية كشفه إلى أقوال يجمعها أمران:

١. استكشاف الدليل بالملازمه العاديه بين فتوى المجمعين و قول الإمام.

٢. استكشاف موافقه الإمام عليه السلام من الإجماع لكونه من جمله المجمعين.

أما الثاني فمشروط بشرطين:

أ. أن يكون الإمام ظاهراً لا غائباً.

ب. أن تتوفر الحريه في الفتوى و يكون للإمام حريه تامه في إظهار رأيه، و مثل ذلك لم يتفق في عصر الحضور إلا- في فتره قليله، و هي التي عاصرها الإمامان الصادقان: الباقر و الصادق عليهما السلام. و بسبب عدم توفر هذين الشرطين في عصر الأئمه لم يلتفت إليهما إلا القليل من العلماء، و إنما المهم استكشاف وجود الدليل من إجماع المجمعين بأحد الطريقتين التاليتين:

أ. تراكم الظنون مورث لليقين بالحكم الشرعي، لأن فتوى كل فقيه و إن كانت تفيد الظن، إلا أنها تعزز بفتوى فقيه ثان فثالث، إلى أن يحصل للإنسان من إفتاء جماعه على حكم، القطع بالصحه، إذ من البعيد أن يتطرق البطلان إلى فتوى هؤلاء الجماعه.

ب. الإجماع كاشف عن دليل معتبر.

إن حججه الإجماع ليس لأجل إفادته القطع بالحكم، بل لأجل كشفه عن

وجود دليل معتبر وصل إليهم و لم يصل إلينا، وهذا هو الذي اعتمد عليه صاحب الفصول، و عدّه من المتأخرين.

قال صاحب الفصول: سنكشف قول المعصوم عن دليل معتبر باتفاق علمائنا الذين كان دينهم الانقطاع إلى الأئمة في الأحكام و طريقتهم التحرّز عن القول بالرأى و الاستحسان. (1)

قراءة صاحب المقال للإجماع عند الشيعة

إنّ الدكتور أحمد الريسوني «حفظه الله» بعد أن ذكر أنّ الإجماع عند الشيعة ليس حجّة بما هو هو و إنّما ملاك حجّيته كشفه عن الدليل، حاول أن يطبق نظريه أهل السنّة على نظريه الشيعة. فقال:

و هذا القول في حقيقه الإجماع و حقيقه حجّيته ليس بغريب على أصوليّ السنّة، فهو بعض ما يتضمّنه قولهم: «الإجماع لا بدّ فيه من مستند»، ثمّ ذكر كلام إمام الحرمين و الشريف التلمساني. (2)

و ما استنتجه من التوفيق بين النظريتين عمل مشكور عليه، إلّا أنّنا نشير إلى أنّهما ليستا متحدتين بالشكل الذي ذكره الأستاذ، و إنّما هما متحدتان في شيء و مختلفتان في شيء آخر.

1. تشتركان في أنّ إجماع المجمعين لا بدّ أن يكون على أساس دليل، و لا يصحّ إفتاؤهم بلا دليل.

2. تختلفان في أنّ للإجماع-عند أهل السنّة- دوراً في إضفاء

ص: 558

1-1. الفصول [1] في علم الأصول للشيخ محمد حسين الحائري.

2-2. الصفحة: 91 من المجله المذكوره.

المشروعيه على الحكم المجمع عليه، بحيث يجعله حكماً-كسائر الأحكام الواردة في الكتاب و السنّه-سواء أصح المستند الظنى فى الواقع أم لم يصح، و كأنّ الاتفاق، عمليه كيمياويه تقلب النحاس ذهباً. إمّا مطلقاً و فى عامّه الموارد، أو فيما إذا كان مستند الإجماع مثل القياس و المصالح و المفاسد العامه، و هذا ليس شيئاً خفياً على من له إلمام بأصول الفقه لدى السنّه، و قد وقفت على كلام الفقيه المعاصر «وهبه الزحيلي» حتى أنّ الكاتب صرح بذلك فى مقاله الذى يقول فيه:

و قد يكون إجماعهم ناشئاً عن قياس ظنى فى أصله، و لكن الإجماع على الحكم أضفى عليه صواباً و يقيناً (1) لا يحتمل الشك.

و قد يكون الإجماع منعقدّاً عن نظر استصلاحى سديد، و من خلال الإجماع عليه تأكّدت موافقته القطعيه للشرع و للمصالح التى اعتبرها.

هذا الذى عليه السنّه و أمّا الشيعه فهم عن بكره أبيهم، لا يقيمون للإجماع دوراً سوى الكشف عن الدليل: القطعى أو الظنى، و ليس له دور فى إضفاء الصواب على الدليل و المشروعيه على الحكم-لو فرض عدم صحته - فلذلك ليس الإجماع بما هو هو، من مصادر التشريع.

نقد الإجماع الدخولى

قد عرفت أنّ ملاك حجّيه الإجماع هو كشفه عن الدليل بأحد الوجهين التالين:

أ. كشفه عن دخول الإمام فى المجمعين.

ص: ٥٥٩

١- ١). أمّا اليقين فنعم، و أمّا الصواب فلا، فيما إذا كان غير صحيح.

ب. كشفه عن وجود الدليل و الحججه.

أمّا القسم الأوّل فقد عرفت اختصاصه بعصر الحضور، لكن بشرط أن تسود الحرية عامّه أهل الفتوى في البلد العدى يقيم فيه المعصوم، كالمدينه المنوره كما كان ذلك في بعض الأعصار أيام نشوب الصراع بين الأمويين و العباسيين.

فلو وصل إلينا أنّ كلّ من يؤخذ عنه الفتوى في المدينه أفتوا بحكم من الأحكام و لم يشدّ منهم أحد، نكشف اتّفاق الإمام الباقر و الصادق معهم، لأنّ لسان الإجماع هو كلّ من يؤخذ عنه الفتوى، و هما من أبرز من يؤخذ منهم الفتوى.

و على ضوء ذلك نقف على مدى صحّه رأى الأستاذ حول الإجماع الدخولى. قال:

و لست أدري كيف استساغ علماء الإماميه و أذكياءهم هذا التناقض الواضح، إذ يعتبرون الإجماع كاشفاً عن قول المعصوم، ثمّ يشترطون دخول هذا المعصوم؟ و إذا دخل المعصوم في الإجماع - بحيث كان قوله معروفاً و ثابتاً - فأى كشف بقى للإجماع أن يقوم به؟ ثمّ إذا كان قول المعصوم حجه في ذاته فأى حجه و أى قيمه للإجماع مع ثبوت قول المعصوم؟ (الصفحه ٩٣).

و يلاحظ عليه: أنّه تصوّر أنّ الإجماع الدخولى عبارته عن معرفتنا بدخول الإمام شخصياً ضمن المجمعين فرتب عليه ما رتب، حيث قال: «ف عند ذلك أى كشف بقى للإجماع أن يقوم به».

و بعبارته أخرى: تصوّر أنّ الإجماع الدخولى عبارته عن رؤيه الإمام شخصياً بين المجمعين، أو سماع صوته منهم، أو ثبوت تواجده بين المجمعين بخبر

قطعي، فعند ذلك قال: «فأى دور يبقى للإجماع بعد معرفه الإمام».

و لكن خفى عليه واقع هذا القسم من الإجماع، فالمراد به ما إذا ثبت بخبر قطعي، أنّ علماء المدينة و كلّ من يؤخذ عنه الفتوى، اتفقوا على حكم من الأحكام الشرعيه و كان أهل البيت يتمتعون بالحرية لإظهار رأيهم و إبداء ما عندهم، فعند ذلك نستكشف دخول الإمام المعصوم في المجمعين و تواجهه فيهم على نحو لو لا هذا الإجماع و الاتفاق بالنحو الذي عرفت لم يكن لدينا طريق لمعرفة قول الإمام، و عندئذ يكون للإجماع دور الكشف عن دخولهم فيهم.

و بذلك تقف على ما هو المقصود للمحقق حيث قال: «فلو خلت المائه من علمائنا من قوله، لما كان حججه و لو حصل في اثنين كان قولهما حجه».

إنّ الممعن في كلامه من أوّله إلى آخره يقف على أنّ الغايه من هذا المقال، هو التركيز على أنّ حجّيه الإجماع، لأجل وجود الإمام في المجمعين إمّا دخولاً، أو كشفاً عن دليل وصل إلى يد المجمعين، عنهم عليهم السلام فجاء قوله كمثال يبين مقصده.

ص: ٥٦١

الخامس خبر الواحد و القياس ظنيان

إشاره

فلما ذا التفريق بينهما؟

قد عجب الدكتور أحمد الريسوني من تفريق الإماميه بين خبر الواحد و القياس في الحجّيه قائلاً: أنّهما ظنيان، فلما ذا فرق الإماميه بينهما و قالوا بحجّيه الأول دون الثاني؟ و قد أطال الكلام في ذلك و ما ذكرناه لبّ إشكاله، و لإيضاح المقام نقدمُ أموراً:

الأمر الأول: اتّفتت الأئمّه الإسلاميه على أنّ البدعه أمر محرم كتاباً و سنّه و إجماعاً و عقلاً، و هي عباره عن إدخال ما لم يعلم أنّه من الدين في الدين، هذا من جانب.

و من جانب آخر أنّ الاعتماد على الظن-الذى لم يقيم على حجّيته دليل قطعى من الشارع- و الإفتاء على وفقه و الالتزام بأنّ مؤداه حكم الله تعالى في حقّه و حقّ غيره، هو نفس البدعه و من مصاديقها، فبضمّ الثانى إلى الأول يتشكّل قياس منطقى يُنتج حرمة العمل بالظن الذى لم يقيم الدليل القطعى على حجّيته، فتكون صورته القياس كالتالى:

ص: ٥٦٢

العمل بالظن الذي لم يتم على حجتيه دليل شرعي بدعه في الدين.

البدعه في الدين حرام بالاتفاق.

فتكون النتيجة:

العمل بالظن الذي لم يتم على حجتيه دليل شرعي حرام بالاتفاق.

و على ضوء هذا تقول الإماميه: إن الضابطه الكليه في العمل بكل ما لم يتم دليل على حجتيه، سواء أ كان مفيداً للظن أو لا، هي المنع لكونه تشريعاً قولياً و بدعه فعلية و عمليه، و تقوُّلاً على الله بغير علم.

نعم لو قام الدليل القطعي على حجتيه ظن مثلاً في مورد أو موارد يؤخذ بهذا الظن بحكم الشرع، لأنه يكون العمل عندئذٍ بإذن الشارع و أمره فيخرج عن الضابطه الكليه: «العمل بالظن الذي لم يتم دليل شرعي على حجتيه: بدعه».

الأمر الثاني: ذهب جمهور الإماميه إلى خروج عدّه من الظنون عن تحت الضابطه خروجاً عن الموضوع لا خروجاً عن الحكم، و هي الظنون التي قام الدليل على حجتيها، و لأجل ذلك توصف بالظنون العلميه، أي إنها ظنون و لكن دلّ الدليل العلمى على جواز العمل بها و هي عبارته عن:

١. خبر الواحد إذا أخبر عن حسّ.

٢. حجتيه الظواهر على القول بأنها ظنيّه الدلاله.

٣. الإجماع المنقول - بخبر الواحد - في مقابل الإجماع المحصّل - إذا كشف نقل الإجماع عن وجود دليل معتبر عند المجمعين إلى غير ذلك.

هذا هو رأى جمهور الإماميه، نعم قد خالف في حجتيه خبر الواحد قليل من المتقدمين كالسيد المرتضى و القاضي ابن البراج و أمين الإسلام الطبرسى و ابن إدريس الحلّى رضى الله عنهم.

ص: ٥٦٣

ثم إنَّ القائلين بالحجيه أَلفوا في ذلك المجال كتباً و رسائل أجاوبوا فيها عن شبهات النافين، شأن كلِّ مسأله نظريه لا تخلو من مخالف.

هذا إجمال الكلام حول حجّيه خبر الواحد الذي عليه بناء العقلاء، و عليه تدور رحى حياتهم و معاشهم بالشروط المذكوره في محلها.

و أمّا القياس فقد رفضه علماء الإماميه عن بكرة أبيهم إذا كان مستنبط العله، لأجل أنّ القياس مفيد للظن، و الضابطه الكليه في الظن حرمة العمل به ما لم يقد دليل على حجّيته.

ثمَّ إنَّهم استثنوا من حرمة العمل بالقياس موارد أبرزها ما يلي:

١. إذا كانت العله منصوصه من جانب الشرع كأن يقول الخمر حرام لكونه مسكراً، فيحكم بحرمه كلِّ مسكر.

قالوا: إنَّ ذلك في الحقيقه ليس عملاً بالقياس و إنّما هو عمل بالسّنّه، أي عموم العله كما لا يخفى.

٢. القياس الأولوي، فإذا قال الشارع: «فلا تقلّ لهما أفٌّ» ١ يفهم منه حرمة الشتم و الضرب بطريق أولى، لحصول القطع و العلم بالحكم.

ثمَّ إنّ رفض الإماميه العمل بالقياس في مجال مستنبط العله، لأجل أنّ استخراج عله الحكم بالسبر و التقسيم مظنه للاشتباه، و ذلك بالبيان التالي:

أولاً: نحتمل أن يكون الحكم في الأصل معللاً عند الله بعله أخرى غير ما ظنّه القائس، مثل كونه صغيراً أو قاصر العقل، في قوله: «لا يُزوّج البكر الصغيره إلاّ وليها» حيث ألحق بها أصحاب القياس الثيب الصغيره، بل المجنونه و المعتوهه، و ذلك بتخريج المناط و أنّه هو قصور العقل و ليس للبكاره مدخله في

الحكم، فهل يمكن ادعاء القطع بذلك، وقد قال سبحانه: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»؟! (١)

إنَّ الإنسان لم يزل في عالم الحسّ تنكشف له أخطاؤه، فإذا كان هذا حال عالم المادة الملموسه، فكيف بملاكات الأحكام و مناطاتها المستوره عن العقل إلا في موارد جزئيه كالإسكار في الخمر، أو إيقاع العداء و البغضاء في الميسر، أو إیراث المرض في النهی عن النجاسات؟ و أما ما يرجع إلى العبادات و المعاملات خصوصاً فيما يرجع إلى أبواب الحدود و الديات فالعقل قاصر عن إدراك مناطاتها الحقيقيه و إن كان يظن شيئاً.

قال ابن حزم: و إن كانت العله غير منصوص عليها، فمن أى طريق تُعرف و لم يوجد من الشارع نصّ يبين طريق تعرّفها؟ و ترك هذا من غير دليل يعرّف العله، ينتهى إلى أحد أمرين: إما أنّ القياس ليس أصلاً معتبراً، و إما أنه أصل عند الله معتبر و لكن أصل لا بيان له و ذلك يؤدي إلى التلبیس، و تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يبق إلا نفى القياس.

ثانياً: لو افترضنا أنّ القائس أصاب في أصل التعليل، و لكن من أين يُعلم أنّها تمام العله، و لعلها جزء العله و هناك جزء آخر منضم إليه في الواقع و لم يصل القائس إليه؟

ثالثاً: احتمال أن يكون القائس قد أضاف شيئاً أجنبياً إلى العله الحقيقيه لم يكن له دخل في المقيس عليه.

رابعاً: احتمال أن يكون في الأصل خصوصيه في ثبوت الحكم و قد غفل عنها القائس.

ص: ٥٦٥

و لأجل وجود هذه الاحتمالات التي لا تنفك عن ذهن القائس، رفضت الإمامية، العمل بالقياس إذا كان مستنبط العله.

التفريق بين الظنيين لما ذا؟

إنّ الدكتور أحمد الريسوني - حفظه الله - قد أخذ على علماء الإمامية بموارد، قائلاً: إنهم يقولون بعدم حجّيه الظن و مع ذلك يعملون به في الموارد التاليه:

١. الخبر الواحد.

٢. الظواهر.

٣. المرجّحات الظنيه عند التعارض.

٤. الأصول العمليّه.

و إليك دراسه هذه الموارد من رؤيه الدكتور و ما يمكن القول حولها، و نذكر كلامه ضمن مقاطع قال:

١. أنّ الإمامية إذ يرفضون الأخذ بالقياس و الاستصلاح باعتبار أنّ إفادتهما ظنيّه، فإنهم يقبلون الظنّيات في كثير من أصولهم و قواعدهم، في مقدّمها أخذهم بأخبار الآحاد فإنهم يُسلّمون بكون أخبار الآحاد لا تسلم من الظنيه و الاحتمال، و أذن الشرع استثناءً في اعتبارها. و يكون الإجماع لديهم على حجّيتها. (١)

أقول: هذا ملخص كلامه، و القارئ الكريم - بعد الاطلاع على ما ذكرنا من الأمور - يقف على الفرق الواضح عندهم بين خبر الواحد العدل، و القياس، فإنّ الأخذ بالأوّل ليس بملاك إفادته الظن، بل لأجل قيام الدليل الشرعي على حجّيته، و لو كان الدليل قائماً على حجّيه القياس لأخذوا به.

ص: ٥٦٦

و بعبارة أخرى: إنَّ خبر الواحد ممَّا قام الدليل القطعي على حجَّيته فصار ظناً علمياً، أى ظناً بالذات و لكن ذو رصيد علمي، بخلاف القياس إذ لم يرد عندهم دليل يثبت حجَّيته لو لم نقل بقيام الدليل على خلافه.

و لأجل أن يقف الأستاذ الكريم على الفوارق بين خبر الواحد و القياس نقترح عليه مراجعه كتابنا المعنون: «أصول الفقه المقارن فيما لا نصَّ فيه».

٢. و من المواطن التي أخذوا فيها بالظنيات أيضاً قولهم بحجيه الظواهر، أى أنَّهم يعتمدون اعتماداً أساسياً على ما يفهم من ظواهر النصوص، و الظواهر كما هو معلوم لا تكاد تسلم من الظنيه و الاحتمال. (١)

أقول: إنَّ العمل بالظواهر ممَّا أطبق العقلاء على العمل به، و لا نجد بينهم من ينكر حجَّيه الظواهر، فإن رحي الحياه في المجتمع الإنساني تدور عليها، و ليس كلَّ كلام، نصاً في مدلوله.

إنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و أئمَّه أهل البيت عليهم السلام و أصحابهم يعلمون الناس بظواهر كلماتهم، و المستمعون يتلقَّونها حجَّه شرعيه دون أن يناقشوا في حجَّيه الظواهر.

فأين الظواهر من القياس الظني الذي تضاربت فيه الآراء و أنكر حجَّيته أئمَّه أهل البيت و لفيف من الصحابه و التابعين؟! أضف إلى ذلك قيام الدليل على حجَّيه الظواهر دون القياس، فهذا هو الفارق بينهما.

٣. إنَّ الترجيحات-عند تعارض الخبرين-كلَّها أو معظمها ترجيحات ظنيه تعليليه و تقريبيه، فقد جرى ديدنهم على ترجيح ما ظهر أنه الأقرب إلى واقع الحكم الشرعي الحقيقي، و هذا كما لا يخفى ليس إحرازاً للحكم الشرعي بالضروره و إنما هو ظني و تقريب. (٢)

ص: ٥٦٧

١- ١). الصفحه ٩٥ من المجله.

٢- ٢). المجله: ص ٩٦.

أقول: هذا هو المورد الثالث الذي أثار تعجب الأستاذ من التفريق بينه وبين القياس والاستحسان و أمثالهما حيث أخذوا بالمرجحات الظنية و رفضوا القياس و الاستحسان.

و لكن الإجابة عنه واضحة، و هي قيام الحجّة على لزوم الترجيح بالمرجحات، و قد تضافرت الأخبار التي ثبتت حجيتها على لزوم الترجيح بالمرجحات المنصوصه كموافقه الكتاب و موافقه السنّه و موافقه المشهور و غيرها.

نعم هناك من يستنبط من هذه الروايات لزوم الترجيح بكلّ مرجح و إن لم يكن منصوصاً كالشيخ الأنصاري في فرائده، و منهم من لا يقبل ذلك، و على كلّ تقدير فالفارق بين العمل بالمرجحات و القياس و الاستحسان وجود الدليل على لزوم الترجيح بها و عدمه في القياس و الاستحسان.

و لو أنّ صاحب المقال أحاط بأصول الفقه عند الإماميه لما أثار عجبه هذا التفريق، و لعمد إلى التركيز على موضوع آخر و هو طرح القياس على صعيد البحث على ضوء دراسته أدلّه المثبتين و النافين دون أن يربط العمل بالقياس بالعمل بخبر الواحد و الظواهر.

٤. و ممّا أخذته الأستاذ على الإماميه هو العمل بالأصول العمليه، أعني: البراءة و الاشتغال و التخيير و الاستصحاب، فقد قال: إنّ ما يسمونه أصولاً عمليه هي قواعد توصل إلى الظن، و الرجحان، و مع ذلك أجازوا بل أوصوا بالعمل بها عند عدم الدليل الصريح. (١)

أقول: أظن أنّ القارئ في غنى عن تكرار الجواب فإنّ الإشكال في الجميع واحد و الجواب مثله، و هو أنّ الفارق وجود الدليل على حجّيه الأصول، سواء

ص: ٥٦٨

أ كانت مفيدة للظن أم لا، و من درس الأصول العمليه فى الكتب الأصوليه للشيعه الإماميه يقف على أنهم يستدلون عليها بطرق مختلفه من الكتاب و السنه و الإجماع و العقل. فكيف يقاس ذلك بالقياس الذى تواتر النهى عن العمل به عن أئمه أهل البيت عليهم السلام، و هذا هو قول الإمام الصادق عليه السلام لأبان بن تغلب: «إنَّ السنه إذا قيست محق الدين». (١)

استدلاله على حجيه القياس عن طريق العقل

إنَّ الأستاذ الفاضل يستدلّ على حجيه القياس عن طريق العقل قائلاً: إنَّ الإماميه و بخاصه متأخريهم يجعلون من الأدله الشرعيه «الدليل العقلى»، بينما هم يرفضون القياس و هو من بديهيات العقول و أولياتها، يقوم على قاعده لا- ينكرها عقل و لا عاقل، و هى «أنَّ ما ثبت لشيء ثبت لمثله»، و هذا هو العدل الذى قامت به الأرض و السماوات و جاءت به الكتب و الرسائل.

أقول: لا شكَّ أنَّ العقل أحد الحجج الشرعيه، و ذلك فى مجالات خاصه، ممَّا للعقل إليها سبيل، و نمثل لذلك بنموذجين:

الأول: إذا استقل العقل بحسن فعل بما هو فعل صادر عن الفاعل المختار أو قبحه و تجرّد فى قضائه عن كلّ شيء إلا النظر إلى نفس الفعل يكون حكم العقل كاشفاً عن حكم الشرع، و هذا نظير استقلال العقل بقبح العقاب بلا بيان، و حسنه معه، فيستكشف منه أنَّ الشرع كذلك.

الثانى: إذا أمر المولى بشيء و استقلّ العقل بوجود الملازمه بين وجوب الشيء و وجوب مقدمته، أو وجوب الشيء و حرمة ضده، أو امتناع اجتماع الأمر و النهى

ص: ٥٦٩

١- ١). الوسائل: ١٨، الباب ٦ من أبواب صفات القاضى. [١]

على شىء واحد بعنوانين، أو جوازه إلى غير ذلك من أنواع الملازمات، فيكشف حكم العقل عن حكم الشرع.

ففى هذين الموردين و ما يشبههما يكون العقل قاطعاً بالحسن و القبح أو الملازمه بين الوجوبين أو الحرمتين، و عند ذلك نستكشف من خلال كونه سبحانه حكيماً لا يعبث، الحكم الشرعى؛ للحسن و القبح، أو للمقدّمه و ضد الواجب.

و أمّا القياس فهو ليس دليلاً عقلياً، و إنّما هو دليل ظنى بشهادته أنّه لو كان دليلاً قطعياً لما اختلف فيه اثنان كما لم يختلفوا فى حجّيه الخبر المتواتر أو المحفوف بالقرائن المفيده للعلم.

فإنّ إطلاق الدليل العقلى على القياس على وجه الإطلاق غير صحيح، بل يجب أن يقال الدليل العقلى الظنى، لأنّ الدليل العقلى - عند الإطلاق - ينصرف إلى الدليل العقلى المفيد للعلم.

الخلط بين المماثل و المشابه

و الّذى ألفت نظر الأستاذ إليه هو أنّ القياس ليس من باب المماثل، بل من باب المشابهه، و كم هو الفرق بين التماثل و التشابه، فما ذكره من أنّ «ما ثبت لشيء ثبت لمثله» راجع إلى المتماثلين، و الفرق بينهما واضح، و ذلك لأنّ التماثل عباره عن دخول شيئين تحت نوع واحد و طبيعه واحده، فالتجربه فى عده من مصاديق طبيعه واحده تفيد العلم بأنّ النتيجة لطبيعه الشىء لا لأفراد خاصه، و لذلك يقولون: إنّ التجربه تفيد العلم، و ذلك بالبيان التالى:

إذا أجرينا -مثلاً- تجربه على جزئيات من طبيعه واحده، كالحديد، تحت ظروف معينه من الضغط الجوى، و الجاذبيه، و الارتفاع عن سطح البحر، و غيرها

مع اتحادهما جميعاً في التركيب، فوجدنا أنّها تتمدد مقداراً معيناً، و لنسمّه (س)، عند درجه خاصه من الحراره و لنسمّها (ح). ثم كررنا هذه التجربه على هذه الجزئيات، في مراحل مختلفه، في أمكنه متعدده، و تحت ظروف متغايره، و وجدنا النتيجة صادقه تماماً: يتمدد الحديد بمقدار (س) عند درجه (ح)؛ فهنا نستكشف أنّ التمدد بهذا المقدار المعين، معلول لتلك الدرجه الخاصه من الحراره فقط، دون غيرها من العوامل. فعندئذٍ يقال: «ما ثبت لشيء، ثبت لمثله» أو حكم الأمثال فيما يجوز و ما لا يجوز واحد.

و أمّا التشابه فهو عباره عن وقوع فردين مختلفي الطبيعه تحت صفه واحده توجب التشابه بينهما، و هذا كالخمر و الفقاع فإنّهما نوعان و بينهما تشابه في الإسكار. فلو أثبتت التجربه أنّ للخمر أثراً خاصاً، لا- يمكن القول بثبوتها للفقاع و النبيذ، بل لا بدّ من التماس الدليل على المشاركه، و وراء المشابهه.

و أوضح من ذلك مسأله الاستقراء، فإنّ ما نشاهده من الحيوانات البريه و البحريه، أنواع مختلفه، فلو رأينا هذا الحيوان البري و ذلك الحيوان البحري كلّ يحرك فكّه الأسفل عند المضغ ربما نحكم- بلا جزم- بذلك على سائر الحيوانات من دون أن تكون بينها وحده نوعيه أو تماثل في الحقيقه، و الدافع إلى ذلك التعدّي في الحكم هو التشابه و الاشتراك الموجود بين أنواع الجنس الواحد رغم اختلافها في الفصول و الأشكال، و لكن لا يمكن الجزم بالحكم و النتيجة على وجهها الكلي لإمكان اختلاف أفراد نوعين مختلفين في الحكم.

و بذلك يعلم أنّ القياس عباره عن إسراء حكم مشابه إلى مشابه لا حكم مماثل إلى مماثل، و من المعلوم أنّ إسراء الحكم من طبيعه إلى طبيعه أمر مشكل لا يصار إليه إلاّ إذا كان هناك مساعده من جانب العرف لإلغاء الخصوصيه، و إلاّ

يكون الإسراء عملاً بلا دليل.

مثلاً- دلّ الكتاب العزيز على أنّ السارق و السارقه تقطع أيديهما، و الحكم على عنوان السارق، فهل يلحق به التباش الذى ينبش القبر لأخذ الأكفان؟ فإنّ التسويه بين العنوانين أمر مشكل، يقول السرخسى:

لا يجوز استعمال القياس فى إلحاق التباش بالسارق فى حكم القطع، لأنّ القطع بالنصّ واجب على السارق. (١)

و الحاصل: أنّ هناك فرقاً واضحاً بين فردين من طبيعه واحده، فيصحّ إسراء حكم الفرد إلى الفرد الآخر لغايه اشتراكهما فى الإنسانيه، و أنّ حكم الأمثال فى ما يجوز و ما لا يجوز واحد، لكن بشرط أن يثبت أنّ الحكم من لوازم الطبيعه لا الخصوصيات الفرديه.

و أمّا المتشابهات فهما فردان من طبيعتين - كالإنسان و الفرس - يجمعهما التشابه و التضاهى فى شىء من الأشياء، فهل يصحّ إسراء حكم نوع إلى نوع آخر؟ كلاً- و لا، إلاّ إذا دلّ الدليل على أنّ الوحده الجنسيه سبب الحكم و مناطه و ملاكه التام (٢)، كما دلّ الدليل على أنّ سبب الحرمة فى الخمر، هو الإسكار، و إلاّ فلا يصحّ إسراء حكم من طبيعه إلى طبيعه أخرى بمجرد التشابه بينهما، أو الاشتراك فى عرض من الأعراض.

ص: ٥٧٢

١-١. اصول السرخسى: ١٥٧/٢.

٢-٢. أصول الفقه المقارن فيما لا نصّ فيه: ١٠٨-١١٠. [١]

السادس الدليل العقلي و حجّيه المصلحه

قد تعرفت على أنّ العقل أحد مصادر التشريع و-بالأخرى- أحد المصادر لكشف الحكم الشرعى.

و مجال الحكم العقلي-غالباً- أحد الأمور التاليه:

١. التحسين و التقييح العقليان.

٢. أبواب الملازمات من قبيل الملازمه بين وجوب الشىء و مقدمته و حرمة ضده، و الملازمه بين النهى عن العباده أو المعامله و فسادها، إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى باب الملازمه.

٣. أبواب التزاحم أى تزاحم المصالح التى لا- بدّ من أخذها كإنقاذ الغريقين مع العجز عن إنقاذ كليهما، أو تزاحم المصالح و المفسد كترس العدو بالمسلمين فإنّ للعقل دوراً فيها، و له ضوابط لتقديم إحدى المصلحتين على الأخرى، أو تقديم المصلحه على المفسده أو بالعكس (و هى مذكوره فى مظانّها).

و لا غبار على حجّيه العقل فى هذه الموارد، إنّما الكلام فى حجّيه المصلحه و عدّها من مصادر التشريع فيما لا نصّ فيه؛ فقد ذهب عدّه من فقهاء السنّه إلى

ص: ٥٧٣

حجّيه المصلحه و سمّاها المالكيه بالمصالح المرسله و الغزالي بالاستصلاح، و حاصل دليلهم على حجّيه المصلحه و كونها من مصادر التشريع ما يلي:

إنّ مصالح الناس تتجدّد و لا تنتهى، فلو لم تشرع الأحكام لما يتجدّد من مصالح الناس، و لما يقتضيه تطورههم و اقتصر التشريع على المصالح التي اعتبرها الشارع فقط، لعطلت كثير من مصالح الناس في مختلف الأزمنه و الأمكنه، و وقف التشريع عن مساييره تطورات الناس و مصالحهم، و هذا لا يتفق و ما قصد بالتشريع من تحقيق مصالح الناس. (1)

و حاصل هذا الوجه ادعاء وجود النقص في التشريع الإسلامي لو اقتصر في مقام الاستنباط على الكتاب و السنّه، لأنّ حاجات المجتمع إلى قوانين جديده لا زالت تتزايد كلّ يوم، فإذا لم تكن هناك تشريعات تتلاءم مع هذه الحاجات لم تتحقّق مقاصد الشريعه.

ثمّ إنّ السبب لجعلهم المصالح مصادر للتشريع هو الأمور التاليه:

١. إهمال العقل و عدم عدّه من مصادر التشريع في مجال التحسين و التقبيح العقلين.

٢. إقفال باب الاجتهاد في أواسط القرن السابع إقفالاً سياسياً، فقد صار ذلك سبباً لوقف الدراسات الفقهيّه منذ قرون، و في ظل ذلك توهم المتأخرون وجود النقص في التشريع الإسلامي و عدم كفايته لتحقيق مقاصد الشريعه فلجئوا إلى عدّ المصالح المرسله من مصادرّه، و بذلك وجهوا قول من يعتقد بحجيه المصالح المرسله من أئمّه المذاهب.

٣. عدم دراسته عناوين الأحكام الأوليه و الثانويه، كأدله الضرر و الحرج

ص: ٥٧٤

١- ١). علم أصول الفقه، لعبد الوهاب الخلف: ٩٤.

و الاضطراب و النسيان، فإنّ هذه العناوين و ما يشابهها تحل أكثر المشاكل التي كان علماء السنّه يواجهونها من دون حاجه لعدّ الاستصلاح من مصادر التشريع.

٤. عدم الاعتراف بصلاحيات الفقيه الجامع للشرائط بوضع أحكام و لائيه كافيه في جلب المصلحه و دفع المفسده أحكاماً مؤقتة ما دام الملاك موجوداً.

و الفرق بين الأحكام الواقعيه و الولائيه هو أنّ الطائفة الأولى أحكام شرعيه جاء بها النبي صلى الله عليه و آله و سلم لتبقى خالده إلى يوم القيامة، و أمّا الطائفة الثانيه فإنّما هي أحكام مؤقتة أو مقررات يضعها الحاكم الإسلامي (على ضوء سائر القوانين) لرفع المشاكل المتعلّقه بحياه المجتمع الإسلامي.

هذه هي حقيقه المصالح المرسله.

ثمّ إنّهم مثّلوا للمقام بأمثله، نذكر منها ما يلي:

١. جمع القرآن الكريم في مصحف بعد رحيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

٢. قتال مانعي الزكاه.

٣. وقف تنفيذ حكم السرقة في عام المجاعه.

٤. إنشاء الدواوين.

٥. سكك النقود.

٦. فرض الإمام العادل على الأغنياء من المال ما لا بدّ منه، لتكثير الجند و إعداد السلاح و حمايه البلاد و غير ذلك.

٧. سجن المتهم كي لا يفر.

٨. حجر المفتي الماجن و الطيب الجاهل و المكارى المفلس.

ثمّ إنّ بعض المغالين ربّما يتجاوز فيمثّل بأمر لا تبرّرها أدلّه التشريع الواقعي كتتفيذ الطلاق ثلاثاً، مع أنّ الحكم الشرعي هو كونه طلاقاً واحداً في

عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و برهه بعد رحيله، و هذا من باب تقديم المصلحه على النص.

ثم إن للإماميه فى العمل بالمصالح مذهباً وسطاً أو ضحناً فى كتابنا. (١)

و ليست الإماميه ممن ترفضه بتاتاً كما تصوّره الأستاذ أو تقبله فى عامه الصور.

هذا إجمال الكلام فى المصالح المرسله - و تفصيل مالها و ما فيها يُطلب من محله - إذا عرفت ذلك فهلتم معى نقرأ ما ذكره الدكتور الريسونى حول هذا الموضوع، قال:

«أما حجّيه المصلحه، فإنّهم و إن كانوا ينكرونها بالاسم إلا أنّهم يأخذون بها بأسماء و أشكال متعدّده:

فتارة تدخل تحت اسم «الدليل العقلى» حيث يدرجون ضمنه - مثلاً - اعتبار «الأصل فى المنافع الإباحه، و فى المضار الحرمة» و هذا عين اعتبار المصلحه.

كما أنّ من القواعد المعتره عندهم ضمن دليل العقل قاعده «وجوب مقدّمه الواجب» و هى المعبر عنها ب«ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب» ذلك أنّ معظم المصالح المرسله هى من قبيل «ما لا يتم الواجب إلاّ به» فهى مقدّمات أو وسائل لواجبات أخرى، و مثلها قاعده «كلّ ما هو ضد الواجب فهو غير جائز» فهذا ما يعبر عنه بدرء المفسد. و أخرى يدخلون العمل بالمصلحه من باب ما يسمّى عندهم السيره العقلانيه و بناء العقلاء، و هو فى الوقت نفسه من المصالح المرسله». (٢)

و حاصل كلامه: أنّه تدخل تحت حجّيه المصلحه القواعد التاليه:

١. وجوب مقدّمه الواجب.

ص: ٥٧٤

١- ١). لاحظ أصول الفقه المقارن فيما لا نصّ فيه.

٢- ٢). الصفحه: ٩٧ من المجله المشار إليها.

٢. حرمة ضد الواجب.

٣. حجّيه بناء العقلاء و سيرتهم.

٤. الأصل في المنافع الإباحه، و في المضار الحرمة.

فهى نفس العمل بالمصلحه مع أنّهم يدخلونها تحت «الدليل العقلى».

يلاحظ عليه: أنّ اشتمال هذه القواعد على المصالح و درء المفسد، غير كون المصلحه سبباً لتشريعها و مبدأً لتقنينها، فإنّ الدليل على وجوب مقدّمه الواجب أو حرمة ضد الواجب حكم العقل بالملازمه بين الإرادتين، فمن حاول الوقوف على السطح، لا محيص له من إرادته نصب السّلم، أو ركوب المصعد.

فاشتمال المقدّمه على المصلحه أو اشتمال الضد على المفسده أمر جانبي لا مدخلية له فى الحكم بالوجوب و الحرمة.

و أمّا حجّيه بناء العقلاء، فإنّ أساسها كونه بمرأى و مسمع من الشارع و هو إمضاءه، لهذا لو كان غير مرضىّ عنده، لما سكت عن النهى عنه، لقبح السكوت عمياً يوجب إغراء الأئمّه، و لو لا- إمضاءه لما صحّ الاعتماد عليه فى الفقه، كما هو الحال فى السّير التى رفضها الشارع كبيع الخمر و الكلب و الخنزير و التملك بالمقارنه.

و به يظهر حكم القاعده الرابعه، فإنّ الحكم بجلب المنفعه أو درء المفسده هو العقل الحصيف، لا قاعده المصالح المرسله، و إن كان فى الجلب و الدرء مصلحه، و بالجمله: الأمور الجانييه، ليست أساساً لحكم العقل فى مورد هذه القواعد.

نحن نفترض أنّ لهذه المسائل طابعاً عقلياً كما أنّ لها طابعاً استصلاحيّاً، فلو كان الوصول إليها من دليل العقل أمراً غير صحيح فليكن الوصول إليها عن طريق الاستصلاح مثله، فلما ذا يوجّه اللوم إلى الفريق الأوّل دون الثانى؟!

ص: ٥٧٧

هذه بعض الملاحظات على كلام الأستاذ، حفظه الله و نفعنا بعلمه. و بقيت في كلامه أمور أخرى يظهر النظر فيها من بعض ما ذكرنا.

و في الختام ندعو له و لعامة الإخوان في المملكة المغربية و الأساتذة و الطلاب في دار الحديث الحسينيه بدوام التوفيق و السداد.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسه-إيران

غزه ربيع الأول ١٤٢٦هـ

ص: ٥٧٨

إشاره

التقيّه مفهومها، حدّها، دليلها

الحمد لله ربّ العالمين، و الصلاه و السلام على أفضل خلقه و خاتم رسله محمّد و على آله الطيبين الطاهرين الذين هم عيبه علمه و حفظه سننه.

أمّا بعد، فإنّ الإسلام عقيدته و شريعته، فالعقيدته هي الإيمان بالله و رسله و اليوم الآخر، و الشريعته هي الأحكام الإلهيه التي تكفل للبشريه الحياه الفضلى و تحقّق لها السعاده الدنيويه و الأخرويه.

و قد امتازت الشريعته الإسلاميه بالشمول، و وضع الحلول لكافّه المشاكل التي تعترى الإنسان في جميع جوانب الحياه قال سبحانه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا». ١

غير أنّ هناك مسائل فرعيه اختلف فيها الفقهاء لاختلافهم فيما أثر عن مبلغ الرساله النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، الأمر الذي أدى إلى اختلاف كلمتهم فيها، و بما أنّ الحقيقه بنت البحث فقد حاولنا في هذه الدراسات المتسلسله أن نطرحها على طاولة البحث، عسى أن تكون وسيله لتوحيد الكلمه و تقريب الخطى في هذا

الحقل، فالخلاف فيها ليس خلافاً في جوهر الدين و أصوله حتى يستوجب العدا و البغضاء، وإنما هو خلاف فيما روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم، و هو أمر يسير في مقابل المسائل الكثيره المتفق عليها بين المذاهب الإسلاميه.

و رائدنا في هذا السبيل قوله سبحانه: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً...» . (١)

جعفر السبحاني

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص: ٥٨٠

١-١. آل عمران: ١٠٣. [١]

تُعدّ التقيه من المفاهيم الإسلامية الأصيله، المنسجمه مع حكم العقل، و روح الإسلام، و مرونه الشريعة المقدسه و سماحتها، و ضرورات العمل الإسلامي، و قد وردت في القرآن الكريم، و أكدتها السنه الشريفه، و آمن بمشروعيتها علماء المسلمين.

ولا- ريب في أنّ الشيعة- و بحكم الظروف العصيبه التي حاقت بهم على امتداد فترات تاريخيه طويله- اشتهروا بالعمل بالتقيه، و اللياذ بظلها كلما اشتدت عليهم وطأه القهر و الظلم.

و قد سعى الصائدون في الماء العكر من حُكّام الجور و المغرضين و المتعصّبين إلى استغلال هذا الأمر، و ذرّ الرماد في العيون من خلال إيجاد تصوّرات و أوهام باطله، و غرسها في أذهان الناس، بدعوى أنّ التقيه عند الشيعة ضرب من النفاق و الخداع و التمويه، و أنّها تجعل منهم منظّمه سريه غايتها الالتفاف على الإسلام و تشويه صورته و تهديم أركانه.

إنّ العمل بالتقيه و الاحتراز عن الإفصاح عن المبادئ و الأفكار لا يعنيان أبداً أنّ للشيعة أسراراً و طلاسم يتداولونها بينهم، و لا يتيحون للآخرين فرصه

الاطلاع عليها ومعرفتها، ولا- يعينان أيضاً أن لهم نوايا عدوانية ضدّ الإسلام و أهله، وإنّما يتعلّق الأمر كلّه بإرهاب فكرى و سياسى مُورس ضدهم، و جرائم وحشية ارتكبت بحقهم، ألجأتهم إلى اتخاذ التكتّم و الاحتراز أسلوباً لصيانته النفوس و الأعراض و المحافظه عليها. و نحن إذا نظرنا إليهم فى بعض العهود التى استطاعوا أن يتنفسوا فيها نسائم الحريره، نجد كيف أنّهم بادروا و بنشاط إلى نشر أفكارهم و آرائهم و بثّ مبادئهم و تعاليمهم، و كيف أنّهم ساهموا- مع إخوانهم من سائر المذاهب و الطوائف- فى صنع حضاره الإسلام الخالده.

و إذا كان الإنصاف يدعو إلى تبرير موقف ضحايا القمع و الاستبداد بالالتجاء إلى حمى التقية لضمان السلامه و التوقى من الشر المستطير... و إذا كان الضمير الحى يدعو إلى مواساه هؤلاء المظلومين الذين تُحصى عليهم أنفاسهم و يعانون أفانين الضغط و الإكراه، و أشكال التضيق و المحاربه، فإنّ شيئاً من هذا و لا ذاك لم يحصل، بل حصل العكس، إذ عمد الكثير من أهل السنّه و الجماعه- و مع الأسف- إلى الإغضاء عن الجزّارين أو معاضدتهم، و إلى التنديد بالضحايا و التشهير بهم!!

و أخيراً، نحن نعتقد أنّ العمل بالتقيه أمر لا مفرّ منه، و أنّ مجانبتها تماماً و فى كلّ الأحوال و العصور أمر لا واقع و لا حقيقه له. و أنت إذا رميت ببصرك إلى بعض الشعوب التى تحكمها أنظمه قمعيه استبداديه، لوجدت أنّها - و فيها من هم من أهل السنّه- تتجنّب الإعلان عن آرائها و أهدافها جهراً، و تسكت عمّا يُمارس بين ظهرانيها من أعمال منافية للإسلام، و ما ذلك إلاّ خوفاً من البطش و القتل و الأذى الذى سيصيبها لو أنّها نطقت بما يخالف إرادته المستبدين.

و هذه الرساله المتواضعه، ستميط الستر عن وجه الحقيقه و تثبت، أنّ التقية

ثمره البيئه التي صودرت فيها الحريات، و لو كان هناك لومٌ و انتقاد، فالأجدر أن نتوجه بهما إلى من حمل المستضعفين على التقيه، لا أنفسهم.

و ستتضح للقارئ في غضون هذه الرساله، أنّ التقيه من المفاهيم القرآنيه التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، و في تلك الآيات إشارات واضحه إلى الموارد التي يلجأ فيها المؤمن إلى استخدام هذا المسلك الشرعي خلال حياته أثناء الظروف العصيبيه، ليصون بها نفسه و عرضه و ماله، أو نفس من يمتُّ إليه بصله و عرضه و ماله، كما استعملها مؤمن آل فرعون لصيانته الكليم عن القتل و التنكيل (1) و لاذ بها عمّار عند ما أخذ و أُسر و هُدّد بالقتل (2)، إلى غير ذلك من الموارد الوارده في الكتاب و السنّه، فمن المحتمّ علينا أن نتعرّف عليها، مفهوماً (لغه و اصطلاحاً)، و تاريخاً و غايه و دليلاً - و حداً، حتى نتجنّب الإفراط و التفريط في مقام القضاء و التطبيق.

و تحقيق المسأله يتم ببيان أمور:

ص: ٥٨٣

١-١. القصص: ٢٠.

٢-٢. النحل: ١٠٦.

التقيه اسم مصدر ل«اتقى يتقى» وأصل اتقى: اوتقى فقلبت الواو ياءً للكسره قبلها، ثم أبدلت تاءً و ادغمت و قد تكرر ذكر الاتقاء فى الحديث و منه حديث على: «كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله»، أى جعلناه وقايه لنا من العدو. (١)

و قد أخذ «اتقى» من وقى الشىء، يقيه إذا صانه، قال الله تعالى: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا» ٢ أى حماه منهم فلم يضره مكرهم.

و ربما تستعمل مكان التقيه لفظه «التقاء» قال سبحانه: «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ». ٣

قرأ الأكثر «تقاه» إلا يعقوب فقرأ «تقيه» و كلاهما مصدر لفعل اتقى «فتقاه» أصله «وقيه» أبدلت الواو تاءً كما أبدلوها فى تجاه و تكاه و انقلبت الياء ألفاً لتحركها و انفتاح ما قبلها، و هو مصدر على وزن فُعل كتؤدد و تخمه. (٢)

١-١. النهايه: [١] ماده وقى.

٢-٤. عن تعليق أحمد محمد شاكر على دائره المعارف الإسلاميه: ٤٢٣/٥.

التقيه اصطلاحاً

التقيه كما عرّفها السرخسى هي أن يقى الإنسان نفسه بما يظهره و إن كان ما يضمّر خلافه. (١)

و قال ابن حجر:التقيه:الحذر من إظهار ما فى النفس من معتقد و غيره للغير. (٢)

و عرفها صاحب المنار بأنها ما يقال أو يفعل مخالفاً للحقّ لأجل توقّي الضرر. (٣)

و عرفها الشيخ محمد أبو زهره بأنها أن يخفى الشخص ما يعتقد دفعاً للأذى. (٤)

و التعريف الثالث أشمل من الرابع لاختصاص الأخير بالعقيدته و عموميه الآخر لها و للفعل.

ص: ٥٨٥

١-١. المبسوط للسرخسى: ٤٥/٢٥.

٢-٢. فتح البارى: ٣١٤/١٢، ط المكتبه السلفيه.

٣-٣. تفسير المنار: ٢٨٠/٣.

٤-٤. محمد أبو زهره:الإمام الصادق: ٢٥٥.

و أمّا الشيعة فقد عرّفها الشيخ المفيد بقوله: التقيه كتمان الحقّ و ستر الاعتقاد فيه، و مكاتمه المخالفين و ترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا.

و فرض ذلك، إذا علم بالضروره أو قوى في الظن، فمتى لم يعلم ضرراً بإظهار الحقّ و لا- قوى في الظن ذلك لم يجب فرض التقيه. (١)

و عرفها الشيخ الأنصارى بقوله: التحفّظ عن ضرر الغير بموافقه في قول أو فعل مخالف للحقّ. (٢)

ص: ٥٨٦

١- ١). شرح عقائد الصدوق: ٦٦، ط تبريز.

٢- ٢). رساله التقيه للشيخ الأنصارى: ٣٧.

إشاره

التقيه تاريخياً

ربما يتصور لأول وهله أنّ للتقيه مبدأً تاريخياً ظهر في المجتمع الإنساني، و لكن هذا التصور يجانب الحقّ، فظاهرة التقيه زامنت وجود الإنسان على هذا الكوكب يوم برز بين البشر القويّ و الضعيف، و صادر الأول حريات الثاني و لم يسمح له بإبداء ما يضمّره عن طريق القول و الفعل.

فظهر التقيه في المجتمع البشري إذن، كان تعبيراً عن مصادر الحريات، و سلاحاً لم يجد الضعيف بدأً من اللجوء إليه للدفاع عن نفسه و عرضه و ماله.

١. التقيه في عصر الكليم

و أظهر مورد تبناه القرآن الكريم في هذا الصدد هو مؤمن آل فرعون، يقول الله تعالى:

«وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ». ١

ص: ٥٨٧

و كانت عاقبه امره أن «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ». ١

و ما كان ذلك إلا- لأنه بتعميته، استطاع أن ينجى نبي الله من القتل كما يحكيه سبحانه عنه و يقول: «قال يا موسى إن المَلَأَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلوكَ فَأَخْرِجْ إني لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ». ٢

نقل الثعلبي عن السدي و مقاتل أن مؤمن آل فرعون كان ابن عم فرعون و هو الذي أخبر الله تعالى عنه فقال: «وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى». ٣

و قال آخرون: كان إسرائيلياً، و مجاز الآية: و قال رجل مؤمن يكتنم إيمانه من آل فرعون، و اختلفوا أيضاً في اسمه.

فقال ابن عباس و أكثر العلماء: اسمه حزيل.

و قال وهب بن منبه: اسمه حزيقال.

و قال ابن إسحاق: خبر ل. (١)

٢. التقية في عصر الرسول

هناك حوادث تاريخيه تدل على شرعيه التقية في عصر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نكتفي بهذين النموذجين:

١. يقول سبحانه: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». ٥

قال المفسرون: قد نزلت الآية في جماعه أُكْرِهُوا على الكفر، و هم عمار و أبوه

ص: ٥٨٨

١- (٤). تفسير الثعلبي: ٢٧٣/٨. [١]

ياسر و أمّه سِجْمِيّه، و قُتِلَ الأبوان لأنّهما لم يُظْهرا الكفر و لم ينالا من النبي، و أعطاهم عمّار ما أرادوا منه فأطلقوه، ثمّ أخبر بذلك رسول الله، و انتشر خبره بين المسلمين، فقال قوم: كفر عمار، فقال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «كَلَّا إنّ عماراً ملئاً إيماناً من قرنه إلى قدمه، و اختلط الإيمان بلحمه و دمه».

و فى ذلك نزلت الآيه السابقه، و كان عمّار يبكى، فجعل رسول الله يَمَسِّحُ عينيه، و يقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». (١)

٢. أخرج ابن أبى شيبه عن الحسن، أنّ مسيلمه الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال لأحدهما:

أتشهد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنّى رسول الله؟ قال:

نعم، ثمّ دعا بالآخر فقال: أتشهد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فقال له:

أتشهد أنّى رسول الله؟ قال: إنّى أصمّ. قالها ثلاثاً، كل ذلك يجيبه بمثل الأوّل، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال: أمّا ذلك المقتول فقد مضى على صدقه و يقينه، و أخذ بفضله، فهنيئاً له.

و أمّا الآخر فقبل رخصه الله فلا تبعه عليه. (٢)

٣. التقيه بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم

قد استغل الأمويون مسأله القضاء و القدر و ركّزوا على أنّ كلّ ما يجرى فى

ص: ٥٨٩

(١-١). مجمع البيان: ٣/٣٨٨.

(٢-٢). مسند ابن أبى شيبه: ١٢/٣٥٨، ط السلفيه؛ التبيان: ٢/٤٥٣، و [١] قد علق الطوسى على الروايه و قال: و على هذا التقيه رخصه، و الافصاح بالحق فضيله، و ظاهر أخبارنا يدلّ على أنّها واجبه، و خلافها خطأ و سيوافيك أنّها على أقسام خمس.

المجتمع الإسلامي بقضاء و قدر من الله سبحانه و ليس لأحد فيه الاختيار و لا الاعتراض، و على ذلك فالفقر المدقع السائد بين أكثر المسلمين تقدير من الله، و الترف الذي يعيشه الأمويون، و الظلم الذي يلحقونه بالمسلمين تقدير من الله.

و لما كانت تلك المزعمه مخالفه لضروره الدين و بعثه الأنبياء، قام غير واحد بوجه هذه الفكره، و سكت كثيرون خوفاً من بطش الأمويين، فكتموا عقيدتهم و سلكوا مسلك التقيّه.

١. هذا هو ابن سعد يروى عن الحسن البصرى بأنه كان يخالف الأمويين فى القدر بالمعنى الذى تتبناه السلطه آنذاك فلما خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، و وعد أن لا يعود.

روى ابن سعد فى طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن فى القدر غير مره حتّى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم. (١)

٢. كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس الشرطه فى بغداد أن يُشخص إليه سبعة نفر من المحدثين منهم:

١. محمد بن سعد كاتب الواقدي، ٢. أبو مسلم، مستملى يزيد بن هارون، ٣.

يحيى بن معين، ٤. زهير بن حرب أبو خثيمه، ٥. إسماعيل بن داود، ٦.

إسماعيل بن أبى مسعود، ٧. أحمد بن الدورقي فامتحنهم المأمون و سألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أنّ القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينه السلام، و أحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم و قولهم بحضره الفقهاء و المشايخ من أهل الحديث فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم. و قد فعل إسحاق بن إبراهيم ذلك بأمر المأمون.

ص: ٥٩٠

(١ - ١). طبقات ابن سعد: ١٦٧/٧، ط بيروت. [١]

يذكر أن الرأي الذي كان سائداً بين المحدثين هو قدم القرآن أو عدم حدوثه و لكنهم اتفقوا و اعترفوا بخلق القرآن، و هذا هو نفس التقيه التي يعمل بها الشيعة، و قد مارسها المحدثون في عصر المأمون.

و هناك رساله أخرى للمأمون إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس الشرطه، و ممّا جاء فيها: و ليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقاله (القرآن ليس بمخلوق) حظاً في الدين و لا نصيباً من الإيمان....

فلما جاءت الرساله إلى إسحاق بن إبراهيم أحضر لقيفاً من المحدثين ربما يبلغ عددهم إلى ٢٦ فقرأ عليهم رساله المأمون مرتين حتّى فهموها ثمّ أنّ إسحاق دعا بهم رجلاً رجلاً فأجاب القوم كلّهم و اعترفوا بأنّ القرآن مخلوق إلّا أربعة نفر منهم:

أحمد بن حنبل، و سجاده، و القواريري، و محمد بن نوح المضروب، فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد، فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد فأعاد عليهم المحنه فأجابه سجاده إلى أنّ القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده و خلّى سبيله و أصرّ الآخرون على قولهم.

فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضاً فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريري بأنّ القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده و خلّى سبيله، و أصرّ أحمد بن حنبل و محمد بن نوح على قولهما و لم يرجعا فشدوا جميعاً في الحديد و وُجِّها إلى طرسوس و كتب معهما كتاباً بإشخاصهما.

ثمّ لما اعترض على الراجعين عن عقيدتهم، برّروا عملهم بعمل عمار بن ياسر حيث أكره على الشرك و قلبه مطمئن بالإيمان. (١)

ص: ٥٩١

(١ - ١). لاحظ تاريخ الطبري: ١٩٧/٧، حوادث ٢١٨هـ.

كُلّ ذلك يدلّ على أنّ التقيه أصل مشروع التزم بها المسلمون عند الشعور بالضعف أمام السلطه الغاشمه.

و بذلك يظهر أنّ اتهام الشيعه بتفردّها بالقول بالتقيه يضادّ الذكر الحكيم و السنه النبويه و سيره المسلمين عبر التاريخ.

إنّ التقيه سلاح الضعيف، سلاح من صُودرتْ حقوقه و حرّياته من قبل سلطه غاشمه، قاهره، لا تُبدى أيه مرونيه في مواقفها، و هذا هو حكم العقل و هو دفع الضرر عن النفس و النفيس بإظهار الموافقه لساناً و عملاً حتّى يرتفع الضرر ثم يعود الإنسان إلى ما كان عليه.

و مثل هذا لا يمكن أن يختص بفرقه دون أخرى.

ص: ٥٩٢

إشاره

محنه الشيعة فى عصر الأمويين و العباسيين

اشتهرت الشيعة بالتقيه أكثر من سائر الفرق، و لكونهم أكثر من غيرهم من حيث التعرض للضغط، و مصادرہ الحرّيات، بالظنّه، و التشريد و القتل تحت كلّ حجر و مدر.

إنّ الذى دفع بالشيعة إلى التقيه بين إخوانهم و أبناء دينهم إنّما هو الخوف من السلطات الغاشمه، فلو لم يكن هناك فى غابر القرون- من عصر الأمويين ثمّ العباسيين و العثمانيين- أى ضغط على الشيعة، و لم تكن بلادهم و عُقر دارهم مخضبه بدمائهم (و التاريخ خير شاهد على ذلك)، لأصبح من المعقول أن تنسى الشيعة كلمه التقيه و أن تحذفها من قاموس حياتها، و لكن - يا للأسف- إنّ كثيراً من إخوانهم كانوا أداه طيعه بيد الأمويين و العباسيين الذين كانوا يرون فى مذهب الشيعة خطراً على مناصبهم، فكانوا يؤلّبون العامه من أهل السنّه على الشيعة يقتلونهم و يضطهدونهم و ينكلون بهم، و لذا و نتيجة لتلك الظروف الصعبه، لم يكن للشيعة، بل لكل من يملك شيئاً من العقل و سيله إلاّ اللجوء إلى التقيه أو رفع

ص: ٥٩٣

اليد عن المبادئ المقدّسه التي هي أعلى عنده من نفسه و ماله.

و الشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى أو أن تُعدّ، إلاّ أنّا سنستعرض جانباً مختصراً منها: فمن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان باستباحه دماء الشيعة أينما كانوا و كيفما كانوا، و إليك نص ما ذكرته المصادر عن هذه الواقعة لتدرك محنه الشيعة:

محنه الشيعة في العصر الأموي

روى أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخه واحده إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمه ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب و أهل بيته، فقامت الخطباء في كل كوره، و على كل منبر، يلعنون علياً و يتبرءون منه و يقعون فيه و في أهل بيته، و كان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفه، لكثره من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليها زياد بن سميه، و ضم إليه البصره، فكان يتتبع الشيعة و هو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر و مدر، و أخافهم، و قطع الأيدي و الأرجل، و سَمَلَ العيون، و صلبهم على جذوع النخل، و طردهم و شرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، و كتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي و أهل بيته شهادة.

ثمّ كتب إلى عمّاله نسخه واحده إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنه أنّه يحبّ علياً و أهل بيته، فامحوه من الديوان، و أسقطوا عطاءه و رزقه، و شفّع ذلك بنسخه أخرى: من اتهمتموه بموالاه هؤلاء القوم، فنكّلوا به، و اهدموا داره. فلم يكن البلاء أشدّ و لا أكثر منه بالعراق، و لا سيّما بالكوفه حتّى أنّ الرجل من

شيعه على عليه السلام ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقى إليه سرّه، و يخاف من خادمه و مملوكه، و لا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظه، ليكتمنّ عليه.

و أضاف ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليهما السلام، فازداد البلاء و الفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلّا و هو خائف على دمه، أو طريد في الأرض.

ثمّ تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام، و ولي عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، و وليّ عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النسك و الصلاح و الدين ببغض على و موالاه أعدائه، و موالاه من يدعى من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الروايه في فضلهم و سوابقهم و مناقبهم، و أكثروا من البغض من على عليه السلام و عيبه، و الطعن فيه، و الشن آن له، حتى أنّ إنساناً وقف للحجاج -و يقال إنّ جده الأصمعي عبد الملك بن قريش- فصاح به: أيها الأمير إنّ أهلي عقونى فسمّونى علياً، و إنّى فقير و بائس و أنا إلى صله الأمير محتاج، فتضحك له الحجاج، و قال: للطف ما توّسّلت به، قد وليتكم موضع كذا. (١)

و استمر الحزب الأموى في الإرهاب و سفك الدماء على امتداد مراحل وجوده في السلطه، حيث سجّل لنا التاريخ حوادث أخرى تحكى أبشع صور الإرهاب و الاستخفاف بقيم الحق و العدل أيام عبد الملك بن مروان و قتله سعيد بن جبير. و قد جاء في كتاب عبد الملك بن مروان الذى وليّ فيه خالد بن عبد الله القسرى:

أمّياً بعد، فأنّى وليت عليكم خالد بن عبد الله القسرى، فاسمعوا له و أطيعوا، و لا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلاً، فإنّما هو القتل لا غير، و قد برئت الذمه من رجل

ص: ٥٩٥

آوى سعيد بن جبير، و السلام. ثم التفت إليهم خالد، و قال: و الذى نحلّف به، و نحجّ إليه، لا أجده فى دار أحد إلا قتلته و هدمت داره و دار كلّ من جاوره و استبحت حرّمته، و قد أجلت لكم فيه ثلاثه أيّام. (١)

ثم يُلقى القبض على سعيد بن جبير الذى كان من طلائع الموالين لآل البيت النبوى، و يُسلّم إلى الحجاج السّفاح الشهير فى تاريخ الإسلام الذى قتل عشرات الآلاف من معارضى السلطه، فيقتله.

و هذا هو الإمام الباقر عليه السلام يصف بيئته و المجتمع الذى كان يعيش فيه حيث قال لبعض أصحابه: يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيانا، و تظاهرهم علينا، و ما لقى شيعتنا و محبونا من الناس... إلى أن قال- ثم لم نزل- أهل البيت - نُستذل و نُستضام، و نُقصى و نُمتهن، و نُحرم و نُقتل، و نخاف و لا نأمن على دمائنا و دماء أوليائنا، و وجد الكاذبون الجاحدون، لكذبهم و جحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم، و قضاه السوء و عمال السوء فى كلّ بلده، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعه المكذوبه و رووا عنّا ما لم نقله و ما لم نفعله، لبيغضونا إلى الناس، و كان عظيم ذلك و كبره زمن معاويه بعد موت الحسن عليه السلام فقتلت شيعتنا بكلّ بلده، و قطعت الأيدي و الأرجل على الظنه، و كان من يذكر بحبنا و الانقطاع إلينا سيجن أو نُهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد و يزداد إلى زمان عبید الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثم جاء الحجاج فقتلهم كلّ قتلته و أخذهم بكلّ ظنه و تهمة، حتّى أنّ الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال شيعة على. (٢)

ص: ٥٩٤

[١- ١]. الإمامه و السياسه: ٤٧/٢، ط مصر. [١]

[٢- ٢]. شرح ابن أبى الحديد: ٤٣/١١ - ٤٤. [٢]

لقد مارست السلطه العباسيه سياسه البطش و القتل و التشريد كمنظيرتها السلطه الأمويه بل كانت أكثر بطشاً و تنكياً، و هذا هو أبو الفرج الاصفهاني يقول في حق المتوكل:

كان المتوكل شديد الوطأه على آل أبي طالب، غليظاً في جماعتهم، شديد الغيظ و الحقد عليهم، و سوء الظن و التهمه لهم... و استعمل على المدينه و مكه عمر بن الفرج الرخجي، فمنع آل أبي طالب من التعرض لمسأله الناس و منع الناس من البرّ بهم، و كان لا يبلغه انّ أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء، و إن قل إلاّ أنهكه عقوبه، و أثقله غرماً، حتّى كان القميص يكون بين جماعه من العلويات يصلّين فيه واحده بعد واحده ثم يرقعنه، و يجلسن على مغازلهن عوارى حاسرات. (١)

هكذا شاء أمير المؤمنين المتوكل على الله، أن تقبع العلويات في بيوتهن عاريات يتبادلن القميص المرقّع عند الصلاه، و ان تختال الفاجرات العاهرات بالحلى و حلل الديباج بين الإمام و العبيد... لقد أرسل الرشيد إلى بنات الرسول من يسلب الثياب عن أبدانهن، أمّا المتوكل فقد شدد و ضيق عليهن، حتّى ألجأهن إلى العرى، و هكذا تتطور الفلسفات و المناهج مع الزمن على أيدي القرشيين العرب أبناء الأمجاد و الأشراف!

لقد تفرق العلويون أيام المتوكل، فمنهم من توارى فمات في حال تواريه كأحمد بن عيسى الحسين و عبد الله بن موسى الحسيني، و منهم من ثار على القهر

ص: ٥٩٧

و الجور كمحمد بن صالح و محمد بن جعفر.

و لم يكتف المتوكل بالتنكيل بالأحياء، حتّى اعتدى على قبور الأموات فهدم قبر الحسين عليه السلام و ما حوله من المنازل و الدور، و منَع الناس من زيارته و نادى مناديه من وجدناه عند قبر الحسين عليه السلام حبسناه فى المطبق-سجن تحت الأرض- فقال الشاعر: تالله إن كانت أميه قد أتت

نعم كانت التقية بين الشيعة تزداد تارة و تتضاءل أخرى، حسب قوّه الضغط و ضآلته، فشتان بين عصر المأمون الذى يجيز مادحى أهل البيت، و يكرم العلويين، و بين عصر المتوكل الذى يقطع لسان ذاكرهم بفضيله.

فهذا ابن السكيت أحد أعلام الأدب فى زمن المتوكل، و قد اختاره معلماً لولديه فسأله يوماً: أيهما أحبُّ إليك ابناى هذان أم الحسن و الحسين؟ قال ابن السكيت: و الله إنَّ قبر خادم على عليه السلام خير منك و من ابنيك. فقال المتوكل: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات. و لما مات سيّر المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم و قال: هذه ديه والدك!! (١)

و هذا ابن الرومى الشاعر العبقرى يقول فى قصيدته التى يرثى بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن على:

ص: ٥٩٨

١-٢). ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/٣٣. [١] الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٢/١٦.

و كان العباسيون أشدّ كرهاً للعلويين من الأمويين، و أعظم بغضاً فأمعنوا فيهم قتلاً و حرقاً و اضطهاداً و تعذيباً، فهذا هو المنصور يُحمل إليه من المدينه كلّ من كان فيها من العلويين مقيدين بالسلاسل و الأغلال، و لما وصلوا إليه حبسهم في سجن مظلم لا يعرف فيه ليل من نهار، و كان إذا مات أحدهم تُرك معهم و أخيراً أمر بهدم السجن عليهم، و في ذلك يقول أحد شعراء الشيعة: و الله ما فعلت أميه فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

و قال آخر: يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بنى العباس في النار (١)

و قال أبو فراس: ما نال منهم بنو حرب و إن عظمت تلك الجرائم إلاّ دون نيلكم

ص: ٥٩٩

وقال الشريف الرضى: ألا ليس فعل الأولين و إن علا على قبح فعل الآخرين بزائد

وقال الشيخ الطوسي الذي كان يعيش في عصر ازدهار الخلافة العباسية، وهو يصف حال الشيعة:

لم تلق فرقه ولا بُلى أهل مذهب بما بُليت به الشيعة، حتى إننا لا نكاد نعرف زماناً تقدّم سلمت فيه الشيعة من الخوف و لزوم التقيه، ولا حالاً عريت فيه من قصد السلطان و عصبيته و ميله و انحرافه. (١)

هذه لمحّه خاطفه لمحنه الشيعة في العصر العباسي و قد دام الأمر على هذه الوتيره في العصور المتأخره لا سيما في عصر الأيوبيين و العثمانيين.

محنه الشيعة في العصرين: الأيوبي و العثماني

ما إن انتزع صلاح الدين الأيوبي الملك من الفاطميين حتى قام بعزل القضاء الشيعة و استتاب عنهم قضاء شافعيه، و أبطل من الأذان «حي على خير العمل» و تظاهر الناس بمذهب مالك و الشافعي، و اختفى مذهب التشيع إلى أن نسي من مصر، و كان يحمل الناس على التسنن و عقيدته الأشعري، و من خالف ضربت عنقه، و أمر أن لا تقبل شهاده أحد و لا يقدم للخطابه و لا للتدريس إلا إذا كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة، قال الخفاجي في كتابه «الأزهر في ألف عام» (٢) ما نصه: فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل أثر للشيعة.

ص: ٦٠٠

١-١. الطوسي: تلخيص الشافعي: ٥٩/٢.

٢-٢. الأزهر في ألف عام: ٥٨/١. [١]

و أما في العصر العثماني فقد تولى السلطان سليم زعامه السنه و استحصل على فتوى من شيوخ السوء بأن الشيعة خارجون على الدين يجب قتلهم و لذلك أمر بقتل كل من كان معروفاً بالشييع داخل بلاده.

و بهذا الأمر قُتل في الاناضول وحدها أربعون ألفاً و قيل سبعون، لا لشيء إلا لأنهم شيعة. و جاء في «الفصول المهمه» للسيد شرف الدين أنّ الشيخ نوح الحنفي أفتى بكفر الشيعة و وجوب قتلهم، فقتل من جراء هذه الفتوى عشرات الألوف من شيعة حلب حتى لم يبق فيها شيعي واحد و كان التشيع فيها راسخاً و منتشرأ منذ كانت حلب عاصمه الدوله الحمدانيه، و قد نشأ في حلب منذ القديم العديد من كبار العلماء و أئمه الفقه كبنى زهره و آل أبي جراده و غيرهم ممن جاء ذكرهم في كتب السير و التراجم خاصه كتاب «أمل الآمل». (1)

و قتل العثمانيون الشهيد الثاني المشهور بفضله و ورعه و كتبه العلميه الجليله التي يدرس بعضها حتى اليوم في جامعه النجف و قم، و فعل الجزائر والى عكا بجبل عامل ما فعل الحجاج في العراق.

و انتهب الجزائر أموال العاملين و مكتباتهم، و كان في مكتبه آل خاتون خمسه آلاف مجلد و بقيت أفران عكا توقد أسبوعاً كاملاً. من كتب العاملين، و لم يسلم من ظلم الجزائر إلا من استطاع الفرار، و في عهده هاجر علماء جبل عامل مشردين في الأقطار، و من هؤلاء الشاعر الشيعي إبراهيم يحيى الذي هرب إلى دمشق، و في نفسه لوعه و حسره، و ذكرى فظائع الجزائر لا تفارقه بحال و قد صورها و هو شاهد عيان في قصائد تدمى الأفتده و القلوب منها

ص: ٦٠١

١-١). راجع الفصول المهمه: ٢٠٦، الفصل التاسع؛ [١] غنيه النزوع: ١١، المقدمه.

قصيده طويله، يقول فيها: يعز علينا أن نروح و مصرنا

هذه لمحہ خاطفه لمحنه الشيعة فى العصر العثمانى، و على الرغم من شيوع الحرية فى عصرنا الراهن فلم تزل الشيعة فى أكثر نقاط العالم تمارس التقيه، و إلا يضيق عليها الخناق.

يقول العلامة السيد هبه الدين الشهرستاني: إن التقيه شعار كل ضعيف مسلوب الحرية. إن الشيعة قد اشتهرت بالتقيه أكثر من غيرها لأنها مُنيت باستمرار الضغط عليها أكثر من أية أُمَّه أُخرى، فكانت مسلوبه الحرية فى عهد الدوله الأمويه كَلَّه، و فى عهد العباسيين على طولہ، و فى أكثر أيام الدوله العثمانية، و لأجله استشعروا بشعار التقيه أكثر من أى قوم، و لما كانت الشيعة، تختلف عن الطوائف المخالفه لها فى قسم مهم من الاعتقادات فى أصول الدين و فى كثير من الأحكام الفقهيّه، و المخالفه تستجلب بالطبع رقابه و تصدقه التجارب، لذلك أضحت شيعة الأئمه من آل البيت مضطّره فى أكثر الأحيان إلى كتمان ما تختص به من عادة أو عقيدته أو فتوى أو كتاب أو غير ذلك، تبتغى بهذا الكتمان، صيانَه النفس و النفيس، و المحافظه على الوداد و الاخوه مع سائر اخوانهم المسلمين، لئلا تنشق عصا الطاعه، و لكى لا يحس الكفّار بوجود اختلاف ما فى المجتمع الإسلامى فيوسع الخلاف بين الأئمه المحمديه.

لهذه الغايات النزيهه كانت الشيعة تستعمل التقيه و تحافظ على وفاقها فى الظواهر مع الطوائف الأخرى، متبعه فى ذلك سيره الأئمه من آل محمد

ص: ٦٠٢

و أحكامهم الصارمه حول وجوب التقيه من قبيل: «التقيه دينى و دين آبائى»، إذ أنّ دين الله يمشى على سنّه التقيه لمسلوبى الحريه، دلّت على ذلك آيات من القرآن العظيم. (١)

روى عن صادق آل البيت عليهم السلام فى الأثر الصحيح:

«التقيه دينى و دين آبائى».

لقد كانت التقيه شعاراً لآل البيت عليهم السلام دفعاً للضرر عنهم، و عن أتباعهم، و حقناً لدمائهم، و استصلاحاً لحال المسلمين، و جمعاً لكلمتهم، و لئلاً لشعثهم، و ما زالت سمه تُعرف بها الإماميه دون غيرها من الطوائف و الأمم. و كل إنسان إذا أحسّ بالخطر على نفسه، أو ماله بسبب نشر معتقده، أو التظاهر به لا بد أن يتكتم و يتقى مواضع الخطر. و هذا أمر تقتضيه فطره العقول.

من المعلوم أنّ الإماميه و أئمتهم لاقوا من ضرور المحن، و صنوف الضيق على حرياتهم فى جميع العهود ما لم تلاقه أيه طائفه، أو أمه أُخرى، فاضطروا فى أكثر عهودهم إلى استعمال التقيه فى تعاملهم مع المخالفين لهم، و ترك مظاهرتهم، و ستر عقائدهم، و أعمالهم المختصه بهم عنهم، لما كان يعقب ذلك من الضرر فى الدنيا.

و لهذا السبب امتازوا بالتقيه و عرفوا بها دون سواهم. (٢)

حصيله البحث

فحصيله البحث أنّ أوساط الشيعه شهدت مجازر بشعه على يد السلطات

ص: ٦٠٣

١- ١). غافر: ٢٨؛ النحل: ١٠٦.

٢- ٢). مجله المرشد: ٢٥٣، ٢٥٢/٣ و لاحظ تعاليق اوائل المقالات ص ٩٦.

الغاشمه، فقتل الآلاف منهم، وأما من بقى منهم على قيد الحياة فقد تعرض إلى شتى صنوف التنكيل و الارهاب و التخويف، و الحق يقال: إن من الأمور العجيبه أن يبقى لهذه الطائفة باقيه رغم كل ذلك الظلم الكبير و القتل الذريع بل العجب العجاب أن تجد هذه الطائفة قد ازدادت قوه وعده و أقامت دولاً و شيدت حضارات و برز منها الكثير من العلماء و المفكرين.

فلو كان الأخ السنى يرى التقيه أمراً محرماً فليعمل على رفع الضغط عن أخيه الشيعى و أن لا يضيق عليه فى الحريه التى سمح بها الإسلام لأبنائه، و ليعذره فى عقيدته و عمله كما عذّر أناساً كثيرين خالفوا الكتاب و السنّه و أراقوا الدماء و نهبوا الديار فكيف بطائفه تدين بدينه و تتفق معه فى كثير من معتقداته، و إذا كان معاويه و أبناء بيته و العباسيون كلهم عنده مجتهدين فى بطشهم و إراقه دماء مخالفيهم فما ذا يمنعه عن إعدار الشيعة باعتبارهم مجتهدين.

و إذا كانوا يقولون -و ذاك هو العجيب- أن الخروج على الإمام على عليه السلام غير مضرّ بعداله الخارجين و الثائرين عليه، و فى مقدمتهم طلحه و الزبير و أمّ المؤمنين عائشه، و إنّ إثارة الفتن فى صفين -التى انتهت إلى قتل كثير من الصحابه و التابعين و إراقه دماء الآلاف من العراقيين و الشاميين- لا تنقص شيئاً من ورع المحاربين!! و هم بعد ذلك مجتهدون معذورون لهم ثواب من اجتهد و أخطأ، فلم لا يتعامل مع الشيعة ضمن هذا الفهم و لا يذهب إلى أنّهم معذورون و مثابون!!

الغايه من تشريع التقيه

الغايه من التقيه:هى صيانه النفس و العرض و المال،و ذلك فى ظروف قاهره لا يستطيع فيها المؤمن أن يعلن عن موقفه الحق صريحاً خوفاً من أن تترتب على ذلك مضار و تهلكه من قوى ظالمه غاشمه تمارس الارهاب،و التشريد و النفى،و القتل و التنكيل،و مصادره الأموال،و سلب الحقوق الحقه،و عندئذٍ لا يجد صاحبُ العقيده-الذى يرى نفسه محقاً-محيصاً عن إبطانها، و التظاهر بما يوافق هوى الحاكم و توجهاته حتى يسلم من الاضطهاد و التنكيل و القتل،إلى أن يُحدث الله أمراً.

إنّ التقيه سلاح الضعيف فى مقابل القوى الغاشم،سلاح من يُبتلى بمن لا يحترم دمه و عرضه و ماله،لا لشيء إلا لأنه لا يتفق معه فى بعض المبادئ و الأفكار.

إنّما يمارس التقيه من يعيش فى بيئه صودرت فيها الحريه فى القول و العمل، و الرأى و العقيده فلا ينجو المخالف إلا بالصمت و السكوت مُرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطه و أفكارها،أو قد يلجأ إليها البعض كوسيله لا بد منها من أجل اغائه الملهوف المضطهد و المستضعف الذى لا حول له و لا قوه،فيتظاهر بالعمل إلى جانب الحكومه الظالمه وصولاً إلى ذلك كما كان عليه مؤمن آل فرعون

الذى حكاه سبحانه فى الذكر الحكيم.

إن أكثر من يعيبُ التقيه على مستعملها، يتصوّر أو يصوّر أنّ الغايه منها هو تشكيل جماعات سرية هدفها الهدم و التخريب، كما هو المعروف من الباطنيين و الأحزاب الإلحاديه السريه، و هو تصوّر خاطئ ذهب إليه أولئك جهلاً أو عمداً دون أن يرتكزوا فى رأيهم هذا على دليل ما أو حجه مقنعه، فأين ما ذكرناه من هذا الذى يُذكر، و لو لم تستبد الظروف القاهره و الأحكام المتعسفه بهذه الجموع المستضعفه من المؤمنين لما كانوا عمدوا إلى التقيه، و لما تحمّلوا عبء إخفاء معتقداتهم و لدّعوا الناس إليها علناً و دون تردّد.

أين العمل الدفاعى بصوره بدائيه من الأعمال التى يرتكبها أصحاب الجماعات السريه للإطاحه بالسلطه و امتطاء منصّه الحكم؟ و هى أعمال كلها تخطيطات مدبّره لغايات ساقطه.

و هؤلاء هم الذين يحملون شعار «الغايات تبرّر الوسائل» فكل قبيح عقلى أو ممنوع شرعى يستباح عندهم لغايه الوصول إلى المقاصد المشؤمه.

إنّ القول بالتشابه بين هؤلاء و بين من يتخذ التقيه غطاءً، و سلاحاً دفاعياً ليسلم من شر الغير، حتى لا يُقتل و لا يُستأصل، و لا تُنهب داره و ماله، إلى أن يُحدث الله أمراً، من قبيل عطف المبائن على مثله.

إنّ المسلمين القاطنين فى الاتحاد السوفيتى السابق قد لاقوا من المصائب و المحن ما لا يمكن للعقول أن تحتملها و لا أن تتصورها، فإنّ الشيوعيين طيله تسلّطهم على المناطق الإسلاميه قبلوا لهم ظهر المجرّ، فصادروا أموالهم و أراضيههم، و مساكنهم، و مساجدهم، و مدارسهم، و أحرقوا مكاتباتهم، و قتلوا كثيراً منهم قتلاً ذريعاً و وحشياً، فلم ينج منهم إلا من اتقاهم بشىء من التظاهر

بالمرونة، وإخفاء المراسيم الدينيه، والعمل على إقامه الصلاه فى البيوت إلى أن نَحْرَاهم اللّٰه سبحانه بانحلال تلك القوه الكافره، فبرز المسلمون إلى الساحة من جديد، فملكوا أرضهم و ديارهم، وأخذوا يستعيدون مجدهم و كرامتهم شيئاً فشيئاً، و ما هذا إلا ثمره من ثمار التقيه المشروعه التى أباحها الله تعالى لعباده بفضله و كرمه سبحانه على المستضعفين.

فإذا كان هذا معنى التقيه و مفهومها، و كانت هذه غايتها و هدفها، فهى أمر فطرى، يسوق الإنسان إليها قبل كل شىء عقله و لُبّه، و تدعوه إليها فطرته، و لأجل ذلك يلوذ بها كل من ابتلى بالملوك و الساسه الذين لا يحترمون شيئاً سوى رأيهم و فكرتهم و مطامعهم و سلطتهم و لا يترددون عن التنكيل بكل من يعارضهم فى ذلك، من غير فرق بين المسلم-شيعياً كان أم سنياً- و غيره، و من هنا تظهر جدوى التقيه و عمق فائدتها.

و لأجل دعم هذا الأصل الحيوى، ندرس دليله من القرآن و السنّه.

ص: ٦٠٧

التقيه فى الكتاب العزيز

شُرعت التقيه بنص القرآن الكريم، حيث وردت فيها جملة من الآيات الكريمة (١) سنحاول استعراضها فى الصفحات التالية:

الآية الأولى:

قال سبحانه: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». ٢

ترى أنه سبحانه يجوز إظهار الكفر كرهاً و مجاراةً للكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان، و صرح بذلك لفيق من المفسرين القدامى و الجدد، سنحاول أن نستعرض كلمات البعض منهم تجنباً عن الإطالة و الاسهاب، و لمن يبتغى المزيد فعليه مراجعه كتب التفسير المختلفة:

١. قال الطبرسى: قد نزلت الآية فى جماعه أكرهوا على الكفر، و هم عمّار

ص: ٤٠٨

(١ - ١). غافر: الآية ٢٨ و ٤٥، و القصص: الآية ٢٠، و ستوافيك نصوص الآيات فى ثنايا البحث.

و أبوه ياسر و أمه سمية، و قُتِلَ الأبوان لأنهما لم يظهرَا الكفر و لم ينالا من النبى، و أعطاهم عمّار ما أرادوا منه، فأطلقوه، ثم أخبر عمّار بذلك رسول الله، و انتشر خبره بين المسلمين، فقال قوم: كفر عمّار، فقال الرسول: «كَلَّا إِنَّ عَمَّارًا مَلَأَ إِيمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَ اخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَ دَمِهِ».

و فى ذلك نزلت الآيه السابقه، و كان عمّار يبكى، فجعل رسول الله يمسح عينيه و يقول: «إِنْ عَادُوا لَكَ فَعَدْ لَهُمْ بِمَا قَلْتَ». (١)
٢. و قال الزمخشري: روى أن أناساً من أهل مكّه قُتِنُوا فارتدّوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، و كان فيهم من أكره و أجرى كلمه الكفر على لسانه و هو معتقد للإيمان، منهم عمّار بن ياسر و أبواه: ياسر و سمية، و صهيب و بلال و خباب.

أما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً.... (٢)

٣. و قال الحافظ ابن ماجه: و الايتاء: معناه الاعطاء أن وافقوا المشركين على ما أرادوا منهم تقيه، و التقيه فى مثل هذه الحال جائزه، لقوله تعالى: «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». (٣)

٤. و قال القرطبي: قال الحسن: التقيه جائزه للإنسان إلى يوم القيامه - ثم قال: - أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتّى خشى على نفسه القتل إنّه لا إثم عليه إن كفر و قلبه مطمئن بالإيمان و لا تبين منه زوجته و لا يُحكم عليه بالكفر، هذا قول مالك و الكوفيين و الشافعى. (٤)

ص: ٦٠٩

١- ١. مجمع البيان: ٣/٣٨٨.

٢- ٢. الكشاف عن حقائق التنزيل: ٢/٤٣٠.

٣- ٣. ابن ماجه: السنن: ١/٥٣، شرح حديث رقم ١٥٠.

٤- ٤. الجامع لأحكام القرآن: ٤/٥٧. [١]

٥. قال الخازن: التقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامه التيه، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» ثم هذه التقية رخصه. (١)

٦. قال الخطيب الشربيني: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» أى على التلفظ به «وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» فلا شىء عليه لأن محل الإيمان هو القلب. (٢)

٧. وقال إسماعيل حقى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» أُجبر على ذلك اللفظ بأمر يخاف على نفسه أو عضو من أعضائه... لأن الكفر اعتقاد، والإكراه على القول دون الاعتقاد، والمعنى: «و لكن المكروه على الكفر باللسان»، «وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» لا- تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان المنجى المعتبر عند الله، هو التصديق بالقلب. (٣)

الآية الثانية:

قال سبحانه: «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَ يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ». (٤)

و كلمات المفسرين حول الآية تغنيا عن أى توضيح:

١. قال الطبرى: «إِلَّا- أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً»: قال أبو العالیه: التقية باللسان، و ليس بالعمل، حُرِّدَتْ عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ قال: أخبرنا

ص: ٦١٠

١-١. تفسير الخازن: ٢٧٧/١. [١]

٢-٢. السراج المنير. فى تفسير الآية.

٣-٣. تفسير روح البيان: ٨٤/٥. [٢]

٤-٤. آل عمران: ٢٨. [٣]

عبيد قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال:

التقّيه باللسان من حُمِلَ على أمر يتكلم به و هو لله معصيه فتكلم مخافه نفسه «وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» فلا- إثم عليه، إنّما التقّيه باللسان. (١)

٢. وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»: رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم، والمراد بتلك الموالات: مخالفته و معاشره ظاهره، و القلب مطمئن بالعداوه و البغضاء و انتظار زوال المانع. (٢)

٣. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»: المسأله الرابعه:

اعلم: أنّ للتقّيه أحكاماً كثيره، و نحن نذكر بعضها:

ألف: إنّ التقّيه إنّما تكون إذا كان الرجل في قوم كفّار، و يخاف منهم على نفسه، و ماله، فيداريهم باللسان، و ذلك بأن لا يظهر العداوه باللسان، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهّم للمحبه و الموالات، و لكن بشرط أن يضمّر خلافه و أن يعرض في كل ما يقول، فإنّ للتقّيه تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

ب: التقّيه جائزه لصون النفس، و هل هي جائزه: لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز، لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»، و لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: «من قتل دون ماله فهو شهيد». (٣)

٤. و قال النسفي: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» إلا أن تخافوا جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، أى ألا يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك و مالك فحينئذ يجوز لك اظهار الموالاته و إبطان المعاداه. (٤)

ص: ٦١١

١-١. جامع البيان: ١٥٣/٣. [١]

٢-٢. الكشاف: ٤٢٢/١. [٢]

٣-٣. مفاتيح الغيب: ١٣/٨. [٣]

٤-٤. تفسير النسفي [٤] بهامش تفسير الخازن: ٢٧٧/١. [٥]

٥. وقال الآلوسى: وفي الآية دليل على مشروعيه التقيه و عَرَفُوهَا بِمَحَافِظِهَا النَّفْسِ أَوْ الْعَرَضِ أَوْ الْمَالِ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ. و العدو قسمان:

الأول: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين، كالكافر و المسلم.

الثانى: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيويه، كالمال و المتاع و الملك و الاماره. (١)

٦. وقال جمال الدين القاسمى: و من هذه الآية: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» استنبط الأئمة مشروعيه التقيه عند الخوف، و قد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني فى كتابه (إيثار الحق على الخلق). (٢)

٧. و فسّر المراغى قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» بقوله: أى انّ ترك موالاه المؤمنين للكافرين حتم لازم فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم، فلکم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشىء، إذ القاعده الشرعيه: «إنّ درء المفسد مقدم على جلب المصالح».

و إذا جازت موالاههم لا تتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعه المسلمين، إذا فلا- مانع من أن تحالف دوله إسلاميه دوله غير مسلمه، لفائده تعود إلى الأولى، إمّا بدفع ضرر أو جلب منفعه، و ليس لها أن تواليا فى شىء يضر المسلمين، و لا تختص هذه الموالاه بحال الضعف، بل هى جائزه فى كل وقت.

و قد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقيه بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق، لأجل التوقى من ضرر يعود من الأعداء إلى النفس، أو العرض، أو المال.

ص: ٦١٢

١- ١. روح المعانى: ١٢١/٣. [١]

٢- ٢. محاسن التأويل: ٨٢/٤. [٢]

فمن نطق بكلمه الكفر مكرهاً وقايه لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يكون كافراً بل يُعذر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان، وفيه نزلت الآيه:

«مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ». ١

هذه الجمل الوافيه و العبارات المستفيضه لا تدع لقائل مقالاً إلا أن يحكم بشرعيه التقيه بالمعنى الذى عرفته، بل قد لا يجد أحد مفسراً أو فقيهاً وقف على مفهومها و غايتها، و هو يتردد فى الحكم بجوازها، كما أنك -أخى القارئ - لا تجد إنساناً واعياً لا يستعملها فى ظروف عصيبه، ما لم تترتب عليها مفسده عظيمه، كما سيوافيك بيانها عند البحث عن حدودها.

و إنما المعارض لجوازها أو المغالط فى مشروعيتها، فإنما يفسرها بالتقيه الرائجه بين أصحاب التنظيمات السريه و المذاهب الهدامه كالباطنيه و أمثالهم، إلا أن المسلمين جميعاً بريئون من هذه التقيه الهدامه لكل فضيله رايه.

الآيه الثالثه:

قوله سبحانه: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ». ٢

و كانت عاقبه أمره أن: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِالِ فِرْعَوْنَ سُوءٌ

ص: ٦١٣

الْعَذَابِ». ١.

و ما كان ذلك إلا لأنه بتقّيته استطاع أن ينجى نبى الله من الموت: «قال يا موسى إنّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ». ٢.

و هذه الآيات تدل على جواز التقية لإنقاذ المؤمن من شرّ عدوّه الكافر.

ص: ٦١٤

التقيه في السنه النبويه

دلت الروايات على أنّ الوجوب و الحرمة ترتفع عند طروء الاضطرار،الذى تعدّ التقيه من مصاديقه و أوضح دليل على ذلك هو حديث الرفع الذى رواه الفريقان.

١.روى الصدوق بسند صحيح فى خصاله عن أبى عبد الله عليه السلام قال:قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:«رفع عن أمّتى تسعه:الخطأ،و النسيان،و ما أكرهوا عليه، و ما لا يطيقون،و ما لا يعلمون،و ما اضطروا إليه،و الحسد،و الطيره،و التفكر فى الوسوسه فى الخلق ما لم ينطق بشفه».(١)

إنّ للحديث دوراً فى مبحث البراءه و الاشتغال فى علم الأصول،و قد فصلنا الكلام حوله فى بحثنا الأصوليه.(٢)

و على كلّ تقدير فالحديث صريح فى أنّ الاضطرار يبيح المحظور.

٢.روى الكلينى بسند صحيح عن زراره،عن أبى جعفر عليه السلام،قال:«التقيه

ص:٦١٥

١-١).الخصال:٤١٧.

٢-٢).لاحظ إرشاد العقول:١/٣٤٧-٣٦٤.[١]

فى كل ضروره، و صاحبها أعلم بها حين تنزل به». (١)

٣. روى الكلينى عن محمد بن مسلم و زرارہ قالوا: سمعنا أبا جعفر عليه السلام يقول:

«التقيه فى كل شىء يضطر إليه ابن آدم فقد أحله الله له». (٢)

٤. عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «و كل شىء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقيه مما لا يؤدى إلى الفساد فى الدين فإنه جائز». (٣)

٥. و عنه عليه السلام أنه قال: «و لا حنث و لا كفاره على من حلف تقيه يدفع بذلك ظلماً عن نفسه». (٤)

٦. و عنه عليه السلام قال: «و ان التقيه لأوسع مما بين السماء و الأرض». (٥)

إلى غير ذلك من الروايات الواردة فى هذا الموضوع.

و لك أن تضيف إلى ذلك الاستدلال بالآيات التى رخصت عند الاضطرار، قال تعالى: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ٦ و مورد الآيه و إن كان الاضطرار لأجل الجوع، و لكن الموضوع هو الاضطرار، سواء أ كان العامل داخلياً كاضطراره إلى أكل الميتة، أو خارجياً قاهراً مُلْزِماً على العمل بالخلاف على نحو لو لم يفعله لأدى إلى إلحاق الضرر بنفسه و نفسه.

التقيه فى كلمات العلماء

١. قال ابن عباس: التقيه باللسان و القلب مطمئن بالإيمان و لا يبسط يده

ص: ٦١٦

١- ١. الوسائل: ١١، الباب ٢٥ من أبواب الأمر و النهى، الحديث ١. [١]

٢- ٢. الوسائل: ١١، الباب ٢٥ من أبواب الأمر و النهى، الحديث ٢. [٢]

٣- ٣. الكافى: ١٦٨/٢. [٣]

٤- ٤. الخصال: ٦٠٧.

٥- ٥. بحار الأنوار: ٤١٢/٧٥. [٤]

للقتل. (١)

٢. قال الحسن البصرى: التقية جائزه للمؤمن إلى يوم القيامة إلا فى قتل النفس. (٢)

٣. و قال الرازى: تجوز التقية لصون المال على الأصح كما يجوز صون النفس. (٣)

٤. و قال السيوطى: يجوز أكل الميتة فى المخمصة و إساغه اللقمة فى الخمر، و التلفظ بكلمه الكفر، و لو عمّ الحرام قطراً بحيث لا يوجد فيه حلال إلا نادراً فإنه يجوز استعمال ما يحتاج إليه. (٤)

و قد أنكر الشاطبى على الخوارج إنكارهم التقية فى القول و الفعل، و عدّها من جملة مخالفاتهم للكليات الشرعية أصلية أو عملية. (٥)

٥. و قال الطوسى: و التقية عندنا واجبه عند الخوف على النفس، و قد روى رخصه فى جواز الإفصاح بالحق عنده. (٦)

٦. و قال العلامة الطباطبائى: الكتاب و السنّه متطابقان فى جوازها فى الجملة، و الاعتبار العقلى يؤيده، إذ لا بغيه للدين و لا همّ لشارعه إلا ظهور الحقّ و حياته، و ربما يترتب على التقية و المجاراه مع أعداء الدين و مخالفة الحقّ حفظ مصلحه الدين و حياه الحقّ ما لا يترتب على تركها و إنكار ذلك مكابره و تعسف. (٧)

ص: ٦١٧

١-١. فتح البارى: ٢٧٩/١٢.

٢-٢. تفسير النيسابورى فى هامش الطبرى: ١٧٨/٣.

٣-٣. التفسير الكبير: ١٣/٨. [١]

٤-٤. الأشباه و النظائر: ٧٦.

٥-٥. الموافقات: ١٨٠/٤.

٦-٦. التبيان: ٤٣٥/٢. [٢]

٧-٧. الميزان: ١٥٣/٣. [٣]

عُرِفَتِ الشيعه بالتقيه و أنهم يتقون في أقوالهم و أفعالهم،فصار ذلك مبدأ لوهم علق بأذهان بعض السطحين و المغالطين،فقالوا:بما أنّ التقيه من مبادئ التشيع فلا يصح الاعتماد على كل ما يقولون و يكتبون و ينشرون،إذ من المحتمل جداً أن تكون هذه الكتب دعايات و الواقع عندهم غيرها.هذا ما نسمعه منهم مره بعد مره،و يكرره الكاتب الباكستاني«إحسان إلهي ظهير» في كتبه السقيه التي يتحامل بها على الشيعه.

و لكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقيه إنّما هو في حدود القضايا الشخصية الجزئيه عند وجود الخوف على النفس و النفيس،فإذا دلت القرائن على أنّ في إظهار العقيدته أو تطبيق العمل على مذهب أهل البيت ما يلحق بالمؤمن الضرر،يُصبح هذا المورد من مواردها،و يحكم العقل و الشرع بلزوم الاتقاء حتى يصون بذلك نفسه و نفيسه عن الخطر.و أمّا الأمور الكليه الخارجيه عن إطار الخوف فلا- تتصوّر فيها التقيه،و الكتب المنتشره من جانب الشيعه داخله في هذا النوع الأخير،إذ لا خوف هناك حتى يكتب خلاف ما يعتقد،حيث ليس هناك أيُّ مُلزم للكتابه أصلاً في هذه الأحوال فله أن يسكت و لا يكتب شيئاً.

فما يدعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعات ناشئ عن قلّه معرفتهم بحقيقه التقيه عند الشيعه.

و الحاصل:أنّ الشيعه إنّما كانت تتقى في عصر لم تكن لهم دوله تحميهم،و لا قدره و لا منعه تدفع عنهم الأخطار.و أمّا هذه الأعصار فلا مسوغ و لا مبرر للتقيه

إلا في موارد جزئيه خاصه.

إنَّ الشيعة كما ذكرنا لم تلجأ إلى التقيه إلاّ بعد أن اضطرّت إلى ذلك، و هو حق لا أعتقد أنّ أحداً ينظر إلى الأمور بلبه لا بعواطفه يخالفها فيه، إلاّ أنّ من الأمور المسلّمه في تاريخ التشيع، كثره التقيه على مستوى الفتاوى، و أمّا على المستوى العملي فالشيعة من أكثر الناس تضحيه، و بوسع كل باحث أن يرجع إلى مواقف رجال الشيعة مع معاويه و غيره من الحكّام الأمويين، و الحكّام العباسيين، أمثال حجر بن عدى، و ميثم التمار، و رشيد الهجرى، و كميل بن زياد، و مئات من غيرهم، و كمواقف العلويين على امتداد التاريخ و ثوراتهم المتتاليه و قد مرّ تفصيله في بعض الفصول.

ص: ٦١٩

أقسام التقيه

تنقسم التقيه حسب انقسام الأحكام إلى خمسة، والمهم هو الإشاره إلى الأقسام الثلاثة:

١. التقيه الواجبه: وهى ما كانت لدفع الخوف على نفس أو عرض محترمين، أو ضرر لا يتحمل عن نفسه أو غيره من المؤمنين.

٢. التقيه المندوبه: وهى ما كانت لدفع ما يرجح دفعه من ضرر يسير يتحمل عادة، سواء تعلق بنفسه أو بغيره.

٣. التقيه المحرمه وهى ما يترتب عليها مفسده أعظم، كهدم الدين و خفاء الحقيقه على الأجيال الآتية، و تسلط الأعداء على شئون المسلمين و حرمتهم و معابدهم، ولأجل ذلك ترى أنّ كثيراً من أكابر الشيعة رفضوا التقيه فى بعض الأحيان و قدّموا أنفسهم و أرواحهم أضاحى من أجل الدين، فللتقيه مواضع معينه، كما أنّ للقسم المحرم منها مواضع خاصه أيضاً.

إنّ التقيه فى جوهرها كنتم ما يحذر من إظهاره حتى يزول الخطر، فهى أفضل السبل للخلاص من البطش، و لكن ذلك لا يعنى أنّ الشيعى جبان خائف العزيمه، خائف متردد الخطوات يملأ حناياه الذل، كلاً إنّ للتقيه حدوداً لا

تتعداها، فكما هي واجبه في حين، هي حرام في حين آخر، فالتقيه أمام الحاكم الجائر كيزيد بن معاوية مثلاً محرّمه، إذ فيها الذل و الهوان و نسيان المُثُل و الرجوع إلى الوراء، فليست التقيه في جوازها و منعها تابعه للقوّه و الضعف، و إنّما تحددها جوازاً و منعاً لمصالح الإسلام و المسلمين.

إنّ للإمام الخميني قدس سره كلاماً في المقام ننقله بنصّه حتى يقف القارئ على أنّ للتقيه أحكاماً خاصه و ربّما تحرم لمصالح عاليه. قال قدس سره:

تحرم التقيه في بعض المحرّمات و الواجبات التي تمثّل في نظر الشارع و المتشرّعه مكانه بالغه، مثل هدم الكعبه، و المشاهد المشرفه، و الرد على الإسلام و القرآن و التفسير بما يفسد المذهب و يطابق الإلحاد و غيرها من

ص: ٦٢١

عظائم المحرمات، ولا تعمها أدله التقيه ولا الاضطرار ولا الإكراه.

و تدلّ على ذلك معتبره مسعده بن صدقه وفيها: «فكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقيه ممّا لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنّه جائز». (١)

و من هذا الباب ما إذا كان المتقى ممن له شأن و أهميه في نظر الخلق، بحيث يكون ارتكابه لبعض المحرمات تقيه أو تركه لبعض الواجبات كذلك مما يعد موهناً للمذهب و هاتكاً لحرمة، كما لو أكره على شرب المسكر و الزنا مثلاً، فإنّ جواز التقيه في مثله متمسكاً بحكومته دليل الرفع (٢) و أدله التقيه مشكل بل ممنوع، و أولى من ذلك كلّ في عدم جواز التقيه، ما لو كان أصل من أصول الإسلام أو المذهب أو ضروري من ضروريات الدين في معرض الزوال و الهدم و التغيير، كما لو أراد المنحرفون الطغاه تغيير أحكام الإرث و الطلاق و الصلاة و الحج و غيرها من أصول الأحكام فضلاً عن أصول الدين أو المذهب، فإنّ التقيه في مثلها غير جائزه، ضروره أنّ تشريعها لبقاء المذهب و حفظ الأصول و جمع شتات المسلمين لإقامه الدين و أصوله، فإذا بلغ الأمر إلى هدمها فلا تجوز التقيه، و هو مع وضوحه يظهر من الموثقه المتقدمه. (٣)

و على ضوء ما تقدّم، نخرج بالتالي:

١. إنّ التقيه أصل قرآني مدعم بالسنة النبويه، و قد عمل بها في عصر الرساله من ابتلى من الصحابه، لصيانته نفسه، فلم يعارضه الرسول، بل أيده بالنص القرآني كما في قضية عمّار بن ياسر، حيث أمره صلى الله عليه و آله و سلم بالعوده إذا عادوا.

٢. أنّ التقيه ليست بمعنى تشكيل جماعات سريه لغايه التخريب و الهدم، و هذا لا يمت إلى التقيه بصله.

٣. اتفق المفسرون عند التعرّض لتفسير الآيات الوارده في التقيه على ما ذهب إليه الشيعة من إباحتها للتقيه.

٤. تنقسم التقيه حسب انقسام الأحكام إلى أقسام خمس، فينما هي واجبه في موضع، تجدها محرّمه في موضع آخر.

٥. إنّ مجال التقيه لا يتجاوز القضايا الشخصيه، و هي فيما إذا كان الخوف قائماً، و أمّا إذا ارتفع الخوف و الضغط، فلا مجال للتقيه.

و في ختام هذا البحث نقول:

نفترض أنّ التقيه جريمه يرتكبها المتقى لصيانته دمه و عرضه و ماله، و لكنّها في الحقيقه ترجع إلى السبب الذي يفرض التقيه على الشيعي المسلم و يدفعه إلى أن

ص: ٦٢٢

١- (١). الوسائل: ١٠، الباب ٢٥ من أبواب الأمر و النهي، الحديث ٨. [١]

٢- (٢). الوسائل: ١٠، الباب ٥٦ من أبواب جهاد النفس، الحديث ١.

٣- (٣). رساله في التقيه مطبوعه ضمن الرسائل العشر: ١٤، باب حول موارد استثنيت من الأدله.

يتظاهر بشيء من القول و الفعل الذى لا يعتقد به، فعلى من يعيب التقيه للمسلم المضطهد، أن يسمح له بالحريه فى مجال الحياه و يتركه بحاله، و أقصى ما يصح فى منطق العقل، أن يسأله عن دليل عقيدته و مصدر عمله، فإن كان على حجه بينه يتبعه، و إن كان على خلافها يعذره فى اجتهاده و جهاده العلمى و الفكرى.

نحن ندعو المسلمين للتأمل فى الدواعى التى دفعت بالشيعة إلى التقيه، و أن يعملوا قدر الإمكان على فسح المجال لإخوانهم فى الدين فإن لكل فقيه مسلم، رأيه و نظره، و جهده و طاقته.

إن الشيعة يقتفون أثر أئمه أهل البيت فى العقيدة و الشريعة، و يرون رأيهم، لأنهم هم الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و أحد الثقلين اللذين أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالتمسك بهما فى مجالى العقيدة و الشريعة، و هذه عقائدهم لا تخفى على أحد، و هى حجه على الجميع.

نسأل الله سبحانه، أن يصون دماء المسلمين و أعراضهم عن تعرض أى متعرض، و يوحد صفوفهم، و يؤلف بين قلوبهم، و يجمع شملهم، و يجعلهم صفواً واحداً فى وجه الأعداء، إنه على ذلك قدير و بالإيجابه جدير.

إشاره

شبهات حول التقيه

لقد تعرفت على حقيقه التقيه: لغه و اصطلاحاً و تاريخاً، كما تعرفت على أدلتها من الكتاب و السنّه و ظهر أنّ سيره المسلمين جرت على ممارسه التقيه عند الشده، و بقيت ثمّه شبهات تدور حول التقيه، نطرحها على طاوله البحث.

الشبهه الأولى: التقيه من شعب النفاق

إذا كانت التقيه إظهاراً ما يُضمّر القلبُ خلافه أو ارتكاب عمل يخالف العقيده، فهي إذن شعبه من شعب النفاق، لأجل أنّ النفاق عباره عن التظاهر بشيء على خلاف العقيده.

و الجواب عنها واضح: لأنّ مفهوم التقيه فى الكتاب و السنّه هو إظهار الكفر و إبطان الايمان، أو التظاهر بالباطل و إخفاء الحق، و إذا كان هذا مفهومها، فهي تقابل النفاق، تقابل الإيمان و الكفر، فإنّ النفاق ضدها و خلافها، فهو عباره عن إظهار الإيمان و إبطان الكفر، و التظاهر بالحق و إخفاء الباطل، و مع وجود هذا التباين بينهما فلا يصحّ عدّها من فروع النفاق.

و بعباره أخرى: إنّ النفاق فى الدين ستر الكفر بالقلب، و إظهار الإيمان

باللسان، و أبن هذا من التقيه التي هي على العكس تماماً «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» فهي إظهار الكفر و إخفاء الإيمان و ستره بالقلب، و أمّا تقيه الشيعة فهي تَكْمُنُ في إخفاء الاعتقاد بالإمامه و الولايه لأهل البيت عليهم السلام يعنى ستر التشيع مع التظاهر بموافقه الآخرين في عقيدتهم تجاه الإمامه و في الوقت نفسه يشاركون المسلمين في الشهادات و الإيمان بالقيامه، و يمارسون العبادات و يعملون بالفروع و يعتقدون ذلك بقلوبهم و يعيشون هذه العقيدة بوجدانهم و بأرواحهم.

نعم من فسر النفاق بمطلق مخالفه الظاهر للباطن و به صوّر التقيه-الوارده في الكتاب و السنّه-من فروعها، فقد فسره بمفهوم أوسع ممّا هو عليه في القرآن، فأنه يعرف المنافقين بالمتظاهرين بالإيمان و المبطنين للكفر بقوله تعالى:

«إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» ١ فإذا كان هذا حدّ المنافق فكيف يعمّ من يستعمل التقيه تجاه الكفار و العصاه فيخفي إيمانه أو عقيدته في ولاء أهل البيت و يظهر الموافقه لغايه صيانته النفس و النفيس و العرض و المال من التعرض؟!!

و يظهر صدق ذلك إذا وقفنا على ورودها في التشريع الإسلامي، و لو كانت من قسم النفاق، لكان ذلك أمراً بالقبیح و يستحيل على الحكيم أن يأمر به «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ». (١)

ص: ٦٢٥

الشبهه الثانيه:لما ذا عُدَّت التقيه من أصول الدين؟

قد نقل عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا:التقيه دينى و دين آبائى،و لا دين لمن لا تقيه له. (١)

و ظاهر هذه الروايات انّ الاعتقاد بالتقيه و تطبيق العمل على ضوئها من أصول الدين فمن لم يتق فقد خرج عن الدين و ليس له من الإيمان نصيب.

يلاحظ عليه:بأنّ التقيه من الموضوعات الفقهيّه،تخضع كسائر الموضوعات للأحكام الخمسه،فتاره تجب و أخرى تحرم،و ثالثه...و معه كيف يمكن أن تكون من أصول الدين،و قد ذكرها فقهاء الشيعه فى باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و أما الروايات التى عدتها من الدين فهى من باب الاستعاره و غايتها التأكيد على أهميتها و تطبيقها فى الحياه لصيانته النفس و النفس،و بما أنّ بعض الشيعه كانوا يجاهرون بعقائدهم و شعائرهم،الأمر الذى يؤدى إلى إلقاء القبض عليهم و تعذيبهم و إراقه دمائهم،فالإمام و للحيلولة دون وقوع ذلك يقول بأنّ (التقيه دينى و دين آبائى) لحثهم على الاقتداء بهم،و أمّا ما ورد فى الحديث«لا دين لمن لا تقيه له»فالعنايه التأكيد على الالتزام بالتقيه،نظير قوله:

لا صلاه لجار المسجد إلاّ فى المسجد.

و بعباره أخرى:ليس المراد من الدين هو الأصول العامه كالتوحيد و النبوه و المعاد التى بالاعتقاد بها يرد إلى حظيره الإسلام و بإنكارها أو إنكار واحد منها أو إنكار ما يلزم إنكار أحد الأصول الثلاثه يخرج عنها،و إنّما المراد به هو الشأن

ص:٦٢٦

١- ١). الوسائل:١٠،الباب ٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف،الحديث٢٢،٣. [١]

الذى يتعبد به الإمام و يعمل بدين الله، فقلوه: «التقيه دينى و دين آبائى» أى هو من شئونا أهل البيت عليهم السلام فاقتدوا بنا، و أما من يتصور انّ التقيه تمس كرامته فهو إنسان جاهل خارج عن هذا الشأن الذى عليه تدين الأئمه به.

الشبهه الثالثه: التقيه تؤدى إلى محق الدين

إذا مارست جماعة التقيه فتره طويله فى أصول الدين و فروعها، ربما يتجلى للجيل المقبل بأن ما مارسه آباؤهم من صميم الدين و واقعه، فعند ذلك تنتهى التقيه إلى محق الدين و اندثاره.

يلاحظ عليه: أن الظروف مختلفه و ليست على منوال واحد، فربما يشتد الضغط فلا يجد المحق مجالاً للإعراب عن رأيه و عقيدته و شريعته، و قد تبدل الظروف إلى ظروف مناسبه تسمح بممارسه الشعائر بكل حريه، و قد عاشت الشيعة بين الحين و الآخر فى هذه الظروف المختلفه، و بذلك صانت أصولها و فروعها و ثقافتها و الله سبحانه هو المعين لحفظ الدين و شريعته.

و بعبارة أخرى: أن للتقيه سيطره على الظاهر دون الباطن، فالأقلية التى صودرت حرياتهما يمارسونها فى الظاهر، و أما فى المجالس الخاصه فيقومون بواجبهم على ما هو عليه و يربون أولادهم على وفق التعاليم التى ورثوها عن آباؤهم عن أئمتهم.

و لو افترضنا أن مراعاة التقيه فتره طويله تنتهى إلى محق الدين فالتقيه عندئذ تكون محرمة يجب الاجتناب عنها. و قد مرّ أنّ التقيه لها أحكام خمس، فالتقيه المنتهيه إلى محق الدين محظوره.

الشبهه الرابعه:التقيه تؤدى إلى تعطيل الأمر بالمعروف

إنّ التقيه فكره تحوّل المسلم إلى إنسان يتعايش مع الأمر الواقع على ما فيه من ظلم و فساد و انحراف،فتعود إلى الرضا بكلّ ما يحيط بها من الظلم و الفساد و الانحراف.

يلاحظ عليه:أنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مشروط بالتمكن منه، فمرتبه منه وظيفه الفرد و هو الأمر بالمعروف بكراهيه القلب و اللسان، و مرتبه منه وظيفه المجتمع و على رأسه الدوله صاحبه القدره و المنعه، فالممارس للتقيه يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر حسب مقدرته و لو لا القدره فلا حكم عليه،لأنّ الله سبحانه لا يكلف نفساً إلاّ وسعها.

و مع ذلك فالممارس للتقيه يتحّين الفرص للانقضاض على الواقع الفاسد و تغييره،فلو ساعدته الظروف على هذا التغيير فحينها يتخلّى عن التقيه و يجاهر بالحقّ قولاً و عملاً.

الشبهه الخامسه:التقيه من المسلم من البدع

ربما يتصور أنّ التقيه من اختلافات الشيعه و أنّها لا دليل عليها من الكتاب و السنّه،و ذلك لأنّ الآيات الوارده فى التقيه ترجع إلى اتّقاء المسلم من الكافر،و أمّا اتّقاء المسلم من المسلم فهذا ما لا دليل عليه من الكتاب و السنه.

الجواب

إنّ مورد الآيات و إن كان هو اتّقاء المسلم من الكافر،و لكن المورد ليس بمخصّص لحكم الآيه فقط،إذ ليس الغرض من تشريع التقيه عند الابتلاء

ص:٦٢٨

بالكفار إلا- صيانته النفس و النفيس من الشر، فإذا ابتلى المسلم بأخيه المسلم الذى يخالفه فى بعض الفروع و لا يتردد الطرف القوى عن إيذاء الطرف الآخر، كأن ينكل به أو ينهب أمواله أو يقتله، ففى تلك الظروف الحرجه يحكم العقل السليم بصيانته النفس و النفيس عن طريق كتمان العقيدة و استعمال التقيه، و لو كان هناك زور فإنما يحمله من يتقى منه لا- المتقى. و نحن نعتقد أنه إذا سادت الحريه جميع الفرق الإسلاميه، و تحمّلت كل فرقه آراء الفرقة الأخرى لوقفت على أنّ الرأى الآخر هو نتيجة اجتهادها، و عندها لا يضطر أحد من المسلمين إلى استخدام التقيه، و لساد الوثام مكان النزاع.

و قد فهم ذلك لفيف من العلماء و صرّحوا به، و إليك نصوص بعضهم:

١. قال الشافعى: تجوز التقيه بين المسلمين كما تجوز بين الكافرين محاماه عن النفس. (١)

٢. يقول الإمام الرازى فى تفسير قوله سبحانه: «إِلَّا- أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً»: ظاهر الآية يدل على أنّ التقيه إنّما تحل مع الكفار الغالبيين، إلا أنّ مذهب الشافعى - رضى الله عنه: أنّ الحاله بين المسلمين إذا شاكلت الحاله بين المسلمين و الكافرين حلّت التقيه محاماه عن النفس، و قال: التقيه جائزه لصون النفس، و هل هى جائزه لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله صلى الله عليه و آله و سلم:

«حرمه مال المسلم كحرمه دمه»، و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «من قتل دون ماله فهو شهيد». (٢)

٣. ينقل جمال الدين القاسمى عن الإمام مرتضى اليمانى فى كتابه «إيثار الحق على الخلق» ما نصّه: و زاد الحق غموضاً و خفاءً أمران: أحدهما: خوف

ص: ٦٢٩

١- ١). تفسير النيسابورى فى هامش تفسير الطبرى: ١٧٨/٣. [١]

٢- ٢). مفاتيح الغيب: ١٣/٨ [٢] فى تفسير الآية.

العارفين-مع قلتهم-من علماء السوء و سلاطين الجور و شياطين الخلق مع جواز التقيه عند ذلك بنص القرآن،و إجماع أهل الإسلام،و ما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق،و لا يرح المحق عدوًّا لأكثر الخلق،و قد صحَّح عن أبي هريره-رضى الله عنه أنه قال-في ذلك العصر الأول :-حفظت من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وعاءين،أما أحدهما فبثته في الناس،و أما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم. (١)

٤.و قال المراغى فى تفسير قوله سبحانه: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ»: و يدخل فى التقيه مداراه الكفره و الظلمه و الفسقه،و لإنه الكلام لهم،و التبسّم فى وجوههم،و بذل المال لهم،لكف أذاهم و صياناه العرض منهم،و لا يعد هذا من الموالاه المنهى عنها،بل هو مشروع،فقد أخرج الطبرانى قوله صلى الله عليه و آله و سلم:«ما وقى المؤمن به عرضه فهو صدقه». (٢)

إنّ الشيعة تتقى الكفار فى ظروف خاصه لنفس الغايه التى لأجلها يتقيهم السنّى،غير أنّ الشيعى و لأسباب لا تخفى،يلجأ إلى اتقاء أخيه المسلم لا لتقصير فى الشيعى،بل فى أخيه الذى دفعه إلى ذلك،لأنّه يدرك أنّ الفتك و القتل مصيره إذا صرّح بمعتقده الذى هو عنده موافق لأصول الشرع الإسلامى و عقائده،نعم كان الشيعى و إلى وقت قريب يتحاشى أن يقول:إنّ الله ليس له جهه،أو أنّه تعالى لا يرى يوم القيامة،و إنّ المرجعيه العلميه و السياسيه لأهل البيت بعد رحله النبى الأكرم،أو أنّ حكم المتعه غير منسوخ.

إنّ الشيعى إذا صرّح بهذه الحقائق-التي استنبطت من الكتاب و السنّه سوف يُعرّض نفسه و نفيسه للمهالك و المخاطر.و قد مرّ عليك كلام الرازى و جمال الدين القاسمى و المراغى الصريح فى

ص: ٦٣٠

١-١. محاسن التأويل: ٨٢/٤. [١]

٢-٢. تفسير المراغى: ١٣٦/٣. [٢]

جواز هذا النوع من التقيه، فتخصيص التقيه بالتقيه من الكافر فحسب، جمود على ظاهر الآيه وسد لباب الفهم، ورفض للملاك الذى شرعت لأجله التقيه، وإعدام لحكم العقل القاضى بحفظ الأهم إذا عارض المهم.

وقد مرّ الكلام عن لجوء جملة من كبار المحدثين إلى التقيه فى ظروف عصيبه أوشكت أن تؤدى بحياتهم و بما يملكون، وخير مثال على ذلك ما أورده الطبرى فى تاريخه (1) عن محاوله المأمون دفع وجوه القضاء و المحدثين فى زمانه إلى الإقرار بخلق القرآن قسراً و قد علموا أنّ إنكاره يستعقب قتل الجميع دون رحمه، و لما أبصر أولئك المحدثون لَمعان، حد السيف عمدوا إلى مصانعه المأمون فى دعواه و أسروا معتقدهم فى صدورهم، و لَمّا عُتَبوا على ما ذهبوا إليه من موافقه المأمون بزّروا عملهم بعمل عمّار بن ياسر حين أكره على الشرك و قلبه مطمئن بالإيمان، و القصّه شهيره و صريحه فى جواز اللجوء إلى التقيه التى دأب البعض بالتشيع فيها على الشيعة و كأنّهم هم الذين ابتدعوها من بنات أفكارهم دون أن تكون لها قواعد و أصول إسلاميه ثابتة و معلومه.

ص: ٦٣١

إشاره

إذا ساد الاستبداد المجتمع الإنساني و صودرت فيه الحريات و هُضمت فيه الحقوق و أُخمدت فيه أصوات الأحرار، فحينئذٍ لا تجد الأقلية المهضومه، حيله سوى اللجوء إلى التقيه و التعايش مع الأمر الواقع، و هذا الأمر و ان يتلقاه البعض أمراً مرغوباً عنه، و لكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - كما سيوافيك كلامه - يصفه بأنه رخصه من الله تفضل الله بها على المؤمنين. كيف و قد يترتب على ممارسه التقيه آثار بناءة تتلخص في الأمور التاليه:

١. حفظ النفس و النفيس

إن ممارسه التقيه و المداراه مع الظالم المستبد يصون الأقلية من البطش و الكبت و القتل و مصادرته الأموال بخلاف عدم ممارستها فإنه يعرضها للقتل و الفناء، و لذلك يعبر عنها بالترس و الجُنه، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن التقيه ترس المؤمن، و لا إيمان لمن لا تقيه له». (١)

و قال عليه السلام: «كان أبي يقول: و أي شيء أقر لعيني من التقيه، إن التقيه جُنه المؤمن». (٢)

ص: ٦٣٢

١- ١). الوسائل: ١١، الباب ٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف، الحديث ٦٠٤. [١]

٢- ٢). الوسائل: ١١، الباب ٢٤ من أبواب الأمر بالمعروف، الحديث ٦٠٤. [٢]

روى شيخنا المفيد قال: كتب علي بن يقطين (الوزير الشيعي للرشيد) إلى الإمام الكاظم عليه السلام يسأله عن الوضوء؟ فكتب إليه أبو الحسن عليه السلام: «فهمت ما ذكرت من الاختلاف في الوضوء، والذي أمرك به في ذلك أن تمضمض ثلاثاً، وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً، وتخلل شعر لحيتك، وتغسل يديك من أصابعك إلى المرفقين ثلاثاً، وتمسح رأسك كله، وتمسح ظاهر أذنيك وباطنهما، وتغسل رجلك إلى الكعبين ثلاثاً، ولا تخالف ذلك إلى غيره.

فلَمَّا وصل الكتاب إلى علي بن يقطين تعجب مما رسم له أبو الحسن عليه السلام فيه مِمَّا أجمع العصابة على خلافه، ثم قال: مولاي أعلم بما قال: وأنا أمتثل أمره، فكان يعمل في وضوئه على هذا الحد، ويخالف ما عليه جميع الشيعة امتثالاً لأمر أبي الحسن عليه السلام، و سِيعِي بعلي بن يقطين إلى الرشيد، وقيل: إنَّه رافضي، فامتحنه الرشيد من حيث لا يشعر، فلَمَّا نظر إلى وضوئه ناداه: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنَّك من الرافضة، و صلحت حاله عنده، و ورد عليه كتاب أبي الحسن عليه السلام: «ابتدأ من الآن يا علي بن يقطين و توضأ كما أمرك الله تعالى، اغسل وجهك مره فريضه و أخرى إسباغاً و اغسل يديك من المرفقين كذلك، و امسح بمقدم رأسك و ظاهر قدميك من فضل نداوه وضوئك، فقد زال ما كُنَّا نخاف منه عليك، و السلام». (١)

ترى أنَّ الإمام أنقذ علي بن يقطين من الموت من خلال أمره بالتقيه و كم له في التاريخ من نظير، و كفى شاهداً قصه عمّار و أبيه و أمّه المتقدّمه.

ص: ٦٣٣

٢. حفظ وحده الأئمة

لا شك أنّ وحده الكلمه هي مصدر قوه الأئمة و ازدهارها، و هي جبل الله الوثيق الذي لا بدّ من الاعتصام به، حيث قال في محكم كتابه: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا». ١

فقد عدّ سبحانه التفريق و التشرذم و التشتت عذاباً يستأصل الأئمة و يستنفد قواها، قال سبحانه: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ». (١)

إلى غير ذلك من الآيات الحاثه على الوحده و المحذره من التفرق و التبدد.

و تشريع التقيه يعين على الوحده و يمسك الأئمة عن التبدد، فلذلك يصفها الإمام بأنها «رخصه تفضّل بها الله على المؤمنين رحمه لهم».

و هذا لا- يعنى الإفراط فى ممارسه التقيه حتّى إذا توفرت الفرص المناسبه للتعبير عن رأيه و منهجه، فعند ذلك تحرم التقيه، لأنّه يترتب عليها طمس الدين و كتمان الحقيقه.

٣. الحفاظ على القوى من الاستنزاف

إنّ الجماعه المهضومه، بممارسه التقيه تحمى قواها و طاقاتها من الاستنزاف، و بالتالى تربيّ جماعه واعيه لأهدافها، فإذا هبّ على مجتمعها نسيم الحريره فيتيسر عندها أن تجاهر بأفكارها و آرائها دون أى خوف أو وجل و تطالب بحقوقها، و هذا من آثار التقيه حيث صانت الجماعه الضعيفه من استنزاف قواها.

ص: ٦٣٤

و بما أنّ هذه الآثار البناءه تعبير واضح للرحمه،التي أشار إليها الإمام أمير المؤمنين،نأتى بنص كلمته:

روى الشريف المرتضى فى رساله «المحكم و المتشابه» نقلاً عن «تفسير النعمانى» عن على عليه السلام أنّه قال: «و إنّ الله منّ على المؤمن بإطلاق الرخصه له عند التقيه فى الظاهر، أن يصوم بصيامه و يفطر بإفطاره و يصلّى بصلاته و يعمل بعمله و يظهر له استعمال ذلك، موسعاً عليه فيه، و عليه أن يدين الله تعالى فى الباطن بخلاف ما يظهر لمن يخافه من المخالفين المستولين على الأمة، فهذه رخصه تفضّل الله بها على المؤمنين رحمه لهم ليستعملوها عند التقيه فى الظاهر». (1)

و الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

ص: ٦٣٥

١-١). الوسائل: ١، الباب ٢٥ من أبواب مقدمه العبادات، الحديث ١. [١]

١. الاستناره بالتاريخ لكشف الخطأ في الحديث

٢. الإمام شرف الدين باحثاً و مجاهداً و داعيه للإصلاح و الوفاق

٣. حياه المحقق اللاهيجى و آراؤه و تصانيفه

٤. الخطوط البارزه في الحياه العلميه للشهيد المطهرى

ص: ٦٣٧

إشارة

الاستتاره بالتاريخ لكشف الخطأ في الحديث

نشرت مجله بصائر الرباط في عددها الأول من السنه الأولى، الصادر في محرم عام ١٤٢٦هـ، مقالاً بقلم الدكتور عبد الكريم عكيوي بعنوان: «علم الرجال و فائدته» تناول فيه بيان فائده علم الرجال في تقويم المعرفه الإسلاميه و ترشيد الحياه البشريه....

و مما لفت نظرنا في هذا المقال هو مسأله اكتشاف كذب الرواه عن طريق التاريخ، و قد استشهد بقول النووى: «لما استعمل الرواه الكذب استعملنا لهم التاريخ».

يقول الكاتب في هذا الصدد: فالمحدثون عند ما ينظرون في حديث الرجل يستحضرون زمانه و عمره، من مولده إلى وفاته، و بلده و رحلاته و البلدان التي دخلها و من لقيه بها من الشيوخ و الأقران و أخبار شيوخه و أقرانه و تواريخهم و رحلاتهم، و كثيراً ما يكتشفون كذب الراوى باعتبار ذلك. (١)

ص: ٦٣٩

لا شك أنّ السنّة النبويه هي المصدر الثاني للعقيدة و الشريعة، و أنّ المسلمين بذلوا جهودهم لجمع ما روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم من قول أو فعل أو تقرير بنحو لا مثيل له في الأمم السابقة.

و لكن هذا لم يكن مانعاً من وضع ضوابط لتمييز الصحيح من السنّة عن السقيم، و قد لجأ الأكثرون في تمحيص السنّة المتداوله إلى سبيل النقاش في مسانيد الحديث و رجاله و خرجوا بنتائج باهره و صار التوفيق حليفاً لهم إلى حدّ ما.

و هناك طريق آخر للتمحيص، و هو جمع القرائن و الشواهد من طرق مختلفه لبيان موقع الحديث من حيث الصحه و الكذب.

و من هذه القرائن ما ذكره الدكتور عبد الكريم-حفظه الله-في مقالته و هو اكتشاف كذب الراوى عن طريق التاريخ.

و قد مثل لذلك بانموذجين لا نريد تكرارهما، و لأجل تعزيز هذه القاعده و توسيع نطاقها نأتى بمثلين آخرين ثم نعرضهما على صعيد البحث. و لكن لا نعبر بما ذكره الدكتور: اكتشاف كذب الراوى بالتاريخ، بل نقول: اكتشاف تسرب الخطأ إلى الحديث و طرؤه العلّه عليه بعرضه على التاريخ.

النموذج الأوّل

إشاره

أخرج البخارى عن عروه أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم خطب عائشه إلى أبي بكر فقال له أبو بكر: إنّما أنا أخوك، فقال له: إنّما أنت أخى فى دين الله و كتابه، و هى لى حلال. (١)

و لإيضاح تسرب الخطأ نذكر أمرين:

ص: ٦٤٠

١- (١). صحيح البخارى: ٥/٧، باب تزويج الصغار و الكبار من كتاب النكاح، الباب الحادى عشر، الحديث ٥٠٨١.

١. النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوج بعائشه في مكه

تزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعائشه في مكه المكرمه و هي بنت ست سنين.

روى البخارى عن عروه عن أبيه عن عائشه: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوجها و هي بنت ست سنين، و بنى بها و هي بنت تسع سنين، و أنبت أنها كانت عنده تسع سنين. و فى روايه: و مكثت عنده تسعاً. (١)

و بما أنها مكثت عند النبي تسع سنين، فقد بنى بها النبي فى السنه الثانيه من الهجره، و على هذا فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوجها فى مكه المكرمه بعد وفاه السيده خديجه بعام، يتراوح بين الحادى عشر و الثانى عشر من البعثه.

يقول الذهبي فى «تاريخ الإسلام»: قال أبو أسامه عن هشام عن أبيه، قال:

توفيت خديجه قبل مخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينه بثلاث سنين فلبث ستين أو قريباً من ذلك، و نكح عائشه و هي بنت ست سنين، ثم بنى بها و هي ابنه تسع. (٢)

٢. النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين المسلمين فى المدينه

آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين و الأنصار فى المدينه المنوره، فأخى كلاً مع الآخر على أساس المشاكله فى الدرجات و النفسيات.

قال ابن هشام: و آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه من المهاجرين و الأنصار فأخى بين حمزه بن عبد المطلب و زيد بن حارثه، و بين الزبير و عبد الله بن مسعود، و بين عثمان بن عفان و أوس بن ثابت، و بين طلحه بن عبيد الله و كعب بن مالك،

ص: ٦٤١

١-١. صحيح البخارى: ١٣١٩-١٣٢٠، كتاب النكاح، باب إنكاح الرجل ولده الصغار، الحديث ٥١٣٣ و ٥١٣٤ دار الفكر، بيروت- ١٤٢٤هـ.

٢-٢. تاريخ الإسلام: ٢٨٢، [١] قسم السير النبويه. [٢]

و بين سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل و أبي بن كعب، و بين مصعب بن عمير و أبي أيوب خالد بن يزيد، و بين أبي حذيفه عتبه بن ربيعه و عباد بن بشر، و بين عمار بن ياسر و حذيفه اليماني، و بين أبي ذرّ و المنذر بن عمرو. (١)

إذا تبين هذان الأمران فنقول: التاريخ المسلم بين المحدثين يكشف عن تسرب تحريف أو تصحيف أو وجود سقم و عله في هذا الحديث، و ذلك بالبيان التالي:

ترى أنّ أبا بكر اعتذر عن تزويج بنته النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «إنما أنا أخوك»، و يعنى أنّ بنت الأخ لا تصلح للعمّ.

يروى ابن حجر القصة كما يلي: إنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم أرسل خوله بنت حكيم إلى أبي بكر يخطب عائشه فقال لها أبو بكر: فهل تصلح له؟ إنّما هي بنت أخيه، فرجعت و ذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال لها: ارجعي فقولي له: أنت أخي في الإسلام و ابنتك تصلح لي، فرجعت إلى أبي بكر فذكرت ذلك له، فقال: ادعي رسول الله، فجاء فأنكحه. (٢)

فعندئذ يتوجه السؤال التالي:

ما ذا أريد من الأخوة في كلام أبي بكر؟ فهناك احتمالات:

١. الأخوة النسبية.

٢. الأخوة الإسلامية.

٣. المؤاخاه التي أجزاها النبي صلى الله عليه و آله و سلم بين كلّ اثنين من أصحابه في المدينة المنورة.

ص: ٦٤٢

١-١). السيره النبويه: ١١٩/٢ - ١٢٠، [١] جعل المؤاخاه بين المهاجرين و الأنصار.

٢-٢). فتح الباري: ١٢٤/٩.

أما الأولى، فهي منتفيه قطعاً و لا تحتاج إلى بيان.

و أما الثانية، أعنى الأخوة الإسلاميه المتجليه فى قوله سبحانه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ». ١ فلا شك أنها غير مانعه من النكاح، و إلا يلزم عدم صحه نكاح المسلمين قاطبه.

فانحصر المراد بالأخوة الخاصه التى أجزاها النبى صلى الله عليه و آله و سلم بين كل شخصين من أصحابه كما مرّ فى السيره النبويه، و من المعلوم أنها تحققت فى المدينه المنوره فى أوائل الهجره (السنه الأولى أو الثانيه) فإذن كيف يخطب النبى صلى الله عليه و آله و سلم عائشه فى مكه المكرمه قبل الهجره و يعتذر أبوها بالأخوة الخاصه المتحققه فى المدينه؟!!

قد تتبه لذلك بعض المحدثين، فقد نقل ابن حجر عن بعضهم أنه قال: فى صحه هذا الحديث نظر، لأنّ الخله لأبى بكر إنّما كانت بالمدينه، و خطبه عائشه كانت بمكّه، فكيف يلتئم قوله: إنّما أنا أخوك؟!!

و أجاب ابن حجر عن هذا: المذكور فى الحديث، الأخوة، و هى أخوة الدين و الذى اعترض به الخله و هى أخص من الأخوة، ثمّ الذى وقع بالمدينه إنّما هو قوله عليه السلام: لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبا بكر، و لكن أخى و صاحبى. (١)

و يُردّ على ابن حجر بما يأتى:

أولاً: إنّ الأخوة الإسلاميه العامه غير مانعه من التزويج فكيف فسّر كلام أبى بكر بها؟!!

و ثانياً: إنّ الأخوة الخاصه الدائره بين كل شخصين تحققت فى المدينه، إمّا

ص: ٦٤٣

(٢-١). صحيح البخارى: ٨٩٤، الحديث رقم ٣٦٥٦، كتاب فضائل الصحابه.

فى أوائل الهجره كما عليه أصحاب السيره، أو آخرها فى مورد خاص حسب ما يرويه البخارى عن عكرمه عن ابن عباس: إن رسول الله قالها فى مرض موته. (١)

روى البخارى عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى مرضه الذى مات فيه عاصباً رأسه بخرقه، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنه ليس من الناس أحد ممن على فى نفسه وماله من أبى بكر بن أبى قحافه، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبى بكر. هذا وللحديث طرق ذكرها البخارى فى مقام آخر وهو قوله: «ولكن أخى وصاحبى».

ولا يصح الحديث إلا إذا ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخى بينه وبين أبى بكر قبل الهجره بسنتين، فى مكه المكرمه، حتى يعتمد عليه أبو بكر ويعتذر عن تزويج بنته، ولم يذكر المحدثون وأصحاب السير شيئاً من ذلك، ولو كان لبان، لأنها فضيله، لا يكتمها هو ولا عشيرته وأسرتة على أن الظروف السائده فى مكه المكرمه من العيش بين الخوف والرجاء لم تكن تساعد بمثل هذه التصريحات.

نعم الذى ثبت بالتضافر أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: «هذا أخى». فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير فى العباده وعلى بن أبى طالب عليه السلام أخوين. (٢)

إن الامعان فى ما ذكرنا يكشف عن تسرب الخطأ والاشتباه إلى الحديث وجود العله فيه، وإننا لا نتهم صاحب الجامع ولا الرواه فى الاسناد وإنما نعرضه

ص: ٦٤٤

١-١). صحيح البخارى: ١٢٥، الحديث رقم ٤٦٧، كتاب الصلاه؛ وأطرافه فى ٣٦٥٦ و ٣٦٥٧ و ٦٧٣٨، كتاب فضائل الصحابه.

٢-٢). السيره النبويه: ١١٨/٢. [١]

على التاريخ لنستكشف وجود الخطأ.

و العصمه لله و لمن عصمه الله.

النموذج الثاني

أخرج مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابه عن ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان و لا يقاعدونه، فقال للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: يا نبي الله ثلاث أعطينهنّ.

قال: نعم.

قال: عندي أحسن العرب و أجمله أم حبيبه بنت أبي سفيان، أزوجكها؟

قال: نعم.

قال: و معاويه تجعله كاتباً بين يديك؟

قال: نعم.

قال: و تؤمّرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين؟

قال: نعم.

قال أبو زميل: و لو لا أنه طلب ذلك من النبي صلى الله عليه و آله و سلم ما أعطاه ذلك، لأنه لم يكن يسأل شيئاً إلا قال: نعم. (١)

أقول: لا يشك أى باحث متضلع فى التاريخ الإسلامى أنّ الحديث عليل، لاتّفاق المسلمين على أنّ النبيّ تزوج بأُمّ حبيبه قبل فتح مكه، و أنّ أبا سفيان دخل المدينة بغيه لقاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم قبل إسلامه و كانت أمّ حبيبه زوجته، و إنّما استسلم أبو سفيان بعد ما اجتث جذور الشرك من جزيره العرب و فتحت معاقله.

ص: ٦٤٥

١- (١). صحيح مسلم: ١٧١/٧، باب فضائل أبي سفيان بن حرب.

حكى ابن هشام في ذكر الأسباب التي دعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسير نحو مكة في شهر رمضان سنة ٥٨ هـ و قال: ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بُنَيَّةُ ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله و أنت رجل مشرك نجس، و لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله. (١)

و قد اتفق كُتَّاب السير على أن أم حبيبة أسلمت في مكة المكرمة قبل الهجرة، و هاجرت مع زوجها إلى الحبشه، و ذكرها ابن هشام من المهاجرات إلى الحبشه.

قال ابن هشام: و من بنى أميه عبيد الله بن جحش بن رثاب الأسدي حليف بنى أميه ابن عبد شمس معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما قدم عبيد الله أرض الحبشه تنصير بها و فارق الإسلام و مات هناك نصرانياً، فخلف رسول الله على امرأته من بعده أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب. (٢)

ثم إن ابن حزم ممن تنبه إلى الإشكال في الرواية و قال: و الآفة فيه من عكرمه بن عمار الراوى عن أبي زميل.

و أنكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح على ابن حزم، فقال: لا- نعلم أحداً من أئمة الحديث نسب عكرمه بن عمار إلى وضع الحديث، و قد وثقه وكيع و يحيى بن معين و غيرهما، ثم حاول أن يصحح مضمون الحديث بأن أبا سفيان سأل تجديد عقد النكاح تطيباً لقلبه، لأنه كان ربما يرى عليها غضاضة من رئاسته و نسبه أن تزوج بنته بغير رضاه، أو أنه ظن أن إسلام الأب في مثل هذا يقتضى تجديد العقد. (٣)

يلاحظ عليه أولاً: إن إذن الولي معتبر في تزويج البكر لا الثيب و قد تزوجها ابن جحش فلما مات في الحبشه، تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليست للولي مع الثيب أمر». (٤)

و ثانياً: إن ما ذكره النووي تأويل لو ارتكبه غيره لرمى بالجهمية، فلم يكن أبو سفيان بعد إسلامه على درجة عالية من التقوى حتى يتسنى لابن الصلاح إبداء مثل هذه الظنون. و من أراد أن يقف على حياته فليرجع إلى المصادر التي ترجمت حياته.

و في الختام أرجو من أساتذة الحديث و صيارفته عرض ما ذكرت على طاوله التحقيق عسى أن أكون مخطئاً في ما استنتجت أو مصيباً.

ص: ٦٤٦

١- ١). السيره النبويه لابن هشام: ٣٩٦/٢، و [١] غيرها من المصادر المتوفّره.

٢- ٢). السيره النبويه لابن هشام: ٣٦٢/٢. [٢]

٣- ٣). شرح صحيح مسلم للنووي: ٢٩٦/١٦.

٤- ٤). سنن أبي داود: ٢٣٣/٢ برقم ٢١٠٠؛ و [٣] السنن للنسائي: ٨٥/٦؛ و مسند أحمد بن حنبل: ٣٣٤/١. [٤]

و العصمه لله سبحانه و لمن عصمه.

ص: ٦٤٧

الإمام شرف الدين باحثاً و مجاهداً و داعيه للإصلاح و الوفاق

الحمد لله رب العالمين و الصلاه و السلام على خير خلقه محمد و آله الطاهرين.

قال الله تعالى: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ». ١

أمياً بعدد، فإنني أتقدم بالشكر و التقدير إلى الإخوه المسئولين في مكتب الاعلام الإسلامي لما بذلوه من جهود في عقد هذا المؤتمر الدولي المخصّص لتكريم العلامة السيد شرف الدين العاملى قدس سره.

إنّها-و الله-لفرصة طيبة و جميله أن نلتقى في رحاب العلامة السيد شرف الدين لُنحیی م آثره الخالده في حقول الدين و المذهب و الأمة، و نقتطف منها أراهير نُعَطَّر بأريجها الزاكي، هذا الحفل المبارك الذى يجتمع فيه العلماء الأعلام و الأساتذه و الأدباء و الفضلاء، فأهلاً بكم جميعاً و مرحباً.

و نودّ في هذا الوقت الذى تهبّ فيه أعاصير الشرّ و الطغیان لتستأصل

المبادئ و القيم الرفيعه، و تسلب حق الشعوب في تحقيق كرامتها و حريتها و استقلالها... نوذ في هذا الوقت العصيب أن نحیی بألستنا و قلوبنا و عواطفنا الصادقه الوفد الكريم الذي حلّ علينا ضيفاً من ربوع العلم و الفكر و الجهاد و التضحيه و الفداء، تلك الربوع التي أنبت فطاحل العلماء و الفقهاء و المفكرين و الأدباء. كما نحیی الإخوه الأفاضل الأماجد الوافدين من العراق، فشكراً للجميع.

لا- شكّ في أنّ الأممه التي تتسلح بالعلم و الإيمان و اليقظه و الوحده، لا يمكن أن تضعف أو تُستفلّ مهما كانت الخطوب و المحن التي تداهمها.

و في هذا العصر أثبت علماء لبنان المجاهدون و أحراره و صناديده أنهم أعزّ و أمتع من أن تتناول عليهم الذئاب، أو تنطلي عليهم أحابيل الأفاعي مهما لان مشها، أو تخدعهم شعارات الديمقراطيه المزيفه التي رأينا صوراً منها في مدن العراق المُستباحه، و سجونهِ الحافله بكلّ ما يبعث على التقزز و الاشمئزاز.

لقد اتضح تماماً أنّ أحرار لبنان و مجاهديه على مستوى المسئوليه في شتى الظروف و الأحداث، فبالأمس و ثب رجاله الأشاوس لتحرير أرضهم من دنس العدو الصهيوني الذي ردّد الكثيرون- جهلاً و جبناً و طمعاً- مقوله أسطوره جيشه الذي لا يُقهر، و لكن لم يمضِ وقت طويل حتّى رأى العالم فرار جنوده من الميدان فرار الحُمر من بطشه الليث الهصور.

لقد كان لهذا الانتصار و المظاهرات الحاشده صدى واسع و وقع مؤثر في نفوس الجماهير التي بدأت تقترب من الإيمان بأن جوله الباطل لا بدّ أن تنتهي بصوله الحق و الإيمان و الوحده و الإقدام، و أخذت تدنو من الاعتقاد بواقعيه قول الشاعر:

إذا الشعب يوماً أراد الحياه

و اليوم، و ثاراً للهزيمة التي مُنى بها الصهاينه، و تنفيذاً لسياسه إخضاع الشعوب و إذلالها و مسخ هويتها و نهب ثرواتها، تمّت حياكه مؤامره خبيثه في مصانع الكيان الصهيوني و دوائره العالميه و بتأييد بعض الفئات المخدوعه بريق الديمقراطيه الخادع أو المتاجرهِ بضمائرهِما للالتفاف على الإنجازات الكبيره للشعب اللبناني و سوقه إلى دائره الشرق الأوسط الكبير الذي تسعى أمريكا خاصته لتحقيقه.

و هنا أيضاً، انطلقت الجموع لصنع ملحمة جديده لإحباط هذه المؤامره و إخماد الفتنة، و الكشف عن زيف الادعاءات و الشعارات الكاذبه التي راحت تنزوي و تختفي أمام الحضور الجماهيري الحاشد الذي أجبر الأعداء على الاعتراف بمراره بحقيقه قوه و وعى و تلا-حم الشعب، و على التفكير بأساليب جديده تمهيد الطريق لأغراضهم الشريره، و لكن الله تعالى و المؤمنون و الأحرار لهم دائماً بالمرصاد» و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم».

برز في تاريخ الأممه الإسلاميه عامه و الشيعه الإماميه خاصه في كلّ قرن و عصر علماء كبار و عباقره عظام، بذلوا جهودهم في ترسيخ العقيدهِ الإسلاميه في قلوب الناس و كشف حجب الريب و الشكّ عن وجه الحقيقه، فكأنهم هم المعنيون في حديث

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول:

«يحمل هذا الدين في كلِّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين و تحريف

ص: ٦٥٠

الغالين، وانتحال الجاهلين كما ينفي الكبير خبث الحديد». (١)

و في القرن الرابع عشر نجد رجالاً- أحيوا الدين و أماتوا البدع و صدوا سهام الأعداء المرشوقه، تشهد على جهادهم العلمى المتواصل كتب التراجم، و معاجم الرجال.

و من هؤلاء؛ الأجلء الأربعة الذين عاشوا فى عصر واحد وبيئه واحده و تخرجوا من مدرسه واحده و لمسوا حلوا الحياه و مرّها فى العراق و الشام، أعنى:

١. آيه الله الشيخ محمد جواد البلاغى (١٢٨٤-١٣٥٢هـ).

٢. آيه السيد محسن الأمين العاملى (١٢٨٤-١٣٧٣هـ).

٣. آيه الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٤-١٣٧٣هـ).

٤. آيه الله السيد عبد الحسين شرف الدين العاملى (١٢٩٠-١٣٧٧هـ).

فهؤلاء الأجلء هم حجج الإسلام بحق، و رافعو أليه الجهاد العلمى بيانهم و بنانهم بلا شك، فقد ثابروا فى عملهم لأجل هدايه الأمم، و صبروا على مضض الحياه من غير اكرات بما يصيبهم فى طريق هذا الهدف.

و حيث إنّ هذا المؤتمر ينعقد إجلالاً لأحد هؤلاء العباقره الأربعة، أعنى:

العلامة الحجّه آيه الله العظمى السيد عبد الحسين شرف الدين العاملى، فنودّ أن نلقى أضواءً على جوانب من حياته.

١. كان رجلاً عالمياً

العالم الإسلامى تاره تتعلق رغبته ببلد خاص أو بإقليم معين، يبذل جهده فى إناره الطريق لأهله فقط، و لكن هناك قليل من المصلحين يحملون هموم

ص: ٦٥٢

المسلمين جميعاً فيحررون أفكارهم عن قيد الإقليميه و يعطفون رغبتهم إلى العالم الإسلامي كله، فيكتبون للمسلمين عامه و يحاورونهم كذلك، فالمسلمون لديهم كأسنان المشط، من غير ميز بين إقليم دون إقليم أو فئه دون فئه.

و في طليعه هؤلاء سيدنا الجليل عبد الحسين شرف الدين العاملى قدس سره الذى يهدف فى كل أثر حَبَّره يراعه إلى تماسك المسلمين و تعاونهم و تمسكهم بالكتاب و السنّه، فترى أنّه يؤلف كتاباً باسم: «الفصول المهمه فى تأليف الأئمه» و هو من أجل الكتب الكلاميه، تناول فيه مسائل الخلاف بين الطائفتين على ضوء العقل و الاستنتاج و التحليل، و قد ألفه فى أيام شبابه و تم فى عام ١٣٢٧هـ.

و من دلائل كونه رجلاً عالمياً لا- إقليمياً أنّه ركب البحر عند ما لم تكن أى طائره فى المنطقه، و تحمّل جهد هذا النوع من السفر، فتوجّه من لبنان إلى مصر عام ١٣٢٩هـ، و التقى فيها بأفذاذ الحياه العقلية فى مصر و على رأسهم الشيخ سليم البشرى المالكي شيخ الجامع الأزهر، و دارت بينه و بين رئيس الأزهر مساجلات و مراجعات سوف نتحدّث عنها فيما بعد.

و لم تكن هذه الرحله فريده فى حياته و إن كان لها آثار جميله، فقد زار عام ١٣٣٨هـ دمشق و مصر و فلسطين مرّه أخرى، و ألقى خلالها محاضرات قيّمه و اجتمع هناك مع مشايخ العلم و عباقرة.

كما أنّه زار عام ١٣٤٠هـ الأراضى المقدسه فى عهد الملك حسين و كان الموسم فى ذلك العام من أحفل مواسم الحج، و كان للسيد بين جموع الحجاج مكانه شامخه بشهاده أنّه أمّ المسلمين فى المسجد الحرام، و كان المسجد مكتظاً بألوان المسلمين، و صلّى من غير تقيه.

و قد كان لهذه الرحلات أثر بارز فى تعريف الأئمه و تعريف الشيعه

لإخوانهم، و تبيان أنّ الشيعة هم إخوانهم الذين افتقدوهم منذ قرون.

٢. الاهتمام بتوعية الشيعة

إنّ الإمام شرف الدين لمّا أكمل دروسه عند أعلام العصر و جهابذه الوقت، كالمحقّق الخراساني (١٢٥٥ - ١٣٢٩هـ)، و السيد كاظم اليزدي (١٢٤٧ - ١٣٣٧هـ)، و شيخ الشريعة (١٢٦٦ - ١٣٣٩هـ)، و غيرهم من أعلام النجف و مراجعها، غادر العراق و نزل بلاده فوجد أنّ الأمّيه متفشيه بين المسلمين عامّه، و عند الشيعة خاصّه، و لاحظ أيضاً أنّ المناصب العليا بيد المسيحيين، و المهن التي لا يرغب فيها المثقفون تركت للشيعة، فهم يمارسون المهن و الحرف البسيطة.

فأحسّ السيد قدس سره بواجبه فجعل توعيتهم و تثقيفهم نصب عينيه، فقام بتأسيس المدرسه الجعفرية في صور و جعلها نواه لفتح مدارس أخرى في هذا المضمار، و قال عند مراسم الافتتاح كلمه قيمه دارت على الألسنه منذ أن قيلت إلى يومنا هذا، و هي: «لا ينتشر الهدى إلاّ من حيث ينتشر الضلال».

و قد رسم بذلك الخط الذي يجب أن يسير عليه قاده المسلمين، فإنّ التأثير بالمسيحيه أو الماديه التي راجت في ذلك الزمان أو بعده أنّما حدث في أوساط المسلمين عن طريق المراكز الثقافيه كالمدارس و الجامعات، فأخذ أساتذه العلوم يبشرون بالمسيحيه تاره و بالماديه أخرى في ثنايا دروسهم و محاضراتهم. فإذا دخل الخصم في تحقيق مآربه عن هذا الطريق، فعلياً أن نسلك نفس هذا المنهج لتحقيق أهدافنا، لأنّه طريق معبّد و منتج...

و إذا كان في ناموس الخلقه أن يرث الأبناء ما للآباء من الفضائل و المناقب فإنّ كلمه السيد هذه، هي أشبه ما تكون بكلمات جدّه الإمام على عليه السلام، فلو

وجدناها مكتوبه فى ثنايا قصار الكلم للإمام فى «نهج البلاغه» لما شككنا فى صدورها عنه عليه السلام، و هذه فضيله رايه للإمام الراحل شرف الدين.

٣.فتح باب الحوار بين الطائفتين

سادت على المسلمين بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فكرتان مختلفتان:

إحداهما: أنّ المرجعيه السياسيه الدينيه منصب إلهى يضعه سبحانه أين يشاء، و قد شاء أن تكون مختصه بأئمه أهل البيت عليهم السلام، فهم الذين لهم الحق فى تولى أمور المسلمين فى شتى الحقول و المجالات.

ثانيهما: أنّ هذه المرجعيه منصب بشرى يمارسها من يختاره الصحابه من المهاجرين و الأنصار، و قد قاموا بدورهم هذا فى سقيفه بنى ساعده.

هاتان الفكرتان سادتا على المسلمين إلى يومنا هذا، و لهم فى هذا المجال؛ رسائل و كتب و موسوعات لا يمكن إحصاؤها.

إنّ أتباع هاتين الفكرتين يشتركون فى أصول و فروع كثيره تسهل لهم التمسك بعرى الوحده الوثيقه، و لكنهم -و للأسف- تناسوا المشتركات، و ضخموا الأمر الذى يفرق بينهم، فأسفر ذلك عن عدم اطلاع طائفه على ما عند الطائفه الأخرى، و لذا نادى سيدنا شرف الدين قدس سره بفتح باب الحوار لأجل تقريب الخطى بين الطائفتين، قائلاً: بأنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا.

إنّ باب الحوار، كان مفتوحاً إلى أواخر القرن الرابع و أوائل القرن الخامس، فهذا هو الشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) قد ملأ كتبه و أماليه بالحوارات العلميه، و تبعه فى ذلك تلميذاه الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) و الشيخ الطوسى (٣٨٥-٤٦٠هـ)، و لكن بعد هذه الفتره انسد باب الحوار بين أعلام المسلمين و لم

يفتح إلا- في موارد يسيره لا- تكاد تذكر، فنهض السيد الراحل إلى فتحه من جديد عن طريق المكاتبه مع أحد أعلام أهل السنه، أعنى الشيخ سليم البشرى (١٢٨٤- ١٣٣٥هـ) شيخ الأزهر فى عصره، و ذلك بعد ما هبط مصر أواخر عام ١٣٢٩هـ مؤملاً فى ذلك تحقيق الأمانه التى أمثلها. فوجد تره مصر تره خصبه بالعلم و الذكاء، و قد جمع الحظ السعيد بينه و بين أحد أعلامها المبرزين المتميزين: «بعقل واسع، و خلق وادع، و فؤاد حى، و علم عيلم، و منزل رفيع» كما عبر رحمه الله فى مقدمه مراجعته و هو يصف لقاءه معه بقوله:

«شكوت إليه و جدى، و شكا إلى مثل ذلك و جداً و ضيقاً، و كانت ساعه موفقه أوحى إلينا التفكير فيما يجمع الله به الكلمه، و يلّم به شعث الأُمّه، فكان ممّا اتفقنا عليه أنّ الطائفتين- الشيعه و السنّه- مسلمون يدينون حقاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، و لا اختلاف بينهم فى أصل أساسى يفسد التلبس بالمبدإ الإسلامى الشريف...».

فترتب على ذلك اللقاء الجميل مكاتبات و مراجعات بلغ عددها ٦٥ مراجعه، أى أنّ السيد قد تلقى خمساً و ستين سؤالاً من شيخ الأزهر ليحجب عليها، و قد أجاب بعدد الأسئلة، فصار المجموع كتاباً علمياً تاريخياً حديثاً كلامياً كان له صدق واسع عند ما طبع عام ١٣٥٥هـ.

يُشار إلى أنّ المتحاورين لم يخرجوا عن أدب الإسلام و أدب المناظره قيد شعره، بل أنّهما تبادلوا عبارات التقدير و الاحترام، و هذا ما نلمسه فى ثنايا كلامهما، فهذا شيخ الأزهر يبدأ مراجعته الأولى بقوله: «سلام على الشريف العلامة الشيخ عبد الحسين الموسوى و رحمه الله و بركاته» ثمّ إنه يكتب فى ثنايا تلك المراجعته: و إننى لواقف على ساحل بحرك اللجى، استأذنك فى خوض عبابه و الغوص على

درره، فإن أذنت غصنا على دقائق و غوامض تحوك في صدرى منذ أمد بعيد، و إلا فالأمر إليك، و ما أنا فيما أرفعه بباحث عن
عثره، أو متبع عوره، و لا- بمفند أو مندود، و إنما أنا نشاد ضاله، و بّحث عن حقيقه، فإن تبين الحق فإن الحق أحق أن يتبع، و إلا فأنا
كما قال القائل: نحن بما عندنا و أنت بما عن -دك راض و الرأى مختلف

فبادله السيد رحمه الله الجواب الجميل و قال: «رमितنى بآمالك و نزعنى إلى برجائك، و أنت قبله الراجى، و عصمه اللاجى، و قد
ركبت من سوريا إليك ظهور الآمال، و حطت بفنائك ما شددت من الرحال، منتجعاً علمك، مستمطراً فضلك، و سأنقلب عنك
حتى الرجاء، قوى الأمل، -ثم يقول له:-

فسل عما أردت، و قل ما شئت، و لك الفضل، بقولك الفصل، و حكمك العدل». (1)

هكذا كان العلمان فى سماء الأدب، و هذا هو تقديرهما لحقوق كلا الطرفين.

١.٤. اهتمامه بالفقه الأكبر

اهتم سيدنا الراحل بالفقه الأكبر نظير اهتمامه بالفقه الأصغر، فإن قائمه أسماء مؤلفاته تشير إلى أن اهتمامه بعلم الكلام و العقائد و
مسائل البنية التحتية للدين الإسلامى كان بنفس مستوى اهتمامه بمسائل الفقه الإسلامى، و يشهد على ذلك كتبه و محاضراته فى
العقائد و الكلام.

و هو قدس سره يذكر فى إجازته لآيه الله السيد شهاب الدين المرعشى النجفى رحمه الله أن من شيوخ إجازته الإمام الفقيه
المحدث محمد المعروف بالشيخ بدر الدين الدمشقى شيخ الإسلام فى دمشق و أعلم أعلامها، قال: فقد لقيته فى شعبان

ص: ٦٥٧

(١-١). المراجعات: [١] الأولى و الثانية.

سنة ١٣٣٨هـ بدمشق و حضرت درسه ليالي رمضان من تلك السنة و جرت بيننا مذاكره تتعلق بمباحث الحسن و القبح العقليين و بإمكان رؤيه الله تعالى و امتناعها و بقدوم القرآن و حدوثه،فآل البحث إلى ميله التام إلى رأينا في كل من المسائل الثلاث.... (١)

نعم قد بذل رحمه الله جهوده الكثيره في مسأله الإمامه و الخلافه التي هي من الأصول عندنا و من الفروع عند أهل السنّه،حيث إنّ تنصيب الإمام عندهم من فروع الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

٥.تبيين المسائل الخلافيه

نحن نعتقد بأن الخط الفاصل بين الطائفتين السنّه و الشيعه أمر واحد لا غير، و هو أنّ الشيعي يرى أنّ المرجعيه السياسيّه و العلميه بعد رحله الرسول صلى الله عليه و آله و سلم تعود إلى أئمه أهل البيت من سلالته،و ترى الطائفه الأخرى خلاف ذلك،هذا هو الفارق الأصيل بين الطائفتين.

و أما سائر المسائل فلا تمتّ إلى الخلاف الجوهري بين الطائفتين،فهى إمّا مسائل كلاميه أو مسائل فقهيه.

مثلاً-المسائل الثلاث التي خاض فيها الإمام شرف الدين في دمشق و أفنع المخالف بما يراه الإماميه ليس شيئاً ممّا يختص بالإماميه،فإنّ المعتزله أيضاً شاركت الإماميه بالتحسين و التقييح العقليين،و امتناع رؤيه الله تعالى في الآخره،و حدوث القرآن و عدم قدمه،و نظير ذلك المسائل الفقهيه فإنّ الشيعي يرى عدم نسخ نكاح المتعه أو بطلان العول و التعصيب،كل ذلك خلافات فقهيه لا تمت

ص:٦٥٨

إلى أصول الدين بصله.

فكل من يريد أن يعمق الخلاف أو الشقاق فإنما يتمسك بالمسائل الكلامية أو الفقهية، أو يتهم الطائفة بما هم براء عنه براءه يوسف من الذنب الذي ألصق به.

و على ضوء ذلك بحث السيد شرف الدين بعض المسائل الفقهية الخلافية تبعاً للقدمات من كلتا الطائفتين، فهذا هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) يؤلف كتاباً باسم اختلاف الفقهاء، كما أن أبا جعفر أحمد ابن محمد الطحاوي (المتوفى ٣٢١هـ) ألف كتاباً باسم اختلاف العلماء، هذا ما عند السنه.

و عند الشيعة نرى أن السيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) ألف كتاباً باسم «مسائل الخلاف في الفقه»، و تبعه تلميذه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) فألف كتاب «الخلاف في الأحكام»، ذكر فيه آراء الموافق و المخالف بسعه صدره و طول باعه.

إن هذه الكتب التي قام بتأليفها فطاحل العلماء من الطرفين كانت أداه التقريب بينهما، إذ ما من مسأله إلا و للشيعة الإماميه موافق من أحد الطوائف الأربعة أو أحد المذاهب البائده، و لم يكن لهذه الكتب أى أثر سيئ.

كما ألف محمد بن حسن الشيباني (المتوفى ٢٩٨هـ) كتاباً باسم «الحججه على أهل المدينه» و قد طبع في أربعة أجزاء طرح فيه المسائل الخلافية بين مدرسه الرأى العدى هو من أعظم أتباعها و مدرسه أهل الحديث التي كان عليها المحدثون في المدينه كمالك و اتباعه، و لم توصف هذه الكتب بشق العصا أو توسيع نطاق الخلاف، لأنها كانت بحوثاً علميه فكريه توجب تقدم عجله الفقه إلى الامام.

و في القرن السابع قام أحد الفطاحل من علماء الشيعة الذي قلما يتفق في

الزمان أن يسمح بمثله و هو الإمام العلامة الشيخ الحسن بن يوسف المطهر الحلي (٦٤٨-٥٧٢٦هـ)، قام بتأليف كتابين قيمين، وهما:

١. تذكرو الفقهاء.

٢. منتهى المطلب في تحقيق المذهب.

أورد فيهما آراء الصحابة و التابعين و الفقهاء، بصدر رحب، و نقل دليل كل طائفة على رأيه و ذكر مذهبه مع دليله.

فحن نتلقى هذه الكتب تحقيقاً للفق و إناره للمذهب.

فتبعاً لسيره هؤلاء الأعظم قام سيدنا شرف الدين بالبحث حول المسائل الفقيهيه الخلافيه، و هو و إن لم يستقصها جميعاً و لكنّه أدلى بمهمات المسائل الخلافيه، و ألف في ذلك كتاباً طبع باسم: المسائل الفقيهيه.

و على ضوئه سرنا في كتابنا «الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف» فاستقصينا المسائل الخلافيه التي اشتهرت بها الشيعة الإماميه كالمنع عن مسح الخفين، و غسل الأرجل و التي لم تتجاوز عن ٢٦ مسأله.

إنّ اختلاف الفقهاء في المسائل العمليه نابع عن الاختلاف في المدارك التي يعتمدونها في استنباط الأحكام، و كلّ منهم يطلب الوصول إلى الحكم الواقعي بنيه خالصه. فرحم الله علماءنا الماضين و حفظ الله الباقيين.

و لعلّ اختلافهم كان مثل اختلاف نبي الله داود و سليمان في قصه الحرث التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، إذ يقول عنها: «و داود و سليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم و كنا لحكمهم شاهدين* ففهمناها سليمان و كلاً آتينا حكماً و علماً و سخزنا مع داود الجبال يسبحن و الطير و كنا

ص: ٦٦٠

وقد ذكر المفسرون حكمهما على وجه لا يصادم عصمتهما، فمن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى التفاسير.

٦. تأسيس منهج لتمييز الصحيح من الأحاديث

إنّ حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كالقرآن الكريم حجتان عند الأمة الإسلامية، غير أنّ القرآن وحى بلفظه ومعناه، و أمّا حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوحى بالمعنى دون اللفظ، وقد ارتحل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وترك في الأمة وديعتين ثميتين، وهما: كتاب الله وعترته الذين هم حفظه سنّته و مبلّغوا أحاديثه.

غير أنّ تحريم كتابه السنّه والتحدّث بها في عصر الخلفاء الثلاثة (خاصّه الثاني منهم) أفرز مشكله كبيره هي ذهاب كثير من حفظه الحديث مع أحاديثهم دون أن يكتب أو ينقل، فحلّ محلهم مستسلمه أهل الكتاب، فروّجوا الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات، فتلقتها الأمة علماً ناجعاً ملئوا به كتبهم.

و في نهايه القرن الأوّل تبته عمر بن عبد العزيز إلى الخساره الفادحه المتوجهه إلى التراث النبوى من ترك كتابه الحديث و التحدّث به، فكتب إلى عامله في المدينه المنوره أبى بكر بن حزم قائلاً: أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاكتبه، فإنّى خفتُ دروس العلم و ذهاب العلماء، و لا- تقبل إلاّ حديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و لتفشوا العلم و لتجلسوا حتّى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً. (١)

ص: ٦٦١

و مع الحثّ الأكيد من جانب الخليفة الأموي لم تكن هناك حركة سريعة بالنسبه إلى هذا الموضوع، إلى أن دالت دوله الأمويين و قامت محلّها دوله العباسيين و أخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فعندئذٍ قام المحدثون بتدوين الحديث عام ١٤٣هـ. (١)

و في خلال الفتره التي أهملت فيها (باستثناء شيء يسير) السنّه النبويه كتابه و تحديثاً، دخلت الإسرائيليات و المسيحيات و المجوسيات و المكذوبات على لسان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن طريق تجار الحديث و المستأكلين به، فاحتاج المحققون إلى تمييز الصحيح عن غيره، و الصادق عن الكاذب بعلم الرجال الباحث عن صفات الراوى ضبطاً و ثقّه.

فمن ذلك العصر صار المحور في نقد السنّه في ألسن الرواه و تمحيص الأحاديث النبويه هو صفات الراوى، من حيث كونه عادلاً حافظاً ضابطاً مسنداً إلى غير ذلك من الصفات.

و لكن القوم غفلوا عن أنّ هناك طريقاً آخر في جنب الطريق الأوّل و هو نقد مضمون الحديث بأصول علميه و هي:

١. عرض الحديث على الكتاب.

٢. عرض الحديث على السنه القطعيه المتواتره.

٣. عرض الحديث على العقل الحصيف الذي به يخاطبنا سبحانه في كتابه، و يحتج به علينا.

٤. عرض الحديث على التاريخ المتواتر المتضافر.

٥. عرض الحديث على ما اتفق عليه المسلمون.

ص: ٦٦٢

فإذا كان الحديث مخالفاً لأحد هذه الأسس القطعية فإننا نعلم ضعف الحديث و عدم صدقه و تسرب الوضع إليه من إحدى النواحي دون أن يُتَّهَم الصحابي أو التابعي أو مؤلف الكتاب به.

نعم الشرط هو عدم مخالفته، لا موافقته لأحد هذه الموازين، لوجود موضوعات مختلفه حفلت بها الأحاديث الكثيره، دون أن يرد في القرآن الكريم -حسب أفهامنا- منها شيء.

فهذا النوع من دراسه الحديث ممَّا رسمه سيدنا الراحل في كتابه «أبو هريره» الذي نُسب إليه أكثر من خمسه آلاف حديث، مع أنه لم يدرك من حياه النبي أكثر من ثلاث سنوات.

و هذا النوع من التحقيق بكر في بابهِ، و قد سار عليه أحد أعلام مصر ألا و هو محمد الغزالي، حيث أَلَّف كتابه «الحديث النبوي بين أهل النقل و الفهم» الذي أثار ضجه عند بعض المتحجِّرين، و قام أئمه الجمعه و الجماعه في بعض المساجد بالثنيديد و التشهير بهذا الكتاب، و ما ذلك إلا لأنهم أَلْفُوا و أنسوا بصحَّه عامَّه ما في الصحاح و السنن على وجه لا يقبل النقاش.

رحم الله سيدنا الراحل الّلهي شق لنا هذا الطريق الّلهي سرنا على ضوئه في كتابنا «الحديث النبوي بين الروايه و الدرايه» فقمنا بدراسه أحاديث ثله من الصحابه تربو على الأربعين بعد ذكر نبذه مختصره عن سيرتهم و نماذج من روائع حديثهم، ثم أخذنا بالأحاديث الزائفه المخالفه لأحد هذه الأسس دون أن تتَّهَم الصحابي أو التابعي بشيء، و أنما اتَّهَمنا مضمون الحديث بالوضع و الدس، و ممَّا ذكرناه في هذا الكتاب انموذج لما لم نذكر، و إلا فهذا النوع من التحقيق يحتاج إلى دراسه مبسطه منهجيه في ضوء سعي لجنه عالمه بأصول التحديث و قواعده.

لم يقتصر جهاد السيد رحمه الله على الجانب العلمى و الفكرى فقط، بل ضمّ إليه نضاله ضد الاستعمار، و ذلك عند ما انسحبت قوات الخلافة العثمانية عن البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، و حلّت مكانها قوات الحلفاء و تقسّم العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة تقاسمها الحلفاء بينهم، و صارت بلاد الشام تحت الانتداب الفرنسى.

فعند ذلك أحس السيد شرف الدين رحمه الله بأنّ الأخطار محدقه بالإسلام و المسلمين، فنهض بعزم صارم إلى محاربه الاستعمار و دعوه الجماهير (السنة منهم و الشيعة) إلى طرد الحكام و رفض حكومه الانتداب فلاقى فى هذا الطريق ما لاقى ممّا لا يمكن تبيينه فى هذا المقال.

يقول المحقّق الخبير بحياه السيد (الشيخ مرتضى آل ياسين): و لعلّ المحنّ التى كابدها هذا السيد الجليل فى سبيل إسعاد قومه لم يكابد نارها إلاّ أفذاذ من زعماء العرب و قادتهم ممّن أبلوا بلاءه و عانوا عناءه... ثمّ إنّه بعد ما يذكر الأحداث المرّه التى مرت بحياه السيد يقول: تلا هذا الحادث أحداث و أحداث اتّسع فيها الخرق، و انفجرت فيها شقّه الخلاف، حتّى أدت إلى تشريد السيد بأهله و من إليه من زعماء عامله إلى دمشق، و قد وصل إليها برغم الجيش الفرنسى الذى كان يرصد عليه الطريق، إذ كانت السلطه الغاشمه تتعقّبه بقوه من قواتها المسلحه لتحول بينه و بين الوصول إلى دمشق، و حين يئست من القبض عليه، عادت فسّطت النار على داره فى (شحور) فتركتها هشيماً تذروه الرياح، ثمّ احتلت داره الكبرى الواقعه فى (صور) بعد أن أباحتها للأيدى الأثيمه، تعيث بها سلباً و نهباً، حتّى لم تترك فيها غالباً و لا رخيصاً، و كان أوجع ما فى هذه النكبه تحريقهم مكتبه

السيد بكل ما فيها من نفائس الكتب و أعلامها، و منها تسعه عشر مؤلفاً من مؤلفاته، كانت لا تزال خطيه إلى ذلك التاريخ.

ظل السيد في دمشق في أبهى من نفسه و جهاده، و كان في دمشق يومئذ اجتماعات سياسيه و حفلات وطنيه، و كان السيد في جميعها زعيماً من زعماء الفكر و قائداً من قادة الرأى، و له في هذه الميادين مواقف مذكوره و خطابات محفوظه.

ثم إن السيد لم يجد بداً من مغادره دمشق إلى فلسطين و منها إلى مصر دفعاً لمؤامرات حيكت عليه....

و لما ورد مصر احتفلت به و عرفته بالرغم من تنكره وراء كوفيه و عقال.

و قد كانت له مواقف في مصر و جهت إليه نظر الخاصه من شيوخ العلم و أقطاب الأدب و رجال السياسه على نحو ما تقتضيه شخصيته الكريمه. ثم حدثت ظروف سمحت له لأن يغادر مصر أواخر سنه ١٣٣٨هـ، فهاجر إلى قريه في فلسطين تسمى «علمي» تقع على حدود جبل عامل، إلى أن أبيع للسيد أن يعود إلى عامله على أثر مفاوضات أدت إلى العفو عن المجاهدين عفواً عاماً. (١) و الحديث ذو شجون.

٨. كلمات الأعظم في حق السيد

إشاره

الحق أن شخصيه شرف الدين و مكانته العلميه و شخصيته الجليله و نضاله ضد المستعمرين و الملحدين أظهر من أن تخفى على من له إلمام بتاريخ العلم و العلماء.

و تقتصر في المقام -إكمالاً للبحث- ببعض كلمات الثناء و التقدير التي

ص: ٦٦٥

ذكرها العلماء في حقّه.

هذا هو آية الله المحقق الخراساني (١٢٥٥-١٣٢٩هـ) صاحب المدرسه الأصوليه، المعروف بكثرة الانتاج و التخريج، يعرّف تلميذه الجليل شرف الدين في إجازة خاصّه له، بما يلي:

كلمه المحقق الخراساني في حقّه

«و إنّ سياده السيد السند، و الثقة الفقيه المجتهد المنزّه من كلّ شين، سيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي- شد الله أركانه و أعطاه يوم القيامه أمانه - مجتهد مطلق، و عدل موثّق قد أصبح من أهل الذكر الذين ترجع إليهم العباد، و ترقى من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد، فخفقت أوليه النيايه عليه، و ألتت بأزمتها إليه، و حرم عليه التقليد، و وجب عليه العمل برأيه السديد، فليمتثل المؤمنون أمره و نهيه، و ليرجعوا إليه في أموالهم، و يفتزعوا إليه في سائر أفعالهم، فإنّه حجّه عليهم، ماضيه فيهم حكومته و نافذ قضاؤه، و يحرم الردّ عليه فإنّ الرادّ عليه رادّ على الله، و هو على حدّ الشرك بالله؛ و المأمول منه أن يسلك جادّه الاحتياط فإنّها سبيل النجاه، و الله الموفق و هو حسبنا و نعم الوكيل».

كلمه الحجّه الطهراني

يقول الشيخ آقا بزرك الطهراني في ترجمته: لقد كان المترجم له متأثره من م آثار الوقت، و آيه كبرى ازدهر بها العصر الحاضر، و حسب هذا القرن مفخره أن ينبغ فيه مثل هذا العبقرى الفذّ، و حسب «عامله» أن تقل باحتها علماً خفاقاً للدين و سيفاً مشهوراً للهدى مثله من بقايا العتره الطاهره عليهم السلام.

ص: ٦٦٦

فلقد فاق أقرانه بثروه علميه طائله، وقوه في العارضه، و فليج في الحججه، و رصانه في الاسلوب، و جوده في السرد، و اهتداء إلى المغازى الشريفه و الدقائق البعيده المرمى، و الغايات الكريمه، فما ذا يقول الواصف فيه، أ هو مجتهد فاضل، أم متكلم بارع، أم فيلسوف بحر محقق، أم أصولى ضليع، أم مفسر كبير، أم محدث صدوق، أم مؤرخ ثبت، أم خطيب مصقع، أم باحث ناقد، أم أديب كبير؟ نعم هو كل ذلك أضف إليه: أنه ذلك المجاهد الدائب على المناضله دون الدين و المكافح المتواصل دفاعه عن المذهب الحق، تشهد له بذلك كله المحابر و المزابير، و الكتب و الدفاتر، و الخطب و المنابر، و أعماله الناجعه، و محاضراته البديعه، و حجاجه الدامغ. (١)

و لعل في هذه الكلمه من معاصره الخبير بالرجال، الغنى و الكفايه.

و قد ترجم في «موسوعه طبقات الفقهاء» و وصف فيها بالنحو التالى:

كان فقيهاً مجتهداً محدثاً خطيباً مفوهاً أديباً بارعاً من كبار الدعاه إلى الوفاق بين المسلمين. (٢)

٩. مؤلفاته و آثاره

امتازت مؤلفات السيد بالعمق و الاستيعاب و المتانه و الأدب الرفيع، نذكر منها ما هو الأهم:

١. شرح تبصره المتعلمين فى الفقه للعلامه الحللى فى ثلاثه أجزاء.

٢. المسائل الفقيهيه.

ص: ٦٦٧

١- (١). نقيب البشر: ١٠٨٣/٣. [١]

٢- (٢). موسوعه طبقات الفقهاء: ٣١٨/١٤. [٢]

٣. تحفه الأصحاب في طهاره أهل الكتاب.

٤. رساله في منجزات المريض.

٥. رساله في المواريث.

٦. تعليقه على مبحث الاستصحاب من فرائد الأصول للشيخ الأنصارى.

٧. المراجعات.

٨. تعليقه على صحيح البخارى في مجلد واحد.

٩. تعليقه على صحيح مسلم في مجلد واحد.

١٠. أبو هريره.

١١. النص و الاجتهاد.

١٢. الفصول المهمه في تأليف الأمة.

١٣. المجالس الفاخره في ماتم العتره الطاهره، في أربعة أجزاء.

١٤. رساله حول الرؤيه.

١٥. رساله فلسفه الميثاق و الولايه.

١٦. رساله الكلمه الغراء في تفضيل الزهراء.

١٧. بغيه الراغبين في سلسله آل شرف الدين.

١٨. أجوبه مسائل موسى جار الله.

١٩. تحفه المحدثين في من أخرج عنه السنه من المضعفين.

٢٠. سبيل المؤمنين في الإمامه في ثلاث مجلدات.

و من رغب الاطلاع على كافه مؤلفاته فليرجع إلى كتاب «نقباء البشر» ج ٣، ص ١٠٨٦ - ١٠٨٧.

١٠. السيد البروجردى و كتاب المراجعات

صدر كتاب المراجعات إلى الأسواق عام ١٣٥٥هـ، ثم تلت الطبعة الأولى طبعت أخرى بعد مضى عقد من السنين، ولم يكن السيد البروجردى مطلعاً عليه، وقد قدّم الكتاب إليه أحد أساتذه الحوزة العلميه و هو آيه الله السلطاني، فأخذ السيد قدس سره بإجلال و إكبار، فلمّا جلس لمطالعتة ليلاً أسرته جاذبيته و أخذت بمجامع قلبه، فاستغرق فى مطالعتة إلى أن بلغ الصفحه الأخيره من الكتاب و قد مضى هزيعاً من الليل.

و لما التقى صبيحه تلك الليله بالسيد السلطاني أعرب له عن إعجابه بالكتاب، و تقريره الهادئ و فى الوقت نفسه الصارم و القاطع لحجه المناظر.

ثم إنّ السيد السلطاني أخبر السيد البروجردى أنّ للسيد شرف الدين كتاباً آخر و هو كتاب «النص و الاجتهاد»، أثبت فيه أنّ المسلمين الأول خصوصاً المُنتمين منهم لمدرسه الخلفاء كانوا يقدمون المصالح على النصوص، و أنّ السيد رحمه الله قد استقصى موارد هذا النوع من الاجتهاد بمعنى العمل بالسلايق فى مقابل الكتاب و السنه، فسعد السيد البروجردى بهذا الكتاب و تحمّل نفقه طبعه و صدر إلى الأسواق مرات عديده.

١١. الإمام الخميني و السيد شرف الدين

قضى السيد الراحل حياته بجلائل أعماله و عظيم موافقه إلى أن لى دعوه ربه عاشر جمادى الآخره سنه ١٣٧٧هـ، فخسره المسلمون زعيماً كبيراً من رجالات الأُمّه و بطلاً من أشهر ابطالها، و قد أحدثت وفاته، ثلمه فى الدين، و أُقيمت له الفواتح فى مختلف البلاد، و منها مجلس الفاتحه الذى أقامه السيد البروجردى فى

مسجد الحرم الشريف لكريمه أهل البيت عليهم السلام فى قم المقدسه، و لم يطلع السيد الإمام الخمينى قدس سره على إقامه الفاتحه ذلك اليوم، فجاء بنيه إلقاء درسه اليومى فى أحد المساجد المعروفه فى قم (مسجد السلماسى) و الذى يلقى فيه دروسه يومياً، فأخبرناه بمجلس الفاتحه، فقال: نحن نجمع بين الحقيين:

الدراسه و الحضور فى الفاتحه، فألقى شيئاً من محاضرتيه، ثم تحدّث عن خدمات السيد شرف الدين، و ممّا ذكره: «أنّه كان سيفاً مسلولاً على أعداء الله»، ثمّ توجه بعد ذلك هو و طلاب درسه إلى مجلس الفاتحه لأجل المشاركه فيه.

و عند وصولنا إلى المجلس تُبَيَّنُ أنّ الفاتحه كانت فى وقتها الأخير، فلمّا ورد السيد الإمام المجلس و التلاميذ من ورائه فكأنّه قد انعقد مجلس الفاتحه من جديد للسيد الراحل.

إنَّ التقريب بين المسلمين من الآمال التي يطمح إليها كلُّ مسلم مخلص عارف بالقضايا الراهنة، ومما يحز بالنفس أن نرى أبناء أُمَّه واحده تجمعها روابط كثيره، متشكّتين مختلفين لا يتعاونون تعاون الإخوه، وقد خاطبهم الله سبحانه و تعالى بقوله: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ». ١ و جعلهم الكتاب إخوه متعاطفين و قال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» ٢، و مع ذلك نرى التشتت و التمزق متفشيين فيهم.

و لدرء هذا الخطر قام في أواسط القرن الرابع عشر جماعه-إحساساً منهم بخطوره الموقف-بتأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلاميه في القاهره، و على رأسهم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر من أهل السنّه و السيد شرف الدين من الشيعة.

و قد نشرنا مقالات حول التقريب و تبين المشتركات، و أنّ المسائل الخلافيه لا تضر بوحده الكلمه و توحيد الأُمَّه.

و هذا ما يظهر من مقالاته المنتشره في مجله رساله الإسلام.

و مع ذلك كله ليس التقريب عنده بمعنى تدويب السنّه في الشيعة أو بالعكس، فإنّ التقريب شيء و التدويب شيء آخر، فالسيد من دعاه التقريب لا من دعاه التدويب، فإنّ الثاني أمر مستحيل في الظروف الحاضرة و الأوّل أمر ممكن.

و لذا نراه- مع أنّه يكتب مقالات في التقريب و ألف كتاب: «الفصول المهمه في تأليف الأئمّه» الذي طبع في صيدا عام ١٣٣٠هـ- يرد على موسى جار الله الّذي افترى على الشيعة برسالة خاصّه أسماها: «أجوبه مسائل موسى جار الله» التي طبعت في صيدا عام ١٣٥٥هـ، كما أنّه ألف رساله باسم: «رساله إلى المجمع العلمي العربي بدمشق» و التي طبعت في صيدا سنه ١٣٧٠هـ، و قد ردّ بها على الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع عند ما تعرض لآل البيت عليهم السلام في مقال نشره في مجله المجمع.

هذا بعض ما تيسّر لنا كتابته تقديماً للمؤتمر الذي أقيم إجلالاً له في اليومين الثالث و الرابع من صفر المظفر عام ١٤٢٦هـ في قم المشرفه في قاعه مدرسه الإمام الخميني رحمه الله.

و نحن نعتز بتقصيرنا أو قصورنا عن بيان ما للسيد الراحل من فضائل و مناقب و خدمات و بطولات.

فسلام الله عليه يوم ولد و يوم مات و يوم يبعث حياً.

جعفر السبحاني

قم المشرفه

صفر المظفر ١٤٢٦هـ

ص: ٦٧٢

حياه المحقق اللاهيجى و آراؤه و تصانيفه

إن شرف كل علم بشرف موضوعه و الغايه التى تُتوخى منه، و لَمَّا كان موضوع علم الكلام، هو معرفه الله سبحانه و صفاته و أفعاله، فإن هذا العلم يعدّ من أشرف العلوم.

و لذلك اشتهر علم الكلام بالفقه الأكبر، و معرفه الوظائف العمليه بالفقه الأصغر.

إن الكتاب العزيز هو الذى فتح باب التفكير فى المعارف الإلهيه، و حثّ الإنسان عليه فى نصوص كثيره، حتّى أنه أشار فى مجال إثبات المبدأ و إبطال بعض الفروض المزعومه إلى أتقن البراهين و أطفها، قال سبحانه: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ».

١

و نحن إذا تدبرنا الذكر الحكيم و قرأنا حجاج إبراهيم عليه السلام و حواره مع عبده الأجرام السماويه، لوجدنا فيه أنصع البراهين و أتقنها فى إبطال ربوبيتها.

قال جلّ شأنه: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

الْأَفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْ لِمَ يَهْدِينِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ. ١

ثم يقول: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». ٢

إِنَّ الإِمْعَانَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ يَرشِدُنَا إِلَى النِّقَاطِ الْمَهْمَمَةِ التَّالِيَةِ:

١. إِنَّ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ الرَّبُّ، وَ لَا رَبَّ سِوَاهُ، هُوَ عِبَارَةٌ أُخْرَى عَنِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي أَرَاهُ سُبْحَانَهُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَأَنَّ لِصَحِيفَةِ الْكُونِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَجْهَيْنِ، هُمَا:

أ. وَجْهٌ ظَاهِرِيٌّ، وَ هُوَ مَا يَشَاهِدُهُ الْإِنْسَانُ وَ يَسْتَكْشِفُ أَسْرَارَهُ وَ مَكَامِنَهُ.

ب. وَ وَجْهٌ غَيْبِيٌّ، وَ هُوَ قِيَامُ الْكُونِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ قِيَامًا صَدُورِيًّا لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ حَدُوثًا وَ بَقَاءً. وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ مَلَكُوتِهِمَا.

٢. إِنَّ الْحَجَجَ الدَّمَاعِيَّ وَ الْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ الْمَعْتَمِدَةَ عَلَى أَدْوَاتِ الْمَعْرِفَةِ الرَّصِينَةِ، لَهَا مِنَ الشَّرْفِ وَ الْكِرَامَةِ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ وَ مَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ بِحَيْثُ يَصْفُهَا بِكُونِهَا

حجته: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا».

٣. إنَّ المعرفة القائمة على البراهين الساطعة الرصينه تكون سبباً لرفع الدرجه و تفضيل حاملها على غيره، و لذلك فُضِّل إبراهيم عليه السلام بها على غيره «نَزَعَ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». ١

٤. إنَّ المتألهين في حكمته سبحانه و البراهين التي توصلهم إلى معرفته هم مظاهر أسمائه سبحانه و صفاته، و لذلك يقول سبحانه: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

إنَّ القرآن الكريم هو المنطلق الأول لعلم الكلام، ثم السنه النبويه و خطب الإمام على عليه السلام، و أحاديث العتره الطاهره عليهم السلام.

فقد روى عنهم عليهم السلام في مجال البرهنه على العقائد و الأصول، ما ييهر العقول و يهزّ الشعور. و ممّا يشير العجب أن جماعه من السيلفيين في القرون الأولى منعوا التفكير و دعوا الناس إلى الأخذ بالظواهر، بحجّه: «أنا أعطينا العقل لإقامه العبوديه لا لإدراك الربوبيه، فمن شغل ما أعطى لإقامه العبوديه بإدراك الربوبيه، فاتته العبوديه و لم يدرك الربوبيه». (١)

فلو أخذنا بقول هذا القائل، لّلزم حذف كثير من الآيات التي تحتوى على براهين واضحه في مجال الإلهيات، و معرفه الحقّ صفات و أفعالاً.

و لأجل ذلك قام علماء الإسلام (من الشيعه و السنه) بتدوين مسائل علم الكلام منذ أواخر القرن الأول إلى يومنا هذا، و إن كان سهم الشيعه في الدّعوة إلى التّفكير و مكافحه الجمود هو السهم الأكبر.

ص: ٦٧٥

(١- ٢). الإثبات و التفويض لرضا نعتان معطى نقلاً عن الحجّه في بيان المحجّه: ٣٣.

و في هذا الإطار قامت اللّجنة العلميّة في مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام بترجمه متكلمى الشّيعه منذ القرن الأوّل إلى نهايه القرن الرابع عشر ضمن موسوعه في خمسّه أجزاء بتقديم منّا، و ذكرنا في مقدّمه الجزء الأوّل أهمّيّه التّفكير و نقدنا أدلّه المخالفين للتّفكر المنطقي على وجه لا- يبقى للقارئ المنصف أى شكّ و ريب في لزوم التدبّر و التّفكير في المعارف الإلهيّة، فمن أراد التّفصيل فليرجع إلى الجزء الأوّل من كتاب «معجم طبقات المتكلمين».

المحقّق الطوسى و «تجريد الكلام»

يُعدّ نصير الدّين المعروف بالمحقّق الطوسى (٥٩٧-٦٧٢هـ) من النوابغ القلائل الذين لا يسمح بهم الزمان إلّا في فترات يسيره. و إليك كلمات بعض الأعلام في حقّه:

قال تلميذه العلامه الحلى (٦٤٨-٧٢٦هـ): كان أفضل أهل زمانه في العلوم العقليّه و النقليه، و له مصنّفات كثيره في العلوم الحكميّه و الأحكام الشرعيّه على مذهب الإماميه، و كان أشرف من شاهدناه في الأخلاق.

و قال الصفدى: كان رأساً في علم الأوائل، لا سيّما في الإحصاء و المجسطى.

ثمّ وصفه: بالجود و الحلم و حسن العشره و الدهاء.

و قال بروكلمان الألمانى: هو أشهر علماء القرن السابع، و أشهر مؤلّفيه إطلاقاً. (١)

و قال الدّكتور مصطفى جواد البغدادى: أنشأ نصير الدّين الطوسى دار العلم و الحكمة و الرّصد بمراغه من مدن آذربيجان، و هى أوّل مجمع علميّ

ص: ٦٧٦

١- (١). معجم طبقات المتكلمين: ٢/٤١٠، رقم ٢٧٩؛ [١] موسوعه طبقات الفقهاء: ٧/٢٤٣، رقم ٢٥٨٩. [٢]

حقيقى «أكاديميه» فى القرون الوسطى بالبلاد الشرقيه، فضلاً عن الأقطار الغربيه الجاهله أيامئذ. (١)

و قد قام بترجمته العديد من المحققين حتى المستشرقين، ولا يمكن لنا فى هذه العجالة بيان ما للمحقق من علم و فضل و ذكاء و دهاء و آثار و تأليف، و ما كان له من دور مهم فى خدمه الدين و دفع خطر المغول عن الإسلام و المسلمين بعد استيلائهم على الحواضر الإسلاميه. (٢) إذ لا يسع المقام لشرح ذلك، و إنما المهم هو الإشاره إلى أحد آثاره المهمه.

تجريد الكلام فى تحرير عقائد الإسلام

يُعتبر كتاب «تجريد الكلام فى تحرير عقائد الإسلام» مع و جازته من أشهر كتبه، و الذى لم يزل منذ تأليفه إلى يومنا هذا مطمئناً للمفكرين و كبار المتكلمين، و قد توالى عليه الشروح و التعاليق عبر ثمانيه قرون، و هو مع صغر حجمه يشتمل على أمهات المسائل الكلاميه، و يبحث فى ثلاثه محاور:

الأول: الأمور العامه التى يطلق عليها «الإلهيات بالمعنى الأعم» و يبحث فيه عن

ص: ٦٧٧

١- ١. فى مقدمته لكتاب «مجمع الآداب فى معجم الألقاب»: ٢٠. [١]

٢- ٢. راجع الجزء الرابع من موسوعتنا «بحوث فى الملل و النحل» فقد دفعنا عنه سهام التهم و الطعن من الحاقدين عليه.

الوجود و العدم و أحكام الماهيات، و المواد الثلاث-الوجوب و الإمكان و الامتناع-و القدم و الحدوث، و العله و المعلول، و غيرها من المسائل التي تبحث عن أحكام الوجود بما هو هو.

الثاني: الجواهر و الأعراض التي يطلق عليها «الطبيعيات»، و يبحث فيه عن الأقسام الفلكية و العنصريه و الأعراض التسعه، على وجه التفصيل.

الثالث: «الإلهيات بالمعنى الأخص» و يبحث فيه عن الأصول الخمسه.

و هذا هو الشيخ علاء الدين على بن محمد (المتوفى ٨٧٩هـ) المعروف ب«القوشجي» يعرفه في شرحه له بقوله: إن كتاب التجريد الذي صنفه في هذا الفن المولى الأعظم، و الحبر المعظم، قدوه العلماء الراسخين، أسوه الحكماء المتألهين، نصير الحق و المله و الدين محمد بن محمد الطوسي قدس الله نفسه، و روح رسمه-تصنيف مخزون بالعجائب، و تأليف مشحون بالغرائب، فهو و إن كان صغير الحجم، و جيز النظم، فهو كثير العلم، عظيم الاسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمه العظام، لم تظفر بمثله علماء الأعصار، و لم يأت بشبهه الفضلاء في القرون و الأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات، مشحون بتبهيها على مباحث هي المهمات مملو بجواهر كلها كالفصوص، و يحتوى على كلمات يجرى أكثرها مجرى النصوص، متضمن لبيانات معجزه، في عبارات موجزه، و تلوينات رائعه لكلمات شائقه، يفجر ينبوع السلاسه من لفظه، و لكن معانيه لها السحره تسجد، و هو في الاشتهار كالشمس في رائعه النهار، تداولته أيدي النظار، و سابقت في ميادينه جياذ الأفكار. (١)

أقول: قلما يتفق لكتاب أن يكون له ذلك الحظ الذي ناله كتاب «تجريد الاعتقاد» من إقبال المحققين عليه-من الفريقين-بالشرح و التعليق، و التحشيه.

و هذا من فضل الله سبحانه يؤتیه من يشاء من عباده الصالحين. و إليك بيان شروحه و تعاليقه.

ص: ٦٧٨

(١-١). شرح تجريد العقائد للقوشجي: ١.

تصدى لشرح هذا الكتاب و التعليق على شروحه الكثير، من العلماء و المفكرين و الطبقة العليا من المتكلمين و الفلاسفة، فلنذكر أسماءهم و أسماء شروحمهم:

١. كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد: للعلامة الحلّى الحسن بن يوسف (٦٤٨-٧٢٦هـ) و هو أوّل شرح كُتِبَ عليه.

و قد أصبح المتن و الشرح كتاباً دراسياً فى الحوزات العلميه الشيعيه، و لكاتب هذه المقدمه تعاليق على قسم الإلهيات منه و قد بين معضلاته و أخرج مصادره. (١)

٢. تعريد الاعتماد فى شرح تجريد الاعتقاد: للشيخ شمس الدين محمد البيهقى الإسفرائينى، على ما فى «الذريعه»؛ أو أبى العلاء محمد بن أحمد البهشتى الإسفرائينى البيهقى، على ما فى فهرس مخطوطات مجلس الشورى، و الذى كان حياً سنه ٧٤١هـ.

و ذكر شمس الدين محمود بن عبد الرحمن فى شرحه على التجريد: أنّ العلامة الحلّى هو أوّل من شرحه.

ثمّ قال: و رأيت له شرحاً آخر مزجياً لا يتبين المتن منه، و هو للشيخ شمس الدين محمد البيهقى الإسفرائينى.

هذا ما ذكره شيخنا الطهرانى فى «الذريعه» (٢) و أسماءه فى فهرس مخطوطات

ص: ٦٧٩

١- ١). تم طبع هذا الكتاب فى عام ١٤١٨هـ ضمن منشورات مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام.

٢- ٢). الذريعه: ٣/٣٥٣، برقم ١٢٧٨.

مجلس الشورى ب«تفريد الاعتماد في شرح تجريد الاعتقاد».

و جاء في كتاب «وقائع السنين» للخاتون آبادى أنّ الملاّ البهشتى الاسفرائينى كان من تلامذه الخواجه، و له شرح على كتابه تجريد العقائد. (١)

و أول هذا الشرح: «الحمد لله الفيّاض الجود، الوهاب الوجود، القيوم المعبود، الديموم المسجود، و الصلاة على محمّد المسعود بالمقام المحمود».

و قال فى المقدمه: و سمّيته «تفريد الاعتماد فى شرح تجريد الاعتقاد». و ختم الشرح المذكور بالعبارة الآتية: «و كان فراغ مؤلفه من نقله من السواد إلى البياض يوم الأحد، الثانى و العشرين من ربيع الآخر لسنة إحدى و أربعين و سبعمائة ببلده «إسفرائن» شكر الله جميل مساعيه، و قدّر حصول مباحثه، و غفر لذنوبه و مساويه آمين».

و تحتفظ مكتبه مجلس الشورى الإسلامى بنسختين من هذا الشرح، بالرقم ٣٨٣٠ و ٣٩٦٣، و هما قديمتان جداً. و كانتا فى عداد كتب المرحوم فضل الله المعروف ب«شيخ الإسلام الزنجانى»، التى نقلت إلى المكتبة المذكوره.

و قال المرحوم المغفور له شيخ الإسلام الزنجانى -طاب ثراه- فى انتقاداته التى وجهها إلى الصفحات ٥٦ - ٦٦ من كتاب آثار الشيعه: «الشرح الموسوم ب"تفريد الاعتماد فى شرح تجريد الاعتقاد" ألفه حسام الدين محمّد بن أحمد البهشتى الإسفرائينى أحد علماء الشيعه فى القرن الثامن الهجرى.

و نسخه من هذا الشرح فى مكتبتى». (٢)

٣. تسديد القواعد أو تشييد القواعد فى شرح تجريد العقائد: للشيخ

ص: ٦٨٠

١- ١. وقائع السنين: نسخه مكتبه المجلسى: ٣٦٥.

٢- ٢. دائره المعارف الإسلاميه، العدد الأول، تأليف عبد العزيز جواهر الكلام: ١٦.

شمس الدين محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الاصفهاني الشافعي (٦٩٤-٥٧٤٩).

قال الشيخ الطهراني: توجد نسخه منه بخط الشيخ ياسين بن صلاح الدين علي بن ناصر البحراني، شرع في كتابته سنة ١١٢٤هـ و فرغ منها سنة ١١٢٦هـ في مكتبه الشيخ محمد السماوي، و نقش خاتمه (سلام على آل ياسين)، و يعرف هو ب«الشرح القديم». (١)

و في مكتبه مجلس الشورى الإسلامى نسخه منه تاريخ تحريرها ٨١٩هـ، و فى مكتبه مدرسه الشهيد المطهرى العالیه نسخه أُخرى تاريخ كتابتها ٨٧٦هـ، و للشريف الجرجاني (المتوفى سنة ٨١٦هـ) حاشيه محققه على «الشرح القديم» تعرف ب«حاشيه التجريد» كما دوّن جمع من العلماء حواشى أُخرى على هذه الحاشيه ذكر أكثرها فى كتاب «كشف الظنون». (٢)

و تسميته ب«الشرح القديم» فى قبال الشرح الرابع الذى سنذكره لاحقاً.

٤. شرح تجريد العقائد: للشيخ علاء الدين علي بن محمد القوشجي (المتوفى ٨٧٩هـ)، و يُعرف ب«الشرح الجديد».

و قد كثرت الحواشى و التعليقات على هذين الشرحين "القديم" و "الجديد" و لا سيّما ثانيهما لمزيد اعتناء المحققين به.

و من أهمّ الحواشى على هذا الشرح، ثلاث حواش بعنوان "حاشيه التجريد" للملا جلال الدين محمد بن أسعد الصديقى الدوانى (المتوفى ٩٠٧هـ).

و اشتهرت حاشيته الأولى ب"الحاشيه القديمه"، كتبها فى البدايه باسم السلطان

ص: ٦٨١

١-١. الذريعة: ٣/٣٥٤. [١]

٢-٢. كشف الظنون: ١/٢٥١.

يعقوب بايندرى آق قيونلو (٨٨٣-٨٩٦هـ)، ثم أهداها إلى السلطان بايزيد.

كما أنّ هناك حاشيه أخرى للسيد صدر الدين محمد الدشتكى الشيرازى (٨٢٨-٩٠٣هـ) سجّل فيها مؤاخذته على حاشيه الدوانى المتقدّم، فقام الدوانى بكتابه حاشيه ثانيه على ذلك الشرح، دون فيها اعتراضاته على حاشيه الدشتكى الشيرازى، واشتهرت هذه الحاشيه بـ«الحاشيه الجديده».

ثمّ كتب صدر الدين حاشيته الثانيه و أجاب فيها عن اعتراضات الدوانى. فردّ عليه الدوانى بحاشيته الثالثه المشهوره بـ«الحاشيه الأجد».

و تعتبر هذه الحواشى أيضاً من أفضل الحواشى المكتوبه على الشرح المذكور. و تعرف حواشى الدوانى الثلاث، و حاشيتا صدر الدين بين العلماء باسم «الطبقات الجلاييه و الصدرية».

٥. شرح التجريد: لزين الدين على بن عبد الله البدخشى بالفارسيه، و عنوانه «تحفه شاهى و عطيه الهى». و ألفه صاحبه للسلطان محمد قطب شاه.

و أوّله: «شكر و سپاس پادشاهى را سزد، و حمد و ثنائى بى قياس خالقى را رسد». (١)

و قد فرغ المؤلف من تأليفه فى جمادى الآخره سنه ١٠٢٣هـ. و يحوم هذا الكتاب حول شرح إلهيات التجريد. توجد نسخه منه فى مكتبه جامعه طهران، و هى من الكتب التى أهداها الأستاذ «مشكاه» إلى المكتبه المذكوره.

كما توجد نسخه أخرى منه فى مكتبه مجلس الشورى الإسلامى رقمها ٢٠٥٨، و تاريخ تحريرها ١٢٠٧هـ، و تبدأ بالمقصد الثالث فى إثبات الصانع.

ص: ٦٨٢

١-١). كشف الحجب و الأستار: ١٠٦. و [١] ترجمه أوّله: ينبغى الشكر و الحمد و الثناء الذى لا يقاس للخالق ربّ الأرباب.

٦. شوارق الإلهام فى شرح تجريد الكلام: للحكيم المتأله و المتكلم الحاذق عبد الرزاق بن على بن الحسين اللاهيجى القمى، و هذا هو الكتاب المائل بين يدى القارئ، و الذى نحن بصدد تعريفه و تعريف مؤلفه.

٧. مشارق الإلهام فى شرح تجريد الكلام: للحكيم عبد الرزاق اللاهيجى المذكور، و قد شرح فيه الأمور العامه فقط. ذكره «صاحب الرياض» مشعراً بأنه غير شوارق الإلهام، و لم نقف على نسخه منه.

و لعلّ الشرحين شرح واحد اختلفا فى الاسم مع وحدتهما فى المسمى.

٨. شرح التجريد: لمحمد جعفر بن سيف الدين الاسترآبادى المقيم بطهران (المتوفى ١٢٦٣هـ)، و عنوانه: «البراهين القاطعه فى شرح تجريد العقائد الساطعه». فرغ المؤلف منه فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٢٥٤هـ.

و أوله: «الحمد لله الواجب الوجود بالذات، الواحد من جميع الجهات، الذى يكون صفاته الذاتيه عين الذات».

تحتفظ مكتبه مدرسه الشهيد مطهرى العاليه بنسخه تامه من هذا الشرح رقمها ١٣٥٢ و تاريخ تحريرها ١٢٥٨هـ.

كما أنّ فى مكتبه جامعه طهران نسخه أخرى تحتوى على الجزء الثانى و الثالث منه، و هى فى عداد الكتب التى أهداها السيد محمد المعروف بـ «مشكاه» إلى المكتبه المذكوره.

٩. شرح التجريد: لمحمد كاظم بن محمد رضا الطبرى، كتبه باسم محمد شاه قاجار.

و أوله: «سبحان من أظهر الأشياء لكمال وجوده، و أفاض عليها سجال

الآثار لغايه جوده».

تحتفظ مكتبه مجلس الشورى الإسلامى بنسخه منه، وورد اسم المؤلف فى مقدمتها كالاتى: «يقول الراجى إلى رحمه ربّه الوفىّ محمّد قاسم بن الرضا الكاظم الطبرى».

ولهذا الشارح كتاب آخر عنوانه «حلّ التركيب»، فشير فيه بعض التراكيب العريئه. توجد منه نسخه فى مكتبه مجلس الشورى الإسلامى، رقمها ١١٧٦.

١٠. شرح الأردبيلى: كتب المولى أحمد بن محمّد الأردبيلى (المتوفى سنة ٥٩٩٣هـ) شرحاً على إلهيات التجريد سمّاه «التوحيد على التجريد». (١)

١١. شرح تجريد: للميرزا عماد الدّين محمود الشريف بن ميرزا مسعود السمنانى صدر دار السرور (برهان پور) بالفارسيه. فرغ المؤلف منه سنة ١٠٦٨هـ.

١٢. شرح التجريد: للمولى بلال الشاخي القائى.

١٣. شرح التجريد: للملا محمّد بن سليمان تنكابنى مؤلف «قصص العلماء» (المتوفى سنة ١٣٠٢هـ) بالفارسيه. و أوله: «الحمد للمحمود الوجود الفعّال، الذى لا يحويه ماض ولا استقبال». (٢)

١٤. تحرير تجريد العقائد: للتبريزى، و يحتوى على زبده المسائل الكلاميه وفقاً لمذهب الإماميه الناجيه. توجد نسخه منه فى مكتبه مجلس الشورى الإسلامى و رقمها ٣٩٦٨. و أولها: و ما هو ذاك الشرح المسئول عن الله تعالى أن ينفع الطلاب، و أن يجعل ذخراً لى فى يوم الحساب المبتدى بأنّه تعالى لما أوجب على كلّ

ص: ٦٨٤

١-١). دانشمندان آذربايجان: ٣١؛ هديّه العارفين: ٣١٨/١. و [١] طبع بعضها فى حاشيه شرح التجريد للقوشجى و طبع مستقلاً ضمن الرسائل للأردبيلى.

٢-٢). فهرس الجامعه: ٢٧٢٩.

ما أنعم عليه شكر.

١٥. شرح أبي عمرو أحمد بن محمد المصري (المتوفى سنة ٧٥٧هـ) المسمى بـ«المفيد».

و تحتفظ مكتبة الآستانه الرضويّه المقدّسه بنسخه من هذا الشرح رقمها ٩١٥، و هي ناقصه من أولها و آخرها. و يذكر أبو عمرو أحمد بن محمد المصري في هذا الشرح أستاذه العلامة الحلّي كثيراً.

١٦. شرح العلامة أكمل الدّين محمد بن محمود البابرتي الحنفي (المتوفى سنة ٧٨٦هـ) و هو بعنوان «عقيدته الطوسي»، (١).

١٧. شرح الفاضل خضر شاه بن عبد اللطيف المنشوري (المتوفى سنة ٨٥٣هـ). (٢)

١٨. شرح قوام الدّين يوسف بن حسن المعروف بقاضي بغداد (المتوفى سنة ٩٢٢هـ). (٣)

١٩. تنقيح الفصول في شرح تجريد الأصول: للملا أحمد بن محمد مهدي التراقي الكاشاني (المتوفى سنة ١٢٤٥هـ). (٤)

٢٠. نهايه التحرير في شرح التجريد: ذهب صاحب الذريعه إلى أنّ الشارح هو السيد محمد تقى بن أمير مؤمن بن أمير محمد تقى بن أمير رضا الحسيني القزويني (المتوفى سنة ١٢٧٠هـ). توجد نسخه من هذا الشرح المنظوم في

ص: ٦٨٥

١- ١. كشف الظنون: ١١٥٨/٢. [١]

٢- ٢. المصدر نفسه: ٣٥١/١ و ٩٥/٢. [٢]

٣- ٣. كشف الظنون: ٣٥١/١ و ٩٥/٢. [٣]

٤- ٤. إيضاح المكنون: ٣٣١/١. [٤]

مكتبه الآستانه الرضويّه المقدّسه برقم (٩٤٩)، و ذكر منظّم الفهرس فيها أنّ الناظم مجهول. و تاريخ تحرير هذه النسخه: ١٢٢٥هـ. و الكتاب المشار إليه أرجوزه في شرح تجريد الاعتقاد، فرغ الناظم منها سنه ١٢٢٣هـ. أولها: و بعد حمد الله واجب الوجود

٢١. تجريد التجريد: لابن كمال الدّين باشازاده شمس الدّين أحمد بن سليمان (المتوفّى سنه ٩٤٠هـ) و هو إصلاح لكتاب التجريد، كما كتب أيضاً شرحاً على تحريره. توجد نسخه من هذا المتن و الشرح في مكتبه باريس الوطنيّه. (١)

٢٢. علاقه التجريد: و هو ترجمه و شرح بالفارسيه لتجريد العقائد للسّيد محمّد أشرف بن عبد الحسيب بن أحمد بن زين العابدين الحسيني (المتوفّى سنه ١١٤٥هـ).

و أولها: «حمد مر خدای را كه تجريد علايق جسمانيه و تهذيب اخلاق ايمانيه را صراط مستقيم ابواب جنان قرار داد». (٢)

و تحتفظ المكتبه المركزيه لجامعه طهران بنسخه من هذه الترجمه الفارسيّه.

ص: ٦٨٦

(١-٢). الذريعه: ٣١٠/١٥ برقم ١٩٨٠. [١]

(٢-٣). الذريعه: ٣١٠/١٥ برقم ١٩٨٠. و [٢] ترجمه العبارة: الحمد لله الذي جعل تجريد العلائق الجسمانيّه و تهذيب الأخلاق الإيمانيّه صراطه المستقيم إلى أبواب الجنان.

و دُوّنت على متن التجريد و شروحه حواش أُخرى كثيرة أيضاً.

منها: حاشيه الخفري على إلهيات التجريد.

و أولها: «الحمد لله رب العالمين و الصلاه على سيّد المرسلين و آله الطاهرين، فيقول الفقير إلى الله الغنيّ محمّد بن أحمد الخفري: هذه تعليقات...».

و منها: حاشيه فخر الدين الحسيني.

و أولها: «الحمد لله الغفور الرحيم، و السلام على حبيبه المنعوت بالخلق العظيم محمّد الباقر لعلوم الأوّلين و الآخرين، و آله الطيّبين و صحبه الأكرمين و بعد. فيقول الحقيّر الفقير إلى عفو ربّه الغفور الغنيّ محمّد بن حسين الشهير بفخر الدين الحسيني». (1)

ترجمه الشارح

قد عرفت أنّ المحقّق اللاهيجي من شراح «تجريد الكلام» فلنذكر شيئاً من ترجمته على وجه الإيجاز كما أوجزنا الكلام في ترجمه الماتن، فنقول:

إنّ التاريخ قد بخش حق هذا العالم الجليل، و لم يذكر شيئاً من حياته إلاّ القليل، و لم يسجّل تاريخ ولادته مع الاختلاف كذلك في تاريخ وفاته.

ص: ٦٨٧

١ - ١). قد صدرنا في تبين شروح التجريد و شراحه و تعليقاته عن المعاجم، كالذريعة، و كشف الظنون، و معجم التراث الكلامي، الصادر عن مؤسستنا في خمسه أجزاء، و أخصّ بالذكر ما ألفه المحقّق: محمد تقى المدرسى الرضوى حول حياه نصير الدين و آثاره، و نقله إلى العربية: الأستاذ علي هاشم الأسدي في مجمع البحوث الإسلاميه في مشهد الإمام الرضا عليه السلام. و أمّا التعليقات على شروح التجريد فقد اختصرنا الكلام فيها، و من أراد التفصيل فليرجع إلى ذيل كتاب «سبع رسائل».

فقد ذكر صاحب الروضات و تبعه السيد الأمين في أعيانه أنه توفى عام ١٠٥١هـ (١)، أى بعد سنه من وفاه صدر المتألهين، و لكنّ الحق أنه توفى عام ١٠٧٢هـ.

و يشهد على ذلك أمران:

أ. أنه ألف كتاب «گوهر مراد» و أهدها إلى الشاه عباس الصفوى الثانى الذى حكم بين ١٠٥٢-١٠٧٧هـ، فكيف يمكن أن يكون من المتوفين عام ١٠٥١هـ!

ب. أنه لخص كتابه گوهر مراد عام ١٠٥٨هـ و أسماه ب «سرمایه ایمان».

و أمّا ميلاده فلم نقف فيه على شىء، و بما أنه من تلاميذ المحقق الداماد (المتوفى عام ١٠٤١هـ) و صدر المتألهين (المتوفى عام ١٠٥٠هـ)، فيمكن أن يقال أنه من مواليد العشره الأولى من القرن الحادى عشر.

مكانته فى الفلسفه و الكلام

إنّ المتتبع لآثار اللاهيجى الفلسفيه و الكلاميه يعرف أنه قد بلغ فى فلسفه المشاء و الإشراق، و الإحاطه بأقوال المتكلمين من المعتزله و الأشاعره مرتبه ساميه لا تجد لها نظيراً بعد أستاذه المذكورين، فهو بحق ثالث الحكماء المتكلمين.

و حيث إنّ الرائج فى المدارس الفلسفيه هو مؤلفات صدر المتألهين أو المحقق الداماد، فقد صار ذلك سبباً لخفاء مكانه الحكيم اللاهيجى، و إن كان هو قد تربى فى أحضان أستاذه المذكورين.

ص: ٦٨٨

إشارة

إنَّ الحكيم المتأله اللاهيجي قد بحث و تتبع آراء و أفكار الفلاسفة و المتكلمين، كابن سينا و الفخر الرازي و المحقق نصير الدين الطوسي و عضد الدين الإيجي و سعد الدين التفتازاني و علاء الدين القوشجي و سائر متكلمي الفرق و المذاهب الإسلامية، و ناقشهم في بعض الموارد، و نشير إلى أبرز ما يميّز به بحثه و تفكيره ضمن أمور:

١. الاستقلال في التفكير

إنَّ تعمق الحكيم اللاهيجي في تلك المناهج و المشارب لم يجعله ناقلاً و تابعاً فقط، و إنما جعله ناقداً للأقوال و محققاً للأفكار و مستقلاً في التفكير و التحقيق.

و لذلك نرى أنه لم يقف تماماً آراء أستاذه، و إنما سلك في بعض الموارد مسلكاً يخالف منهجهما، كما نلاحظه في مسأله أصاله الوجود أو الماهية التي تعتبر من رءوس المسائل الفلسفيه و التي تترتب عليها آثار و فروع مختلفه.

فالسيد الداماد من المتحمسين لأصاله الماهيه، و لكن صدر المتألهين من القائلين بأصاله الوجود بعد ما ظل مده معتقداً بأصاله الماهيه.

أمّا شارحنا الجليل فقد ألف كتاباً سماه «الكلمات الطيبه» حاكم فيه النظريتين، و انتهى أخيراً إلى الجمع بين الرأيين، و أنّ القول بأصاله الماهيه لغايه رد نظريه المعتزله القائله بتقرر الماهيات في مواطنها قبل الوجود. كما سيوافيك تفصيله.

٢. الاستشهاد بالكتاب و السنه

إنّ الحكيم المتأله اللاهيجى استهدى بهدى الكتاب و السنه فى غير مورد، فهو من القائلين بأنّ الكتاب و السنه و العقل تصب فى مصب واحد و ليس بينها أى خلاف، و ما يتراءى من بعض الظواهر ما يخالف البرهان فأنما هى ظواهر بدئيه غير مستقره: كقوله تعالى: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» ١، و لكن لو أعطى القائل حق النظر فى هذه الآيه، لوقف على أنّها كناية عن معانى ساميه، و هى استيلاؤه سبحانه على صحيفه الكون بعد إنشائه.

٣. الاهتمام بكلتا اللغتين

كانت الكتابه باللغه العربيه فى عصر المؤلف دليلاً على ثقافه المؤلف و سموّ مقامه فى المعارف و العقائد، و قلما يتفق لعالم أن يؤلف كتاباً بلغه أهله، لعامه الناس أو لطائفه خاصه، و لكن الشارح الشهم قد تحرر من ذلك القيد و أخذ يؤلف باللغتين: العربيه و الفارسيه، فألف «شوارق الإلهام» فى الكلام بالعربيه، كما ألف «گوهر مراد» الذى هو نسخه ثانيه للشوارق باللغه الفارسيه، ثم لخصه فى كتاب و أسماه «سرمایه ایمان».

فهذه الطبقة من العلماء الذين يحملون هموم أمتهم هم المكرّمون عند الله سبحانه، و لذلك نرى أنه قد توالى التأليف باللغه الفارسيه من عصر المؤلف و عصر المجلسى إلى يومنا هذا فى مختلف البلاد.

آثاره العلميه

ترك الحكيم اللاهيجى آثاراً علميه تتلأأ على جبين الدهر، و إليك سرداً لما

وقفنا عليه من مؤلفاته رحمه الله:

١. شوارق الإلهام فى شرح تجريد الكلام (مطبوع).

٢. مشارق الإلهام فى شرح تجريد الكلام.

٣. تعليقه على حاشية شمس الدين الخفرى على قسم الإلهيات من شرح القوشجى للتجريد المذكور (مخطوط).

٤. گوهر مراد (بالفارسيه) (مطبوع).

٥. سرماية ايمان بالفارسيه (مطبوع).

٦. التشریقات (مخطوط) فى التوحيد و العدل و المحبه.

٧. رساله حدوث العالم.

٨. الكلمات الطيبه فى المحاكمه بين الداماد و ملا صدرا.

٩. تعليقه على شرح الإشارات فى الفلسفه للمحقق الطوسى.

١٠. ديوان شعره بالفارسيه (مطبوع).

١١. مختصر حاشية الشرح الجديد للتجريد. يوجد فى مكتبه الوزيرى فى يزد.

١٢. حدوث العالم.

و للأسف أنّ أكثرها رهين محبسین: محبس عدم معرفه الأكثر بكتبه، و محبس رداءه الطبع أو عدمه، الأمر الذى جعلها بعيدة عن متناول الأيدى.

و هذا ما دعا مؤسسہ الإمام الصادق عليه السلام إلى تحقيق كتاب «شوارق الإلهام» و تصحيحه و التعليق عليه و طبعه طبعه جديده لائقه.

التعليق على الشوارق

و قد علق على هذا الشرح من جاء بعده من المحققين، نذكر منهم ما يلى:

ص: ٦٩١

١. التعليقه عليه للمولى إسماعيل بن المولى سميع الاصفهاني من تلاميذ المولى على النورى (المتوفى عام ١٢٧٧هـ).

٢. التعليقه عليه للمولى عبد الرحمن بن الميرزا نصر الله الشيرازى المدرس فى الرضويه، ولد عام ١٢٦٨هـ.

٣. التعليقه عليه للمولى محمد نصير بن زين العابدين اللاهيجى الچهاردهى، والد الشيخ الميرزا محمد على المدرسى (المتوفى عام ١٢٧٠هـ)، كتبه فى بلده اصفهان.

و قد علق على كلا المقصدين: الأمور العامه، و الجواهر و الأعراض، و فرغ منه عام ١٢٤٣هـ، نقل كثيراً من حواشى المولى إسماعيل الاصفهاني المذكور. (١)

٤. و هناك تعليقه أخرى للمولى آقا على المدرس الزنوزى، كما سيوافيك بيانه.

بعض آرائه و أفكاره

إشاره

و ها نحن نذكر نموذجين من آرائه و أفكاره، و هما يدلان على نبوغه و استقلاله فى التفكير، و هما:

أ. الجمع بين الرأيين: أصاله الماهيه و الوجود

كان النزاع بين الرأيين: أصاله الوجود و أصاله الماهيه، على قدم و ساق إلى عصر أستاذه: السيد المحقق الداماد و صدر المتألهين، فقد كان أستاذه الأول قائلاً بأصاله الماهيه ذاباً عن رأيه بحماس.

و كان أستاذه الثانى صدر المتألهين قائلاً بأصاله الوجود بعد ما كان قائلاً

ص: ٦٩٢

بأصالة الماهيه، و قد شاد صرَحَ رأيه بأدله محكمه رصينه فى أسفاره، و ذكر ملخص الأدله فى كتابه المشاعر.

و المحقق اللاهيجى قد تتلمذ لديهما، و فى الوقت نفسه كان صهراً لصدر المتألهين، الذى لقبه بـ «الفياض» كما لقب صهره الآخر بـ «الفيض»، أعنى: «ملا محسن» المعروف بـ «الفيض الكاشانى».

و قد اختار نظريه أستاذة الثانى و قال بأصالة الوجود، و مع ذلك فقد فسر نظريه أصاله الماهيه التى كان عليها أستاذة الآخر، و وجهها بشكل يلائم النظرية الأخرى، و لا يتعارض معها. و خلاصه التوجيه كالاتى:

إن هنا مسألتين:

الأولى: ما هو الأصيل فى الخارج هل الوجود أو الماهيه؟

الثانية: ما هو المجعول و الصادر عن المبدأ الأول و مبدأ المبادئ؟

و من المعلوم أن ما هو الأصيل هو الصادر من المبدأ الأول. هذا من جانب.

و من جانب آخر فإن المعتزله ذهب إلى تقرر الماهيات منفكه عن الوجود فى ظروفها الخاصه.

ولمّا كان هذا القول يضاد أصول التوحيد، إذ معنى ذلك غناء الماهيات فى وعائها و تقررها عن المبدأ، و كان القول بأصالة الوجود، بظاهره يدعم نظريه المعتزله، من كون الماهيات فوق الجعل و أنها متقرر فى وعائها، جنح بعض الحكماء إلى القول بأصالة الماهيه ردّاً لنظريه المعتزله.

و لو أغمض النظر عن هذا فلا شكّ فى أنّ الأصيل و المجعول هو الوجود، و هذا هو الذى يصرح به المحقق اللاهيجى فى عبارته التاليه:

إنّ المراد بكون المجعول هو الماهيات هو نفي توهم أن تكون الماهيات

ثابتات في العدم، بلا- جعل و وجود؛ ثم يصدر عن الجاعل، الوجود أو اتّصاف الماهيه بالوجود، فإذا ارتفع التوهم فلا مضايقه في الذهاب إلى جعل الوجود أو الاتّصاف بعد أن تيقن أن لا ماهيات قبل الجعل، و إلى هذا يؤول مذهب أستاذنا الحكيم المحقق الإلهي قدس سره في القول بجعل الوجود، فإنه يصرح بكون الوجود مجعولاً بالذات و الماهيات مجعوله بالعرض على عكس ما يقوله القوم».

ثم إنه استشهد بكلام المحقق الطوسي التالي:

«إذا صدر عن المبدأ الأول شيء كان لذلك الشيء هويه مغايره للأول بالضرورة، و مفهوم كونه صادراً عن الأول، غير مفهوم كونه ذا هويه ما، فإذا هاهنا أمران معقولان: أحدهما: الأمر الصادر عن الأول و هو المسمى بالوجود؛ الثاني: هو الهويه اللازمه لذلك الوجود و هو المسمى بالماهيه» (١).

و هذه التعابير تحكى عن أنّ القول بأصالة الماهيه إشاره إلى مجعوليتها، و القول بمجعوليتها لأجل الردّ على النظرية التي تذهب إلى ثبوتها قبل الوجود.

و لو لا- أنّ القول بأصالة الوجود يوهم غناء الماهيه عن الجعل، الموهم أيضاً لتقررها قبل الوجود، لم يكن هناك أيّ داع للقول بأصالة الماهيه، و إنّما اختاروا هذا العنوان (أصالة الماهيه) لأجل نفى الثبوت لها قبل الوجود، و ذلك لأجل تعلّقها بالجعل.

ب. ملاك التحسين و التقيح العقليين

إنّ مسأله التحسين و التقيح العقليين من أهمّ المسائل الكلاميه التي تبتنى عليها أصول أخرى و لها ثمرات كثيره ذكرناها في موضعها. (٢)

ص: ٦٩٤

١- ١). الشوارق: ١٠٨/١ طبع طهران، [١] المسأله ٢٧.

٢- ٢). انظر كتاب رساله في التحسين و التقيح العقليين- لكاتب هذه السطور: ٨٦-٩٨، الفصل ١١.

وقد اختلفت كلمه المثبتين و النافين فى ما هو الملا-ك لقضاء العقل بالحسن و القبح، فقد ذكروا للحسن و القبح ملاكات نذكرها إجمالاً:

١. ملائمه الطبع و منافرته.

فالمشهد الجميل بما أنه يلائم الطبع يعدّ حسناً، كما أنّ المشهد المخوف بما أنه منافر للطبع يعدّ قبيحاً، و الطعام اللذيذ و الصوت الناعم لأجل موافقتهما الطبع حسنان كما أنّ الدواء المرّ و نهيق الحمار قبيحان.

٢. موافقه الغرض و المصلحه الشخصيه أو النوعيه و مخالفتهما.

فالعدل بما أنه حافظ لنظام المجتمع حسن، و الظلم بما أنه هادم للنظام و مخالف لمصلحه النوع فهو قبيح.

٣. كون الشئ كمالاً للنفس أو نقصاً لها، كالعلم و الجهل، فالأول زين لها و الثانى شين.

٤. كون الشئ حسناً أو قبيحاً عادة، كتحسين خروج الجندى بالبهه العسكريه و تقبيح خروج العالم بنفس ذلك اللباس.

و ليعلم أنّ هذه الملاكات التى تكلم بها المثبت و النافى ليست ملاكاً للتحسين و التقبيح العقليين، و ذلك لأنّ الغرض من القاعده معرفه أفعاله سبحانه تبارك و تعالى و معرفه ما هو حسن أو قبيح بالنسبه له، فلو كانت الغايه هى تلك، فلا معنى لجعل طبع الإنسان المادى ملاكاً للحسن و القبح كما هو الملاك الأول.

كما لا- معنى لاتخاذ الثانى (كونه محصياً لألغرض النوع أو هادماً له) ملاكاً للحسن و القبح، و ذلك لأنّ الغايه هى معرفه صفاته سبحانه و أفعاله قبل أن يخلق العالم و المجتمع الإنسانى. فكون العدل حافظاً للنظام، و الظلم هادماً، لا صلّه لهما بفعل الله تعالى.

ص: ٦٩٥

و أما الثالث، أى كونه كاملاً للنفس أو شيئاً له فلا أظن أنه محل للنزاع.

و أما الرابع فهو واضح البطلان، لأنّ الأمور العاديه تختلف حسب الظروف و البيئات.

و لأجل هذا فقد أنكر مؤلفنا البارع المحقق اللاهيجى تلك الملاكات كلّها و أبدع نظراً خاصاً حاصله: أنّ نفس الشىء بما هو هو-مع قطع النظر عن كون فاعله واجباً أو ممكناً، و مع قطع النظر عمّا يترتب عليه من المصالح و المفسدات - إذا لاحظته العقل يستقل بحسنه أو قبحه مطلقاً.

و إن شئت قلت: إنّ الفعل الصادر من الفاعل المختار-سواء أ كان واجباً أم ممكناً-إذا نظر إليه العقل و تجرّد عن كل شىء يستقل إمّا بحسنه و أنّه يجب أن يفعل، أو بقبحه و أنّه يجب أن يترك بغضّ النظر عمّا يترتب عليه من المصالح و المفسدات، أو بغضّ النظر عن موافقته لغرض الفاعل أو مخالفته، فإنّ كلّ هذه الضمائم ممّا لا حاجه إليها فى قضاء العقل بالحسن و القبح، فكأنّ نفس الفعل علّه تامه-عند اللحاظ-لحكم العقل بالحسن أو القبح. (١)

نبوغ الشارح فى الأدب الفارسى

ربّما يتصوّر القارئ أنّ المحقق اللاهيجى، كان متوقّداً الفكر فى الجانب الفلسفى و المناقشات الكلاميه فقط، و لم يكن له حظ فى القريض و نظم الشعر، و لكنّه سرعان ما يرجع عن تلك الفكره الخاطئه إذا عطف نظره إلى ديوانه الضخم الذى يقع فى حدود ٧٨٠ صفحه، و يشتمل على الكثير من الغزليات و القصائد

ص: ٦٩٦

و المدائح باللغه الفارسيه،نقتطف منه ما يلي:

يقول في مدح الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: چشم دارد بر متاع ما سپهر چنبری يوسف ما بهتر از گرگی ندارد مشتری

و يقول في منقبه بنت المصطفى فاطمه الزهراء عليها السلام: چنان به صحن چمن شد نسيم روح افزا که دم ز معجز عيسى زند
نسيم صبا

و يقول في مدح صاحب العصر و الزمان (عجل الله فرجه الشريف): کنون خوشست کشیدن شراب خنده گل که شسته است
چمن رو در آب خنده گل

إلى غير ذلك من المدائح و القصائد التي تسمو به قدس سره إلى الطبقة العليا من الشعراء الهادفين الذين وصفهم سبحانه بقوله:
«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». ١

و ممّا يجدر ذكره،هو أنّ كتاب التجريد يشتمل على مقاصد ستة:

المقصد الأول: في الأمور العامّة.

المقصد الثاني: في الجواهر و الأعراض.

المقصد الثالث: في إثبات الصانع تعالى و صفاته و آثاره.

المقصد الرابع: في النبوه العامّة و الخاصّه.

ص: ٦٩٧

المقصد الخامس: في الإمامه.

المقصد السادس: في المعاد و الوعد و الوعيد و ما يتصل بذلك.

و قد وُقِّعَ المحقق اللاهيجي في الشوارق لشرح المقصدين الأولين بتمامهما و شيئاً من المقصد الثالث، و قد جفَّ قلمه في نهايه المسأله السادسة في أنه تعالى متكلم، و بذلك صار الكتاب شرحاً غير كامل.

و من اللائق أن يتصدى عباقره علم الكلام لإكمال هذا الشرح (الشوارق)، و لكننا لم نعثر على من تصدى لذلك، إلا ما قام به العلامة الحجة آيه الله محمد المحمدي الكيلاني دامت بركاته، حيث شرح ما بقى من الكتاب، و أسماه ب«تكملة شوارق الإلهام» طبع عام ١٤٢١هـ. ق، فسدّ بذلك الفراغ الموجود في هذا الشرح، و قد أعاننا -حفظه الله- في تحقيق هذا المشروع بوضع النسخ المطبوعه و المصوره التي كانت بحوزته، في تناول المحققين في المؤسسه، فشكر الله مساعيه و مساعى الجميع في إرساء صرح هذا العلم و الذب عن حياض الدين بالبيان و البنان.

كما نقدر جهود العلامة المحقق زين العابدين «قرباني» اللاهيجي -دامت بركاته- في إحياء ذكرى المؤلف بإقامته مؤتمراً في مدينه «لاهيجان» في شمال إيران عام ١٤١٤هـ، باسم المحقق اللاهيجي، شارك فيه جمع من العلماء و المفكرين ببحوث أشادوا فيها بمكانه المؤلف و فضله و تفوقه الفكرى، كما أنه قام بطبع أحد كتب المؤلف أعني «گوهر مراد» بعد أن ترجم له في مقدمته ترجمه ضافيه... فحيّاه الله و بياه.

إنّ إحياء ذكرى علمائنا أمر مرغوب جداً، إذ فيه إحياء للعلم و ترغيب الجيل

ص: ٦٩٨

الحاضر للتعرف على نتاج أفكار عظماء هذه الأمة، وخاصة إذا قام المشرفون على هذه المؤتمرات بنشر آثار أصحاب الذكرى بعد تحقيقها بالشكل الصحيح و اللائق بهم.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

جعفر السبحاني

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

١٨ شوال المكرم من شهر عام ١٤٢٥هـ

ص: ٦٩٩

في الحياه العلميه للشهيد المطهرى (١٣٣٨ - ١٣٩٩هـ)

التحق نبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى تاركاً بين أُمَّته عقيدته بيضاء و شريعته سهله سمحه، يقف عليهما من قرأ كتاب الله سبحانه يامعان و تدبّر و راجع السنّه النبويه الشريفه.

و كان أئمه أهل البيت عليهم السلام و من تربى في مدرستهم هم السباقون في الذبّ عن الإسلام و حياض الشريعة...استجابه لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين و تحريف الغالين و انتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد».^(١)

و نحن إذا درسنا تاريخ حياه الأئمه المعصومين عليهم السلام و حياه تلامذتهم لرأينا أنّ مناظراتهم و احتجاجاتهم دفاعاً عن حياض الشريعة و العقيدته كانت تتصدّر قائمه اهتماماتهم، و تقع في أعلى سلّم الأولويات لديهم.

و لما غاب نجم الإمامه بعد مرور ٢٦٠ سنه من هجره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، انتقلت

ص: ٧٠٠

[١-١]. رجال الكشى: ١٠. [١]

هذه المسئولية المهمة إلى عاتق العلماء المجاهدين في ذلك المضمار، فهذا هو الشيخ الصدوق يذبّ عن العقائد بتأليف كتب في مجالات مختلفه، منها كتابه المعروف: «كمال الدين» الذي أجاب فيه عن الشبهات المثارة حول ميلاد الإمام الثاني عشر عليه السلام و تناول فيه حياته عليه السلام و كيفية انتفاع الأمة منه في غيابه.

و قد ظهر في مختتم القرن الرابع و أوائل القرن الخامس نابغه العراق و نادره الزمان الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) و الذي فتح باب المناظرات و الحوارات بين مختلف الطوائف، فكان مجلس درسه ملتقى للآراء و الأفكار المختلفه، و كان الشيخ يستمع إلى أقوال الحاضرين و آرائهم و وجهات نظرهم، ثم يبادر إلى التفكير فيها و دراستها و تحليلها و الإجابة عنها.

و قد تخرّج على الشيخ المفيد جموعٌ من المتكلمين الذائنين عن الشريعة منهم:

١. السيد المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ).

٢. سلّار بن عبد العزيز صاحب «المراسم العلوية» ناقض نقض الشافى لأبى الحسين البصرى المتوفى سنة ٤٤٨هـ.

٣. الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ).

و غيرهم من عباقره الفكر الذين ربّاهم الشيخ في مدرسته، و قاموا هم أيضاً بدورهم و تحمّلوا أعباء هذه الوظيفة.

و لو حاول أحد أن يذكر أسماء العلماء المناضلين و الذائنين عن الدين بقلمهم و لسانهم لاحتاج إلى تأليف كتاب حافل، و لعل في «معجم طبقات المتكلمين» (١) غنى و كفايه في هذا المضمار.

ص: ٧٠١

١- ١). موسوعه تتضمن ترجمه رجالات العلم و الفكر عبر أربعه عشر قرناً، طبعت في خمسه أجزاء، تأليف اللجنه العلميه في مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام بإشراف منّا.

وَمَنْ يَعِدُّ مِنَ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْ هَوْلَاءِ الْفَطَاحِلِ فِي مَخْتَمِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ، الْمَفْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ الشَّيْخِ الشَّهِيدِ الْمُطَهَّرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَدْ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ لِلذَّبِّ عَنِ الْمَبَادِئِ وَالْقِيمِ حِينَما رَأَى هَجُومَ الْأَفْكَارِ الْمَادِيَةِ الْمَارْكَسِيَّةِ وَالْمَسَالِكِ الْمَشْتَقَةِ عَنْهَا وَالْمَغْطَاهِ بِغَطَاءِ إِسْلَامِيٍّ، نَهَضَ بِمَسْئُولِيَّتِهِ الْمَتَمَثِّلَةَ فِي الْحُضُورِ فِي سَاحَاتِ الْجَامِعَاتِ وَالْتِرْكِيزَ عَلَى الْمَفَاهِيمِ الرَّائِجَةِ فِيهَا.

فَصَرَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ مِنْ عَمْرِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ عَلَى نَحْوِ أَوْجَدَتْ شَهَادَتَهُ فِرَاعًا هَائِلًا.

وَمِنْذَ أَنْ التَّحَقَّقَ الشَّيْخُ الشَّهِيدُ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى كُتِبَ حَوْلَ حَيَاتِهِ الْكَثِيرِ مِنَ الرِّسَائِلِ وَالْمَقَالَاتِ، وَكُلٌّ مِنْهَا قَدْ دَرَسَ حَيَاتَهُ مِنْطَلِقًا مِنْ جَوَانِبِ خَاصَّةٍ.

وَالَّذِي نَطَّرَحَهُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى الْخُطُوطِ الْبَارِزَةِ مِنْ جِهَادِهِ الْعِلْمِيِّ وَتَفْكِيرِهِ.

١. التركز على التفكير

إِنَّ مَا يَمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنْ سَائِرِ ذَوَاتِ الْحَيَاةِ هُوَ التَّفْكِيرُ وَالِاهْتِدَاءُ بِالْمَقَدِّمَاتِ وَصَوْلًا إِلَى النَّتَائِجِ، وَلِذَلِكَ عُرِّفَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّهُ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ النُّطْقِ هُوَ التَّكَلُّمُ، بَلْ هُوَ التَّكَلُّمُ النَّابِعُ عَنِ التَّفْكِيرِ، فَكَأَنَّ كَلَامَهُ وَجُودَ تَجْسِيدِي لِفِكْرِهِ وَرَأْيِهِ.

وَكَانَ شَيْخُنَا الشَّهِيدُ مَفْكَرًا غَائِرًا فِي أَعْمَاقِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ فِيهَا أَوْ يَلْقَى مُحَاضِرَهُ عَنْهَا.

وَلِذَا يَجِدُ الْمُطَالِعُ فِي جُلِّ آثَارِهِ نَوْعًا مِنَ التَّجْدِيدِ وَشَيْئًا بَارِزًا مِنَ التَّطْوِيرِ بِحَيْثُ أَتَتْ مَقَالَاتُهُ وَرِسَائِلُهُ حَلْقَهُ وَصَلَ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ.

وَلَا أَنْسَى أَنَّهُ قَدْ شَرَحَ وَعَلَّقَ عَلَى كِتَابِ «أُصُولِ الْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» لِلْسَيِّدِ

العلامة الطباطبائي بعامة أجزائه، ولكنه أخر نشر ما يتعلق بمباحث الحركة والتي هي من أعقد البحوث الفلسفية بين القدماء و المتأخرين.

ولما سُئِلَ عن سبب التأخير أجب بأنني لم استطع هضمها حتى أكون قادراً على كتابتها، ولذلك فإني أراجع مواضيعها مره بعد أخرى حتى تتضح لي معالمها و آثارها ثم اكتب.

كان رحمه الله قليل التكلّم كثير التفكير، و كان يحضر دروس سيدنا الأستاذ الإمام الخميني قدس سره، و كنّا نرى أنه لا يناقش آراء أستاذه إلاّ مره واحده في الأسبوع، و لكنّه في تلك المره يصل إلى نقطه يكاد يخضع فيها الأستاذ إلى إيراده و إشكاله، فكان يحاول الجمع بين ما تبناه و ما أورد عليه تلميذه النابغه، و هذا ما كنت أشاهده أياًم حضوري معه دروس الإمام الراحل رحمه الله.

٢. الاستقامه في تحليل المواضيع

التفكير موهبه إلهيه عمّت كافه عباده و بحسب درجات استعدادهم، و المهم هو أن يستخدم الإنسان هذه الموهبه الإلهيه في الكشف عن الواقع و الحقيقه دون أن يتأثر بالبيئه أو بالدوافع الماديه أو النزعات النفسيه.

و هكذا كان شيخنا العلامة المطهري فهو ينظر إلى المسائل الفلسفيه أو العقائديه متجرداً عن كلّ تحييز أو تأثر بالبيئه أو نزعه طائفية، فيأتي بما هو لبّ اللباب و يدافع عنه بحماس.

و في مقابل ذلك نجد كاتباً إسلامياً يحمل طابع الإسلام، و لكنّه يتخذ الإسلام غطاءً لأفكاره و واجهه أمام الشعب حتى لا يتّهم بالإنحاد و الانحراف عن المحجّه البيضاء، مع أنه يبيّن الإلحاد في كتاباته و رسائله و يريد إخضاع العقائد الإسلاميه و الأحكام العمليه للأصول الماديه لكي تنطلي أغراضه على

و كان الشهيد الراحل فى منأى عن هذا النوع من التفكير الّذى لا- يفارق النفاق قيد شعره، و من هنا انبرى الأستاذ المطهرى لمناهضه هذا النوع من التفكير المادى الّذى غلافه الإسلام و محتواه الإلحاد، قائلاً بأنّ ضرر هذه الزمره أكثر من ضرر المعتقدين بالماديه الماركسيه أو غيرهم.

٣. تلبيه الحاجات الثقافيه

ألّف الشيخ الشهيد عشرات الكتب و المقالات و الرسائل فى مواضيع مختلفه، و كان الحافز الّذى يدعوه للكتابه و التأليف هو تلبيه الحاجات الثقافيه فى المجتمع و سدّ الفراغ الموجود فى المكتبه الإسلاميه، فكلّ أثر من آثاره إنّما يحمل هذا الطابع، فما تأليفه إلاّ وسيله لتحقيق غرض خاص من غير فرق بين كتبه الفلسفيه أو التاريخيه أو العقائديه.

و من هذا المنطلق نرى الشهيد المطهرى-و هو المفكّر و الأستاذ الكبير - يؤلّف كتاباً قصصياً للشباب لأجل اطلاعهم على سيره الصالحين.

هذا ما دفع بعضهم إلى انتقاده معتبراً أنّ هذا النوع من التأليف غير لائق بمن هو فى الرعيل الأوّل من أساتذه الفيلسفه و ممّن يشار إليه بالبنان فى التعقّل و التفكير، فأجاب رحمه الله بما هذا مثاله:

إنّى ما أمسكت بالقلم منذ أعوام إلاّ لأخدم المسلمين و العقيده الصحيحه، و الّذى دفعنى إلى تحرير أصول الفيلسفه الإسلاميه هو الّذى دفعنى إلى كتابه هذا النوع من الكتب (١) و الّذى يتراءى أنّه دون شأنى، فإنّى وجدت

فراعاً هائلاً فى الكتب التربويه، لأن الآخريين يركزون على قصص روائيه خياليه لا واقع لها إلا فى ذهن الكاتب و لها أثرها الخاص فى عالم التربيه، و لكنى عمدت فى هذا التأليف إلى استخراج سيره الصالحين من بطون الكتب لتكون مصباحاً للشباب و داعياً لهم إلى انتهاج مسالكهم.

خذ من باب المثال كتابه الطائر الصيت «خدمات متقابل اسلام و ايران» الذى ألفه دفاعاً عن الإسلام و المسلمين، ذلك أن الدعايات الكاذبه فى عهد النظام السابق كانت تركّز على الرجوع إلى الثقافه البهلويه التى سبقت الإسلام، و لتحقيق هذه الغايه استخدموا كتاباً من الجامعات و غيرها ليشيدوا هذه الفكره و للإيحاء بأن المسلمين العرب إنما جاءوا لهدم الحضاره الإيرانيه و الإغاره عليها.

كانت الفكره القوميّه آنذاك سائده فى عامه البلاد الإسلاميه، و لها فى كل بلد لون خاص. فالقوميّه العربيه الفارغه عن الإسلام هى التى كان يتبنّاها عملاء الاستعمار و المخدوعون به فى البلاد العربيه لغرض إبعاد الشعب المسلم عن الإسلام و سؤقه نحو العربيه المحضه التى تجمع كلّ عربى تحت هذا الغطاء، سواء أ كان مسلماً أم مسيحياً أم غير ذلك.

هكذا كانت الدعايات الغربيه تعمل وراء الستار فى كل بلد بشكل خاص.

و فى معترك هذه الأزمه الفكرية قام المطهرى رحمه الله بإلقاء محاضرات فى الجامعات و غيرها بين فيها عطاءات الإسلام للإيرانيين و أوضح فى نفس الوقت -خدمه الإيرانيين للغه الإسلام و كتابه و سنته.

فكان هناك تأثير متبادل و عطاء غير منقطع. و يُعدّ كتابه هذا من أفضل ما ألف فى هذا الموضوع.

و ما دفعه إلى ذلك النوع من التأليف إلا تلبيه حاجه المجتمع.

٤. كان ملجأً للجامعيين

عاش الشيخ الشهيد فى عصر أتاح فىه النظام الحاكم آنذاك للمتأثرين بالمبادئ الغربيه من أساتذه الجامعات،المجال ل طرح آرائهم و نظرياتهم حول الدين و جذوره و الشريعه و فروعها.

و كانت الغايه من هذه الحريه هو ضرب فئات الشعب بعضها ببعض كى تتلهى بالحوار و النقض و الإبرام دون أن تفكر فى المسائل السياسيه المصيريه.

إنّ الحريه بهذا المعنى و إن كان لها أثر فى نمو الأفكار و تقدّم الثقافه،و لكنّها ربّما تضرّ بالمبادئ و القيم الّتى تقابل النظرات الغربيه فى الأخلاق و الشريعه، و كان الشهيد الراحل ملجأً للجامعيين يرجعون إليه فى حلّ الشبهات و رفع الإشكالات.

و بما أنّه كان أحد الأساتذه فى الجامعه،فقد كان يتمتع بفرصه عقد محاضرات و جلسات يردّ فيها الأفكار السامه بأسلوب علمى رصين و خلق رفيع.وقد أوجدت شهادته فراغاً هائلاً فى هذا الجانب لو لا أن منّ الله سبحانه بأساتذه أفاضل سدّوا هذا الفراغ حفظهم الله من كلّ مكروه.

٥.انفتاحه على آراء الآخرين

من السمات الّتى يمتاز بها الباحث عن الحقيقه،هو الانفتاح على آراء الآخرين،و الإصغاء إليها بوجه طلق لا- يبدو عليه أى امتعاض،موحياً إلى المتحدّثين أنّه يسمع إلى آرائهم و يحترمها،و أنّها ستحظى بقبوله إذا ما دعمها البرهان و الدليل،و على ذلك سار الأنبياء و الأولياء فى مواجهه المخالفين و المعاندين،بقوله سبحانه: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ

حَوْلِكَ» ١. فالمراد من قوله: «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ» هو سعه صدره في مجابته أقوال الآخرين.

و إليك هذه القصة التي تنطلق بك إلى آفاق رحبيه في حسن الاستماع للآخرين:

كان ابن أبي العوجاء كبير الملحدين في عصر الإمام الصادق عليه السلام يبث دعاياته الإلحاديه في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولما سمع المفضل بن عمر الجعفي - أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام- ما يبثه من سموم في مركز الدعوه الإلهيه، هجم عليه و كلمه بعنف و قال: يا عدو الله أُلحِدْتَ في دين الله و أنكرت الباري جلّ قدسه المذى خلقك في أحسن تقويم و صورك في أتم صورته،... إلى آخر ما قال. فأجابه ابن أبي العوجاء بقوله:

يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، و إن ثبت لك حجه تبغناك، و إن لم تكن منهم فلا- كلام لك، و إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فما هكذا يخاطبنا، و لا- بمثل دليلك يجادلنا، و لقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، و لا- تعدى في جوابنا، و أنه للحكيم الرزين العاقل الرصين، لا يعتربه خرق و لا طيش و لا نزق، و يسمع كلامنا و يصغى إلينا و يستعرف حجتنا حتى استفرغنا ما عندنا و ظننا أننا قد قطعناه، أدحض حجتنا بكلام يسير و خطاب قصير يلزما به الحجّه، و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه. (١)

و هكذا كانت سيره فقيدهنا الشهيد في حواراته و مناظراته و عامّه تأليفه،

ص: ٧٠٧

و إليك نموذجاً من هذا النوع من الانفتاح على المخالف:

ألف الشيخ المطهري كتاب «نظام حقوق المرأة في الإسلام» في مقابل ما كان ينشره الدكتور إبراهيم المهدي الزنجاني حول حقوق المرأة التي كان أكثرها مخالفاً للقرآن و الشريعة الإسلامية، وقد نشر هذا الدكتور لائحته في أربعين مادة في هذا الصدد من على صفحات مجله (زن روز) المهتمه بالأُمور النسويه.

و بعد مباحثات بين الطرفين اتفقا على أن يكتب الدكتور مقالاته في الدفاع عن أطروحتة المسماة بالأربعين مادة في حقوق المرأة و حرّيتها، و ذلك في مجله (زن روز)، و يكتب الشهيد المطهري آراءه و نظراته في كلّ مادة يذكرها الدكتور في صفحات مقابله لصفحات مقال الدكتور.

و قد كان لتلك المساجلات و المناظرات صدى واسع يوم ذاك بشكل أصبح واضحاً عند الجامعيين و الحقوقيين تفوق منطق المطهري و قدره تفكيره و بيانه على منطق الطرف الآخر، ممّا سبب انفعالاً عند الدكتور الزنجاني فأصيب بسكته قلبيه كانت سبب وفاته، و ذلك بعد العدد السادس من بدء المحاوره. و لكن الشيخ استمر في كتابه مقالاته، حول نظام حقوق المرأة في الإسلام، و أصبحت هذه المقالات -بعد أن جمعت- كتاباً و مصدرّاً لمن يريد أن يكتب في هذا الموضوع.

و هذا النوع من المرونه من الشيخ و الاتفاق على الكتابه في موضوع واحد مع كاتب بعيد عن منطق الإسلام أفضل دليل على أنّ هذا الشهيد رحمه الله كان منفتحاً على آراء الآخرين، و كان مطمئناً أنه سوف يخرج في النهايه منتصراً مسدداً.

قد تطلق لفظه (الغيره) و يراد بها التعصّب الأعمى المنطلق من العصبية العرقية أو القومية أو ما يشابههما. فالتعصّب بهذا المعنى يخالف منطق العقل و طريق الشرع.

و قد تطلق هذه اللفظه -مره أخرى- و يراد بها التعصّب للحق دفاعاً عنه و عن أهله، سواء أ كان لصالح المتعصّب أم لا، فالتعصّب بهذا المعنى هو حميّه عقليه و غيره دينيه يوصف به الصالحون من عباد الله تبارك و تعالى حيث يضحّون بأنفسهم فى طريق إحياء الحق.

هذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يتكلّم حول التعصّب و يندّد به فيقول: أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله، و طعن عليه فى خلقته فقال: أنا نارى و أنت طينى.

و أمّا الأغنياء من مترفه الأمم فتعصّبوا، لآثار مواقع النعم، فقالوا: نحن أكثر أموالاً و أولاداً و ما نحن بمعذبين.

فإن كان لا- بدّ من العصبية فليكن تعصّبكم بمكارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأمور التى تفاضلت فيها المُجداء النجداء من بيوتات العرب و يعاسيب القبائل ذوى الأخلاق الرغيبه و الأحلام العظيمه و الأخطار الجليله و الآثار المحموده. (١)

كان شهيدنا الراحل مظهرًا للتعصّب للحق لا- يعادل به شيئاً حتى شخصه و شخصيته، فلذلك سجن و اعتقل مره بعد أخرى، لإظهاره الحق و الإجهار بالمعتقد و إن بلغ ما بلغ.

ص: ٧٠٩

لم يكن الشيخ المطهري رحمه الله من أهل المساومه، فلا يتراجع عن الأصول و الفروع الشرعيه قيد شعره و لو كلفه ذلك نتائج باهضه.

عكف الشهيد الراحل على دروس الإمام الخميني سنين متماديه، و اختلف إلى أنديه دروسه صباحاً و مساءً حتى أصبح من أعظم تلاميذه، و أفضل من برع على يديه، و لكن حبه للإمام و أستاذه لم يكن بشكل يثير فيه العصبية العمياء للتنكر للآخرين، فهو في الوقت نفسه يعظم الآخرين من غير فرق.

و لذلك نراه عند ما ينقل شيئاً عن العلامة الطباطبائي الذي كان أحد أساتذته يقرن اسمه بجمله (روحي فداه).

هكذا كان الشهيد الراحل يتبع الحق و يتخذ مصباحاً يمشى على ضوئه، فإذا عرف الحق عرف أهله و جّلّهم، و إذا عرف الباطل عرف أهله و أعرض عنهم و عن باطلهم و نقدهم.

فكان الشهيد الراحل مثلاً لما ذكره الإمام على عليه السلام في حرب الجمل عند ما تقابل الجيشان للقتال و في الجيش المقابل الزبير بن العوام و طلحه بن عبيد الله (و هما من شيوخ الصحابه) و أمّ المؤمنين عائشه حرم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فأوجد ذلك حاله من الشك عند البسطاء، فحاولوا الانعزال عن الجيشين، لأنّ في كلّ طرف شخصيه عظيمه لا تنكرو، و لما سأل أحد القاده الإمام عليه السلام قبل نشوب الحرب و اشتعال نارها: كيف تقاثلون يا أمير المؤمنين مع هذه الجماعه و فيهم من تعرفه؟

فأجابه الإمام بكلمه قيمه تعدّ من أفضل الكلمات و أعظمها:

«إنّك رجل ملبوس عليك.

إنّ الحقّ و الباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال.

اعرف الحق تعرف أهله، و اعرف الباطل تعرف أهله».

و قد أخذت هذه الكلمه بمجامع قلوب الأُدباء و الكُتّاب من المصريّين حتى قال الدكتور طه حسين في حقّها: هذه الكلمه أعظم كلمه سمعتها أذن الدنيا بعد الوحي.

صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَمِيرَ الْبِيَانِ.

٧. العارف بزمانه

كان الشهيد المطهرى عارفاً بزمانه و بالظروف التي يعيش فيها، و الأساليب التي يجب أن يتّخذها أداه للتبليغ و التعليم.

فإنّ الحقيقه لم تزل أمراً واحداً و لكن العرض قد يختلف حسب الظروف، فربّ حقيقه رائعه إذا عرضت بأسلوب لا يوافق أذواق المخاطبين، لا تؤثر شيئاً، بل ربما توجب بُعداً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في بعض نصائحه: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». (١)

و المراد من اللوابس هو الفتن و الحوادث المره التي تحيط حياه الإنسان، و ربّما تقضى عليه إذا لم يكن مستعداً من ذى قبل على ردّها و دفعها.

يقول سبحانه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ». ٢

صحيح أنه يقول: «مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» و لكن لا يكتفى به، و لكن يذكر معه «مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»، و معنى ذلك أنّ القائد الإسلامى يجب أن يتدرّع

ص: ٧١١

١- ١). الكافي: ٢٧/١، الحديث ٢٩، كتاب العقل و الجهل. [١]

بكلّ قوه ما استطاع، و من المعلوم أنّ لكلّ عصر جهاز و وسيله دفاعيه تتناسب معه، و يزيد سبحانه على هذا بقوله: «تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوّ اللّهِ وَ عَدُوّكُمْ». و معنى ذلك أنّ النظام الإسلامى يجب أن يكون على استعداد تام يملأ قلوب الآخرين بالرهبه و الخوف، و كلّ ذلك رهن كون الجهاز الحاكم عارفاً بزمانه و بما يجرى فى الشرق و الغرب من الحوادث التى قد تكون لصالح الإسلام أو بضرره.

و على ضوء ذلك فإنّه يجب تقليد المجتهد الحى دون المجتهد الميت، لأنّ الأوّل عارف بالزمان و بحلول المسائل المستجده، بخلاف الميت المنقطع عن الدنيا غير المتنبئ بمستقبل الحوادث.

و قد تحدّثنا عن ذلك مفصّلاً فى أحد محاضراتنا التى ألقيناها فى إحدى جامعات المغرب العربى خلال سفرنا إلى هناك فى محرم ١٤٢٥هـ.

نرى أنّ الشيخ المطهرى يجسّد ذلك فى حياته و هو لم يزل يطالع كتب الشريطين و الغربيين من الموافقين و المخالفين، و لذلك أحاط برأى الغربيين فى قسم من المسائل الفلسفيه، و جمع بين الثقافه الإسلاميه و الثقافه الغربيه، غير أنّه لم يتأثر بالأفكار الغربيه قيد شعره.

و إنّما استخدمها لنقد الحضاره الغربيه، و بيان مشاكلها، و ما فى الإسلام من حلول لهذه المشاكل العويصه.

٨. المئابره فى العمل

كان الشيخ الراحل ساعياً إلى هدفه، دءوباً على العمل، لم يُر منه الكسل و الضجر فى كافّه الأوقات، و كان يواصل أعماله فى شتى الحقول، على نظام خاص، و كان جهده و سعيه فى سبيل نيل الضالّه المنشوده، و هى التعليم

والتعلم منذ شبابه إلى أن لبيّ دعوته ربّه على وتيره واحده.

كيف لا وهو يقرأ قوله سبحانه: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى». ١

كيف لا وهو ربيب بيت العمل والسعي والجدّ والمثابره، وقد هاجر من مسقط رأسه مشهد الرضا إلى قم المشرفه وهو في أوان شبابه ليس له معين إلا كده وتعبه حتى في ضروريات حياته، وبذلك أصبح نتيجة تلك الظروف العصيبه كزبر الحديد- بعد أن تعرض إلى حراره النار- رغم مواجهته لأنواع المشاكل والعوائق.

رحم الله السيد المجاهد الأمين العاملي الذي قال في قصيده يصف فيها حياته و كأنه يرسم بريشته حياه شهيدنا الراحل، إذ يقول:
لئن كان قد ولى الشبابُ عصره

هكذا كان العلماء الراسخون في العلم الذين بلغوا أسمى المدارج والدرجات.

قال أستاذنا الكبير السيد حسين البروجردى (١٢٩٢-١٣٨٠هـ) في أحد دروسه: كنت طالب علم في مدينه اصفهان أسكن مدرسه الصدر، وقد جلست للمطالعه في ليله من الليالي بعد صلاه العشاء، و كنت أدرس مسأله الترتب التي هي من المسائل الأصوليه الغامضه، و كنت أفكر و أكتب و أمحى،

ص: ٧١٣

و قد استغرقت فى عملى إلى أن سمعت صوت المؤذن يؤذن لصلاه الصبح.

و هكذا كان الإمام الخمينى رحمه الله ينزل فى الصيف بعض المدن القريبه من قم المشرفه للاصطياف، و قد سافر فى عام ١٣٧٠هـ إلى مدينه محلات التى هى قريبه من قم، و هى ذات هواء معتدل، و فيها حدائق أزاهير عطره و مياه معدنيه، و هناك أيضاً مارس جهاده العلمى قراءه و كتابه ليلاً و نهاراً، و قلماً يتفق أن يكون له احتكاك بعامه الناس أو بعلماء المدينه، إلا فى وقت خاص و هو قريب من المغرب.

فقد سمعت منه رحمه الله عند ما سأله عن كيفيه اشتغاله فقال: كنت ابتدأ بالمطالعه و الكتابه من الساعه السادسه صباحاً إلى الساعه الثانيه عشر دون أن يطرأ على كسل أو ضجر، غير أنى أنوع عملى بين المطالعه و الكتابه.

فإذا كان هذا هو حال الأستاذين فيجب أن يكون من تربي فى أحضانهما مثلهما، إذ فى ناموس الخلقه أن يخطو التلميذ خطوات أستاذه.

٩. منهجيه التحقيق

نرى أن كثيراً من العلماء و الكتاب يبذلون جهودهم فى القراءه و الكتابه و لكن لا يتمكنون من استثمار جهودهم فتذهب سدى ادراج الرياح.

و أنما يكون التوفيق حليف من له منهجيه فى التحقيق، و هذه موهبه إلهيه.

و كان الشيخ المطهرى ممن رزقه الله ذوقاً خاصاً للتحقيق و تنظيم المذكرات و استثمارها فى مواقعها، على نحو لو قام أحد بنشر بعض مذكراته فى موضوع معين لأصبحت كتاباً دون أن يظهر فيه نقص.

هكذا كان شهيدنا الراحل و هكذا كان العلماء المحققون من ذوى المواهب الكبيره.

١٠. موسوعيته فى العلوم

إن كثيراً من العلماء يبذلون جهودهم فى تعلم فنّ خاص، و ليس لهم فى بقيه العلوم إلاّ حظ قليل.

و لكن فى المقابل يوجد أناس استثنائيون لهم فى كلّ علم حظ باهر، و الشيخ المطهرى كان من هذه الفئة، فهو متكلم بارع، و حكيم واع، و فى الوقت نفسه كان فقيهاً أصولياً صرف شطراً من عمره فى تحصيل دينك العلمين حتى برع و اجتهد، كما أنه كان له فى اللغة العربيه يد طوى حيث إنه يقرأ الكتب المؤلّفه فى السيره و التاريخ و الآداب و السياسه، كما أنّ له إماماً بالأدب العربى المعاصر.

فهو رجل موسوعى جامع لأغلب الفنون و العلوم، يتمتّع بحافظه و ذاكره قويه.

هذه إضاءات على أبرز ما تميّزت به حياه الشهيد الراحل الفكرية، و أمّا البحث عن خصائصه فى الجوانب الأخرى فهو موكول إلى وقت آخر.

فلنقتصر على ذلك و نرفع آيات الاعتذار عن التقصير فى البيان بما يستحقه شأنه و مقامه.

و العذر عند كرام الناس مقبول.

فسلام الله عليه يوم ولد و يوم استشهد و يوم يبعث حياً

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

١٠ ربيع الثانى من شهر عام ١٤٢٦هـ

ص: ٧١٥

١. ملاحظات حول ندوه الاهتمام بالسنة و سيره النبويه
٢. معاويه بن أبى سفيان فى الميزان
٣. رساله رئاسه شئون الحرمين الشريفين
٤. التأليف حول الفقه على ضوء المذاهب الستة
٥. رساله تأيينه بوفاه السيد محمد بن علوى المالكي
٦. تقدير و تقويم للجزء الأول من موسوعه الفقه الإسلامى
٧. توضيح حول قوله سبحانه: «فى ثبوت»
٨. صورته تقریظ لكتاب أصولی
٩. ملاحظات حول كتاب جمهوره القواعد الفقهيه فى المعاملات الماليه
١٠. مقال حول: القواعد الفقهيه للشيخ مرتضى الترابى
١١. ملاحظات الدكتور عبد الوهاب حول موسوعه طبقات الفقهاء و جوابنا

ملاحظات حول ندوه الاهتمام بالسنة و السيره النبويه

أقيمت في المدينه المنوره ندوه علميه حول الاهتمام بالسنة و السيره النبويه بتاريخ ١٥-١٧ ربيع الأول عام ١٤٢٥هـ، وقدم المعيتون بالسنة و السيره النبويه حوالى ثمانين مقالاً في مواضيع مختلفه تجمعها العنايه بهما.

وقد شارك في هذه الندوه أساتذه السنة و السيره من مختلف بلدان العالم الإسلامى، إلا أننا وللأسف-لم نجد بينهم عالماً شيعياً يعرض جهود محدثي الشيعة للحاضرين حتى يقفوا على دور الشيعة في تدوين السنة و السيره و مقدار الاهتمام بهما.

و كنا قد كتبنا إلى الصديق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان و طلبنا منه أن يبعث إلينا بمقالات المؤتمر، فقام مشكوراً بإرسالها، و حين وصولها إلينا فاطلنا على بعضها، و كتبنا حولها بعض الملاحظات التي تجدها في رسالتنا اللاحقه و التي أرسلناها إلى صديقنا المتفضل علينا حفظه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأستاذ الفاضل المحقق الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان دامت معاليه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يكون سيدنا العزيز في غاية الصحه و تمام العافيه، و أن يوفقه الله تبارك و تعالى لما يحبه و يرضاه.

وصلتنا رسالتكم الكريمه مشفوعه بالكتب التاليه: ١. تصوير مقاصد الشريعه للشيخ علال الفاسى. ٢. نظريه المقاصد للدكتور الريسونى، ٣. مجموع ما ألقى فى ندوه (السنة و السيره النبويه) و كان حافلاً بثمانين رساله قد قرأت بعضها، و سأقوم بقراءه الباقي إن شاء الله تعالى.

و الذى لفت انتباهى فى هذه الرسائل هو إصرار عدد من المحاضرين فى الندوه على حجيه الخبر الواحد فى العقائد و المعارف وراء حجيته فى الأحكام و الفروع العمليه. منهم: محمد بن جميل مبارك، و عامر بن حسن صبرى.

أقول: أمّا حجّيته فى الفروع و الأحكام فمميّا لا غبار عليها، إنّما الكلام فى حجّيته فى الأصول و العقائد، و الحق -وفاء للمحقّقين- عدم حجّيته فيها؛ و ذلك: لأنّ المطلوب من العقيد هو الإذعان القلبي، كما أنّ المطلوب من الشريعه هو العمل، فكأنّ الشريعه ثمره العقيد، و كلّ إنسان ينطلق فى سلوكه من عقيدته و إيمانه. و السلوك العملى و تطبيق الحياه على الحكم الشرعى ليس رهن الإذعان بصحّه الحكم الشرعى، بل ربّما يعمل به الإنسان أو يتركه مع الشكّ و التردد فى صحّه حكم ما، بشهاده أنّ جميع الأحكام الفرعيه ليست من القطعيات، بل هى

ص: ٧٢٠

بين مقطوع و مظنون بها، كما أنّ له تلك الحالة مع الظن بصحّة الحكم دون اليقين بها، لكن العمل و التطبيق في تناول الإنسان في أيّ وقت شاء، سواء أشك في صحّة الحكم أو ظنّ أو قطع بها.

و أمّا العقيدة بمعنى عقد القلب على شيء و أنّه الحقّ تماماً دون غيره- كما هو المطلوب في العقائد- فتختلف عن الأحكام الفرعية، فهي رهن أسس و مبادئ تقود الإنسان إلى الإذعان على نحوٍ لولاها لما حصلت له تلك الحالة و إن شاء و أصرّ على حصول اليقين. و أين خبر الواحد، من هذه الأسس و المبادئ التي تنتج العلم شاء الإنسان أم لم يشأ.

و بعبارة أخرى: العمل بالأحكام من مقوله الفعل و هو واقع تحت إرادة الإنسان، فربّما يعمل بما لا يجزم بصحته كما يعمل مع الجزم بها، و مثال ذلك أنّ أئمّه المذاهب الفقيهيه مختلفون في الآراء و المصيب منهم واحد، و مع ذلك فأتباع كلّ إمام يعملون بفقهه مع علمهم بخطئه إجمالاً في بعض الآراء لعدم عصمته.

و لكن الإذعان من مقوله انفعال النفس بالمبادئ التي تؤثر في طروء هذه الحالة على صحيفتها، و لو لا تلك المبادئ لما ترى له أثراً في الذهن.

يقول سبحانه: «لا إكراه في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» ١. ما ذا يريد الله سبحانه من هذه الجملة؟ يريد أنّ الدين (العقيدة) لا يمكن أن يتعلّق به إكراه؟! لأنّه من شئون القلب الخارجة عن قدره، تماماً كالتصورات الذهنيه، و إنّما يتعلّق الإكراه بالأقوال و الأفعال التي يمكن صدورها عن إرادة القائل و الفاعل.

إنّ الدين و هو سلسله من المعارف العلميه التي تتبعها أخرى عمليه،

يجمعها أنها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية والأفعال والحركات البدنية المادية.

وأما الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً.

فما ادّعاء أعداء الإسلام من: «أن الإسلام قام بالسيف والقوه» ما هو إلا ادّعاء فارغ يجانب العقل، لأن السيف لا يؤثر في العقيدة والإدعان وإن كان يؤثر في تطبيق العمل وفق الشريعة.

وعلى ضوء ذلك قال المحققون بحجيه خبر الواحد العادل في الأحكام العملية دون الأصول والعقائد، لأنه لا يفيد العلم واليقين الذي هو أساس العقيدة إلا إذا احتفّ بقرائن خارجيه تورث العلم والجزم، وما هذا إلا لأن المطلوب في الأحكام هو العمل، وهو أمر اختياري يقوم به الإنسان حتى في حالتي الشك والتردد في صحه الحكم.

وأما الأصول والمعارف فالمطلوب فيها عقد القلب والإدعان على نحو يطرد الطرف النقيض بإحكام، والخبر الواحد بما هو هو وإن كان الراوى ثقّه خصوصاً إذا كان بعيداً عن مصدر الوحي -لا- يورث إلا الظن، وهو لا يغنى في مجال العقيدة عن الحق شيئاً. ومن عجيب الكلام أنّ المحاضرين ادّعى أنّ خبر الواحد، يفيد العلم (ذكره محمد بن جميل في رسالته، ص ٤٤، و عامر بن حسن في ص ٩) و كأنّ الكاتبين خلطوا بين الحجيه وإفاده العلم و شتان بينهما و كون الظن حجه، لا يعنى قطعيه مدلوله، بل كون العمل به مبرئاً للذمه.

و فى الختام اعتذر إليكم عن طول الكلام فى المقام، فإنّ الباعث لذلك هو حبى و تقديرى لكم انطلافاً من قول النبى الكليم حيث أطال فى الجواب عند ما سأله البارى عمّا فى يده فقال: «هِيَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَیْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَی غَنَمِى وَ لِى فِیْهَا مَا رَبُّ أُخْرَى».

و هذه الرساله مرفقه بالكتب التاليه:

١. فقه الرضاع، ٢. أحكام السفر، ٣. السيره المحمديه، ٤. الأمثال فى القرآن الكريم.

و فى الختام نرجو القبول مع فائق الاحترام و لكم منّا جزيل الشكر.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم المقدسه مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

السادس عشر من جمادى الأولى ١٤٢٥هـ

ص: ٧٢٣

معاويه بن أبى سفيان فى الميزان

قام الشيخ يوسف القرضاوى حفظه الله فى بعض خطب صلاه الجمعه بالدفاع عن معاويه بن أبى سفيان.

وقد كتبنا إليه رساله ألفتنا نظره فيها إلى عدم ضروره طرح مثل هذه المواضيع و المسلمون فى هذا الوقت يعانون ما يعانون من ظلم و إباده، كما ألفتنا نظره إلى أنّ مواقف معاويه فى حياته و التى يذكرها التاريخ لا تؤهله لأن يدافع عنه أحد.

ولما وصلت الرساله إلى يد العلامه عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله كتب رساله يوصينا فيها بترك التعرض إلى الصحابه.

وقد أجبنا عن هذه الرساله بجواب يوضح موقفنا من الصحابه.

و إليك قارئنا الكريم تلك الرسائل الثلاث:

ص: ٧٢٤

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نشتم جهودكم العلميه و ما قدمتموه للأمة الإسلاميه من تأليف و آثار قيمه فى مختلف المجالات.

نسأل الله سبحانه و تعالى أن يأخذ بيدكم لما يحب و يرضى و يوفقكم لصالح الأعمال، كما نشتم مواقفكم الإيجابيه فى مسأله التقريب و الوحده بين المذاهب الإسلاميه.

و لكن ذلك لا يمنعنا من الإشاره إلى بعض الكلمات التى صدرت عنكم فى بعض المناسبات.

١. قد طرحتم إيمان سيد الأباطح أبى طالب و قلتم إنه مات كافراً، مع أن أفعاله و أعماله طيله عشر سنين فى مكه المكرمه، و قصائده الفاخره، تشهد على أنه مات مؤمناً، و عاش كعيشه مؤمن آل فرعون، و قد أرسلنا إليكم رساله حول هذا الموضوع سابقاً، و ركزنا على أن المسأله ليست من الضروريات حتى تطرح من على المنابر.

٢. قرأنا فى إحدى الصحف دفاعكم عن معاويه بن أبى سفيان فى خطبه صلاه الجمعه.

و لنا أن نتساءل:

ما هى جدوى الانتصار لمعاويه فى هذه الأيام التى تتعرض فيها الأمة الإسلاميه إلى تحديات كبيره و هجمات شرسه؟! و نتطلع فيها إلى تقديم فهم

ص: ٧٢٥

صحيح للإسلام، و تصوّر واضح لمفاهيمه و أفكاره، و موقف سليم و جرىء إزاء قضاياها و رجاله و شخصياته، يُتحرى في كلّ ذلك الحق، و يُلتزم فيه بالموقف الشرعى و الأخلاقى، بعيداً عن التأثيرات العاطفيه، و القناعات الّتى ربما نشأت على أساس من المفاهيم المغلوطة و المعلومات المزيّفه.

هل خلا تاريخنا الإسلامى من رجالٍ تبّنوا الإسلام شعاراً و هدفاً و منهجاً و سلوكاً، و استرخصوا الأرواح و الدماء فى سبيله...؟! هل خلا- من هؤلاء حتّى يُعمد إلى مثل معاويه ليعث من بين هذا الركام الهائل من الخطايا و الأخطاء من أجل أن يُبرأ و يلّمع وجهه البشع؟! فهذا علىّ و الأهازيج باسمه

لا أدرى ما ذا يقتبس (جيل النصر المنشود) الّذى يسعى الأستاذ القرضاوى إلى صنّعه، من معاويه الّذى ناوأ الحقّ، و ناجز الهدى، و أراق دماء الصالحين، و أشاع السبّ و اللعن، و أدنى الانتهازيين و النفعيين و أصحاب القلوب المريضة الذين آثروا الحياه الدنيا على الّتى هى خير و أبقى؟!!

هل يُرجى من جيل النصر المنشود إذا زُيّنت له صورته معاويه و اقتدى به و اقتفى آثاره، أن (تتحقق على يديه الآمال و تستحيل الهزائم و النكسات إلى انتصارات، و ينتقل من الغوغائيه إلى العلميه، و من التشاحن إلى التعاون) على حدّ تعبير الدكتور القرضاوى؟!!

إنّ معاويه لم يرحل عن دنياه المظلمه بالفتن و الأحقاد و المكر و الاستبداد

حتى ختمها بجريمه كبرى لا تُغتفر استجابته لنزعه شريره و أهواء مُضللّه، عبّر عنها بقوله: «لو لا هواى فى يزيد لأبصرت طريقى».

و نحن نسأل الداعيه الكبير و صاحب الروح الشفافه الأستاذ القرضاوى: هل من الحقّ إسدال الستار على مقترف هذه الجريمه النكراء المتمثله بتسليط يزيد الفجور و الخمور على رقاب المسلمين؟ و ارتكابه تلك المجازر الوحشيه بقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أهل بيته و أصحابه، و سفك دماء المسلمين فى وقعه الحرّه و انتهاك حرمتهم و أعراضهم؟! و نوّد أن نذكر هنا بعض ما ورد فى حقّ قائد الفئه الباغيه معاويه:

قال الذهبى: و قتل عمار مع على، و تبيّن للناس قول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تقتله الفئه الباغيه. (١)

قال محقق الكتاب المذكور: و هو حديث صحيح مشهور بل متواتر، و لما لم يقدر معاويه على إنكاره، قال: إنّا قتله الذين جاءوا به، فأجابه على عليه السلام، بأنّ رسول الله إذن قتل حمزه حين أخرجه، و هذا منه إلزام مفحم لا جواب عنه، و حجه لا اعتراض عليها.

و روى مسلم فى صحيحه عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاويه بن أبى سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب؟ فقال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فلن أسبّه. لأنّ تكون لى واحدهً منهنّ أحبّ إلّى من حُمُر النعم. سمعتُ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول له، و قد خلفه فى بعض مغازيه، فقال له علىّ: يا رسول الله، خلفتني مع النساء و الصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من

ص: ٧٢٧

موسى، إلا أنه لا نبؤه بعدى».

و سمعته يقول يوم خيبر: «لأعطينَ الزَّايه رجلاً يحبُّ الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله»، قال: فتطاولنا لها فقال: «ادعوا لى علياً»، فأتى به أرمداً فبصق فى عينه و دفع الزَّايه إليه، ففتح الله عليه.

و لما نزلت هذه الآيه «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ» ١ دعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علياً و فاطمه و حسناً و حسيناً عليهم السلام فقال: «اللَّهُمَّ هؤُلاءِ أهلى». (١)

و قال ابن أبى نجیح، قال: لما حجَّ معاويه طاف بالبیت و معه سعد، فلما فرغ انصرف معاويه إلى دار الندوة فأجلسه معه على سريره، و وقع معاويه فى عليّ، و شرع فى سبه، فزحف سعد ثم قال: أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سبِّ عليّ، و الله لأن يكون لى خصله واحده من خصال كانت لعلى أحبَّ إلىّ من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس.

إلى آخر الحديث، و فيه من قول سعد: و أيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت.

و نهض. (٢)

لقد بدّل معاويه الخلافة الراشده إلى ملك عضوض، و أخذ البيعه لابنه يزيد على كره من أهل الحلّ و العقد و تحت بوارق الإرهاب و أطماع أهل الشره و الشهوات، و قد حجّ فى سنه خمسين و اعتمر فى رجب سنه ٥٦، و كانت الغايه من السفرين أخذ البيعه من المهاجرين و الأنصار لولده يزيد، و قد دار بينه و بين أهل الشرف و الكرامه من الجيلين كلمات يقف عليها من قرأ التاريخ.

ص: ٧٢٨

١ - ٢). صحيح مسلم: ١١٩٨، كتاب فضائل الصحابه، باب من فضائل على بن أبى طالب عليه السلام، الحديث ٦١١٤، دار الفكر، بيروت - ١٤٢٤هـ.

٢ - ٣). مروج الذهب: ٢٤/٣؛ [١] البدايه و النهايه: ٨٣/٨ [٢] حوادث سنه ٥٥هـ.

و لا نذكر من ذلك شيئاً، لأنه في تناول الجميع، وقد وقف على ذلك الأصم و الأَبكم حتى الغربيون.

قال السيد محمد رشيد رضا في المنار: قال أحد كبار علماء الألمان في الأستانه لبعض المسلمين و فيهم أحد شرفاء مكة:

إنّه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاويه بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين)، قيل له: لما ذا؟ قال: لأنه هو الذي حوّل نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، و لو لا ذلك لعم الإسلام العالم كلّه، و لكننا نحن الألمان و سائر شعوب أوروبا، عرباً مسلمين. (١)

أليس هو الذي قتل الأبرياء من صحابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و غيرهم مثل حجر بن عدى و أصحابه و عمرو بن الحمق الخزاعي و شريك بن شداد الحضرمي و غيرهم، و قد كان أصحابه «أشداء على الكفار رُحماء بينهم». ٢
و لم يكن لهم أي ذنب سوى أنّهم كانوا من أصحاب علي عليه السلام و محبيه.

و في هذا الصدد كتب الإمام الطاهر الأبّي الضيم الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام رساله إلى معاويه، قال فيها:

«أ لست قاتل حُجر و أصحابه العابدين المخبئين الذين كانوا يستفظعون البدع، و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر؟! فقتلتهم ظلماً و عدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظه و العهود المؤكّده جرأه على الله و استخفافاً بعهده.

أ و لست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت و أبلت وجهه العباده، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العُصم نزلت من شعف الجبال؟

ص: ٧٢٩

أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد: إنه على دين علي كرم الله وجهه. ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله وسلم الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولو لا ذلك كان أفضل شرفك و شرف آبائك تجشم الرحلتين: رحله الشتاء و الصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منه عليكم». (١)

نعم قام غير واحد من المغفلين بتبرير أعماله بالاجتهاد حتى أثبتوا له أجراً، معتمدين على القول المعروف: للمصيب أجران و للمخطئ أجر واحد. وقد عزب عنه أنّ هذا لو صحّ فإنّما هو للاجتهاد المعتمد على الكتاب و السنّه الذي هو رمز بقاء الدين و سرّ خلوده لا الاجتهاد في مقابل الأدلّه الشرعيه.

فوا عجباً أ يُكتب الأجر لمن سنّ سب المرتضى عليه السلام صنو النبي و أخيه الذي لم يفارقه منذ نعومه أظفاره إلى أن التحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى!؟

و لله درّ الشاعر المبدع الأستاذ محمد مجذوب، القائل في قصيدته العصماء: أين القصور أبا يزيد و لهوها

نازعته الدنيا ففزت بوردها

ص: ٧٣٠

١ - ١). الإمامه و السياسة: ١/١٦٠؛ [١] جمهره خطب العرب: ٢/٢٥٥، رقم ٢٤٦.

و لعلّ في هذه الكلمات القصيره التي هي غيظ من فيض و قليل من كثير تذكره للأستاذ المعظم. و دتمم موفقين.

جعفر السبحاني

قم المقدسه- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

العاشر من جمادى الأولى ١٤٢٤هـ

و لما وصلت هذه الرساله إلى يد العلامة الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان كتب إلينا الرساله التاليه يوصينا بإيقاف البحث عن الصحابه، و إليك نصّها و جوابنا عنها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه العلامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

فأسأل المولى جلّ و علا- لسماحتكم دوام الصحه و السعاده. أشكر لسماحتكم تفضّلاتكم العديده، و هداياكم الثمينه من المؤلفات القيمه التي هي أعلى من كلّ شيء عدا ما بعثتموه لى من خيرات البلد الشقيق إيران صانها الله من كلّ مكروه.

سیدی: كما يقول الشاعر (لعل له عذراً و أنت تلومه).

أمّا عن خطابكم الأوّل فقد وصلنى مع ما بعثتموه لى و كنت قد عزمت

ص: ٧٣١

على السفر في اليوم بعد وصول خطابكم الكريم، ولما عدت إلى الوطن تسلّمت خطابكم الثاني، وقد ضمّتموه طلب إرسال كتاب التحصيل، وقد بحثت عنه في مكتبات مكة المكرمة فما وجدته، وكلفت بعض الإخوة من أصحاب المكتبات للبحث عنه في مدن المملكة، وكنت دائم التردد عليه لِحُثّه على حضوره، وقد أحضره لى الأسبوع الماضي، وكنت خارج مكة المكرمة لمدة أسبوع وها أنا ذا سعيد بحصول طلبتكم، هذا هو سبب تأخر إجابتى على خطايكم الكريمين. شكر الله عنايتكم واهتمامكم.

سيدى: تأملت رسالتكم للشيخ القرضاوى، وما جاء من قضايا علميه سطرها قلمكم الرفيع.

بخصوص خبر الواحد وما شرحتم حوله فرأيكم الذى عرضتموه هو رأى علماء أهل السنّه و الجماعة بالنسبه للعقيده و الأخذ به فى الفروع فقط.

أما موقفكم من بعض صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالواقع أنّنا ونحن نسعى للتقريب بين المذاهب أليس الأولى والأجدر بنا أن نتمثل الآية الكريمة «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَيْتُمْ وَ لَكُمْ مَا كَسَيْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، وقد كررها المولى جلّ و علا فى موضعين متقاربين من سوره البقره، ولا أريد أن أذكركم و أنتم الأعلم بقوله تعالى: «وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا» الآية.

سيدى: إنّ الكف عن التعرض لصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم ممن سبقونا هو أدب القرآن، وهو بدايه التقريب الصحيح، ولا- أريد أبيض و أسهب فى هذا الأمر، فإنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كافه اختارهم المولى جلّ و علا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وما هى ثمره محاكمتهم، وقد انتقلوا إلى الدار الآخرة و الله يتولى

حساب الجميع؟

و أسرتنى فى خطابكم الثانى عبارته (ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا) هذا صحيح، و أسأل الله عزّ و جلّ أن يزيل أسباب الفرقه التى مزقتنا و يحقق الألفه، و الحقّ لا شكّ أبلج.

سيدى: أطلت عليكم فمعدره إليكم و لسماحتكم و من حولكم خالص المحبه و التقدير و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته.

المخلص

عبد الوهاب أبو سليمان

١٤٢٥/٧/١٢هـ

ص: ٧٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه الأستاذ الفذ الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يحفظكم من كل سوء، و يوفقكم لما يحبه و يرضاه.

وصلتني رسالتكم الكريمة المؤرخه ١٤٢٥/٧/١٢هـ وفيها عظه و نصيحه من أخٍ لأخيه الذي لم يزل يسمع لكلامكم بشوق و قبول و ينظر إلى رسائله نظر الظامئ إلى الماء و الصائم إلى الهلال.

و لكنني أستجيزكم في أن أعرب عن عقيدة الشيعة الإماميه في صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و هي عقيدة معتدله بين الإفراط و التفريط، و هي أنّ منزله الصحابه كمنزله التابعين، و قد أخذ المسلمون عقيدتهم و شريعتهم عنهم جميعاً، و التفكيك بين الطائفتين يحتاج إلى دليل.

إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا باستمرار يدعون للصحابه و يترضون عليهم، فهذا هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه مدح أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قائلاً: «أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، و قرءوا القرآن فأحكموه، و هيجوا إلى القتال فولهوا و له اللقاح إلى أولادها، و سلبوا السيوف أغمادها، و أخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، و صفاً صفاً، بعضٌ هلك، و بعضٌ نجا، لا- يُبشرون بالأحياء، و لا- يُعزّون بالموتى، مُرّة العيون من البكاء، خمصُ البطون من الصيام، دُبل الشفاه

ص: ٧٣٤

من الدعاء، صُفِرَ الألوان من الشَّهر، على وجوههم غبره الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحقَّ لنا أن نظمًا إليهم، ونعصَّ الأيدي على فراقهم». (١)

و هذا هو الإمام علي بن الحسين عليه السلام المعروف بالإمام السجاد، يخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أدعيته في الصحيفة السجادية و يقول: «اللهم و أصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبه، و الذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، و كانوا و أسرعوإلى وفادته، و سابقوا إلى دعوته، و استجابوا له... إلى آخر دعائه». (٢)

هؤلاء أئمتنا و أئمة المسلمين و هم القدوة و الأسوة، و قد اقتفينا أثرهم في التقريب و التأليف بين الأمم بتأليف كتاب باسم «موسوعه طبقات الفقهاء» في ١٦ جزءاً ذكرنا فيه من يؤخذ عنهم الفتيا من الصحابه و التابعين.

ثم ذكرنا فقهاء الطوائف الإسلاميه المختلفه، و ذكرنا تراجمهم و مؤلفاتهم و مكاتبتهم العلميه من دون نظر إلى طائفه دون أخرى، فتجد فيهم الحنفي و الشافعي و المالكي و الحنبلي في جنب الزيدي و الإسماعيلي و الإمامي.

هذا يا شيخنا الجليل حفظك الله و رعاك، فنحن من دعاه التقريب لا التفريق و كتبنا الفقيهيه تشهد على ذلك، فنحن نذكر فيها آراء الفقهاء المسلمين، و نقد جهود كل مسلم يسعى لملء الفراغ و تقريب الخطي، و هتافنا كل يوم: «قاربوا الخطي أيها المسلمون».

و مع ذلك كله فليس لنا ترك دراسه حياه الصحابه على ضوء القرآن و السنه و التاريخ الصحيح اقتداءً بالذكر الحكيم و السنه النبويه و سيره المسلمين، فدراسه

ص: ٧٣٥

١- ١). نهج البلاغه، الخطبه ١٧. [١]

٢- ٢). الصحيفة السجادية، الدعاء رقم ٤. [٢]

حياه رجال المسلمين شيء و بخس حقوقهم و الإساءه إليهم شيء آخر.

إنّ إيقاف البحث و الدراسه حول الصحابه يستلزم تعطيل قسم من الآيات النازله في حقهم، كما يستلزم تعطيل بعض السنّه النبويه التي تهتم بشؤونهم و حياتهم.

كما أنّ ذلك يستلزم إغلاق صحائف التاريخ، مضافاً إلى أنّها على خلاف سيره الرائج بين المسلمين.

و أمّا ما ذكرتم في رسالتكم الكريمه الغاليه أنّ: «الأولى بنا أن نتمثّل الآيه الكريمه: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و قد كررها المولى جلّ و علا في موضعين متقاربين من سورة البقره...». إلى آخر ما تفضلتم به شكر الله مساعيكم.

أقول: لا- شك أنّ هذه الآيه قد وردت في الذكر الحكيم- كما ذكرتم في موضعين متقاربين- و لكن لا صلّه لها بما تبنيتم، فإنّ الآيه بصدّد نقد ما يقع في أذهان بنى إسرائيل من أنّهم ينتفعون بما لسلفهم من المكانه و يسعدون يوم القيامه بمجرد الانتساب إليهم، فبين الله سبحانه في هذه الآيه أنّ سنّته في عباده أنّ الإنسان لا يجزى إلاّ بكسبه و عمله و لا يسأل إلاّ عن كسبه و عمله.

و قد جاء هذا المضمون في سورة النجم قال سبحانه: «أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَىٰ * أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وِزْرًا أُخْرَىٰ * وَ أَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ». (١)

فالآيه في كلا المقامين ناظره إلى بنى إسرائيل، و غايه ما يمكن هو إلغاء الخصوصيه و شمولها بمناطقها للأُمَّه الإسلاميه، و نحن معترفون بأنّ كلّ إنسان

ص: ٧٣٦

مسئول عن عمله و لا- يُسأل عن أعمال الآ-خرين يوم القيامة، يوم يضع سبحانه الموازين القسط، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون و من خفّت موازينه فأولئك هم الخاسرون.

و أما دراسه أحوال الأمم السالفه من الصحابه إلى التابعين و تابعى التابعين إلى يومنا هذا على ضوء الذكر الحكيم و السنّه النبويه و التاريخ الصحيح، فليس هذا ممّا تمنع عنه الآيه الكريمه، إذ ليس معنى الدراسه أنا نتحمل مسئوليّه أعمالهم، بل بمعنى تقديرهم و تكريمهم و إعطاء كلّ ذى حقّ حقّه، و الناس معادن كمعادن الذهب و الفضة.

فلو كان معنى قوله: «لا- تُشِئُلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» هو تركّ التعرض لأحوال السلف و حياتهم، لزم إخراج المعاجم الرجاليه و التاريخيه من المكتبات، لأنّ الجميع يهتم بشئون السلف مبتدئاً من الصحابه إلى التابعين ثمّ تابعى التابعين إلى يومنا هذا.

و لا- أظن أنّ قائلاً- يخصّ قوله: «لا- تُشِئُلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» بخصوص الطبقة الأولى- أعنى الصحابه- دون التابعين و من جاء بعدهم.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

ص: ٧٣٧

رساله إلى رئاسه شؤون الحرمين الشريفين رئاسه شؤون الحرمين الشريفين

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه العالم الجليل الشيخ صالح بن عبد الرحمن المحترم - دامت معاليه -

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يوفقكم لما فيه مرضاته، ويسدّد خطاكم، على طريق تحقيق الوحده الإسلاميه إنّه على ذلك قدير.

تقديراً لأخلاقكم الساميه و عزيتمكم الصادقه فى تقريب الخطى بين المسلمين أهدى إليكم الجزء الأول من كتاب الحجّ و هو جزء من محاضراتى فى الفقه المقارن فى الحوزه العلميه، و نظره الثاقبه فى المسائل المعنونه تكشف عن أنّ المشتركات بين الفريقين أكثر من غيرها، و ما أصدق قول القائل: «ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا».

أرجو من الله سبحانه لفضيلتكم الصّحه و العافيه و السعى وراء الصالح العام للمسلمين.

و دتمم سالمين للإسلام و أهله

و السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

جعفر السبحانى

قم المقدسه مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

الحادى عشر من جمادى الآخره ١٤٢٥هـ

ص: ٧٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سماحه العلامة التحرير الفقيه المحقق الشيخ جعفر السبحاني

دام علاه

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

و أدعو الله أن يديم عليكم نعمه الصحه و العافيه، و قد تلقيت رسالتكم اللطيفه بتاريخ ١١ جمادى الثانيه ١٤٢٥هـ و معها هديتكم القيمه «الحجّ في الشريعه الإسلاميه الغراء» و لا- شكّ كما تفضلتم بأنّ عباده الحجّ تتميز بكثره مسائلها و تشعب فروعها و أكثر مسائلها غير مأنوس و لا- متكرر، كما لا أشك أنّ هذا الكتاب القيم و إن لم تتح لي قراءته بعد، فإنّه ينطبق عليه الوصف (وافر المقاصد جم المطالب) كيف لا و هو تحرير عالم واسع الاطلاع عميق التفكير صبور على مكابده البحث، حريص على ما يجمع و لا يفرق.

و كما دعا السيد المحقّق البروجردى فأنى أدعو الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين و يجعلهم يداً على من سواهم و يوجههم إلى أن يعملوا بقوله تعالى: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا» و أن يجزيكم على ما قدمتم عظيم الأجر و الثواب.

أكرر شكرى لكم و تقبلوا لائق التحيه و السلام من أخيكم.

صالح بن عبد الرحمن الحصين

فى ١٤٢٥/٧/٦هـ

ص: ٧٣٩

إشاره

رساله أرسلناها إلى أحد الأشراف فى الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

الفاضل الفقيه صاحب الموسوعه الفقيهه حفظه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه الصحه و العافيه لكم و لمن حولكم من الأعزاء.

أخبرنى الصديق العزيز الأستاذ «رضوانى» حفظه الله أنّ جنابكم بصدد تأليف كتاب حول المذاهب الإسلاميه، مضيفاً إلى المذاهب الأربعة المذهب الإمامى و المذهب الزيدى.

فسررت بسماع ذلك فكيف بمشاهدته إن شاء الله تعالى، و هو خطوه كبيره على طريق التقريب بين المذاهب الإسلاميه.

إنّ الفقه الإسلامى ثروه كبيره تركها فقهاء الإسلام جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القمه من الكمال و هو بحمد الله مستعد لحلّ الأزمات القانونيه التى يعانى منها الغرب و الشرق.

و قد أرسلنا إليكم عن طريق الصديق كتاب «الإنصاف فى مسائل دام فيها

ص: ٧٤٠

الخلافة» في أجزائه الثلاثة، و الّذى يتناول المسائل الفقهيّة الّتى اختلف فيها الفريقان تماماً و طرحنا هناك أدله المذهب الإمامى فليكن هذا مساهمه صغيره فى مشروعكم السامى.

و الّذى اقترحه عليكم هو أن تتخذوا مساعداً فى تدوين هذا المشروع خصوصاً بما يتعلق بالمذهب الإمامى و الزيدى ليركزوا على الرأى السائد بينهم لا على كتاب خاص، و هذا أمر تخصصى لا يقوم به إلاّ الأمثل فالأمثل فى حق الفقه الإمامى.

و ختاماً أسألکم الدعاء فى مواقع إجابته خاصه فى الحرم النبوى الشريف سلام الله على صاحبه سلاماً لا نهايه له و لا أمد.

و السلام عليكم و رحمه الله بركاته

جعفر السبحانى

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم- ایران

۱۸ ذى القعدة الحرام عام ۱۴۲۵هـ

ص: ۷۴۱

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه آيه الله الشيخ جعفر السبحاني دام ظله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

من جوار قبر المصطفى و أهل بيته الأطهار أئمه الهدى فى بقيق الغرقد عليهم الصلاه و السلام. و تلك الروضه الشريفه و القبه الخضراء، و ذكريات الرعيل الأول من بيت النبوه حيث بيت النبى الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم و دار الزهراء و زوجه الإمام المرتضى ابن عم المصطفى و محله الهاشميين و انطلاق الدعوه و هم منع الرساله و معدن الحكمه، الشجره اليانعه التى أحكمت عروقها، فصلى الله على محمد و آل محمد و عجل فرجهم.

بهذه العبارات بدأت هذه الرساله و تلك المعانى التى يجهلها كثير من المسلمين و لا يعرفون حقيقه الأمر، فأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يرزقنا و إياكم محبه نبيه و أهل بيته الخالصه إلى يوم الدين.

لقد سعدت كثيراً برسالتكم التى سلّمنى إياها الأستاذ رضوانى - حفظه الله - و تمعنت بها و قد كانت دافعاً و تشجيعاً كبيراً للاستمرار فى العمل على إخراج

موسوعتي الفقيهيه على المذاهب المشتهره، و أقول: و لو أننا لم نلتقى من قبل لكنى أعرفك جيداً ولى بك صله و ثيقه ممّا تعلمته من مؤلفاتك النافعه و موسوعاتك الدينيه الّتى وصلت إلى أيدينا و عرفتنا كثير من الحقائق، و منها أحبنا الشيخ السبحانى ذلك العلامه الّذى أغنى المكتبه الإسلاميه بالمؤلفات النافعه، و هو إضافه إلى ذلك يعد فى مقدمه علماء العصر.

سماحه الشيخ أود أن أوضح لكم أنّ عملى فى الموسوعه يعتمد على أصول الكتب، و هو بصفه مبسطه إلى جميع طبقات المجتمع، فقد اعتمدت على أمّهات الكتب لأصول المذاهب، و قد أضفت أخيراً إلى المذاهب الستة المذهب السابع الإسماعيلى لتقاربه فى كثير من الأحكام و العبادات و المعاملات مع المذاهب الستة، و إننى على عجل أكتب لكم هذه الرساله و سوف أثقل عليكم قليلاً بأننى حال انتهائى من الكتاب سوف أرسله لكم لأتشرف بمراجعتكم و وضع الملاحظات ان وجدت.

على كلّ حال أؤكد لكم مدى سعادتى بالتخاطب معكم و أتمنى أن يكتب الله لكم الزياره للمدينه المنوره فى موسم العمره لتتشرف بخدمتكم سائلاً المولى أن يحفظكم من كلّ سوء، و أوصيكم ان لا تنسونى من الدعاء فى الخلوات و الجلوات و صلّى الله على محمد و آل محمد.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

١٤٢٥/١٢/١٨ هـ

يوم الغدير و عيد الولاية

ص: ٧٤٣

رسالة تأيينية بوفاه السيد محمد بن علوى المالكى

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه العالم الجليل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان حفظه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

و بعد أرجو من الله سبحانه أن تكونوا فى سرور و حبور و صحه و عافيه و عز و كرامه.

أدام الله ظلكم و حفظكم من كل سوء و مكروه.

استلمنا بكل تكريم و تبجيل تهنتكم الخالصه بحلول عيد الفطر السعيد الذى جعله الله سبحانه عيداً للمسلمين كافه.

و فى الوقت الذى نعرب عن شكرنا و سرورنا بذلك، نهنتكم بهذه المناسبه المباركه، و ندعو الله تبارك و تعالى العزه للمسلمين و الأمن و السلام لبلدانهم، و رفع رايه الإسلام خفاقه.

و نقدم أحر تحياتنا و أخلص تبريكاتنا لمن حولكم من الأعضاء الكرام و ننتهز هذه الفرصه بتقديم التعازى بمناسبه رحيل علامه السيد محمد بن علوى المالكى ذلك الرجل الصامد بوجه الباطل الذى لم تأخذه فى الله لومه لائم.

و كنا قد أرسلنا رساله مواساه إلى بيته الرفيع و إليكم نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أسره العلم و الشرف بيت السيد محمد بن علوى المالكى

دام عامراً بالعلم و التقى

ببالغ من الحزن و الأسى تلقينا نبأ وفاه العالم الجليل الدكتور السيد محمد بن علوى المالكى رحمه الله و حشره مع أجداده الطاهرين.

لقد كان المغفور له مثلاً للصالح و أنموذجاً للخلق السامى، و قد عشنا معه فتره قصيره فى أحد المؤتمرات القرآنيه عام ١٤٠٠هـ فى مكه المكرمه فوجدناه إنساناً مثالياً يتمتع بسعه الصدر، و تعرّفنا عليه من خلال آثاره الخالده و بطولاته العلميه، و وقوفه أمام الأفكار الزائفه.

نقدم أحرّ التعازى إلى أسره الفقيد، و على رأسها أخوه الأستاذ الفاضل السيد عباس بن علوى المالكى المحترم راجين من الله سبحانه أن يرزق الجميع الصبر الجميل و الأجر الجزيل.

كما ندعوه سبحانه أن يلم شعث المسلمين، و يوحد كلمتهم، و يدفع عنهم شر الأعداء بمنه و كرمه.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم-إيران

١٩ رمضان المبارك ١٤٢٥هـ

ص: ٧٤٥

و قد بعثنا هذه الرساله عن طريق السفاره، و نتمنى أن تكون قد وصلت إلى بيته الرفيع.

و نحن إذ نستشعر الخساره الفادحه على المملكه و الأُمه الإسلاميه، فإننا نؤكد ايماننا و تسليمنا بقضاء الله و قدره، كما نؤكد على حاجه الأُمه الإسلاميه لاستمرار نهج الفقيه الراحل فى الانفتاح على الطوائف و الاهتمام بوحده الأُمه الإسلاميه تغمده الله بواسع رحمته و مغفرته.

و ختاماً نتقدم لكم بالشكر و الامتنان.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

مخلصكم

جعفر السبحانى

٤ شوال ١٤٢٥هـ

ص: ٧٤٤

تقدير و تقويم للجزء الأول من موسوعه الفقه الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخوان الأعزاء فى دائره معارف الفقه الإسلامى

طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

استلمنا بيد التكریم و التبجيل قبل يومين الجزء الأول من موسوعه الفقه الإسلامى، بواسطه أحد الإخوه.

نشكر الله سبحانه الذى قيض جماعه من ذوى الهمم العالیه لإخراج هذه الموسوعه إلى المكتبه الإسلاميه.

كما وفقهم من ذى قبل لإخراج معجم كتاب الجواهر و أخيراً تعجيم الكتب الفقيهيه للشيخ الطوسى... هذه الموسوعات الكبيره التى سيكتب لها الخلود و البقاء عبر القرون إن شاء الله تعالى.

و ندعو الله سبحانه تبارك و تعالى أن يديم توفيقه للقائمين بهذا العبء الثقيل حتى تتم الموسوعه، بخروج الجزء الأخير منها.

و هذا لا يمنع من أن نشير إلى بعض الملاحظات الجزئيه التى لا تنقص من قيمه الكتاب:

الأولى: استدل (فى صفحه ٢٢) على أن الكتاب و السنه يفيان بكلّ ما يحتاجه الإنسان فى حياته بقوله سبحانه: «ما فرطنا فى الكتاب من

و الظاهر أنّ (الكتاب) الوارد في الآية هو الكتاب التكويني لا التشريعي، و يدلّ على ذلك قوله سبحانه في نفس الآية: «و ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ».

فالبحت عن الدابة و الطير و وصفهم بأنّها أمم، قرينه واضحه على أنّ المراد من الكتاب هو الكتاب التكويني.

الثانيه: جاء لفظ «لا- سيما» في المقدمة في غير واحد من المواضع مجرداً عن لفظ «لا» مع أنّ الفصيح هو «لا- سيما» و لا تستعمل «سيما» منفردة إلاّ في كتب المتأخرين غير العرب كثيراً....

الثالثه: ذكرت (في صفحہ ٤٩) أنّه مرّ فقه أهل البيت عليهم السلام على أيدي فقهاء هذه المدرسه في عصره الثاني بمراحل عديده من الانطلاق و التطور و الكمال يمكن بيانها ضمن الأدوار التاليه:

١. دور التأسيس... و قلت من أهمّ فقهاء هذه المرحله محمد بن يعقوب الكليني (المتوفى ٣٢٩هـ).

و لكن الظاهر أنّ مبدأ هذا النوع من التأليف يرجع إلى عصر الإمام الهادي و العسكري عليهما السلام، و في طليعه هؤلاء الفضل بن شاذان (المتوفى ٢٦٠هـ) صاحب كتاب الايضاح (و هو مطبوع)، فمراجعتة يعلم مدى نضوج الفقه الإمامي في عصره.

و على ذلك فمن تخرج على يده أقدم من الكليني و الصدوقين و لا- نناقش في سائر الأدوار، إلاّ ما سمّيتم الدور الرابع دور التطرف، فهذا التعبير القاسي لا يناسب ما بذله فقهاء هذا العصر في تطوير الفقه و تنقيحه من حيث الدلاله

و المسانيد...على أنّ فقهاء هذا الدور غير منحصرين بالأردبيلى و تلميذيه، فإنّ المحقق الثانى (المتوفى ٩٤٠هـ) و الشهيد الثانى (المتوفى ٩٦٥هـ) و غيرهما ممن تخرج على يديهما من فقهاء هذا الدور.

إلاّ أن يكون المقصود تخصيص هذا الدور بأشخاص ثلاثه هم الأردبيلى و تلميذيه، فتكون تسميته دوراً للفقّه الإمامى غير صحيحه.

و هناك اقتراح آخر و هو الرجوع إلى الأدوار الستة التى قمنا ببيانها فى القسم الأوّل من مقدّمتنا لموسوعه طبقات الفقهاء و هو بعنوان أدوار الفقّه الإسلامى.

و كان المترقب من الأجزاء الإشاره إليها.

الرابعه: اقتراح على الأجزاء تخصيص الموسوعه للعناوين الفقهيّه و ترك البحث عن المسائل الكلاميه أو الأصوليه باسم الملحق الأصولى.

فإنّ استيعاب هذه المسائل يحتاج إلى تخصّصات مختلفه و إلى أوقات طويله ربّما تعوق عن إكمال الكتاب.

فالبحث عن الإمام و الأئمّه أو عن أهل البيت عليهم السلام أو سائر المسائل الأصوليه التى تمرّون عليها يترك لموسوعات أخرى و آونه أخرى عسى أن يكون ذلك سبباً لسرعه العمل و إنجازه فى وقت مناسب، خصوصاً أنّ الأزمات فى حياتنا كثيره كما تعلمون.

و فى الختام أتقدم بالتحيه إلى كافه الأجزاء.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم-ايران

٢١ ذى القعدة الحرام عام ١٤٢٥هـ

ص: ٧٤٩

إشاره

تفسير قوله سبحانه: «فِي بُيُوتٍ»

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه العلامة الحجه.....دام ظلّه الوارف

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

أرجو من الله سبحانه أن يديم عليكم ثوب الصحه و العافيه،و يوفّقكم فيما قمتم به من مشروع المدرسه الفقيهيه التي نتمنى أن يتربى فيها جيل كبير يحمل رايه الاجتهاد الصحيح فى المستقبل إن شاء الله.

أبلغنى أحد الساده دام علاه بأنّ سماحتكم أشكلتم على استدلالنا بالآيه المباركه: «وَلَوْ لَا أَنَّ يَكُونُ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا...». ١

على أنّ البيت لا ينفك عن السقف،و تفضّلتم حسب ما حكاه السيد العزيز بأمرين:

١.أنه لو أمر الأمر بإنشاء دار فيه سرداب،فهو لا يدلّ على أنّ كلّ بيت فيه سرداب.

٢. قوله سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» ١ و لم يكن له سقف....

نعود إلى بيانكم السامى بالتعليق التالى:

البيت كما نص عليه اللغويون، و منهم ابن فارس فى «معجم مقاييس اللغة» هو المأوى و المآب و مجمع الشملى، و من المعلوم أنّ المأوى و مجمع العائله لا يخلو عن سقف، فإنّ الجدران الأربعة بلا سقف لا تصون الإنسان عن الحر و البرد، و الغايه من الحلول فى البيت هو الاستراحة و تجنّب الحر و البرد.

و قال ابن منظور فى «اللسان»: الخباء بيت صغير من صوف أو شعر، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت، ثمّ مَظَلَّه إذا كبرت عن البيت، و بيت الرجل داره و بيته قصره. (١)

فالخباء، لا ينفك عمّا يُظلل، فإذا كبر مع هذا الوصف يكون بيتاً، فإذا كبر يسمّى مَظَلَّه.

هذا حسب اللغة.

و أمّا كيفية الاستدلال بالآيه المباركه على أنّ البيت لم يكن ينفك عن السقف يوم ذاك فهى متوقفه على إيضاح مفاد الآيه السابقه، و هو كالتالى:

«لو لا أن يجتمع الناس على الكفر حينما يروا تنعم الكافرين و حرمان المؤمنين، لجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضه، و درجات يصعدون عليها إذا أرادوا الظهور عليها و جعلنا لبيوتهم أبواباً من فضه».

و لكنّه سبحانه لم يفعل ذلك لئلا يجتمع الناس على الكفر، بمشاهده أنّ

ص: ٧٥١

الكفار يتمتعون بزخارف الدنيا. والإيمان في الآيه و ما بعدها يثبت أنّ بيوت عامّة الناس و منهم من يكفر بالرحمن كانت تشتمل على:

- السقف.

- و الباب.

و كان مادتهما غير الفضه. فلولا مخافه اجتماع الناس على الكفر لجعل سبحانه سقف بيوتهم و أبوابها من الفضه.

فلو دلّت الآيه على شيء فإنّما تدلّ على أنّ السقف و الباب يلازمان الدار يوم ذاك، و لم يكن هناك دار بلا-سقف و لا باب. فيكون ذلك قرينه على تفسير قوله سبحانه: «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ» ١، على أنّ المراد بالبيوت، هو غير المساجد، إذ لا يشترط فيها السقف، بخلاف البيت فإنّه يلازم السقف.

و أمّا ما تفضّلتم به حسب ما سمعناه من السيد الجليل من أنّ البيت في قوله سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» كان فاقداً للسقف، فهو غير ظاهر من الآيه إذ لا تدلّ على أنّه كان فاقداً للسقف عند البناء.

إلا إذا كان في تاريخ بناء البيت تصريح بذلك، فيكون إطلاق البيت عليه من باب مجاز المشارفه.

على أنّ في الروايات أحكاماً لسطح الكعبه.

فقد عقد الشيخ الحرّ العاملي باباً في الوسائل أسماه «حكم الصلاة على ظهر الكعبه» و جاء في إحدى روايته عن الصادق عن آبائه عليهم السلام في حديث المناهى: نهى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن الصلاة على ظهر الكعبه.

و في روايه أخرى عن الرضا عليه السلام في الذى تدركه الصلاة و هو فوق

الكعبة.... (١)

هذا ما قدّمته لسماحتكم عسى أن تُبدوا رأيكم السامى حوله، مدّ الله فى عمركم، وعمّر بكم مدارس الفقه و الفقاهه، و حفظكم من كلّ سوء.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق

الخميس ٢٤ ذى القعدة الحرام، عام ١٤٢٥هـ

ص: ٧٥٣

١- (١). الوسائل: ٣٤٠/٤، الباب ١٩ من أبواب القبلة. [١]

صوره تقرّيز لكتاب أصولي

بسم الله الرحمن الرحيم

التقرّيز لغه هو الإطراء و المدح، و هو أمر جميل، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «و لا يكوننّ المحسن و المسمى عندك بمنزله سواء، فإنّ في ذلك تزهداً لأهل الإحسان و تديباً لأهل الإساءه على الإساءه». (١)

و مع ذلك فالإطراء المطلق مع الغض عن الجوانب السلبيه بخس لحقوق الممدوح، فالتقرّيز عند المحققين هو التحسين و الإطراء مقرونًا بالنقد البناء.

و على ضوء ذلك فالكتاب الذي بين يدي القارئ، جهد مبارك يدور حول مفهوم الحكم في محاور ثلاثه:

١. تعريف الحكم الشرعي.

٢. مبادئ الحكم الشرعي.

٣. أقسام الحكم الشرعي.

و قد بذل المؤلف -حفظه الله- جهداً كبيراً في الرجوع إلى المصادر المتوفره في

ص: ٧٥٤

١-١). نهج البلاغه، [١] عهد الإمام إلى مالک الأشر.

إيضاح هذه المحاور بأفضل وجه؛ فصارت نتيجة هذا الجهد هذه الرسالة المتميزة بحسن التبويب و رصانه البيان، مرفقه بذكر المصادر الكثيره.

و نحن نبارك للمؤلف هذه الخطوه و نرجو أن يُتبعها بخطوات أُخرى حول سائر المسائل الأصوليه.

و لكن ذلك لا يصدّنا عن إبداء بعض الملاحظات حول ما ورد في الكتاب:

١. إن مؤلفنا المكرّم فسر الحكم في أوّل رساله بالعلم و التفقه ناقلاً- ذلك عن المعجم الوسيط، و لكن الحقّ أنّ الحكم بمعنى المنع و الفصل و القضاء، يقول حسّان: فنحكّم بالقوافي من هجانا و نصرّب حين تختلط الدماء

أى نمنع بالقوافي من هجانا.

و قال آخر: أ بنى حنيفه حكّموا سفهاء كم أنى أخاف عليكم أن أغضبا

أى؛ امنعوا سفهاء كم.

و لو صحّ إطلاقه على العلم و التفقه فإنّما هو بضرب من المجاز، كما هو الحال في إطلاق الحكمة على الفلسفه، و الحكيم على العاقل المتّزن.

٢. إنّ المؤلف- حفظه الله- قسم الحكم إلى واقعي و ظاهري و لم يذكر بعض الأقسام الأخرى، مثل:

الحكم الولائي، الحكم القضائي، فإنّهما من أقسام الحكم و كان عليه أن يذكرهما.

٣. ذكر أنّ القرآن ظنّى الدلاله وفاقاً لأكثر الأصوليين أو جميعهم، و لكنّه أمر غير صحيح، بل القرآن قطعي الدلاله بالنسبه للمراد الاستعمالي كسائر

الظواهر و قد شرحنا ذلك فى محاضراتنا الأ-صوليه، والقائلون بكون القرآن ظنى الدلاله غفلوا عن بعض مضاعفات ذلك القول، و هو استلزامه كون القرآن ظنى الإعجاز لا قطعيه.

٤.قسّم الإجماع إلى بسيط و مركّب و محصّل و منقول و هذا تقسيم صحيح، ثمّ ذكر من أقسامه الإجماع التشرفى أو اللطفى أو الدخولى، و لكن هذه الأقسام الثلاثه ليست فى عرض التقسيم الأول، فإنّ التشرف أو اللطف أو الدخول-حتّى الحدس بموافقه الإمام عليه السلام-من دلائل حجّيه الإجماع لا من أقسامه.

و هذه الملاحظات البسيطة لا تقلل من قيمه الكتاب، و إنّما ذكرناها تحقيقاً للتقريب الذى هو عندنا بمعنى النقد البناء.

جعفر السبحانى

قم-مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

السابع عشر من محرم الحرام من عام ١٤٢٥هـ

ص: ٧٥٦

إشاره

ملاحظات حول كتاب جمهوره القواعد الفقيهيه فى المعاملات المالىه

و جواب الدكتور أبو سليمان عليها

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيله الشيخ العلامه الفقيه عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان دامت معاليه و تواترت بيض أياديه

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

أما بعد:

فقد وصلت رسالتكم الميمونه (و المؤرخه ١٢/٧/١٤٢٤هـ)، معربه عن طيب أعراقكم و شريف أخلاقكم، فسررت بها كثيراً. وصلت رسالتكم و فيها نشرُكم متضوّعاً يحكى أريج الرّنبق

كما وصلتنا هديتكم الثمينه المسماه ب«جمهوره القواعد الفقيهيه فى المعاملات المالىه» تأليف تلميذكم النابه الدكتور على أحمد الندوى، و لعله من أقارب الشيخ أبو الحسن الندوى الحسنى مؤلف كتاب «ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، فلو صحّ ظنى فهو: من بيت علم شُيدت أركانه بمعالم موروثه من أحمد

ص: ٧٥٧

و على كّل تقدير فقد بذل المؤلّف تحت رعايتكم جهوداً كبيره في تأليف هذه الموسوعه و جمع شوارد القواعد من شتى الأبواب فيها، فنحن نبارك له و لأستاذة المشرف هذه الخطوه الفقيهه القيمه، فمرحّباً بهمته القعساء و عزيمته الّتي لا- تشنى، و لولهما لما خرجت هذه الموسوعه بهذا الشكل القشيب إلى عالم الوجود.

و لكنّ ثناءنا العاطر للمؤلّف و المؤلّف لا- يمنعنا من تسجيل بعض الملاحظات الّتي لا تنقص من قيمه الكتاب شيئاً، و هي كما يلي:

الملاحظه الأولى

كان على المؤلّف تعريف القواعد الفقيهه و إيضاح الفرق بينها و بين المسائل الأ-صوليه، ثمّ الفرق بينها و بين المسائل الفقيهه، فهناك أمور ثلاثه يجب أن تحدد و تميز:

١. المسائل الأ-صوليه.

٢. القواعد الفقيهه.

٣. المسائل الفقيهه.

ففيما أتى في فهرس الجمهوره الّتي تناهز عددها ٢٥٠٣ خلط بين هذه الأمور الثلاثه و المؤلّف بصدد بيان القواعد الفقيهه فقط، لا المسائل الأ-صوليه و الفقيهه. و قد عطف الأخيرتين على الأولى فجاء بالجميع في موسوعته المباركه.

الملاحظه الثانيه

أنّه ذكر من القواعد الفقيهه- الّتي وردت نصوصها في كلام النبي

ص: ٧٥٨

الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - شيئاً يسيراً مع أنه لو كان قد راجع ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام لوقف على كثيرٍ من النصوص التي تشتمل على قواعد فقهيه أُخرى، ونشير هنا إلى نماذج من ذلك:

١. حرمة مال المؤمن كحرمة دمه.

٢. كل ما كان في أصل الخلقه فزاد أو نقص فهو عيب.

٣. لا بيع إلا في ما تملك.

٤. البيعان بالخيار حتى يفترقا.

٥. ليس على المؤمن ضمان.

٦. الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً.

٧. رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يبرأ.

٨. حلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرمة حرام إلى يوم القيامة.

٩. كل شيء فيه حلال وحرām فهو لك حلال أبداً حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه.

١٠. كل مجهول ففيه القرعة.

١١. الوقوف تكون على حسب ما يوقفها أهلها.

١٢. لا يكون الربا إلا فيما يكال أو يوزن.

١٣. رفع عن أمتي تسعة: الخطأ والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيره، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفه.

١٤. ليس شيئاً ممّا حرم الله إلاّ أحله لمن اضطرّ إليه.

١٥. كلّ أجير يعطى الأجر على أن يصلح فيفسد و هو ضامن.

هذه نماذج من النصوص النبويه التي رواها أئمّه أهل البيت كعلی و أبناءه الطاهرين عليهم السلام و هي مذكوره في الجوامع الحديثيه عندنا بأسانيدها.

و كان على المؤلف المذی هو غصن من الدوحه الحسنيه-حسب ما استظهرناه-، أن يرجع إلى ما رواه أجداده عن النبي الأكرم صلی الله عليه و آله و سلم من النصوص التي تتعلق بالمعاملات الماليه تعلقاً قريباً أو غير قريب.

و في قاموس الخلقه أن يرث الأبناء ما ورثه الآباء، و حقيق له-لا لمثلي- أن يترنم بقول الفرزدق: أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أو بقول البحتری: شرف تتابع كابرًا عن كابرٍ كالرمح أنبوباً على أنبوب

الملاحظه الثالثه

لقد طرح الولد البارّ قاعده «الخراج بالضمان»، و حاصل القاعده كما هو المعروف: أنّ منافع العين المضمونه هي للضامن فالخراج في مقابل الضمان.

و هل هذه القاعده تعمّ كلّ ضمان سواء أ كان بسبب مشروع كالبيع، أم غير مشروع كالغصب و السرقة؟ أو تختص بالأسباب الصحيحه فقط مثلاً: لو غصب رجل دابه شخص فانتفع بها مدّه شهر فهل يمكن أن يقال أنّ منافع الدابه للغاصب؟ فلو قلنا بذلك فهذا يعنى إعطاء الضوء الأخضر للغاصبين و السارقين، ليستثمروا أموال الناس في مقابل ضمانهم لقيمه الأعيان.

و بمثل هذه الفتيا تمنع السماء ماءها و الأرض بقلها؟

ص: ٧٦٠

إنَّ المؤلف نقل النصَّ النبوي «لا ضرر و لا ضرار» مبتوراً و لم يرشد إلى سبب صدوره من النبي الخاتم، فكان عليه الإلماع إلى ما نقله الحافظ أبو داود السجستاني في سننه في ذلك الصدد عن واصل مولى أبي عيينه قال:

«سمعت أبا جعفر محمّيد بن علي يحدث عن سمرة بن جندب أنّه كانت له عضد من نخل في حائط رجل من الأنصار قال: و مع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به و يشق عليه، فطلب إليه أن يبيعه، فأبى، و طلب إليه أن يناقله، فأبى، فأتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فذكر [ذلك] له، فطلب إليه النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يبيعه، فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: «فهبه له و لك كذا و كذا» أمراً رغبه فيه، فأبى، فقال: «أنت مضار». فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم للأنصاري: «اذهب فاقلع نخله». (١)

هذه لمحّه خاطفه قدّمتها للمؤلف القدير، و كفى له فخراً أنّه ثمره من ثمار عمركم، و أنّه اتبع الخط الذي رسمتموه.

و في الختام نتقدم إليكم ببالح الشكر لما أسديتموه لمكتبتنا (مكتبه الإمام الصادق عليه السلام).

فشكراً للوالد و الولد و للأستاذ و التلميذ شكراً يناطح السماء.

و السلام عليكم و على من حولكم من الأحبّه و الأعزّه و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحاني

قم المقدسه

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

١٤٢٤/١٢/٢٥ هـ

ص: ٧٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيله العلامة الشيخ جعفر السبحانى حفظه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

فقد تسلمت رسالتكم الكريمة بيد الشكر و الامتنان و أسأل المولى جلّ و علا أن تكونوا و من يلوذ بفضيلتكم فى صحّحه و سعاده.

سيدي:لقد استمتعت برسالتكم التي تفيض علماً و أدباً،و تشع نوراً و مكرماً،و ليس هذا غريباً على علماء الإسلام ذوى القدم الراسخه فى العلم.

سيدي:أعترف بالثغرات و الملاحظات العلميه التي أبديتها على كتاب «الجمهره للقواعد الفقيهيه»،و لا أنتحل لمؤلفها العذر.و العذرى قد يُدافع به بأنه قرر ما ذكرتموه من الفروق بين القواعد الفقيهيه و الأصوليه و الضوابط فى كتاب له سابق نال به درجه الماجستير و قد طبع ثلاث طبعات،كذلك ما ذكرتموه من عدم اطلاعه على مؤلفات آل البيت فى هذا المجال،و لا أخالفكم كما تعلمون لعدم توفر مؤلفاتهم رضى الله عنهم بيننا،و هى آفه كبيره كان المفروض كسر الحواجز المذهبيه المتعصبه بيننا و إنا لله و إنا إليه راجعون،و أن نركز على جوانب الاتفاق بدلاً من تعميق جوانب الاختلاف، و هذه مسئوليتنا جميعاً أمام الله و أمام التاريخ.

ص:٧٦٢

إن زمره القواعد التي ذكرتموها الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق أهل البيت معظمها مسطور أيضاً ضمن القواعد الفقهية عند أهل السنّة، والذي لفت نظري أنه بينها القاعده التاسعه:

«كلّ شيء فيه حلال و حرام فهو لك حلال أبداً حتّى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه».

هذه خلاف القاعده الفقيهيه الموجوده لدى أهل السنّه إذ ينصّون: «إذا اجتمع الحلال و الحرام غلب الحرام» يبدو لي أنّ موضوع القاعدتين واحد، و الموضوع بحاجه إلى دراسه متعمقه لعلّى أقف على مصادر القاعده الأولى توثيقاً من الكتب الموجوده لدى فى القواعد الفقيهيه.

إنّ ملاحظاتكم العلميه مهمه جداً، و سأوافيها للأخ على الندوى و لفضيلتكم عظيم الشكر و خالص الدعاء.

و أود أن ألفت نظر فضيلتكم الكريم إلى أنّ كلمه الندوى لا تعنى صله القرابه بينه و بين الشيخ أبى الحسن الندوى فالنسبه إلى (ندوه العلماء) و هى مؤسسه علميه بالهند ينسب إليها كلّ متخرج منها.

سبق لى فى الحجّ أن بعثت لفضيلتكم بكتاب «الإرشاد» للإمام الباقلانى حسب طلبكم، و قد بعثته مع أحد أفراد بعثه الحجّ الرسميه و هو من قم و أخبرنى بمعرفته بمؤسستكم أرجو أن تكونوا قد استلتموه، أسأل الله لفضيلتكم تمام الصحه و أن لا تنسونى فى دعائكم.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

١٤٢٥/٢/١ هـ

ص: ٧٦٣

إشاره

كنا قد أرسلنا مقاله ولدنا الروحي الشيخ الفاضل مرتضى الترابي حول القواعد الفقهية إلى فضيله الشيخ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان و قد قرنا الرساله بالجزء الثالث من كتابنا «الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف» فأجاب فضيلته برساله تحكى عن خلقه السامى و أدبه الجمّ حفظه الله و رعاه و إليك الرسالتين.

ص: ٧٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى الأخ في الله الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد: فقد وافتنى رسالتكم الميمونه معربه عن طيب أعراقكم، و شريف أخلاقكم. وصل الكتاب فمرحباً بوصوله

.....

أشكره سبحانه على هذه النعمة المتمثله بنشوء العلاقه بينى و بين فقيه من فقهاء الإسلام، يقضى بالحق و يقدمه على العواطف.

و فى هذه الفرصه أود أن أخبركم بوصول كتاب «الإرشاد» للباقلانى فشكراً لك على هذه الهديه الثمينه.

و انطلاقاً من المثل المعروف: «الحقيقه بنت البحث» فقد طلبت من أحد حضّار درسى و هو الشيخ مرتضى الترابى أن يكتب رساله تسلّط الضوء على الفرق بين القواعد الفقهيّه و المسائل الأصوليه، و يذكر فيها آراء فقهاء الإماميه فى هذا المضمّار، و يذكر ما هو المختار لدى.

و يختم الرساله بذكر ما لفقهاء الإسلام من مؤلفات حول القواعد الفقهيّه، و قد أنصف الكاتب إذ قال: بأنّ فقهاء السنّه سبقوا الإماميه بالتأليف فى هذا المضمّار، لسبب أشار إليه هناك.

و لو أُتيحت الفرصه و رفعت الحواجز عن إرسال الكتب لأرسلنا إليكم

ص: ٧٦٥

قسماً من هذه المؤلفات، وعندئذ يقف إخواننا على أنّ الشُّقّه بين الطائفتين ليست بكبيره، وأنّ اختلافهما أشبه باختلاف المذاهب الأربعة بعضها مع بعض. إنّنا لتجمعنا العقيدة أمّه

و هذه الرساله المتواضعه مرفقه بكتاب «الانصاف فى مسائل دام فيها الخلاف» و الذى طرحنا فيه المسائل التى اختلفت فيها الطائفتان و شرحناها بمشراط علمى لا- يثير العواطف، و لعله يكون خطوه متواضعه للتقريب حتّى يقف الإخوان على ما لدى الآخرين من فكر وفقه. نعم الخلاف الذى دام قروناً لا يرتفع بأسبوع أو شهر و لكنّه ربما يعبّد طريق التقريب.

و أخيراً إذا تمكّنتم من الحصول على الكتب التاليه فترجو إرسالها، لنضمها إلى مكتبه مؤسستنا:

١. مقاصد الشريعة: تأليف علال الفاسى.

٢. الشاطبى و كتابه: تأليف أحمد الرويسى.

٣. مقاصد الشريعة: تأليف طه جابر العلوانى.

بلغوا سلامنا إلى ولدكم الروحى الندوى و الرجاء أن يقرأ الرساله بإمعان و دقه، فيشير إلى بعض الآراء المذكوره فيها، فى الطبعه الجديده لكتابه «جمهوره القواعد الفقهيّه».

أسأل الله سبحانه التوفيق و السداد لكم و لمن حولكم من الأعراء، و دمتم موفقين

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

العاشر من ربيع الأوّل من شهور سنه ١٤٢٥هـ

ص: ٧٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيله العلامة الشيخ جعفر السبحانى حفظه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

و بعد

فأدعو الله عزّ و جلّ من جوار البيت الحرام أن يمدّكم بعونه، و يديم عليكم نعمه و إفضالاته و بعد.

فقد وافتنى رسالتكم الكريمة التي تزخر علماً و فضلاً، و تحمل درراً نفيسه، و لا غرابه، فهي من بحر علومكم مستمده، و من صفاء فكركم معدّه، استفدت منها أيما فائده، و إنني أسأل المولى جلّ و علا أن يمنحني بعضاً من الوقت، و فسحة من الأجل لأتأمل كتاب (الإنصاف) مؤلّفكم الجليل الّذى لا شكّ أنّه مكتوب مداد الإخلاص لأتطفل على مائدتكم العلميّه، و أعرف من معينكم الصافي، و إنني حريص كلّ الحرص أن يكون ضمن اهتماماتي العلميّه، و مشروعاتي الدراسيّه، لأنني أعتقد فيما أعتقد أن الّذى فرق بيننا هو الجهل ببعضنا أولاً، و مصالح لبعض الفئات المستغله يحزنها أن تجتمع كلمتنا. لكنّ المسئوليّه قبل كلّ شيء أمام الله جلّ و علا تقع على عاتق علماء الفريقين في توضيق شقه الخلاف، و رفع موجبات النزاع و الشقاق، و هم المسؤلون أمام الله و التاريخ.

ص: ٧٦٧

سیدی:أشترتم إلى موضوع القواعد الفقيهيه و البحث الّمدى قام به الشيخ مرتضى الترابى حفظه الله،و هو لا- شك جيد و نفيس،الجديد فيه بالنسبه للباحثين هنا هو ما يتصل بفقہ الساده الإماميه،و لا يخفى على سماحتكم أنّ هذا الموضوع،أو على الأصحّ علم القواعد الفقيهيه سار خطوات طويله موفقه في جامعتنا و في طليعتها جامعه أمّ القرى فقد اهتمنا به منذ ثلاثين عاماً،أو يزيد:تأليفاً جديداً،أو تحقيقاً لكتب التراث،و كانت البدايه بسيطه جداً قمت بها بكتابه بحث متواضع أرفقه مع خطابى هذا،أو المؤلفات و الكتب المحققه فإنّها كثيره جداً.و من الموضوعات العلميه الّتي نشطت فيها جامعاتنا في العقود السابقه علم المقاصد الشرعيه فأصبح له حظ في المناهج الدراسيه، و البحوث العلميه الرفيعه،و لا زالت الدراسات تترى و تتوالى،و قد ظهر أخيراً إلى الساحة العلميه تحقيق كتاب«مقاصد الشريعه الإسلاميه» تأليف العلامه شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله بتحقيق تلميذه العلامه الشيخ محمد الحبيب بن الخوجه في ثلاثه مجلدات:المجلد الأوّل عن حياته العلميه و الفكره،الثانى بين علم المقاصد و أصول الفقه،الجزء الثالث النص المحقّق،و هو جهد علمى فريد للشيخ محمد الحبيب بن الخوجه و هو تلميذ خاص للشيخ ابن عاشور،و قد عكف على هذا العمل ما يزيد على خمسه عشر عاماً،و قد أقمت حفله علميه على شرف المحقّق حفظه الله لصدور هذا الكتاب،و عند ما أحصل على نسخه سأبعث لفضيلتكم بها.

مقاصد الشريعه الإسلاميه و مكانتها للشيخ علال الفاسى ليست موجوداً بالأسواق،و لهذا صورتها لفضيلتكم من نسختى،كما أبعث لفضيلتكم بكتاب (نظريه المقاصد) للدكتور الريسونى،أمّا كتاب الدكتور جابر فلا أظنه إلاّ محاضره

ألقاها فى بعض المناسبات و لا أذكر إنى اقتنتها، و لو عثرت عليها صورتها لفضيلتكم، و إنى أعتذر على التأخير، و لكن فقدت
نسخه المقاصد للشيخ علال الفاسى بداخل المكتبه و قد عثرت عليها أخيراً.

سىدى: لا أدرى إذا كان يتيسر لديكم شرحاً لكتاب (الخلاف) للإمام الطوسى رحمه الله الذى قد زودتمونى به سابقاً.

فى الختام أسأل الله لفضيلتكم دوام الصحه و السعاده و أنه يجمعنا على الحقّ.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

المخلص

عبد الوهاب أبو سليمان

١٤٢٥/٤/٢١هـ

ص: ٧٦٩

الملاحظات الدكتور عبد الوهاب حول موسوعه طبقات الفقهاء و جوابنا

إنّ موسوعه طبقات الفقهاء أكبر موسوعه فى تراجم فقهاء الإسلام منذ رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا، فقد ضمت أجزاءها الستة عشر تراجم أُمّه كبيره من فقهاء الإسلام من كافة المذاهب الموجوده و البائده.

حضيت هذه الموسوعه بإعجاب المفكرين و المؤلفين، و قد نشرنا رسائلهم الّتى أرسلوها فى هذا الصدد فى طيات أجزاءها.

كما نالت هذه الموسوعه موقع الرضا عند فضيله الشيخ العلامة عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، و قد أبدى بعض الملاحظات حولها.

لذا نشر نصّ رسالته مرفقاً بجوابنا حولها.

ص: ٧٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه العلامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

و بعد:

فأهنئكم بشهر رمضان المبارك سائلاً المولى جلّ و علا أن يوفق الجميع لصيامه و قيامه و أن يتقبّل من الجميع صالح الأعمال، و أن يكتب النصر و وحده الكلمة للأمة الإسلاميه.

سيدي: لقد أمطرتموني بإفضالاتكم، و أحطتموني برعايتكم، و لا أملك أمام هذا السيل المتدفق من كريم خصالكم إلا الدعاء أن يجزيكم الله خير الجزاء.

سيدي: أعتذر لسماحتكم عن تقصيري في عدم سرعه المخاطبه، و واجبكم كبير، و لا- أكتمكم أنني أقوم بأموري العلميه، و المخاطبات الاجتماعيه بنفسى بالإضافة إلى الالتزامات و الاجتماعات الرسميه دون مساعد إلا الله جلّ و علا.

أمامي ثلاث رسائل شريفه من قبل سماحتكم.

الأولى: معنونه باسمي و فيها مناقشه بخصوص منزله الصحابه و التابعين، و نحن جميعاً سنّه و شيعه متفقون على حبهم و تقديرهم، فالصحابه جميعهم رضوان الله عليهم اختارهم المولى جلّ و علا أن يكونوا حوارياً نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و رفقته، و هم

ص: ٧٧١

متفاوتو الدرجات، و عقيدتنا أن لا نخوض فيما شجر بينهم فهذا أسلم و أحكم، و أن لا نوغر صدور أجيالنا ضد بعضهم، و شعارنا الآيه الكريمة: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا» (الآيه)

أما أهل البيت رضوان الله عليهم فموقفنا: هو الحب و التقدير الذى يستحقونه من الأمة، و لا تجد سنيًا على وجه البسيطة إلا و ينظر إليهم بعين الإجلال و الإكبار من دون إفراط و مغالات، أو تفریط و تقصير، فهم سادتنا رضوان الله عليهم. أما بخصوص الموسوعه النفيسه طبقات الفقهاء فهى بحق مفخره من مفاخركم جزاكم الله خيراً، و العمل جليل مهما فيه من هنات، شأن الأعمال العظيمه، و قد لاحظت بعض الملاحظات لا أريد أن أثيرها حتى لا يساء الظن منها:

١. أن الكتابه عن فقهاء أهل السنّه لم ترق إلى الدرجه التى كتب فيها عن علماء الشيعة كما و كيفاً.

٢. وصلنى من الكتاب حتى الجزء الرابع عشر رقم ٢ و ينقص بينها الجزء الثامن. كان بودى أن أرى من النهايه قائمه المصادر؛ لأننى أشعر بعدم استيفاء الموسوعه للكثير من علماء السنّه، و ما من شك أن هذا سببه ربما يكون عدم توافر المصادر.

٣. لا يوجد ذكر للفقهاء المكيين و بخاصه فى القرن الرابع عشر الهجرى، و لهذا اسمحوا لى أن أبعث لسماحتكم بكتاب (أعلام المكيين) و هناك كتب و مؤلفات عديده آخرها كتاب (الجواهر الحسان) من تأليف فقيه من كبار فقهاء البلد الحرام قمت بتحقيقه مع زميل من الزملاء لربما يصدر العام القادم إن شاء الله، و قد دوت فى المقدمه عناوين كتب تراجم المكيين فى (الدراسه)، و سأوا فى سماحتكم بنسخه منه لدى صدوره إن شاء الله.

٤. لاحظت أثناء تصفحي للكتاب وجود بعض الأخطاء مثلاً في ترجمه القاضي عياض ورد هذا العنوان (ترتيب المدارس) و صحته (ترتيب المدارك)، وأخرى لا أذكرها، و مرجع هذا أن عناوينها ربما تكون ليست مألوفه لدى الباحثين لديكم. الكتاب في اعتقادي و من خلال تصفحي السريع مهم و مفيد و مصدر في تراجم فقهاء الإماميه رحمهم الله، و من يقرأه لأوّل وهله سيكون لديه هذا الانطباع.

سيدي: لا أشك أنكم من دعاه التقريب و جزاكم الله على نياتكم و حسن مقاصدكم.

الحديث في هذا المجال طويل جداً، و لكن العزيمه الصادقه و الإخلاص لدين الله و لأُمّه الإسلام يستوجبان ذلك.

الثانيه و الثالثه: تسلمت من الصديق العزيز سيد نواب رسالتين فيهما بحث:

(مسأله البيعتين في بيعه)، و قد جاء بحثكم فيه مستفيضاً، و توصلت من دراسته إلى الاتفاق الكبير في هذا الموضوع بين الفقه الإمامي مع المذهبين المالكي و الحنبلي، أفادكم الله، و إنى أشكر سماحتكم أعظم الشكر على هذا الاهتمام الكبير، أدام المولى جلّ و علا على سماحتكم نعمه الصحه و العافيه و لا حرمننا منكم، و لا تنسوننا من الدعاء في هذه الليالي المباركه.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

المخلص

عبد الوهاب أبو سليمان

١٤٢٥/٩/٧

ص: ٧٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيله سماحه العلامه الدكتور عبد الوهاب إبراهيم

أبو سليمان المحترم

السّلام عليكم ورحمه الله و بركاته

ورد الكتاب فمرحّباً بوروده...

لقد سررنا بمطالعه رسالتكم الكريمة حول «اشترط الربط بين عقود المصارف الإسلاميه» و إذا هي رساله حَبْرَتها يد فقيه محقّق و منفتح على المذاهب الفقيهيه، أخذ الله بيدكم و رعاكم.

كما وصلت إلينا هديتكم الثمينه المشتمله على الجزءين من «أعلام المكيين»، و نحن ننتظر بفارغ الصبر أن تصل إلينا موسوعه أعلام المدنيين بإذن الله تعالى.

و قد ذكرتم في رساله المعنونه باسمي، أنه وقع خطأ في ترجمه القاضى عياض، فجاء فيها «ترتيب المدارس» مكان «ترتيب المدارس» و نحن راجعنا الترجمه المذكوره في ج ٢٢٢/٦ برقم ٢٢٦١، فرأينا العنوان قد تكرر فيها مرّتين، و في كليهما ورد صحيحاً.

و على فرض وروده، بالصيغه التي أشرتّم إليها في موضع آخر، فلا- ريب في كونه خطأ مطبعياً، لأنّ الكتاب- لا كما يظن صاحب الفضيله- معروف لدى

ص: ٧٧٤

الباحثين في مؤسستنا، وهو من المصادر المعتمده عندهم في ترجمه العشرات من فقهاء أهل السنّه، وقد تكرر ذكره على سبيل المثال في الصفحات (١١٧، ١٠٦، ٩٦، ٧٦، ٦٤، ٥١، ٣٩، ...) من الجزء الرابع، و الصفحات (١٣٠، ١٢٩، ١٢٧، ٦٢، ٥٨، ٥٢، ٣٧، ٢٧، ٢٥، ١٦٩، ١٥٢، ١٤٠، ١٧٥، ...) من الجزء الخامس.

أما بشأن قول فضيلتكم: إنّ الكتابه عن فقهاء أهل السنّه لم ترق إلى الدرجه التي كتب فيها عن علماء الشيعة كماً و كيفاً، فنودّ أن نشير (قبل الإجابة عن ذلك) إلى حقيقه مهمه كُنّا قد بيّناها في مقدمه الجزء الأوّل، وهي (بإيجاز) أنّ الطابع العام لفقّه الشيعة هو التقدّم و التطوّر قرناً بعد قرن، و ذلك بفضل فتح باب الاجتهاد عندهم، و أنّ الطابع العام لفقّه السنّه كان هو التقدّم و التطور في القرون الأوّلى ثمّ الميل إلى الركود منذ أواسط القرن السابع نتيجة إغلاق باب الاجتهاد عندهم.

و على ضوء هذه الحقيقه نقول: إنّ تراجم أهل السنّه في القرون الأوّلى لم تكن بأدنى من تراجم الشيعة كماً و كيفاً، بل لعلّ تراجمهم في بعض القرون قد فاقت تراجم الشيعة من حيث العدد و من حيث وفره المعلومات و قيمتها.

و نحن إذا راجعنا القرن السادس -مثلاً- لوجدنا فيه (٣٣١) ترجمه، منها (٢١٦) ترجمه أو أكثر لفقهاء أهل السنّه.

هذا من حيث الكمّ، أمّا من حيث النوع، فلا أظنّ أن تراجم الشيعة (بما فيهم الكبار منهم) تفوق تراجم السنّه، فتراجم: ابن الجوزي (المرقمه ٢١٨٤) و أبي يعلى الصغير (٢٣٣٧) و ابن فضلان (٢٣٧٧) و القاضي عياض (٢٢٦١) و السمعاني (٢١٩٨) و غيرهم، هي أغزر ماده من كثير من فقهاء الشيعة في هذا القرن، و ليست بأقلّ نوعاً من تراجم أكابرهم كابن زهره الحلبي (٢١٤٦) و ریحان

الحبشي (٢١٥٣) و الحقيقة التي ذكرناها آنفاً ألفت بظلالها على القرون المتأخرة، ففي القرن الثالث عشر كان عدد المترجمين (٤٨٣) فقيهاً بينهم (١٤٦) فقيهاً سنياً (بما فيهم فقهاء الحجاز الذين بلغ عددهم ٣٦ فقيهاً) و الباقي لفقهاء الشيعة (الإماميه و الزيديه).

و لا بدع- كما يدرك سماحتكم- إذا ظهر لنا ميل إلى فقهاء الشيعة، و جاءت بعض تراجمهم بمستوى يفوق تراجم غيرهم، و ذلك لمعرفةنا بهم و قربنا منهم أولاً و لأن حب الرجل قومه أمر غير مذموم ما لم يبخرس حق الآخرين، أو يسىء إليهم لهوى يتبعه.

و مهما يكن من أمر، فقد قدمنا العذر في مقدمه الجزء (١٤) و قلنا: إن هذه الموسوعة ليست سوى خطوه متواضعة على هذا الطريق، تستهدف التعريف بطائفه كبيره من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، ناهيك عن الرغبة الأكيدة في تحقيق الألفه بين المسلمين و توحيد صفوفهم. و العذر عند كرام الناس مقبول.

و كم نتمنى أن يتصدى أحد علماء السنه لمثل هذا المشروع أو أفضل منه، و يدرج علماء الشيعة- حتى و إن اقتصر على مشاهير المشاهير منهم- جنباً إلى جنب مع علماء أهل السنه، تحقيقاً للهدف المنشود. و الله المسدد للصواب.

و ختاماً، بلغوا سلامي و تحياتي إلى الأستاذ عبد الله عبد الرحمن مؤلف «أعلام المكيين»، و أرجو من الله تعالى أن يوفقني لمطالعه الكتاب، و الصدور عنه في مستقبل الأيام إذا قام المحققون في المؤسسه بمهمه تأليف استدراك للموسوعه.

تقبلوا تحياتنا العطره

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحاني

١٢ رمضان المبارك ١٤٢٥هـ

ص: ٧٧٤

الفصل الثامن: رسائل و حوارات

اشاره

مع الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

ص: ٧٧٧

دارت بيننا و بين الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش القاضى بالمحكمة الكبرى بالقطيف رسائل و مساجلات حول مسائل مختلفة يجمعها ما اختلف فيه النظر بين السنّة و الشيعة، و إليك الإشاره إلى رءوس الموضوعات:

١.رسالتنا إلى الشيخ مرفقه بكتاب الحجّ مشيرةً إلى أنّ المشتركات فى موضوع الحج بين الطائفتين كثيره.

٢.رساله الشيخ إلينا يذكر فيها بعض ملاحظاته حول نهج البلاغه و حول كتابنا فى نقد كتاب «تأملات حول كتاب نهج البلاغه».

٣.رساله منّا إلى الشيخ نذكر فيها أنّ صحابه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الذين رأوا نور الرساله ليسوا على وتيره واحده و على صعيد واحد من حيث العمل و السلوك و الالتزام.

٤.الشيخ صالح الدرويش يهدى إلينا كتاب «الإمامه و النص» و قد قمنا بتقديم الشكر إليه ناقلين فصلاً واحداً من هذا الكتاب.

٥.طلب الشيخ صالح الدرويش تأليف كتاب يجمع الروايات الصحيحه عند الشيعة و جوابنا عن ذلك.

٦.جوابنا عن الرساله التى أرسلها مؤلف «الإمامه و النص» حول ملاحظتنا عليه.

٧.رساله أحد محققى مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام إلى الشيخ صالح الدرويش تشتمل نقداً للموقع الذى يشرف عليه مؤلف كتاب «الإمامه و النص».

إلى الأخ البارع البصير الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش-دامت معاليه القاضى فى المحكمه الكبرى بالقطف

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

أما بعد؛

فقد جرت بينى وبينكم-فى سالف الزمان-مساجلات و مراجعات طرحت خلالها أفكار و تساؤلات، كان مبعثها ودّ الحقيقه و الدفاع عن العقيدته، و قد قيل: «أنّ الحياه عقيدته و جهاد».

و على كلّ تقدير فهذه الرساله الموجزه مرفقه بكتاب «الحجّ» الذى هو جزء من محاضراتى الفقيهيه حول الحجّ و الكتاب يقع فى عدّه أجزاء، و هو أقوى شاهد على أنّ المشتركات فى الحجّ بين المذاهب أكثر، و ما أصدق قول القائل: «ما يجمعنا أكثر ممّا يفرقنا».

و نحن نعتقد أنّ الذى فرّق بيننا هو الجهل بالآراء و النظريات التى يتبناها

الطرف الآخر، و لو وقف الأخ السنّى على آراء أخيه الشيعى لأذعن أنّه هو الأخ الذى افتقده عبر قرون.

و دتمم سالمين للإسلام و أهله

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم المقدسه

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

الثالث عشر من جمادى الآخره ١٤٢٥هـ

ص: ٧٨١

سماحه الشيخ جعفر السبحاني وفقه الله

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده، و على آله الأطهار و صحبه الأخيار. و بعد، فعليكم السلام و رحمه الله و بركاته

*فقد سعدت بوصول ردكم إلى و المعنون ب (حوار مع صالح الدرويش) و قد اطلعت عليه و قيدت أثناء التصفّح بعض الملحوظات عليه، و ارتأيت أنّها كثيره ترجأ لحينها! و من أهم ما استوقفني فيه و آسف له، و هو أنّ المؤلف لا يفرق بين من هم (الصحابه) الذين جاءت النصوص في مدحهم و الثناء عليهم بأوضح العبارات و أبلغ الآيات، و من هم (المنافقون) الذين جاءت النصوص بدمهم و أنّهم في الدرك الأسفل من النار؟!

*و دونك سماحه الشيخ: كتاب الله تعالى، تأمل في آياته لترى الصراحة في القصد من الثناء على المهاجرين، و لم يذكر أحد من المؤرخين قاطبه-فيما أعلم- أي منافق أو علامه للنفاق قبل غزوه بدر!

*و قد رأيت سماحتكم: نحا و سلك مسلكاً آخر في أصل الحوار... و لأجل

أن الأمر فيه بون شاسع بينى وبينكم -وفقكم الله- حول تحرير أصل المسألة؛ لذا تركت الرد أو الحوار فيما يتعلق برسالتنا (صحبه رسول الله) عليه وعلى آله أزكى تحية و سلام.

* أما فيما يتعلق بالحوار حول رساله (تأملات فى نهج البلاغه) لمؤلفه الأستاذ محمد الصادق -وفقه الله- فسماحتكم يعلم أنى إنىما قدّمت للمؤلف... و من ثمّ جعلتم كلّ الحوار معى و فى مخاطبتى!

* و من هنا فقد أعطيت حواركم فيه لمؤلفه للنظر فيه و موافاتنا بمرئياته حياله، و لم يوافنى ليومى هذا بشىء خاصه و أنه أخبرنى بالطبعه الثانيه للرساله و أنها تحت الإعداد، هناك رساله أخرى فى نفس الموضوع و هى قراءه راشده فى نهج البلاغه أتمنى أن تبحثوا عنها و تنظروا فيها. و الله الموفق.

* كما أنه لا يخفى على شريف علمكم الكلام فى نسبه الكتاب كلّه إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه و أرضاه، و الصنعه الأدبيه ظاهره على أبوابه و محتوياته، فيمكن لكم المقارنه بين البلاغه العربيه فى عهد النبوه و ما كان عليه أمير المؤمنين من فصاحه و بلاغه، و كتاب النهج و ما فيه من سجع متكلف، و غرائب فى بعض الألفاظ و ما ساد فى بلاغه القرن الرابع -زمن جامع الكتاب- و أقل ما يقال فيه أنه: زاد فيه!

و أيضاً انقطاع السند بين جامعه و قائله و بين ذلك خرط القتاد.

و لكنى إنىما قدمت للكتيب على قاعده التسليم فى حجه الخصم -على افتراض صحتها- و كما قيل: «من فمك أدينك».

* سماحه الشيخ الكريم: أفيدكم أنّ رسالتكم مع كتابيكم قد وصلتني من يد الشيخ هانى المسكين.

و هي هديه مقبوله أما رساله فلي عليها ملحوظات يسيره لا يحسن ان نذكرها من باب حسن الظن بكم.

*هذا وقد التقيت بنخبه من الآيات و بعدد كبير مّمن دونهم الموسومين بحجه الإسلام،و مع قناعتى التامه بعدم وجود ضابط لديكم نحتكم إليه فى ثبوت النصوص من عدم ثبوتها،و لمعرفه المقبول فيعمل به،و المردود فلا يُعمل به.

*و أنا مع ذلك حريص على الالتقاء و مقابله العقلاء،فإن زان عقلهم علماً فقد زاد شرفهم فجمعوا بين العقل و العلم...و أنى أرجو أن يكون سماحتكم من هذا الصنف.

سماحه الشيخ:إن من أهم المسائل التى يعانى منها كثير من المشايخ الذين التقينا بهم سلفاً هي:

عدم وجود نصوص عن الأئمّه يتفق الشيعة عليها.فهذا يضعف و ذاك!! و بالتالى لا تستطيع إلزام أحدٍ بنص إذ يقول و بكلّ سهوله و يسر «أنا أرى ضعف هذه الروايه»!!

و كما قال صاحب مقدمه صحيح الكافى:محمد باقر البهردى...ب أن الزنادقه...و....

قاموا بوضع مرويات مكذوبه على الأئمّه،و تصل فى الكافى إلى أكثر من...

كذا...و كذا.

و كتابه الآن بعيد عن متناول يدي،فأنا أكتب هذه الرساله على عجل -و أستسمحكم لكثره مشاغلي-و لكنى أتذكر أنّه قال:يدسون الأكاذيب و الترهات من خلال الصحائف و الأصول...فيختلط الحق بالباطل.

*لذا فإننا من محل المسئوليه و تحمل الأمانه ناشدكم الله عزّ و جل أن

تجعلوا اهتمامكم بتصحيح الروايات عن الأئمة، فهذه أكبر خدمه لهم، و هو مصداق محبتهم.

و تأمل معي يا سماحه الشيخ هذا:

كيف يتعبد عوام الشيعة بمرويات لا يعلمون ثبوتها من عدمه، على مر هذه القرون. و ما حجتهم في هذا؟

إنّ باب الاجتهاد مفتوح، و على المجتهدين أن ينظروا فيها. و هذا عند الأصوليين أمّا الأخباريين فالأمر لا يخفى على مثلكم.

و إليكم: مثال واحد بسبب عدم الضوابط، ما حصل من خروج الشيخ/أحمد الأحسائي و من تبعه، ثمّ خروج المعروف بالباب و قره العين، و ما حصل في النجف في ذات التاريخ!!؟

و أخيراً/أعتذر إليكم مرّة أخرى لعدم تمكّني من إيفاء الأمر حقّه و ذلك لكثرة المشاغل... و برفقته كتاب فيه دراسه لمسأله النص و الإمامه و هو كتاب «الإمامه و النص»، و نأمل أن يتسع وقتكم للاطلاع عليها و إفادتنا بما ترونه من ملاحظات.

أخوكم

صالح بن عبد الله الدرويش

ص: ٧٨٥

أشاره

أصناف الصحابه فى القرآن الكريم

إلى الأخ البارع البصير الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

- دامت معاليه و تواترت بيض أياديه -

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

أما بعد:

فقد وافتنى رسالتكم الكريمه-عبر الفاكس-و التى تعرب عن وصول رسالتنا إليكم التى كانت مرفقه بالجزء الأول من كتاب الحج من محاضراتى الفقيهيه،و كانت الغايه من إرساله إليكم هو الحث على الوقوف على فقه الشيعة ليتضح لديكم مدى المشتركات بين الفريقين،و لكن المؤسف أنكم، لم تذكروا شيئاً من انطباعاتكم عنه،و التى ما زلنا ننتظرها بفارغ الصبر.

و أود أن أشير إلى أمور تتعلق بما ذكرتموه فى رسالتكم الكريمه تلك:

١.ذكرتم:أننا فى كتابنا«حوار حول الصحبه و الصحابه»،لم نفرق بين

الصحابه الذين جاءت النصوص فى مدحهم و الثناء عليهم بأوضح العبارات و أبلغ الآيات،و المنافقين الذين جاءت النصوص بدمهم و أنهم بالدرك الأسفل من النار.

ولى هنا نظره و هى: كيف يصف الشيخ الكريم المؤلف بعدم التفريق بين الفريقين مع أنّ المؤلف قد صنف الصحابه إلى عشره أصناف اثنان منهم المنافقون و المندسّون،و الثمانيه الباقون من غيرهم و قد ورد التنديد و الذم فى الكتاب و السنه بهم و هم:

١.مرضى القلوب (الأحزاب:١٢).

٢.السماعون (التوبه:٤٥-٤٧).

٣.الذين خلطوا العمل الصالح بغيره (التوبه:١٠٢).

٤.المشرفون على الارتداد(آل عمران:١٥٤).

٥.الفاسق (الحجرات:٦).

٦.المسلمون غير المؤمنين (الحجرات:١٤).

٧.المؤلفه قلوبهم (التوبه:٦٠).

٨.المولّون اذ بارهم فى زحف الكفار (الأنفال:١٥-١٦)

و لا شك أنّ هؤلاء الذين وضعنا البنان عليهم لم يكونوا من المنافقين،فإن وردت أبلغ الآيات فى مدح الصحابه و الثناء عليهم بأوضح العبارات،فقد وردت أيضاً أبلغ الآيات و أوضح العبارات بالتنديد بهذه الأصناف الثمانيه منهم.

فإذا كانت الآيات بحق الصحابه على قسمين مادحه و ذامه فلا محيص من القول بوجود صالح و طالح،و عادل و فاسق بينهم،و من يقبل قوله و من يجب أن يترك قوله،فيكون حال الصحابه كحال التابعين،و هذا هو نفس عقيدته الشيعه

الإماميه في حقّ صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. إذا اعترفتهم بأنّ صحابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشكل لحمتهم و سداهم طائفتان هما الصحابه العدول، و المنافقون المعروفون و المندسّون فيهم الذين لم يكن الناس يعرفونهم، و حتّى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كذلك لقوله سبحانه: «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» (التوبه: ١٠١).

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تعتبرون روايات الصحابه و أحاديثهم بل و آراءهم و سننهم حجه على الإطلاق من دون أن تتعرفوا على أحوالهم و تتأكدوا من انتمائهم إلى الطائفة الأولى أو الثانيه.

إنّ في علم الأصول بحثاً ضافياً حول العلم الإجمالي و أنّه ينجز كالعلم التفصيلي، مثلاً كما أنّ العلم التفصيلي بغصبيه شيء ينجز التكليف، فهكذا العلم الإجمالي بوجود الأموال المغصوبه ضمن الأموال الحلال الكثيره ينجز التكليف أيضاً، فيجب الفحص و التنقيب حتّى يتميز الحلال عن الحرام، و على ضوء هذا يجب الفحص عن أحوال الصحابه، لتمييز العادل عن الطالح، و المؤمن عن المنافق، و من يستدرّ به الغمام، عمن يحبس دعاؤه و لا يستجاب.

لم يكن عدد المنافقين في عصر النبي قليلاً حتّى يغمض عنهم، بل كانوا أمّه كبيره يتأمرون على الإسلام ليلاً و نهاراً و الدليل على كثرتهم بين الصحابه هو عناية القرآن بذكر أحوالهم و التنديد بأفعالهم في كثير من السور نظير:

البقره، آل عمران، النساء، المائده، الأنفال، التوبه، الحج، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، المجادله، الحشر، المنافقون، التحريم، فلو كان عددهم قليلاً و كانوا غير مؤثرين لما اهتمّ القرآن بهم إلى هذا الحدّ.

إنّ القرآن لم يقتصر على التنديد بهم ضمن هذه السور، بل أنّه قد خصّهم

بسوره كامله، أعنى (المنافقون).

كما أنّ الكاتب المصرى إبراهيم على سالم قد جمع آيات النفاق و المنافقين على نظم خاص، و ادّعى أنّ عدد الآيات الوارده فى حقهم يعادل أجزاءً ثلاثه من أجزاء القرآن الثلاثين.

و العجب أنّه لم يكن لهم أى دور بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أيام الخلفاء، و هذه ظاهره تاريخيه تستوجب التوقّف عندها، فلما ذا غاب نجمهم و خابت حيلتهم بعد رحيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

٣. ذكرتم أنّه لم يذكر أحد من المؤلفين قاطبه- فيما أعلم- أى منافق أو علامه للنفاق قبل غزوه بدر.

إنّكم بحمد الله على سعه من العلم بالتاريخ و تعلمون أنّ نطفه النفاق قد انعقدت يوم نزول النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى المدينه المنوره حيث قابله عبد الله بن أبى المعروف برأس المنافقين بقوله: يا هذا اذهب إلى الذين غروك و خدعوك و أتوا بك فانزل عليهم و لا تغشنا فى ديارنا. (١)

فأصبح هذا نواه النفاق، ثمّ اجتمع حوله جماعه من المتظاهرين بالإسلام، حتّى صاروا كتله قويه فى المدينه المنوره، على نحو يتحدث التاريخ عن كثرتهم، و إليك ما يشهد على ذلك:

إنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم حينما خرج من المدينه إلى غزوه أحد بجيش يناهز الألف نفر، وقع التشاجر بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم و عبد الله بن أبى فرجع هو بثلاث الجيش إلى المدينه و تركوا النبى فى طريقه إلى أحد، و هذا يعرب عن بلوغ المنافقين و من تأثر بهم فى السنه الثالثه من الهجره حدّاً يعادل ثلث الناهضين إلى الحرب، فمن العجب

ص: ٧٨٩

القول بأنّه لم يكن للنفاق وجود قبل غزوه بدر مع أنّ الفاصله الزمنيّه بين الغزوتين كانت قليله، لا يمكن خلالها أن يتشكّل حزب النفاق و يصل إلى ذلك المستوى في هذا الزمن القصير. حيث كانت غزوه بدر في رمضان السنه الثانيه من الهجره و غزوه أُحد، في شوال السنه الثالثه.

و ان كنت في شكّ من ذلك فاقراً نص السيره النبويه لابن هشام يقول: حتّى إذا كان بالشوط الأوّل بين المدينه و أُحد، انعزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث و قال أطاعهم و عصاني، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيّها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق و الريب. (١)

و قد كان للمنافقين و على رأسهم عبد الله بن أبي دور في أمر بني قينقاع و كان بعد غزوه بدر، و قبل غزوه أُحد حيث قال للنبي الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم: أربعمائه حاسر، و ثلاثمائه دارع قد منعوني من الأحمر و الأسود تحصدهم في غداه واحده.

و في حقهم نزل قوله سبحانه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» ٢. (٢)

كلّ ذلك يعرب عن تغلغل النفاق بين الصحابه عند إجلاء بني قينقاع و كان ذلك بعد غزوه بدر بقليل.

حول انعدام النصوص التي تتفق عليها الشيعة

الموضوع الثاني الذي ركزتم عليه في رساله هو عدم اتّفاق الشيعة على

ص: ٧٩٠

١- (١). السيره النبويه: ٦٤/٢، [١] ط. مصطفى البابي الحلبي.

٢- (٣). السيره النبويه: ٤٩/٢. [٢]

النصوص، حتى نحتكم إليها، وقلتم حول ذلك: إن من أهمّ المسائل التي يعانى منها كثير من المشايخ الذين التقينا بهم سلفاً هي: عدم وجود نصوص عن الأئمة يتفق الشيعة عليها... فهذا يضعف و ذاك!! و بالتالى لا نستطيع إلزام أحد بنص إذ يقول و بكل سهوله و يسر «أنا أرى ضعف هذه الروايه».

و كما قال صاحب مقدمه صحيح الكافي: محمد باقر البهردى... ب «أنّ الزنادقه ... و...».

قاموا بوضع مرويات مكذوبه على الأئمه، و تصل فى الكافى إلى أكثر من ...

كذا... و كذا. (1)

أقول: ركزتم -حفظكم الله- على أمرين، ندرسهما واحداً بعد الآخر أمّا عدم وجود كتاب صحيح لدى الشيعة فهذا هو أحد مميزات منهجهم عن السنّه، لأنّ أهل السنّه قد التزموا بكتابين صحيحين بعد كتاب الله تعالى و هما صحيحا البخارى و مسلم، و قد اعتقدوا بصحة أحاديثهما، و لاقوا فى ذلك ما لاقوا، لأنّ فى الصحيحين أحاديث تضاد القرآن الكريم و السنّه النبويه المتواتره و العقل الحصيف الذى به عرفنا الله تعالى.

و إن شئتم أن تتعرفوا على مواضع هذه الروايات فعليكم بكتابنا «الحديث النبوى بين الروايه و الدرايه» فقد درسنا فيه أحاديث أربعين صحابياً، ذكرنا روائع أحاديثهم ثم أردفناها بأحاديث رويت عنهم تضاد الكتاب و السنه و العقل، و لا يسع المقام هنا لذكر شىء منها و قد طبع الكتاب و وزع فى بيروت، و لو لا المنع الموجود فى الجمارك السعوديه لأرسلنا إليكم نسخه منه عن طريق البريد لكى تقفوا على صدق ما عرضنا و يمكنكم مطالعته عبر موقعنا فى الانترنت على

ص: ٧٩١

١- ١). كما ورد فى الصفحه الرابعه من رسالتكم.

mth.xedni ivaban-la-htidah-la ١ bus koob gro.qedasmami.www

و أمّا الشيعة فليس عندهم كتاب صحيح من أوله إلى آخره سوى كتاب الله العزيز العذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما زاد و ما نقص.

و مع ذلك فقد وضع الشيعة ضوابط لتمييز الصحيح عن الزائف، و المقبول عن المردود، و هذه كتبهم فى الرجال و الدرايه و الحديث تملأ المكتبات.

و لكن مهما صحّ الحديث سنداً فأنما يؤخذ به فى الأحكام العمليه و الفروع الشرعيه، و أمّا العقائد فالمرجع فيها هو الكتاب و السنه المتواتره المفيده للقطع و اليقين و العقل الحصيف.

و هنا يفترق طريق السلفيه عن الشيعة، فإنّ الطائفه الأولى يعتبرون الخبر الواحد حجه فى العقائد و يستدلّون به، و أمّا الشيعة فلا يرون للخبر الواحد و إن صحّ أسناده دوراً فى مجال المعارف، لأنّ المطلوب فيها هو الاعتقاد و هو رهن أمور تنتج اليقين و تستوجه و الخبر الواحد-مهما صحّ-لا- يلائم اليقين بخلاف الأحكام العمليه فإنّ المطلوب فيها هو العمل و هو أمر ممكن مع عدم الإذعان بمطابقتها للواقع.

لقد جرت عاده مشايخكم-زادهم الله شرفاً و عزاً و علماً و تقى-على الاحتجاج بروايات الآحاد الصحاح فى أكثر الساحات، فصار ذلك سبباً لدخول أمور منكره فى الشريعه المقدسه، نظير:

١.نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا.

٢.الشؤم فى المرأه.

ص: ٧٩٢

٣. بول النبي قائماً.

٤. سلطان إبليس على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حال صلاته.

٥. طواف النبي على نسائه التسع في ليله واحده.

٦. وضع الرب رجله في نار جهنم ليملاها مع أنه سبحانه وعد بإملائها من الجنة والناس لا يادخال الرجل.

٧. أنه سبحانه ليس بأعور.

إلى غير ذلك من أمور لا يقيم لها وزناً من له أدنى إلمام بالمعارف الإسلاميه الساميه.

و إن أردتم الاطلاع على عقائد الشيعة الإماميه في مختلف المجالات فيامكانكم الرجوع إلى كتابنا «العقيدة الإسلاميه على ضوء مدرسه أهل البيت»، و الذي اتبعنا فيه منهجاً شفافاً موجزاً، و تستطيعون مطالعته من خلال موقعنا في الانترنت على الرابط:

www.qedasmami.gro.koob-la-hebihga-xedni.mth

إن كاتب هذه السطور مستعد للقائكم في أي مكان تريدون من غير فرق بين المدنيه المنوره أو مكه المشرفه، لنجرى الحوار حول عقائد الشيعة التي اتفقت عليها فطاحل علمائهم و عظمائهم.

و أمّا الأمر الثاني: أعنى الاستدلال بما رواه محمد باقر البهودي -حفظه الله - بأن الزنادقه قاموا بوضع روايات مكذوبه على الأئمه... الخ.

فهو من أخطاء الشيخ البهودي، فلو صحت القضية و قلنا بحجيه قول الفاسق أو الكافر كابن أبي العوجاء فهو إنما دسّ في كتب حماد بن سلمه الذي كان ربيباً له، لا في كتب الشيعة فأين هو من كتب الشيعة؟!

ص: ٧٩٣

و إن شئت توضيحاً أكثر، نقول:

روى المرتضى فى أماليه أنّه لما قبض على عبد الكريم بن أبى العوجاء، محمد بن سليمان و هو والى الكوفه من قبل المنصور و احضره للقتل، و أيقن بمفارقة الحياه قال: «لئن قتلتمونى فقد وضعت فى أحاديثكم أربعه آلاف حديث مكذوبه مصنوعه». (١)

و هنا نكتتان نلفت نظركم السامى إليهما:

١. أ فيصح الاستدلال بقول الفاسق فضلاً عن الكافر، و من المعلوم أنّ الإنسان الآيس من الحياه المحكوم عليه بالقتل و الصلب يطول لسانه و يأتى بالعث و السمين و يثير غضب الحاكم من دون أن يكون ملتزماً بصدق مقاله و قد قيل:

إذا يئس الإنسان طال لسانه كسّور مغلوب يصول على الكلب

٢. لو صحّ ما نقله المرتضى فإنّما أراد القائل الدسّ فى حديث أهل السنّه، و قد صرح بذلك ابن الجوزى فى كتاب «الموضوعات» أنّ ابن أبى العوجاء كان ريبياً لحماذ بن سلمه المتوفى عام (١٦٧ أو ١٦٩هـ) و قد دسّ فى كتب حماد (الموضوعات: ٣٧ طبع المدينه المنوره). كما نص على ذلك الذهبى فى ميزانه (ج ١، ص ٥٩٠-٥٩٥) و ابن حجر فى تهذيبه (ج ٣، ص ١١-١٦).

و الجميع ينصّون على أنّ الرجل قد دسّ ما دسّ فى كتب من رباه الذى كان من محدّثى السنّه، و أين ذلك من الدسّ فى كتب الشيعه.

ما هكذا تورّد يا سعد الإبل.

ص: ٧٩٤

١-١). أمالى السيد المرتضى: ١/١٢٨.

كان في كلامكم إلماعاً إلى الشك و التردد في نسبة نهج البلاغه كلاً إلى أمير المؤمنين علي (رضى الله عنه و ارضاه) قلت في رسالتكم:.... و الصنعه الأدبيه ظاهره على أبوابه و محتوياته، فيمكن لكم المقارنه بين البلاغه العربيه في عهد النبوه و ما كان عليه أمير المؤمنين من فصاحه و بلاغه... و كتاب النهج و ما فيه من سجع متكلف، و غرائب في بعض الألفاظ و ما ساد في بلاغه القرن الرابع-زمن جامع الكتاب- و أقل ما يقال فيه أنه: زاد فيه، و أيضاً انقطاع السند بين جامعه و قائله و بين ذلك خرط القتاد. (١)

أقول: ما ذكرتم من التشكيك أمر قد سبقكم إليه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر المعروف بابن خلكان المولود في مدينه اربل عام ٦٠٨، فهو أول من أثار الشكوك في قلوب الباحثين بنسبته الكتاب إلى الشريف الرضى تأليفاً.

ثم جاء بعده الصفدى و هو من كتاب التراجم إلى أن انتقلت الشبه إلى الكتاب المعاصرين، و هم يدعون القول بأن الكتاب من صنع جامعه و تأليفه بأدله منها ما ذكرتم من ظهور الصنعه الأدبيه، و السجع المتكلف.

و قد تحدثنا عن ذلك في الحوار الأول معكم بالتفصيل في ص ١٤ - ٢٠ و ممّا قلناه هناك:

بأن الشريف الرضى ليس أول من جمع كتب الإمام و رسائله و كلماته، بل سبقه جمهور من الكتاب ذكرنا أسماءهم و كتبهم، و قد صدر عنها و عن غيرها

ص: ٧٩٥

الشريف الرضى. حتى أنّ الشريف الرضى قد ذكر مصادر بعض خطبه و رسائله و كلماته، و ترك ذكر مصادر الكثير و ما ذلك إلاّ لكون الشريف الرضى كان على ثقة بصحة سائر ما ذكره فلم يَرِ حاجه لذكر المصادر. و إنّما ذكر بعض المصادر فيما لم يكن على ثقة بصدوره. و أمامكم كلام الكاتب الكبير الرحاله المسعودى (المتوفى عام ٣٤٥هـ) قبل أن يولد الرضى مؤلف «مروج الذهب» يقول: و الذى حفظ الناس عن الإمام من خطبه فى سائر مقاماتهم هو أربعمائته و نيف و ثمانون خطبه يوردها على البدييه تداول الناس ذلك عنه قولاً و عملاً. (١)

و قد أشبعنا الكلام فى ذلك فى الحوار المذكور. و المظنون أنّه لم تتح الفرصه لكم لمطالعه الحوار الأوّل و عاقتكم عن ذلك كثره المشاغل، و قد أشرتكم إلى ذلك فى رسالتكم حيث قلت: «إني أكتب هذه الرساله على عجل و استسمحكم لكثره مشاغلي».

فلنرجع إلى ما ذكرتم من وسائل التشكيك: أعنى: ظهور الصنعه الأدبيه:

و هذا هو أحد الإشكالات الأربعة التى جمعها المحقق محمد محيى الدين المصرى الذى كتب مقدمه لشرح نهج البلاغه لمحمد عبده (المطبوع فى مصر) و قال: الثانى: أنّ فيه من السجع و النميق اللفظى و آثار الصنعه ما لم يعهده عصر على، و لا عرفه، و إنّما ذلك شىء طرأ على العربيه بعد العصر الجاهلى و صدر الإسلام، و افتتن به أدباء العصر العباسى و الشريف الرضى جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم و طريقتهم.

و قد أجاب هو عن هذا الإشكال فى ذات المقدمه قائلاً: و أمّا عن السبب الثانى فليس ما فى الكتاب كله سجعاً، و ما فيه من السجع فهو ممّا لم تدع إليه

ص: ٧٩٦

الصنعه، و لا اقتضاه الكلف بالمحسنات، و أكثره ممّا يأتي عفواً بلا كد خاطر و لا تجشم هول، و مثله في عبارات عصره واقع، و من عرف أنّ ابن أبي طالب كان حامى عرين الفصاحه و ابن بجدتها لم يعسر عليه التسليم. (١)

و نضع أمام الشيخ نموذجاً من السجع المتكلف الرائج في العصر العباسى حتّى يعلم أنّ ما جاء في نهج البلاغه نتج عفواً و بلا تكلف.

هذا هو الحريرى أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى صاحب «المقامات» المشهور، و تعمقه في الصناعه يغنيننا عن إيراد كثير من نشره و نظمه. فمن نشره قوله:

«فمذ اغبر العيش الأخضر، و ازور المحبوب الأصفر، اسودّ يومى الأبيض، و ابيض فؤادى الأشيب، حتّى رثى لى العدو الأزرق، فيا حبذا الموت الأحمر».

فيا شيخنا القاضى بالحق: قس هذا الكلام بقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى عدم الاغترار بالدنيا أعنى قوله: فإنّ الدنيا قد أدبرت، و آذنت بوداع، و إنّ الآخره قد أشرفت باطلاع، ألا و إنّ اليوم المضممار و غداً السباق، و السبقه الجنه، و الغايه النار، أ فلا تائب من خطيئته قبل منيته؟ (٢)

و كأن المشككين ينكرون على أصحاب المواهب أن يبتكروا و يجودوا بعبءاتهم الفذه، و أمير المؤمنين - كما أصفق الجميع - من العباقره الذين جاءوا فى زمن غير زمانهم، و يُيدعوا فلا بدّع أن يكون عطاؤه متميزاً فى النحو (و هو مؤسسسه) و البلاغه و الفقه و الكلام و التفسير و غيرها من المجالات.

و أنت ترى أنّ أرباب الأدب و اللغه و الفصاحه و البيان من لدن جمعه إلى

ص: ٧٩٧

١-١. نهج البلاغه شرح الإمام محمد عبده، قم المقدسه، ص «و».

٢-٢. نهج البلاغه، الخطبه: ٢٧. [١]

وقتنا الحاضر قد وقفوا مبهورين أمام سحر تلك الألوان و الصور التي أبدعتها ريشه أمير البيان و سيد البلغاء و هو ينظم تلك الفرائد.

و لا اعتقد أنّ أحداً ممن يحترم ذوقه و أدبه لا يعيش إلى تلك الأنوار التي تتلألأ بها تلك الفرائد، و يخضع لجلالها.

إنّ الشريف الرضى الجامع لنهج البلاغه، قد ألف كتاباً باسم «المجازات النبويه» و قد طبع غير مره، و الفرق بينه و بين «نهج البلاغه» هو أنّ الأوّل ألف باسم النبي الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم و الثانى ألف باسم تلميذه و ربيب القرآن، و لم يشك في الأوّل أى مشكك دون الثانى.

فما هو الوجه، و المؤلف واحد، و كلا التأليفين على غرار فارد.

و فى الختام أقدم اعتذارى عن الإسهاب فى الكلام، راجياً من سماحتكم الإعان فى هذه الرساله و ما تقدمها من الحوارين فإنّ الحقيقه بنت البحث.

و تقبلوا فائق احترامى و خالص سلامى لكم و لكافه الأخوه المؤمنين الذين من حولكم، و أرجو منكم الدعاء فى أيام شهر رمضان و لياليه المباركه، لخلاص المسلمين من الظلم و العدوان، و دسائس الكفار....

وفقكم الله

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم- مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

٣رمضان المبارك ١٤٢٥هـ

ص: ٧٩٨

أهدى إليّ سماحه الشيخ صالح الدرويش كتاب «الإمامه و النص» و كتب ما

هذا نصّه:

«إهداء للشيخ العلامة جعفر السبحاني - وفقه الله - آمل أن يتسع وقتكم للاطلاع عليه و دراسته بإنصاف و أسأله سبحانه و تعالى أن ينفعني و إياكم بما نسمع و نقرأ و يجعله حجه لنا يوم القيامة لا علينا، اللهم آمين.

و صلّى الله على نبينا محمد و آله و صحبه أجمعين».

القاضي بالمحكمة الكبرى بالقطيف

صالح بن عبد الله الدرويش

ص: ٧٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سماحه الأخ في الله الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

حفظه الله و رعاه

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

أرجو من الله سبحانه أن تكونوا في صلاح و فلاح و سرور و حبور، و في خدمه الدين الحنيف و إصلاح المجتمع.

جعلكم الله مصباحاً منيراً للدرب، و أخذ بيدكم إلى ما فيه رضا.

استلمت بيد التكریم و التبجيل قبل بضعه أيام (عاشر شوال المكرم) هديتكم، أعنى الكتاب الموسوم بـ «الإمامه و النص» و قلت: في نفسى هديه حلوه من بلاد التمور و الحلويات، و فتحت الغلاف فاستوقف نظرى إليه في بادئ الأمر خطكم الشريف و الذى جاء فيه: «إهداء للشيخ العلامة جعفر السبحانى -وفقه الله- آمل أن يتسع وقتكم للاطلاع عليه و دراسته بإنصاف...».

ثم لاحظت تقریظ الكتاب بقلم الشيخ سعد بن عبد الله الحمید حيث ابتدأ كلامه -بعد البسملة و الحمد- بقوله: فإن من الأمور التى يبغضها الله لأهل الإسلام الفرقة و الاختلاف كما قال سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» إلى أن قال: «و كل غيور على دين الله ينفر من

ص: ٨٠٠

الاختلاف و يكرهه و يسعى إلى درئه ما استطاع».

فتفألت بمستههل التقريظ و قلت في نفسى: إنَّ المقرِّظ من دعاه التقريب، و الكتاب المهدي في طريقه، ثمَّ سبرت فهرس الموضوعات فأخذتني الحيره بين التعبير الماضى للمقرِّظ و محتويات الكتاب، فأيقنت أنَّ المقرِّظ من رجال التفرقه و حماتها، و أنَّه اتَّخذ التعبير المذكور واجهه لدعمه موقف الكتاب، الذى يفرِّق و لا يجمع، و يشتت و لا يلم، و يؤجج نار الشحناء و العداة بين المسلمين، و لا يعمل على توطيد علائق الأخوه بينهم.

و ممَّا لفت انتباهى عند سبر فهرس الموضوعات عنوان «تعظيم الشيعة لليهود و النصرارى» فتحيّرت: كيف ينسب الكاتب إلى الشيعة تعظيم اليهود و النصرارى مع أنَّ إمام الشيعة و إمام المسلمين على بن أبى طالب عليه السلام هو الذى استأصل شأفه اليهود فى قلاعهم، و سقاهاهم كؤوس الذلِّ بسيفه و سنانه، و قتل أبطالهم، و فى مقدّماتهم مرحب الخبيرى مرتجزاً:

أنا الذى سمتنى أُمى حيدرہ ضرغام آجام و ليث قسوره

و قد كرمه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم عند ما بعثه لقتال الخيريين بقوله: «لأعطين الرايه غداً رجلاً يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله يفتح على يديه، كرار غير فرار»، و قد أطاح بقوله: «غير فرار» باللذنين أخذوا الرايه، من قبيل ثمَّ رجعا منهزمين، و اتُّهما بالجبن و الفرار.

ثمَّ عدتُ إلى متن الكتاب حتّى أقرأ ذلك الفصل عن كذب و أتعرّف على حقيقه هذه الدعوى، دعوى «تعظيم الشيعة لليهود و النصرارى» أو ليس رجال الشيعة هم الذين أخرجوا اليهود عن الوطن الإسلامى فى جنوب لبنان - صاغرين، و بذلك صاروا أسوه لأبطال فلسطين و قدوه لأبناء الحجارة و علموهم

بأنّ التحرّر من ذلّ العدوان الصهيوني لا يُكتب إلّا بالتضحيه و العمليات الاستشهاديه؟!!

كنت أفكر بهذا الموضوع، فقرأت ذلك الفصل فلم أجد فيه سوى أنّ جماعه من اليهود سألوا الإمام عليّاً عليه السلام عن مسائل فأجابهم و أقنعهم فأسلموا غبّ ذلك و قالوا: «أشهد أن لا إله الله و...»، و كانت نتيجة الإجابة هي رفضهم للديانته اليهوديه أو النصرانيه و دخولهم حظيره الإسلام.

شيخنا الجليل! أطال الله بقاءك هل أنّ هذه الروايات -سواء أ صحّت أم لم تصحّ -تدلّ على تعظيم الشيعة لليهود و النصرارى؟ أو أنّها تدلّ على سعه علم الوصىّ و إخضاعه لليهود و النصرارى بالبيان الرصين لقبول الإسلام و اللجوء إليه؟ و لا غرو في ذلك و هو عليه السلام باب علم النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم و أفضى الأُمّه، نطقت بذلك الآثار و الأخبار و احتفلت به المجمع و الكتب.

بالله عليك! لو كانت هذه الروايات و ارده في حقّ واحد من الصحابه أو أحد الشيخين، و كانت تشير إلى أنّ جماعه من اليهود أو النصرارى سألوا أبا بكر أو عمر عن مسائل فأجاب عنها بأجوبه انتهت إلى إسلام السائلين، هل كان الكاتب عندئذٍ يتهم أهل نحلته بتعظيم اليهود و النصرارى؟!!

قليلاً من الإنصاف! قليلاً من الوعي!

و قد قال الله سبحانه: «و لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى». ١

فلو صحّ ما ادّعه الكاتب من أنّ إسلام اليهود و النصرارى على ضوء بيان الوصى عليه السلام، دليل على تعظيم الشيعة لليهود و النصرارى، فالقرآن الكريم أوّل من

عَظْمَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. حَيْثُ وَصَفَ لَفِيْفًا مِنْهُم بِالْإِيْمَانِ غَبَّ سَمَاعِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ، قَالَ سَبْحَانَهُ: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُؤْمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». ١

قل لنا يا أيها الأخ في الله هل يصح لإنسان عاقل أن يتهم الذكر الحكيم بتعظيم اليهود و النصارى بحجه أنه يصفهم بقوله:

«وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». ٢

لقد فرق سبحانه و تعالى بين اليهود و النصارى و وصف الطائفة الثانية بأنهم أقرب مودّة إلى المؤمنين و قال: «وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ وَ رُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». ٣

إنّ القرآن الكريم يأمر المشركين بسؤال أهل الكتاب للتعرف على سمات الأنبياء و يقول: «وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». ٤

لا- شك أنّ لأهل الذكر مفهوماً واسعاً يعم الأخبار و الرهبان و غيرهم، و لكنهما بلا شك من مصاديق الآيه حسب سياقها، أ فيكون الأمر بسؤالهم تعظيماً

لا أدري و لا المنجم يدري و لا القزاء يدرون!

كعب الأخبار وعاء العلم!

و الحقيقة أنّ بعض الصحابه هم الذين عظموا اليهود و النصارى،-على وفق الضابطه التي ذكرها المؤلف-هذا هو كعب بن ماتع الحميري الذي قالوا في حقه:هو من أوعيه العلم و من كبار علماء أهل الكتاب،أسلم في زمن أبي بكر،و قدم من اليمن في خلافه عمر،فأخذ عنه الصحابه و غيرهم،و أخذ هو من الكتاب و السنّه عن الصحابه،و توفّي في خلافه عثمان،و روى عنه جماعه من التابعين،و له شيء في صحيح البخارى و غيره.

قال الذهبي:العلامة الحبر الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاه النبي صلى الله عليه و آله و سلم،و قدم المدينة من اليمن في أيام عمر،فجالس أصحاب محمد فكان يحدّثهم عن الكتب الإسرائيليّه و يحفظ عجائب.

إلى أن قال:حدّث عنه أبو هريره و معاويه و ابن عباس،و ذلك من قبيل روايه الصحابي عن التابعي و هو نادر عزيز،و حدّث عنه أيضاً أسلم مولى عمر و تبع الحميري ابن امرأه كعب.

و روى عنه عدّه من التابعين كعطاء بن يسار و غيره مرسلًا.

وقع له روايه في سنن أبي داود و الترمذى و النسائي. (1)

ص: ٨٠٤

١-١). سير أعلام النبلاء:٣/٤٨٩ و لاحظ تفسير ابن كثير:٣/٣٣٩ [١] سورة النمل حيث قال-بعد ما أورد طائفه من الأخبار في قصه ملكه سبأ مع سليمان-:و الأقرب في مثل هذه السياقات أنّها متلقاه عن أهل الكتاب،مما وجد في صحفهم كروايات كعب و وهب،سامحهما الله تعالى في ما نقلاه إلى هذه الأئمه،من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد و الغرائب و العجائب ممّا كان و ما لم يكن،و ممّا حرّف و بدّل و نسخ،و قد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحّ منه و أنفع و أوضح و أبلغ.

و ترى الذهبى فى كتابه «تذكره الحفاظ» يعرفه أيضاً بأنه من أوعيه العلم. (١)

و معنى ذلك أنّ الصحابه كانوا يعتقدون أنّه موئل العلم و الفضل، و لهذا السبب أخذ عنه الصحابه و غيرهم. و عندئذٍ نسال: إذا أخذ عنه الصحابه و غيرهم على أنّه من أوعيه العلم، فما هو ذاك الذى أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوى الإسرائيليات المحرفه و الكاذبه؟! فإنّه لم يكن عنده -على فرض كونه صادقاً - سوى تلك الأساطير و القصص الموهومه. فهل تسعد أمّه أخذت معالم دينها عن المحدث اليهودى، المتظاهر بالإسلام المعتمد على الكتب المحرفه بنص القرآن الكريم؟! و هذا، مع افتراض كونه صادقاً، أما إذا كان كاذباً فالخطب أفدح و أجل، و لا يقارن بشيء!!

و المطالع الكريم فى روايات كعب يقف على أنّه يركز على القول بأمرين:

التجسيم و الرؤيه، و قد اتّخذهما بعض أهل الحديث من الآثار الصحيحه، فبنوا عليهما العقائد الإسلاميه و كفّروا المخالف.

و العجب أنّ عثمان بن عفان ربما كان يستفتيه فى بعض الأمور، فقد سألته عن المال المجتمع المؤداه زكاته هل هو من الكنز أو لا؟ و صار ذلك سبباً للمشاجره بينه و بين أبى ذر و انتهى ذلك إلى تسيير أبى ذر الغفارى إلى الربذه. (٢)

و هب بن منبه ناشر الإسرائيليات

و ليس كعب الأحبار هو أوّل من أخذ عنه الصحابه، فقد ابتلى المسلمون بعد كعب الأحبار بكتابيّ آخر قد بلغ الغايه فى بثّ الإسرائيليات بين المسلمين

ص: ٨٠٥

١- ١). تذكره الحفاظ: ٥٢/١.

٢- ٢). مروج الذهب: ٣٤٩/٢ و غيره.

حول تاريخ الأنبياء و الأمم السالفه، و هو و هب بن منبه اليماني. قال الذهبي:

ولد في آخر خلافة عثمان، كثير النقل عن كتب الإسرائيليات، توفي سنة ١١٤هـ و قد ضعّفه الفلاس. (١)

و قال في تذكره الحفاظ: عالم أهل اليمن، ولد سنه أربع و ثلاثين و عنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك و بالغ، و حديثه في الصحيحين عن أخيه همام. (٢)

و ترجمه أبو نعيم في حليه الأولياء ترجمه مفصله استغرقت قرابه ستين صفحه، و بسط الكلام في نقل أقواله و كلماته القصار. (٣)

و قد خدع عقول الصحابه بأفانين المكر، حيث صار يعرف نفسه بأنه أعلم مّين قبله و ممن عاصره بقوله لبعض حضّار مجلسه: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، و كعب أعلم أهل زمانه، أ رأيت من جمع علمهما؟ يعني نفسه. (٤)

و قد تسنّم الرجل، منبر التحدّث عن الأنبياء و الأمم السالفه يوم كان نقل الحديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ممنوعاً و أخذ بمجامع القلوب فأخذ عنه من أخذ، و كانت نتيجة ذلك التحدّث، انتشار الإسرائيليات حول حياه الأنبياء في العواصم الإسلاميه، و قد دوّن ما ألقاه في مجلد واحد، أسماه في كشف الظنون «قصص الأبرار و قصص الأخيار». (٥)

و كم هناك من مستسلمه أهل الكتاب صاروا مصادر للقصص و التفسير

ص: ٨٠٦

١-١. ميزان الاعتدال: ٣٥٢/٤ - ٣٥٣.

٢-٢. تذكره الحفاظ: ١٠٠/١ - ١٠١.

٣-٣. حليه الأولياء: ٢٣/١ - ٨١.

٤-٤. تذكره الحفاظ: ١٠١/١.

٥-٥. كشف الظنون: ٢٢٣/٢، [١] مادة قصص.

كتميم بن أوس الدارى راويه الأساطير، وها هي الصحاح و السنن مليئه برواياتهم...و تذكر قصصهم.

فإذا صحَّ زعم الكاتب أنَّ إيمان أهل الكتاب-بعد ما أتم الإمام على عليه السلام، الحجج عليهم-دلل على تعظيمهم، فيمكن عكوف الصحابه و التابعين و من ثمَّ المحدثين على أبواب هؤلاء من أفضل الأدله على تعظيمهم.

لما ذا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ!؟

الأخبار المتواتره و نقد أسانيدھا

إنَّ الكاتب يصبُّ جهوده على تضعيف رواه الأحاديث المتواتره أو المتضافره كما فى الروايات الوارده حول آيتى الإكمال و البلاغ(ص ٥٦٣-٥٩٦، من نفس الكتاب).

فقد نقل فيه قرابه خمسين حديثاً و بذل جهوده لتضعيف أسانيد الروايات، ذاهلاً عن أنَّ الضابط فى الحديث المتواتر أو المتضافر هو «إخبار جماعه عن واقعه يفيد إخبارهم العلم» سواء أ كانوا ثقاه أم لا، و إذا ضم إلى هذه الروايات الهائله ما أخرجہ أهل السنّه حول نزول الآيتين يوم الغدير لتجلت الحقيقه بأجلى مظاهرها. و تكون دراسه سند الأحاديث أمراً زائداً.

المؤلف و أبجديه رجال الشيعة

و ممّا يثير العجب أنّ الرجل و هو بصدد تضعيف أحاديث الشيعة حول الإمامه أخذ ينقض و يبرم و هو لا يعرف مشاهير رجال الشيعة فضلاً عن غيرهم.

يقول حول روايه العلاء عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام: «و العلاء لم يصرح أحد بوثاقتہ و توثيق الخوئى له أنما لوروده فى اسناد كامل الزيارات» (لاحظ

ص: ٨٠٧

أقول: إنَّ العلاء بن رزين من مشاهير رواة الشيعة و هو راويه محمد بن مسلم الثقفي و قد ورد في أسانيد الكتب الأربعة بهذا العنوان، (٣٩٢) مورداً، يقول النجاشي: «روى عن أبي عبد الله، و صحب محمد بن مسلم و تفقه عليه و كان ثقةً وجهاً» (رجال النجاشي، رقم ٨٠٩)، و قال الشيخ الطوسي: «العلاء بن رزين القلاء، ثقة جليل القدر، له كتاب و هو أربع نسخ» (فهرس الشيخ، رقم ٥٠٠).

و السيد المحقق الخوئي نقل هذه الكلمات و ليس في كلامه أي إشارة إلى أن توثيقه لوروده في أسانيد كامل الزيارات و ان ورد في أسانيد، لكن وثاقته أوضح من الشمس، و أبين من الأمس، هذا هو معجم رجال الحديث لسيدنا الأستاذ الخوئي، لاحظ الجزء ١١ ص ١٦٧، رقم الترجمة ٧٧٦٣.

و العجب أنه أحال إلى الجزء ١٨٤/٥ من معجم رجال الحديث للسيد الخوئي، و لم نجد أي أثرٍ مما ذكره هناك!!

اعتذار

إليك-أيها الأخ- في الله-أرفع آيات الاعتذار عما جرى به قلمي و لم يكن إلا نفثه مصدور، تجلّت على هذه الصحائف، و ما دفعني إلى كتابتها سوى حبّ الإصحار بالحقيقة و استعتاب الشاغب لئلا ينظلي عليه أن ما نسجه حقائق راهنه. بل هو علبه السبّ و وعاء الشتم، يشبه علماء الشيعة-الذين خدموا الحضارة الإسلامية في مختلف الأصعدة-بالذباب الذي يتتبع مواضع الدم و الجروح!!... كبرت كلمه خرجت من فمه.

و قد تبين عندي طيله حياتي:

ص: ٨٠٨

إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا إِلَّا الْاِفْتِرَاءَ عَلَى الشَّيْعَةِ.

وَلِكُلِّ شَيْءٍ نَهَايَةٌ إِلَّا الْكُذْبَ عَلَى الشَّيْعَةِ.

و ليس فى العالم الإسلامى - فلسطين ترضح تحت العدوان الصهيونى - مشكله سوى مشكله الشيعة، و لذلك لم تنزل تدوير الردود و الاطروحات فى الجامعات حول نقد عقائد الشيعة.

«قُلْ كُلُّ مُتَّبِعٍ فَتَرْبُّصًا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ اهْتَدَى». ١

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسه

٢٣ شوال ١٤٢٥هـ

ص: ٨٠٩

طلب الشيخ صالح بتأليف كتاب يجمع الروايات الصحيحة عند الشيعة و جوابنا عن ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه الشيخ آية الله العظمى جعفر السبحاني وفقه الله

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

و بعد..

فقد وصلني كتابيكم الكريمين (١)الأول فيما يتعلق بالرد على رسالتي لكم، و مع كل أسف رأيت سماحتكم ترك صلب الموضوع و الفكرة التي طرحتها، و جعلتم محور رسالتكم للنقاش و الرد، و لست من أصحاب الجدل و استعراض القوى، و أسأل الله سبحانه و تعالى بأسمائه الحسنی و صفاته العلی أن يجعلني و إتيك من الناصرين لسنه نبيه الكريم السائرین علی خطاه، المتمسكين بسنته العاملين بهديه.

لذا تركت الرد حتى في بيان المغالطات العلمية التي وردت في رساله و منها زعمكم ظهور النفاق قبل غزوه بدر حيث إنكم ذكرتم قصه ابن أبي سلول

ص: ٨١٠

(١-١). كذا في أصل رساله بالبريد الالكتروني.

مستدلّين بها على وجود النفاق قبل بدر و الرجل فى ذلك الوقت معلناً كفره و لم يعلن الإسلام بعد، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم زاره ليدعوه للإسلام فلا نفاق قبل بدر لا من المهاجرين و لا من الأنصار!!!!

هذا على سبيل المثال فقط و لا أريد الإطالة فى مثل هذا لسابق ما ذكرت لكم أتى لست فى صدد الجدل و النقاش. و مع هذا أطلب من سماحتكم لكى تشعر بأهميه الفكره و الموضوع أطلب من سماحتكم أن تدلّنى على كتاب جمع أقوال أئمّه أو بعضهم اتفق الشيعة على صحتها و قطعوا بما فيها، لكى أقرأ فيها و يقرأ فيها غيرى من المثقفين الشيعة ليتعبد بها و كله ثقه فى صدورها عن الأئمّه عليهم السلام.

فأنت أعلم منى بالمكتبه الشيعيه و يكفى من مئات المجلدات مجلدين (1) أو مجلد فى جمع الصحيح المقطوع صدوره من الأئمّه عليهم سلام الله فيها الكلام الخاص المصفى و لعل الفكره وصلتكم و لا تحتاج إلى مزيد توضيح أو بيان.

و قد أعجبنى كلام سماحه آيه الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله وفقه الله عند زيارتى له خلال الصيف الماضى حينما ذكر أنّ طرح هذه الأفكار و مناقشتها من الضروره و الأهميه بمكان و يجب العمل عليها و إخراجها للواقع لترى النور فيتميز الحق من الباطل و الصحيح من السقيم و المتصل من المنقطع.

كما أشار جمع من الفضلاء من علماء الحوزه العلميه بأهميه هذا الموضوع و ضرورته، و أنّ الموقف السلبي من التراث و الجمود أمامه لا يخدم إلا أصحاب المصالح الشخصيه، و سماحتكم فيما سمعنا عنكم أنّكم من أبعد الناس عن هذه النظرة الجامده.

ص: ٨١١

و ما يدللك على بعد كبار المحققين و المراجع العلميه من تحقيق التراث عملياً مع دعوتهم إليه نظرياً ما تجده في كتب سماحه آيه الله العظمى السيد محمد الشيرازى فهو فى كتاباته و أطروحاته الفكرية يدعو بقوة إلى إعمال العقل و النظر فى التراث كما يدعو للتجديد، و إذا ما نظرت إلى مؤلفاته الفقيهيه و العقديه تجده يستدل بالروايات دون تمييز!!!

أمّا خطابكم الثانى المتعلق بالنص و الإمامه لمؤلفه فيصل نور فقد قمت بإيصال ملاحظاتكم إلى صاحب المصنف و هو من الشباب الجادين فى البحث و التحقيق، و عنده طموحات كبيره فى إخراج مجموعه من المصنفات حول الموضوع، و هذا يعد أول نتاجه العلمى و هو باكوره إنتاجه فى التصنيف، و ميزته وفقه الله الحرص على اتباع الحق و تواضعه فى قبول كل نقد و توجيه، و من خلال معرفتى به فأنه لا يضيره أن يعترف بالخطأ و الرجوع عنه هذا ما نحسبه و الله حسيبه و لا نزكى على الله أحداً.

و قد رد على كتابكم المحتوى على الملاحظات حول مؤلفه و التى تجدونها مرفقه مع رسالتى لكم و ليس لى من الأمر إلا أنى ناقل لكم منه و منه لكم وفقكم الله تعالى لمرضاته و أحسن لنا و لكم الختام.

أخوكم

صالح بن عبد الله الدرويش

ص: ٨١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الفضل و الفضيله و رمز الأدب و الأخلاق

الأخ في الله الشيخ صالح بن عبد الله الدرويش

- دامت معاليه و تواترت بيض أياديه -

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

نسأل الله لكم التوفيق في خدمه الدين و إصلاح المجتمع و لمّ الشعث و توحيد الكلمه....

وصلنى كتابكم الكريم مرفقاً برسالة من الشاب الجادّ في البحث و التحقيق - كما ذكرتم- فأشكر الله سبحانه على هذا التواصل و هذه العلاقات العلميه التى ستثمر فى نهايه الأمر، و إن كانت فى بدايتها مقترنه بالصعوبه.

أمرتم- و إليكم الأمر و النهى- ان أدلكم على كتاب يجمع أقوال الأئمه عليهم السلام أو بعضهم، اتفق الشيعة على صحه هذه الأقوال و قطعوا بما فيها لكى تقرأوا فيها... الخ.

أنار الله برهانكم؛ فقد اعتذرنا عن ذلك فى رسالتنا المؤرخه ٣ رمضان المبارك ١٤٢٤هـ، و كنا قد قلنا هناك أنه لا يوجد عند الشيعة كتاب اتفق علماؤهم على صحته من أوله إلى آخره، سوى القرآن الكريم.

و الضابطه عندهم هى:

ص: ٨١٣

إنَّ العقائد و المعارف لا يحتج فيها إلاَّ بخبر مفيد للعلم الجازم نظير: الخبر المتواتر أو الخبر الواحد المحفوف بالقرائن المفيدة للقطع و اليقين.

و أما الأحكام العمليه فيحتج فيها بهما و بالخبر الصحيح، و إن لم يفد العلم.

و وجه الفرق هو: إنَّ المطلوب في العقائد هو تحصيل اليقين، و هو رهن القسمين الأولين أو حكم العقل الحصيف.

بخلاف المطلوب في الأحكام فالمطلوب فيها هو العمل، ووفق حجه شرعيه، و الخبر الصحيح أحد الحجج الشرعيه.

و مع ذلك فقد بلغ فقهاء الشيعه النهايه في حقل الفقه فميزوا الصحيح عن غيره.

فهذا هو المحقق الشيخ حسن بن الشهيد الثاني (٩٥٩-١٠١١هـ) قد ألف كتابه «منتقى الجمان في الصحاح و الحسان».

كما ألف العلامة المجلسي (١٠٣٧-١١١٠هـ) كتابه «مرآه العقول» فميز فيه بين الروايات بالتقسيم الرباعي الموجود في علم الدرايه عند الشيعه من الصحيح و الموثق و الحسن و الضعيف، و كذلك تجد في سائر الكتب الفقهيه الإشاره عند الاستدلال بالروايه إلى صحه السند و ضعفه.

فإن كنتم تريدون قسم الصحيح و غيره في الفقه فهذا أمر ميسر، و إن أردتم القسم الصحيح فيما ورد حول العقائد فليس عندنا كتاب جامع لهذا الموضوع.

و مع ذلك كلّه فكاتب هذه السطور يفتخر بتلبيه طلباتكم في حقل العقائد و الأحكام و أدلتها من الكتاب و السنه المتواتره أو المحفوفه بالقرائن أو الخبر الصحيح....

إنَّ باب الحوار الذي فتحتموه باب نافع للأُمه الإسلاميه إذ به يرتفع

حجاب الجهل عن البصر و البصيره، و يقف المسلمون على ما عند الطوائف الأخرى من ثقافه و علم و أدب بشرط أن يكون هذا الحوار واجداً لشرائطه و أن يكون الهدف منه تحرى الواقع و كشف الحقيقه.

و بعين الحق أنّ أكثر الطوائف-بالنسبه إلى عقائد الإماميه-أميون لا يعرفون منها شيئاً، هذا هو القصيمي صاحب كتاب «الصراع بين الإسلام و الوثنيه» يصف شيعة آل البيت عليهم السلام بالوثنيه؛ و يأتي آخر فيقرض هذا الكتاب بشعره لا بشعوره قائلاً: فما للقوم دين أو حياءً و يكفيهم من الخزي «الصراع»

و من أعجب التهم-و ما عشت أراك الدهر عجباً-اتهم شيعة آل البيت عليهم السلام بمهزله «خان الأمين» مع أنّ هذا هو شعار اليهود بالنسبه للمسلمين لا شعار الشيعة.

فاليهود خذلهم الله هم القائلون بخان الأمين، و يعتقدون أنّ أمين الوحي نزل بالوحي إلى أولاد إسماعيل و كان مأموراً بحفظه في عقب إسحاق و يعقوب كما حكاه الرازي في تفسيره...انظر كيف حرّفوا الكلم!!

و لا- أزيدك بياناً سوى أنّي أذكر ما لاقيته عام ١٣٧٥هـ-عُقب وفاه الملك عبد العزيز بسنه-في مكّه المعظمه و كنا قد استأجرنا دار أحد المدرسين في الحرم الشريف و قد سألتني عند زيارته لنا في منزلنا، فقال: شيخنا السبحاني هل للشيعة تأليف؟ قلت في نفسي يا سبحان الله هذا هو مدرس الحرم الشريف و يعيش في أمّ القرى، و في كلّ سنه يزور الكعبه آلاف من الشيعة و وفود عديده منهم من أقطار الأرض كيف لا يعلم أنّ للشيعة جامعات و مكاتب و مدارس علميه و مؤلفات!!

عند ما أرجع إلى نفسي و أتذكر هذه الذكريات المره،فأنى أئمن الحوار الذى فتحتم بابه و ولجتم منه إلى فسيح العلم و المعرفه.

هذا ما يتعلّق برسالتكم،أمّا ما يرجع إلى رساله مؤلف كتاب«الإمامه و النص» فسنرفقها مع هذه الرساله إن شاء الله.

حفظكم الله من كلّ سوء و رعاكم و جعلكم مصباحاً منيراً للدرب و أخاً رءوفاً لى و أباً عطوفاً لعامه المسلمين.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانى

قم-مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

السبت رابع ذى الحجه الحرام عام ١٤٢٥هـ

ص:٨١٦

بعد أن وصلت رسالتنا في نقد كتاب «الإمامه و النص» إلى يد المؤلف عن

طريق العلامة الشيخ صالح الدرويش كتب المؤلف رساله مطوّله خرج فيها

عن موضوع الحوار

و تطرق إلى مواضيع لا صله لها بالمقام، و لذا نعتذر عن نشرها كامله و نكتفى بذكر ما له صله بموضوع الحوار، ضمن جوابنا عليه، و قد قام الشيخ صالح الدرويش مشكوراً بإرسال رساله المؤلف إلينا و كتب ما هذا لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحه آيه الله العظمى جعفر السبحاني وفقه الله

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

و بعد:

فتجدون برفقه مرفقين حول الإجابة على رسالتكم كما تجدون مرفقاً آخر حول ملاحظاتكم على كتاب الإمامه و النص نسأل المولى أن يوفقنا و إياكم للحق و السداد و دتم بخير و عافيه.

أخوكم

صالح بن عبد الله الدرويش

ص: ٨١٧

و قد أجبنا على ملاحظات المؤلف، و كان خطابنا في هذا الجواب موجهاً للشيخ صالح الدرويش باعتباره هو المرسل إلينا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الوجيه سماحه الشيخ صالح الدرويش حفظه الله

السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

تهنئه عطره، بمناسبة عيد الأضحى ذلك اليوم الذى جعله الله سبحانه عيداً للمسلمين.

نسأل الله لكم التوفيق لما يرضاه.

أرجو أن تصل رسالتى هذه إلى من تتعلق، و سماحتكم أعرف به منى.

أما بعد:

فقد وصلتني رسالته المفصله و المؤرخه ٢٣ شوال ١٤٢٥هـ، المرفقه مع رساله سماحه الشيخ صالح الدرويش حفظه الله تعالى.

و كانت الرساله جواباً عما ذكرتُ من المآخذ و الإشكالات على فصل واحد من كتابه المسمى بالإمامه و النصّ.

و ما قرأت من هذا الكتاب إلا ذلك الفصل و كلّ ما ذكرته يرجع إليه دون سائر الفصول و ذلك لأننى لم أوفق لقراءه غيره إلا عابراً.

ص: ٨١٨

وقبل أن أشير إلى الأمور و النكات التي ترفع الستار عمّا قلت، أذكره بضابطه كليه حول الحوار.

فالحوار المفيد عبارته عن التركيز على الموضوع المطروح و الاجتناب عمّا لا علاقة له بالموضوع، و إلا فيعود الحوار غير مفيد و لا ناجع و يشبه المحاضرات التي ينتقل المتكلم فيها من موضوع إلى موضوع و يصير الحوار مظهرًا للمثل السائر (الكلام يجر الكلام) و على ضوء تلك الضابطه في رسالتي السابقه أفتنا نظره إلى أمور:

١. وجود التناقض بين التقريظ و محتويات الكتاب

إنّ التقريظ يعرب عن أنّ المقرّظ يحمل هموم المسلمين و ينفر عن التفرقه، و يحبّ لَمّ الشعث و وحده الكلمه، و لكنّه في الوقت نفسه يقرض كتاباً يؤدّي إلى خلاف ذلك.

هذا هو الإشكال الذي أخذت على المقرّظ فقط. و ليس في رسالتي أيّ شيء ممّا نسبّه المؤلف إليّ، أعني «إظهاركم الحرص على التقريب» و «جمع كلمه المسلمين و نبذ الفرقة»....

و بعباره أوضح: إنّ مصب الإشكال هو وجود التناقض بين الأمرين، و الإشكال إمّا وارد أو غير وارد، فكان عليه بيان تلك النقطه لا توجيه الإشكال إلى الكاتب، فأنّه غير مطروح.

و أمّا وصفه كتبي بأنّها «ممّا يفرّق و لا يجمع» فهو ادّعاء على الغائب «و الغائب على حجّته» (الأصل المسلم في القضاء) لا يحكم عليه بشيء حتّى يحضر.

إنّ ما نقله من الروايات فى الفصل الخاص المعنون ب«تعظيم الشيعة لليهود و النصرارى» لا- يدلّ على ذلك العنوان، فالروايات أصحّت أم لم تصحّ إنّما تشير إلى سعه علم الإمام عليه السلام وقوه منطقته حتّى أسلّم فى ظل بيانه جماعه من اليهود و النصرارى كما أسلّم بيد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و بفضل رصانه منطقته، جموع من المشركين و غيرهم، فتأثير الدعوه و البيان من الإمام لا صلّه له بهذا العنوان.

إنّ فى وسع المحقّق، نقد هذه المرويات سنداً و مضموناً لكن ليس له ذلك الاستنتاج الخاطئ إلاّ إذا كان ذا رأى مسبق.

و لكنّه زعم أنّى أردت ان ارميه بالطعن فى أئمّه أهل البيت عليهم السلام.

و لكنّى لم أكن بصدد هذا الطعن، إذ من الواضحات أنّ أهل السنه من محبى أهل البيت عليهم السلام من غير حاجه إلى دليل و برهان.

و ما ذكرت حول مستسلمه أهل الكتاب نظراء «كعب الأخبار» فقد خفى عليه صلته بالمقام، فهؤلاء هم الكافرون حقاً و المظهرون للإسلام خداعاً لعقولنا، فقد لعبوا فى التاريخ و الحديث، فأدخلوا الإسرائيليات و المسيحيات، بل المجوسيات، فى الحديث و التاريخ إلى حدّ شوها كتبنا، و لذا قام غير واحد من الباحثين بإخراجها عن كتب الحديث.

فهذا ابن كثير قد أظهر أسفه من إدخال هذه الأكاذيب فى المصادر الإسلاميه، و مع ذلك فقد تضافر المدح من علماء الرجال فى حقّهم غافلين عن مقاصدهم الفاسده، فهل يصحّ أن نصف أهل السنّه بتعظيم اليهود!!

و ممّا الفت نظره إليه هو الخطأ في ترجمه العلاء بن رزين فقد سلّم بما ذكرت، و نعم ما فعل فالنسيان رفيق الإنسان، و المعصوم هو من عصمه الله سبحانه: «و ما أُبرئ نفسي».

٤. نقد الأخبار المتواتره

و ممّا ذكرتُ في رساله أنّ الروايات المتواتره المتضافره لا تخضع للنقد، و هذا أمر واضح لمن له أدنى إلمام بأصول الحديث و أحكامه، و لكنّه بدل تصديق الإشكال أو نقده؛ ذكره في جوابه (هل يرى الشيخ ذلك في روايات تحريف القرآن عن طرق الشيعة التي أورد الطبرسي منها في فصل الخطاب أكثر من ١١١٢ روايه).

و بما أنّ روايات التحريف وقعت ذريعه للإطاحه بالشيعة- و إن نادوا و صرخوا بملء أفواههم بالبراءه من هذه الوصمه، و أنّ رأى واحد من علمائهم ليس دليلاً- على رأى الطائفه و لا- يُعبّر عن موقفهم في المسأله- نلفت نظره إلى أنّ قسماً كبيراً من هذه الأحاديث- و أكثرها مراسيل- أخذت من تفاسير السنّه، و أمّا القسم الآخر فأكثره مأخوذ من كتب لا قيمه لها عند أهل العلم و الحديث، و هاك أسماء بعض هذه الكتب:

١. رساله مجهوله النسب نسبت إلى أناس؛ كسعد بن عبد الله الأشعري (المتوفى ٣٠١هـ) أو محمد بن إبراهيم النعماني (المتوفى ٣٦٠هـ) أو السيد المرتضى (المتوفى ٤٣٦هـ).

٢. كتاب القراءات لأحمد بن محمد السيارى (المتوفى ٢٦٨هـ) و هو ضعيف

الحديث، فاسد المذهب، مجفو الروايه، كثير المراسيل.

٣. تفسير أبي الجارود زياد بن المنذر السرحوب (المتوفى ١٥٠هـ)، والذي ورد لعنه على لسان الإمام الصادق عليه السلام.

٤. كتاب الاستغاثه لعلی بن أحمد الكوفي (المتوفى ٣٢٢هـ) الذي قال عنه النجاشي: غلا في آخر عمره و فسد مذهبه، و صنف كتباً كثيره أكثرها على الفساد.

٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، الذي هو ليس منه و إنما نسب إليه.

فإذا كانت الروايات الهائله منقوله من هذه الكتب و نظائرها فلا قيمه لها و لا يصدق عليها وصف التواتر للعلم بضعف المصدر و انتهاء الروايات إلى أناس لا عبره بكتبهم.

و نحن لا- نريد المقابله بالمثل فإنّ اتهام كل طائفه، الأخرى، بمعنى انعقاد الإجماع المركب من الطائفتين على تحريف القرآن و هو يتم لصالح الأعداء لا لصالح المسلمين، و لكن أريد أن أوقفه شخصياً بأنه لو كان وجود الروايات دليلاً على التحريف فليكن وجود روايات التحريف عند السنّه دليلاً على عقيدتهم بالتحريف، و إن كان في شك فليطالع الموارد الموجوده في هذه القائمه في المعاجم الحديثيه (الصحاح و السنن) و التفاسير لأهل السنّه.

١. آيه الرجم.

٢. آيه الرغبه.

٣. آيه الجهاد.

٤. آيه الفراش.

٥. القرآن (١٠٢٧٠٠٠) حرف.

٦. قد ذهب منه قرآن كثير.

ص: ٨٢٢

٧. ذهاب القرآن بذهاب حملته يوم اليمامة.

٨. زياده كانت فى مصحف عائشه.

٩. آيه الرضعات أكلها داجن البيت.

١٠. آيتان من سوره البينه.

١١. آيتان لم تكتبا فى المصحف.

١٢. سوره كانت تعادل براءه و أخرى تشبه المسبحات.

١٣. سوره الأحزاب كانت أطول من البقره.

١٤. دعاء القنوت.

و هكذا و دواليك.

و ائى أجل علماء السنه و فطاحلهم من القول بالتحريف.

و أما تفسير هذه الروايات الواردة فى كتب السنه بوفره عن طريق منسوخ التلاوه فهو مهزله، أشبه بمنطق الصبيان، إذ لسائل يسأل لما ذا نسخت؟ هل كان الإشكال فى المحتوى فالمفروض أن الحكم باق كآيه الرجم و غيرها، أو كان الإشكال فى التعبير و الركاه فى اللفظ فالمصيبه أعظم، و الله سبحانه مبدأ الكمال و الجمال، أجل من أن ينزل آيه فيها ركاه.

و كل من كتب حول عقيدته الشيعه- فى السعوديه- بعد قيام الثوره الإسلاميه فى إيران، استمات لإثبات أن «تحريف الكتاب العزيز من عقائد الشيعه، معتمداً فى ذلك على كتاب الشيخ النورى» و هؤلاء يرون القذى فى عين الغير، و لا يرون الجذع فى عيونهم، غافلين عن وجود أمثال هذا الكتاب فى كتب أهل نحلتهم.

و إن كنت فى شكّ ممّا ذكرت فاستمع إلى قول الشيخ محمد المدنى رضى الله

عنه عميد كليه الشريعه فى الأزهر الشريف يقول:

«و أمّا الإماميه فمعاذ الله أن يعتقدوا نقص القرآن، و إنّما هي روايات رُويت فى كتبهم كما رُوى مثلها فى كتبنا، و أهل التحقيق من الفريقين قد زيّفوها و بيّنوا بطلانها، و ليس فى الشيعة الإماميه أو الزيديه من يعتقد ذلك كما أنّه ليس فى السنّه من يعتقدّه.

و يستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب الإتقان للسيوطى ليرى فيه أمثال هذه الرّوايات الّتى نضرب عنها صفحاً.

و قد أُلّف أحد المصريين فى سنه ١٩٤٨م كتاباً اسمه «الفرقان» ملأه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمه المدخوله المرفوضه، ناقلاً- إيّاها عن الكتب و المصادر عند أهل السنّه، و قد طلب الأزهر من الحكومه مصادر هذا الكتاب بعد أن بيّن بالدليل و البحث العلمى أوجه البطلان و الفساد فيه، فاستجابت الحكومه لهذا الطلب و صادرت الكتاب، فرجع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضاً، فحكم القضاء الإدارى فى مجلس الدوله برفضها.

أيقال: إنّ أهل السنّه ينكرون قداسه القرآن؟ أو يعتقدون نقص القرآن لروايه رواها فلان؟ أو لكتاب أُلّفه فلان؟ فكذلك الشيعة الإماميه، إنّما هي روايات فى بعض كتبهم كالرّوايات الّتى فى بعض كتبنا...».

و مع أنّ الكتاب صودر، يوم ذاك، فقد انتشرت نسخه فى المكتبات.

و أمّا انتقاده كلامى بتعريف ابن تيميه بما نقلت فأحيل جوابه إلى كلام الحافظ ابن حجر الّذى يقول فى كتابه «الفتاوى الحديثيه»:

«ابن تيميه عبْدٌ خذله الله و أضلّه و أعماه و أصمّه، و بذلك صرّح الأئمه الذين بيّنوا فساد أحواله و كذب أقواله، و من أراد فعليه بمطالعه كلام الإمام

المجتهد المتفق على إمامته و جلالته و بلوغه مرتبه الاجتهاد أبو الحسن السبكي و ولده التاج و الشيخ الإمام العز بن جماعه و أهل عصرهم من الشافعيه و المالكيه و الحنفيه، و لم يقصر اعتراضه-ابن تيميه-على متأخرى الصوفيه بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب-رضى الله عنهما -.

و الحاصل: أنه لا يقام لكلامه وزن، يرمى في كلِّ وعرو و حزن، و يعتقد فيه أنه مبتدع ضالّ مضلّ غال عامله الله بعدله و أجارنا من مثل طريقته و عقيدته و فعله-آمين-». (١)

و كم للفطاحل من علماء السنّه كلمات تعرب عمّا ذكرنا و ليس المقام مناسباً لنقلها.

و نشير في الختام إلى أمرين:

١. كانت في رسالته إشارة إلى أنّ بعض ما تكتبه الشيعة ينطلق من باب التقية.

و هذه فكره خاطئه جداً، لأنّ التقية من الأمور الشخصيه و هي سلاح الضعيف أمام العدو الغاشم الذي صادر حريّاته فيتدرع بالتقيه فيظهر الموافقه، فإذا انتهت الظروف الحرجه فالرجل على حالته الأولى.

هذه هي التقية التي وردت في الكتاب و نص عليها أئمّه الفقه في غير واحد من الموارد.

فلو كانت التقية أمراً مرغوباً عنه، فالوزر على من حمل الشيعة عليها، فلو لم يصادر حريّاتهم، و لم يهدد حياتهم، لما رأيت أثراً من التقية في قاموس حياه الشيعة.

و أمّا تأليف كتاب على نسق التقية فهذا كذب و فريه، و عطف الباطنيه على

ص: ٨٢٥

الإماميه خطأ بعد خطأ، فالشيعة الإماميه بفضل الله تبارك و تعالی و بجهادهم العلمی لم یکتبوا کتاباً واحداً علی هذا المنوال.

فلو نص علماء الشيعة علی عدم التحریف فهو نابع من صمیم فکرمهم لا من باب التقیه، و هذه التهمه شنشنه أعرفها من کل من لم یعرف معنی التقیه و حدودها.

٢. إن التعرف علی وثاقه الشخص تاره یحصل من تقلید علماء الرجال كما هو الرائج بین الفريقین، و أخرى من جمع القرائن و الشواهد الحاکیه علی نفسه الشخص و وثاقته و ضبطه و مدى اهتمامه بالحديث و غیر ذلك.

فقد فتح ذلك الباب منذ أربعة قرون عدد من العلماء منهم:

١. الشيخ محمد الأردییلی مؤلف کتاب «جامع الرواه» المطبوع فی مجلدين ضخمین.

٢. السيد المحقق البروجردی أستاذنا الكبير البارع فی الفقه و الرجال، فقد أكمل ما بدأ به الرجالی الأردییلی بموسوعه كبيره.

و بذلك یعلم أنّ وثاقه المشایخ كإبراهیم بن هاشم الكوفی ثم القمی ثابتة من هذا الطریق و التفصیل فی محله.

و الطریق الثاني طریق اجتهادی و الأول طریق تقلیدی و لكل أهل.

و السلام علی عباد الله الصالحین و رحمه الله و بركاته

جعفر السبحانی

مؤسسه الإمام الصادق علیه السلام

قم المقدسه

العاشر من ذی الحجه الحرام عام ١٤٢٥هـ

ص: ٨٢٤



رساله أحد المحققين في مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

إلى سماحه الشيخ صالح الدرويش -حفظه الله تعالى-

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

أسعد الله أيامكم و متعكم بالصحه و العافيه و أطال عمركم في خدمه الإسلام و المسلمين.

نستميحكم العذر لما قد تقرأون في خطابنا هذا لكم ممّا يعكّر مزاجكم و يزعج خاطركم المبارك.

منذ أن وجدنا كتاب «الإمامه و النص» في أحد رفوف مكتبه مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام و وجدنا أنّكم قد أرسلتموه إلى سماحه شيخنا آيه الله جعفر السبحاني، خطر في بالنا أن نكتب لكم و نستفسر هل أنّ لكم علماً بموقع مؤلف هذا الكتاب على شبكه المعلومات العالميه (الانترنت) و الموقع هو www.roonf.moc

و لكن احترامنا لسماحه العلامة السبحاني و حبنا له و لكم و للعلاقه الأخويه التي عرفناها من خلال خطابات الشيخ لكم و عبارات الود التي تتبادلونها، كلّ هذا منعنا من الكتابه لكي لا نؤثر على الجو العلمى السائد على ما يتبادل من

حوار بين قم و القطيف و الذى نعلم يا خلاص نيّ الطرفين فيه.

لذا تخلينا عن فكره الكتابه حول هذا الموقع و الذى هو أحد مئات المواقع المنكره و المشينه و المسيئه للإسلام و أهله، و الذى يستخدمه أعداء الدين للاستشهاد به على سذاجه المسلمين و تفاهه أفكارهم و أساليبهم- كما يصورون لأتباعهم لعنهم الله- و هذا ما لمسناه من خلال تصفح المواقع اللادينية الكثيره، الذين يقولون: هؤلاء هم المسلمون كلّ يسقط الآخر و يتّهمه بأنه ليس على حق، فيخرجون بنتيجته أنّ الكل (الإسلام و المسلمون و بكافه طوائفهم) على باطل، و على العاقل عدم أتباعهم.

إنّ الانترنت يجب أن يستغل للدفاع عن الدين و تنوير الأذهان و نشر الحقيقه و الفضيله، و الذب عن المسلمين و علمائهم، و إزالة الشبهات و التحريف عن حقائق الإسلام الناصعه، كذلك يُنتظر من المشرفين على هذه المواقع أن يكرموا علماء الإسلام و يبرزون دورهم الإيجابى فى بناء الحضاره و الفكر و حتّ الشباب على التمسك بالأخلاق الإسلاميه و كسب المعارف الإسلاميه و الاعتقاد بالمعتقدات الحقه التى يدعمها الدليل القرآنى و النبوى و يسندها العقل الحصيف.

و نحن يا سماحه الشيخ العزيز قد تصفحنا نوافذ موقع الكاتب فيصل نور فلم نجد فيه شيئاً ممّا ذكرناه، بل- و للأسف الشديد- وجدنا العكس تماماً.

فهو يجمع كلّ شارده و وارده فيها تهجّم على الشيعة أو أحد علمائهم، و كلّ مقال أو أسطر فيها اعتداء أو سباب، أو رد لاذع أو نقد وقح، إلّا و وضعه فى طيّه مقالات موقعه. و لو أنّه قد اقتصر على تنزيل كتبه فى الموقع لكان الأمر هيناً، و لكن ما هو الهدف من نشر هذا الكم الهائل من مقالات نشرت هنا و هناك،

و الكثير منها كتب بإقلام حاقدته على الإسلام و طوائفه كلّها، و بأيدي من لا يروق لهم التفاف الشباب حول علماء الدين، أو لا يعلم فيصل نور بأنّ بعض الذين يكتبون في عدد المواقع السنيه ضد الشيعه هم أنفسهم الذين يكتبون في بعض المواقع الشيعيه ضد السنه، و يهدفون من عملهم الخئون هذا إيقاع الفرقه و تأجيج نار البغضاء و العداوه؟!

وجدنا كثيراً من المقالات قد استقاها من أحد المواقع الحاقده و السيئه الصيت و من يكتب فيه هم علمانيون لا تهمهم حرمة عالم و لا احترام حقيقه، فلما ذا هذا التعامى عن الحق، و اتباع الباطل؟ ما هي المصلحه في نشر أكاذيب و أباطيل في موقع تصرف عليه أموال طاهره طيبه؟! ما هي المصلحه من نشر هذه التّرهات التي جمعها عنوان «صور و حقائق و وثائق» ضمن نافذه «مع الشيعه الإماميه»، و التي تحمل ثمانية فصول أحدها حول المرجعيه الشيعيه-الوجه الآخر، و الآخر حول الشيعه و القرآن، و حول إيران، و حول العراق و صدام، و غير ذلك؟!

ما هو الهدف من نشر أحد المقالات التي وصف كاتبها سماحه العلّامه جعفر السبحاني بأنّه أحد دجاجله الروافض المسمّى جعفر السبحاني، و يكرر هذا اللفظ مره ثانيه فيقول: فيبدأ هذا الدجال كما هي عادتهم دائماً بالتباكي... [راجع مقال: الرد على السبحاني الذي طعن في فتوى ابن جبرين، كذلك انظر مقال: إمام العصر يرد على الرافضى صاحب كتاب السجود على التربه الحسينيه، فهو يشتمل على ألفاظ و قحه مماثله].

و ما هو الغرض من عرض قصائد شعريه (بالصوت) و هي مراثي الإمام الحسين عليه السلام و ادّعاء أنّها تحمل كفراً أو خروجاً عن الدين و هل أنّ المذهب الشيعي يعرف من خلال قصائد شعريه كتبت من قبل عوام الناس؟!

و هل انّ موقف الشيعة الإماميه من القرآن يتمثل في كتاب «فصل الخطاب» الذي خصّص صاحب الموقع صفحته كامله لعرض صور بعض صفحاته، لو كان يتبع الإنصاف و يريد أن يحق الحق لكان عليه أن يذكر رأى علماء الشيعة في هذا الكتاب و موقفهم من قضيه التحريف، هذا هو الحكم الصحيح لمن يريد أن يعطى انطباعاً صحيحاً عن عقيدته فرقه من الفرق و مذهب من المذاهب.

نحن نسأل ما هي الفائده التي يحصل عليها القارئ فيما لو قرأ هذه المقالات؟! و هل يظن صاحب الموقع أنّ الشيعي يترك مذهبه و يتسنّن بقرائه لهذه المقالات؟ أو أنّها تساعد السنّي في ترسيخ اعتقاده بعقيدته أكثر؟ كلا و لا.

و ما يهدف منّ يسعى لجمعها و إنزالها على صفحات الانترنت بهذا الشكل المبوب إلّا بث الفرقه و التناحر و بيان المثالب؟!!

و لو أراد أحدنا جمع أمثالها ممّا عند الطرف الآخر فأنّه سوف يجمع أضعاف مضاعفه لعدد هذه المقالات، و لكن تأنف نفوسنا أن نقابل السيئه بأمثالها، و نحن نعرض مذهبنا و من مصادره الصحيحه الواضحه، و نهدف لتعريف الناس عليه، وورد الشبهات عنه بالطرق الصحيحه و بالوسائل العلميه المؤدبه.

نرجو يا سماحه الشيخ تذكير صاحب هذا الموقع بهذه النقاط الأساسيه و نكون لكم شاكرين، و لا- يعتذر بأنّه يجمع هذه المقالات و هو لم يكتبها فإنّ من يجمعها و ينزلها في موقعه فهو مسئول عنها أيضاً.

و الحمد لله ربّ العالمين.

و السلام عليكم و رحمه الله و بركاته

أحد محققى مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

قم المقدسه

ص: ٨٣٠

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبحان
الغمامة

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩